

إهداء 2005

أ/إبراهيم منصور غنيه

القاهرة

قَصْرُ الْإِنْبِيَاءِ

المُسَمَّى

عَرَائِصُ الْمَجَالِسِ

تأليف

أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري

المعروف بالثعلبي

للتوفي سنة ٤٢٧ هجرية

دار الخفاء الكتب العربية

ميسى الباني الجليلي وشركاه

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ
(قرآن كرم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حق حمده والصلاة على محمد وآله .

قال الأستاذ أبو اسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي رحمه الله تعالى : هذا كتاب يشتمل
على قصص الأنبياء المذكورة في القرآن بالشرح والله المستعان وعليه التكلان .

باب في ذكر بعض وجوه الحكمة في تفصيله تعالى أخبار الماضين على سيد المرسلين

قال الله تعالى وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . قالت الحكماء : ان الله تعالى
قص على المصطفى ﷺ أخبار الماضين من الأنبياء والأمم الخالية لحسنة أمور أي حكم :

الحكمة الأولى منها : أنه اظهر لنبوته ﷺ ودلالة على رسالته وذلك أن النبي ﷺ كان أميا
لم يختلف الى مؤدب ولا الى معلم ولم يفارق وطنه بمدة يمكنه فيه الاقطلاع الى عالم يأخذ عنه علم
الأخبار ولم يعرف له طلب شيء من العلوم الى أن كان من أمره ما كان فزل عليه جبريل عليه السلام
ولقنه ذلك فأخذ يحدث الناس بأخبار ماضى من القرون وسير الأنبياء الماضين والملوك المتقدمين
فمن كان من قومه عاقلا موقفا صدق بما يوحى الله اليه واخبره إياه بذلك فأمن به وصدقه وكان
ذلك معجزة له ودليلا على صحة نبوته ومن كان منهم عدوا معاندا حسده وجحده وأنكر ما جاء به
وقال كما أخبر الله تعالى - وقالوا أساطير الأولين اكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا - . قال الله
تعالى تكذيبا لهم وتصديقا للنبي عليه السلام - قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض -

والحكمة الثانية : أنه انما قص عليه القصص ليكون له اسوة وقدوة بمكارم أخلاق الرسل
والأنبياء المتقدمين والأولياء والصالحين فيما أخبر الله تعالى عنهم وأثنى عليهم ولتنتهى أمته عن أمور
عوقبت أمم الأنبياء بمخالفتها عليها واستوجبوا من الله بذلك العذاب والعقاب فتمم الله له بذلك معالى
الأخلاق فلما امثل أمرا الله تعالى واستعمل أدب الأنبياء أثنى الله عليه فقال تعالى - وإنك لعلى خلق
عظيم - ولذلك قالت عائشة رضي الله تعالى عنها حين سئلت عن خلق رسول الله ﷺ كان خلقه القرآن .

والحكمة الثالثة : أنه انما قص عليه القصص تشبيها له وإعلاما بشرفه وشرف أمته وعلو أقدارهم وذلك أنه لما نظر إلى أخبار الأمم قبله علم أنه عوفي هو وأمته من كثير مما امتحن الله به الأنبياء والأولياء وخفف عنهم في الشرائع ورفع عنهم الأثقال والأغلال التي كانت على الأمم الماضية كما قال بعض التأولين في تفسير قوله تعالى - وأمبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة - ان النعمة الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة تضعيف الصنائع قال الله تعالى - يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر - وقال تعالى - وما جعل عليكم في الدين من حرج - وقال تعالى - يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا - فلما قص الله تعالى هذه القصص على نبيه رأى فضل نفسه وفضل أمته وعلم أن الله خصه هو وأمته بكرامات لم ينخص بها أحدا من الأنبياء والأمم فوصل قيام ليله بنهاره وصيامه بقيامه لا يفتقر عن عبادة ربه أداء لشكره حتى تورمت قدماء فقيل يا رسول الله أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا ثم افتخر عليه السلام فقال بعثت بالحنيفية السمحة .

والحكمة الرابعة : أنه انما قص الله تعالى عليه القصص تأديبا وتهذيبا لأمته وذلك أنه ذكر الأنبياء وثوابهم والأعداء وعقابهم ثم ذكر في غير موضع تحذيره إياهم عن صنع الأعداء وحثهم على صنع الأولياء فقال تعالى - لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين - وقال - لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب - وقال - وهدي وموعظة للمتقين - ونحوها من الآيات ، وكان الشبلي رحمه الله تعالى يقول في هذه الآيات اشتغل العام بذكر القصص واشتغل الخاص بالاعتبار من القصص .

والحكمة الخامسة : أنه قص عليه أخبار الأنبياء والأولياء الماضين إحياء لذكورهم وآثارهم ليكون المحسن منهم في ابقاء ذكره مثبتا له تعجيل جزاء في الدنيا حتى يبقى ذكره وآثاره الحسنة إلى قيام الساعة كما رغب خليل الله إبراهيم عليه السلام في ابقاء الثناء الحسن فقال - واجعل لي لسان صدق في الآخرين - والناس أحاديث يقال ما مات ميت والله ذكر يحياه وقال ما أنفق الملوك والأغنياء الأموال على المصانع والحصون والقصور إلا لبقاء الذكر . وأنشدنا ناصر بن محمد الروزي قال أنشدني الدردي :

وأنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

مجلس في صفة خلق الأرض

قال الله تعالى - الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء - الآية ونظائرها كثيرة في القرآن . واعلم أن الكلام في نعت خلق الأرض على سبعة أبواب

الباب الأول في بدء خلق الأرض وكيفيتها

روت الرواة بألفاظ مختلفة ومعان متفقة أن الله تعالى لما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق جوهرة خضراء أضعاف طباق السموات والأرض ثم نظر إليها نظر هيبة فصارت ماء ، ثم نظر إلى الماء فغلا وارتفع منه زبد ودخان وبخار وأرعد من خشية الله فمن ذلك اليوم يرعد إلى يوم القيامة وخلق

الله من ذلك الدخان السماء فذلك قوله تعالى - ثم استوى إلى السماء وهي دخان - أي قصد وعمد إلى خلق السماء وهي بخار وخلق من ذلك الزبد الأرض فأول مظهر من الأرض على وجه الماء مكة فدحا الله الأرض من تحتها فلذلك سميت أم القرى يعني أصلها وهي قوله تعالى - والأرض بعد ذلك دحاها - ولما خلق الله الأرض كانت طبقا واحدا ففتقها وصيرها سبعا وذلك قوله تعالى - أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما - ثم بعث الله تعالى من تحت العرش ملكا فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه، إحدى يديه في المشرق والأخرى في المغرب، باسطين قابضتين على قرار الأرضين السبع حتى ضبطها فلم يكن لتقديمه موضع قرار فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثورا له سبعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدمي الملك على سنامه فلم تستقر قدماه فأحدر الله ياقوته خضراء من أعلى درجة من الفردوس غلظها مسيرة خمسمائة عام فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض وهي كالחסكة تحت العرش ومنخر ذلك الثور في البحر فهو يتنفس كل يوم نفسا فاذا تنفس مد البحر وإذا رد نفسه جزر ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار فخلق الله تعالى صخرة خضراء غلظها سبع سموات وسبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه - يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله - الآية . روى أن لقمان لما قال له هذه الكلمة انفطرت من هيبتها مرارته ومات وكانت آخر موعظته ، فلم يكن للصخرة مستقر فخلق الله تعالى نونا وهو الحوت العظيم واسمه لوتيا وكنيته بلهوت ولقبه بهموت فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال قال والحوت على البحر والبحر على متن الريح والريح على القدرة وثقل الدنيا وما عليها حرفان من كتاب الله تعالى قال لها الجبار كوني فكانت فذلك قوله عز وجل - إنما أمرنا بشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون - ولذلك قال بعض حكماء الشعراء :

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك نقص منك في الدين

واسترزق الله مما في خزائنه فإن رزقك بين الكاف والنون

واستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال كعب الأحمري : ان إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض فوسوس إليه وقال له أتدري ما على ظهرك يا لوتيا من الأمم والدواب والشجر والجبال وغيرها لو نفضتها أو ألقيتهم عن ظهرك أجمع لكان ذلك أريح لك قال فهم لوتيا أن يفعل ذلك فبعث الله تعالى إليه دابة فدخلت في منخره فوصلت إلى دماغه ففج الحوت إلى الله تعالى منها فأذن الله تعالى لها فخرجت . قال كعب الأحمري فوالذي نفسي بيده انه لينظر إليها وتنظر إليه إنهم بشيء من ذلك عادت كما كانت وهذا الحوت الذي أقسم الله تعالى به فقال - ن والقلم وما يسطرون - ثم قالوا ان الأرض كانت تكفأ على الماء كما تكفأ السفينة على الماء فأرسلها الله تعالى بالجبال وذلك قوله تعالى - والجبال أرساها - وقوله تعالى - والجبال أوتادا - وقوله

تعالى - وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم - يعني لكيلا تتحرك بكم . قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : أول ما خلق الله الأرض عجت وقالت يارب تجعل عني بني آدم يعملون على الخطايا ويلقون على الحبائث فاضطربت فأرساها الله تعالى بالجبال فأقرها ، وخلق الله تعالى جبلا عظيما من زبرجدة خضراء خضرة السماء منه يقال له جبل قاف ، فأحاط بها كلها وهو الذي أقسم الله به فقال - ق - والقرآن المجيد - وقال وهب إن ذا القرنين أتى على جبل قاف فرأى حوله جبلا صغارا فقال له من أنت ؟ قال أنا قاف قال فأخبرني ما هذه الجبال التي حولك ، فقال هي عروقي فاذا أراد الله أن يزلزل أرضا أمرني فحركت عرقا من عروقي فترزل الأرض المتصلة به ، فقال يا قاف أخبرني بشيء من عظمة الله تعالى ، فقال إن شأن ربنا لعظيم تقصر عنه الصفات وتنقضي دونه الأوهام . قال فأخبرني بأدنى ما يوصف منها قال إن ورأى أرضا لمسيرة خمسمائة عام من جبال الثلج يحطم بعضها بعضا ، ومن وراء ذلك جبال من البرد مثلها لولا ذلك الثلج والبرد لاحتزقت الدنيا من حر جهنم . قال زدني ، فقال إن جبريل عليه السلام واقف بين يدي الله تعالى ترعد فرائصه فيخلق الله من كل رعدة مائة ألف ملك وهم صفوف بين يدي الله تعالى منكسور رؤوسهم لا يؤذن لهم في الكلام إلى يوم القيامة ، فاذا أذن الله تعالى لهم في الكلام قالوا لا إله إلا الله وهو قوله تعالى - يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا - يعني لا إله إلا الله . وروى يزيد بن هرون عن العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما خلق الله تعالى الأرض جعلت تميد ، فخلق الجبال وألقاها عليها فاستقامت ، فعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالت يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال ، ؟ قال نعم الحديد ، فقالت يارب هل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال نعم النار ، فقالت يارب هل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال نعم الماء ، فقالت يارب هل من خلقك شيء أشد من الماء ؟ قال نعم الريح ، فقالت يارب هل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال نعم الإنسان يتصدق يمينه فيخفيها عن شماله .

الباب الثاني في حدود الأرض ومساقها وأطباقها وسكانها

روى عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال : بين كل أرض إلى التي تليها مسيرة خمسمائة عام ، وهي سبعة أطباق : الأرض الأولى هذه فيها سكانها . والأرض الثانية مسكن الريح ومنها تخرج الرياح المختلفة كما قال تعالى - وتصريف الرياح - وفي الأرض الثالثة خلق وجوههم مثل وجوه بني آدم وأفواههم مثل أفواه الكلاب ، وأيديهم كأيد الإنس ، وأرجلهم كأرجل البقر ، وآذانهم كأذان العز ، وأشعارهم كأصواف الضأن لا يعصون الله طرفة عين ليس لهم أثواب ليلنا نهارهم ونهارهم ليلنا . والأرض الرابعة فيها حجارة الكبريت التي أعدها الله لأهل النار تسجر بها جهنم . قال النبي ﷺ : والذي نفسي بيده إن فيها لأودية من كبريت لو أرسلت فيها الجبال الرواسي لانماعت . قال وهب بن منبه هي مثل الكبريت الأحمر الصخرة منها مثل الجبل العظيم ، وهي التي قال الله تعالى فيها - وقودها

الناس والحجارة - . أخبرنا أبو بكر بن عبدوس بن المزني قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يونس المقرئ قال حدثنا محمد بن منصور قال حدثنا أحمد بن الليث قال حدثنا أبو حفص عمر بن حفص القشيري قال حدثنا علي بن الحسين قال سمعت منصور بن عمار يقول بينما أنا أردت الحج إذ دفعت إلى الكوفة ليلاً ، وكانت ليلة مدلهمة فاتفردت من أصحابي ثم دنوت إلى زقاق باب دار ، فسمعت بكاء رجل وهو يقول في بكائه ، : إلهي وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك ولكني عصيتك إذ عصيتك بجهلي ، وخالفتك إذ خالفتك لشقوتي فالآن من عذابك من ينقذني وبجبل من أتصل إذا انقطع حبلك عني واذنوباء واغوثاء يا الله . قال منصور فأبكاني والله ، فوضعت فمي على شق الباب وقلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم - بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة الآية - قال فسمعت عند ذلك اضطراباً شديداً ثم خمد الصوت ، فوضعت حجراً على الباب لأعرف الموضع فلما أصبحت غدوت إليه فاذا بكفان أصلحت وعجوز تدخل الدار باكية وتخرج باكية ، فقلت لها يا هذه ما هذا البيت لك ، فقالت إليك عني يا عبد الله لا تجدد علي أحزاني فقلت إنني أريد هذا لوجه الله الكريم لعلك تستودعيني دعوة فاني منصور بن عمار واعظ أهل العراق ، قالت يا منصور هذا ولدي قلت فما كانت صفته ؟ قالت كان من آل رسول الله ﷺ يكتسب ما يكتسب فيجعله أثلاثاً ثلاثاً وثلاثاً للمساكين وثلاثاً يفطر عليه وكان يصوم النهار ويقوم الليل حتى إذا كان آخر ليلة أخذ في بكائه وتضرعه فمر رجل في هذه الليلة وتلا آية من كتاب الله تعالى ، فلم يزل حبيبي يضطرب حتى أصبح وقد فارق الدنيا رحمه الله تعالى . وقال منصور بن عمار : دخلت يوماً خربة فوجدت شاباً يصلي صلاة الخائفين فقلت لنفسي إن لهذا الفتي لشأناً عظيماً لعله من أولياء الله تعالى ، فوقفت حتى فرغ من صلاته فلما سلم سلمت عليه فرد علي ، فقلت له ألم تعلم أن في جهنم وادياً يسمى لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى ، فشمق شهقة وخر مغشياً عليه فلما أفاق قال زدني فقلت - يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة - الآية فخر ميتاً ، فلما كشفت ثيابه عن صدره رأيت عليه مكتوباً بقلم القدرة - فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية - فلما كانت الليلة الثانية نمت فرأيت في المنام جالساً على سرير وعلى رأسه تاج ، فقلت له ما فعل الله بك فقال آتاني ثواب أهل بدر وزادني ، فقلت له لم ؟ قال لأنهم قتلوا بسيف الكفار وأنا قتلت بسيف الملك الجبار . والأرض الخامسة فيها عقارب أهل النار كأمثال البغال لها أذنان كأمثال الرماح لكل ذنب منها ثلاثمائة وستون فقاراً في كل فقار ثلاثمائة وستون فرقاً من السم في كل فرق منها ثلاثمائة وستون قلة من سم لو وضعت قلة من ذلك السم في وسط الأرض لمات جميع أهل الدنيا من نتنه وفسد منه كل شيء ، وفيها أيضاً حيات أهل النار كأمثال الأودية لكل حية منها ثمانية عشر ألف ناب كل ناب منها كالنخلة الطويلة في أصل كل ناب ثمانية عشر ألف قلة من السم لو أمر الله حية منها أن تضرب بناب من أنيابها أعظم جبل في الأرض لهدته حتى يعود ربما ، وانها لتلقى الكافر فتقسمه فتقطع مفاصله . والأرض السادسة فيها دواوين أهل النار وأعمالهم وأرواحهم

الحبيشة واسمها سجين قال الله تعالى - كلا إن كتاب الفجار لفي سجين - . والأرض السابعة جعلها الله مسكنا لإبليس وجنوده ، وفيها عشه في أحد جانبيه سموم وفي الآخر زمهرير وقد احتوشته جنوده من المردة وعتاة الجن ومنها يث سراياه وجنوده ، فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة لبني آدم . وروى سلمة بن كهيل عن أبي الزرقاء عن عبد الله قال : الجنة اليوم في السماء السابعة فإذا كان غد جعلها الله حيث يشاء ، والنار اليوم في الأرض السفلى فإذا كان غد جعلها الله حيث يشاء . وأما بعد قعر الأرض فكافيك به حديث قارون حيث خسف الله به الأرض وبداره وبأمواله ، ففي الخبر أنه يخسف به كل يوم مقدار قامة فلا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة ، وقال النبي عليه الصلاة والسلام : بينا رجل يتبختر في برديه وينظر في عطفه وقد أعجبته نفسه بخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

الباب الثالث في ذكر الأيام التي خلق الله تعالى فيها الأرض

قال الله تعالى - قل أأنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين الآية - قال أبو اسحق قال شبك يدي أبو بكر محمد بن أحمد القطان قال شبك يدي أحمد بن الحسين بن شاذان قال شبك يدي إبراهيم ابن يحيى قال شبك يدي صفوان بن سليم قال شبك يدي أيوب بن خالد الأنصاري قال شبك يدي عبد الله ابن أبي رافع قال شبك يدي أبو هريرة قال شبك يدي أبو القاسم محمد عليه السلام فقال : خلق الله الأرض يوم السبت والجمعة والأحد والأشجار يوم الاثنين والظلمات يوم الثلاثاء والنور يوم الأربعاء والدواب يوم الخميس وآدم يوم الجمعة :

الباب الرابع في ذكر أسماؤها وألقابها

قال وهب بن منبه : الأولى من الأرض تسمى أديما ، والثانية بسيطا ، والثالثة ثقيلًا ، والرابعة بطيحا ، والخامسة متثاقلة ، والسادسة ماسكة ، والسابعة ثرى . (وأما أسماؤها المذكورة في القرآن) فهي سبعة أيضا : سماها الله فراشا ، فقال - الذي جعل لكم الأرض فراشا - ، وسماها قرارا ، فقال - أم من جعل الأرض قرارا - وسماها رتقا فقال - أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا - وسماها بساطا فقال - والله جعل لكم الأرض بساطا - وسماها مهدا فقال - ألم نجعل الأرض مهدا - وسماها ذات الصدع فقال - والأرض ذات الصدع - يعني بالنبات وسماها كفاتا فقال - ألم نجعل الأرض كفاتا - قال خالد بن سعيد كنت أمشي مع الشعبي بظهر الكوفة فنظر إلى بيوت الكوفة فقال هذه كفات الأحياء ، ثم نظر إلى المقبرة فقال هذه كفات الأموات .

ويحكى أن عبد الله بن طاهر لما قدم نيسابور صحبه من أولاد المجوس شاب متطرب يدعى تحقيق الكلام وأظهر مسألة تحريق الأنفس بالنار ، وكان يزعم أن الجسد كثيف منتن في حال الحياة ، فإذا مات فلاحكة في دفنه والتسبب إلى زيادة نتنه وأن الواجب إحراقه وإذراء رماده ، فقليل لبعض الفقهاء أن الناس قد افتتنوا بمقالة هذا المجوسى ، فكتب الفقيه إلى عبد الله بن طاهر أن اجمع بيننا وبين هذا المجوسى

لنسمع منه فاجتمعوا عند عبد الله ، فلما تكلم المجوسى بمقالته تلك قال له الفقيه أخبرنا عن صبي تدعيه أمه وحاضنته أيهما أولى به ، فقال له الأم ، فقال إن هذه الأرض هي الأم منها خلق الخلق فهي أولى بأولادها أن يردوا إليها ، فأخيم المجوسى وأنشد في معناه لأمية بن أبي الصلت :

والأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد

وسئل يحيى بن معاذ الرازى أن ابن آدم يدري أن الدنيا ليست بدار قرار فلم يطمئن إليها . قال لأنه منها خلق فهي أمه وفيها نشأ فهي عشه ومنها رزق فهي عيشه وإليها يعود فهي كفاته وهي محرر الصالحين إلى الجنة

الباب الخامس في ذكر ما زين الله به الأرض

وهي سبعة أشياء : الأزمنة وزين الأزمنة بأربعة أشهر قال الله تعالى - إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، فالأربعة الأشهر الحرم منها ثلاثة سرد وواحد فرد فالثلاثة السرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم والفرد رجب ، والأمكنة وزينها بأربعة أشياء : مكة والمدينة وبيت المقدس ومسجد العشاء ، وزينها أيضا بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وزين الأنبياء بأربعة إبراهيم الخليل وموسى الكليم وعيسى الوجيه ومحمد الحبيب صلوات الله عليهم أجمعين ، وهم أهل الكتب وأصحاب الشرائع وأولو العزم ، وزينها أيضا بآل محمد ﷺ ، وزينهم أيضا بأربعة علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم .

وروى يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الفجر فلما انقضى من الصلاة أقبل علينا بوجهه الكريم فقال يا معاشر المسلمين من افتقد الشمس فليستمسك بالقمر ومن افتقد القمر فليستمسك بالزهرة ومن افتقد الزهرة فليستمسك بالفرقدين فليلبس رسول الله ما الشمس وما القمر وما الزهرة وما الفرقدان ؟ فقال أنا الشمس وعلي القمر وفاطمة الزهرة والحسن والحسين الفرقدان في كتاب الله تعالى لا يفترقان حتى يردا على الحوض وزينها أيضا بالصحابة وزينهم أيضا بأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المرضيون رضي الله عنهم أجمعين .

وروى عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال : لا يجتمع حب هؤلاء الأربعة إلا في قلب مؤمن قال أنس قد اجتمع حبهم في قلبي والحمد لله ، وزينها أيضا بالمؤمنين ، وزينهم بأربعة العلماء والقراء والغزاة والعباد ، وزينها أيضا بأنواع الحيوانات والنباتات والجمادات .

الباب السادس في عاقبتها وما آلتها وآخر حالها

اعلم أن الله تعالى وعدا بسبعة أشياء : أحدها التبديل وهو قوله تعالى - يوم تبدل الأرض غير الأرض - وفي الخبر يؤتى بأرض بيضاء من فضة كالخبز النقي الحواري لم يعص الله عليها قط طرفة عين ولا وصم فيها ولا قصم مستوية كالصلب المهند . والثاني الزلزلة قال الله تعالى - إذا زلزلت الأرض

زلزالها - الآية وقال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل وتظهر الفتن ويكثر الهرج ، قيل وما الهرج يا رسول الله ؟ قال القتل ، فإذا أكلت أمتي الربا كانت الزلزلة ، وإذا جاروا في الحكم اجتراء عليهم العدو ، وإذا ظهرت الفاحشة كان الوباء والموت ، وإذا منعوا الزكاة قحطوا ولولا الهائم لم يعطروا وفي الحديث أن الأرض تزلزلت على عهد عمر رضي الله عنه ، فأخذ بعضا من منبر رسول الله ﷺ وقال : يا أهل المدينة إنكم رجفتم ، وإن الرجفة من كثرة الربا والزنا ونقصان الثمر من قلة الصدقة وإنكم أحدثتم أشياء حتى أعجبتكم فهل أنتم منتهون أو يفر عمر من بين أظهركم . والثالث البروز قال الله تعالى - وترى الأرض بارزة - يعني لفصل القضاء . والرابع الرج قال الله تعالى - إذا رجفت الأرض رجا - قال المفسرون كما يرج الصبي في المهد حتى ينكسر كل شيء عليها فارقا من ربها . والخامس الرجف قال تعالى - يوم ترجف الأرض والجبال - والسادس المدح حتى تتخلى وتلقى ما في بطنها قال تعالى - وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت - والسابع الدك قال تعالى - إذا دكت الأرض دكا دكا - وقال تعالى - فدكتا دكة واحدة - ويحكى أن الربيع بن خثيم كان إذا قرأ هذه الآية أخذ بجملته ذراعيه ويقول يا حماء ويا دماء أين أنتم ؟ .

الباب السابع في وجوه الأرض المذكورة في القرآن

وهي سبعة أولها مكة خاصة قال الله تعالى في الرعد والأنبياء - أولم يروا أنا أنات الأرض تنقصها من أطرافها - يعني أرض مكة . والوجه الثاني أرض المدينة قال الله تعالى - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - يعني أرض المدينة وقال تعالى - إن أرضي واسعة - وقال تعالى - وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها - . والثالث أرض الشام وذلك قوله تعالى - ادخلوا الأرض المقدسة - الآية يعني بلاد الشام وقال تعالى - ونجيناه ولو طأ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين - والوجه الرابع أرض مصر قال تعالى - وكذلك مكنا ليوسف في الأرض - أي أرض مصر . وقوله تعالى - اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم - وقوله - فلن أبرح الأرض - أي أرض مصر وقوله تعالى - إن فرعون علا في الأرض - وقال تعالى - ويستخلفكم في الأرض - أي أرض مصر . والخامس أرض المشرق فذلك قوله تعالى - إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض - والسادس الأرضون كلها وذلك قوله تعالى - وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها - وقوله تعالى - وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أُمم أمثالكم - يعني بالأمم في التصاوير أمثالكم في التسخير وقال تعالى - ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام - وقال تعالى - الذي جعل لكم الأرض فراشا - والسابع أرض الجنة فذلك قوله تعالى - ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون - وقوله تعالى - وأورثنا الأرض تتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين .

مجلس في ذكر خلق السموات وما يتصل به

وترتيب الكلام في هذا المجلس أيضا على سبعة أبواب، لقول وهب بن منبه : كادت الأشياء أن تكون سبعة فالسموات سبع والأرضون سبع والجبال سبع والبحار سبع وعمر الدنيا سبعة آلاف والأيام سبعة والكواكب سبعة وهي السيارة والطواف بالبيت سبعة أشواط والسعي بين الصفا والمروة سبعة ورمى الجمار سبعة وأبواب جهنم سبعة ودركاتها سبعة وامتحان يوسف عليه السلام سبع سنين قال تعالى - فلبث في السجن بضع سنين - وإيتاؤه ملك مصر سبع سنين - وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان - وكرامة الله تعالى للمصطفى ﷺ سبع قال الله تعالى - ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم - والقرآن سبعة أسباع ، وتركيب ابن آدم على سبعة أعضاء وخلق من سبعة أشياء قال الله تعالى - ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين إلى قوله - فبارك الله أحسن الخالقين - ورزق الإنسان وغذاؤه من سبعة أشياء . قال الله تعالى - فلينظر الإنسان إلى طعامه - إلى قوله - متاعاً لكم ولأنعامكم - وأمر بالسجود على سبعة أعضاء .

الباب الأول في بدء خلق السموات

يروي في الأخبار المشهورة المأثورة أن الله سبحانه وتعالى لما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق جوهرة مثل السموات السبع والأرضين السبع ثم نظر إليها نظرة هيبية فصارت ماء ثم نظر إلى الماء فغلي وارتفع وعلام زبد ودخان فخلق من الزبد الأرض ومن الدخان السماء وذلك قوله تعالى - ثم استوى إلى السماء وهي دخان - أي قصد ثم فتقها بعد أن كانت طبقة واحدة فصيرها سبع سموات قال الله تعالى - أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناها -

الباب الثاني في جواهرها وأجناسها

قال الربيع بن أنس سماء الدنيا موج مكفوف . والثانية من صخرة . والثالثة من حديد . والرابعة من نحاس . والخامسة من فضة . والسادسة من ذهب . والسابعة من ياقوتة بيضاء

الباب الثالث في هيئتها وحدودها

قال الله تعالى - ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق - قال ابن عباس رحمه الله تعالى خلق الله السموات مثل القباب فسماء الدنيا قدشدت أقطارها بالثانية والثانية بالثالثة وكذلك إلى السابعة والسابعة بالعرش فذلك قوله تعالى - بغير عمد ترونها - وعمادها من فوقها . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يتفكرون فقال فيم أتم تفكرون ؟ قالوا نتفكر في الخالق فقال لهم : تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فانه لا يحيط به الفكرة تفكروا في أن الله خلق السموات سبعة

والأرضين سبعا وتحت كل أرض خمسمائة عام وبين السماء والأرض خمسمائة عام وتحت كل سماء خمسمائة عام وما بين كل سماء من خمسمائة عام وفي السماء السابعة بحر عمقه مثل ذلك كله وفيه ملك قائم لا يجاوز الماء كعبه .

الباب الرابع في أسمائها وألقابها

قال وهب بن منبه أولها سماء الدنيا ديناح والثانية ديقا والثالثة رقيع والرابعة فيلون والخامسة طفطاف والسادسة سمساق والسابعة اسحاقائل . وأما أسماؤها المذكورة في القرآن فسبعة أولها البناء قال الله تعالى — والسماء بناء — والسقف قال الله تعالى — وجعلنا السماء سقفا محفوظا — والطرائق قال الله تعالى — وجعلنا فوقكم سبع طرائق — والطباق قال الله تعالى — الذي خلق سبع سموات طباقا — والشداد قال الله تعالى — وبنينا فوقكم سبع شدادا — والرتق والفتق قال الله تعالى — كاتر ارتقا ففتقناها — والدخان قال الله تعالى — ثم استوى إلى السماء وهي دخان — .

وروى أن الملائكة قالت يارب لو أن السماء والأرض حين أمرتهما عصياك ما كنت صانعا لهما ؟ قال كنت آمر دابة من دوابي فتبتلعهما قالت يارب فأين تلك الدابة ؟ قال في مرج من مروجي قالت يارب فأين ذلك المرج قال في علم من علومى قالت الملائكة سبحان ذى البسط القوى . وقد ورد عن الضحاك بن مزاحم الهلالى حديث غريب حسن جامع لما تقدم من الأبواب في صفة السموات وحدودها وهيئتها وما فيها وأهلها وسكانها وأسمائها وألقابها وهو ما أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين العدل حدثنا محمد بن جعفر ، قال أخبرنا الحسن بن علوية قال حدثنا إسماعيل بن عيسى قال حدثنا إسحاق بن بشر عن جوير عن الضحاك ومقاتل قالا : خلق الله عز وجل سماء الدنيا وزينها وهي ماء ودخان وغلظها مسيرة خمسمائة عام وبينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة عام ولونها كلون الحديد المجلى واسمها برقيعا وبينها وبين السماء الثانية مسيرة خمسمائة عام وفيها ملائكة خلقوا من نار وريح وعليهم ملك يقال له الرعد وهو ملك موكل بالسحاب والمطر يقول سبحان ذى الملك والملكوت ، وخلق السماء الثانية على لون النحاس وغلظها مسيرة خمسمائة عام وبينها وبين السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام وفيها ملائكة على ألوان شتى صفوف لو قيست شعرة بين مناكبهم لما اتقاست رافعون أصواتهم يقولون سبحان ذى العزة والجبروت واسمها قيدوم وخلق الله فيها ملكا يقال له حبيب نصفه من نار ونصفه من ثلج وبينهم ارتق فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفى النار وهو يقول يا من ألف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك ، ومنها إلى السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام ولون السماء الثالثة كلون الشبة وغلظها مسيرة خمسمائة عام واسمها الماعون وفيها ملائكة ذوو أجنحة الملك منهم له جناحان وله أربعة أجنحة وله ستة أجنحة ووجوه شتى رافعون أصواتهم بالتسبيح يقولون سبحان الحى الذى لا يموت أبدا صفوف قيام كأنهم بنيان مرصوص لو قيست شعرة بين مناكبهم ما اتقاست لا يعرف أحد منهم لون صاحبه من خشية الله تعالى ، وخلق الله السماء الرابعة وبينها وبين السماء

الثالثة مسيرة خمسمائة عام وغلظها خمسمائة عام ولونها كلون الفضة البيضاء واسمها فيلون وفيها ملائكة يضعفون على ملائكة السماء الثالثة . وكذلك أهل كل سماء أكثر عددا من السماء التي تليها إلى الضعف ، وفي السماء الرابعة ملائكة لا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، وهم كل يوم في زيادة وذلك قوله تعالى - وما يعلم جنود ربك إلا هو - قال وهم قيام وركوع وسجود على ألوان شتى من العبادة يبعث الله تعالى الملك منهم في أمر من أموره فينطلق الملك ثم ينصرف فلا يعرف صاحبه الذي إلى جانبه من شدة العبادة وهم يقولون سبح قدوس ربنا الرحمن الذي لا إله إلا هو ، قال وخلق الله السماء الخامسة وغلظها مسيرة خمسمائة عام ولونها على لون الذهب واسمها الاحقوق ومنها إلى السماء السادسة مسيرة خمسمائة عام وفيها ملائكة يضعفون على ملائكة الأربع سموات وهم ركوع وسجود لم يرفعوا أبصارهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة قالوا ربنا لم نعبدك حق عبادتك وخلق الله السماء السادسة وغلظها مسيرة خمسمائة عام ومنها إلى السماء السابعة مسيرة خمسمائة عام وفيها جنود الله الأعظم الأكبر الكرويون لا يحصى عددهم إلا الله تعالى وعليهم ملك جنده سبعون ألف ملك وكل ملك منهم جنوده سبعون ألف ملك وهم الذين يبعثهم الله في أموره إلى أهل الدنيا رافعون أصواتهم بالتهليل والتسبيح واسمها عاروس وهي من ياقوتة حمراء ، ثم خلق الله السماء السابعة وغلظها مسيرة خمسمائة عام فيها جنود الله تعالى من الملائكة وعليهم ملك وهو على سبعمائة ألف ملك كل ملك منهم له من الجنود مثل قطر السماء وتراب الثرى والسهل والرمل وعدد الحصى والورق وعدد كل خلق في سبع سموات وسبع أرضين ويخلق الله سبحانه وتعالى في كل يوم ما يشاء واسمها الرقيع وهي من درة بيضاء ، ومن السماء السابعة إلى مكان يقال له مرهوثا مسيرة خمسمائة عام وعليه جنود الله من الملائكة وهم رؤساء الملائكة وهم أعظمهم سوى الروح وحمة العرش الملك منهم له وجوه شتى وأجنحة شتى وأنوار شتى في جسده لا يشبه بعضهم بعضا رافعون أصواتهم بالتهليل ينظرون إلى العرش لا يطفون لو أن الملك منهم نشر جناحه لطبق الدنيا بريشة من جناحه ولا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، ومن فوق ذلك غمامة غلظها كغلظ سبع سموات وسبع أرضين ، ومن السماء السابعة إليها كما بين سبع سموات وسبع أرضين ، والعرش فوق ذلك في عليين لا يعلم منتهاه إلا الله تعالى .

الباب الخامس في ذكر الأيام التي خلق الله الأشياء فيها

روى الرواة أن الله تعالى ابتداء خلق الأشياء يوم الأحد إلى يوم الخميس وخلق في يوم الخميس ثلاثة أشياء السموات والملائكة والجنة إلى ثلاث ساعات بقيت من يوم الجمعة فخلق في الساعة الأولى الأوقات والآجال ، وفي الثانية الأرزاق ، وفي الثالثة آدم عليه الصلاة والسلام وذلك قوله عز وجل - فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها - الآية .

الباب السادس في ذكر ما زين الله به السموات

وهي عشرة أشياء - الشمس : قال الله تعالى - وجعل الشمس سراجا - وقال تعالى - سراجا

وهاجا . والقمر قال الله تعالى - وجعل القمر فيهن نورا - والكواكب قال الله تعالى - إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب - وهي على ضربين منها معلق كتعليق القناديل في المساجد ومنها مركب كتركيب الفص في الخاتم وهي مع كثرتها مختلفة الصور ما خلق الله تعالى منها كوكبا على مثال كوكب . وفي بعض الأخبار : ما يكون من حيوان في الأرض ولا دابة تدب دون العرش إلا وفي خلقه الكواكب مثلها .

والعرش قال الله تعالى - رفيع الدرجات ذو العرش - . روى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال : في العرش تمثال جميع ما خلق الله تعالى في البر والبحر وقال هذاتأويل قوله تعالى - وإن من شيء إلا عندنا خزائنه - ، وإن ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية لحفقان الطير السريع ثمانين ألف عام ، والعرش يكسى كل يوم سبعين ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله تعالى ، والأشياء كلها في العرش كحلقة ملقاة في فلاة ، وإن لله ملكا يسمى حزقيائيل له ثمانية عشر ألف جناح ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام فخطر له خاطر هل يقدر أن ينظر إلى العرش فزاده الله تعالى في الأجنحة مثلها فكان له ستة وثلاثون ألف جناح ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام ثم أوحى الله تعالى إليه : أيها الملك طرفطار مقدار عشرين ألف سنة فلم يبلغ قائمة من قوائم العرش ثم ضاعف الله تعالى له في الأجنحة والقوة وأمره أن يطير فطار مقدار ثلاثين ألف سنة فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش فأوحى الله تعالى إليه أيها الملك لو طرت إلى أن ينفخ في الصور مع أجنحتك وقوتك ما تبلغ ساق عرشي فقال الملك سبحان ربّي الأعلى فأنزل الله سبحانه وتعالى - سبح اسم ربك الأعلى - فقال النبي ﷺ اجعلوها في سجودكم . وقال كعب الأخبار : لما خلق الله تعالى العرش قال لم يخلق الله تعالى شيئا أعظم مني فاهترط طوقه الله بحية لها سبعون ألف جناح في كل جناح سبعون ألف ريشة في كل ريشة سبعون ألف وجه في كل وجه سبعون ألف فم في كل فم سبعون ألف لسان يخرج من أفواهها كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر وورق الشجر وعدد الحصى والثرى وعدد أيام الدنيا والملائكة أجمع ، فالتفت الحية بالعرش فالعرش إلى نصف الحية وهي ملتوية به .

والكرسي قال الله تعالى - وسع كرسى السموات والأرض - وروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن رسول الله ﷺ أنه قال : الكرسي لؤلؤة طولها حيث لا يعلمه العالمون وقد جعل الله آية الكرسي أمانا لأهل الإيمان من شر الشيطان .

وروى اسمعيل بن مسلم عن أبي المتوكل الباجي عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنه كان معه مفتاح بيت الصدقة وكان فيه تمر فذهب يوما ففتح الباب فاذا التمر قد أخذ منه ملء الكف ثم دخل يوما آخر فاذا هو قد أخذ منه مثل ذلك ثم دخل يوما آخر فاذا هو قد أخذ منه مثل ذلك فذكر ذلك أبو هريرة رضي الله عنه للنبي ﷺ فقال له عليه الصلاة والسلام أيسرك أن تأخذه قال نعم قال إذا فتحت الباب فقل سبحان من سخر لك محمد فذهب ففتح الباب وقال ذلك فاذا هو قائم بين يديه فقال له يا عدو الله أنت صاحب الفعل قال

ثم قال لأعود ما كنت أخذت منه إلا لأهل بيت قراء من الجن فتركه ثم عاد فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال أيسرك أن تأخذه قال نعم قال فاذا فتحت الباب قفل مثل ذلك أيضا ففتح الباب وقال سبحان من سخر لك لحمد فاذا هو قائم بين يديه فقال له يا عدو الله أليس قد عاهدتني أن لا تعود فقال دعني هذه المرة فاني لأعود فتركه ثم عاد فأخذه الثالثة فقال أليس قد عاهدتني أن لا تعود لأدعك اليوم حتى أذهب بك الى النبي ﷺ فقال لا تفعل فانك ان تدعني علمتك كلمة اذا قلتها لم يقربك أحد من الجن لا صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى قال له لتفعلن ان تركتك قال نعم قال فما هي قال لا إله الا هو الحي القيوم حتى ختمها فتركه فذهب فلم يعد بعد ذلك فذكر ذلك أبوهريرة للنبي ﷺ فقال أما علمت يا أباهريرة هذه انه كذلك صدق الحديث . واللوح والقلم قال الله تعالى - وكل شيء أحصيناه في إمام مبين - وقال تعالى - ن والقلم وما يسطرون - وقال ابن عباس : انما خلق الله تعالى لوحا محفوظا من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء كتابته نور وقلمه نور عرضه كما بين السماء والارض ينظر الله تعالى فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة منها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويفعل ما يشاء فذلك قوله تعالى - كل يوم هو في شأن - .

ويروى أن أول ما خلق الله القلم فنظر اليه نظرة هيبة وكان طوله كما بين السماء والارض فانشق نصفين وقال اكتب فقال يارب وما أكتب ؟ قال اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ثم قال له اجر بما هو كائن الى يوم القيامة .

ويحكى أن ابن الزيات دخل على بعض الخلفاء فوجده منعموما فقال له روح عنى يا ابن الزيات فأنشأ يقول :

المهم فضل والقضاء غالب وكان ما خط في اللوح
فالتمس الروح وأسبابه أيأس ما كنت من الروح

والبيت المعمور : وروى الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ إن في سماء الدنيا بيتا يقال البيت المعمور بحيال الكعبة ، وان في السماء السابعة بحرا من نور يقال له الحيوان يدخل فيه جبريل عليه السلام كل غداة فينعمس فيه انعماسة ثم يخرج فينتفض انتفاضة فيخرج منه سبعون ألف قطرة من نور فيخلق الله تعالى من كل قطرة ملكا فيؤمنون أن يأتوا البيت المعمور فيصلون فيه فيأتونه فيدخلونه ويصلون فيه ثم يخرجون فلا يعودون اليه الى يوم القيامة .

وسدرة المنتهى . قال الله تعالى - عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى - . قال كعب وغيره دخل حديث بعضهم في بعض هي شجرة في السماء السابعة مما يلي الجنة أصلها ثابت في الجنة وعروقها تحت الكرسي وأغصانها تحت العرش اليها ينتهى علم الخلائق ، كل ورقة منها تظل أمة من الأمم يغشاها ملائكة كأنهم فراش من ذهب وعليها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ومقام جبريل عليه السلام وسطها والله أعلم .

والجنة قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل رسول الله ﷺ عن الجنة كيف هي ؟ قال : من

يدخل الجنة حتى لا يموت ومنعم لا يئأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه . قيل يا رسول الله كيف بناؤها ؟ قال : لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، ملاطها مسك أذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران .

وروى مجاهد عن مسروق عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ ان السماء أظت وحق لها تطع ليس منها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم أو قاعديذ كرا لله تعالى لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وخرجتم إلى الصحراء تبارون إلى الله تعالى .

الباب السابع في ذكر مآلها وآخر حالها

اعلم أن الله تعالى وعد السماء بسبعة أشياء : أحدها المور . قال الله تعالى - يوم تمور السماء مورا - يعني تدور كدوران الرحي من هول يوم القيامة . والثاني أخبر أنها تصير كالمهل فقال تعالى يوم نكون السماء كالمهل - يعني دردى الزيت . والثالث أخبر أنها تصير ورده كالدهان قال الله تعالى - فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان - . والرابع الانشقاق قال الله تعالى - إذا السماء انشقت - والخامس الانفطار قال الله تعالى - إذا السماء انفطرت ، والسماء منفطرية - والانفطار أكثر من الانشقاق . والسادس الانفراج قال الله تعالى - وإذا السماء فرجت - . والسابع الكشط قال الله تعالى - وإذا السماء كشطت - أي نزع من مكانها وطويت طيا قال الله تعالى - يوم نطوى السماء كطي السجل للكتب - الآية وأحسن الشاعر حيث قال :

إذا قيل من رب هذى السما فليس سواه له مضطرب
ولو قيل رب سوى ربنا لقال العباد جميعا ككذب

مجلس في ذكر خلق الشمس والقمر وصفة سيرهما وبدء أمرهما ومعادهما

وهو ما أخبرنا أبو سعيد محمد بن عبد الله بن حمدون الثقة الأمين بقراءتي عليه في صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة قال أخبرني أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسن الشرقى الحافظ قال حدثنا أبو الحسن أحمد بن يوسف السلمي قال حدثنا أبو عصمة يحيى بن أبي مریم الحراساني قال أنبأنا مقاتل عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال . بينما هو جالس ذات يوم من الأيام إذ أتاه رجل فقال يا ابن عباس اني سمعت العجب من كعب الأخبار يذكر في الشمس والقمر وكان ابن عباس متكئا فاحتفز ثم قال : وماذا قال ؟ قال زعم كعب الأخبار أنه يجاء بالشمس والقمر يوم القيامة كأنهما ثوران عقيران فيقذفان في النار . قال عكرمة فطارت من ابن عباس شظية ووقعت أخرى غضبا ثم قال كذب كعب الأخبار قالها ثلاثا بل هذه يهودية يريد ادخالها في الاسلام والله تعالى أكرم وأجل من أن يعذب أهل طاعته ألم تر إلى قوله تعالى - وسخر لكم الشمس والقمر دائبين - يعني دائبهما في طاعته فكيف يعذب عبيدين أثني عليهما أنهما دائبان في طاعته قاتل الله هذا الخبر وقبح حديثه ما أجرأه على الله وأعظم فريته على هذين

العبدین المطیعین لله تعالى ثم استرجع مرارا ثم أخذ عودا من الأرض فجعل ينكت به في الأرض وظل كذلك ما شاء الله ثم انه رفع رأسه ورمى بالعود وقال ألا أحدثكم بما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في الشمس والقمر وبدء خلقهما ومصير أمرهما قلنا بلى يرحمك الله تعالى فقال إن رسول الله ﷺ سئل عن ذلك فقال إن الله تعالى لما أتمن خلقه إحكاما ولم يبق إلا آدم خلق شمسین من نور عرشه فأما ما كان من سابق علم الله تعالى أن يدعها شمسا فانه خلقها مثل الدنيا من مشارقها ومغاربها وأما ما كان من سابق علم الله أن يطمسها ويحولها قمرًا فانه خلقها دون الشمس في العظم ولكن إنما يرى صغرهما من شدة ارتفاع السماء وبعدها عن الأرض فلو ترك الله تعالى الشمس كما كان في بدء الأمر لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل ولا يدرى الأجیر متى يعمل ولا متى يأخذ أجرته ولا يدرى الصائم إلى متى يصوم وإلى متى يفطر ولا تدرى المرأة كيف تعتد ولا يدرى المسلمون متى وقت صلاتهم ومتى وقت حجهم ولا يدرى المدينون متى يحل دينهم ولا يدرى الناس متى يزرعون ومتى يسكنون راحة لأبدانهم وكان الله أنظر لعباده وأرحم بهم فأرسل جبريل عليه السلام فأمر جناحه على وجه القمر وهو يومئذ مثل الشمس ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور فذلك قوله تعالى - وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة - فالسواد الذي في جوف القمر مثل الخطوط فيه إنما هو أثر المحو . ثم خلق الله تعالى الشمس من ضوء نوره ثم خلق الله تعالى للشمس عجلة فيها ثلثمائة وستون عروة ووكل بالشمس وعجلتها ثلثمائة وستين ملكا من الملائكة من أهل سماء الدنيا قد تعلق كل منهم بعروة من تلك العرى وخلق الله تعالى مشارق ومغارب في أقطار الأرض وكنتي السماء ثمانين ومائة عين في المشرق من طينة سوداء وثمانين ومائة عين في المغرب مثل ذلك من طينة سوداء يفور غليانها كغلي القدر إذا ما اشتد غليانها وذلك قوله تعالى - وجدها تغرب في عين حمئة - ومعنى حمئة سوداء من طين فكل يوم وليلة لها مطلع جديد ومغرب جديد ما بين أولها مطلعًا وأولها مغربًا أطول ما يكون النهار في الصيف وآخرها مطلعًا مشرقًا ومغربًا أقصر ما يكون النهار في الشتاء فذلك قوله تعالى - رب المشرقين ورب المغربين - يعني آخرها ههنا وأولها ههنا وترك ما بين ذلك من المشرق والمغرب ثم جمعها بعد ذلك فقال - رب المشرق والمغرب - فذلك عدة تلك العيون كلها ثم خلق الله تعالى بحرا دون سماء الدنيا بمقدار ثلاثة فراسخ فهو موج مكفوف قائم في الهواء بإذن الله تعالى لا يقطر منه قطرة والنجوم كلها ساكنة في ذلك البحر وهو جار في سرعة السهم وانطلاقه فهو في الهواء مستو كأنه جبل ممدود ما بين المشرق والمغرب وتجرى الشمس والقمر والخمس في سرعة دوران الرحي من أهوال يوم القيامة وزلازلها في ذلك البحر فذلك قوله تعالى - كل في فلك يسبحون - والفلك في دوران العجلة في لجة غمرة ماء ذلك البحر ، والذي نفس محمد بيده لو بدت الشمس من دون ذلك البحر لأحرقت كل شيء على وجه الأرض حتى الصخور والحجارة ولو بدا القمر من دون ذلك البحر لافقتن به أهل الأرض حتى يعبدونه من دون الله تعالى إلا ما شاء الله أن يعصمه من أوليائه وأهل طاعته . قال ابن عباس رضي الله عنه قال على

ابن أبي طالب رضى الله عنه بأبي أنت وأمي يارسول الله ذكرت مجرى الخنس مع الشمس والقمر وقد أقسم الله تعالى بالخنس في القرآن مثل ما كان ذكره اليوم فما الخنس فقال عليه السلام ياعلى هن الكواكب الخمسة البرجيس وهو المشتري وزحل وعطارد وهام والزهرة فهذه الكواكب الخمسة الطالعات الجاريات مع الشمس والقمر في الفلك . وأما سائر الكواكب فكلها معلقة في السماء كتعليق القناديل في المساجد وهي تدور مع السماء دورانا بالتسييح والتقديس والصلاة لله تعالى ثم قال النبي ﷺ « وإن أحببت أن تستبينوا ذلك فانظروا دوران الفلك مرة من ههنا ومرة من ههنا وإن لم تستبينوا الفلك فالجيرة وبياضها مرة من ههنا ومرة من ههنا فذلك دوران الشمس والقمر ودوران الكواكب معا كلها سوى هذه الخمسة ودورانها اليوم كما ترون فذلك صلاتها ودورانها يوم القيامة في سرعة دوران الرجا من أهوال يوم القيامة فذلك قوله تعالى - يوم تمور السماء مورا - يعنى تدور دورانا - وتسير الجبال سيرا - فاذا طلعت الشمس فانها تطلع من بعض تلك العيون على عجلتها ومعها ثلثمائة وستون ملكا ناشري أجنحتهم يجرونها في الفلك بالتسييح والتقديس لله تعالى على قدر ساعات النهار ، والقمر كذلك على قدر ساعات الليل ما بين الطول والقصر في الشتاء كان ذلك أو في الصيف أو ما بينهما من الخريف والربيع ، فاذا أحب الله أن يبتلى القمر والشمس ويرى العباد آية من الآيات يستعجبهم رجوعا عن معاصيه وإقبالا على طاعته تحركت الشمس عن العجلة وقال مرة خرت الشمس عن العجلة فتقع في غمر ماء ذلك البحر وهو الفلك ، فاذا أراد الله تعالى أن يعظم تلك الآية ليشتد خوف العباد وقعت الشمس كلها فلا يبقى على العجلة شيء منها ، فذلك حين يظلم النهار وتبدو النجوم وذلك هو المنتهى عند كسوفها ، فاذا أراد الله أن يجعل آية دون آية وقع النصف منها أو الثلث أو الثلثان في الماء ويبقى سائر ذلك على العجلة وهو كسوف دون كسوف ابتلاء الشمس والقمر وذلك تخويف للعباد واستعجاب من الله تعالى ، فأى ذلك كان صارت الملائكة الموكلة بعجلتها فرقتين : فرقة منهم يقبلون على الشمس فيجرونها نحو العجلة ، والفرقة الأخرى تقبل على العجلة فتجرها إلى الشمس ، وهم في ذلك يقودونها في الفلك على مقادير ساعات النهار أو ساعات الليل ليلا كان أو نهارا لكيلا يزيد في طولها شيء ، وقد ألهمهم الله تعالى علم ذلك وجعل لهم تلك القوة فالتى ترون من خروج الشمس والقمر بعد الكسوف قليلا قليلا من ذلك السواد الذى يعلوه فهو من غمر ماء ذلك البحر وهو خروجها من ذلك الماء ، فاذا أخرجوها كلها اجتمعت الملائكة كلها فاحتملوها حتى يضعوها على العجلة وذلك حين تنجلي للعالم حتى يحمداوا الله تعالى على ما قواهم لذلك ويتعلقون بعرى العجلة حتى يجروها بأذن الله تعالى في لجة ذلك البحر حتى اذا بلغوا بها المغرب أدخلوها من بعض تلك العيون فتسقط من أفق السماء في العين ، ثم قال ﷺ « عجيبت من خلق الله ، وما بين من القدرة فيما لم يخلق أعجب منه » . ومن ذلك قول جبريل عليه السلام لسارة - أتعجبين من أمر الله - وذلك أن الله تعالى خلق مدينتين إحداهما بالشرق والأخرى بالمغرب على كل مدينة

منهما عشرة آلاف باب ما بين كل باب الى الآخر مسيرة فرسخ ، فأهل المدينة التي بالشرق من بقايا عاد من نسل مؤمنهم الذين كانوا آمنوا بهود عليه السلام واسمها بالسريانية برقيشا وبالعبرانية جابلق ، واسم المدينة التي بالمغرب بالسريانية برجيسا وبالعبرانية جايرسانيوت ، على كل باب من هاتين المدينتين كل يوم عشرة آلاف رجل في الحراسة عليهم السلاح ومعهم الكراع لا تنوبهم تلك الحراسة بعد ذلك اليوم الى يوم ينفخ في الصور ، والذي نفس محمد بنده لولا كثرة هؤلاء القوم وضجيج أصواتهم لسمع أهل الدنيا وقع هذه الشمس حين تطلع وحين تغرب ، ومن ورأهم ثلاث أمم لا يعلم عددهم إلا الله تعالى وهم منشك وتارس وتاويل ، ومن ورأهم يأجوج ومأجوج وان جبريل عليه السلام انطلق بي اليهم ليلة أسرى بي الى السماء فدعوت يأجوج ومأجوج الى الله تعالى وإلى دينه وعبادته فأبوا أن يحبوني فهم في النار مع من عصى الله من ولد آدم وولد إبليس ، ثم انطلق بي الى هاتين المدينتين فدعوتهم إلى الله تعالى وإلى دينه وعبادته فأجابوا وأنا بوا فهم إخواننا في الدين من أحسن منهم فهم مع المحسنين ومن أساء فهم مع الشركين ، ثم انطلق بي الى الأمم الثلاث فدعوتهم الى دين الله وعبادته فأبوا على وكفروا بالله وكذبوا برسله فهم مع يأجوج ومأجوج وسائر من عصى الله تعالى في النار ، فاذا ما غربت الشمس رفع بها الى السماء السابعة في سرعة طيران الملائكة ، وتحبس تحت العرش فتستأذن من أين تؤمر بالطلوع من مغربها أم من مطلعها وتكسى ضوءا ، وان كان القمر فنورا على قدر ساعات الليل والنهار ثم ينطلق بها إلى ما بين السماء السابعة وما بين أسفل درجات الجنان في سرعة طيران الملائكة فتتحد رحال المشرق من سماء إلى سماء فاذا وصلت إلى هذه السماء فذلك حين ينفجر الفجر عن الصبح ، فاذا انحدرت من بعض تلك العيون فذلك حين يضيء الصبح ، فاذا وصلت إلى هذا الوجه من السماء فذلك حين يضيء النهار فتلك مطالعها ومغاربها ما بين أولها عينا إلى آخرها عينا في الطلوع والغروب فذلك تمام ستة أشهر ثم إذا رجعت كذلك من عين إلى عين في الطلوع والغروب إلى آخرها عينا فذلك تمام السنة ، فعدة أيامها ولياليها ثلثمائة وستون ليلة ، وخلق الله تعالى عند المشرق حجابا من الظلمة فوضعه على البحر السابع مقدار عدة الليالي في الدنيا مذكها الله تعالى إلى يوم تنصرف ، فاذا كان عند غروب الشمس أقبل ملك من الملائكة الذين قد وكلوا بالليل ، فيقبض قبضة من ظلمة ذلك الحجاب ثم يستقبل المغرب ، فلا تزال تلك الظلمة تخرج من خلال أصابعه قليلا قليلا وهو راعي الشفق ، فاذا غاب الشفق أرسل الظلمة جميعا ، ثم يشر جناحيه فيبلغان أقطار الأرض وكنفي السماء ، ويجاوزان ما شاء الله خارجا في الهواء ، فيسوق ظلمة الليل بجناحيه بالتسييح والتقديس حتى يبلغ المغرب على قدر ساعات الليل ، فاذا بلغ المغرب أسفر الصبح من المشرق فضم جناحيه ثم يضم الظلمة كلها بعضها إلى بعض فيقبضها بكفيه ثم يقبض عليها بكف واحد نحو قبضته التي تناولها من الحجاب بالمشرق ثم يضعها عند المغرب على البحر السابع ، فمن هناك ظلمة الليل إذا ما نقل ذلك الحجاب إلى المشرق وإلى المغرب ، فاذا نفخ في الصور انقضت أيام الدنيا فنور النهار من ضوء الشمس وظلمة الليل من قبل ذلك الحجاب ، فلا تزال الشمس والقمر كذلك من مطلعهما إلى مغربهما إلى ارتفاعهما إلى السماء السابعة

إلى محبسهما تحت العرش ، حتى يأتى الوقت الذى وقته الله تعالى لتوبة العباد ، وتكثر المعاصى فى الأرض ويذهب المعروف ولا يأمر به أحد ، ويفشو النكر فلا ينهى عنه أحد ، فإذا فعلوا ذلك حبست الشمس مقدار ليلة تحت العرش وكلما سجدت واستأذنت ربها من أين تطلع فلا يؤذن لها ولا يرد لها جواب حتى يوافيها القمر فيسجد معها ويستأذن من أين يطلع فلا يؤذن لها ولا يرد لها جواب ، حتى يحبس مقدار ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر ، فلا يعرف طول تلك الليلة إلا الله سبحانه فى الأرض وهم يومئذ عصابة قليلة فى الأرض فى كل بلد من بلاد المسلمين فى هوان بين الناس وذلة فى أنفسهم ، فينام أحدهم تلك الليلة مقدار ما كان ينام قبلها من الليل ثم يقوم فيتوضأ ويدخل مصلاه فيصلى ورده ولا يصبح نحوما كان يصبح كل ليلة قبل ذلك ، فينكر ذلك ويخرج فينظر إلى السماء فإذا هو بالليل مكانه والنجوم قد استدارت فى السماء وصارت فى أما كنها من أول الليل ، فينكر ذلك ويظن فيها الظنون ويقول : أخففت قراءتى أم قصرت صلاتى أم قمت قبل حينى ؟ قال ثم يقوم فيعود إلى مصلاه فيصلى نحو صلاته ثم ينظر فلا يرى الصبح ، فيخرج أيضا فإذا هو بالليل مكانه فيزيده ذلك إنكارا ويخالطه الخوف ويظن فى ذلك الظنون من السوء ، ثم يقول لعل قصرت صلاتى أو خففت قراءتى أو قمت فى أول الليل ، ثم يعود وهو وجل خائف مشفق لما يتوقع من هول تلك الليلة فيقوم فيصلى أيضا مثل ورده كل ليلة قبل ذلك ، ثم ينظر فلا يرى الصبح فيخرج الثالثة فينظر إلى السماء فإذا هو بالنجوم قد استدارت مع السماء فصارت فى أما كنها أول الليل ، فيشفق عند ذلك شفقة المؤمن العارف لما كان يحذر فيلحقه الخوف وتلحقه الندامة ، ثم ينادى بعضهم بعضا وهم قبل ذلك كانوا يتعارفون ويتواصلون ، فيجتمع المتعبدون من أهل كل بلدة فى تلك الليلة فى مسجد من مساجدهم يجأرون إلى الله تعالى بالبكاء والصراخ بقية تلك الليلة ، فإذا ماتم لهما مقدار ثلاث ليال أرسل الله تعالى جبريل عليه السلام إليهما فيقول لهما : إن الرب تعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغربكما فتطلعا منه إنه لا ضوء لكما عندنا ولا نور ، فيبكيان عند ذلك وجلال الله تعالى وخوف يوم القيامة بكاء يسمعه أهل السبع سموات ومن دونها ، وأهل سرادقات العرش ومن فوقها فيكون جميعا لبكائهما لما خالطهم من خوف الموت وخوف يوم القيامة ، فترجع الشمس والقمر فيطلعان من مغربهما . قال فبينما المتعبدون يكون ويتضرعون إلى الله تعالى والعافلون فى غفلتهم إذ نادى مناد ألا إن الشمس والقمر قد طلعا من مغربهما ، فينظر الناس فإذا هم بهما أسودان لا ضوء للشمس ولا نور للقمر مثلهما فى كسوفهما قبل ذلك فذلك قوله تعالى - وجمع الشمس والقمر - وقوله تعالى - إذا الشمس كورت - فيرتفعان كذلك مثل البعيرين القرنين ينازع كل واحد منهما صاحبه استباقا ، ويتصارخ أهل الدنيا وتذهل الأمهات عن أولادها والأحبة عن ثمرات فؤادها فتشتغل كل نفس بما كسبت ، فأما الصالحون والأبرار فانه ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب لهم ذلك عبادة ، وأما الفاسقون والفجار فلا ينفعهم ويكتب عليهم حسرة ، فإذا ما بلغ الشمس والقمر سررة السماء وهى منتصفها جاءها جبريل عليه السلام فيأخذ بقرونها ويردها إلى المغرب فلا يغربهما من مغربهما من تلك العيون

ولكن يغربهما من باب التوبة ، فقال عمر بأبي أنت وأمي يا رسول الله : وما باب التوبة ؟ فقال يا عمر : خلق الله تعالى بابا للتوبة خلف المغرب له مصراعان من ذهب مكلان بالدر والجوهر ما بين المصراع إلى المصراع أربعون سنة للراكب المسرع فذلك الباب مفتوح منذ خلق الله تعالى (١) إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغربهما ، ولم يتب عبد من عباد الله تعالى توبة نصوحا منذ خلق الدنيا إلى ذلك اليوم إلا ولجت تلك التوبة في ذلك الباب ، ثم ترفع إلى الله تعالى ، فقال معاذ بن جبل : بأبي أنت وأمي يا رسول الله وما التوبة النصوح ؟ قال أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر إلى الله تعالى ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع . قال فيغربهما جبريل عليه السلام من ذلك الباب ثم يرد المصراعين ، ثم يلتئم ما بينهما فيصير كأنه لم يكن فيما بينهما صدع قط ، وإذا أغلق باب التوبة لم يقبل للعبد بعد ذلك توبة ولا تنفعه حسنة يعملها في الإسلام إلا من كان قبل ذلك محسنا ، فانه يجري عليه ما كان يجري عليه قبل ذلك اليوم فذلك قوله تعالى - يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا - فقال أبي بن كعب : بأبي أنت وأمي يا رسول الله فكيف بالشمس والقمر بعد ذلك وكيف بالناس والدنيا ؟ فقال يا أبي : إن الشمس والقمر يكسيان النور والضوء بعد ذلك ثم يطلعان ويغربان كما كانا قبل ذلك ، وأما الناس فانهم مع ما رأوا من فظاعة تلك الآفة وعظمتها يلحون على الدنيا ويجرون فيها الأنهار ويغرسون فيها الأشجار ويننون فيها البنيان . وأما الدنيا فلو نتج للرجل منهم فيها مهر لم يركبه حتى تقوم الساعة من لدن طلوع الشمس من مغربها إلى أن ينفخ في الصور ، فقال حذيفة جعلني الله فداءك يا رسول الله فكيف بهم عند النفخ في الصور ؟ قال يا حذيفة والذي نفسي بيده لينفخن في الصور ولتقوم الساعة والرجل قد لاط حوضه فلا يشرع فيه الماء ، ولتقوم الساعة وقد أخذ بن لحيته من تحتها فلا يشربه ، ولتقوم الساعة والثوب بين الرجلين فلا ينشرانه ولا يطويانه ولا يبيعانه ولتقوم الساعة والرجل قد رفع لحيته إلى فيه فلا يطعمها ثم تلا هذه الآية - وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون - فإذا قامت الساعة قضى الله تعالى بين أهل الدارين وميز بين الفريقين أهل الجنة والنار ، وقبل أن يدخلوها يدعو الله تعالى بالشمس والقمر فيجاء بهما أسودين لا نور لهما مكدرين قد وقعا في الزلازل والبلايا وفرائصهما ترعد من هول يوم القيامة وهول ذلك اليوم ومن مخافة الرحمن تعالى ، فإذا كانا حذاء العرش خرا ساجدين لله تعالى ويقولان : يا إلهنا قد علمت طاعتنا لك وداؤنا في طاعتك وسرعتنا للمضي في أمرك أيام الدنيا فلا تعذبنا بعبادة الشركين إيانا فقد علمت أننا لن ندعوهم إلى عبادتنا ولم نذهل عن عبادتك ، فيقول الله تعالى صدقما إني قد قضيت على نفسي أن أبدى وأعيد إني أعيدكما إلى ما بدأتكما منه فارجعا إلى ما خلقتكما منه فيقولان ربنا من خلقنا ؟ فيقول خلقتكما من نور عرشي فارجعا إليه ، فيلمع من كل واحد منهما برقة تكاد تخطف الأبصار نورافي خلتان بنور العرش فذلك قوله تعالى -

(١) قوله منذ خلق الله تعالى الخ ، هكذا بالأصل ولعله الدنيا فليحرر اه مصححه .

بيدي ويعيد - قال عكرمة قمت مع النفر الذين حدثوا عن كعب ما حدثوا به من أمر الشمس والعمر حتى أتيناها فأخبرناه بغضب ابن عباس وما وجدته من حديثه ، وبما حدثنا عن رسول الله ﷺ فيهما مما بين مبدئيهما إلى معادهما ، فقال كعب الأحبار : إني حدثت عن كتاب دارس منسوخ قد تداولته الأيدي وابن عباس حدث عن كتاب حديث العهد بالرحمن جل جلاله ناسخ للكتب وعن سيد الأنبياء والمرسلين خير البشر ، ثم قام فمشى إلى ابن عباس فقال بلغني ما كان من وجدك من حديثي وما حدثت به من كتاب الله تعالى ومن سنة رسول الله ﷺ ألا وإنني أستغفر الله من ذلك مع أني لم أقوله من تلقاء نفسي ولكن حدثت عن كتاب دارس ، فلا أرى ما كان فيه من تبديل الكفار واليهود ، وأنت حدثت ما حدثت عن كتاب حديث العهد بالرحمن ناسخ للكتب وعن سيد المرسلين ، وأنا أحب أن تحدثني بما حدثت به أصحابك من حديث الشمس والقمر ، فأحفظ عنك الحديث ، فإذا حدثت بشيء من أمر الشمس والقمر فيما بعدهما اليوم كان هذا الحديث الذي تحدثني به مكان حديثي الأول ، قال عكرمة : فوالله لقد أعاد عليهِ ابن عباس الحديث وإني لأستقرئه في قلبي بابا بابا فما زاد شيئا ولا نقص شيئا ولا قدم ولا أخر فزادني ذلك في ابن عباس رغبة وللحديث حفظا والله أعلم .

مجلس في قصة آدم عليه الصلاة والسلام وهو يشتمل على أبواب كثيرة

الباب الأول في ذكر وجوه من الحكمة وخلق آدم عليه الصلاة والسلام

قال الحكماء خلق الله تعالى الخلق ليظهر وجوده ولولم يخلق لما عرف أنه موجود وليظهر كمال علمه وقدرته بظهور أفعاله المتقنة المحكمة لأنها لا تتأتى إلا من قادر حكيم وليعبد فانه يحب عبادة العابدين ويشيهم عليها على قدر فضله لا على قدر أفعالهم وان كان غنيا عن عبادة خلقه لا تزيد في ملكه طاعة الباطنيين ولا تنقص من ملكه معصية العاصين قال الله تعالى - وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون - وليظهر احسانه لأنه محسن فأوجد لهم ليحسن اليهم وليفضل عليهم فيعامل بعضا بالعدل وبعضا بالفضل ، وخلق المؤمنين خاصة للرحمة كما قال عز وجل - وكان بالمؤمنين رحيما - وقال تعالى - ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم - قال جعفر بن محمد الصادق والضحاك ابن مزاحم أي للرحمة خلقهم وليحمدوه لأنه يحب الحمد .

ويروى أن آدم عليه السلام لما خلقه الله تعالى وعرض عليه ذريته وجد فيهم الصحيح والسقيم والحسن والقبيح والأسود والأبيض فقال يارب هلا سويت بينهم ، فقال الله تعالى - اني أحب أن أشكر - .

قال أبو الحسن القتال : خلق الله تعالى الملائكة للقدرة وخلق الأشياء للعبارة وخلقك للمحنة قال تعالى - الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم - .
قال العلماء : خلقكم لظاهر القدرة ثم رزقكم لظاهر الكرم ثم يميتكم لظاهر القهر والجبروت

ثم يحكيكم لآظهار العدل والفضل والثواب والعقاب ، ومنهم من قال خلق الخلق جميعهم لأجل محمد ﷺ عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال : أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا عيسى آمن بمحمد وأمرأتك أن يؤمنوا به فلو لا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن وقيل خلقتهم لأمر عظيم غيبه عنهم لا يجليه حتى يحل بهم ما خلقتهم له قال الله تعالى - أخلصتم أنما خلقتكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون - . وقال على ابن أبي طالب رضي الله عنه يا أيها الناس اتقوا الله فما خلق امرؤ عبثا فيلهو ولا أهمل سدى فيلغو . وقال الأوزاعي بلغني أن في السماء ملكا ينادي كل يوم : ألا ليت الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا عرفوا ما خلقوا له ، وقال بعضهم إذا ماتوا ثم خلقوا علموا ماذا خلقوا له وجلسوا فتذاكروا ماذا علموا . وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول في مناجاته : الهى غيت عني أجلى وأحصيت على عملى ولا أدري إلى أى الدارين منقلبي لقد أوقفتنى وقفة الحزوين أبدا ما أبقيتنى .

وقال أبو القاسم الحكيم : إن الله تعالى جعل ابن آدم بين البلوى والبلى ، فإدام الروح في جسد فهو في البلوى ، فاذا فارق الروح الجسد فهو في البلى فأتى له السرور وهو بين البلوى والبلى .

وقال بعض الحكماء : يا ابن آدم انظر إلى خطر مقامك في الدنيا إن ربك حلف فقال - لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين - وإن إبليس حلف فقال - فبعزتك لأغوينهم أجمعين لإعبادك منهم المخلصين - وأنت يا مسكين بين الله تعالى وبين إبليس مطروح ساءل الله أعلم .

الباب الثانى فى خلق آدم عليه الصلاة والسلام وكيفيته وصفته

قال المفسرون بالفاظ مختلفة ومعان متفقة : ان الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه الصلاة والسلام أوحى الله إلى الأرض إني خالق منك خلقا منهم من يطيعنى ومنهم من يعصينى فمن أطاعنى منهم أدخلته الجنة ومن عصانى أدخلته النار ، ثم بعث إليها جبريل عليه السلام ليأتيه قبضة من ترابها فلما أتاه جبريل ليقبض منها القبضة قالت له الأرض انى أعوذ بعزة الله الذى أرسلك أن تأخذ منى شيئا يكون فيه غدا للنار نصيب فرجع جبريل عليه السلام إلى ربه ولم يأخذ منها شيئا وقال يارب استعاذت بك فكرهت أن أقدم عليها ، فأمر الله عز وجل ميكائيل عليه السلام فأتى الأرض فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئا فرجع إلى ربه ولم يأخذ منها شيئا ، فبعث الله تعالى ملك الموت فأتى الأرض فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئا فقال ملك الموت وانى أعوذ بالله أن أعصى له أمرا ، فقبض قبضة من زواياها الأربع من أديمها الأعلى ومن سبختها وطينها وأحمرها وأسودها وأبيضها وسهلها وحزنها فكذلك كان فى ذرية آدم الطيب والحديث والصالح والطالح والجميل والقيح ولذلك اختلفت صورهم وألوانهم قال الله تعالى - ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم - ثم صعد بها ملك الموت إلى الله تعالى ، فأمره أن يجعلها طينا ويحمرها فعجنها بالماء المر والعذب والملح حتى جعلها طينا وخمرها فلذلك اختلفت أخلاقهم ، ثم أمر

جبريل عليه السلام أن يأتيه بالقبضة البيضاء التي هي قلب الأرض وبهاؤها ونورها ليخلق منها محمدا ﷺ فهبط جبريل عليه السلام في ملائكة الفردوس المقربين الكرويين وملائكة الصفح الأعلى قبض قبضة من موضع قبر النبي ﷺ وهي يومئذ بيضاء نقية فعجنت بماء التسنيم ورعرت حتى صارت كالدرة البيضاء ثم غمست في أنهار الجنة كلها فلما خرجت من الأنهار نظر الحق سبحانه وتعالى إلى تلك الدرة الطاهرة فانتفضت من خشية الله تعالى فقطر منها مائة ألف قطرة وأربعة وعشرون ألف قطرة فخلق الله سبحانه وتعالى من كل قطرة نبيا فكل الأنبياء صلوات الله على نبينا وعليهم من نوره خلقوا ﷺ ، ثم طيف بها في السموات والأرض فعرفت الملائكة حينئذ محمدا ﷺ قبل أن تعرف آدم ثم عجنها بطينة آدم عليه الصلاة والسلام ثم تركها أربعين سنة حتى صارت طينا لازبا لنا ثم تركها أربعين عاما حتى صارت صلصالا كالنخار وهو الطين اليابس الذي إذا ضربته يديك صلصل أي صوت ليعلم أن أمره بالصنع والقدرة لا بالطبع والحيلة فإن الطين اليابس لا ينقاد ولا يتأني تصويره ، ثم جعله جسدا وألقاه على طريق الملائكة التي تهبط إلى السماء وتصعد منه أربعين سنة فذلك قوله تعالى - هل أتى على الإنسان حين من الدهر - الآية قال ابن عباس الإنسان آدم والحين أربعون سنة كان آدم جسدا ملقى على باب الجنة ، وفي صحيح الترمذي بالإسناد عن رسول الله ﷺ في تفسير أول البقرة : ان الله خلق آدم بيده من قبضة قبضها من جميع الأرض من السهل والجبل والأسود والأبيض والأحمر فجاءت الأولاد على ألوان الأرض ، وسأل عبد الله بن سلام رسول الله ﷺ كيف خلق الله آدم عليه السلام ؟ فقال خلق رأس آدم وجهته من تراب الكعبة و صدره وظهره من بيت المقدس وفخذه من أرض اليمن وساقه من أرض مصر وقدميه من أرض الحجاز ويده اليمنى من أرض الشرق ويده اليسرى من أرض المغرب ثم ألقاه على باب الجنة فكلم امر عليه ملائكة من الملائكة عجبوا من حسن صورته وطول قامته ولم يكونوا قبل رأوا شيئا يشبهه من الصور فمر به إبليس فرآه فقال لأمر ما خلقت ثم ضربه بيده فاذا هو أجوف فدخل في فيه وخرج من دبره وقال لأصحابه الذين معه من الملائكة هذا خلق أجوف لا يثبت ولا يماسك ثم قال لهم أرايتم ان فضل هذا عليكم فما أتم فاعلون ؟ قالوا نطيع ربنا فقال إبليس في نفسه والله لئن فضل هذا على لأعصينه ولئن فضلت عليه لأهلكه فذلك قوله تعالى - وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون - يعني ما أظهرت الملائكة من الطاعة وأسر إبليس من العصية وقوله تعالى - إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين - وفي الخبر أن جسدا آدم عليه الصلاة والسلام كان ملقى أربعين سنة يمطر عليه مطر الحزن ثم أمطر عليه السرور سنة واحدة فلذلك كثرت الهوموم في أولاده وتصير عاقبتها إلى الفرح والراحة ، وأنشدنا في هذا المعنى أبو عوانة المهرجاني :

يقولون ان الدهر يومان كله فيوم محبات ويوم مكاره
وما صدقوا فالدهر يوم محبة وأيام مكروه كثير البداه

وأنشدني ابن الأعرابي فقال :

محن الزمان كثيرة لا تنقضي وسروره يأتيك بالفلتات
وأنشدني أبو بكر الصولي لابن المعتز :
أى شيء يكون أعجب من ذا لو تفكرت في صروف الزمان
حادثات السرور توزن وزنا والبلايا تكال بالتفزان

الباب الثالث في صفة نفخ الروح

قال العلماء : فلما أراد الله أن ينفخ في آدم عليه السلام الروح أمرها أن تدخل فيه فقالت الروح
مدخل بعيد القعر مظلم المدخل ، فقال للروح ثانية فقالت مثل ذلك وكذلك ثالثة إلى أن قال في الرابعة
ادخلي كرها وأخرجي كرها ، فلما أمرها الله تعالى بذلك دخلت فيه فأول ما نفخ فيه الروح دخلت
وماغه فاستدارت فيه مقدار مائتي عام ثم نزلت في عينيه . والحكمة في ذلك أن الله تعالى أراد أن يرى آدم
بدء خلقه وأصله حتى إذا تابعت عليه الكرامات لا يدخله الزهو ولا العجب بنفسه ، ثم نزلت في خياشيمه
فعطس فحين فراغه من عطاسه نزلت الروح إلى فيه ولسانه فلقنه الله تعالى أن قال الحمد لله رب العالمين
فكان ذلك أول ماجرى على لسانه فأجابه ربه عز وجل فقال يرحمك ربك يا آدم للرحمة خلقتك قال
تعالى « سبقت رحمتي غضبي » ثم نزلت الروح إلى صدره وشراسيفه فأخذي عالج القيام فلم يمكنه ذلك وذلك
قوله تعالى - وكان الانسان عجولا - وقوله تعالى - خلق الانسان من عجل - ، فلما وصلت الروح إلى
جوفه اشتهى الطعام فهو أول حرص دخل جوف آدم عليه الصلاة والسلام وفي بعض الأخبار أن آدم عليه
السلام لما قال له ربه يرحمك ربك يا آدم مديده ووضعها على أم رأسه وقال أوه فقال الله مالك يا آدم فقال انى
أذنبت ذنبا فقال من أين علمت ذلك فقال لأن الرحمة للمذنبين ، فصارت تلك سنة في أولاده إذا أصاب
أحدهم مصيبة أو محنة وضع يده على رأسه وتأوه ، ثم انتشرت الروح في جسده كله فصارت لحمه وعظامه
وعروقه وعصبا ثم كساه الله تعالى لباسا من ظفر وجعل يزداد كل يوم حسنا ، فلما قارف الذنب بدل
بهذا الجلد وبقيت منه بقية في أنامله ليتذكر به أول حاله .

قال عبدالله بن الحارث : كانت الدواب تتكلم قبل خلق الله تعالى آدم عليه السلام وكان النسر يأتى
الحوت في البحر فيخبره بما فى البر ويخبره الحوت بما فى البحر ، فلما خلق الله تعالى آدم عليه السلام جاء النسر
إلى الحوت فقال لقد خلق الله اليوم خلقا ورأيت اليوم شيئا لينزلنى من وكرى وليخرجنك من البحر ،
فلما أتم الله خلق آدم عليه الصلاة والسلام ونفخ فيه الروح قرطه وشقه وصوره وختمه ومنطقه وألبسه
من لباس الجنة وزينه بأنواع الزينة يخرج من ثنياه نور كشعاع الشمس ونور نبينا محمد ﷺ في جبينه
كالقمر ليلة البدر ثم رفعه على سرير وحمله على أكتاف الملائكة وقال لهم طوفوا به في سماواتى ليرى عجائبها
وما فيها فيزداد يقينا ، فقالت الملائكة لبيك ربنا سمعنا وأطعنا فحملته الملائكة على أعناقها وطافت به
السموات مقدار مائة عام حتى وقف على كل شيء من آياتها وعجائبها ، ثم خلق الله فرسا من المسك الأذفر

يقال له اليمون له جناحان من الدر والجواهر فركبه آدم عليه الصلاة والسلام وجيزيل آخذ بلجامة وميكائيل عن يمينه واسرافيل عن شماله فطافوا به السموات كلها وهو يقول السلام عليكم ياملائكة الله فيقولون وعليك السلام ورحمة الله وبركاته فقال الله تعالى يا آدم هذه تحيتك وتحية المؤمنين من ذريتك فما بينهم إلى يوم القيامة ثم علمه الله تعالى الأسماء كلها . واختلف العلماء في هذه الأسماء فقال الربيع بن أنس أسماء الملائكة كلهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أسماء ذريته وقال ابن عباس وأكثرا الناس علمه اسم كل شيء حتى القصعة والقصيعة ، ثم أمر الله الملائكة بالسجود له كما قال الله تعالى - فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين - وأكثرا العلماء على أن الأمر بالسجود لآدم إنما توجه على الملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون سائر الملائكة وكان ذلك سجود تعظيم وتحية لا سجود صلاة وعادة ، فلما أمرهم بالسجود سجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين .

الباب الرابع في صفة خلق حواء عليها السلام

قال المفسرون : لما أسكن الله تعالى آدم الجنة كان يعيش فيها وحشيا لم يكن له من يجالسه ويؤانسه فألقى الله تعالى عليه النوم فنام فأخذ الله ضلعا من أضلاعه من شقه الأيسر يقال له القصيرى فخلق منه حواء من غير أن أحس آدم بذلك ولا وجد له ألما ، ولوأولم آدم من ذلك لما عطف رجل على امرأة ثم ألبسها من لباس الجنة وزينها بأتواع الزينة وأجلسها عند رأسه فلما هب آدم من نومه رآها قاعدة عند رأسه فقالت الملائكة لآدم يمتحنون علمه ماهذه يا آدم قال امرأة قالوا وما اسمها قال حواء قالوا صدقت ولم يميت حواء بذلك قال لأنها خلقت من شيء حي قالوا ولماذا خلقها الله تعالى ؟ قال لتسكن الى وأسكن اليها ، وذلك قوله تعالى - هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها - قال النبي ﷺ « خلقت المرأة من ضلع أعوج فان تقمها تكسرها وان تتركها تستمتع بها على عوجها » وقيل الحكمة في أن الرجال يزيدون على مرور الأيام والأعوام حسنا وجمالا لأنهم خلقوا من التراب والطين يزداد كل يوم حدة وجمالا ، والنساء يزددن على مرور الأيام قبحا لأنهن خلقن من اللحم ، واللحم يزداد على مرور الأيام فسادا . وفي بعض الأخبار أن آدم عليه السلام لما رأى حواء مديده اليها فقالت الملائكة مه يا آدم فقال ولم وقد خلقها الله تعالى لي فقالت الملائكة حتى تؤدي مهرها . قال ومأهرها ؟ قالوا أن تصلى على محمد ﷺ ثلاث مرات قال ومن محمد ؟ قالوا آخر الأنبياء من ولدك ولولا محمد ما خلقت .

وروى سعيد بن جبير عن سعيد عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أراد الله أن يخلق جارية بعث اليها ملكين أصفرين مكللين بالدر والياقوت فيضع أحدهما يده على رأسها ويضع الآخر يده على رجلها ويقولان باسم ربنا وربك الله ضعيفة خلقت من ضعيفة النفق عليها معان إلى يوم القيامة » .

الباب الخامس في ذكر امتحان الله تعالى آدم عليه السلام وما كان منه في ذلك

قال أهل التاريخ : لما أسكن الله تعالى آدم وحواء عليهما السلام الجنة أباح لهما نعيم الجنة كلها إلا شجرة واحدة وذلك قوله تعالى - وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة - إلى قوله - فتكونا من الظالمين - واختلفوا في هذه الشجرة التي هي شجرة المحنة ما هي ؟ فقال علي رضي الله عنه هي شجرة الكافور ، وقال قتادة هي شجرة العلم وفيها من كل شيء علامة ، وقال محمد بن كعب ومقاتل هي السنبلة ، وقيل هي الحنطة ، وقيل هي الكرم فوسوس لهما الشيطان حتى زين لهما الشجرة فأكلا منها ربهما عن أكله من ثمرة تلك الشجرة وحسن لهما معصية الله تعالى في ذلك حتى أكلا منها ، وكان وصول عدو الله إبليس إليهما وتزيينه ذلك لهما على ما ذكره أصحاب الأخبار أن إبليس أراد أن يدخل الجنة ليوسوس لآدم وحواء فمنعه الخزنة من ذلك فأتى الحية وكانت من أحسن الدواب التي خلقها الله تعالى لها أربعة قوائم كقوائم البعير وكانت من خزائن الجنة وكانت لإبليس صديقة فسألها أن تدخله الجنة في فيها فأدخلته في فمها ومرت به على الخزنة وهم لا يعلمون فأدخلته الجنة وكان قد دخل مع آدم الجنة ولما دخل الجنة ورأى ما فيها من النعيم والكرامة فقال طيب لو كان خلداً فاغتنم ذلك الشيطان منه فأتاه من قبل الخلد ، وقيل إن إبليس لما سمع بدخول آدم الجنة حسده وقال يا ويلاه أنا أعبد الله منذ كذا وكذا ألف سنة ولم يدخلني الجنة وهذا خلق خلقه الله تعالى الآن فأدخله الجنة فاحتال في إخراج آدم عليه السلام من الجنة فوقف على باب الجنة وتعب ثلثمائة سنة هنالك حتى اشتهر بالعبادة وعرفوه بها وهو في كل ذلك ينتظر خروج خارج من الجنة يتوصل به إلى آدم فكش على باب الجنة ثلثمائة سنة لا يأذن الله تعالى في خروج خلق منها فبينما هو كذلك إذ خرج إليه الطاوس وكان سيد طيور الجنة فلما رآه إبليس قال له أيها الخلق الكريم من أنت وما اسمك فمارأيت من خلق الله أحسن منك ؟ قال أنا طائر من طيور الجنة اسمي طاوس فبكى إبليس فقال له الطاوس من أنت ومم بكائك ؟ فقال له إبليس أنا ملك من الملائكة الكرويين وإنما بكيت تأسفاً على ما يفوتك من حسنك وكما خلقتك ، فقال له الطاوس أي فوتني ما أنا فيه قال بلى ، وإنك تفنى وتبيد وكل الخلائق يبيدون إلا من تناول من شجرة الخلد فانهم المخلدون من تلك الخلائق . فقال الطاوس وأين تلك الشجرة قال إبليس هي في الجنة قال الطاوس ومن يدلنا بمكانها ؟ قال إبليس أنا أدلك عليها إن أدخلتني الجنة . قال الطاوس كيف لي بإدخالك الجنة ولا سبيل إلى ذلك لمكان رضوان فانه لا يدخل الجنة أحد ولا يخرج منها أحد إلا بأذنه ، ولكنني سأدلك على خلق من خلق الله تعالى يدخلونها فانه إن قدر على ذلك أحد فهو هودون غيره فانه خادم خليفة الله تعالى آدم قال ومن هو ؟ قال الحية . قال له إبليس فبادر إليها فان لنا فيه سعادة الأبد لعلها تقدر على ذلك ، فجاء الطاوس إلى الحية وأخبرها بمكان إبليس وما سمع منه وقال إني رأيت يباب الجنة ملسكا من الكرويين من صفته كيت وكيت فهل لك أن تدخله الجنة ليدلنا على شجرة الخلد فأسرعت الحية نحوه فلما جاءته قال لها إبليس نحوا من مقاتلة للطاوس فقالت كيف لي بإدخالك الجنة ورضوان إذا رأوك لم يمكنك من دخولها فقال لها أتحوّل ريحاً فتجعليني بين أنيابك

قالت نعم ، فتحول إبليس لعنه الله ريحا ودخل في قم الحية فأدخلته الجنة فلما دخل إبليس الجنة أراها الشجرة التي نهى الله تعالى عنها آدم ، وجاء حتى وقف بين يدي آدم وحواء عليهما السلام وهما لا يعلمان أنه إبليس فناح عليهما نياحة أحزتهما فبكيا ، وكان أول من ناح ققالاله مايبيك ؟ فقال أبكي عليكما تموتان فتفارقان ما أتتاه من النعيم والكرامة فوقع ذلك في أنفسهما وانعما لذلك وبكى إبليس ومضى . ثم إن إبليس أتاهما بعد ذلك وقد أثر قوله فيهما . فقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . قال نعم قال كل من هذه الشجرة شجرة الخنطة فقال نهاني ربي عنها . فقال إبليس مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين فأبى أن يقبل منه فأقسم لهما بالله إنه لهما لمن الناصحين فاغترأ بذلك وما كانا يظنان أن أحدا يحلف بالله كاذبا فبادرت حواء الى أكل الشجرة ثم زينت لآدم حتى أكلها .

روى محمد بن اسحق عن يزيد بن عبدالله بن قسيط قال سمعت الحسن بن محمد بن الحسين يقول سمعت أبي يقول سمعت جدي يقول : سمعت سعيد بن المسيب يحلف بالله ولا يستثنى أن آدم ما أكل من الشجرة وهو يعقل ، ولكن حواء سقته الخمر حتى اذا سكر قادتة اليها فأكل ، ولذلك قال رسول الله ﷺ « الخمر مجمع الخبائث وأم الذنوب » ويقال لما قال الله تعالى لآدم وحواء لا تقربا هذه الشجرة قالان نعم لا تقربها ولاننا كل منها ولم يستثنيا في قولهما بمشيئة الله تعالى فوكلهما الله تعالى الى أنفسهما حتى أكلتا المنهى عنها : وقال سمعت الحسن بن محمد بن الحسين يقول سمعت ابراهيم بن الأشعث يقول سمعت ابراهيم بن آدم يقول لقد أورثتنا تلك الأكلة حزنا طويلا . وقال الشبلي : أول الدين دردي هذا أبونا آدم باع ربه بكف من حنطة فلما أكل من الشجرة المنهى عنها ابتلاه الله بعشرة أشياء . الأولى معاتبته إياهما على ذلك بقوله - ألم أنهما عن تلك الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدومين - . والثانية القضيحة فانه لما أصابا الذنب بدت لهما سواتهما وتهافت عنهما ما كان عليهما من لباس الجنة فتحير آدم وصار هاربا في الجنة فتلقت شجرة العناب فأخذت بناصيته وناداه ربه أقرارا مني يا آدم . قال بلى يارب ولكن حياء منك ، ولذلك قيل كفى بالمقصر حياء يوم القيامة .

ويروى أن آدم لما بدت سوائته وظهرت عورته طاف بأشجار الجنة يسأل منها ورقة يغطي بها عورته فزجرته أشجار الجنة حتى رحمته شجرة التين فأعطته ورقة فطفقا يعني آدم وحواء ينخضان عليهما من ورق الجنة فكافأ الله التين بأن سوى ظاهره وباطنه في الحلاوة والمنفعة وأعطاه الله ثمرتين في كل عام . والثالثة أو هن جلده وصيره مظلما بعد أن كان جلده كله كالظفر وأبقى عليه من ذلك قدر يسيرا على أنامله ليتذكر بذلك أول حاله . والرابعة أخرجه من جواره ونودي انه لا ينبغي أن يجاورني من عصاني فذلك قوله تعالى - اهبطوا بعضكم لبعض عدو - ولكم في الأرض مستقر - الآية يعني آدم وحواء وإبليس والحية والطاوس فهبط آدم بسر نديب من أرض الهند ، وقيل على جبل من أرض الهند يقال له نود

وقيل واسم وحواء بجدة بلد من أرض الحجاز وإبليس بالأبلة من أرض العراق وهى بالبصرة وقيل مشان والحية بأصهان والطاوس بأرض بابل .

ويقال إن الحكمة فى إخراج آدم من الجنة أنه كان فى صلبه من لا يستحق الولاية ولا يصلح لحظيرة القدس فإذا أخرجهم من صلبه أعاده الله إليها خالدا فيها ، ويقال إن الله تعالى أخرج آدم من الجنة قبل أن يدخله فيها وذلك قوله تعالى - إني جاعل فى الأرض خليفة - ولم يقل فى الجنة أخبرنى نافل بن أذفر بن أحمد بأسناده عن عثمان بن علية قال سمعت الوضين بن عطاء يذكر أن آدم قال كنا نسلا من نسل الجنة فسبانا إبليس بالخطيئة إلى الأرض فلا ينبغي لنا الفرغ فى الدنيا ، ولكن الحزن والبكاء مادمنا فى دار السباء حتى نرد إلى الدار التى سبينا منها وقال الشاعر :

يا ناظرا يرنو بعينى راقدا ومشاهد الأيام غير مشاهد
متك تفسك وصلة فأبحثها سبل الرجاء وهن غير قواصد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى درج الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدم منها إلى الدنيا بذنب واحد

والخامسة الفرقة فرق بينه وبين حواء مائة سنة هذا بالهند وهذه بجدة فجاء كل واحد منهما يطلب صاحبه حتى قرب أحدهما من صاحبه فازدلفا فسميت المزدلفة واجتمعا بجمع فسمى جمعا وتعارفا بعرفة فى يوم عرفة فسمى للوضع عرفات واليوم عرفة . السادسة العداوة ألقى بينهم العداوة والبغضاء كما قال الله تعالى - بعضكم لبعض عدو - فالإنسان عدو الحية يشدخ رأسها حيث يراها والطاوس عدوه والحية عدوته تلدغه إذا أمكنها وإبليس عدولهم جميعا ، وفيه إشارة إلى أن الأحياء إذا اجتمعوا وتعاونوا على معصية أعقبت معصيتهم عداوة كما قال الله تعالى - الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين - . والسابعة : النداء عليهم باسم العصيان فقال الله تعالى - وعصى آدم ربه فغوى - .

وروى أن إبراهيم عليه السلام تفكر ذات ليلة من الليالى فى أمر آدم فقال يارب خلقت آدم بيدك وتفتخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك وأسكنته جنتك بلا عمل ثم بزلة واحدة ناديت عليه بالمعصية وأخرجته من جوارك من الجنة ، فأوحى الله تعالى إليها إبراهيم أماعلت أن مخالفة الحبيب على الحبيب أمر شديد . والثامنة تسليط العدو على أولاده وهو قوله تعالى - وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم - الآية . والتاسعة جعل الدنيا سجناله ولأولاده وابتلاه بهواء الدنيا ومقاساة الرد والحر فيها ولم يكن لهما عهد لتعود هواء الجنة وهو كما قال الله تعالى - لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا - قال رسول الله ﷺ « الجنة سجسج لحر فيها ولا قر » . العاشر التعب والشقاء وذلك قوله تعالى - إن هذا عدو لك ولزوجك فلا تخرجنكما من الجنة فتشقى - فهو أول خلق عرق جبينه من التعب والنصب .

﴿ فصل ﴾ وابتليت حواء وبناتها بهذه الخصال وبمحس عشرة خصلة سواهن . الأولى الخيض ،

يروى أنها لما تناولت الشجرة دميت الشجرة قال الله تعالى إن لك على أن أدميك أنت وبناتك في كل شهر مرة كما أدميت هذه الشجرة قال رسول الله ﷺ في الحيض : إن هذا شيء كتبته الله تعالى على بنات آدم . الثانية ثقل الحمل ، الثالثة الطلق وألم الوضع قال الله تعالى - حملته أمه كرها ووضعته كرها - وفي الخبر : لولا الزلة التي أصابت حواء كان النساء لم يحضن ولكن حلمات وكن يحملن سرا ويضعن سرا . الرابعة نقصان دينها . الخامسة نقصان عقلها ، عن أبي سعيد في حديث ذكره قال : رسول الله ﷺ « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من أحد إلا كن فقلن له وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله ؟ قال أليس شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل فذلك نقصان عقلها أوليس إذا حاضت المرأة لم تصل ولم تصم قلن بلى قال فذلك نقصان دينها » . السادسة أن ميراثها على النصف من ميراث الرجل قال الله تعالى - للذكر مثل حظ الأنثيين . السابعة تخصيصهم بالعدة ، الثامنة جعلهن تحت أيدي الرجال كما قال تعالى - الرجال قوامون على النساء - وقال عليه الصلاة والسلام : استوصوا بالنساء خيرا فانهن عوار عندكم . التاسعة ليس لهن من الطلاق شيء ولا يملكن ذلك وإنما هو للرجال . العاشرة حرمن الجهاد . الحادية عشرة ليس منهن نبي . الثانية عشرة ليس منهن سلطان ولا حاكم . الثالثة عشرة لا تسافر أحدهن إلا مع ذي رحم محرم . الرابعة عشرة لا تعتقد بهن الجمعة . الخامسة عشرة : لا يسلم عليهن . وعاقب إبليس لعنه الله تعالى بعشرة أشياء . أولها عزله من الولاية وكان له ملك الأرض وملك سماء الدنيا وكان خازن الجنة . الثانية أخرجه من جواره وأهبطه الى الأرض . الثالثة مسح الله صورته فصوره شيطانا بعد ما كان ملكا . الرابعة غير اسمه وكان اسمه عزازيل فسماه إبليس لأنه أبلس من رحمة الله تعالى . الخامسة جعله إمام الأشقياء . السادسة لعنه الله . السابعة نزع منه المعرفة . الثامنة أغلق عنه باب التوبة . التاسعة جعله مريدا : أي خاليا من الخير والرحمة . العاشرة جعله خطيب أهل النار .

وعاقب الحية بخمسة أشياء : قطع قوائمها وأمشاها على بطنها ومسح صورته بعد أن كانت أحسن الدواب وجعل غذاءها التراب وجعلها تموت كل سنة بالشتاء وجعلها عدوة بني آدم وهم أعداؤها حيثما يرونها يقتلونهم وأباح رسول الله ﷺ قتلها في الصلاة وفي حال الإحرام ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما سلمناهن منذ حاربناهن من ترك شيئا منهن خيفة منه فليس مني يعني الحيات ، أخبرنا ابن (١) قال حدثنا عبد الله بن يونس قال أخبرنا داود عن محمد عن أبي الأعين المبعدي عن أبي الأحوص الحسني قال . بينما ابن مسعود ينخطب ذات يوم فاذا هو بحية تمشي على الجدار فقطع خطبته ثم ضربها بقضيب حتى قتلها ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قتل حية فكأنما قتل رجلا مشركا قد حل دمه .

الباب السادس في حال آدم بعد هبوطه الى الأرض وما كان منه

قال ابن عباس رضي الله عنهما لما أهبط آدم الى الأرض على جبل سرنديب وذكر أن ذروته أقرب من ذرى جبال الأرض الى السماء وكانت رجل آدم على الجبل ورأسه في السماء يسمع دماء الملائكة وتسبيحهم وكان آدم يأنس بذلك فهابته الملائكة واشتكت الى ربها فحطت قامته الى ستين ذراعا وكان قبل ذلك يمس رأسه السحاب فصلع وأخذ أولاده الصلع فلما نقص من قامته ذلك قال رب كنت جارك في دارك ليس لي رب سواك ولا رقيب دونك آكل فيها رغدا وأسلك حيث أحببت فأهبطتني الى هذا الجبل وكنت أسمع أصوات الملائكة وأراهم كيف يحفون بعرشك وأجد ريح الجنة وطيبها ثم أهبطتني الى الأرض وحطتني الى ستين ذراعا فقد انقطع عني الصوت والنظر وذهبت عني رائحة الجنة فأجابني الله تعالى - بمعصيتك يا آدم - فقال آدم ذلك بك يا رب . وقال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة واستقر جالسا على الأرض عطس عطسة فسأل أنفه دما فلما رأى سيلان الدم من أنفه ولم يكن رأى قبل ذلك دما هاله ما رأى ولم تشرب الأرض الدم فاسودت على وجهها كاللحم ففرغ آدم من ذلك فزعاشديدا فذكر الجنة وما كان من الراحة فخر مغشيا عليه وبكى أربعين عاما فبعث الله اليه ملكا فمسح ظهره وبطنه وجعل يده على فؤاده فذهب عنه الحزن والغشى فاستراح مما كان يصيبه من الغم . قال شهر بن حوشب بلغني أن آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط الى الأرض مكث ثلثمائة سنة لا يرفع رأسه حياء من الله تعالى . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة ولم يأكلا ولم يشربا أربعين سنة ولم يقرب آدم حواء مائة سنة فلما أراد الله تعالى أن يرحم عبده آدم لقنه كلمات كانت سبب قبول توبته كما قال تعالى - فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه - الآية . واختلفوا في تلك الكلمات ماهي ؟ فقال ابن عباس هي أن آدم عليه السلام قال يا رب ألم تخلقني بيدك قال بلى قال ألم تنفخ في من روحك قال بلى قال ألم تسبق لي رحمتك قبل غضبك قال بلى قال ألم تسكني جنتك قال بلى قال فلم أخرجتني منها ؟ قال لشؤم معصبتك قال أي رب أرأيت إن أنا تبت وأصلحت ترجعتني الى الجنة فهي الكلمات : وقال عبد الله بن عمر : إن آدم قال يا رب أرأيت ما أتيت به شيء ابتدعته من تلقاء نفسي أو شيء قدرته على قبل أن تخلقني بيدك قال لا بل شيء قدرته عليك قبل أن أخلقك قال يا رب فكما قدرته على فأغفر لي وقال محمد بن كعب القرظي هي قول لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فتاب عليّ انك أنت التواب الرحيم لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك رب عملت سوءا وظلمت نفسي فأغفر لي انك أنت الغفور الرحيم لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك رب عملت سوءا وظلمت نفسي فأرحمني انك أنت خير الراحمين . وقال سعيد بن جبير والحسن ومجاهد وعكرمة هي قوله تعالى - ربنا ظلمنا أنفسنا - الآية ثم أنزل الله تعالى يا قوتة من يواقيت الجنة ووضعها موضع البيت على قدر الكعبة لها بابان باب شرقي وباب غربي وفيها قناديل من نور ثم أوحى الله تعالى الى آدم

إن لي حرما بحيال عرشي فأته فطف به كما يطف حول عرشي وصلّ عنده كما يصلي عند عرشي فهناك أستجيب دعاءك فانطلق آدم من أرض الهند إلى أرض مكة لزيارة البيت وقيض الله له ملكا يرشده فكان كل موضع يضع عليه قدمه عمرانا وماتعداه مفاوز وقفارا فلما وقف بعرفات وكانت حواء طلبته وقصدته من جدة فالتقيا بعرفات يوم عرفة فسمى ذلك الموضع عرفات فلما انصرفا إلى منى قيل لآدم تمنّ فقال أتمنى المغفرة والرحمة فسمى ذلك الموضع منى وغفر ذنبهما وقبل توبتهما ثم انصرفا إلى أرض الهند . قال مجاهد حدثني ابن عباس أن آدم حج من أرض الهند أربعين حجة على رجله فقيل لمجاهد يا أبا الحجاج ألا كان يركب قال وأي شيء كان يحمله فوالله إن خطوته لمسيرة ثلاثة أيام وقال ابن عمر : لما حج آدم عليه السلام البيت وقضى المناسك كلها تلقته الملائكة يهتفونه بالهيج وقبول التوبة فقالوا برحمتك يا آدم فدخله من ذلك شيء فلما رأت الملائكة منه ذلك قالوا يا آدم إنا قد حججنا هذا البيت قللك بألفى عام فتقاصرت إلى آدم نفسه . وقال أبو العالية : خرج آدم من الجنة ومعه عصا من شجرة الجنة وعلى رأسه تاج من شجر الجنة فلما صار إلى الأرض يبس ذلك الأكليل وتحات الورق فنبت منه أنواع الطيب فلذلك كان أصل كل طيب بالهند . وقال ابن عباس رضي الله عنهما نزل آدم من الجنة ومعه طيب فزرع آدم شجر الهند في أوديتها وكان أصله من الجنة فامتلا ما هنالك طيبا فمن ثم يؤتى بالطيب من الهند وأصله من ريح آدم عليه السلام وريحه من ريح الجنة وأنزل الله معه الحجر الأسود وكان أشد يابضا من الثلج وعصا موسى عليه السلام وكانت من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى وقيل كانت من البان .

وروى سفيان عن منصور بن معمر عن ربعي بن خراش عن حذيفة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول لما أهبط آدم من الجنة إلى أرض الهند وعليه ذلك الورق الذي كان لباسه من الجنة فيبس وتطير بأرض الهند فعبق شجر العود والصندل والمسك والعنبر والكافور من ذلك الورق فقالوا يارسول الله المسك هو من الدواب أم من الشجر قال أجل إنما هي دابة تشبه الغزال رعت من ذلك الشجر فصير الله المسك في سرتها فإذا رعت الربيع جعله الله مسكا وتساقط فينتفع به الآدميون قالوا يارسول الله فأين يقع قال : قال لي جبريل في ثلاث كور لا يكون في شيء من الأرض إلا فيها أرض الهند وأرض السعدى وأرض التبت قالوا يارسول الله العنبر إنما هي دابة في البحر قال أجل كانت هذه الدابة بأرض الهند ترعى في البر فبعث الله إليها جبريل عليه السلام فساقها وماعها فقفدها في البحر وهي أعظم ما تكون من الدواب غلظها ألف ذراع وإنما ترمى به كما ترمى البقرة أخشاهما فربما يخرج من جوفها العنبرة وزنها ألف رطل وخمسمائة رطل ونحو ذلك ثم إن آدم وجد ضربانا في رأسه وجسده فشكا ذلك إلى الله تعالى فنزل عليه جبريل بشجرة الزيتون فأمره أن يأخذ ثمرها ويعصره فقال إن في هذه الشجرة شفاء من كل داء إلا السام ودله جبريل عليه السلام على شجرة الاهليلج الأبيض والأسود والأصفر فقال له إن ربك يقرئك السلام ويقول لك كل من هذه فانك لن تتداوى

أنت وذريتك بدواء أفضل منها فيها شفاء من كل داء إن بقي في جوفك لم تخف منه وإن خرج أخرج الداء كله وأبرأه فأكله آدم فبرئ..

قال أهل الاخبار إن آدم عليه السلام لما أهبط الى الأرض وأصاب جسده أذى الهواء وأحس به اشتكى وحشة بجسده وكان قد اعتاد هواء الجنة فشكا ذلك الى جبريل ، فقال انك تشكو العرى فأنزل الله عليه ثمانية أزواج المذكورة في سورة الأنعام من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ثم أمره ان يذبح كبشا منها فذبحه ثم أخذ صوفه فغزلته حواء ونسجه آدم فجعل منه حبة لنفسه وجعل لحواء درعا وخمارا فلبسها وبكيا على ما فاتهما من لباس الجنة فحواء أول من غزلت وآدم أول من نسج ولبس الصوف. عن ابن جبري عن عطاء عن ابن عباس قال : جاء رجل الى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ما تقول في حرفتي ؟ فقال رسول الله ﷺ وما حرفتك فقال أنا رجل حائك قال حرفتك حرفة أينما آدم عليه السلام وكان أول من نسج آدم ، وكان جبريل يعلمه وآدم تلميذه ثلاثة أيام وإن الله عز وجل يحب حرفتك فإنها حرفة يحتاج اليها الأحياء والأموات فمن قال منكم القبيح فأبونا آدم خصمه ومن أنف منكم فقد أنف من آدم ومن لعنكم فقد لعن آدم ومن آذاكم فقد آذى آدم وهو خصمهم يوم القيامة فلا تخافوا وأبشروا فإن حرفتكم حرفة مباركة ويكون آدم قائداكم الى الجنة . وعن أبي أمامة الباهلي قال : قال رسول الله ﷺ عليكم بلباس الصوف تجدون قلة الأكل عليكم بلباس الصوف تعرفون به في الآخرة وإن النظر في الصوف ليورث القلب التفكير والتفكير يورث الحكمة والحكمة تجرى في الجوف مجرى الدم فمن كثر تفكره قل طعمه وكل من قل تفكره كثر طعمه وعظم بدنه وقسا قلبه والقلب القاسي بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار قالوا ثم إن آدم عليه الصلاة والسلام بعد ستر عورته اشتكى فقال له جبريل ما الذي أصابك فقال أجد في نفسي قلقا واضطربا لا أجد الى العبادة منه سبيلا وإني أجد بين لحمي وجلدي ديبا كديب النمل فقال له جبريل ذلك يسمى الجوع . قال وكيف الخلاص من ذلك قال سوف أهديك الى ذلك فغاب عنه ثم جاءه بثورين أحمرين والعلاء يعني السندان والمطرقة والمنفخة والكلبتين ثم جاءه بشرير من جهنم فوقع في يد آدم فطار منه شرارة ف وقعت في البحر فدخل جبريل اليها وأتى بها فدفعها الى آدم فطارت منه أيضا حتى فعل ذلك سبع مرات فذلك قول النبي ﷺ : إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم بعد أن غسلت بالماء سبع مرات فلما جاءها في الثامنة نطقت النار فقالت يا آدم اني لا أطيعك وإني منتقمة من عصاة أولادك يوم القيامة فقال جبريل يا آدم انما لن تطيعك ولكني أسجنها لك ولأولادك ليكون لك ولأولادك فيها النافع فسجنها في الحجر والحديد فذلك قوله تعالى - أفرأيتم النار التي تورون أأنتم - الآية ، ويروى أن آدم لما أخذ النار احترقت يده فخلى عنها فقال لجبريل مالها تحرق يدي قال لأنك عصيت الله وإني لم أعصه ثم أمره جبريل بأنخاذ آلة الحرث فهو أول من عمل الحديد ثم أتاه بصرة من حنطة فيها ثلاث حبات من الحنطة فقال يا آدم لك حبتان ولحواء حبة فلذلك صار للذكر مثل حظ

الأثنيين وكان وزن الحبة مائة ألف درهم وثمانين ألف درهم فقال آدم ما أصنع بذلك كله فقال يا آدم خذها فانها سبب سد جوعتك وبها أخرجت من الجنة وبها تحيا في الدنيا وبها تلقى الفتنة أنت وأولادك الى أن تقوم الساعة ثم أمره أن يشد الثورين ويكسر من الخشب ويضعه عليهما ففعل ذلك وجعل يحرق الأرض عليهما فهو أول من حرث الأرض وبكى الثوران على ما فاتهما من راحات الجنة فقطرت دموعهما على الأرض فنبت منها الجاوس وبالا فنبت منه الحمص وراثا فنبت منه العدس ثم كسر جبريل تلك الحبوب حتى كثرها ثم بذرها فنبتت من ساعته فقال آدم عليه الصلاة والسلام آكله فقال لا أصبر حتى يدرك فلما سنبل وأفرق قال آكله قال لا وعلمه الحصاد فلما حصد قال آكله قال لا وعلمه الدياس فلما داس قال آكله قال لا وعلمه التنقية فلما تقاه قال آكله قال لا وجاءه بحجرين وعلمه الطحن فلما طحنه قال آكله قال لا وعلمه العجن ويقال إن آدم عليه الصلاة والسلام لما نخل دقيقه فأمره جبريل أن يبت النخالة في الأرض المستحصدة فنبت فيها الشعير فلما عجن قال آكله قال لا فأمره أن يحفر حفيرة ويضع الحطب فيها ويوقد عليها ناراً ففعل ذلك ثم وضع عجينه عليه فخبز حتى جعله جبرملة فهو أول من خبز فلما أخرجه قال آكله قال لا حتى يبرد فلما برد أكله فلما أكله دمعت عيناه عليه السلام وقال ما هذا التعب والنصب قال له هذا وعد الله الذي وعده فذلك قوله تعالى - إن هذا وعدك ولزوجك فلا يخرجكما من الجنة فتشقى - أما آن لك أن تأكل من كد يمينك وعرق جبينك أنت وذريتك فلما استوفى آدم من الطعام شك من بطنه ولم يدرك ما هو فشكل ذلك الى جبريل عليه السلام فقال ذلك العطش قال فبم أسكنه فغاب عنه ثم عاد اليه ومعه المعول وقال له احفر الأرض فما زال يحفر حتى بلغ الى ركبتيه فنبع الماء من تحت رجله ماء زلالا أبرد من الثلج وأحلى من العسل وقال يا آدم اشرب منه شربة فشر بها فاطمأن ثم إنه بعد ذلك وجد تشكيا أشد من الأول والثاني فقال لجبريل ما هذا الذي أجده قال لا أدري فبعث الله اليه ملكا ففتق قبله ودبره ولم يكن قبل ذلك للطعام مخرج فلما خرج منه ما آذاه ووجد ريمه بكى على ذلك سبعين سنة. قالوا لما أنزل الله الى آدم الحديد نظر الى قضيب من حديد نابت على الجبل فقال هذا من هذا فجعل يكسر أشجارا قد اعتقت ويبيت فأوقد على ذلك الحديد حتى ذاب وكان أول شيء ضرب منه مدية فكان يعمل بها ثم ضرب التنور الذي ورثه نوح عليه الصلاة والسلام وهو الذي فار بالعذاب بالهند . قالوا لما أهبط الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام أخرج معه من الجنة قطعة من ذهب فلذلك يبقى الذهب لا يبلى بالثرى ولا يصدأ من الندى ولا تنقصه الأرض ولا تأكله النار لأنه من الجنة حمل . قيل إن الله تعالى زود آدم حين أهبطه إلى الأرض من الثمار ثلاثين نوعا عشرة منها في القشور وعشرة لها نوى وعشرة لا قشور لها ولا نوى ، فأما التي هي في القشور فالجوز واللوز والفسق والبندق والخشخاش والبلوط والشاه بلوط والنارج والرمان واللوز ، وأما التي لها نوى فالخوخ والمشمش والإجاص والعناب والفرسك والرطب والغيراء والنبق والزعرور والمقل ، وأما التي لا قشر لها ولا نوى فالتفاح والسفرجل والكمثرى والعنب والتوت والتين والأترج والخرنوب والخيار والبطيخ .

وقال ابن جريج : أهبط الله تعالى آدم عليه السلام ومعه آنية فيها بزر عريشة من عنب وريحانة فغرس آدم العريش ، فلما طلعت جاء إبليس فسرق ثمرها فقال له آدم ويلك أخرجتني من الجنة ولا تريد أن تجعل لي رزقا فقال له ان لي فيها حقا قال وما حقا قال نشوها ولكم سائرها .

وقال ابن عباس : هبط آدم من الجنة بثلاثة أشياء الآسنة وهي سيدة رياحين الدنيا وبالسنبله وهي طعام أهل الدنيا وبالعجوة وهي سيدة ثمار الدنيا .

وروى ابن عباس وعائشة وأبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « ان العجوة من غراس الجنة وفيها شفاء وانها ترياق أول البكرة وعليكم بالتمر البرني فكلوه فانه يسبح في شجره ويستغفر لا تكله » .

وقال ابن عباس : لما هبط آدم إلى الأرض كان أول شيء أكله من الثمار التين ، وقال كعب : أول من ضرب الدينار والدرهم آدم وقال لا تصلح المعيشة الا بهما . وقال وهب بن منبه ان آدم لما أهبط إلى الأرض ورأى سعتها ولم يرفها أحدا غيره فقال يارب أما لأرضك هذه من عامر يسبحك ويحمدك ويقدسك غيري قال الله تعالى سأجعل فيها من ولدك من يسبحني ويحمدني ويقدسني وسأجعل فيها بيوتا ترفع بذكري ويسبح فيها خلقي ويذكروني فيها اسمي وسأجعل من ولدك يا آدم من يعبدني حق عبادتي وسأجعل من تلك البيوت بيتا أخصه بكرامتي وأثره باسمي فأسميه بيتي وأنطقه بعظمي وعليه وضعت جلالتي وأجعل ذلك البيت حرما آمنا يحرم بحرمة ماحوله وما فوقه وما تحته فمن حرمه بحرمة استوجب بذلك كرامتي ومن أخاف أهله فيه فقد خفر ذمتي وأباح حرمتي واستوجب بذلك عذابي وعقابي ، وسأجعل هذا البيت أول بيت وضع للناس يطين مكة مبارك يا تونه شعنا غبرا - وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق - يرجون بالتلبية رجيجا ويضجون بالبكاء ضجيجا ويعجون بالتكبير عجيجا ، فمن اعتمره لا يريد غيره فقد وفد إلى وزارتي واستضافني فحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وأن يسعف كلا بحاجته ، يا آدم تعمره مادمت حيا ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن ، ثم ان الله تعالى مسح ظهر آدم بيده وأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة كالدر بنعمان من عرفة قرية بمكة ثم أخذ عليهم الميثاق وكلهم - وقال أأست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين - ، وسئل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن هذه الآية فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الله خلق آدم ومسح ظهره فاستخرج منه ذرية وقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج ذرية وقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل يا رسول الله فقيم العمل ؟ فقال : ان الله تعالى اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على ذلك فهو من أهل النار » .

وقال وهب بن منبه رحمه الله : أوحى الله الى آدم بعد ما تاب عليه يا آدم اني أجمع لك العلم كله في

أربع كلمات واحدة لى واحدة لك وواحدة بينى وبينك وواحدة فيما بينك وبين الناس فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئا ، وأما التى لك فأجزيك بعملك أحوج ماتكون اليه ، وأما التى بينى وبينك فمنك الدعاء ومنى الإجابة ، وأما التى بينك وبين الناس فأنت ترضى لهم ما ترضى لنفسك فقال آدم يارب مشغلت بطلب المعيشة والرزق عن التسبيح والعبادة ولست أعرف ساعات التسبيح فى أيام الدنيا ، فأهبط الله تعالى اليه ديكاً فأسمعه أصوات الملائكة بالتسبيح فهو أول داعن آخذ آدم من الخلق ، فكان الديك اذا سمع التسبيح فى السماء سبى فى الأرض فيسبح آدم بتسبيحه .

ويروى أن الله تعالى أوحى الى آدم لما أراد أن يهبطه إلى الأرض : يا آدم انى منزلت أنت وذريتك داراً مبنية على أربع قواعد ، أما الأولى فانى أقطع ما تصلون ، وأما الثانية فانى أفرق ما تجمعون ، وأما الثالثة فانى أخرب ما تبنون ، والرابعة أميت ما تلدون ولذلك قيل :

لدوا للموت وابنوا للخراب وكلكمو يصير إلى ذهاب

الباب السابع فى ذكر هبوط إبليس لعنه الله الى الأرض وحاله فيها بعد اللعنة

قال الله تعالى - قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو - الآية .

قال الشعبي : أنزل إبليس من السماء عليه عمامة ليس تحت ذقنه منها شيء أعور فى إحدى رجليه نعل .

وروى ابن المبارك عن خالد عن حميد بن هلال إنما ذكره أن يتخصر فى الصلاة لأن إبليس هبط متخصراً .

وروى حماد عن ثابت وحميد عن عبدالله بن عبيد بن عمير : أن إبليس قال يارب أخرجتنى من الجنة من أجل آدم وانى لأستطيعه إلا بسطانيك قال فانك مسلط عليه قال يارب زدنى ، قال لا يولد له ولد الا ولدك مثله قال يارب زدنى . قال صدورهم مساكن لك وتجرى منهم مجرى الدم . قال يارب زدنى . قال - وأجلب عليهم بنخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً - قال آدم يارب قد سلطته على وانى لأمتنع منه إلا بك . قال لا يولد لك ولد الا وكتبه من بحفظه من قرنائه سوء . قال يارب زدنى قال الحسنه بعشر أمثالها وأزيدها ، والسيئة بمثلها واحدة وأحوها . قال يارب زدنى قال - قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله - الآية . قال يارب زدنى قال التوبة لأنزعها من ولدك ما كانت الروح فيهم . قال يارب زدنى قال أغفر ولا أبالى قال حسبي .

وروى : أن إبليس قال يارب لعنتنى وأخرجتنى من الجنة وجعلتنى شيطاناً رجماً مذموماً مدحوراً وبعثت فى بنى آدم الرسل وأنزلت عليهم الكتب فمارسلى قال الكهنة قال فما كتبتى قال الوشم قال فما حديثى قال حديثك الكذب قال فما قرأته قال قرأتك الشعر قال فما مؤذنى قال مؤذنتك

للزمار قال فما مسجدي قال مسجدك السوق قال فما بيتي قال بيتك الحمام قال فما طعامي قال طعامك ما لم يذكر اسمي عليه قال فما شرابي قال شرابك كل مسكر قال فما مصايدى قال مصايدك النساء .

وروى مقاتل وجوير عن الضحاك عن ابن عباس أن إبليس لما خرج من الجنة ألقى الله عليه الحرقه والغلة فنكح نفسه فباض أربع بيضات فمنها ذريته :

وروى اسحق بن بشر عن محمد بن اسحق : بلغني أن إبليس تزوج الحية التي دخل في فيها حين كام آدم عليه السلام بعدما أخرج من الجنة فمنها ذريته .

الباب الثامن في ذكر ما روى من الأخبار فيمن تراءى له إبليس فرآه عيانا وكله شفاها

يروى أن آدم التقي بإبليس في أرض فلاة فلامه على صنيعه وقال له يا ملعون أي شيء هذا الذي أحلت بي غررتني وأخرجتني من الجنة وفعلت بي ما فعلت . قال فبكى إبليس وقال يا آدم اني فعلت بك ما تقول وأزلتك هذه المنزلة فمن فعل بي ما أنا فيه وأحلني هذه المنزلة .

ويروى : أن إبليس تصور لفرعون في صورة الانس بمصر في الحمام ، فأنكره فرعون فقال له إبليس ويحك أما تعرفني ؟ فقال لا قال : فكيف وأنت خلقتني أأنت القائل أنا ربكم الأعلى .

ويروى : أن سليمان عليه الصلاة والسلام سأل إبليس فقال أي الأعمال أحب إليك وأبغض إلى الله تعالى فقال لو لا منزلتك عند الله تعالى ما أخبرتك إني لست أعلم شيئا أحب إلى وأبغض إلى الله تعالى من استغناء الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة .

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال : ما من آدمي إلا وقد عمل خطيئة أو هم بها إلا يحيى بن زكريا فانه ما عمل خطيئة ولا هم بها ، ولقد قال رب أرني إبليس كما هو وأعزم عليه أن لا يكتنني شيئا سألته عنه فأوحى الله تعالى إلى إبليس أن أنت عبد يحيى بن زكريا كما هبطت إلى الأرض ولا تكتنمه شيئا يسألك عنه ، فأثام وقال يا يحيى أنا إبليس أمرني ربى أن آتيك كما هبطت إلى الأرض ، فنظر إليه يحيى فاذا على رأسه خطاطيف تطير وحقوا محفوفتان بأكوار كور ههنا وكور ههنا وفي رجله خلاخيل فقال ما هذه الخطاطيف التي تطير على رأسك قال بها أخطف عقول بني آدم ، فقال ما هذه الخلاخيل التي في رجليك قال أحركها لبني آدم حتى يغنى أو يغنى له قال فأى ساعة أنت على ابن آدم أقدر قال حين يموت شيئا ورثها قال فهل وجدت في نفسي شيئا قال لا ولا على حال قال نعم قدم إليك طعامك ذات ليلة وكنت قد صمت فشهيته إليك حتى أكلت أكثر من عادتك فتناقلت عن وردك وعادتك ، فقال يحيى لا جرم لأشبع أبدا فقال إبليس لا جرم لأنصح آدميا أبدا .

وقيل لمات رسول الله ﷺ وأخذوا في جهازه وخرج الناس وخلا الموضع قال ابن عباس قال على بن أبي طالب رضي الله عنه لما وضعت عليه ﷺ على المغتسل إذا بهاتف يهتف من زاوية البيت يا على لاتغسلوا محمدا فانه طاهر مطهر قال فوقع في قلبي من ذلك شيء وقلت ويلك من أنت فان النبي ﷺ

أمرنا بهذا وهذه سنته واذا بهاتف آخر يهتف بأعلى صوته غسله يا عليّ فان الهاتف الأول كان الشيطان حسد محمدا ﷺ أن يدخل قبره مغسلا قال عليّ جزاك الله خيرا قد أخبرتني أن ذلك إبليس فمن أنت؟ قال أنا الحضرة حضرت جنازة محمد ﷺ .

ويحكى : أن قوما من بني اسرائيل تراءى لهم إبليس فقالوا له قف موقفا كنت تقفه بين يدي الله تعالى حسبا كنت تقف قبل أن عصيت ربك فقال إنكم لا تطيقون رؤية ذلك فألحوا عليه فوقف وقفة فلما نظروا إليه وإلى خشوعه وخضوعه ماتوا عن آخرهم .

ويروى : أن رجلا كان يلعن إبليس كل يوم ألف مرة فبينما هو ذات يوم نائم إذ أتاه شخص فأيقظه وقال قم فان الجدار هاهو يسقط فقال له من أنت الذي أشفقت عليّ هذه الشفقة فقال له أنا إبليس فقال كيف هذا وأنا ألعنك كل يوم ألف مرة فقال هذا لما علمت من محل الشهداء عند الله تعالى فخشيت أن تكون منهم فتنال معهم ما ينالون .

الباب التاسع في قصة قاييل وهابيل

قال الله تعالى - واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا - إلى آخر القصة . قال أهل العلم بقصص النبيين وأخبار الماضين إن حواء كانت تلد لآدم توأمين في كل بطن غلاما وجارية إلا شيئا فانها ولدت منفردا وكان جميع من ولدت حواء أربعين من ذكر وأنثى في عشرين بطنا أولهم قاييل وتوأمته اقلما وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أمة المغيث ، ثم كثر الله في نسل آدم كما قال - يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة - الآية .

قال ابن عباس : لم يمض آدم حتى رأى من ولده وولدولته أربعين ألفا ، ورأى آدم فيهم الزنا وشرب الخمر والفساد . واختلف العلماء في وقت مولد قاييل وهابيل فقال بعضهم غشى آدم حواء بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة فولدت له قاييل وتوأمته اقلما في بطن ، ثم هابيل وتوأمته لبودا في بطن واحد .

وقال محمد بن اسحق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول : إن آدم كان يغشى حواء في الجنة قبل أن تهبط إلى الأرض فحملت له بقاييل وتوأمته فلم تجد عليهما حما ولا نصبا ولا طلقا حين ولدتها ولم تر معهما دما لطهارة لبنه ، فلما هبطا إلى الأرض واطمأنا بها تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته لبودا فوجدت فيهما الوحمة والنصب والطلق والدم حتى اذا شب أولاده زوج غلام هذا البطن جارية البطن الآخر وزوج جارية هذا البطن غلام البطن الآخر ، وكان الرجل منهم يتزوج أي أخواته شاء إلا توأمته التي ولدت معه فانها لا تحل له وذلك أنه لم يكن نساء يومئذ الا أخواتهم وأمههم حواء . فلما ولد قاييل وتوأمته اقلما في بطن واحد وهابيل وتوأمته لبودا في بطن واحد وكان بينهما سنتان في قول الكلبي وأدركوا أمر الله تعالى آدم أن ينكح لبودا أخت هابيل قاييل وينكح هابيل اقلما أخت قاييل ، وكانت أخت قاييل

من أجمل النساء وأحسنهن خلقا ، فذكر آدم ذلك لولده هايل فرضى وسخط قايل وقال هي أختي ولدت معي في بطن وهي أحسن من أخت هايل فأنا أحق بها ونحن من أولاد الجنة وهما من أولاد الأرض فأنا أحق بأختي ، فقال له أبوه إنها لا تحل لك ، فأبى أن يقبل ذلك منه وقال إن الله تعالى لم يأمره بذلك وإنما هو من رأيه ، فقال لهما آدم : قريبا قربانا فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بها . وقال معاوية بن عمار : سألت جعفرا الصادق أكان آدم زوج ابنته من ابنه ؟ فقال معاذ الله لو فعل ذلك آدم لما رغب عنه رسول الله ﷺ ولا كان دين آدم إلا دين نبينا محمد ﷺ ، إن الله تعالى أهبط آدم وحواء إلى الأرض وجمع بينهما وولد له بنت فسماها عناق فبغت وهي أول من بغى في الأرض ، فسلب الله عليها من قتلها فولد لآدم على أثرها قايل ثم ولد له هايل ، فلما أدرك قايل أظهر الله تعالى جنية من الجن يقال لها عمالة في صورة إنسية وخلق لها رحما وأوحى الله إلى آدم أن زوجها من قايل فزوجها منه ، فلما أدرك هايل أهبط الله إلى آدم حوراء في صورة إنسية وخلق الله لها رحما وكان اسمها تركة ، فلما نظر إليها هايل ورمقها أوحى الله إلى آدم أن زوجها من هايل ففعل ، فقال قايل يا أبت أأنت أكبر من أختي وأحق بما فعلت به منه ، فقال يا بني إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، فقال لا ولكنك آثرت على بهواك ، فقال له إن كنت تريد أن تعلم ذلك فقربا قربانا فأيكما يقبل قربانه فهو أولى بها من صاحبه ، قالوا وكانت القرابين حينئذ إذا قبلت نزلت نار من السماء فأكلتها وإذا لم تقبل لم تنزل نار لأكلها وتأكلها السباع فخرجوا ليقربا وكان قايل صاحب زرع فقرب صبرة من الطعام من أرداء زرعه وأضر في نفسه ما أبالي أيقبل مني أم لا لا يتزوج أختي أبدا ، وكان هايل راعيا صاحب ماشية فقرب كبشاسمين من خيار ماشيته ولبنا وزبدا وأضر في نفسه الرضا بالله والتسليم لأمره ، وقال اسمعيل بن رافع ان هايل تتج له كبش في غنمه فلما كبر لم يكن له مال أحب إليه منه وكان يحمله على ظهره فلما أمر بالتقربان قربه . قال فوضعا قربانهما على الجبل فنزلت نار من السماء فأكلت الكبش والزبد واللبن ولم تأكل من قربان قايل حبة لأنه لم يكن بزأكي القلب ، وقبل قربان هايل لأنه كان زأكي القلب فما زال الكبش يرتع في الجنة حتى فدى به ابن إبراهيم فذلك قوله تعالى - فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، إلى قوله : من المتقين - ففرلوا عن الجبل وتفرقوا وقد غضب قايل لما رد الله قربانه ، وظهر فيه الحسد والبغى وكان يضرهما قبل ذلك في نفسه إلى أن أتى آدم مكة ليزور البيت . فلما أراد أن يأتي مكة قال للسماء : احفظي ولدي بالأمانة فأبت ، فقال ذلك للأرض والجبال فأبيا ، فقال ذلك لقايل فقال نعم ترجع وتراه كما يسرك ، فرجع آدم وقد قتل قايل هايل فذلك قوله تعالى - إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا - يعني قايل حين حمل أمانة أبيه ثم خانها قالوا ، فلما غاب آدم أتى قايل إلى هايل وهو في غنمه ، فقال لأقتلنك قال ولم ؟ قال لأن الله قبل قربانك ولم يقبل قرباني وتتكح أختي الحسناء وأنكح أختك الدميعة فيتحدث الناس

أنك خير مني وأفضل ويفتخر ولدك علي ولدي ، فقال له هايل وماذني - انما يتقبل الله من المتقين
لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما أنا بياسط يدي اليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين - .
قال عبدالله بن عمر إن المقتول كان أشد ولكنه منعه التخرج أن يبسط إلى أخيه يده . قال
الله تعالى - فطوّعت له نفسه قتل أخيه قتلته - الآية أي طاوعته وساعدته قتلته . قال السدي لما قصد
قاييل قتل هايل زاغ هايل في رؤوس الجبال ، ثم أتاه يوما من الأيام وهو نائم فرفع صخرة فشدخ
بها رأسه فمات . وقال ابن جريج لم يدر قاييل كيف يقتل أخاه ، فتمثل له إبليس وأخذ طيرا فوضع
رأسه على حجر ثم شدخه بحجر آخر وكان لهايل يوم قتل عشرون سنة . واختلفوا في مصرعه
وموضع قتله فقال ابن عباس على جبل نود وقال بعضهم على عقبة حراء ، وحكى محمد بن جرير
الطبري قال جعفر الصادق بالبصرة في موضع المسجد الأعظم ، فلما قتله تركه ولم يدر ما يصنع به لأنه
كان أول ميت على وجه لأرض من بني آدم ، فقصدته السباع فحمله في جراب على ظهره سنة حتى تروح
وعكفت عليه الطير والسباع ينظرون أين يرمى به فتأكله ، فبعث الله غرايين فاقتلوا قتل أحدهما
صاحبه ، ثم حفر له بمنقاره ورجليه حتى مكن له في الأرض ثم ألقاه في الحفرة وواراه وقاييل ينظر
اليه ، فلما رأى ذلك - قال ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخى فأصبح
من النادمين - يعني على حمله لأعلى قتله . وروى عن الأوزاعي قال حدثني المطلب بن عبدالله الخزومي لما
قتل ابن آدم أخاه رجفت الأرض بما عليها سبعة أيام ثم شربت الأرض دمه كما تشرب الماء ، فناداه
الله أين أخوك هايل ؟ قال ما أدري ما كنت عليه رقيقا ؟ فقال الله تعالى إن دم أخيك ليناديني من
الأرض فلم قتل أخاك ، قال فأين دمه إن كنت قتلته ؟ فحرم الله على الأرض من يومئذ أن تشرب
دما بعده أبدا .

وعن الضحاك عن ابن عباس قال : لما قتل قاييل هايل وآدم بمكة اشتاك الشجر ، وتغيرت
الأطعمة ، وتحمضت الفواكه ومر الماء واغبرت الأرض ، فقال آدم قد حدث في الأرض حدث ، فأتى
الهند فاذا قاييل قد قتل هايل فأنشأ يقول وهو أول شعر قيل .

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي طعم ولون وقل بشاشة الوجه الصبيح

وروى عن ابن عباس أنه قال : من قال إن آدم قال الشعر فقد كذب على الله ورسوله ورمى
آدم بالاثم ، وإن محمدا ﷺ والأنبياء كلهم في النهي عن مشعر سواء قال الله تعالى - وما علمناه
الشعر وما ينبغى له - ولكن لما قتل قاييل هايل رثاه آدم وهو سرياني وإنما يقول الشعر من تكلم
بالعربية ، فلما قال آدم مرثيته في ابنه هايل وهو أول شهيد على وجه الأرض قال آدم لشيث يابني
إنك وصي فاحفظ هذا الكلام ليتوارثه الناس ، فلم يزل ينقل حتى وصل إلى يعرب بن قطحان بن
هود عليه السلام ، وكان يتكلم بالسريانية والعربية وهو أول من ركب الحيل وتكلم بالعربية وقال

الشعر فنظر في المراثية فاذا هو سجع فقال إن هذا ليقوم شعرا ، فردّ المقدم إلى المؤخر والمؤخر إلى المقدم فوزنه شعرا فما زاد فيه ولا نقص حرفا من ذلك فقال :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرّ قبيح
تغير كلّ ذى طعم ولون وقل بشاشة الوجه الصبيح
وقايل أذاق الموت هابسيل فواحزنا لقد فقد المليح
ومالى لأجود بسكب دمع وهایل تضمنه الضريح
وجاءت شعلة ولها رنين لهايلها وقابلها يصيح
لقتل ابن النبی بغير جرم فقلبي عند قتله جريح
وجاورنا لعين ليس يفنى عدو لا يموت فنستريح
وقالت حواء :

دع الشكوى فقد هلكا جميعا بموت ليس بالثمن الريح
وما يغنى البكاء عن البواكى إذا ما المرء غيب في الضريح
فأبك النفس وانزل عن هواها فلست مخلدا بعد الدريح

فأجابهما إبليس لعنه الله شامتا بهما :

تنح عن البلاد وساكنيها ففي الجنات ضاق بك الفسيح
وكنت بها وزوجك في رخاء وقلبك من أذى الدنيا مريح
فما زالت مكيدتي ومكرى إلى أن فاتك الثمن الريح
فلولا رحمة الجبار أضحى بكفك من جنان الخلد ريح

وقال سالم بن الجعد : لما قتل قاييل هايل مكث آدم مائة سنة لا يضحك ، ثم أتى ققيل له حياك

الله وأضحكك ولا أبكاك . قال ولما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة وذلك بعد ما قتل قاييل هايل بخمس سنين وله له شيث وتفسيره هبة الله يعنى أنه خلف الله من هايل وعلمه الله ساعات الليل والنهار وعبادة الخلق في كل ساعة منها ، وأنزل الله عليه خمسين صحيفة وكان وصى آدم وولىّ عهده ، وأما قاييل فقيل له اذهب فذهب طريدا شريدا فزعا مرعوبا لا يأمن من رآه فأخذ ييّدأخته إقليما وذهب بها إلى عدن من أرض اليمن ، فأتى إليه إبليس وقال له إنما أكلت النار قربان أخيك لأنه كان يخدم النار ويعبدها فانصب أيضا أنت نارا تكون لك ولعقبك فبنى بيت النار فهو أول من نصب النار وعبدها ، قال وكان لا يمر بواحد من ولده إلا رماه ، وكان لقاييل ولد أعمى ومعه ابن له ، فقال ابن الأعمى لأبيه هذا أبوك قاييل فرمى الأعمى أباه قاييل فقتله قال : فقال ابن الأعمى إنه أبوك فرفع يده فلفطمه فمات ، فقال الأعمى ويل لى قتلت أبى برميتى وقتلت ابنى بلطمتى . قال مجاهد فعلمت إحدى يدي قاييل إلى أخذها وساقها وعلقت من يومئذ إلى يوم القيامة ووجهت إلى الشمس حيث دارت وعليه في الصيف

حظيرة نار وفي الشتاء حظيرة ثلج . قالوا واتخذوا ولاد قاييل آلات اللهو من أنواع الطبول والزمار والطناير وانهمكوا في اللهو وشرب الخمر والزنا وعبادة النار والأوثان والفواحش حتى أغرقهم الله بالطوفان في زمن نوح عليه السلام وبقي نسل شيث عليه السلام والله اعلم .

الباب العاشر في ذكر وفاة آدم عليه السلام

ذكر أهل التاريخ وأصحاب الأخبار أن آدم عليه السلام مرض قبل موته أحد عشر يوماً وأوصى إلى ابنه شيث وكتب وصيته ودفعها إلى شيث وأمره أن يخفي ذلك من ولد قاييل لأن قاييل كان قد قتل هابيل حسداً منه له حين خصه آدم بتزويج أخته إقليا ، فخاف عليه أيضاً أن يقتله حين خصه آدم بالعلم ، فأخفى شيث وولده ما عندهم من الوصية فلم يكن عند قاييل وولده علم ينتفعون به .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « لما أخرج الله ذرية آدم من ظهره فجعل يعرضهم على آدم ، فاذا قوم عليهم التور فقال يارب من هؤلاء الذين عليهم النور؟ قال هؤلاء الأنبياء والرسول واذا فيهم رجل يزهو وهو أضوأهم نورا ، فقال يارب من هذا؟ فقال ذلك داود ، فقال يارب كم عمره؟ قال ستون سنة ، قال يارب زده في عمره ، قال لا إلا أن تزيد أنت من عمرك فقد جف القلم بأعمار بني آدم وكان عمر آدم ألف سنة فوهب له من عمره أربعين سنة فكتب الله عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة ، فلما مضى من عمره تسعمائة وستون سنة جاء إليه ملك الموت ليقبضه ، فقال آدم عجبت على ياملك الموت قال ما فعلت بل أنت استوفيت أجلك ، قال آدم قد بقي من عمري أربعون سنة ، قال إنك قد وهبتها لابنك داود ، قال ما فعلت ولا وهبت له شيئاً ، فأنزل الله الكتاب وأقام الملائكة شهوداً ، ثم إن الله أكمل لآدم ألف سنة وأكمل لداود مائة سنة . قال رسول الله ﷺ نسي آدم فنسيت ذريته وجحد فجدت ذريته فأمر الله بالكتاب والشهود من يومئذ .

قال ابن اسحق وغيره : ثم إن آدم مات واجتمعت عليه الملائكة لأنه صفي الرحمن فدفتته الملائكة وشيث واخوته في مشارق الفردوس عند قرية هي أول قرية كانت في الأرض وكسفت عليه الشمس والقمر ستة أيام بلياليهن فلما اجتمعت عليه الملائكة بعث الله إليه بمنحوط وكفن من الجنة ووليت الملائكة غسله ودفنه فغسلته بالسدر والماء وترا ، وكفنوه في ثلاثة ثياب ثم لحدوا له ودفنوه ثم قالوا هذه سنة ولد آدم من بعده . قال ابن عباس فلما مات آدم قال شيث لجبريل صل على آدم ، فقال له جبريل تقدم أنت فصل على أهلك فصلي عليه وكبر ثلاثين تكبيرة ، فأما خمس فهي الصلاة ، وأما خمس وعشرون فهي تفضيل لآدم . وقد اختلف في موضع قبره ، فقال ابن اسحق في مشارق الفردوس وقال غيره دفن بمكة وقيل في غار أبي قبيس وهو غار يقال له الغار الكبير .

وروى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال : مات آدم على جبل نود بالهند وقال ابن عباس لما كان أيام الطوفان حمل نوح تابوت آدم في السفينة ، فلما خرج من السفينة دفن آدم بيت المقدس ، وكانت وفاة آدم يوم الجمعة وعاشت حواء بعده سنة ، ثم ماتت فدفنت مع آدم عليهما السلام والله اعلم .

باب في الخصائص التي خص الله بها آدم عليه السلام

قال الأستاذ : خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه وجعله خاتمة خلقه ، في أحسن صورة وأقسم عليه فقال عز من قائل - والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم - ولقنه الحمد حين عطس ، ثم قال له يرحمك ربك ، فسبقت له رحمته غضبه وأسكنه بعد خلقه الجنة بلا عمل ، وأباح له جميع الجنة إلا شجرة واحدة ، وعلمه الأسماء كلها ، وأمر ملائكته بالسجود له وأمرهم بالتلقين ، وجعله أبا البشر وجعله خليفته في الأرض ، وعرف الملائكة فضله عليهم ، ولعن إبليس من أجله مع كثرة عبادته ، وعاتب الملائكة بسببه وهو أول حامد وأول تائب وأول مجتبي وأول مصطفى وأول خليفة لله في الأرض ، وهو المميز للأرواح الحبيثة من الطيبة وهو الباعث يوم القيامة بعث النار من ذريته فهذه ثلاث وعشرون خصلة من خصائصه ﷺ وشرف وكرم والله أعلم .

مجلس في ذكر النبي إدريس عليه السلام

قال الله تعالى - واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً - قال أهل العلم بأخبار الماضين وقصص النبيين : هو إدريس بن برد وقيل باريث بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم واسمه أخنوخ وسمى إدريس لكثرة درسه الكتب وصحف آدم وشيث وأمه أشوت وكان إدريس أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ولبس الخيط ، وأول من نظر في علم النجوم والحساب بعثه الله الى ولد قاييل ثم رفعه الى السماء وكان سبب رفعه الى السماء على ما قاله ابن عباس وأكثر الناس أنه سار ذات يوم فأصابه وهج الشمس فقال يارب إني مشيت في الشمس يوماً فتأذيت فكيف بمن يحملها خمسمائة عام في يوم واحد . اللهم خفف عنه ثقلها واحمل عنه حرها ، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف فقال يارب خفف عني حر الشمس فما حال الذي قضيت علي فيه ، فقال تعالى إن عبدى إدريس سألتني أن أخفف عنك ثقلها وحرها فأجبتني الى ذلك : فقال يارب اجمع بيني وبينه واجعل بيني وبينه خلة فأذن الله له فكان إدريس يسأله وكان مما سأله أن قال أخبرت أنك أكرم الملائكة على ملك الموت وأمكنهم عنده فاشفع لي اليه ليؤخر أجلي فأزاد شكراً وعبادة فقال الملك - لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها - قال قد علمت ذلك ولكنه أطيب لنفسى فقال أنا مكرم لك وما كان يستطيع أن يفعل لأحد من بني آدم فهو فاعله لك ثم حملة الملك على جناحه حتى رفعه الى السماء ووضعته عند مطلع الشمس ثم انه أتى إلى ملك الموت فقال له الى اليك حاجة فقال له أفعل لك كل شيء أستطيعه فقال لي صديق من بني آدم تشفع بي اليك لتؤخر أجله فقال ليس ذلك اليّ ولكن ان أحببت أعلمته أجله ومتى يموت فيتقدم في نفسه قال نعم فنظر في ديوانه فأخبره باسمه وقال إنك كلمتني في إنسان ما أراه يموت أبداً قال وكيف ذلك قال إني لأجده

يموت عند مطلع الشمس ، قال فاني أتيتك وتركتك هناك فقال له فانطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات والله ما بقي من أجل إدريس شيء فرجع الملك فوجده ميتا . قال وهب كان يرفع له كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لأهل الأرض جميعهم في زمانه فتعجبت منه الملائكة واشتاق اليه ملك الموت فاستأذن الله في زيارته فأذن له فأثاه في صورة بني آدم وكان إدريس يصوم الدهر فلما كان وقت إفطاره دعاه الى طعامه فأبى أن يأكل وفعل ذلك ثلاث ليال فأنكره وقال له في الليلة الثالثة اني أريد أن أعلم من أنت قال أنا ملك الموت استأذنت ربي أن أزورك وأصاحبك فأذن لي في ذلك فقال له إدريس لي اليك حاجة قال وما هي ؟ قال اقبض روحي فأوحى الله تعالى اليه أن اقبض روحه فقبض روحه ثم ردها الله عليه بعد ساعة فقال له ملك الموت فما الفائدة في سؤالك قبض الروح قال لأذوق كرب الموت وغمه فأكون له أشد استعدادا ثم قال له لي اليك حاجة أخرى قال وما هي قال ترفعي الى السماء لأنظري اليها والى الجنة فأذن له في ذلك فلما قرب من النار قال لي اليك حاجة قال وما تريد قال تسأل ملكا يفتح لي أبواب النار حتى أردوها ففعل ذلك ثم قال فكما أريتني النار فأرني الجنة فذهب به الى الجنة فاستفتحها ففتحت له أبوابها فدخلها فقال له ملك الموت اخرج لتعود الى مقرك فتعلق بشجرة وقال لا أخرج منها فبعث الله ملكا حكما بينهما فقال له الملك مالك لا يخرج قال لأن الله تعالى قال - كل نفس ذائقة الموت - وقد ذقته وقال تعالى - وإن منكم إلا واردها - وقد وردتها وقال تعالى - وما هم منها بمخرجين فلست أخرج فقال الله تعالى لملك الموت دعه فانه باذني دخل الجنة وبأمرى لا يخرج فهو حي هناك فتارة يعبد الله في السماء الرابعة وتارة يتنعم في الجنة ، والله أعلم

قصة هاروت وماروت

قال الله تعالى - واتبعوا ما اتلوا الشياطين على ملك سليمان - الآية . قال أهل التفسير : ان الشياطين كتبوا السحر والنجيمات على لسان آصف في مدة زوال ملك سليمان هذا ما علم آصف بن برخيا سليمان الملك ثم دفنوها تحت مصلاه ولم يشعر بذلك سليمان فلما مات استخرجوها من تحت مصلاه وقالوا للناس ما ملككم سليمان إلا هذه . قال السدي وذلك أن شيطانا تمثل على صورة إنسان فأتى نفرا من بني اسرائيل فقال هل أدلكم على كنز لا ينفد أبدا قالوا نعم قال فاحفروا تحت كرسى سليمان وذهب معهم فأراهم المكان وقام ناحية فقالوا له ادن فقال لا ولكني ههنا فان لم تجدوه فاقتلوني وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسى إلا احترق فحفروا فوجدوا تلك الكتب فلما أخرجوها قال الشيطان ان سليمان كان يضبط الجن والانس والشياطين والطير بهذا ثم طار الشيطان وذهب فأما علماء بني اسرائيل وصلاحاؤهم فقالوا معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان فان كان هذا علمه فقد هلك سليمان وأما الجهال والسفلة فأقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب أنبيائهم فأنزل الله هذه الآية إظهارا لعذر سليمان وبياناً لبراءته فهذه قصة الآية .

وأما قصة هاروت وماروت

فقال المفسرون : إن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة وذلك في زمن إدريس النبي عليه السلام عيروهم بذلك وأنكروا عليهم وقالوا هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء في الأرض واخترتهم فهم يعصونك فقال تعالى لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ماركت فيهم لفعلتم مثل ما فعلوا قالوا سبحانك ربنا ما كان ينبغي لنا أن نعصيك قال الله تعالى اختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض فاختروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم قال الكلبي قال الله تعالى اختاروا ثلاثة منكم فاختروا عزا وهو هاروت وعزايا وهو ماروت وعزريائيل وانما غير اسميهما لما اقترفا الذنب كما غير الله اسم إبليس وكان اسمه عزازيل فركب الله تعالى فيهم الشهوة التي ركبها في بني آدم وأهبطهم إلى الأرض وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق ونهاهم عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر . فأما عزريائيل فإنه لما وقعت الشهوة في قلبه استقال ربه وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله ورفعه وسجد أربعين سنة ثم رفع رأسه ولم يزل بعد ذلك مطأطئا رأسه حياء من الله تعالى ، وأما الآخران فإنهما ثبتا على ذلك يقضيان بين الناس يومهما فإذا أمسيا ذكرا اسم الله تعالى الأعظم وصعدا إلى السماء . قال قتادة فامرّ عليهما شهر حتى افتتنا وذلك أنه اختصم اليهما ذات يوم الزهرة وكانت من أجمل النساء . قال علي رضي الله عنه كانت من أهل فارس وكانت ملكة في بلدها فلما رأياها أخذت بقلوبهما فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت ثم عادت في اليوم الثاني ففعلتا مثل ذلك فقالت لا إلا أن تعبداما أعبد وتصليا لهذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر فقالا : لا سبيل إلى هذه الأشياء فإن الله قد نهانا عنها فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفي نفسها من الميل اليهما ما فيها فراوداها عن نفسها فأبت وعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقالا : الصلاة لغير الله أمر عظيم وقتل النفس عظيم وأهون الثلاثة شرب الخمر فشربا الخمر فانتشيا ووقعا بالمرأة وزنيا بها فرآهما إنسان فقتلاه . قال الربيع ابن أنس وسجدا للصنم فمسخ الله الزهرة كوكبا ، وقال علي رضي الله عنه والسدى والكلبي إنها قالت لا تدركاني حتى تعلماني الذي تصعدان به إلى السماء فقالا نصعد باسم الله الأعظم فقالت فما أتيا بمدركي حتى تعلمانيه قال أحدهما لصاحبه علمها فقال إني أخاف الله فقال الآخر فأين رحمة الله تعالى فعلمها ذلك فتكلمت به وصعدت إلى السماء فمسخها الله تعالى كوكبا . قال الأستاذ فعلى قول هؤلاء هي الزهرة بعينها وقال آخرون هي هذا الكوكب الأحمر واسمها بالفارسية ناهيد وبالقبطية بادخت ، يدل على صحة هذا القول ما أخبرنا به يحيى بن إسماعيل بإسناده عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال كان النبي ﷺ إذا رأى سهيلا قال لعن الله سهيلا إنه كان عشارا باليمن ولعن الله الزهرة فأنها فتنت ملكين هاروت وماروت .

وقال مجاهد : كنت مع ابن عمر ذات ليلة فقال لي أرمق الكوكب يعني الزهرة فاذا طلعت فأيقظني

فلما طلعت أيقظته فلما نظر إليها سبها سباً شديداً فقلت يرحمك الله تسب نجماً سامعاً مطيعاً فقال إن هذه كانت بغياً فلقى الملكان منها ما لقياً وكذلك قال ابن عباس ، وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا الزهرة من الكواكب السبعة السيارة التي جعلها الله تعالى قواماً للعباد وأقسم بها فقال تعالى - فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس - وإنما كانت التي فتنت هاروت وماروت امرأة تسمى زهرة لجمالها فلما زنت مسخها الله شهياً فلما رأى رسول الله ﷺ الزهرة ذكرت لك المرأة الموافقة لهذا الاسم فلعلها وكذلك سهيل العشار كان رجلاً فلما رأى رسول الله ﷺ هذا النجم الموافق اسمه لاسم هذا الرجل لعنه ، يدل عليه ما روى قيس بن عباد عن ابن عباس في هذه القصة قال كانت امرأة فضلت على النساء بالحسن والجمال كما فضلت هذه الزهرة على سائر الكواكب فلما أمسى هاروت وماروت بعد ما قارفاً اللب بها بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما فعلما ما حل بهما فقصدا إلى أدریس عليه السلام فأخبره بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله تعالى وقال له إنارأيتناك يصعدك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاشفع لنا إلى الله تعالى قال ففعل أدریس ذلك فخيرها الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاخترت عذاب الدنيا لأنه ينقطع فهما يابل يعذبان .

واختلف العلماء في كيفية عذابهما : فقال ابن مسعود هما معلقان بشعورهما إلى قيام الساعة . وقال مقاتل كبلان من أقدمهما إلى أصول أفخاذهما . وقال مجاهد ملء جب ناراً فجعل فيه وقال عمرو بن سعيد هما معلقان منكسان في السلاسل يضربان بسياط الحديد .

وروى أن رجلاً قصدهما لتعلم السحر فوجدتهما معلقين بأرجلهما مزرقة أعينهما مسودة وجوههما ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا أربعة أصابع وهما يعذبان بالعطش فلما رأى ذلك هاله مكانهما فقال لا إله إلا الله فلما سمع كلامه قال لا إله إلا الله من أنت قال رجل من الناس قال له ومن أي أمة أنت قال من أمة محمد ﷺ قال أوبعث محمد ﷺ قال نعم فحمداً الله تعالى وأظهرا الاستبشار فقال الرجل ومما استبشاركما قال إنه نبي الساعة وقد دنا انقضاء عذابنا .

وروى هشام عن عائشة أنها قالت قدمت امرأة من دومة الجندل جاءت تبغى رسول الله ﷺ بعد موته تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر وما تعمل به فقالت عائشة لعروة يا ابن أختي فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ فكانت تبكي حتى رحمتها ثم قالت إني لا أخاف أن أكون قد هلكت ثم قالت كان لي زوج غاب عني فدخلت على عجوز فشكوت لها ذلك فقالت إن فعلت ما أمرك به جعلته يأتيك فلما كان الليل جاءني بكليين أسودين فركبت أحدهما وركبت هي الآخر فلم يكن كثير حتى وقفنا يابل وإذا برجلين معلقين بأرجلهما فقالا ما جاء بك فقلت أتعلم السحر فقالا إنما نحن فتنة فلا تكفري فارجعي من حيث أتيت فقلت لا قالاً فاذهي إلى ذلك التنور فبولي فيه فذهبت لأبول ففرغت فلم أفعل فرجعت فقالا فعلت قلت نعم فقال هل رأيت شيئاً فقلت لم أر شيئاً فقالا لم تفعل شيئاً فارجعي إلى بلادك ولا تكفري فأبيت فقالا اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه فذهبت فاقشعر جلدی وخفت

ثم رجعت اليهما فقلت قد فعلت فقالا ما رأيت قلت لم أر شيئا قالوا كذبت لم تفعلى فارجمى الى بلادك ولا تكفرى فانك على رأس أمرك فقلت لا فقالا الى اذهبي الى ذلك التور فبولى فيه فذهبت اليه فبليت فيه فرأيت فارسا مقنعا بحديد خرج منى حتى ذهب فى السماء وغاب حتى ما أراه فبجثهما ؟ فقلت قد فعلت قالوا فما رأيت قلت رأيت فارسا مقنعا بالحديد خرج منى وذهب فى السماء فلم أراه قالوا صدقت ذلك إيمانك خرج منك فاذهبي . فقلت للمرأة والله ما أعلم شيئا ولا قالوا لى شيئا فقالا لا تريدن شيئا الا كان ، خذى هذا القمح فابذريه فبذرتة ثم قلت له اطلع فطلع فقلت له انحصد فحصد فقلت له انفرك ففرك ثم قلت انطحن فطحن ثم قلت انخير فخير فلما رأيته أتى لا أريد شيئا إلا كان سقط فى يدي فرجعت وندمت والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئا قط ولا أفعله أبدا .

قال الأوزاعى بلغنى أن جبريل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا جبريل صف لى النار فقال ان الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة لا يطفأ جمرها ولا يحمد لها والذى بعثك بالحق لو أن ثوبا من ثياب أهل النار ظهر لأهل الأرض لما تروا جميعا ولو أن ذنوبا من شرابها صب فى ماء الأرض جميعا لقتل من ذاقه ولو أن حلقة من السلسلة التى ذكرها الله وضعت على جبال أهل الأرض جميعا لدابت وما استقلت ولو أن رجلا دخل النار وخرج لمات أهل الأرض من تن ربحه وتشويه خلقه وعظمه فبكى النبى ﷺ وبكى جبريل لبكائه وقال أتبكي يا محمد وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا وبكى جبريل فقال يا جبريل أتبكي وأنت الروح الأمين أمين الله على وحيه قال أخاف أن أبلى بما ابتلى به هاروت وماروت فهذا الذى منى من اتكالى على منزلى عند ربى فأكون قد أمنت مكره فلم يزلوا بكيان حتى نودىا من السماء يا جبريل ويا محمد ان الله تعالى قد أمنكما من غضبه فلا يعذبكما وان فضل محمد ﷺ على سائر الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة .

مجلس فى قصة نوح عليه السلام

قال الله تعالى لنبيه عليه السلام - واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه - الآية وهو نوح بن ملك بن متوشلخ بن أخنوخ بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث عليه السلام وأمه قينوش بنت راكيل وقيل بنت كاييل بن مخوئيل بن أخنوخ أرسله الله تعالى إلى ولد قاييل ومن تابعهم من ولد شيث . قال ابن عباس : وكان بطنان من ولد آدم أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل وكان فى رجال الجبل صباحة وفى نساء السهل صباحة وفى الرجال دمامة وان ابليس أتى رجلا من أهل السهل فى صورة غلام فأجر نفسه منه وكان يخدمه واتخذ ابليس شيئا مثل الذى يزر به الرعاة فجاء منه بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حولهم فأتوهم مستمعين اليه واتخذوه عيدا يجتمعون اليه فى السنة فتبرج النساء للرجال والرجال لهن وان رجلا من أهل الجبل هجم عليهم

وهم في عيدهم فرأى النساء وصباحتهن فجاء إلى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا اليهم فنزلوا معهم وظهرت الفاحشة فيهم وهو قوله تعالى - ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى - .

قال ابن عباس : كان آدم أوصى أن لاينا كح بنو شيث بنى قايل فجعل بنو شيث آدم في مغارة وجعلوا عليه حفاظا لئلا يقربه أحد من أولاد قايل وكان الذي يأتونه ويستغفر لهم بنو شيث . فقال مائة من بنى شيث صباح لو نظرنا مافعل بنو عمنا يعنون بنى قايل فهبطت المائة الى نساء السهل صباح الوجوه من بنى قايل فاحتبس النساء الرجال ثم مكثوا ماشاء الله . فقال مائة أخرى : لو نظرنا مافعل اخوتنا فهبطوا من الجبل اليهم فاحتبسهم النساء ثم هبط بنو شيث كلهم فظهرت المعصية وتناكحوا واختلطوا وكثر بنو قايل حتى ملئوا الأرض وأكثروا الفساد فبعث الله اليهم نبيهم نوحا وهو ابن خمسين سنة فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما يدعوهم إلى الله تعالى ويخوفهم بأسه ويحذرهم سطوته كما أخبر الله تعالى بقوله - رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدكم دعائى إلا فرارا - وقال تعالى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى - وقال تعالى - وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين - .

وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : إن نوحا كان يضرب ثم يلف في لبد ثم يلقي في بيته فيرون أنه قد مات ثم يخرج فيدعوهم حتى آيس من إيمان قومه فبعد ذلك جاء رجل ومعه ابنه يتوكأ على عصا . فقال يا بنى انظر إلى هذا الشيخ إياك أن يغرك فقال يا أبت مكنى من العصا فأعطاه العصا فقال ضعنى في الأرض فوضعه فمشى اليه فضربه بالعصا فقال نوح رب قد ترى ما يصنع بى عبادك فان يكن لك فى عبادك حاجة فاهدم وان يكن غير ذلك فصبرنى إلى أن تحكم بينى وبينهم وأنت خير الحاكمين فأوحى الله اليه - انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون - فأيسه من إيمان قومه وأخبره أنه لم يبق فى أصلاب الرجال ولا أرحام النساء مؤمن فعند ذلك دعا عليهم وقال رب انهم عصوني . الآية إلى قوله : ولا تذرن دنا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا - وهى أسماء أصنام لهم كانوا يعبدونها من دون الله وقوله تعالى - رب لا تذرنى على الأرض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا - وقوله تعالى - ولا تزد الظالمين إلا تبارا - أى هلاكا ودمارا فأجاب الله دعاءه وأمره أن يصنع الفلك كما قال تعالى - واصنع الفلك بأعيننا ووحينا - الآية قال نوح يارب وما الفلك ؟ قال بيت من خشب يجرى على وجه الماء حتى أغرق أهل المعصية وأريج أرضى منهم قال نوح يارب أين الماء قال يانوح انى على ماأشاء قدير قال نوح يارب وأين الخشب قال أغرس الشجر فغرس الساج وآتى على ذلك أربعون سنة وكفى فى تلك المدة عن الدعاء فلم يدعهم فأعقم الله تعالى أرحام نساءهم فلم يولد لهم ولد فلما أدرك الشجر أمره ربه أن يقطع الشجر فقطعه وجففه ثم قال يارب كيف آخذ هذا البيت قال اجعله أزور على ثلاث صور رأسه كرأس الديك وجوفه كجوف الطير وذنبه كذنب الديك مائلا واجعلها مطبقة واجعل أبوابها فى جنبها واجعلها ثلاث طبقات واجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا وطولها

في السماء ثلاثين ذراعا والذراع إلى النكب هذا قول أهل الكتاب ثم بعث الله جبريل يعلم نوحا صنعة الفلك وكان نوح يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره وكان قومه يمرون عليه وهو في عمله فيسخرون منه ويقولون يا نوح قد صرت نجارا بعد النبوة ثم يقولون ألا ترون إلى هذا المجنون يتخذ بيتا يسير به على الماء ويضحكون منه وذلك قوله تعالى - ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه - فيقول نوح : ان تستخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم - وأوحى الله تعالى إلى نوح أن يجلس صنعة الفلك فقد اشتدّ غضبي على من عصاني فاستأجر نوح أجراء يعملون معه وأولاده سام وحام ويافث ينحتون معه السفينة فجعل السفينة طولها ستمائة ذراع وستون ذراعا وعرضها ثلثمائة وثلاثون ذراعا وطولها في السماء ثلاثة وثلاثون ذراعا هذا قول ابن عباس في رواية الضحاك وطلاها بالقار داخلها وخارجها وشدها بالسر وهي مسامير الحديد وذلك قوله تعالى - وحملناه على ذات ألواح ودسر - وجرّ الله له عين القار بجانب السفينة تغلي غليانا حتى طلاها به فلما فرغ من صنع السفينة أوحى الله إليه أن احمّل فيها من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات كلها حتى لا ينقطع نسلهم وحشرها الله إليه من البرّ والبحر والسهل والجبل وقد جعل الله فوران التنور آية بينة وبين نوح وعهد الله إليه فقال اذا رأيت التنور فاركّب أنت ومن معك على الفلك واحمل فيها من كل زوجين اثنين كما قال الله تعالى - حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور : أي عذابنا وهو الطوفان قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين - الآية .

واختلف العلماء في قوله تعالى - وفار التنور - قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يعني طلع الفجر ونور الصبح وقال ابن عباس انبجس الماء من وجه الأرض والعرب تسمى وجه الأرض تنورا وقال قتادة التنور أشرف موضع في الأرض وأعلى مكان فيها وقال الحسن أراد بالتنور الذي يخبز فيه وكان تنورا من حجارة ، وكان لآدم ثم انتقل إلى نوح فقبل له اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركّب أنت وأصحابك فنبع الماء من التنور فعلت به امرأته فأخبرته ، واختلفوا في موضعه فقال مجاهد كان ذلك في ناحية الكوفة .

وروى السدي عن الشعبي أنه كان يحلف بالله ما فار التنور إلا في ناحية الكوفة وقال اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور عن يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان فوران الماء علما لنوح ودليلا على هلاك قومه . وقال مقاتل ذلك تنور آدم وإنما كان بالشام في موضع يقال عين ورد . وقال ابن عباس كان التنور بالهند والفوران هو الغليان فلما رآه نوح أيقن بنزول العذاب فحمل من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات كما أمره الله تعالى .

قال ابن عباس : أرسل الله المطر أربعين يوما وليلة فأقبلت الوحوش والطيور والدواب إلى نوح حين أصابها المطر وسخرت له فحمل منها من كل زوجين اثنين فكان أول ما حمل نوح في الفلك

من الدواب الدرة وآخر ما حمل الحمار فلما دخل الحمار بصدوره تعلق إبليس بذنبه فلم تستقل رجلاه فجعل نوح يقول ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قالو ويحك ادخل وان كان الشيطان معك كلمة زل بهالسانه فلما قالها نوح خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه فقال له نوح ما أدخلك يا عدو الله فقال ألم تقل ادخل ولو كان الشيطان معك قال أخرج يا عدو الله قال ما أخرج وما كان بذلك أن تحملني معك وكان فيما يزعمون على ظهر الفلك

قال مالك بن سليمان الهروي : إن الحية والعقرب أتيا نوحا ققالا احملنا فقال انكما سبب الضر والبلايا فلا أحملكما قالا احملنا ونحن نضمن لك أن لا نضر أحدا ذكرك فمن قرأ حين يخاف مضرتهما سلام على نوح في العالمين انا كذلك نجزي المحسنين انه من عبادنا المؤمنين لم يضره .

عن وهب بن منبه : قال لما أمر الله تعالى نوحا أن يحمل من كل زوجين اثنين قال كيف أصنع بالأسد والبقر وكيف أصنع بالعناق والذئب وكيف أصنع بالحمام والهر ؟ قال الله تعالى له من ألقى بينهم العداوة ؟ قال أنت يارب قال فأنا أولف بينهم حتى لا يتضاروا فحمل نوح السباع والدواب في الطبقة الأولى فألقى الله على الأسد الحمى وشغله بنفسه عن الدواب والبقر ولذلك قيل :

وما الكلب محموما وان طال عمره لعمره ما المحموم دوما سوى الأسد

وجعل الوحوش في الطبقة الثانية ، وركب هو ومن معه من أولاد آدم في الطبقة العليا ، وجعل الدرة معه في الطبقة العليا شفقة عليها لئلا يقتلها شيء .

واختلفوا في أهل السفينة الذين ذكرهم الله تعالى في قوله تعالى - وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم - . قال الضحاك كان نوح إذا أراد أن ترسو السفينة قال باسم الله فرست وإذا أراد أن تجرى قال باسم الله فجرت على الماء فذلك قوله تعالى - بسم الله محجريها ومرساها - الآية - ومن آمن وما آمن معه إلا قليل - من هم وكم هم ؟ قال قتادة لم يكن في السفينة إلا نوح وامراته وثلاثة من بنيه سام وحام وياث ونساؤهم فجميعهم ثمانية فأصاب حام امراته في السفينة فدعا نوح ربه قال فتغيرت نطفته فجاء بالسودان .

قال الكلبي : أمر نوح أن لا يقرب ذكر أنثى مادام في السفينة فوثب الكلب على الكلبة فدعا عليه نوح . فقال نوح اللهم اجعله عسرا ، وقال الأعمش كانوا سبعة نوح وثلاثة بنين وثلاثة كنائن له . وقال اسحق كانوا عشرة سوى نساءهم وهم نوح وبنوه سام وحام وياث وستة إناث ممن كانوا آمنوا معه وأزواجهم جميعا . وقال مقاتل : كانوا سبعين ونوح وامراته وبنوه الثلاثة ونساؤهم فكان الجميع ثمانية وسبعين نفسا نصفهم نساء ونصفهم رجال . وقال ابن عباس كانوا عمانين انسانا وحمل نوح جسد آدم معه وجعله معرضا حاجزا بين الرجال والنساء .

قالوا فلما ركب نوح في الفلك وأدخل معه كل من آمن كان ذلك في شهر آب بالرومية فلما دخل

وحمل معه من حمل تحركت ينايع الارض والغوط الأكبر وأمطرت السماء كأفواه القرب كما قال تعالى - ففتحن أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر - يعنى التقي ماء السماء وماء الأرض فجعل الماء ينزل من السماء وينبع من الأرض حتى كثر واشتد وكان بين ارسال الماء وبين احتمال الماء الفلك أربعين يوماً وليلة ثم احتمل الماء الفلك وكان كنعان بن نوح تخلف عن أبيه . قال قتادة لم يركب في السفينة فناداه نوح - وكان في معزل يابني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى إلى جبل يعصمى من الماء قال لعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم - وكان عهد كنعان الجبال أنها تحصن من المطر فظن ذلك كما كان فقال نوح - لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين - وكثر الماء فارتفع فوق الجبال . قال ابن عباس ارتفع على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعاً .

وروت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم المرأة أم الصبي وذلك أنها خشيت عليه من الماء وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت قلته فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل وحملت الصبي فلما بلغ رقبته رفعته بيدها حتى ذهب بهما الماء فلو رحم الله أحداً منهم لرحم هذه . قالوا ثم طافت السفينة بأهلها الأرض كلها في ستة أشهر لا تستقر على شيء حتى أتت الحرم فلم تدخله ودارت بالحرم أسبوعاً وقد رفع الله البيت الذى كان يحججه آدم صيانة له من العرق وهو البيت المعمور وخبأ جبريل الحجر الأسود في جبل أبي قيس . فلما طافت السفينة بالحرم ذهبت في الأرض تسير بهم حتى انتهت إلى الجودي وهو جبل حصين من أرض الموصل فاستقرت عليه . قال مجاهد : تشاحت الجبال وتطاوت لثايلها ماء فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعاً وتواضع لأمر ربه الجودي فلم يغرق فأرست السفينة عليه فذلك قوله تعالى - واستوت على الجودي - .

وقال ابن عباس استوت السفينة على الجودي وقد باد ما على وجه الأرض من الكفار ومن كل شيء فيه الروح والأشجار فلم يبق شيء من الحيوانات إلا نوح ومن معه في الفلك والإعوج بن عنق فذلك قوله تعالى - وقيل بعدا للقوم الظالمين - أى هلاكاً . قال ابن عباس : كان عوج يحتجز بالسحاب ويشرب منه من طوله ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله فقال لنوح احملني معك فقال اخرج يا عدو الله فاني لم أؤمر بحملك ، وطبق الله الماء على وجه الأرض والجبال وما بلغ ركبتى عوج بن عنق ، فلما استوت السفينة على الجودي قيل يا أرض ابلعي ماءك أى انشفي وياسماء أقلعي أى احبسي ماءك وغيض الماء أى ذهب ونقص فصار ما نزل من السماء هذه البحور التي في الأرض لأنها آخر ما بقي في الأرض من ماء الطوفان وبقي في الأرض أربعين سنة ثم ذهب .

وروى عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قال الحواريون لعيسى ابن مريم عليه السلام لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى بهم إلى

كثيب من تراب ، فأخذ كفا من ذلك التراب ، فقال أتدرون ما هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب سام بن نوح ، قال ثم ضرب الكتيب بعصاه وقال له قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى أهكذا هلكت قال لا بل مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت ، فقال له حدثنا عن سفينة نوح قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة فيها الدواب والوحوش وطبقة فيها الانس وطبقة فيها الطير ، فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله الى نوح أن اغمر ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث فأكلاه ، فلما كثرت الفأر في السفينة وجعل يقرض حبالها وذلك أنه توالد في السفينة أوحى الله تعالى الى نوح أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأرة فأكلاه ، فقال له عيسى كيف علم نوح أن البلاد قديست . قال بعث نوح غرابا يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوق عليها واشتغل عن الرجوع فدعا عليه نوح بالخوف فلذلك لا يألف البيوت ، ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها فعلم أن البلاد قد جفت قال فطوقها بالخرصة التي في عنقها ودعا لها أن تكون في أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت ، فقالوا يا رسول الله ألا نطلق به الى أهلنا فيجلس معنا ويحدثنا قال كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ ثم قال له عديا ذن الله تعالى فعاد ترابا .

قال أهل التاريخ : أرسل الله الطوفان لثلاثة عشرين يوما خلت من آب ومضى ستمائة سنة من عمر نوح ولستمة ألفي سنة ومائة سنة وست وخمسين سنة من لدن أهبط آدم الى الأرض وركب نوح ومن معه في السفينة لعشر خلون من رجب وخرجوا منها في العاشر من المحرم فلذلك سمي يوم عاشوراء وأقاموا في الفلك ستة أشهر ، فلما هبط نوح ومن معه من الفلك سالمين صام نوح وأمر جميع من معه من الانس والوحوش والدواب والطير فصاموا شكرا لله تعالى ، ويقال ان نوحا وقومه كانت قد أظلمت عليهم أعينهم في السفينة من دوام النظر الى الماء ، فأمروا بالاكتحال يوم عاشوراء الذي خرجوا فيه من السفينة . عن ابن عباس : قال قال رسول الله ﷺ « من اكتحل بالإمد يوم عاشوراء لم ترمد عينه أبدا » ، فلما خرج نوح ومن معه من السفينة اتخذ في ناحية من أرض الجزيرة موضعا وابنتي هناك قرية سموها سوق ثمانين لأنه كان ابنتي فيها لمن آمن معه وهم ثمانون فهي اليوم تسمى سوق ثمانين ، فأوحى الله تعالى الى نوح أنه لا يعود الطوفان الى الأرض أبدا وعاش نوح بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة فكان جميع عمره ألف سنة وإلا خمسين عاما ثم قبضه الله تعالى اليه هذا هو أكثر أقاويل العلماء وكذلك هو في التوراة . وقال عون بن أبي شداد عاش نوح بعد الطوفان ألف سنة وإلا خمسين عاما وقبله ثلثمائة وخمسين سنة فعلى هذا القول يكون مبلغ عمر نوح ألفا وثلثمائة سنة .

ويروى أنه قيل لنوح لما احتضر كيف وجدت الدنيا ؟ قال كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر ، ولما حضرته الوفاة أوصى ابنه ساما وجعله ولي عهده وكان ولده سام قبل الطوفان بثان وسبعين سنة ، وقيل لما حضرته الوفاة دعا ابنه ساما وهو بكره فقال يا بني أوصيك باثنتين وأنهاك عن

اثنتين . فأما اللذان أنهما فالإشراك بالله والكبر فإنه لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من الشرك والكبر . وأما اللذان أوصيك بهما فاني رأيتهما يكثران الولوج الى الله تعالى قول لا إله إلا الله وسبحان الله ، فان قول لا إله إلا الله لو جمعت السموات السبع والأرضون السبع لخرقتهما حتى تبلغ الى ربها ولو جعلت لا إله إلا الله في كفة ميزان لرجحت بالسموات السبع والأرضين السبع وما فيها ، وأوصيك بسبحان الله فانها صلاة الخلق وبها يرزقون .

ذكر خصائص نوح عليه السلام

وهي خمس عشرة خصلة : لم يسم أحد من الأنبياء باسمه وسمى بذلك لكثرة نوحه على نفسه وكان أول نبي من أنبياء الشريعة وأول داع من الله تعالى وأول نذير عن الشرك وأول من عذبت أمته لردم دعوته وأهلك أهل الأرض كلهم بدعائه ، ويقال ان الله تعالى أوحى اليه بعد الطوفان : إني خلقت خلقى وأمرتهم بطاعتى فأتهمكم بمعصيتي فاشتد لذلك غضبي فعذبت بذنوب العاصين من لم يعصني وعذبت بذنوب بني آدم جميع خلقى فبي حلفت أني لأعذب مثل هذا العذاب أحدا من خلقى بعدها ولكن أجعل الدنيا دولا بين عبادي ثم أجزيهم بأعمالهم إذا اجتمعوا عندي ، وكان عليه السلام أطول الأنبياء عمرا وقيل له أكبر الأنبياء وشيخ المرسلين وجعل معجزته في نفسه لأنه عمر ألف سنة ولم ينقص له سن ولم ينقص له قوة ولم يبالغ أحد من الرسل في الدعوة مثل ما بالغ وكان يدعو قومه ليلا ونهارا واعلانا واسراراً ولم يلق نبي من أمته من الضرب والشم وأنواع الأذى والجفاء مالم يلقى فلذلك قال الله تعالى - وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين - وجعل ثاني المصطفى ﷺ في الميثاق والوحي قال الله تعالى - واذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح - ، وقال تعالى - إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده - وفي البعث هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة بعد محمد ﷺ وأعطاء الفلك وعلمه صنعه وحفظه بما فيه وأجراه فوق الماء وسماه شكورا ، فقال تعالى - ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا - وأكرمه بالسلامة والبركة فقال تعالى - يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك - الآية .

قال محمد بن كعب القرظي : دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وجعل ذريته هم الباقيين فهو أول البشر وأصل النسل .

وروى عن الحسن بن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ « ولد لنوح ثلاثة سام وحام ويافت : فسام أبوالعرب وفارس والروم ، وحام أبوالسودان ، ويافت أبوالترك ويا جوج وما جوج » . قال عطاء : ودعا نوح على حام أن لا يعدو شعر ولده آذانهم وحيثما كان ولده يكونون عبيدا لولده سام ويافت ، فلما هبط نوح وذريته من الفلك قسم الأرض بين ولده أثلاثا فجعل لسام وسط الأرض ففيها بيت المقدس والنيل والقرات ودجلة وسيحون وجيحون ، وذلك ما بين قيسون الى شرق النيل وما بين مجرى الجنوب الى مجرى الشمال وجعل لحام قسمه غربي النيل وما بين مجرى ربح الجنوب وما

وراءه الى سيحون الى مجرى ربح الدبور ، وجعل قسم يافث من قيسون فما وراءه الى مجرى الصبا فذلك قوله تعالى - وجعلنا ذريته هم الباقين وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين - .

مجلس في قصة هود عليه السلام

قال الله تعالى - وإلى عاد أخاهم هودا ، إلى تقون - وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وهو عاد الأولى وكانوا ينزلون اليمن وكانت منازلهم منها بالشحر والأحقاف كما قال الله تعالى - واذكر أخا عاد إذا نذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر - الآية ، وهو رمال يقال له لهارمل عاج وهو ما بين عمان إلى حضرموت ، وكانوا مع ذلك قد فشا في الأرض وكثروا وقهروا أهلها لفضل قوتهم التي آتاهم الله تعالى وكان قد أعطاهم الله من القوة والقامة ما لم يعط غيرهم كما قال الله تعالى - واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة - أي عظما وطولا وقوة وشدة .

قال أبو حمزة اليماني : كان طول كل رجل منهم سبعين ذراعا . وقال ابن عباس ثمانين ذراعا . وقال الكلبي كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعا .

وقال وهب : كان رأس أحدهم كالقبة العظيمة وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع وكذلك مناخرهم وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله تعالى فمنها صنم يقال له صدى وصنم يقال له هرد وصنم يقال له هيا ، فبعث الله إليهم هودا نبيا وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا وهو هود بن عبد الله ابن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . وقال محمد بن اسحق بن يسار : وهو دبن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وولد لشالخ عابر بعد أن مضى من عمره ثلاثون سنة ، فأمرهم هود أن يوحدوا الله تعالى ولا يجعلوا معه إلها غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس ولم يأمرهم فيما يذكر بغير ذلك فأبوا ذلك عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة وبنو المصانع وبطشوا فيها بطش الجبارين كما قال الله تعالى - أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين - ، فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى أضربهم ذلك وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وجهد طلبوا من الله تعالى الفرج وكان طلبهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام بمكة مسلمهم وكافرهم فيجتمع بمكة ناس كثير شتى مختلفة أديانهم وكأهم معظم لمكة عارف بحرمتها ومكاتها عند الله تعالى وأهل مكة يومئذ العماليق ، وإنما سموا العماليق لأن أباهم عمليق بن سام بن نوح وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت أم معاوية اسمها ناهدة بنت الجبيري رجل من عاد ، فلما قحط المطر عن عاد جهدوا وقالوا جهزوا منكم وفدا إلى مكة فليستسقوا لكم فبعثوا منهم قبل بن عنز ولقيم بن هزال بن هزيل وعيل بن ضد بن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلما كتم إسلامه وجاهلهم بن الحيري خال معاوية بن بكر ، ثم بعثوا أيضا لقمان بن عاد بن ضد

ابن عاد الأكبر فأنطلق كل رجل من هؤلاء القوم ومعه رهط من قومه حتى بلغ عدد وفدهم سبعين رجلا ، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارج الحرم ، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجردتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر وكان مسيرهم شهرا ومقامهم شهرا فلما رأى معاوية طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يستغيثون من البلاء الذي أصابهم شق ذلك عليه وقال هلك أخوالي وأصهارى وهؤلاء مقيمون عندى وهم ضيقي والله ما أدري كيف أصنع بهم فاستحي أن أمرهم بالخروج إلى ما بعثوا إليه فيظنون أنه ضيق منى بمقامهم عندى ، وقد هلك من وراءهم من قومهم جهدا وعطشا ، فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين فقالتا له قل شعرا تغنيهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك يحركهم ، فقال معاوية بن بكر :

ألا يا قيل ويحك قم فهيم لعل الله يمنحنا غماما
فتسقى أرض عاد إن عادا قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس ترجوا به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم عيامى
وان الوحش يأتهم جهارا ولا يخشى لعادى سهامها
وأنتم ههنا فيما اشتبهتم نهاركمو وليلكموا تماما
قبح وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية والسلاما

فلما غنثهم الجرادتان بهذا قال بعضهم لبعض يا قوم انما بعثكم قومكم يستغيثون بكم من هذا البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا هذا الحرم فاستسقوا لقومكم ، فقال مرثد بن سعد وكان قد آمن بهود عليه السلام سرا انكم والله لا تستقون بدعائكم ولكن ان أطعم نبيكم وأنبتم إلى ربكم سقيتم ، فأظهر اسلامه عند ذلك . قال جلهممة بن الحيرى خال معاوية حين سمع قوله وعرف أنه قد تبع دين هود عليه السلام :

أبا سعد فانك من قبيل ذوى كرم وأملك من ثمود
فانا لا نطيعك ما بقينا ولسنا فاعلين لما تريد
أتأمرنا لنترك دين رفد ورمل وآل ضد والعبود
ونترك دين آباء كرام ذوى رأى وتبع دين هود

ثم قال لمعاوية بن بكر وأبيه بكر وكان شيخا كبيرا احبسا عنا مرثد بن سعد حتى لا يقدم معنا مكة فانه قد تبع دين هود وترك ديننا ، ثم دخلوا إلى مكة يستسقون لعاد بها فلما دخلوا مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية حتى أدركهم بمكة قبل أن يدعوا الله بشيء مما خرجوا إليه ، فلما انتهى قام يدعو الله ووفد عاد قد أخذوا يدعون ، فجعل يقول : اللهم أعطنى سؤلى وحدى ولا تدخلنى فى شيء مما يدعو به وفد عاد ، وكان قيل بن عذر رأس وفد عاد قد أمرهم أن يؤمنوا عليه

فقال وفد عاد اللهم أعط قبلا ماسألك واجعل سؤالنا مع سؤاله وكان تخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد ولم يدخل في دعوتهم ، فقال اللهم إني جئتك وحدي في حاجتي فأعطني سؤلي ، وقال قيل بن عنز حين دعا واستسقى اللهم لم أجىء لمريض فأداويه ولا لأسير فأفاديه اللهم اسق عاد ما كنت تسقيهم بإلهنا إن كان هود صادقا فاسقنا فانا قد هلكنا ، فأنشأ الله سحاب ثلاثا واحدة بيضاء وواحدة حمراء وواحدة سوداء ، ثم ناداه مناد من السحاب ألا يا قيل اختر لنفسك واحدة من هذه السحب الثلاث ، فقال قيل اخترت السحابة السوداء فانها أكثر السحاب ماء ، فناده المنادي يقول اخترت يا قيل رمادا رمدا لم تبق من آل عاد أحدا لا ولدا تتركه ولا والدا إلا جعلتهم رميا همدا إلا بنو اللويذة المهديا ، وبنو اللويذة رهط من هزال بن هزيل بن بكر وكانوا سكانا بمكة مع أخوالهم لم يكونوا مع عاد بأرضهم فهم عاد الآخرة ، فساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بما فيها من النعمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث ، فلما رأوها استبشروا بها - وقالوا هذا عارض ممطرنا - ، فقال الله تعالى - بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها - أي كل شيء مرت به ، وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهدد ، فلما تبينت ما فيها من العذاب صاحت ثم صعقت ، فلما أفاقت قالوا ما رأيت؟ قالت رأيت ريحا فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها .

أخبرنا الحسن بن محمد بن الحسين أنبأنا محمد بن جعفر أنبأنا الحسن بن علوة أنبأنا اسمعيل بن عيسى أنبأنا اسحق بن بشر أخبرني الثني بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - قال : أوحى الله تعالى إلى الريح العقيم أن تخرج على قوم عاد فتنتقم له منهم ، فخرجت بغير كيل ولا وزن على قدر منخر ثور حتى رجفت الأرض مما يلي المشرق والمغرب . قال فقال الحزان يارب لن يطيقوها ولو خرجت على حالها لأهلك ما بين مشارق الأرض ومغاربها فأوحى الله إليها أن ارجعي فأخرجي على قدر خرمة الخاتم وهي الحلقة ، قال فسخرها الله عليهم سبع ليالي وثمانية أيام حسوما : أي دائمة متتابعة ، فلم تدع أحدا من عاد إلا أهلكته ، وكان هود ومن معه قد اعتزلوا في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين جلودهم وتلد به الأنفس ، وانها من عاد لطعن فتحملهم ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة حتى هلكوا .

قال محمد بن اسحق والسدي : بعث الله على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا إلى الأبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض ، فتبادروا البيوت فلما دخلوها دخلت عليهم الريح فأخرجتهم منها فهلكوا ، فلما أهلكهم الله تعالى أرسل عليهم طيورا سودا لتلقيهم في البحر فالتقتهم فيه . قال ابن بشار : لما خرجت الريح على عاد من الوادي قال تسعة رهط منهم أحدهم الخلبان وكان رئيسهم وكبيرهم في ذلك الزمان تعالوا حتى تقوم على رأس الوادي فنردها ، فجعلت الريح تدخل تحت الواحد منهم فتحمله ثم ترمي به فيندق عنقه ، وكانت الريح تفلح الشجرة العظيمة

بعروقها وتهدم عليهم بيوتهم وتقلعهم فتتركهم كما قال الله تعالى - كأنهم أعجاز نخل خاوية - حتى لم يبق منهم إلا الخُلجان فقال إلى الجبل فأخذ بجانب منه فهزه فاهتز في يده ثم أنشأ يقول :

لم يبق إلا الخُلجان نفسه يالك من يوم دهاني أمسه

ثبت الوطء شديدا بطشه لولم يجثنى جثته وحبسته

فقال له هود : ويحك يا خُلجان أسلم تسلم ، فقال له مالي عند ربك إذا أسلمت ؟ قال الجنة ، قال فما هؤلاء الذين أراهم في السحاب كأنهم البخت ، قال هود ذلك الملائكة ، قال إن أسلمت أيقيدني ربك منهم لقومي ؟ قال ويحك هل رأيت ملكا يقيد من جنوده ، فقال لو فعل ما رضيت ، فجاءت الريح فألحقته بأصحابه وأهلكته ، وأفنى الله عادا سوى من بقى من قومهم بمكة ونواحيها .

أخبرنا الحسين بن محمد الدينوري أخبرنا أحمد بن محمد بن اسحق السني أخبرنا أبو يعلى الموصلي أخبرنا اسحق بن أبي إسرائيل وعبيد الله بن عمر القواريري أخبرنا جعفر بن سليمان الضبيعي أخبرنا فرقد السبخي عن عاصم عن عمرو البجلي عن أبي أمامة الباهلي عن رسول الله ﷺ قال « بيت قوم من هذه الأمة على طعام وشراب وهو فيصبحون قردة وخنازير ويصيبهم خسف وقذف فيقولون لقد خسف الليلة بيني فلان ، ويرسلن عليهم الريح العقيم التي أهلكت عادا بشريهم الحثروا كلهم الربا واتخاذهم القينات ولبسهم الحرير وقطعهم الأرحام » قالوا وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر فزلوا عليه ، فينأهم عنده إذا قبل رجل على ناقة له في ليلة مقمرة من أمصار عاد ، فأخبرهم بهلاك عاد ، فقالوا له أين فارقت هودا وأصحابه ، قال فارقتهم بساحل البحر فكأنهم شكوا فيما حدثهم به ، فقالت هرملة بنت بكر صدق ورب الكعبة ومنور بن يعفر ابن أخي معاوية بن بكر معهم . قالوا وقد قيل لمرثد بن سعد ولقمان بن عاد وقيل بن عنز حين دعوا بمكة قد أعطيت مناكم فاختراروا لأنفسكم ، فقال مرثد اللهم أعطني برا وصدقا فأعطى ذلك . وقال قيل أختار أن يصيبني ما أصاب قومي فقيل له هلاك فقال لا أبالي لاحاجة لي في البقاء بعد قومي فأصابه الذي أصاب عادا من العذاب فهلك . وقال لقمان يارب أعطني عمرا فقيل له اختر لنفسك بقاء سبع بعرات سمر من أظب عفر لا يمسه القطر أو عمر سبعة أنسر إذا مضى نسر حولت إلى نسر آخر ، فاستحقر بقاء الأبعار واختار النسر فعمر سبعة أنسر ، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته فيأخذ الكرم منها لقوته فيريه حتى إذا مات أخذ غيره ، فلم يزل يفعل مثل ذلك حتى أتى إلى السابع وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة ، فلما لم يبق غير السابع قال ابن أخ للقمان ياعم لم يبق من عمرك إلا هذا النسر ، فقال لقمان : يا ابن أخي هذا لبد ولبد بلسانهم الدهر فلما انقضى عمر لبد طارت النسر غداة من رأس الجبل ولم ينهض لبد فيها ، وكانت نسر لقمان لا تعيب عنه . قال فلما رأى لبد لم ينهض مع النسر قام إلى الجبل لينظر ما فعل لبد فوجد لقمان في نفسه وهنا لم يكن يجده قبل ذلك ، فلما انتهى إلى الجبل رأى نسر لبد واقفا

بين النصور ، فناداه انهض لبد فذهب لينهض فلم يستطع فسقط ومات لقمان معه وفيه جرى الثل :
أتى أبد على لبد ، وقال النابغة الذبياني :

أضجت قفاراً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد
وقال محمد بن اسحق قال مرثد بن سعد حين سمع قول الراكب الذي أخبر بهلاك عاد شعرا :

عصت عاد رسولهم فأمسوا	عطاشا ماتلهم السماء
وسير وفدhem شهرا ليستقوا	فأردفهم مع العطش الغناء
بكفرهم برهم جهارا	على آثارهم عاد العفاء
ألا نزع الاله حلوم عاد	فان قلوبهم قفر هواء
من الرب المهيمن إذ عصوه	وما تغنى النصيحة والشقاء
فنفسى وابنتاى وأم ولدى	لنفس نبينا هود فداء
أتانا والقلوب معميات	على ظلم وقد ذهب الضياء
لنا صنم يقال له صمود	يقابله صدى والهناء
فأبصره الدين له أنابوا	وأدرك من يكذبه الشقاء
وانى سوف ألحق آل هود	واخوته إذا جن المساء

ثم إنه ألحق بهود ومن آمن معه وبقي هود ماشاء الله ثم مات وعمره مائة وخمسون سنة ، وقال أبو الطفيل عامر بن واثلة سمعت عليا رضى الله عنه يقول لرجل من أهل حضرموت : هل رأيت كشيئا أحمر يخالطه مدرة حمراء وأراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من حضرموت ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين إنك لتنتعته لى نعت رجل قد رآه قال لا ولكننى قد حدثت عنه ، فقال الحضرمى وما شأنه يا أمير المؤمنين ، فقال فيه قبر النبي هود عليه السلام . أخبرنا أبو عمر وأحمد بن أبي العرابي ، أنبأنا المغيرة بن عمرو بن الوليد بمكة في المسجد الحرام بين الركن والمقام أنبأنا الفضل بن يحيى الجندى أنبأنا يونس بن محمد أنبأنا يزيد بن أبي حكيم عن سفيان الثوري عن عطاء عن السائب عن عبد الرحمن بن سابط أنه قال : بين الركن والمقام وزمزم قبور تسعة وتسعين نبيا وان قبر هود وصالح وشعيب واسماعيل عليهم السلام في تلك البقعة . وفي رواية أخرى كان النبي من الأنبياء إذا هلك قومه ونجا هو والصالحون معه يأتى مكة هو ومن معه يعبدون الله تعالى حتى يموتوا والله أعلم .

مجلس فى قصة صالح عليه السلام

قال الله تعالى — والى ثمود أخاهم صالحا — وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس وأراد ههنا القبيلة . قال أبو عمرو بن العلاء سميت ثمودا لقلة مأثها والتمد الماء القليل وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام وكان من قصتهم على ما ذكره محمد بن اسحق بن يسار والسدى

والسكبي ووهب بن منبه وكعب وغيرهم من أهل الكتب دخل كلام بعضهم في بعض أن عادا الأولى لما أهلكهم الله تعالى وانقضى أمرهم عمرت ثمود بعدهم واستخلفوا في الأرض خلوا فيها وكثروا وعمروا حتى جعل بعضهم يبني السكن من الحجر والمدر فيهدم وهو حي ، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا ، فنحتوا منها وجوبوها وجوفوها وكانوا في سعة من معاشهم كما قال الله تعالى - واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعشوا في الأرض مفسدين - خالفوا أمر الله وعبدوا غيره وأفسدوا في الأرض ، فبعث الله إليهم صالحا نبيا وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن حاذر ابن ثمود وكانوا قوما عربا ، وكان صالح من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا ، فبعثه الله تعالى إليهم رسولا فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته فلم يتبعه إلا قليل مستضعفون ، فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر عليهم التخويف والتحذير سألوهم أن يرثيهم آية تكون مصداقا لما يقول ، فقال اللهم أرهم آية ليعتبروا بها ثم قال لهم أي آية تريدون قالوا تخرج معنا إلى عيدنا وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم في يوم معلوم من السنة فتدعو إلهك وتدعوا آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا ، فقال لهم صالح نعم ، فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم ذلك وخرج صالح معهم ، فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعونه ، ثم قال جندع بن عمرو ابن جواس وهو يومئذ سيد ثمود : يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة يعني الصخرة المنفردة عن الجبال في ناحية الحجر يقال لها الكائبة ناقة مخرجة جوفاء وبراء عشراء والمخرجة ما شاكلت البخت من الأبل فان فعلت ذلك صدقناك وآمنا بك ، فأخذ عليهم صالح الميثاق أنه إن فعل ذلك صدقوه وآمنوا به ، ثم إن صالحا عليه السلام صلى ودعا الله تعالى بذلك ، فتمخضت الصخرة تمخض التوج بولدها ، ثم تحررت الهضبة فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما سألوهم لا يعلم ما بين جنبها إلا الله تعالى عظما وهم ينظرون ثم تنجت مقبا مثلها في العظم ، فأمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا بصالح ويتابعوه ، فنهاهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحبا أوثانهم ورياب بن صمعر وكانوا من أشراف ثمود ، وكان لجندع بن عمرو ابن عم يقال له شهاب ابن خليفة ، فأراد أن يسلم قنياه أولئك الرهط فأطاعهم ، فقال رجل من ثمود :

وكانت عصبة من آل عمرو إلى دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعا فهمت أن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزا وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من آل حجر توالوا بعد رشدكم ذبابا

فلما خرجت الناقة قال صالح : هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، فمكثت الناقة ومعها سقيا في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء ، فكانت ترد الماء يوما ولهم يوم ، فاذا

كان يومها وضعت رأسها في بئر بأرض الحجر يقال لها بئر الناقة فيرتفع الماء اليها فما ترتفع رأسها الاوقد شربت جميع ما فيها ولا تدع قطرة ماء فيها فتتفجج ثم تروح عليهم ، فيحلبون من لبنها ماشاءوا فيشربون ويدخرون ويملئون أوانيهم ، لكن تصدر من غير الفج الذي وردت منه ، لأنها لا تقدر أن تصدر من حيث وردت لأنه يضيق عليها . قال أبو موسى الأشعري أتيت أرض ثمود فنذرت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعا فاذا كان الغد من يومهم شربوا من الماء وقد أخرجه الله تعالى لهم من البئر وادّخروا ماشاءوا قدر كفايتهم في يوم الناقة وكانوا من ذلك في سعة ودعة وكانت الناقة في الصيف إذا كان الحر تطلع ظهر الوادي قهرب منها أغنامهم وبقرهم وإبلهم وتهبط الى بطن الوادي في حره وحدته فكانت اللواشى تنفر منها إذا رأتها ، وإذا كان الشتاء سبقت الناقة في بطن الوادي قهرب مواشهم الى ظهر الوادي في البرد والحدة فأضر ذلك مواشهم للبلاء والاختيار فكان مراتعها الجبال فكبر ذلك عليهم حتى حملوا على عقر الناقة فاحتالوا في عقرها وكانت امرأة من ثمود يقال لها عنيزة بنت غنم بن مخلد وتسكني أم غنم وهي من بني عبيد بن المهمل وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت عجوزا مسنة ولها بنات حسان ومال كثير من الإبل والبقر والغنم وامرأة أخرى يقال لها صدوق بنت الحيا بن مهر وكانت غنية جميلة ذات مواش كثيرة وكانتا هاتان المرأتان من أشد الناس عداوة لصالح وكانتا تحتلان في عقر الناقة من كفرها بصالح بما أضرت بمواشيها وكانت صدوق عند ابن خال لها يقال له صنيم بن هراوة بن سعد بن العطريف بن هلال فأسلم وحسن إسلامه وكانت صدوق قد فوضت اليه مالها فأنفقه على من أسلم معه من أصحاب صالح عليه الصلاة والسلام حتى نفذ المال فاطلعت صدوق على إسلامه فعاتبته على ذلك فأظهر لها دينه ودعاها الى الله تعالى فأبت عليه وأخذت أولادها فغيبتهم في بني عمها الذين هي منهم فقال لها زوجها ردّي على أولادي فلما ألح عليها قالت حتى أحاكمك الى بني عمي وذلك أن بني عم زوجها كانوا مسلمين فأبت أن تحاكمهم اليهم فقال لها بنو عمها والله لتعطينه ولده طائعة أو كارهة فلما رأت ذلك أعطته أولاده ثم إن صدوق وعنيزة احتالتا في عقر الناقة للشقاء الذي كتب عليهما فدعت صدوق رجلا من ثمود يقال له الحباب فأمرته بعقر الناقة وعرضت عليه نفسها ان هو فعل ذلك فأبى عليها ثم انها دعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج وجعلت له نفسها ان هو عقر الناقة وكانت من أوفر الناس جمالا وأكثرهم مالا وأحسنهم كمالا فأجابها الى ذلك ودعت عنيزة قدار بن سالف من أهل قحح واسم أمه قديرة وكان رجلا أشقر أزرق قصيرا ويزعمون أنه كان لزنية رجل يقال له صفوان ولم يكن لسالف ولكنه قد ولد على فراشه ، فقالت له يا قدار أعطيك من بناتي أيما شئت على أن تعقر الناقة وكان قدار عزيزا في قومه وذكره رسول الله ﷺ اذا أنبث أشقاها رجل عزيز في قومه مثل أبي زمعة قالوا فانطلق قدار ومصدع فاستعانوا بمن استعانوا من ثمود فاتبعهم سبعة نفر وكانوا تسعة رهط كما قال الله تعالى - وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون - فلقبهم هديات

ابن مبلغ خال قدار وكان عزيزا من أهل الحجر وذعر بن غنم بن داعرة أخى مصدع وخمسة لم تذكر أسماؤهم فاجتمعوا على عقر الناقة . قال السدى وغيره : أوحى الله إلى صالح أن قومك سيعقرون الناقة فقال لهم ذلك فقالوا ما كنا لنفعل ذلك فقال لهم إنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه فقالوا لاجرم لا يولد لنا في هذا الشهر ولد إلا قتلناه فولدت تسعة منهم في ذلك الشهر تسعة بنين فذبحوا أولادهم وولد للعاشر ابن فأبى أن يذبح ابنه وكان بكره لم يولد له قبل ذلك شيء وكان ابن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتا سريرا وكان إذا مرّ بالتسعة ورأوه ندموا على ذبح أولادهم وقالوا لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أولادهم فتقاسموا بالله لنبيته وأهله قالوا نخرج فندري الناس أننا قد خرجنا لسفر فنأتى الغار فنكمن فيه حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتينا فقتلته ثم نرجع إلى الغار فنكمن فيه ثم نتصرف بعد ذلك إلى رحلتنا فنقول : ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدقوننا ويظنون أننا قد خرجنا إلى سفر ، وكان صالح لا ينام الليل معهم في القرية وكان يأوى إلى مسجد يقال له مسجد صالح يبيت فيه في الليل فإذا أصبح أتاهم ووعظهم وذكرهم فإذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه فلما دخلوا الغار وأضمرؤا أنهم يخرجون إليه بالليل فيقتلونه سقطت عليهم صخرة من الغار فقتلتهم فانطلق رجال ممن كان قد اطلع على ذلك إلى الغار فإذا هم رضيع فرجعوا يصيحون في القرية يا عباد الله ما قنع صالح أن أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم فأجمع أهل القرية على عقر الناقة .

وقال ابن إسحق إنما كان تقاسم التسعة على تببيت صالح عليه السلام بعد عقرهم الناقة وإنذار صالح إياهم بالعذاب وذلك أن التسعة الذين عقروا الناقة قالوا هلمّ فلنقتل صالحا فإن كان صادقا كنا عجلنا قتله وإن كان كاذبا ألحقناه بناقته فأتوه ليلا ليبيتوه في أهله فرمتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطلوا على أصحابهم أتى أصحابهم منزل صالح فوجدوهم مشدوخين قد رضحوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم وهموا به فقامت عشيرته دونه وأخذوا السلاح ، وقالوا لهم والله لا تقتلوه أبدا فقد وعدكم بأن العذاب نازل بكم في ثلاث فإن كان صادقا لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضبا وإن كان كاذبا فأتهم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك .

قال السدى وغيره : فلما ولد ابن العاشر يعني قدارا وكان يشب في كل يوم شباب غيره في الجمعة ويشب في الجمعة شباب غيره في الشهر ويشب في الشهر شباب غيره في السنة ، فلما كبر جلس مع أناس يصيبون من الشرب فأرادوا ماء يمزجون به شرايبهم وكان ذلك اليوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربه الناقة فاشتد عليهم ذلك وقالوا مانصنع بالبن لو كنا نأخذ الماء الذي تشربه هذه الناقة فنسقيه أنعامنا وحرثنا كان خيرا لنا فقال ابن العاشر هل لكم أن أعقرها ؟ قالوا نعم .

وقال كعب كان سبب عقرهم الناقة امرأة يقال لها ملكا كانت قد ملكت ثمود فلما أقبل الناس على صالح وصارت الرياسة إليه حسدته فقالت لامرأة يقال لها قطام وكانت معشوقة قدار بن سالف

ولامرأة يقال لها قبال وكانت معشوقة مصدع بن مخرج وكان قدار ومصدع يجتمعان معهما كل ليلة يشربون الخمر فقالت لهما ملكا ان اتا كما الليلة قدار ومصدع فلاتطيعاها وقولا لهما ان الملكة حزينة لأجل صالح وناقته فنحن لانطيعكما حتى تعقرا الناقة فان عقرتماها أطعنا كما فلما أتياها قالتا لهما هذه المقالة فقالا نحن نعقرها .

قال ابن اسحق وغيره فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما السبعة فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار في أصل شجرة على طريقها وكمن لها مصدع في أصل شجرة أخرى فمرت الناقة على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها وخرجت أم غنم وعنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن النساء وجهها فترأت لقدار وأسفرت له عن وجهها وحرصته على عقر الناقة فشدها بالسيف فكشف عرقوبها فأرداها وطعن في لبثها فنحرها وخرج أهل البلدة واقتسموها وأكلوا لحمها ، وكانت لما عقرها رغت فلما رأى سقمها ذلك انطلق حتى أتى جبلا منيعا يقال له ضوء وقيل اسمه قارة ، وروى ذلك مسندا عن رسول الله ﷺ من حديث شهر بن حوشب عن عمر بن خارجة فأتى صالح عليه السلام فقبل له أدرك ناقتك فقد عقرت فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون اليه ويقولون يابني الله إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا فقال لهم صالح انظروا هل تدركون فصيلها فان أدركتموه فمسي أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا يطلبونه فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه فأوحى الله الى الجبل فتناول في السماء حتى ماتتاله الطير وجاء صالح عليه السلام . فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم رغا ثلاثا وانفجرت الصخرة فدخلها فقال صالح عليه السلام لكل أمة أجل فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام ثم يأتيكم العذاب ذلك وعد غير مكذوب . قال محمد بن اسحق بن يسار اتبع الفصيل أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع وأخوه ذؤاب ولد مخرج فرماه مصدع بسهم فانتظم قلبه ثم جر برجله فأنزله وألحقوا لحمه مع لحم أمه فقال لهم صالح عليه السلام انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله تعالى وثقمته فقالوا مستهزئين به ومتى ذلك يا صالح وما آية ذلك وكانوا يسمون الأيام ، فيوم الأحد الأول والاثنين أهون والثلاثاء دبار والأربعاء جبار والخميس مؤنس والجمعة العروبة والسبت شبار وفيه يقول الشاعر ،

أؤمل أن أعيش وإن يومي بأول أو بأهون أو جبار
أو المردى دبار فان أفته فمؤنس أو عروبة أو شبار

قالوا وكان عقر الناقة يوم الأربعاء فقال لهم صالح عليه السلام حين سألوه عن وقت العذاب وآيته إنكم تصبحون غرة مؤنس ووجوهكم مصفرة ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم حمرة ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم الأول فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة . كأنما طليت بالخلق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأشاهم فأيقنوا بالكلام وعرفوا أن صالحا قد صدقهم فطلبوه ليقتلوه فخرج صالح عليه السلام هاربا منهم حتى لحق الى بطن من ثمود يقال لهم بنو غنم فنزل

على سيدهم رجل منهم يقال له نفيل ويكنى أباهدب وهو مشرك فغيبه عنهم فلم يقدرُوا عليه فعدوا على أصحاب صالح يعذبونهم ليدلوهم عليه فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم يابى الله انهم ليعذبوننا لنذلهم عليك أفندلهم . قال نعم فدلهم عليه مبدع فأثوا أباهدب فكلموه فى ذلك ، فقال نعم هو عندى وليس لكم الى سبيل فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم عنه ما أنزل الله تعالى بهم من عذابه فجعل بعضهم يخربعضا بما يرون فى وجوههم فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل ، فلما أصبحوا اليوم الثانى إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالسم فصاحوا وضجوا وبكوا وعرفوا أن العذاب واقع بهم ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب فلما أصبحوا اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا جميعا ألا قد حضركم العذاب فلما كان ليلة الأحد خرج صالح عليه السلام من بين أظهرهم وخرج معه من آمن به حتى جاءوا الشام فنزلوا رملة فلسطين فلما أصبح القوم تكفنوا وتمخطوا وكان حنوطهم الصبر والمر وكانت أكفانهم الأنطاع ثم ألقوا أنفسهم بالأرض فجعلوا يقلبون أبصارهم الى السماء مرة الى الأرض مرة لا يدرون من أين يأتهم العذاب فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء له صوت فى الأرض فقطعت قلوبهم فى صدورهم فلم يبق فيهم صغير ولا كبير الاهلك كما قال عز وجل - فأصبحوا فى دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود - ولم ينج منهم الا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت شاف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح فأطلق الله لها رجلها بعد ما عاينت العذاب أجمع فخرجت كأسرع شىء يكون حتى أتت قرحاهو وادى القرى حذما بين الحجاز والشام فأخبرتهم بما عاينت من العذاب وما أصاب ثمود ثم استسقت من الماء فسقيت فلما شربت ماتت .

وروى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله قال لما مر النبي ﷺ بالحجر فى غزوة تبوك . قال لأصحابه لا يدخلن أحد منكم هذه القرية ولا تشربوا من ماءها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذنين الا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذى أصابهم ثم قال أما بعد فلا تسألوا رسولكم الآيات هؤلاء قوم صالح سألوهم رسولهم الآية فبعث الله لهم الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم ورودها وأراهم رسول الله ﷺ مرتقى الفصيل حين ارتقى فى الغار ففتوا عن أمر ربهم وعقروها فأهلك الله تعالى من تحت أديم السماء منهم فى مشارق الأرض ومغاربها الارجالا واحدا يقال له أبورغال وهو أبو ثقيف كان فى حرم الله تعالى فمنعه حرم الله من عذاب الله تعالى ، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه ودفن معه غصن من ذهب وأراهم رسول الله ﷺ قبر أبى رغال فنزل القوم فابتدروه بأسيا فهم وبحثوا عليه فاستخرجوا ذلك الغصن من الذهب ثم تقنع رسول الله ﷺ بثوبه وأسرع السير حتى جاوز الوادى . وقال أهل العلم توفى صالح عليه السلام بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وذلك

أنه انتقل من الشام الى مكة بعد ما أهلك الله تعالى قومه وكان يعبد الله تعالى هناك حتى مات وكان قد أقام في قومه عشرين سنة .

أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون . قال أخبرنا عبد الله بن محمد بن الحسن . قال حدثنا عبد الله ابن هاشم حدثنا وكيع بن الجراح حدثنا قتيبة أبو عثمان عن أبيه عن الضحاك بن مزاحم قال : قال رسول الله ﷺ « يا علي أتدرى ما أشقى الأولين ؟ قال قلت الله ورسوله أعلم . قال عاقر الناقة قال يا علي أتدرى من أشقى الآخرين ؟ قال قلت الله ورسوله أعلم . قال قاتلك » والله أعلم .

مجلس في قصة إبراهيم عليه السلام والنمرود

وهو إبراهيم بن تارخ بن ناخور بن ساروغ بن أرغوين فالخ بن عابر بن شالح بن فينان بن أرفخشذ ابن سام بن نوح وكان اسم أبي إبراهيم الذي سماه به أبوه تارخ فلما صار مع النمرود قima على خزائن آلهته سماه آزر وقال مجاهد إن آزر ليس اسم أبيه وإنما هو اسم صنم وقال ابن اسحق ليس هو اسم صنم بل هو لقب عيب به وهو بمعنى معوج وقيل هو بالنبطية الشيخ الهرم وولد لناخور تارخ بعدما مضى من عمره سبع وعشرون سنة ، وهذا المجلس يشتمل على أبواب والله أعلم .

الباب الأول في مولد إبراهيم عليه السلام

اختلف العلماء في الموضع الذي ولد فيه فقال بعضهم : كان مولده بالسوس من أرض الأهواز وقال بعضهم كان مولده بابل من أرض السواد بناحية يقال لها كوئا وقال بعضهم : كان مولده بالوركاء ناحية في حدود كسكر ثم نقله أبوه الى الموضع الذي كان به نمرود من ناحية كوئا . وقال بعضهم : كان مولده بخران ، ولكن أبوه نقله الى أرض بابل . وقال عامة السلف من أهل العلم : ولد إبراهيم عليه السلام في زمن نمرود بن كنعان ، وكان بين الطوفان وبين مولد إبراهيم عليه السلام ألف ومائتان وثلاث وستون سنة ، وذلك بعد خلق آدم عليه السلام بثلاثة آلاف وسبع وثلاثين سنة ، ونمرود الذي ولد في ملكه إبراهيم هو نمرود بن كنعان بن سنجاريب بن كورش ابن حام بن نوح . وفي الحديث « ملك الأرض أربعة مؤمنان وكافران : فأما المؤمنان فإسماعيل بن داود وذو القرنين عليهما السلام ، وأما الكافران فنمرود وبختنصر وكان نمرود أول من وضع على رأسه التاج وتجبّر في الأرض ودعا الناس إلى عبادة وكان له كهان ومنجمون فقالوا له انه يولد في بلدك في هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ويقال انهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء .

وقال السدي : رأى نمرود في منامه كأن كوكبا طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففرغ من ذلك فزعا شديدا ودعا السحرة والكهنة والفاقة وهم الذين يخلطون في الأرض وسألهم عن ذلك فقالوا هو مولود يولد في ناحيتك هذه السنة يكون هلاكك وهلاك أهل بيتك على

يديه قال فأمر نمروذ بذبح كل غلام يولد في تلك الناحية تلك السنة وأمر بعزل الرجال عن النساء وجعل على كل عشرة رجلا رقيبا أمينا فإذا حاضت المرأة خلى بينه وبينها إذا أمن الواقعة فإذا طهرت عزل الرجل عنها فرجع آزر أبو إبراهيم فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فوقع عليها في طهرها فحملت بإبراهيم عليه السلام .

وقال محمد بن اسحق : بعث نمروذ إلى كل امرأة حبلى بقريته فحبسها عنه إلا ما كان من أم إبراهيم فانه لم يعلم بحبلها وذلك أنها كانت جارية حديثة السن لم تعرف الحبل ولم يبن في بطنها .
وقال السدي : خرج نمروذ بالرجال إلى العسكر ونحاهم عن النساء تخوفا من ذلك المولود أن يكون فكث كذلك ما شاء الله ثم بدت له حاجة إلى المدينة فلم يأتمن عليها أحدا من قومه إلا آزر فدعا وقال له ان لي اليك حاجة أحب أن أوصيك بها ولم أبعثك إلا لثقتي بك فأقسمت عليك أن لاتدنو من أهلك ولا تواقعها فقال آزر أنا أشح على ديني من ذلك فأوصاه بحاجته ثم بعثه فدخل المدينة وقضى حاجته ثم قال لودخلت إلى أهلي فنظرت إليهم فلما نظر إلى أم إبراهيم لم يتمالك حتى وقع عليها فحملت بإبراهيم عليه السلام .

قال ابن عباس : لما حملت أم إبراهيم قال الكهان للنمرود ان الغلام الذي أخبرناك به قد حملت به أمه في هذه الليلة فأمر نمروذ بذبح الغلمان فلما دنت ولادة أم إبراهيم وأخذها الخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها فوضعت في نهر يابس ثم لفته في خرقة ووضعت في حلفاء ورجعت فأخبرت زوجها بابنها وأنها قد ولدت وأن الولد في موضع كذا فانطلق أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سردابا عند نهر فواراه وسد عليه بابيه بصخرة مخافة السباع وكانت أمه تختلف إليه فترضعه .

وقال السدي : لما عظم بطن أم إبراهيم خشي آزر أن تذبح فانطلق بها إلى أرض بين الكوفة والبصرة يقال لها وركاء فأنزلها في سرب من الأرض وجعل عندها ما يصلحها ، وجعل يتعهدا ويكتم ذلك من أصحابه فولدت إبراهيم عليه السلام في ذلك السرب فشب فكان وهو ابن سنة كابن ثلاث سنين وصار من الشباب بحالة أسقطت عنه طمع النباحين ثم ذكر آزر لأصحابه أن له ابنا كبيرا فانطلق به إليهم .

قال ابن اسحق : لما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلة إلى مغارة وكانت قريبا منها فولدت فيها إبراهيم عليه السلام وأصلحت من شأنه ما يصلح بالمولود ثم سدت عليه المغارة ورجعت إلى بيتها ثم كانت تطالعه في المغارة فتجده حيا يمص إبهامه . قال أبو زريق كانت أم إبراهيم كلما دخلت على إبراهيم عليه السلام وجدته يمص إبهامه فقالت ذات يوم لأنظرن إلى أصابعه فوجدته يمص من أصبع ماء ومن أصبع لبننا ومن أصبع عسلا ومن أصبع ممنا .

قال ابن اسحق : وكان آزر سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل فقالت ولدت غلاما فمات فصدقها

وسكت عنها وكان اليوم على ابراهيم عليه السلام في الشباب كالشهر والشهر كالسنة فلم يمكث ابراهيم عليه السلام في المغارة إلا خمسة عشر يوما حتى جاء الى أبيه آزر فأخبره أنه ابنه وأخبرته بما كانت صنعت في شأنه فسر آزر بذلك وفرح فرحا شديدا .

الباب الثاني في خروج ابراهيم عليه السلام من السرب ورجوعه إلى قومه ومحاботه إياهم في الدين والقائم إياه في النار وما يتعلق بذلك

قال أهل العلم بسير الماضين : لما شب ابراهيم عليه السلام وهو في السرب قال لأمه من ربى قالت أنا ، قال فمن ربك ؟ قالت أبوك ، قال فمن رب أبى ؟ قالت له نمروذ ، قال فمن رب نمروذ ؟ قالت له اسكت فسكت ، ثم رجعت الى زوجها فقالت أرأيت الغلام الذى يحدث أنه يغير دين أهل الأرض فانه ابنك ، ثم أخبرته بما قال لها فأتاه أبوه آزر . فقال له ابراهيم عليه السلام يا أبتاه من ربى ؟ قال أمك ، قال فمن رب أمى ؟ قال أنا ، قال فمن ربك ؟ قال نمروذ . قال فمن رب نمروذ ؟ فطمه لطمه وقال اسكت ، وذلك قوله عز وجل - ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين - . ثم قال لأبويه أخرجاني فأخرجاه من السرب فانطلقا به حتى غابت الشمس فنظر ابراهيم عليه السلام الى الابل والبقر والغنم والحيل يراح بها فسأل أباه ماهذه ؟ فقال ابل وخيل وبقر وغنم فقال ماهذه بد من أن يكون لها رب خالق . ثم نظر وتفكر في خلق السموات والأرض وقال ان الذى خلقنى ورزقنى وأطعمنى وسقانى لربى مالى إله غيره ، ثم نظر فاذا المشتري قد طلع ويقال الزهرة وكانت تلك الليلة في آخر الشهر فرأى الكوكب قبل القمر فقال هذاربى فذلك قوله تعالى - فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذاربى فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربى لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذاربى هذا أكبر - لأنه رأى ضواها أعظم - فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين - قالوا وكان أبوه يصنع الأصنام فلما ضم ابراهيم الى نفسه جعل يصنع الأصنام ويعطيها ابراهيم ليبيعها فيذهب بها ابراهيم عليه السلام فينادى من يشتري ما يضر ولا ينفع فلا يشتري أحدهم فاذا بارت عليه ذهب بها الى نهر ف ضرب برء وسها وقال لها اشربى كسدت استهزاء بقومه وبما هم عليه من الضلالة والجهالة حتى فشا عيه إياها واستهزأوه بها في قومه وأهل قريته فحاجه قومه في دينه . فقال لهم أتحاجونى في الله وقد هدان الآيات الى قوله عز وجل - وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم - حتى خصمهم وغلبهم بالحجة ثم ان ابراهيم عليه السلام دعا أباه آزر الى دينه فقال - يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا - الى آخر القصة فأبى أبوه الاجابة الى مادعاه اليه ثم ان ابراهيم عليه السلام جاهر قومه بالبراءة مما كانوا يعبدون وأظهر دينه فقال - أفرأيتم ما كنتم تعبدون أتم

وآباؤكم الأقدمون فانهم عدواً لى إلا رب العالمين - قالوا فمن تعبد أنت قال رب العالمين قالوا تعنى عمروذ فقال لا - الذى خلقنى فهو يهدين - الى آخر القصة ففشا ذلك فى الناس حتى بلغ عمروذ الجبار فدعاه . فقال له يا ابراهيم أرأيت إلهك الذى بعثك وتدعو إلى عبادته وتذكر من قدرته التى تعظمه بها على غير معاهو ؟ قال ابراهيم عليه السلام ربى الذى يحيى ويميت قال عمروذ أنا أحى وأميت قال ابراهيم كيف تحى وتميت قال آخذ رجلين قداستوجب القتل فى حكمى فأقتل أحدهما فأكون قدأتمته ثم أعفو عن الآخر فأتركه فأكون قدأحييته فقال له ابراهيم عندذلك إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت عندذلك عمروذ ولم يرجع اليه شيئاً ولزمته الحجة فذلك قوله عز وجل - فبهت الذى كفر - الآية، ثم إن ابراهيم عليه السلام أراد أن يرى قومه ضعف الأوثان التى كانوا يعبدونها من دون الله وعجزها إلزاماً للحجة عليهم فجعل ينتهز لذلك فرصة ويحتال فيه الى أن حضرهم عيد لهم .

قال السدى : كان لهم فى كل سنة عيد يخرجون اليه ويجمعون فيه فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال أبو ابراهيم يا ابراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معهم ابراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال إنى سقيم أشكى رجلى فتولوا عنه وهو صريع فلما مضوا نادى فى آخرهم وقد بقى ضعفاء الناس - وتالله لا كيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين - فسمعوها منه .

وقال مجاهد وقتادة : أنما قال ابراهيم عليه السلام هذا فى سر من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد منهم وهو الذى أفشاء عليه . قالوا ثم رجع ابراهيم عليه السلام من الطريق الى بيت الآلهة فاذا فى البيت نهر مستقبل باب النهر صنم عظيم يليه أصغر منه الى باب النهر واذا هم قد جعلوا طعاماً فوضعوه بين يدى الآلهة وقالوا اذا كان حين رجوعنا رجعنا وقد باركت الآلهة فى طعامنا أكلنا فلما نظر ابراهيم عليه السلام الى الأصنام والى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء ألا تأكلون فلما لم تجبه قال - ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين - وجعل يكسرهن بفأس فى يده حتى لم يبق الا الصنم الأكبر فعلق الفأس فى عنقه ثم خرج فذلك قوله عز وجل - فجعلهم جذاً إذا إلا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون - فلما جاء القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم ورأوها بتلك الحالة - قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فقي يذكركم يقال له ابراهيم - هو الذى نظنه صنع هذا فبلغ ذلك عمروذ الجبار وأشرف قومه فقالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون عليه إنه هو الذى فعل ذلك وكرهوا أن يأخذوه بغيرينة . قاله قتادة والسدى وقال الضحاك لعلهم يشهدون بما نضع به ونعاقبه فلما أحضروه - قالوا له أنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم - قال ابراهيم بل فعله كبيرهم هذا - غضب أن تعبدوا معه هذه الأصنام الصغار وهواً كبير منها فكسره - فاسألوهم إن كانوا ينطقون - قال النبى ﷺ لم يكذب ابراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات كلها فى الله تعالى : قوله إنى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله للملك الذى عرض لسارة هى أختى فلما قال لهم ابراهيم ذلك رجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أتم

الظالمون هذا الرجل في سؤالكم إياه وهذه آلهتكم التي فعل بها ما فعل حاضرة فاسألوها وذلك قول إبراهيم عليه السلام - فاسألوهم ان كانوا ينطقون - فقال قومه ما نراه إلا كمال قال . وقيل إنكم أنتم الظالمون بعبادتكم الأوثان الصغار مع هذا الكبير ثم نكسوا على رؤوسهم متحيرين في أمره وعلموا أنها لا تنطق ولا تبطش فقالوا لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فلما اتجهت الحجة عليهم لإبراهيم عليه السلام قال لهم - أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون - فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب قالوا - حرّ قوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين قال عبد الله بن عمر ان الذي أشار عليهم بتحريق إبراهيم عليه السلام بالنار رجل من الأكراد قال شعيب الجبائي اسمه هينون فخسف الله تعالى به الأرض وهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة قال فلما أجمع نمرود وقومه على احراق إبراهيم عليه السلام حبسوه في بيت وبنوا له بنيانا كالخظيرة فذلك قوله عز وجل - قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم - ثم جمعوا له من أصلب الحطب وأصناف الخشب حتى ان كانت المرأة لتمرض فتقول لئن عافاني الله تعالى لأجمعن حطبا لإبراهيم وكانت المرأة تنذر في بعض ما تطلب مما تحب أن تدرك لئن أصابته لتحتطين حطبا وتجعله في النار التي يحرق بها إبراهيم احتسابا في دينها

قال ابن اسحق : كانوا يجمعون الحطب شهر حتى إذا كثر الحطب وجمعوا منه ما أرادوا أشعلوا النار في كل ناحية بالحطب فاشتعلت النار حتى ان كان الطير ليمرّ بها فيحترق من شدة وهجها ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فرفعوه على رأس البنيان وقيدوه ثم اتخذوا منجنيقا بإشارة إبليس لعنه الله تعالى حيث لم يتمكنوا من إلقائه في النار من شدة حرها فاتخذوا المنجنيق ووضعوه فيه مقيدا مغلولا صلوات الله عليه فضجت السموات والأرض والجبال ومن فيها من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين ضجة واحدة وقالوا اي ربنا إبراهيم ليس في أرضك أحد يعبدك غيره يحرق في النار فاذن لنا في نصرته . فقال الله تعالى لهم : ان استعان بشيء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت لكم في ذلك وان لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه ، فلما أرادوا إلقاءه في النار أتاه ملك المياه فقال ان أردت أحمدت النار فان خزائن المياه والأمطار بيدي ، وأتاه خازن الريح فقال ان شئت طيرت النار في الهواء فقال إبراهيم عليه السلام لا حاجة لي اليكم ثم رفع رأسه إلى السماء فقال اللهم أنت الواحد في السماء وفي الأرض ليس في الأرض أحد يعبدك غيري ، وروى المعتمر عن أبي بن كعب عن أرقم أن إبراهيم عليه السلام حين أوثقوه ليلقوه في النار قال لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم رموا به بالمنجنيق إلى النار في موضع شاسع فاستقبله جبريل عليه السلام فقال يا إبراهيم ألك حاجة قال أما اليك ، فلا قال جبريل فاستل ربك فقال إبراهيم عليه السلام حسبي من سؤالي علمه بحالي حسبي الله ونعم الوكيل ، وفي الخبر أن إبراهيم عليه السلام أنما نجا بقوله حسبي الله ونعم الوكيل قال الله عز وجل - يانار كوني بردا وسلاما على إبراهيم - .

قال السدي : كان جبريل عليه السلام هو الذي نادىها بأمر الله تعالى قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس : لو لم يقل وسلاما لمات إبراهيم من بردها ولم يبق حينئذ نار في الأرض الاطفئت ظنت أنها تعنى . قال كعب الأحبار روى قتادة والزهرى ما انتفع أحد من الأرض يومئذ بنار ولا أحرقت النار يومئذ شيئا إلا وثاق إبراهيم عليه السلام ولم يبق يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ فلذلك أمر النبي ﷺ بقتله وسماه فويسقا . قال السدي : فأخذت الملائكة بضبعي إبراهيم فأقعده على الأرض فاذا عين ماء وورد أحمر ونرجس قالوا فأقام إبراهيم في النار سبعة أيام قال المنهال بن عمرو قال إبراهيم خليل الله ما كنت أياما قط أنعم مني عيشا في الأيام التي كنت فيها في النار .

قال ابن اسحق وغيره : وبعث الله ملك الظل في صورة إبراهيم عليه السلام فقعده فيها إلى جنب إبراهيم وهو يؤنسه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير وقال له يا إبراهيم ان ربك يقول أما علمت أن النار لا تضر أحبابي وألبسه القميص ثم أشرف عمروذ من صرح له عال ونظر إلى إبراهيم عليه السلام وما يشك أنه قد هلك فرآه جالسا في روضة ورأى الملك قاعدا إلى جنبه وحوله نار تحرق ما جمعوا من الخطب ، فناداه عمروذ يا إبراهيم كبير إلهك الذي بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار حتى لم تضرك يا إبراهيم فهل تستطيع أن تخرج منها ؟ قال نعم قال فهل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك قال لا قال فقم فخرج منها فقام إبراهيم عليه السلام يمشي فيها حتى خرج منها فلما خرج إليه قال له يا إبراهيم من الرجل الذي رأيت معك في مثل صورتك قاعدا إلى جنبك ؟ قال ملك الظل أرسله إلى ربى ليؤنسنى فيها فقال عمروذ يا إبراهيم انى مقرب إلى إلهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزمه فيما صنع بك حين أبيت إلا عبادته وتوحيده انى ذابح له أربعة آلاف بقرة فقال له إبراهيم لا يقبل الله منك شيئا ما كنت على دينك هذا حتى تفارقه الى ديني فقال يا إبراهيم لا أستطيع ترك ملكي ولكن سوف أذبحها له فذبحها وقربها ومنع العذاب عن إبراهيم ثم انه قال لابراهيم نعم الرب ربك يا ابراهيم .

قال الشعبي : ألقى إبراهيم عليه السلام في النار وهو ابن ست عشرة سنة وذبح اسحق وهو ابن سبع سنين وولده سارة رضى الله عنها وهى ابنة تسعين سنة وكان مذبحه من بيت المقدس على ميلين ولما علمت سارة بما أراد باسحق بقيت يومين وماتت في اليوم الثالث .

قال ابن اسحق : استجاب لابراهيم عليه السلام رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله عز وجل به من جعل الله النار عليه بردا وسلاما على خوف من عمروذ وملثهم فأمن به لوط وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران بن تارخ وهاران هو أخو إبراهيم عليه السلام وكان لهما أخ ثالث يقال له ناحور بن تارخ فهاران أبولوط وناحور أبو تنويل وتنويل أبو لابان ورقعا بنت تنويل امرأة اسحق بن إبراهيم أم يعقوب وليا وراحيل زوجتا يعقوب عليه السلام وهما ابنتا لابان وآمنت أيضا

به سارة وهى بنت عمه وهى سارة بنت هاران الأ كبرعم ابراهيم عليه السلام . وقال السدى :
كانت سارة بنت ملك حران ، وذلك أن ابراهيم ولوطا عليهما السلام انطلقا قبل الشام فلقى ابراهيم
سارة وهى بنت الملك حران ، وكانت قد طعنت على قومها فى دينهم فتزوجها ابراهيم عليه السلام
على أن لا يضرها :

قال ابن اسحق : خرج ابراهيم عليه السلام من كوثا من أرض العراق مهاجرا إلى ربه عز
وجل وخرج معه لوط وسارة عليهما السلام كما قال الله تعالى - فأمن له لوط وقال أنى مهاجر إلى
ربى - فخرج حتى نزل حران فمكث بها ماشاء الله تعالى أن يمكث ثم خرج منها حتى قدم مصر ثم
خرج من مصر إلى الشام فنزل السبع من فلسطين وهى برية الشام ونزل لوط بالمؤتفكة وهى من
السبع على مسيرة يوم وليلة فبعثه الله تعالى نبيا فذلك قوله عز وجل - ونجيناه لوطا إلى الأرض
التي باركنا فيها للعالمين - يعنى الشام فبركتها أن بعث منها أكثر الأنبياء وهى الأرض المقدسة
وأرض المحشر والنشر وبها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام وبها يهلك الله تعالى المسيح الدجال
يباب لته ، وهى أرض خصبة كثيرة الأشجار والأنهار والثمار يطيب فيها العيش للغنى والفقير
قال أبى بن كعب : مامن ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التى بييت المقدس ثم
يتفرق فى الأرض والله أعلم .

الباب الثالث فى ذكر مولد اسماعيل واسحق عليهما السلام

وتزول اسماعيل وأمه هاجر الحرم وقصة بثر زمزم

قال أهل العلم بسير الماضين : لما نجى الله تعالى خليفه ابراهيم عليه السلام آمن به من آمن وتابعوه
على فراق قومهم واظهار البراءة منهم فقالوا انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم
أيها المعبودون من دون الله وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أيها العابدون حتى تؤمنوا بالله وحده
ثم خرج ابراهيم عليه السلام مهاجرا إلى ربه وخرج معه لوط عليه السلام وزوج ابراهيم عليه
السلام بآنة عمه سارة فخرج بها يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادته لربه حتى نزل حران فمكث
بها ماشاء الله أن يمكث ثم خرج منها مهاجرا حتى قدم مصر وبها فرعون من القراعنة الأولى وكانت
سارة من أحسن النساء وأجملهن وكانت لاتعصى ابراهيم عليه السلام فى شيء وبذلك أكرمها الله
تعالى قال فأتى الجبار رجل وقال له ان ههنا رجلا معه امرأة من أحسن النساء ووصف له حسنها
وجمالها فأرسل الجبار إلى ابراهيم عليه السلام فجاءه فقال له ماهذه المرأة منك فقال هى أختى
وتخوف إن قال هى امرأتى أن يقتله فقال له زينها وأرسلها إلى حتى أنظر إليها فرجع ابراهيم إلى
سارة عليها السلام وقال لها ان هذا الجبار قد سألنى عنك فأخبرته أنك أختى فلاتكذبينى عنده فانك
أختى فى كتاب الله عز وجل وإنه ليس فى هذه الأرض مسلم غيرى وغيرك ثم أقبلت سارة إلى الجبار
وقام ابراهيم عليه السلام يصلى فلما دخلت عليه ورآها أهوى إليها يتناولها بيده فيبست يده إلى

صدره . فلما رأى الجبار ذلك أعظم أمرها وقال لها سلى ربك أن يطلق يدى فوالله لا آذيتك . فقالت سارة اللهم ان كان صادقا فأطلق له يده فأطلق الله تعالى يده .

وفى بعض الأخبار السندة : أنه فعل ذلك ثلاث مرات يقصد أن يتناولها فتيس يده فلما رأى ذلك ردها إلى ابراهيم ووهب لها هاجر وهى جارية قبطية فأقبلت إلى ابراهيم فلما أحس بها ابراهيم انشغل من صلاته قال مهيم فقالت كفى الله كيد الفاجر وأخذنى هاجر قال محمد بن سيرين كان أبوهريرة اذا حدث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ قال فتلك أمكم يا بنى ماء السماء .

وفى بعض الأخبار : أن الله تعالى رفع الحجاب بين ابراهيم وسارة حتى كان ينظر إليها من وقت خروجها من عنده إلى وقت انصرافها إليه كرامة لها وتطييبا لقلب ابراهيم عليه السلام قالوا وكانت هاجر جارية ذات هيئة فوهبتها سارة لابراهيم فقالت انى أراها امرأة وضيئة فخذها لعل الله تعالى أن يرزقك منها ولدا وكانت سارة قد منعت الولد حتى أسنت فوق ابراهيم على هاجر فولدت له اسماعيل عليه السلام .

روى محمد بن اسحق عن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ « إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما » قال ابن اسحق فسألت الزهرى ما الرحم الذى ذكر رسول الله ﷺ فقال كانت هاجر أم اسماعيل منهم قالوا ثم خرج ابراهيم من مصر إلى الشام وهاب ذلك الملك الذى كان بها وأشفق من شره فزل السبع من أرض فلسطين واحتفر بها بئرا واتخذ بها مسجدا وكان ماء تلك البئر معينا ظاهرا ، وكانت غنمه تردها فأقام ابراهيم عليه السلام بالسبع مدة ثم ان أهلها آذوه فيها ببعض الأذى فخرج منها حتى نزل بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإيليا بيلد يقال لها قطة ، فلما خرج من بين أظهرهم نصب ماء تلك العين وذهب فندم أهل السبع جميعا على ما صنعوا وقالوا أخرجنا من بين أظهرنا رجلا صالحا فاتبعوا أثره حتى أدركوه وسألوه أن يرجع فقال ما أنا براجع إلى بلد أخرجت منه . قالوا ان الماء الذى كنت تشرب ونشرب معك منه قد نصب وذهب فأعطاهم سبعة أعنز من غنمه وقال اذهبوا بها معكم فانكم اذا أوردتموها البئر ظهر الماء حتى يكون معينا ظاهرا كما كان فاشربوا منها ولا تقربنها امرأة حائض فخرجوا بالأعنز . قال فلما وقفت على البئر ظهر الماء فكانوا يشربون منها وهى على تلك الحال حتى أتتها امرأة طامث ، فاغترفت منها فركد ماؤها إلى الذى هو عليه اليوم ، وأقام ابراهيم عليه السلام ببلده وكان يضيف من نزل به وقد وسع الله تعالى عليه وبسط له من الرزق والمال والخدم . فلما أراد الله تعالى هلاك قوم لوط عليه السلام بعث إليه رسله يأمرونه بالخروج من بين أظهرهم وأمرهم أن يبدءوا بابراهيم عليه السلام ويبشروه وسارة باسحق ومن وراء اسحق يعقوب فلما نزلوا على ابراهيم عليه السلام وكان الضيف قد حبس عنه خمسة عشر يوما حتى شق عليه ذلك وكان لا يأكل إلا مع ضيف ما أمكنه فلما رآهم على صورة الرجال سر بهم ورأى ضيوفا لم يضيف مثلهم حسنا وجالا فقال لا يخرج لهؤلاء القوم

الا أنا فخرج فجاء بعجل سمين حنيد وهو الشوى بالحجارة فقربه اليهم فأمسكوا أيديهم عنه فقال لهم ألا تأكلون - فلما رأى أيديهم لاتصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة - حيث لم يأكلوا من طعامه فقالوا يا ابراهيم لانا كل طعاما إلا بشئ . قال فان لهذا ثمتا قالوا وما ثمته ؟ قال تذكرون اسم الله تعالى على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل عليهما السلام وقال يحق لهذا أن يتخذ ربه خليلا ثم قالوا له لاتخف انا أرسلنا إلى قوم لوط وامراته سارة قائمة تخدمهم وابراهيم قاعد معهم فلما أخبروه بما أرسلوا به وبشروه بإسحاق ويعقوب ضحكت سارة .

واختلف العلماء في العلة الجالبة لضحكها ما هي ؟ . فقال السدى : انما ضحكت سارة حيث لم يأكلوا من طعامهم ، وقالت يا عجباً لأضيافنا هؤلاء إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا . وقال قتادة : ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم . وقال مقاتل والكلبي : ضحكت من خوف ابراهيم من ثلاثة وهم فيما بين خدمه وحشمه . وقال ابن عباس : ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها ، وكانت هي بنت تسعين سنة وابراهيم ابن مائة وعشرين سنة .

قال السدى : قالت سارة لجبريل عليه السلام لما بشرها بالولد على حالة الكبر ما آية ذلك ؟ فأخذ يده عودا يابساً فلواه بين أصابعه فاهتز أخضر . فقال ابراهيم هو الله اذا ذبيح . وقال مجاهد وعكرمة : فضحكت أى حاضت في الوقت ، تقول العرب : ضحكت الأرنب اذا حاضت . وقال السدى وابن يسار وغيرهما من أهل الأخبار : فحملت سارة بإسحاق ، وقد كانت حملت هاجر بإسماعيل فوضعتا معا فشب الغلامان فينبهما يتناضلان ذات يوم وقد كان ابراهيم عليه السلام سابق بينهما فسبق اسماعيل فأخذه وأجلسه في حجره وأجلس اسحق إلى جانبه وسارة تنظر اليه فغضبت وقالت عمدت إلى ابن الأمة فأجلسته في حجره وعمدت إلى ابني فأجلسته إلى جنبك وقد جعلت أن لاتضرني ولا تسوءني وأخذها ما يأخذ النساء من الغيرة فحلفت لتقطعن بضعة منها ولتغيرن خلقها ثم تاب إليها عقلها فبقيت متحيرة في ذلك . فقال لها ابراهيم عليه السلام اخفضيها واتقي أذنبا ففعلت ذلك فصارت سنة في النساء . ثم ان اسمعيل واسحق عليهما السلام اقتتلا ذات يوم كما تفعل الصبيان فغضبت سارة على هاجر . وقالت لاتساكنيني في بلد واحد وأمرت ابراهيم عليه السلام أن يعزلها عنها ، فأوحى الله تعالى إلى ابراهيم عليه السلام أن يأتي بهاجر وابنها مكة فذهب بهما حتى قدم مكة وهي إذ ذاك عضاء وسلم وصمر وبحواليها خارج مكة ناس يقال لهم العماليق وموضع البيت يومئذ ربوة حمراء . فقال ابراهيم عليه السلام لجبريل عليه السلام ههنا أمرت أن تضعها . قال نعم فعمد بهما إلى موضع الحجر فأثر لهما فيه وأمر هاجر أم اسمعيل أن تتخذ عريشا ثم قال - ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون - ثم انصرف فاتبعته هاجر وقالت

إلى من تسكننا فجعل لا يردّ عليها شيئا ، فقالت الله أمرك بهذا ؟ قال نعم فقالت إذا لا يضيعنا ، ثم انصرف راجعا إلى الشام وكان مع هاجر شنة فيها ماء فنقد الماء فعطشت وعطش الصبي ، فنظرت أي الجبال أدنى من الأرض فصعدت الصفا وتسمعت هل تسمع صوتا أو ترى انسيا فلم تسمع شيئا ولم تر أحدا ، ثم إنها سمعت أصوات سباع الوادي نحو اسمعيل فأقبلت إليه بسرعة لتؤنسه ثم سمعت صوتا نحو المروة فسعت وماتريد السعي كالانسان المجهود فهي أول من سعى بين الصفا والمروة ثم صعدت إلى المروة فسمعت صوتا كالانسان الذي يكذب سمعه حتى استيقنت وجعلت تدعواسمع ايل تعنى يا الله قد أسمعني صوتك فأعثنى فقد هلك من معي ، فاذا هي بجبريل عليه السلام فقال لها من أنت فقالت سرية ابراهيم عليه السلام تركني وابني ههنا قال وإلى من وكلكما قالت وكلنا إلى الله تعالى قال لقد وكلكما إلى كريم كاف ثم جاء بهما وقد نقد طعامهما وشرابهما حتى انتهى بهما إلى موضع زمزم ، فضرب بقدمه فقارت عين فلذلك يقال لزمزم ركضة جبريل عليه السلام فلما نبع الماء أخذت هاجر شنة لها وجعلت تستقى فيها وتدخره ، فقال لها جبريل عليه السلام انهارى وجعلت أم اسماعيل تحبسها حبسا . قال رسول الله ﷺ « لولا أنها عجلت لكانت زمزم عينا معينا » وقال لها جبريل لا تخافي الظمأ على أهل هذه البلدة فانها عين يشرب منها ضيفان الله تعالى وقال لها أما ان أبا هذا الغلام سيجنى فينبيان لله تعالى بيتا هذا موضعه ، قالوا ومرت رققة من جرهم تريد الشام فأروا الطير على الجبل فقالوا ان هذا الطير لحائم على ماء فأشرفوا فاذا هم بالماء ، فقالوا لهاجر ان شئت كما معك فأئسناك والماء مأوك فأذنت لهم فنزلوا معها وهم أول سكان مكة فلذلك كانت العرب تقول في تلييتها :

لاهم ان جرهما عبادك الناس طارف وهم تلادك وهم قديما عمروا بلادك
فكانوا هناك حتى شب اسمعيل وماتت هاجر فتزوج اسمعيل امرأة من جرهم وأخذ لسانهم فتعرب بهم فأولاده العرب المتعربة . ثم ان ابراهيم عليه السلام استأذن سارة أن يزور هاجر وابنها فأذنت له واشترطت عليه أن لا ينزل قدام ابراهيم عليه السلام مكة وقدمات هاجر ويقال انه قدمها راكبا البراق ، فلما قدمها ذهب إلى بيت اسمعيل فقال لامرأته أين صاحبك قالت ليس ههنا ذهب يتصيد ، وكان اسمعيل يخرج من الحرم يتصيد ثم يرجع وكان مولعا بالصيد فخص بالقنص والفروسة والرمى والصراع ، فقال لها ابراهيم عليه السلام هل عندك ضيافة هل عندك طعام أو شراب قالت ليس عندي شيء وما عندي أحد ، فقال لها ابراهيم إذا جاء زوجك فأقرئيه مني السلام وقولي له فليغير عتبة بابه ، فذهب ابراهيم عليه السلام ودخل اسمعيل فوجد ريح أيه ، فقال لامرأته هل جاءك أحد ؟ فقالت جاءني شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفة بشأنه . قال فلما قال لك قالت قال أقرئي زوجك السلام وقولي له فليغير عتبة بابه ، فطلقها وتزوج أخرى ، فلبث ابراهيم عليه السلام ماشاء الله ، ثم استأذن سارة أن يزور اسمعيل فأذنت له واشترطت عليه أن لا ينزل ، فجاء ابراهيم عليه السلام

حتى انتهى إلى باب اسمعيل ، فقال لامرأته أين صاحبك قالت ذهب يتصيد وهو يحيى الآن ان شاء الله تعالى فانزل يرحمك الله ، قال لها هل عندك ضيافة قالت نعم فجاءت باللبن واللحم فدعا لهم بالبركة فلو جاءت يومئذ بنخبز أو بر أو شعير أو تمرا لكانت مكة أكثر أرض الله برا وشعيرا وتمرًا ، ثم قالت له انزل حتي أغسل رأسك وشعثك فلم ينزل فجاءته بالمقام فوضعت عند شقه الأيمن فوضع قدمه عليه فبقى أثر قدمه فيه فغسلت شق رأسه الأيمن ثم جعلت المقام إلى شقه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر فقال لها إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له قد استقامت عتبة بابك فلما جاء اسمعيل وجد ريح أييه فقال لامرأته هل جاءك أحد قالت نعم جاءني شيخ أحسن الناس وجهًا وأطيبهم ريحًا فقال لي كذا وكذا وقلت له كذا وكذا وغسلت له رأسه وهذا موضع قدميه على المقام فقال ذلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

قال أنس بن مالك : رأيت في المقام أثر أصابع إبراهيم عليه السلام وعقبه وأخص قدميه غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم

وأخبرنا محمد بن أحمد بن عبدون قال أخبرنا محمد بن حمدون بن خالد حدثنا محمد بن إبراهيم حدثنا هذبة بن خالد حدثنا أبو يحيى بن جابر بن مسح القرشي قال : سمعت مسافر بن شيبة يقول سمعت عبد الله بن عمر يقول أشهد ثلاث مرات أني سمعت رسول الله ﷺ يقول « الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة طمس الله نورهما ولولا أن طمس الله نورهما لأضاء ما بين المشرق والمغرب » .

الباب الرابع في القول على بقية قصة زمزم

روت الرواة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال عبد المطلب بن هاشم : بينا أنا نائم في الحجر إذ أتاني آت فقال لي احفر طيبة قلت وما طيبة ؟ فذهب عني ولم يجبني ، فلما كانت الليلة الثانية جاءني فقال احفر درة قلت وما درة فذهب عني ولم يجبني ، فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فقال احفر المصونة قلت وما المصونة فذهب عني ، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعي فسمعت ، فجاءني فقال احفر زمزم فقلت وما زمزم ، وكانت قد درست وغار ماؤها لما مضت أيام اسمعيل عليه السلام قال بئر يستقي الحجيج منه عند منحر قريش عند نقرة الغراب وقرية النمل ، فلما تبين له قام فدل على موضعه وعرف أنه قد صدق ، فعدا بمعوله ومعه الحارث بن عبد المطلب وليس له ولد غيره يومئذ ، فلما علمت به قريش قاموا اليه فقالوا يا عبد المطلب انتما من آثار أيينا اسمعيل وان لنا فيها حقًا فأشركنا فيها ، فقال ما أنا بفاعل ان هذا شيء خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم . قالوا له فأنصفنا فانا غير تاركيك حتى نخاصمك . قال فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أخاصمكم اليه قالوا كاهنة بني سعد ابن هذيل قال نعم ، وكانت في أطراف الشام فركب عبد المطلب ومعه ثمر من بني عبد مناف ، فركب من كل قبيلة من قريش نفر قال والأرض إذ ذاك مفاوز ، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز تقدموا كان معهم

من الماء حتى أيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم وقالوا إنا بمفازة وانا نخشى على أنفسنا أن يصيبنا مثل ما أصابكم ، فلما رأى عبد المطلب ماصنع القوم قال لأصحابه ماذا ترون ؟ . قالوا ان رأينا تبع لرأيك فأمرنا بما شئت قال فاني أرى أن يحفر كل رجل منكم لنفسه حفرة بما يجد من القوة فكل من مات منادون صاحبه دفنه في حفرة . قال فحفروا وجلسوا ينتظرون الموت . ثم قال عبد المطلب وما لنا لا نضرب في الأرض فعسى الله تعالى أن يرزقنا ماء فارتحلوا ومن معهم من قريش ينظرون اليهم ما هم فاعلون وتقدم عبد المطلب الى راحلته فركبها ، فلما أن انبعثت به انفجرت من تحت حوافر دابة عبد المطلب عين ماء عذب فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ، ثم نزل فشرب منه وشرب أصحابه حتى رووا وملئوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال هلموا إلى الماء فقد سقانا الله تعالى وإياكم فشربوا وسقوا ، ثم قالوا قد والله قضى الله لك علينا يا عبد المطلب والله لا نخاصمك في زمزم أبدا ان الذي سقاك هذا الماء في هذه الفلاة فهو ساقيك زمزم فارجع ، فرجع ورجعوا معه حتى وافوا مكة وخلوا بينه وبين زمزم ، ولما جن الليل رأى عبد المطلب في منامه كأن قائلا يقول له :

يا أيها المدج احفر زمزم
وهي تراث من أبيك الأعظم

انك ان حفرتها لم تندم
تسقى الحجيج حافلا لم ينقم

فلما سمعه عبد المطلب قال وأين موضع زمزم ؟ قيل له عند قرية النمل حيث ينقر الغراب الأعصم قال فعدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عند الوثنين اساف وناثلة اللذين كانت قريش تعبدهما وتنحر عندهما فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر فقامت قريش اليه وقالوا والله لا تركك أن تحفرها ووثنانا ومنحرتنا عندها ، وكانت قريش حسدوه على ذلك لأنهم أخبروا أن جرمها لما سكنت مكة أودعت في زمزم أموالا وأسلحة للمصطفى ﷺ لما أخبرت أن الله تعالى باع في هذه القرية نبيا من صفته وحاله كيت وكيت ولم يكونوا عرفوا موضعها ، فلما أخبر بذلك عبد المطلب نازعوه في ذلك فقال بعضهم لبعض دعوه يحفر فرما يخطئ الموضع ، فحفر غير بعيد فظهرت له العلامات فكبر فعرفوا أنه لم يخطئ فتمادى حتى بلغ الى تمثالين من ذهب وهما الغزالان اللذان دفنتهما جرمهم ووجد فيها سيوفا ودروعاً فقالت له قريش يا عبد المطلب لنا معك في هذا شركة قال لا ولكن نضرب بالقداح عليه قالوا وكيف نصنع ؟ قال اجعلوا للكعبة قدحين ولى قدحين ولكم قدحين فمن خرج قدحاه على شيء كان له ومن تخلف قدحاه فلا شيء له . قالوا أنصفت فجعل قدحين أصفرين للكعبة وقدحين أسودين لعبد المطلب وقدحين أبيضين لقريش ، ثم أعطوا القداح التي تضرب بها عندهبل وقام عبد المطلب يدعو فخرج السهمان الأصفران على الغزالين للكعبة وخرج الأسودان على الأسياف والأدرع لعبد المطلب وتخلف قدحا قريش ، قال فعلق عبد المطلب الأسياف والأدرع بباب الكعبة وضرب في الباب الغزالين الذهب فكان أول ذهب حليت به الكعبة وكانت الرياسة والتقدمة لعبد المطلب قبل حفر زمزم ، فلما حفرها وأخرج منها ما أخرج ازداد بذلك في قريش عظما وجاها ومنزلة

وعافت الحبيج المياه التي كانت بمكة ونواحيها وأقبلوا على زمزم لما كان من عذوبة مأمها لكونها من أثر اسماعيل عليه السلام وافتخرت بذلك بنو عبد مناف على قريش وعلى سائر العرب والله أعلم .

الباب الخامس في صفة بناء الكعبة وبدء أمرها إلى وقتنا هذا

أخبرنا أبو عمرو وأحمد بن أبي أحمد القراتي أخبرنا الحسن بن المغيرة بن عمر بن الوليد المغربي بمكة حدثنا أبو سعيد الفضل بن محمد بن إبراهيم بن الفضل حدثنا عبد الله بن أبي غسان اليماني حدثنا أبو همام حدثنا محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : قال اليماني . قال رسول الله ﷺ « كان البيت قبل هبوط آدم عليه السلام ياقوتة من يواقيت الجنة والبيت المعمور الذي في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة حذاء الكعبة الحرام وإن الله تعالى أهبط آدم عليه السلام إلى موضع الكعبة وهو مثل الفلك من شدة رعدته وأنزل عليه الحجر الأسود وهو تلالأ كأنه لؤلؤة بيضاء ، فأخذ آدم فضمه إليه استئناساً به ، ثم أخذ الله تعالى من بني آدم ميثاقهم فجعله في الحجر ، ثم أنزل الله تعالى على آدم العصا ثم قال يا آدم تخط فتخطى فإذا هو بأرض الهند فمكث هناك ما شاء الله أن يمكث ، ثم استوحش إلى البيت فقبل له حججاً يا آدم ، فأقبل يتخطى فصار موضع كل قدم قرية وما بين ذلك مفاوز حتى قدم مكة فلقيته الملائكة فقالت برحمتك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام ثم قال فما كنتم تقولون حوله ؟ قالوا كنا نقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فكان آدم إذا طاف بالبيت قال هذه الكلمات ، وكان آدم يطوف بالبيت سبعة أسابيع خمسة أسابيع بالليل وبالنهار أسبوعان فقال آدم يارب اجعل لهذا البيت عمارة يعمرونه من ذريتي ، فأوحى الله تعالى إليه أني معمريه بنبي من ذريتك اسمه إبراهيم أتخذه خليلاً أقض على يديه عمارته وأنيط له سقايته وأورثه حله وحرمة ومواقفه وأعلمه مشاعره ومناسكه ، فلما فرغ من بنائه نادى يا أيها الناس إن الله تعالى بنى بيتاً فحجوه فأسمع ما بين الخافقين فأقبل من حجج هذا البيت من الناس يقولون ليك ليك » وقال النبي ﷺ « إن آدم عليه السلام سأل ربه عز وجل فقال يارب أسألك لمن مات في هذا البيت من ذريتي لا يشرك بك شيئاً أن تلحقه بي في الجنة فقال الله تعالى يا آدم من مات في الحرم لا يشرك بي شيئاً بعثته آمناً يوم القيامة » .

وروت الرواة بأسانيد مختلفة : إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض كان رجلاً في الأرض ورأسه في السماء يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم وتسييحهم ويأنس إليهم فهابته الملائكة واشتكت ذلك إلى الله عز وجل فنقصه الله تعالى إلى ستين ذراعاً بذراع آدم ، فلما فقد آدم عليه السلام ما كان يسمع من أصوات الملائكة وتسييحهم استوحش وشكا ذلك إلى الله عز وجل فأنزل الله تعالى ياقوتة من يواقيت الجنة فكانت على موضع البيت الآن ، ثم قال يا آدم أني أهبطته لك بيتاً تطوف به كما يطاف حول عرشي وتصلى عنده كما كنت تصلى عند عرشي فتوجه آدم عليه السلام إلى مكة ورأى البيت فطاف به .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : أوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام ان لي حرما بحيال عرشي فانطلق فاين لي بيتا فيه ثم حف به كما رأيت الملائكة يحفون بعرشي فهنا لك أستجيب لك ولولدك من كان منهم في طاعتي قال آدم رب كيف لي بذلك ولا أقوى عليه ولا أهتدى اليه فقيض الله له ملكا فانطلق نحو مكة ، فكان آدم عليه السلام إذا مرت بروضه وبمكان يعجبه ، قال للملك انزل بي ههنا ، فيقول له الملك مكانك حتى قدم مكة ، فكان كل مكان نزل فيه عمرانا وكل مكان تعداه مفاوز وقفارا ثم بنى البيت ، فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات ، فأراه الناس كلها التي يفعلها الناس كلها اليوم ، ثم قدم به مكة وطاف بالبيت أسبوعا ، ثم رجع إلى أرض الهند فمات على نور . قال أبو يحيى بائع القت : قال لي مجاهد لقد حدثني عبد الله بن عباس أن آدم نزل حين نزل بالهند ، ولقد حجّ منها أربعين حجة على رجله ، فقلت له يا أبا الحجاج ألا كان يركب ، قال وأي شيء كان يحمله والله إن خطوته مسيرة ثلاثة أيام . وقال وهب بن منبه إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض فرأى سعتها ولم ير فيها أحدا غيره ، قال يارب أما لهذه الأرض عامر يسبح بحمدك ويقدر سك غيري ؟ قال الله تعالى : إني سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدى ويقدر سنى ، وسأجعل فيها بيوتا ترفع بذكرى ويسبح فيها خلقي ويذكر فيها اسمي وسأجعل من تلك البيوت بيتا أخصه بكرامتى وأوثره باسمي وأسميه بيتي أنطقه بعظمى وعليه وضعت جلالى ، ثم أجعل ذلك البيت حرما آمنا يحرم بحرمة من حوله ومن تحته ومن فوقه ، فمن حرمة بحرمة استوجب بذلك كرامتى ، ومن أخاف أهله فقد ضيع ديني وخفر ذمتي وأباح حرمتي أجعله أوّل بيت وضع للناس يأتونه شعنا غبرا - وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق - يضجون بالتلبية ضجيجا ويثجون بالبكاء أجيجا ويعجون بالكبير عجيجا ، فمن آثره لا يريد غيره فقد وفد إلى وزارنى وضافنى ، وحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وأن ينعم ويتفضل ويسعف كلا بحاجته ، تعمده يا آدم ما كنت حيا ثم تعمده الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن فهكذا كان بدء أمر الكعبة حرسها الله تعالى ، ثم كانت على ذلك إلى أيام الطوفان ، فلما كان أيام الطوفان رفعه الله تعالى إلى السماء الرابعة وبعث جبريل عليه السلام حتى خبا الحجر الأسود في جبل أبي قبيس صيانة له من الفرق فكان موضع البيت خاليا إلى زمان إبراهيم عليه السلام ، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ما ولده إسماعيل واسحق عليهما السلام ببناء بيت له يعبد فيه ويذكر اسمه ، فلم يدر إبراهيم في أى موضع يبنيه ، فسأل الله عز وجل أن يبين له ذلك . واختلف العلماء في كيفية بيان ذلك فقال قوم بعث الله تعالى اليه السكينة لتدله على موضع البيت كما حدث سماك بن حرب عن خالد بن عرعة أن رجلا قام إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال ألا تخبرنى عن البيت أهو أوّل بيت وضع للناس ؟ فقال لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة ووضع فيه مقام إبراهيم عليه السلام ومن دخله كان آمنا وإن شئت أنبأتك كيف بنى إن الله عز وجل أوحى إلى إبراهيم عليه السلام أن ابن لي بيتا في الأرض

فضاق بذلك إبراهيم ذرعا ، فأرسل الله عز وجل السكينة وهي ريح خجوج ولها رأسان فاتبع أحدها صاحبه حتى اتهمتا إلى مكة فتطوقت على موضع البيت كتطوق الجحفة وأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة فبنى بيتا . وقال آخرون أرسل الله تعالى إليه سحابة على قدر الكعبة ، فجعلت تسير معه إلى أن قدم مكة فوقفت في موضع البيت ونودي يا إبراهيم ابن علي ظلها لاتزد ولا تنقص . وقال بعضهم إن الذي خرج مع إبراهيم عليه السلام من الشام لدلالته على موضع البيت جبريل عليه السلام وذلك قوله عز وجل - وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت - الآية . قالوا فجعل إبراهيم بينه وإسماعيل يناوله الحجارة وكان إبراهيم عبرانيا وإسماعيل عربيا ، فألهم الله تعالى أحدهما لسان صاحبه فكان إبراهيم عليه السلام يقول هب لي كينا يعني هات لي حجرا ، فيقول له إسماعيل هالك نخذه ، فبنا الكعبة من خمسة أجبل طور سينا وطور زيتا ولبنان والجودي وبنيت قواعد من حراء . قال فبقى حجر فذهب إسماعيل يبتغيه ، ثم رجع فوجده قد ركب الحجر في مكانه ، فقال ياأبت من أتاك بهذا الحجر ، فقال له أتاني به من لم يكن ليك ، ثم قال إبراهيم لإسماعيل اثنتي بحجر حسن أضعه على الركن ليكون علما للناس ، فناداه أبوقيس يا إبراهيم إن لك عندي وديعة فهالك نخذه ، فأخرج إبراهيم عليه السلام الحجر الأسود من جبل أبي قيس وركبه في موضعه ، فلما فرغ إبراهيم وإسماعيل من بناء البيت وأتموا دعواتهما فذلك قوله تعالى - وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، إلى قوله - وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم - فأجاب الله تعالى دعاءهما وأرسل جبريل عليه السلام إليهما ليعلمهما مناسك الحج ، فخرج بهما يوم التروية إلى منى فصلى بهما الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم بات بهما حتى أصبح فصلى بهما الصبح ، ثم غدا بهما إلى عرفة فقام بهما هناك حتى إذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين الظهر والعصر ، ثم راح بهما إلى الموقف من عرفة فوقف بهما على الموضع الذي يقف عليه الناس اليوم ، فلما غربت الشمس دفع بهما إلى المزدلفة فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء ، ثم بات بهما حتى طلع الفجر ثم صلى بهما صلاة العداة فوقف بهما على قزح حتى إذا أسفر الصبح أقاض بهما إلى منى فأراهما كيف يرميان الجمار ، ثم أمرهما بالذبح وأراهما المنحر من منى وأمرهما بالحلقي ، ثم أقاض بهما إلى البيت ، فأوحى الله تعالى إلى نبينا محمد ﷺ - أن اتبع ملة إبراهيم خيفة وما كان من المشركين ثم أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج ، فقال يارب وما يبلغ صوتي ؟ فقال عليك الأذان وعلى البلاغ فعلاثيرا ونادى يا عباد الله إن ربكم قد بنى بيتا فحجوه وأجيبوا داعي الله فسمعه ما بين السماء والأرض وما بين الأبحر ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فأجابه كل من آمن بالله ممن سبق في علم الله تعالى أن يحج إلى يوم القيامة ليك اللهم ليك .

وقال عبد الله بن الزبير لعبيد بن عمير : استقبل إبراهيم عليه السلام اليمن والمشرق والمغرب

والشام فدعا الى الحج ، فأجيب لبيك اللهم لبيك وذلك قوله عز وجل - وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق - الآيات ، فلم يزل البيت على ما بناه ابراهيم عليه السلام الى سنة خمس وثلاثين من مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وذلك قبل مبعثه بخمس سنين ، فهدمت قريش الكعبة ثم بنتها . وكان السبب في ذلك على ما ذكر محمد بن اسحق وغيره من أهل الأخبار أن الكعبة كانت رضة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لسقفها ، وكان بمكة رجل قبضي نجار فها لم في أنفسهم بعض ما يصلحها وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي يطرح فيها ما يهدى لها كل يوم فتشرف على جدار الكعبة وكانوا يهابونها وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا كشرت وفتحت فها فكانوا يهابونها فينهاي ذات يوم على جدار الكعبة كما كانت تصنع فبعث الله طائرا فاخطفها فذهب بها وقالت قريش إنا لندرجو أن الله تعالى قد رضى ما أردناه من عمارة بيته وإن عندنا عاملا رفيقا وخشبا وقد كفانا الله تعالى الحية وذلك بعد حرب الفجار بخمس عشرة سنة ، فلما أجمعوا أمرهم على هدمها وبنائها قام أبو وهب بن عمرو بن عمير بن عامر بن عمرو بن مخزوم وتناول من الكعبة حجرا فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه فقال يامعشر قريش لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيبا ولا تدخلوا فيها من مهربى ولا يبيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس ، ثم إن الناس هابوا هدمها فقال الوليد بن المغيرة أنا أبدأ لكم في هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول اللهم لا تريد إلا الخير ثم هدم من ناحية الركنين فترى الناس به تلك الليلة وقالوا ننتظره فإن أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت وإن لم يصبه شيء فقد رضى الله تعالى بما فعلنا فأصبح الوليد من ليته غاديا على عمله فهدم وهدم الناس معه حتى انتهى الهدم إلى الأساس فأفضوا إلى حجارة خضر كأنها أسنة الابل أخذ بعضها ببعض فأدخل رجل من قريش عتلة بين حجرين منها ليقلع أحدهما ، فلما تحرك الحجر تحركت مكة بأسرها فعلموا أنهم قد اتسوا إلى الأساس وقالوا إن القبائل قد اجتمعت لبنائها فجعلت كل قبيلة تجمع على حديثها ثم بنوا ، فلما بلغوا في البنيان إلى موضع الركن اختصموا فيه فكل قبيلة أرادت أن تضعه في صفة دون الأخرى حتى تخالفوا وتحالفوا وتواعدوا والقتال فحرب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدواهم بنو عدي بن كعب على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم فسموا لعنة الدم بذلك ، فمكثوا أربع ليال أو خمس ليال على ذلك ثم إنهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وتناصفوا فزعم بعض الرواة أن أبا أمية بن المغيرة كان حينئذ أسن قريش كلها ، فقال لهم يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل عليكم من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه فرضوا بذلك وتوافقوا عليه ، فكان أول من دخل عليهم محمد رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا هذا محمد الأمين قد رضىنا به فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر قال : هلموا إلى ثوبا فأتوا به فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا ذلك حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه بيده ثم بنى عليه . قالوا

فكانت الكعبة كذلك على ما بينه قریش الى سنة أربع وستين من الهجرة حتى حاصر الحصين بن نمير السكوني عبد الله بن الزبير فقتلوا البيت بالمنجنيق وأخذوا يرتجزون ويقولون .

حظارة مثل الفنيق الزيد ترمى بها عيدان هذا المسجد

وقال آخر منهم

كيف ترى صنيع أم فروه تأخذهم من الصفا والروه

أم فروة اسم منجنيق فمالت حيطان الكعبة مما رميت به من حجارة المنجنيق وانها مع ذلك احترقت ، وكان السبب فيه أنهم كانوا يوقدون حولها فأقبلت شرارة هبت بها الريح فأحرقت باب الكعبة واحترق خشب البيت .

وقال الواقدي : حدثني عبد الله بن زيد قال حدثني عروة بن أذينة قال قدمت مكة مع أبي يوم احترقت الكعبة وقد خلصت اليها النار ورأيت الركن قد اسود وانصدعت منه ثلاثة أمكنة ، فقلت ما أصاب الكعبة ؟ فأشاروا الى رجل من أصحاب ابن الزبير قالوا احترقت بسبب هذا أخذ قيسا في رأس رمح له فطارت الرمح به فضربت أستار الكعبة ما بين الركن اليماني والحجر الأسود .

وقال بعضهم : كان السبب في ذلك أن امرأة كانت تبخر البيت فطارت شرارة من النار فاحترق البيت ، وكان أول ماتكلم الناس في القدر يومئذ فقال قوم هو من قدرة الله . وقال قوم ليس من قدرة الله قالوا فهدم عبد الله بن الزبير الكعبة حتى سواها بالأرض ، وكان الناس يطوفون بها من وراء الأساس ويصلون إلى موضعها ، وجعل الحجر الأسود عنده في تابوت في خرقه من حرير وجعل ما كان من حلى البيت وما وجد فيه من ثياب وطيب عند الحجة في خزانة البيت ثم أعاد بناءه ، وقال إن أمي أسماء بنت أبي بكر حدثتني أن رسول الله ﷺ قال لعائشة : لولا حداثة عهد قومك بالكفر لرددت الكعبة على أساس إبراهيم فأزيد في الكعبة الحجر ، وإن قریشا أعوزتهم النفقة فأخرجوا الحجر من البيت ولجعت لها باين بابا شرقيا وبابا غربيا ، فأمر به ابن الزبير فحفر فوجدوا قلاعا أمثال الابل فحرقوا منها صخرة فبرقت برقة ، فقال أقروها على أساسها ، فبناها ابن الزبير وأدخل فيها الحجر وجعل لها باين يدخل من أحدها ويخرج من الآخر ، فكانت الكعبة على ما بناها ابن الزبير إلى سنة أربع وسبعين حتى قتل الحجاج بن يوسف الثقفي عبد الله بن الزبير وولى الحجاز من قبل عبد الملك بن مروان ، فنقض الحجاج بنيان الكعبة الذي كان بناء ابن الزبير بأمر عبد الملك وأعادها إلى بنائها الأول بمشهد مشايخ من قریش ، فهي اليوم على ما بناها الحجاج إلا ما كان من قلع القرمطى صاحب البحرين لعنه الله الحجر الأسود عام أوقع بالحجيج بمكة فذهب به مع من أسر من الحاج إلى البحرين ثم أخذ منه ورد إلى موضعه ، وذلك على يد شيخنا أبي اسحق إبراهيم بن محمد بن يحيى البرمكي النيسابوري رحمة الله عليه .

الباب السادس في ذكر أمر الله تعالى خليله عليه السلام بذبح ولده

قال الله تعالى فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال بأبى أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . واختلف السلف من علماء المسلمين في الذي أمر إبراهيم عليه السلام بذبحه من ابنه بعد إجماع أهل الكتاب على أنه كان إسحق عليه السلام ، فقال قوم هو إسحق واليه ذهب من الصحابة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلى بن أبي طالب ، ومن التابعين وأتباعهم كعب الأحبار وسعيد بن جبيرة والقاسم بن أبي برة ومسروق بن الأجدع وعبد الرحمن بن أبي سابط وأبو الهزيل والزهرى والسدى .

روى شعبة عن أبي إسحق عن أبي الأحوص قال : افتخر رجل عند عبد الله بن مسعود قال أنا فلان بن فلان ابن الأشياخ الكرام ، فقال عبد الله ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله .

وروى سفيان عن زيد بن أسلم عن عبيد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده قال : قال موسى عليه السلام يارب يقولون يا إله إبراهيم وإسحق ويعقوب فلم قالوا ذلك ؟ فقال إن إبراهيم لم يعدل بي شيئا قط إلا اختارني عليه وإن إسحق جادلني بالدبح فهو بغير ذلك أجود وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادني حسن ظن .

وروى حمزة بن الزيات عن أبي إسحق عن أبي ميسرة قال . قال يوسف عليه السلام لملك مصر : أترغب أن تأكل معي وأنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله . وقال الآخرون هو إسماعيل وإلى هذا القول ذهب عبد الله بن عمر وأبو الطفيل عامر ابن وائلة وسعيد بن المسيب والشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد وكان الشعبي يقول رأيت قرني الكباش منوطين بالكعبة .

وروى عمرو بن عبيد عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في أن الذي أمر بذبحه من ابن إبراهيم عليه السلام هو إسماعيل وهي رواية عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عباس قال المقتدى إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحق وكذبت اليهود .

وروى محمد بن إسحق عن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقول إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنه إسماعيل وإنما لتجد ذلك في كتاب الله تعالى في قصة الحق عن إبراهيم عليه السلام وما أمر به من ذبح ابنه أنه إسماعيل وذلك أن الله عز وجل يقول حين فرغ من قصة المذبح من ابن إبراهيم - وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين - . وقال تعالى فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب يقول بائن وابن ابن فلم يكن يأمره بذبح إسحق وله فيه من الله تعالى من الموعود ما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل قال محمد بن كعب القرظي فذكرت ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كنت معه بالشام فقال لي عمر إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه

كما قلت ثم أرسل الى رجل كان عنده بالشام وكان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علماء اليهود فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده فقال له أيّ ابني إبراهيم الذي كان أمر بذبحه ؟ فقال إسماعيل ، ثم قال والله يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذي كان أمر الله بذبحه لما فيه من الفضل الذي ذكر أنه كان منه بصبره على ما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق لأن إسحق أبوهم . وقد روى عن رسول الله ﷺ كلا القولين ولو كان فيهما قول صح بالاجماع لم يعزه أبو عبد الله الى غيره . فأما الرواة التي روت عنه أن النبي ﷺ إسحق فأخبرني أبو عبد الله بن الحسين بن محمد عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ : الذي أراد إبراهيم أن يذبحه إسحق ، وعنه ﷺ أنه قال : الذي فداه الله بذبح عظيم إسحق وأخبرنا أبو عبد الله أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان أخبرنا يوسف بن عبد الله بن ماهان أخبرنا موسى بن إسماعيل أنبأنا المبارك عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب عن أنس بن مالك قال . قال رسول الله ﷺ يشفع إسحق بعدى فيقول يارب صدقت نبيك وجدت بنفسى للذبح فلا تدخل النار من يشرك بك شيئا . قال فيقول الله وعزتي لأدخل النار من لا يشرك بي شيئا . وأخبرنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحق المزني قراءة عليه سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة أنبأنا جدي أبو بكر بن محمد بن إسحق بن خزيمة امام الأئمة أنبأنا علي بن حجر أنبأنا عمر ابن حفص عن أبان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله خيرني بين أن يغفر لنصف أمتي وبين أن أختيء شفاعتي فاخترت شفاعتي ورجوت أن يكون ذلك أعم لأمتي ولولا الذي سبقني اليه العبد الصالح لتعجلت منها دعوتي وذلك أن الله تعالى لما فرج عن إسحق كرب الذبح قيل له يا إسحق سل تعط فقال أما والذي نفسي بيده لأتعجلنها قبل نزغة الشيطان اللهم من مات لا يشرك بك شيئا فاغفر له وأدخله الجنة . وأما الرواة التي روت عنه ﷺ أن النبي ﷺ إسماعيل فروى عمر بن عبد الرحمن الخطابي بإسناده عن الصباحي . قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا أن النبي ﷺ إسماعيل أو إسحق فقال : على الخير سقطتم كنت عند رسول الله ﷺ فجاءه رجل فقال يا رسول الله أعد عليّ ما أفاء الله عليك يا ابن النبي ﷺ فضحك رسول الله ﷺ فقيل يا أمير المؤمنين ومن النبي ﷺ ؟ فقال إن عبد المطلب لما حفر زمزم نذر لربه إن سهل الله عليه أمرها ليذبحن أحدولديه قال فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له افد ولدك بمائة من الابل ففداه بمائة من الابل والثاني إسماعيل فهذا ماورد من الأخبار وفي القرآن مايدل على صحة كل واحد من القولين فأما الدليل على أنه إسحق فهو أن الله تعالى أخبر عن إبراهيم عليه السلام حين فارق قومه مهاجرا الى الشام مع سارة ولوط وقال إني ذاهب الى ربي سيهدين أنه دعا فقال رب هب لي من الصالحين يعني ولدا صالحا من الصالحين وذلك قبل أن يعرف هاجر وقبل أن تصير له أم إسماعيل ثم أتبع ذلك الخبر عن إجابة دعوته وتبشير إياه بعلام حليم وعن رؤيا إبراهيم أن يذبح ذلك الغلام الذي بشر به حين

(٦ - قصص الأنبياء)

بلغ معه السعى وليس في القرآن أنه بشر بولده كبر إلا باسحق . وأما الدليل على أنه إسماعيل فما ذكرناه من حديث القرنين وقد صح الخبر أن قرني الكباش كانا معلقين بالكعبة إلى أن احترق البيت فاحترق القرنان في أيام ابن الزبير والحجاج وهذا أدل دليل على أن الذبيح إسماعيل .

وأما قصة الذبيح وصفته وفعل إبراهيم بابنه عليهما السلام

قال السدي بأسناده لما فارق إبراهيم الخليل عليه السلام قومه مهاجرا إلى الشام هاربا بدينه كما قال تعالى - وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين - دعا الله أن يهب له ابنا صالحا من سارة فقال رب هب لي من الصالحين . فلما نزل به ضيافه من الملائكة المرسلين إلى المؤتفكة بشروه بسلام حليم فقال إبراهيم لما بشر به هو إذا لله ذبيح فلما ولد الغلام وبلغ معه السعى قيل له أوف بنذرك الذي نذرت قربانا إلى الله تعالى وكان هذا هو السبب في أمر الله خليله إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه فقال إبراهيم عند ذلك لإسحق انطلق تقرب قربانا إلى الله تعالى وأخذ سكينا وحبلًا ثم انطلق معه حتى ذهب به بين الجبال فقال له الغلام يا أبت أين قربانك ؟ فقال يا بني إني أرى في المنام أتى أذبحك أي رأيت لفظه مستقبل ومعناه الماضي فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . قال ابن اسحق كان إبراهيم إذا زار هاجر وإسماعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقبل بمكة ويرجع من مكة فيبيت عند أهله بالشام حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعى وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرمانه رأى في المنام أن يذبحه فلما أمر بذلك قال لابنه يا بني خذ الحبل والمدينة ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما أمر به - قال يا بني إني أرى في المنام أتى أذبحك - الآية فقال له ابنه الذي أراد أن يذبحه يا أبت اشد رباطي حتى لا أضطرب واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها دمي فينقص أجرى وتراه أمي فتحزن واشحد شفرتك وأسرع بمر السكين على حلق ليكون أهون للموت على فان الموت شديد فاذا أتيت أمي فأقرئها مني السلام فان رأيت أن ترد قميصي إليها فافعل فانه عسى أن يكون أسلى لها عني ، فقال له إبراهيم نعم العون يا بني أنت على ما أمر الله به ففعل إبراهيم ما أمره الله ثم إنه أقبل عليه يقبله وقدر بطنه وهو يبكي والابن يبكي حتى استتبع الدموع تحت خده ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم يجزع ولم يعمل السكين شيئا . قال السدي وضرب الله تعالى صفيحة من نحاس على حلقه ، فقال عند ذلك الابن يا أبت كني على وجهي فانك إن نظرت إلى وجهي رحمتني وأدر كنتك على رقة تحول بينك وبين أمر الله ففعل إبراهيم ذلك فذلك قوله تعالى - فلما أسلما وتلاه لجلين - ثم انه وضع السكين على قفاه فالتفت ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا الآية هذه ذبيحتك فداء لابنك فاذبحها دونه فنظر إبراهيم عليه السلام فاذا هو يجبريل عليه السلام ومعه كبش أعين أملح أقرن فكبر الكبش وكبر إبراهيم وكبر ابنه فذلك قوله تعالى - وفديناه بذبح عظيم - قال سعيد بن جبير وغيره عن ابن عباس خرج عليه الكبش من الجنة قدرعى فيها أربعين خريفا . وروى عنه أيضا أن الكبش الذي فدى به عن إبراهيم عليهما السلام هو الكبش الذي قرب به هايل بن آدم فتقبل

منه فأرسل إبراهيم ابنه وأخذ الكبش وأتى به المنحر من منى فذبحه فواللهي نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الاسلام وان رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميازيب السكبة قد وخش يعني يبس ، وروى عمرو بن عبيد عن الحسن عن أبيه أنه كان يقول . ما فدى إسماعيل إلا بكبش من الأروى أهبط عليه بشير وهي رواية أبي صالح عن ابن عباس قال كان وعلا .

وروى أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن اسحق عن رجال قالوا لما رأى إبراهيم في المنام أن يذبح ابنه قال الشيطان والله لئن أفتن عندهذا آل إبراهيم والالم أفتن أحدا منهم أبدا فمثل لهم الشيطان رجلا فأتى أم الغلام فقال لها أتدريين أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت ذهب به ليحطب من هذا الشعب فقال لا والله ما ذهب به الا ليدبحه قالت كلا هو أرحم به مني وأشد حبا له من ذلك فقال لها إنه يزعم أن الله أمره بذلك ، فقالت له إن كان أمره بذلك فقد أحسن في أمثال طاعة ربه وفي استسلامه لأمر الله تعالى فخرج الشيطان من عندها هاربا حتى أدرك الابن وهو عشي على أثر أبيه فقال له يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك ؟ قال نحتطب لأهلنا من هذا الشعب قال لا والله ما يريد إلا ذبحك . قال ولم ؟ قال يزعم أن الله أمره بذلك . قال له فليفعل ما أمره الله به فسمعا وطاعة لأمر الله تعالى فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم فقال له أين تريد أيها الشيخ ؟ قال أريد هذا الشعب لحاجة لي ، فقال والله إني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك يأمرك بذبح ابنك هذا فعرفه إبراهيم فقال له اليك عني ياملعون فوالله لأمضين لأمر ربى فرجع إبليس لعنه الله بغيظه لم يصب من إبراهيم وأهله شيئا مما أراد وقد امتنعوا منه بعون الله وتأيدته .

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن إبراهيم عليه السلام لما أمر بذلك عرض له إبليس عند المشعر الحرام فسأقه فسبقه إبراهيم عليه السلام ثم ذهب الى جرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم عرض له عند الجرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أدركه عند الجرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم مضى إبراهيم عليه السلام لأمر الله تعالى فهذه قصة الذبح . وقال أمية بن أبي الصلت الثقي في ذلك شعرا .

ولا إبراهيم الموفى بنسدر احتسابا وحامدا الاجزال
بكره لم يكن ليصبر عنه ولو رآه في معشر أقتال
* أبني إني نذرتك لله شحيطا فاصبر فذلك حالي
واشدد العضد عند جبدي للسكـين جند الأسير للأغلال
وله مدية تخايل في اللحـم غلاما جبينه كالهلال
بينما ينخلع السراويل عنه فكه ربه بكبش حلال
فخذن ذا فدى لابنك إني للذي قد فعلتما غير قالي
ربما تجزع النفوس من الأمـر فرجة كحل العقال

الباب السابع في هلاك النمرود بن كنعان وما أحل الله تعالى به من نعمته وقصة الصرح
قال الله تعالى - قدمكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم
وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون - .
روت الرواة بأسانيد مختلفة أن أول جبار كان في الأرض النمرود بن كنعان وكان الناس يخرجون
إليه ويمتارون من عنده الطعام فخرج إليه إبراهيم يمتار مع من يمتار وكان النمرود إذا مر به الناس قال
لهم من ربكم قالوا أنت حتى مر به إبراهيم فقال له من ربك قال ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت
قال إبراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأتىها من المغرب فهت الذى كفر ورد إبراهيم بغير طعام
فرجع إبراهيم إلى أهله فمر بكثيب أعفر فقال لآخذن من هذا فأتى به أهلى فتطيب به قلوبهم حين
أدخل عليهم فأخذ إبراهيم منه فأتى به أهله فوضع متاعه ثم نام فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فاذا هو
بأجود دقيق رآته فأخذته وصنعت منه طعاما فلما أفاق قدمته إليه وكان عهد أهله أن ليس معهم شيء
ولاعندهم طعام فقال لهم من أين هذا ؟ فقالت من الطعام الذى جئت به فعلم إبراهيم أن الله رزقه فحمد الله
وشكره ثم إن النمرود الجبار لما حاجه إبراهيم عليه السلام فى ربه قال إن كان ما يقول إبراهيم حقا فلا
أنهى حتى أعلم من فى السماء فبنى صرحا عظيما عاليا يابل ورام منه الصعود إلى السماء لينظر إلى إله
إبراهيم فيما يزعم .

قال ابن عباس ووهب : كان طول الصرح فى السماء خمسة آلاف ذراع وقال مقاتل وكعب كان
طوله فرسخين ثم عمد إلى أربعة أفراخ من النور فعلقها باللحم والخبز ورباها حتى شبت واستفحلت
ثم قعد فى تابوت ومعه غلام وقد حمل قوسه ونشابه وجعل لذلك التابوت بابا من أعلاه وبابا من
أسفله ثم ربط التابوت بأرجل النور وعلق اللحم على عصافوق التابوت ثم خلى عن النور فطار
وصعدت طمعا فى اللحم حتى أبعدت فى الهواء فقال النمرود لفتاه افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء
هل قربنا منها ففتح الباب الأعلى ونظر فاذا السماء على هيئتها ثم قال افتح الباب الأسفل فانظر إلى
الأرض كيف تراها ففتح فقال أرى الأرض مثل اللحية البيضاء والجبال كالدهان وطار النور وارتفعت
حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال لعلامه افتح البابين ففتح الأعلى فاذا السماء كهيئتها وفتح
الباب الأسفل فاذا الأرض سوداء مظلمة ونودى أيها الطاغى الباغى أين تريد . قال عكرمة فأمر
عند ذلك غلامه فرمى بسهم فعاد إليه السهم متلطخا بالدم فقال كفيت شغل إله السماء . واختلفوا فى
ذلك السهم من أى شيء تلطخ فقال عكرمة من سمكة فى بحر معلق فى الهواء بين السماء والأرض
قربت نفسها لله تعالى وقال بعضهم أصاب السهم طائرا من الطير فتلطخ من دمه ثم أمر النمرود غلامه
أن يصبوب العصا وينكس اللحم ففعل ذلك فهبطت النور بالتابوت فسمعت الجبال خفيق التابوت
والنور فقزعت وظنت أنه أمر حدث فى السماء وأن الساعة قد قامت فذلك قوله تعالى - وقد

مكروا مكروهم وعند الله مكروهم - أى جزاء مكروهم - وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال - وقرأ على وعمرو وابن مسعود وإن كان مكروهم لتدل منه الجبال بالدال ، ثم إن الله تعالى أرسل ريحا على صرح النمرود فألقت رأسه فى البحر فخر عليهم الباقي واقلبت بيوتهم وأخذت النمرود رعدة وتبلبلت ألسن الناس حين سقط صرح النمرود من الفرع فتكلموا بثلاث وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل لتبلبل الألسنة فيها فذلك قوله تعالى - فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون - وذلك أن الله تعالى بعث إلى النمرود ملكا أن آمن حتى أتركك على ملكك قال فهل رب غيرى فجاءه الثانية . والثالثة فأبى عليه فقال له الملك اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام فجمع النمرود جموعه وجنوده فأمر الله تعالى الملك أن يفتح عليه بابا من البعوض ففعل فطلعت الشمس ذلك اليوم فلم يروها من كثرة البعوض فبعثها الله تعالى على النمرود وقومه فأكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق منهم إلا العظام والنمرود كما هو لم يصبه شيء من ذلك فبعث الله إليه بعوضة فدخلت فى منخره حتى وصلت إلى دماغه فمكث أربعائة سنة تضرب رأسه بالمطارق فأرحم الناس به من جمع يديه ثم يضرب بهما رأسه وكان جبارا أربعائة سنة فعذبته الله أربعائة سنة كدة ملكه ثم إن البعوضة أكلت دماغه وأهلكه الله سبحانه وتعالى وخذله .

الباب الثامن فى ذكر وفاة سارة وهاجر وذكر وفاة أزواج إبراهيم وولده
قال الله تعالى - أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته - الآية . قال أهل العلم بأخبار الماضين ماتت سارة وهى ابنة مائة وسبع وعشرين سنة بالشام بقرية الجابرة من أرض كنعان فى جبرون فى مزرعة اشتراها إبراهيم عليه السلام ودفنت بها وكانت هاجر ماتت قبل سارة بمكة فدفنت فى الحجر فلما ماتت سارة تزوج إبراهيم بامرأة من بعدها من الكنعانيين يقال لها قطور ابنة يقطان فولدت له ستة نفر يقشان وزمران ومدان ومد وأشيق ووشوخ وتزوج أيضا بامرأة أخرى من العرب اسمها حجون بنت أهيب فولدت له خمسة بنين كيسان وفروخ وأهيم ولوطان ونافس فكان جميع بنى إبراهيم مع إسحق وإسماعيل ثلاثة عشر وكان إسماعيل بكره وأكبر أولاده فأنزل إسماعيل بأرض الحجاز وإسحق بأرض الشام وفرق سائر ولده فى البلاد فقالوا لابراهيم يا أبانا أنزلت إسحق معك وإسماعيل بقربك وأمرت أن تنزل بأرض العرب والوحشة قال بذلك أمرت ثم علمهم اسما من اسماء الله تعالى فكانوا يستبقون به ويستنصرون .

الباب التاسع فى ذكر وفاة إبراهيم عليه السلام

قال أهل التاريخ والسير : لما أراد الله تعالى قبض روح ابراهيم عليه السلام أرسل اليه ملك الموت فى صورة شيخ هرم قال السدى باسناده وكان ابراهيم كثير الاطعام يطعم الناس ويضيفهم فينما هو يطعم الناس إذا هو بشيخ كبير يمشى فى الجادة فبعث اليه بحمار فركبه فلما أتاه قدم اليه الطعام فجعل الشيخ يأخذ اللقمة ويريد أن يدخلها فاه فيدخلها فى عينه مرة وفى أذنه مرة ثم اذا

أدخلها في فيه وحصلت في جوفة خرجت من دبره وكان إبراهيم قد سأل ربه أن لا يقض روحه حتى يكون هو الذي يسأله الموت ، فقال للشيخ حين رأى حاله ما بالك يا شيخ تصنع هكذا ؟ فقال يا إبراهيم من الكبر . قال ابن كم أنت ؟ قال كيت وكيت فحسب إبراهيم فوجد عمره يزيد على عمر إبراهيم بستين ، فقال له إبراهيم إنما بيني وبينك سنتان فإذا بلغت عمرك صرت مثلك . قال نعم ، فقال إبراهيم اللهم اقبضني قبل ذلك فقام الشيخ فقبض نفسه وكان الشيخ ملك الموت وكان عمر إبراهيم مائتي سنة وقيل مائة وخمس وتسعون سنة ودفن عند قبر سارة في مزرعة جبرون .

الباب العاشر في ذكر خصائص إبراهيم عليه السلام

هو إبراهيم خليل الرحمن قال الله تعالى - واتخذ الله إبراهيم خليلا - وهو سيد الفتيان روى في الحديث « أنه قيل للنبي ﷺ يا سيد البشر . قال ذاك إبراهيم » وهو أبو الضيفان وكان لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع ضيف وربما مشى ميلين أو أكثر حتى يجد ضيفا وضيافته قائمة الى يوم القيامة وهي الشجرة المباركة التي قال الله تعالى - يوقد من شجرة مباركة - الآية وصح أنه دعا الله تعالى أن يجعل النبوة في نسله فاستجاب له وجعل النبوة في شعبي إسماعيل واسحق عن أنس بن مالك . قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت على ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف من بني اسرائيل » وهو المجهول له لسان الصدق في الآخرين فليس من نبي تجرى السنة الخلق كلهم بتصديقه وتفضله وتبجله كل أمة غيره وذلك بدعائه عليه السلام - واجعل لي لسان صدق في الآخرين - وهو المبلى بأنواع البلاء والشهود له بالوفاء قال الله تعالى - واذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن - ، وقال - وإبراهيم الذي وفى - أى بما أمر به وهو الأمة القانت . قال الله تعالى - إن إبراهيم كان أمة فانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين - الى آخر الآية ومعنى الأمة أنه كان معلما للخير ، وقد اجتمع فيه من خلال الخير وأنواع الفضل ما يجمع في أمة كما قال الشاعر :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وهو الذي أوتي رشده من قبل بلوغه وهو إمام الموحدين وجعل له لسان الحجة في التوحيد فدعا الخلق الى الحق بلسان الحجة من صغره الى كبره . قال تعالى - وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم - الآية وأول من سماه الله حنيفا مسلما . قال تعالى - ولكن كان حنيفا مسلما - وبرأه من دعاوى اليهود والنصارى وشهد له بالاسلام والاخلاص ، فقال تعالى - ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا - الآية وهو أول من اختن .

قال أبو منصور الخثاري : حدثنا أبو عباس العقلي ، أخبرنا عبد الحكيم ، أخبرنا ابن وهب أخبرنا يحيى ابن نصر . قال قرأ على ابن وهب أخبرنا ابن سمعان عن محمد بن النكدر عن سعيد ابن المسيب عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال : اختن إبراهيم عليه السلام بالقدوم وهو ابن مائة وعشرين سنة ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة .

وأخبرنا الحسين بن محمد بن فتحويه أخبرنا محمد بن مخلد بن جعفر أخبرنا الحسن بن علوية أخبرنا إسماعيل بن عيسى أخبرنا إسحق بن بشر عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس . قال : إن إبراهيم أول من أضاف الضيف وأول من ثرد الثريد وأول من لبس النعلين وأول من قسم الفيء وأول من قاتل بالسيف وأول من اختن ، واختن على رأس مائة وعشرين سنة من ميلاده ختن نفسه في موضع يقال له القدوم بالقدوم وهو الفأس وذلك أنه كان وقع بينه وبين العمالة وقعة عظيمة فقتل من الفريقين خلق عظيم فلم يعرف إبراهيم أصحابه ليدفنه ف جعل الختان علامة لأهل الاسلام فاختن يومئذ بالقدوم ، وهو أول من اتخذ السراويل .

أخبرنا الحسن الدينوري أخبرنا أحمد بن شداد بن عمر بن أحمد القطان أخبرنا محمد بن إسماعيل ابن حسان أخبرنا وكيع أخبرنا جرير بن حازم عن واصل مولى ابن عيينة قال : أوحى الله تعالى الى إبراهيم عليه السلام يا إبراهيم إنك أكرم أهل الأرض عليّ فاذا سجدت فلا ترى الأرض عورتك فاتخذ السراويل ، وهو أول من شاب فلما رآه هاله ذلك فقال يا رب ما هذا ؟ قال الوقار فقال يا رب زدني وقارا ، وهو أول من أقام المناسك وذلك بدعوته حيث قال - وأرنا مناسكنا - فاستجيب له ، وهو أول من ضحى وهو الذى بوأ الله له مكان البيت وأراه ذلك بعد دروسه حتى بناء . قال الله تعالى - وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت - الآية وهو أول من ألقى فى النار فى الله فجعلت النار عليه بردا وسلاما وهو أول نبي أحيا الله له الموتى بسؤاله حيث قال - رب أرني كيف تحيي الموتى - الآية وهو الذى كان إذا سافر وتمنى سارة واشتاق اليها رفع الله الحجاب بينه وبينها حتى يراها حيث كان وهو الذى يكسى حلة بيضاء يوم القيامة ويوضع له منبر عن يسار عرش الرحمن . قال النبي عليه الصلاة والسلام « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا بهما » وأول من يكسى إبراهيم خليل الرحمن وهو الكفيل لأطفال المسلمين والقائد لأهل الجنة وهو أول من قص شاربه وأول من قلم أظفاره وأول من استحد وأول من تنف الابط وأول من استاك وأول من فرق شعره وأول من تمضمض وأول من استنشق وأول من استنجى بالماء وأول من هاجر لله . قال الله تعالى - فأمن له لوط وقال إني مهاجر الى ربي - وجعل مقامه قبلة للناس . قال الله تعالى - واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى - وجعله إماما للناس . قال الله تعالى - إني جاعلك للناس إماما - . وقال تعالى - قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم - وأمر محمدا خيرا الأنبياء وأمه خير الأمم باتباع ملته . قال تعالى - ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا - وقال - قل بل ملة إبراهيم حنيفا - وسماه حلما منيا أوّاها . قال تعالى - إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب - الحليم السيد الذى يملك نفسه عند الغضب ، والأوّاه الذى يكثر التأوه عند ذكر الذنوب ، والمنيب للمقبل بقلبه الى ربه فهذه ست واربعون خصلة من خصاله التى أكرمه الله بها .

ويروى أن الله تعالى أوحى الى إبراهيم : يا إبراهيم إنك لما سلمت مالك الى الضيفان وابنتك الى القربان ونفسك الى النيران وقلبك الى الرحمن اتخذناك خليلا .

وروى أبو إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري . قال قلت : يا رسول الله كم كتابا أنزل الله تعالى ؟ قال مائة صحيفة وأربعة كتب ، أنزل الله تعالى على آدم عشر صحائف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . قال فقلت يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال كانت أمثالا كلها أيها الملك المبتلى للسلط المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لأردها ولو كانت من كافر وكان فيها أمثال ، على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له أربع ساعات ساعة ينجى فيها ربه وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يحاسب فيها نفسه على ما قدم وآخر وساعة ينخلو فيها لحاجته من الحلال والحرام في المطعم والشرب وغيرها ، وعلى العاقل أن لا يكون ظاعنا إلا في ثلاث . تزود لمعاده ومؤنة لمعاشه ولذة في غير محرم وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه حافظا للسانه ومن علم أن كلامه شر من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه والله عن كل محدور يعنيه .

مجلس في ذكر بعض أخبار إسماعيل واسحق ابني إبراهيم عليهم السلام

وقد ذكرنا سير إبراهيم الخليل بابنه إسماعيل وهاجر إلى مكة وإسكانه إياها بها ولما كبر إسماعيل وبلغ النكاح تزوج امرأة من جرهم فكان من أمرها ما قدمنا ذكره ثم طلقها بأمر أبيه ثم تزوج بامرأة أخرى يقال لها السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي وهي التي قال لها إبراهيم حين قدم مكة إذا جاء زوجك فأقرئيه مني السلام وقولي له قد استقامت عتبة بابك فولدت السيدة لإسماعيل اثني عشر رجلا نابتا وقيدار واديل وبسام ومسمع وذوما ومسا وحرا وفيما وبطور ونافس وقيدما ومن نابت وقيدار ابني إسماعيل نشر الله تعالى العرب ثم نبأ الله تعالى إسماعيل فبعثه إلى العماليق وقبائل اليمن فلما حضرت إسماعيل الوفاة أوصى إلى أخيه اسحق أن يزوج ابنته من عيص بن اسحق وعاش إسماعيل مائة وسبعا وثلاثين سنة ودفن بالحجر عند قبر أمه هاجر .

وروى عمر بن عبد العزيز أنه قال : شكوا إسماعيل إلى ربه تعالى حرمة مكة فأوحى الله تعالى إليه إني فاتح لك بابا من الجنة يجرى عليك روحها إلى يوم القيامة وفي ذلك المكان دفن .

وأما حديث اسحق عليه السلام فانه نكح رقابنت بتويل فولدت له عيصا ويعقوب بعد ماضى من عمره ستون سنة ولهما قصة عجيبة على ما ذكره السدي قال : حملت رقبا في بطن واحد بغلامين فلما أرادت أن تضع اقتتل الغلامان في بطنها فأراد يعقوب أن يخرج قبل عيص فقال عيص والله لن يخرج قبلي لأعرضن في بطن أمي فأقتلها فتأخر يعقوب وخرج عيص قبله فسمى عيصا لأنه عصى فخرج قبل يعقوب وسمى الآخر يعقوب لأنه خرج آخر بعقب عيص وكان يعقوب أكبرها في البطن ولكن عيصا خرج قبله فلما كبر الغلامان كان عيص أحبهما إلى أبيه ويعقوب أحبهما إلى أمه وكان

عيس صاحب صيد ، فلما كبر اسحاق وعمى قال لعيس يا بني أطعنى لحم صيد واقترب منى أدع لك بدعاء دعالى به أبى وكان عيس رجلا أشعر ويعقوب رجل أجرد فخرج عيس يطلب الصيد فسمعت أمه الكلام فقالت ليعقوب يا بني اذهب إلى الغنم فاذبح منها شاة واشوها والبس جلدتها ثم قدمها الى أليك وقل له أنا ابنك عيس ففعل ذلك وأتى الى أبيه وقال يا أبتاه كل فقال من أنت قال أنا عيس فمسه وقال المس مس عيس والريح ربح يعقوب فقالت له امرأته هو ابنك عيس فادع له فقال قدم طعامك فقدمه فأكل منه ثم قال له ادن منى فدنا منه فدعاه أن يجعل فى ذريته الأنبياء والملوك ثم قام يعقوب من عنده وجاء عيس بعده فقال يا أبت قد جئت بك بالصيد الذى أردته فقال يا بني قد سبقك أخوك يعقوب فغضب عيس وقال والله لأقتلنه فقال يا بني قد بقيت لك دعوة فهل أدع لك بها فتقدم اليه فدعا له فقال أن تكون ذريتك عدد التراب ولا يملكهم أحد غيرهم ثم ان أم يعقوب قالت ليعقوب الحق بخالك فكن عنده خشية عليه أن يقتله عيس فانطلق يعقوب الى خاله وكان يسير فى الليل ويكمن فى النهار فلذلك سماه الله اسراييل ، وهو أول من سرى بالليل فأتى يعقوب الى خاله وكان اسحق أمره أن لا ينكح امرأة من الكنعانيين وأمره أن ينكح امرأة من بنات خاله لىان بن ناهر وان يعقوب لما مكث عند خاله فخطب ابنته راحيل وكان له ابنتان لىا وهى الكبرى وراحيل وهى الصغرى فقال له هل لك من مال فأزوجك عليه فقال لا لكن أخدمك أجيرا حتى تستوفى صداق ابنتك فقال له ان صداقها أن تخدمنى سبع حجج فقال يعقوب تزوجنى راحيل لأنها أصغر ولأجلها أخدمك فقال له خاله ذلك بينى وبينك فرعى له يعقوب سبع سنين فلما وفى له شرطه دفع له ابنته الكبرى لىا وأدخلها عليه ليلا فلما أصبح وجد غير ما شرط فجاءه يعقوب وهو فى ناد من قومه . فقال له غررتنى وخذعتنى واستحللت عملى سبع سنين ودلست على غير امرأتى فقال له خاله يا ابن أختى أردت أن لا يدخل على فى ذلك العار وألبسه وأنا خالك ووالدك متى رأيت الناس يزوجون الصغرى قبل الكبرى فهل فخدمنى سبع سنين أخرى حتى أزوجك الأخرى وكان الناس يومئذ يجمعون بين الأختين الى أن بعث موسى وأزلت التوراة فرعى له يعقوب سبع سنين أخرى فدفع اليه راحيل فولدت له لىا أربعة أسباط : روبيل وكان أكبرهم ، ويهوذا وشمعون ولاوى ، وولدت له راحيل : يوسف وبنيامين وهو بالعربية شداد ، وأما ميمى بنيامين لأن أمه راحيل ماتت فى نفاسها ويامين بالعربية الشكل وكان لىان دفع الى ابنتيه حين جهزها الى يعقوب أمتين يقال لاحداها زلفة وللأخرى بلهة فوطى الأمتين يعقوب فولدت كل واحدة منهما ثلاثة أسباط فولدت زلفة ليعقوب دان ونفتالى وروبالون ، وولدت له بلهة جاد ويشجر وآشر فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلا : اثنان من راحيل ، وأربعة من لىا ، وثلاثة من زلفة وثلاثة من بلهة ، وهم الذين سماهم الله تعالى الأسباط وسماوا بذلك لأن كل واحد منهم ولد قبيلة والسبط فى كلام العرب الشجرة الملتفة الكثيرة الأغصان ، والأسباط من بنى اسراييل كالشعوب من العجم والقبائل من العرب ، ثم ان يعقوب فارق خاله لىان وانصرف بولده وامرأته وجاريته المذكورات الى منزل أبيه من فلسطين على

تخوف شديد من أخيه عيص فلم يرمنه الاخيرا فنازل أخاه وتألفه وتلففه حتى ترك له البلاد وتنقل في الشام وصار الى السواحل ثم عبر الى الروم فاستوطنها فصار ذلك له ولولده من بعده .
وقال ابن اسحق : تزوج عيص بن اسحق بنت عمه نسيمة بنت اسماعيل بن ابراهيم فولدت له الروم ابن عيص فكل بني الأصفر من ولده وكان عيص فيما يذكر يسمى آدم لأدمته ولذلك سمي ولده بني الأصفر قالوا : وعاش اسحق بعد ما ولده عيص ويعقوب مائة سنة وتوفي وله مائة وسبعون سنة ودفنه أبناؤه عند قبر أبيه ابراهيم عليهما السلام في مزرعة جبرون والله أعلم .

مجلس في قصة لوط عليه الصلاة والسلام

وهو لوط بن هاران بن تارح ابن أخى ابراهيم عليه السلام ، وانما سمي لوطا لأن جبه لاط بقلب ابراهيم عليه السلام أى تعلق به ولصق ، ومنه حديث أبي بكر رضى الله عنه حين ذكر عمر اللهم غفرا لولا ذلك لوط أى ألصق بالقلب وكان ابراهيم يحبه حبا شديدا . وكان من أمر لوط فيما ذكر أهل العلم بأخبار الأنبياء وذكروهب في المبتدأ له أنه شخص من أرض بابل مع عمه ابراهيم مؤمنا به متبعاله على دينه مهاجرا معه إلى الشام ومعهما سارة بنت ناحور وشخص معه تارح أبوا ابراهيم مخالفا لابراهيم في دينه ومقيا على كفره إلى أن وصلوا إلى حران ومكثوا بها فمات تارح وهو آزر أبوا ابراهيم بحران على كفره وشخص ابراهيم ولوط وسارة إلى الشام ثم مضوا إلى مصر فوجدوا بها فرعون من فراعنتها يقال له سنان بن عاران بن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام فرجعوا عودا إلى أرض الشام فنزل ابراهيم فلسطين وأنزل لوطا الأردن فبعثه الله تعالى الى أرض سدوم ومايلها وكانوا أهل كفر بالله وركوب فواحش كما أخبر الله عنهم بقوله تعالى - أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون - قال عمرو بن دينار ما كان يرى ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط وقال تعالى - أنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديك المنكر - فكان قطعهم السبيل فيما ذكر أهل التأويل أن اتيانهم الفاحشة مع من ورد بلدهم واتيانهم المنكر في ناديتهم قال المفسرون هو أنهم كانوا يجلسون في مجالسهم على الطريق فيحذفون من مرتبهم ويتضارطون في مجالسهم وينكح بعضهم بعضا في الطريق . وقال مجاهد كانوا يجامعون الرجال في مجالسهم على الطريق .

وروى أبو صالح عن أم هانئ قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال كانوا يجلسون على الطريق فيحذفون من مرتبهم ويسخرون به وهو المنكر الذى كانوا يأتونه ، وكان لوط ينههم عن ذلك ويدعوهم الى عبادة الله تعالى ويتوعدهم على اصرارهم على ما هم عليه ويأمرهم بالتوبة منه ويخوفهم من العذاب الأليم فلا يزجرهم عن ذلك وعده ولا يزيدهم وعظه إلا تماديا وعتوا واستعجلا بعذاب الله تعالى وانكارا وتكديبا ويقولون له - اثنتا بعذاب الله ان كنت من الصادقين - حتى سأل لوط ربه

أن ينصره عليهم فقال رب انصرني على القوم المفسدين - فأجاب الله دعاءه وبعث جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام لاهلاكهم وبشارة ابراهيم عليه السلام بالولد فأقبلوا مشاة في صورة رجال مردحسان حتى نزلوا على ابراهيم عليه السلام فتضيفوه وبشروه باسحق وقد مضت القصة فلما فرغوا من ذلك وأخبروا ابراهيم أن الله تعالى بعثهم لإهلاك قوم لوط ناظرهم ابراهيم وحاجهم في ذلك كما قال الله تعالى - فلما ذهب عن ابراهيم الروح وجاءته البشري يجادلنا في قوم لوط - وكان جداله إياهم على ما ذكر ابن عباس وغيره أنهم لما قالوا له إننا مهلكوا أهل هذه القرية . قال لهم أتهلكون قرية فيها أربع مائة مؤمن قالوا لا : قال أتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن . قالوا لا : قال أتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن . قالوا لا : قال أتهلكون قرية فيها مائة مؤمن قالوا لا : قال أتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنا قالوا لا : قال أتهلكون قرية فيها أربعة عشر مؤمنا ؟ قالوا لا : وكان ابراهيم يعدّهم أربعة عشر بامرأة لوط فسكت عنهم واطمأنت نفسه .

وروى سعيد عن ابن عباس قال : قال الملك لابراهيم ان كان فيهم خمسة يصلون رفع عنهم العذاب . فلما عرف ابراهيم حال قوم لوط . قال للرسول : ان فيها لوطا قالها إسحاقامنه عليه . فقالت له الرسول : نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الامراته .

قال قتادة في هذه الآية لا ترى المؤمن ، ثم مضت رسل الله تعالى نحو سدوم فلما انتهوا اليها لقوا لوطا في أرض له يعمل فيها قال قتادة راويا عن حذيفة أن الله تعالى قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فأتوه فقالوا إننا متضيفوك الليلة فانطلق بهم فلما مشى ساعة التفت لهم وقال أوما بلغكم أمر هذه القرية ؟ قالوا وما أمرها قال أشهد بالله انها لشر قرية في الأرض وما أعلم على وجه الأرض أناسا أخبث منهم قال ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله وعلم لوط أنه سيحتاج الى المدافعة عن أضيافه وخاف عليهم من قومه فذلك قوله تعالى - ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب - أي شديد .

قال السدي باسناده : لما خرجت الملائكة من عند ابراهيم نحو قرية لوط فأتوها نصف النهار فلما بلغوا سدوم لقوا بنت لوط تستسقي الماء لأهلها ، وكان له ابنتان اسم الكبرى ريثا والأخرى غيثا . فقالوا لها يا جارية هل من منزل ؟ قالت نعم مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم ففرغت عليهم من قومها ثم أتت أباهما فقالت يا أبتاه أدرك فتينا نا على باب المدينة مارأيت وجوه قوم قط أحسن منهم لثلا يأخذهم قومك فيفضحوك ، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجالا وقالوا له خل عنا فلنضيف الرجال فذلك قوله تعالى - أولم تهك عن العالمين - فجاء بهم لوط الى منزله ما يعلم بهم أحد الا أهل بيت لوط فخرجت امرأته فأخبرت قومها بذلك وقالت ان في بيت لوط رجالا مارأيت مثلهم حسنا قط . قال ابو حمزة الثمالي : بلغنا أن العلم الذي كان بين امرأة لوط وقومه إذا أتهم الضيفان يقول رسولها هيثوا لنا ملحا تدعوهم بذلك الى الفاحشة بأضياف لوط فبلغنا أن الله تعالى مسحها ملحا قالوا فلما أخبرت امرأة لوط

قومها بأضياف زوجها جاءه قومه يهرعون اليه أى يسرعون ويهرولون فلما أتوه قال لهم لوط يا قوم اتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد وقال لهم هؤلاء بناتى هنّ أطهر لكم - قالوا أولم تنهك عن العالمين - أن تضيف الرجال وقالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد - فلما لم يقبلوا منه ما عرض عليهم قال لو أن لى بكم قوّة أو آوى إلى ركن شديد - قالوا فما بعث الله نبيا بعده إلا في شرف من قومه ومنعة من عشيرته وقال ﷺ لما قرأ هذه الآية رحم الله أخى لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد قال ابن عباس وغيره وغلق بابه والملائكة معه في الدار وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون تسور الدار فلما رأت الملائكة مالى لوط من الكرب والنصب والتعب بسبهم قالوا له - يا لوط ان ركنك لشديد وانهم آتيهم عذاب غير مردود إن ارسل ربك لن يصلوا اليك فأسر بأهلك بقطع من الليل - الآية ثم قالوا له افتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأذن له فقام في الصورة التى يكون فيها فنشر جناحيه وله جناحان وعليه وشاح من درمنظوم وهو براق الثنايا أجلى الجبين ورأسه حيك مثل المرجان كأنه الثلج يابضا وقدماه الى الخصرة فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم فذلك قوله تعالى - ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم - الآية فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم ثم انهم انصرفوا وهم يقولون النجاء النجاء ان فى بيت لوط أسحر قوم فى الأرض وقالوا للوط جئتنا بقوم سحرة سحرونا كن كما كنت حتى نصبح يتوعدونه فلما علم لوط أن أضيافه رسل ربه وانهم أرسلوا بهلاك قومه قال لهم أهلكوهم الساعة . فقال له جبريل : - إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب - ثم أمره أن يسرى بأهله بقطع من الليل ولا يلتفت منهم أحد إلا امرأته . فلما كان السحر خرج لوط وأهل بيته ومعه امرأته فذلك قوله تعالى - إلا آل لوط نجيناهم بسحر نعمة من عندنا - كذلك نجزي من شكر - . فلما أصبحوا أدخل جبريل جناحه تحت أرضهم فاقتلع قرى قوم لوط الأربع ، وكان فى كل قرية مائة ألف فرفعهم على جناحه بين السماء والأرض حتى سمع أهل السماء الدنيا صياح ديوكهم ونباح كلابهم ثم كفأها وقلبها فجعل عاليها سافلها كما قال الله تعالى - فجعلنا عاليها سافلها ثم أتبع شاردهم ومسافرهم بالحجارة فذلك قوله تعالى - وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين يبيعد - أى ممن يفعل كفعلمهم .

أخبرنا الحسين بن محمد بن فتجويه أخبرنا مخلد بن جعفر الباقري أخبرنا الحسين بن علوية أخبرنا اسماعيل بن عيسى أخبرنا اسحق بن بشر أخبرني جوير ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن علي ابن أبي طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أنى لأسمع العواصف والقواصف من الرعد فأخشى أنها الحجارة التى أعدت لقوم لوط أو من يفعل بفعلمهم » وأخبرنا ابو بكر بن محمد بن أحمد بن عقيل القطان أخبرنا أبو الفضل عبدوس بن الحسين بن منصور أخبرنا ابو حاتم الرازى أخبرنا ابو اليمان الحكم بن نافع الحمصى عن صفوان بن عمرو قال : كنت عند عبد الملك بن مروان

إلى أن أتى شعيب قاضي حمص وكان رجلا عالما فسأله عقوبة اللوطي ، قال أن يرموه بالحجارة كما رجم قوم لوط ، فان الله تعالى قال — وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين — وقال تعالى — وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل — فقبل عبد الملك ذلك منه واستحسنه ، قالوا وكان الرجل منهم يتحدث في قريته التي يكون فيها فيأتيه الحجر فيقتله . قال وسمعت امرأة لوط الهدة فالتفتت وقالت واقوماه فأدركها حجر فقتلها ، فذلك قوله تعالى — إلا امرأته كانت من الغابرين — أي الباقيين في العذاب وقال تعالى — إنه مصيبها ما أصابهم — الآية .

أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين أخبرنا موسى بن محمد بن علي أخبرنا الحسين بن علوية أخبرنا إسماعيل بن عيسى قال أخبرنا المسيب قال سمعت أباروق يقول إلا امرأته كانت من الغابرين أي خلقت فمسخت حجرا وكانت تسمى هلسفع وقال غيره اسمها واعلة ، قالوا وكانت قرى قوم لوط خمسا سدوم وعامورا ودومة وساعورا ، فأما سدوم فهي القرية العظمى وكان في هذه القرية أربعة آلاف فاحتملها جبريل على جناحه فقلبها فلذلك سميت المؤتفكات : أي المنقلبات ، وأما القرية الخامسة فانها تسمى صفرة ونجت من العذاب لأن أهلها آمنوا بلوط .

وروى أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام : ان الله تعالى سبك بأسماء ففسرها لي ، قال وصفك في قوله تعالى — ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين — فأخبرني عن قوتك ؟ قال يا محمد رفعت قرى قوم لوط من تخوم الأرض على جناحي في الهواء حتى سمعت ملائكة سماء الدنيا أصواتهم وأصوات الملائكة ثم قلبتها ظهرا لبطن ، قال فأخبرني عن قوله تعالى مطاع ؟ قال إن رضوان خازن الجنان ومالك خازن النيران متى قلت لهما أو كلفتهما فتح أبواب الجنان أو النيران فتحاها قال فأخبرني عن قوله تعالى أمين ؟ قال إن الله تعالى أنزل من السماء مائة وأربعة كتب على أنبيائه لم يأتمن عليها غيري .

أخبرنا عبد الله بن الحسين بن محمد الثقفي أخبرنا أبو عثمان بن أحمد بن سمعان البزارى أخبرنا عبد الله بن قحطبة أخبرنا ياسر بن ثوبة أخبرنا محمد بن راموز أخبرنا أبو بكر بن عياش قال : سألت أبا جعفر أعذب الله النساء من قوم لوط بعمل رجالهم ؟ فقال الله تعالى أعدل من ذلك بل استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء فوجب عليهم العذاب جميعا .

أخبرنا ابن فتحويه أخبرنا محمد بن جعفر أخبرنا الحسين بن علوية أخبرنا إسماعيل بن عيسى أخبرنا اسحق بن بشر حدثني مقاتل بن سليمان قال : قلت لمجاهد يا أبا الحجاج هل بقي من قوم لوط أحد ؟ قال لا إلا رجل بقي أربعين يوما وكان بمكة فجاءه حجر ليصديه في الحرم ، فقام إليه ملائكة الحرم فقالوا للحجر ارجع من حيث جئت فان الرجل في حرم الله ، فوقف الحجر خارج الحرم أربعين يوما بين السماء والأرض حتى قضى الرجل حاجته ، فلما خرج أصابه الحجر خارج الحرم فقتله . عن مقاتل عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال ما عمل ذلك قوم لوط إنما كانوا ثلاثين رجلا ونيفا لا يبلغون

الأربعين فأهلكهم الله جميعا وقال رسول الله ﷺ « لتأمرن بالمعروف وتنهين عن المنكر أو لتعمنكم العقوبة جميعا » .

مجلس في قصة يوسف بن يعقوب واخوته عليهم الصلاة والسلام

قال الله تعالى - نحن نقص عليك أحسن القصص - الآية قال سعد بن أبي وقاص قالت الصحابة لرسول الله ﷺ : لو حدثتنا . قال فأنزل الله تعالى - الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها - الآية ، فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن - الآية فدلهم الله تعالى في هذه الآية على أحسن القصص . واختلف العلماء في سبب تسمية الله تعالى قصة يوسف عليه السلام من بين الأقصيص أحسن القصص ، فقال بعض أهل المعاني معنى الآية قصة حسنة لفظه تفظ المبالغة وحكمه حكم الصفة كقوله تعالى - وهو أهون عليه - قال الشاعر :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه اعزّ وأطول

أراد عزيزة طويلة ، وأجراه الباقون على الظاهر فقالوا هي أحسن القصص ، ثم اختلفوا في وجهها ، فروى مقاتل عن سعيد بن جبير قال : اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ إلى سلمان الفارسي فقالوا يا سلمان حدثنا عن التوراة بأحسن ما فيها ، فأنزل الله تعالى - نحن نقص عليك أحسن القصص يعني أن قصص القرآن أحسن مما في التوراة وقيل سمى الله هذه القصة أحسن القصص لأنها ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم والعجائب واللطائف ما تضمنت هذه القصة ولذلك قال الله تعالى - لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين - وقال تعالى - لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب - وقيل سماها أحسن القصص لحسن مجازاة يوسف واخوته وصبره على أذاهم وإغضائهم عند الالتقاء بهم عن ذكر ما تعاطوه معه وكرمه في العفو عنهم حيث قال - لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم - وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والسياطين والجنّ والانس والانعام والطير وسير الملوك والممالك والعلماء والتجار والعقلاء والجهلاء وحال الرجال والنساء ومكرهنّ وحيلهنّ ، وفيها أيضا ذكر العفة والتوحيد وعلم السير وتعبير الرؤيا وآداب السياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، فصارت أحسن القصص لما فيها من المعاني الجزيلة والفوائد الجليلة التي تصلح للدين والدنيا وتجمع خيري الدنيا والعقبى ، قال أهل الإشارة سماها الله أحسن القصص لما فيها من ذكر الحبّ والمحجوب .

الباب الأول في ذكر نسبه عليه الصلاة والسلام

هو يوسف الصديق ابن يعقوب الصفيّ ابن اسحق النبيّ ابن إبراهيم الخليل عليهم السلام بذلك سماه رسول الله ﷺ كريما وآباه كرماء . عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول

الله ﷺ « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم صلوات الله عليهم » واختلفوا في معنى اسم يوسف فقال أكثر الفقهاء هو اسم عبري فلذلك لا يجري ، وقال بعضهم هو اسم عربي سمعت الأستاذ أبا القاسم الحبيبي يقول : سمعت أبي يقول سمعت أبا الحسن الأقطع وكان حكيمًا فسئل عن يوسف ، فقال الأسف في اللغة الحزن والأسيف العبد واجتمع في ذلك معنى يوسف .

الباب الثاني في صفة يوسف عليه الصلاة والسلام وحيلته ونعت خلقه وصفة صورته

قال الله تعالى - فلما رأيته أكبره - الآية .

أخبرنا أبو عبد الله الثقفي أخبرنا عمر بن أحمد بن عثمان أخبرنا محمد بن محمد بن سليمان أخبرنا محمد بن حميد الرازي أخبرنا سلمة بن الفضل عن محمد بن اسحق عن روح بن القاسم قال : حدثني عمارة عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « مررت ليلة أُسرى بي إلى السماء فرأيت يوسف ، فقلت يا جبريل من هذا ؟ فقال هذا يوسف ، قالوا فكيف رأيته يا رسول الله ؟ قال كالقمر ليلة البدر » وأخبرني الحسن بن محمد أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان أخبرنا حامد ابن سعدان أخبرنا أبي أخبرنا يعقوب أخبرنا الوليد بن مسلم عن ثابت عن انس قال : قال رسول الله ﷺ « أعطى وأمه شطر الحسن » وعن أبي اسحق بن عبد الله بن ابي فروة قال : كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلالؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس والقمر على الجدران . قال كعب الأحماس : إن الله تعالى مثل لآدم ذرّيته بمنزلة الدرّ ، فأراه الأنبياء عليهم السلام نبيا نبيا وأراه في الطبقة السادسة يوسف متوجا بتاج الوقار متزرا بحلة الشرف مرتديا برداء الكرامة مقمصا بقميص البهاء ، وفي يده قضيب الملك ، وعن يمينه سبعون ألف ملك وعن يساره سبعون ألف ملك ، ومن خلفه أمم الأنبياء لهم زجل بالتسبيح والتقديس ، وبين يديه شجرة السعادة تزول معه حيثما زال وتحول معه حيثما حال ، فلما رآه آدم قال إلهي من هذا الكريم الذي أبحث له بحبوة الكرامة ورفعته الدرجة العالية ، قال يا آدم هذا ابنك المحسود على ما آتيته ، يا آدم انحله ، قال آدم قد أتخلته ثلثي حسن ذرّيتي ، ثم ان آدم ضمّ يوسف إلى صدره وقبله بين عينيه ، وقال يا بني لا تأسف فأنت يوسف ، فأول من سماه يوسف آدم ، فقسم الله تعالى ليوسف من الجمال الثلثين وقسم بين العباد الثلث وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله تعالى بيده وصوره وتفتح فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية وقد كان الله أعطى آدم الحسن والجمال والبهاء يوم خلقه ، فلما عصى نزع ذلك منه وأعطاه يوسف عليه السلام ، ثم لما تاب عليه وهبه ثلث الجمال الذي كان انتزع منه ، وذلك ان الله تعالى أحب أن يرى العباد أنه قادر على ما يشاء ، فأعطى يوسف من الحسن والجمال ما لم يعطه أحدا من الناس ، ثم أعطاه العلم بتأويل الرؤيا ، وكان يخبر بالأمر الذي يرى في المنام أنه سيكون كذا وكذا من قبل أن يكون ذلك الأمر علمه الله ذلك كما علم الأسماء كلها لآدم ، فكان حسن يوسف كضوء النهار وكان

يوسف أبيض اللون جميل الوجه جعد الشعر ضخيم العينين مستوى الحلقة غليظ الساقين والعضدين والساعدين خميص البطن أفتى الأنف صغير السرة ، وكان بخده الأيمن خال أسود وكان ذلك الخال يزين وجهه ، وكان بين عينيه شامة بيضاء كأنها القمر ليلة البدر وكانت أهداب عينيه تشبه قوادم النسور ، وكان إذا تبسم روى النور من ضواحه ، وإذا تكلم رأيت شعاع النور يشرق من بين ثناياه لا يقدر بنو آدم ولا أحد على وصف يوسف عليه الصلاة والسلام ، ويقال انه ورث الحسن من جده اسحق بن ابراهيم ، وكان أحسن الناس واسحق هو الضاحك بالعبرانية ، وهو ورث الحسن من أمه سارة ، فان الله تعالى صورها على صورة الحور العين ولكن لم يعطها صفاءهن ، وأعطى يوسف من الحسن والجمال وصفاء اللون وبقاء البشرة ما لم يعطه أحدا من العالمين ، وانه كان ليأكل البقول والفواكه فتري حين يزدردوها في حلقه وفي صدره حتى تصل إلى بطنه وورثت سارة الحسن من جلستها حواء .

وقال وهب : الحسن عشرة أجزاء ليوسف تسعة وواحد بين سائر الناس .

وعن عبدالله بن مسعود عن النبي عليه السلام قال « هبط جبريل عليه السلام فقال يا محمد إن الله تعالى يقول لك كسوت حسن يوسف من نور الكرسي وكسوت وجهك من نور عرشي » وقيل لبعض الحكماء أيوسف أحسن أم محمد ؟ فقال كان يوسف من أحسن الناس ومحمد ﷺ أحسن الناس ، ويدل عليه حديث جابر بن عبد الله قال : نظرت إلى رسول الله ﷺ وعليه حلة حمراء ونظرت إلى القمر ليلة البدر فهو أحسن في عيني من القمر .

القول في القصة

قال أهل العلم بقصص الأنبياء وأخبار الماضين : كان ابتداء أمر يعقوب ويوسف عليهما السلام وبدء محبة يعقوب له وإيثاره على سائر ولده أن الله تعالى أنبت ليعقوب شجرة في صحن داره ، فكان كلما ولد له ولد أخرج الله تعالى من تلك الشجرة غصنا ، فكان كلما كبر الغلام وشب طال ذلك الغصن وغلظ ، فاذا بلغ ذلك الغلام قطع يعقوب ذلك الغصن ودفعه إليه فولد له عشرة بنين فأخرج الله تعالى من تلك الشجرة عشرة قضبان ، فلما ولد له يوسف لم يخرج الله تعالى من الشجرة شيئا ، فلما كبر وشب قال لأبيه : يا بني الله انه ليس أحد من إخوتي إلا وله غصن إلا أنا قادم الله تعالى أن يخلصني بغصن من الجنة ، فرفع يعقوب يديه إلى السماء وقال اللهم إني أسألك أن تهب ليوسف غصنا من الجنة يفتخر به على جميع إخوته ، فهبط جبريل عليه الصلاة والسلام ومعه قضيب من الجنة من الزبرجد فقال ليوسف خذ هذا فكان يوسف يأخذه ويخرج به مع إخوته ، قال فرأى يوسف فيما يرى النائم وهو إذ ذاك صبي كأن قضيبه غرس في الأرض فعلق وتدلّت أغصانه وأثمر من كل ثمرة ، ثم أتى بأغصان إخوته فغرست حوله فلم تعلق ولم تفرع ولم تثمر ، واذا بغصن يوسف أقصرها وأصغرها ، فلم يزل يتعالى في السماء ويطول حتى طال على أغصان إخوته ،

ثم هبت الريح فاقتلعت أغصان اخوته من أصولها وألقته في البحر ونبت غصن يوسف في الأرض قائماً ، فانتبه فزعا مرعوباً ، فقال له أبوه : ما الذي دهاك يا بني ، قص عليه رؤياه فبلغ اخوته ، فقالوا يا ابن راحيل لقد رأيت عجباً يوشك أن تدعى أنك مولانا ونحن عبيدك فشق عليهم رؤياه وحسدوه بعض الحسد . قال وهب رأي يوسف هذه الرؤيا يعني الغصن وهو ابن سبع سنين ، ثم انه رأى وهو ابن اثنتي عشرة سنة الرؤيا التي قصها الله علينا في كتابه اذ قال تعالى - اذ قال يوسف لأبيه يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكباً - الآية وكان ينومه إلى جانبه فينمى يوسف نائم عند أبيه ليلة من الليالي اذ رأى الرؤيا التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز وكانت ليلة الجمعة فانتبه من منامه فزعا مرعوباً فالتزمه يعقوب وضمه إلى صدره وقبل بين عينيه وقال يا حبيب أبنيه ما الذي أصابك ؟ فقال يا أبت رأيت رؤيا أفزعتنى . فقال يا بني خيراً رأيت ، ما الذي رأيت ؟ قال يوسف : رأيت كأن أبواب السماء فتحت وقد أشرق منها النور فاستنارت النجوم وأشرقت الجبال وزخرت البحار وعلت أمواجهما وسبخت الحيتان بأنواع اللغات ورأيت كأنني ألبست رداءً أشرق الأرض من حسنه ونوره ورأيت كأن مفاتيح خزائن الأرض ألقيت بين يدي : فيينا أنا كذلك اذ رأيت أحد عشر كوكباً انقضت من السماء ومعهما الشمس والقمر فخروا لي ساجدين فقال يعقوب - يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك - الآية ، ثم عبر رؤياه فقال - وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث - الآية ، قال فسمعت امرأة يعقوب ما قال يوسف لأبيه فقال لها يعقوب اكنمى ما قال يوسف ولا تخبري أولادى بذلك فقالت نعم ، فلما أقبل أولاد يعقوب من مراعيهم أخبرتهم بالرؤيا التي أمرها يعقوب بكنمها فانتفخت أوداجهم واقشعرت جلودهم غضباً على يوسف وقالوا ما عني بالشمس غير أننا ولا بالقمر غيرك ولا بالكواكب غيرنا ، ثم قالوا ان ابن راحيل يريد أن يملك علينا فيقول أنا سيدكم وأنتم عبيدي فحسدوه على ذلك فلذلك قيل في الحكمة : لا تأمنن قارئاً على صحيفة ولا شاباً على امرأة ولا امرأة على سيرة .

وروى الحنبل بن ظهيرة عن اسماعيل السدي عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله قال : جاء رجل من اليهود يقال له نستار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أخبرني عن النجوم التي رآها يوسف ساجدة له ما أسماؤها ؟ فسكت رسول الله ﷺ ولم يجبه بشيء حتى نزل جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها فأرسل إلى اليهودي ودعاه وقال له ان أخبرتك بأسمائها أتسلم ؟ قال نعم . فقال له : جريان والطارق والذئبال وذوالكتفين والفرغ ووثاب وعمودان وقابس والمضج والفليق والضروح ، رآها يوسف في أفق السماء ساجدة له ، فلما قص رؤياه على أبيه قال ارى شيئاً مشتتاً ويجمعه الله لك ، فقال اليهودي هذه والله أسماؤها ويقال كان بين رؤيا يوسف في التصن ورؤياه في الكواكب سبع سنين ، فلما كان من أمر رؤيا يوسف ما كان وانضاف إلى ذلك تخصيص أبيه . (٧ - فقص الأنبياء)

يعقوب إياه بالحببة والتقربة حسده اخوته وحملهم الحسد على أن تأمروا بينهم في أن يفرقوا بينه وبين
أبيه بضرب من الاحتيال ويهلكوه فيما بينهم كما أخبر الله عنهم في قوله تعالى - إذ قالوا ليوסף
وأخوه أحب إلى أيينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين - أي خطا بين في إشاره يوسف
وأخاه علينا اقتلو يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوم صالحين أي
تائبين فاستعدوا للتوبة قبل وقوع الذنب. قال قائل منهم وهو يهودا وكان أفضلهم واعقلهم : لا تقتلوا
يوسف فإن القتل عظيم وألقوه في غيابة الجب وهو البر غير المطوية يلتقطه بعض السيارة إن كنتم
فاعلين . قيل للحسن أحمد المؤمن ؟ فقال للسائل ما أنساك بنى يعقوب ولهذا قيل : الأب جلاب
والأخ سلاب ، فعند ذلك أجمعوا رأيهم أن يدخلوا على يعقوب ويكلموه في إرسال يوسف معهم إلى
البرية ، فقال لهم رويل وهو أكبر ولد يعقوب إن أباكم لا يأمنكم على يوسف ولكن انطلقوا
بنا إلى يوسف حتى تلعب بين يديه فإذا نظر إلينا كيف نمرح وتلعب اشتاق إلى ذلك ، فأقبلوا على
يوسف وهو قاعد يسبح فجعلوا يتلاعبون ويتضحكون بين يديه ، فلما رأى يوسف ذلك اشتاق إلى
اللعب معهم فأقبل عليهم وقال يا اخوتاه أهكذا تلعبون في مراعيكم ؟ فقالوا نعم يا يوسف انك لورأيتنا
ونحن تلعب في مراعينا لتخيت أن تكون معنا فشوقوه إلى ذلك حتى كان هو الطالب اليهم ، فقال
لهم يا اخوتاه انطلقوا إلى أبي واسألوه ان يرسلني معكم فأقبلوا إلى يعقوب ووقفوا بين يديه صفا
وكانوا يفعلون هكذا إذا أرادوا ان يسألوه حاجة فلما رآهم بين يديه وقفا صنفوا قال لهم ما حاجتكم ؟
قالوا يا أبانا مالك لا تأمننا على يوسف وانا له لناصحون ، نحوطه ونحفظه حتى نرده إليك أرسله معنا
غدا يرتع ويلعب في الصحراء وانا له لحافظون فقال لهم يعقوب اني ليحزني أن تذهبوا به وأخاف
أن يأكله الذئب واتم عنه غافلون لا تشعرون بذلك . قال ابن عباس وغيره إنما قال ذلك يعقوب
لأنه رأى في منامه كأن يوسف على رأس جبل وكان عشرة من الذئاب قد شدوا عليه ليأكلوه
وإذا ذئب منها يحمى عنه وكان الأرض قد انشقت فدخل فيها يوسف فلم يخرج منها الا بعد ثلاثة
أيام فلما رأى يعقوب هذه الرؤيا خاف على يوسف من الذئب فلذلك قال لهم واخاف أن يأكله الذئب.
أخبرنا الحسين بن محمد بن فتحويه أخبرنا عبد الله بن شبة أخبرنا ابو نعيم وعبد الرحمن بن قريش
أخبرنا محمد بن عمرو بن الحكم الهروي أخبرنا مالك بن سليمان القروي أخبرنا عبيد الله بن عمر
العمري عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « لا تلقوا الناس الكذب فيكذبوا
فإن بنى يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الإنسان حتى لقنهم أبوه ، فلما لقنهم وقال اني أخاف أن
يأكله الذئب قالوا اكله الذئب فقال بنوه لئن أكله الذئب ونحن عصبة أي عشرة رجال انا إذا
لخاسرون عجزة مغلوبون ، ثم قالوا يا بني الله كيف يأكله الذئب وفيما شبعون ذا غضب لا يسكن غضبه
حتى يصيح فإذا صاح لا تسمعه حامل الا وضعت ما في بطنها ، وفيما يهودا إذا غضب شق السبع
نصفين ، فلما سمع يعقوب منهم ذلك اطمان اليهم وأقبل يوسف حتى وقف بين يدي أبيه ثم قال له يا ابت

أرسلني معهم قال أو تحب ذلك يا بني ؟ قال نعم قال اذا كان غدا أذنت لك في ذلك ، فلما أصبح يوسف لبس ثيابه وشد عليه منطقتة وأخذ قضيه وخرج مع اخوته ثم عمد يعقوب إلى السلة التي حمل فيها إبراهيم ، زاد اسحق فحمل فيها زادا ليوسف وخرج ليشيعهم فقالوا يا بني الله ارجع فقال يعقوب يا بني أوصيكم بتقوى الله وبحببي يوسف أسألكم بالله ان جاع فأطعموه وان عطش فاسقوه وقوموا عليه ولا تتبعوه ولا تخذلوه وكونوا متواصلين متراحين . قالوا نعم يا أبانا كلنا لك ولد وهو أخونا كأحدنا بل له الفضل علينا بحبك إياه فقال نعم يا بني ، الله خليفتي عليكم مع أي خائف أن أكون قد ضيعته ، ثم انه أقبل على يوسف فالتزمه وضمه إلى صدره وقبل بين عينيه ، ثم قال استودعتك الله رب العالمين وانصرف راجعا .

وروى السدي ورجاء عن ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب النبي ﷺ واسحق بن بشر بن جوير عن الضحاك عن ابن عباس ومقاتل عن ابن بحيرة عن كعب الأحبار عن سعيد بن أبي عروبة عن الحسن دخل كلام بعضهم في بعض قالوا أرسل يعقوب يوسف مع اخوته فأخرجوه مظهرين له الكرامة ، فلما برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة وضربوه ، فجعل يستغيث بهم واحدا بعد واحد وهم يضربونه فلا يرى منهم رحما وأخذوا ما كان زوده يعقوب وأطعموه الكلاب وضربوه حتى كادوا يقتلونه وعطش عطشا شديدا ، فقال لهم اسقوني جرعة من ماء قبل أن تقتلوني فلم يسقوه ، فعند ذلك بكت الملائكة رحمة ليوسف ، فلما رأى يوسف أن ليس أحد منهم يعطف عليه جعل يصيح ويقول يا أبتاه يا يعقوب لو تعلم ما تصنع بابنك بنو الآباء فلما هموا بقتله قال لهم يهوذا وكان ابن خالة يوسف وأحسنهم فيه رأيا أليس انكم قد أعطيتموني موثقا أن لا تقتلوه فعند ذلك أجمعوا على القائه في الجب كما قال الله تعالى - فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب - فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه فيه وكان ذلك الجب في الأردن بين مدين ومصر وقيل بين طبرية والقدس على قارعة الطريق في واد من أوديتها على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وكانت بئرا وحشة مظلمة أسفلها واسع وأعلاها ضيق يهلك من طرح فيها من سعة أسفلها لا يمكنه الصعود وكان ماؤها ملحا وكان الجب من حفر سام بن نوح ويسمى جب الأحزان ، فلما أرادوا أن يلقوه فيه جعلوا يدلونه في البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه إلى عنقه وبرزوا قميصه ، فقال يا إخوتاه ردوا علي قميصي أستريه عورتى ويكون لي كفنا بعد مماتي وأطلقوا يدي أطرد بهما عنى هوام الجب ، فقالوا له ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تلبسك وتؤنسك فدلوه في البئر بحبل ، فلما بلغ نصفها قطعوا الحبل ليستقط قميصه فيه فأخرج الله تعالى على وجه الماء صخرة ململمة لينته ورفعها إلى يوسف فوقف عليها وجعل يوسف يبكي فنادوه فظن أنها رحمة لحقهم فأجابهم فهموا أن يرضخوه بالحجارة فيقتلوه فمنعهم يهوذا وقال لقد أعطيتكموني موثقا أن لا تقتلوه ، قالوا فلما ألقى يوسف في الجب أضاء له الجب وعذب ماؤه حتى كان يغنيه عن الطعام والشراب وبعث الله تعالى إليه ملكا فجعل عنه قيده وكان إبراهيم حين ألقى في النار جرد من ثيابه وقذف

في النار عريانا فاتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه وكان ذلك القميص عند إبراهيم ، فلما مات إبراهيم ورثه اسحق ، فلما مات اسحق ورثه يعقوب منه ، فلما شب يوسف جيل يعقوب ذلك القميص في تعويد وعلقه في عنقه لما كان يخاف عليه من العين وكان لا يفارقه ، فلما ألقى في الحب عريانا جاءه الملك وكان عليه التعويد فأخرج القميص وألبسه إياه وجعل يؤنسه بالنهار .

ويروى : إن الملك أتاه بسفر جلة من الجنة فأطعمه إياها ، فلما أمسى يوسف نهض الملك ليذهب فقال له يوسف أنك إذا خرجت عني أستوحش فقال له الملك قل إذا هبت شيئا يا صريح المستصرخين يا غياث المستغيثين يا مفرج كرب المكروبين قد ترى مكاني وتعرف حالي ولا تخفى عليك شيء من أمري ، فلما دعا يوسف بهذا الدعاء بعث الله إليه سبعين ملكا فحفروا به وآسوم في البئر ثلاثة أيام ، فلما كان في اليوم الرابع أتاه جبريل عليه السلام وقال يا غلام من طرحك ههنا في هذا الحب ؟ قال اخوتي لأبي . قال ولم ؟ قال خسدوني على منزلتي من أبي . قال أحب أن تخرج من هذا الحب ؟ قال نعم . قال قل يا صانع كل مصنوع ويا جابر كل مكسور ويا حاضر كل ماض ويا شاهد كل نجوى ويا قريبا غير بعيد ويا مؤنس كل وحيد ويا غالبا غير مغلوب ويا عالم الغيوب ويا حيا لا يموت ويا حيي الموتي لا اله إلا أنت سبحانه أسألك يا من له الحمد يا بديع السموات والأرض . يا مالك الملك ويا ذا الجلال والإكرام أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد وأن تجعل لي من أمري ومن ضيقي فرجا ومخرجا وترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب فقال لها يوسف فجعل الله له من الحب مخرجا ومن كيد اخوته فرجا وآتاه ملك مصر من حيث لا يحتسب وأوحى الله إليه وهو في البئر لتنبئ إخوتك بما عملوا وهم لا يعلمون أنك يوسف فذلك قوله تعالى - لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون - .

وقال مجاهد : خرج يوسف من عند يعقوب وهو ابن ست سنين لم يشعر وجمع الله بينهما وهو ابن أربعين سنة .

أخبرنا أبو عبد الله الدينوري أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف الصرصري أخبرنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري أخبرنا عمران القزاز ، أخبرنا عبد الوارث أخبرنا يونس عن الحسن قال ألقى يوسف في الحب وهو ابن سبع عشرة سنة وكان في العبودية والملك والسجن ثمانين سنة وعاش بعد ذلك ثمانية وعشرين سنة ومات وهو ابن مائة وخمس وعشرين سنة . رجعنا إلى قصة يوسف عليه السلام وإخوته بعدما ألقى في الحب فلما ألقوه في الحب عمدوا إلى سحلة من الغنم فذبحوها ولطخوا قميص يوسف بدمها وشووها وأكلوا لحمها ، ثم إنهم رجعوا إلى يعقوب وهو قاعد على قارعة الطريق ينتظرهم متى يأتون يوسف ، فلما دنوا منه اضطربوا صراخ رجل واحد ورفعوا أصواتهم بالبكاء فعلم يعقوب أنهم قد أصيبوا بمصيبة ، فلما وافوه اجتمعوا وتقدموا بين يديه وشقوا جيوبهم وبكوا ففرج

يعقوب وقال مالكم يا بني وأين يوسف قالوا يا أبانا إننا ذهبنا نستبق أى نتفضل وكذلك هو فى قراءة عبدالله - وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين - وهذا قميصه ملطخ بدمه ، فذلك قوله تعالى - وجاءوا أباهم عشاء يبكون - وإنما فعلوا ذلك ليكونوا فى الظلمة أجراً على الاعتذار وتزوير مامكروا ، فقد قالوا : لا تطلب الحاجة فى الليل فإن الحياء فى العيين ولا تعتذر بالنهار من قبح فعلك فتلجج فى الاعتذار فلا تقدر على إتمامه .

وروى الشعبي : قال جاءت امرأة إلى شريح فجعلت تبكى ، فقال رجل الأترى إلى هذه المرأة المستكينة كيف تبكى فقال شريح قد جاء أخوة يوسف عشاء يبكون ثم إنه أنشد فى معناه :

أغرك من شيوخ بكاء ومملقه أم اللحية البيضاء للثقب مطلقه

فإن بنى يعقوب جاءوا أباهم عشاء وهم يبكون زورا ومخرقة

قال فلما قالوا - يا أبانا إننا ذهبنا نستبق - أى نتفضل وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب الآية إلى قوله - بدم كذب - لأنه لم يكن دم يوسف وإنما كان دم شاة . وقرأت عائشة بدم كذب بدال غير معجمة أى طرى . فلما قالوا ذلك ليعقوب بكى بكاء شديدا وقال لهم أرونى قميصه فأروه . فقال تالله ما رأيت كالיום ولا ذنبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يشق له جيبا ولا خرق له شقا وصاح صيحة وخر مغشيا عليه فلم يفق إلا بعد ساعة طويلة فلما أفاق بكى بكاء شديدا ثم أخذ القميص وجعل يشمه ويقبله ويضعه على وجهه وعينه .

أخبرنا ابن فتحويه أخبرنا أحمد بن إبراهيم بن شاذان أخبرنا عبيد الله بن ثابت أخبرنا أبو سعيد الأشج أخبرنا أسامة حدثني زكريا عن سماك عن الشعبي قال : كان فى قميص يوسف ثلاث آيات لما جاءوا به إلى أبيه فقالوا أكله الذئب فقال أبوه لئن أكله الذئب ليشقن قميصه وحينئذ سعى نحو الباب فشقت قميصه من خلف فعرف الوزير أنه لو كان هو الذى راودها لكان الشق من بين يديه وحينئذ ألقى على وجهه فارتد بصيرا

قالوا فلما أصبح إخوة يوسف من الغد رجعوا إلى مراعيهم فقال بعضهم لبعض قد رأيتكم ما كنتم من تكذيب أئيبكم البارحة فإن أردتم أن يصدقكم ويخرجكم من الملامة ، فمروا بنا على الجيب فنخرج يوسف منه ونفرك بين أضلاعه ولحمه ونجىء به فقال لهم يهوذا يا اخوتاه أين العهد الذى بينى وبينكم والله لئن فعلتم ما تقولون لأخبرن يعقوب بما كنتم تفعلون إليه ، ثم لا تكون لكم عدوا ما بقيت فتذكروهم ثم انهم رجعوا إلى أبيهم عشاء فقال لهم يعقوب ان كنتم صادقين أن الذئب أكله فأين الذئب اتونى به فعمدوا إلى حبالهم وعصيم فأخذوها ومضوا إلى الصحراء فاضطادوا ذنبا وشذوه وأوثقوه كتافهم حملوه إلى يعقوب وأوثقوه بين يديه فقال خلوا عقاله فخلوه فقال له يعقوب أقبل الذئب يتخطى القوم حتى وقف بين يدي يعقوب متكسرا رأسه فقال له يعقوب : أنها الذئب أكلت ولدى وقرعة عيني وحبيب قلبي وثمرة فؤادى لقد أورتني حزنا طويلا وإنما أعظمها قال فتكلم الذئب وقال لا وحق شيتك

يأني الله ما أكلت لك ولدا وإن لحومكم ودماءكم معشر الأنبياء محرمة علينا وإني لمظلوم مكذوب على
وإني لندب غريب من بلاد مصر فقال له يعقوب وما أدخلك أرض كنعان قال جئت لأجل قرابة لي
من الدئاب أزورهم وأصلهم فعند ذلك قال يعقوب لأولاده - بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر
جميل - وهو الذي لا جزع فيه ولا شكوى - والله المستعان على ما تصفون - .

قال ابن عباس إنما كان سبب بلاء يعقوب أنه ذبح شاة وهو صائم فاستطعمه جاره فلم يطعمه
فابتلاه الله تعالى بأمر يوسف قال فكث يوسف في الجب ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع ودعا
بالدعاء الذي علمه جبريل عليه السلام جاءت سيارة أي رقعة مارة من قبل مدين تريد مصر فأخطوا
الطريق وضلوا عنها حتى نزلوا قريبا من الجب قال وكان الجب في قعر بعيد من العمران وإنما هو
للرعاة والمجازرة وكان مأوى ملحا فعذب حين ألقى فيه يوسف ، فلما نزلت السيارة أرسلوا رجلا من
العرب من أهل مدين يقال له مالك بن دعر ليطلب لهم ماء فذلك قوله تعالى - وجاءت سيارة فأرسلوا
واردهم فأدلى دلوه - قالوا والوارد الذي يتقدم الرقعة الى الماء فيهيء الأرضية والدلاء فوصل الوارد
الى البئر فأدلى دلوه أي أرسلها فتعلق يوسف بالجل ، فلما وصل الى فم البئر ورآه مالك بن دعر
فراى أحسن ما يكون من الغلمان . فقال مالك يا بشرى هذا غلام يبشر أصحابه أنه أصاب عبدا
وأسروه بضاعة قال القسرون أسر مالك بن دعر وأصحابه أمر يوسف من التجار الذين معهم وقالوا
لهم هو بضاعة استبضعناها من بعض الناس الى مصر خيفة أن يطلبوا منهم فيه الشركة ان علموا
حاله . قال وكان يهوذا يأتي يوسف بالطعام كل يوم سرا من اخوته فأتاه ذلك اليوم كما كان يفعل
فلم يجد في البئر فنظر فاذا هو بمالك وأصحابه نزولا ويوسف معهم فرجع يهوذا وأخبر إخوته بذلك
فأتوا الى مالك وقالوا له هذا عبدنا أبق منا . وكنتم يوسف حاله مخافة ان يقتلوه فقال مالك انا
أشتريه منكم فباعوه منه فذلك قوله تعالى - وشروه بثمان بنحس دراهم معدودة وكانوا فيه من
الزاهدين - أي باعوه بثمان ناقص ظلم حرام . لأن ثمن الحر حرام ثم بين الثمن فقال دراهم معدودة
وإنما قال ذلك لأنهم كانوا في ذلك الزمان لا يزنون ما كان وزنه أقل من أوقية أربعين درهما
إنما كانوا يعدونها عدا فاذا بلغ أوقية وزنوه لأن أقل أوزانهم واصغرها يومئذ أوقية
أربعون درهما .

واختلف العلماء في عدد الدراهم التي باعوا بها يوسف فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة
والسدي : عشرون درهما واقتسموها بينهم درهمين درهمين وقال مجاهد اثنان وعشرون درهما
وقال عكرمة أربعون درهما . وإنما باعوه بهذا القدر لأنهم كانوا فيه من الزاهدين لم يعلموا كرامته
على الله ولا منزلته عند الله . ويقال ان السبب في استرقاق يوسف وبيعهم إياه ان ابراهيم دخل مصر
في بعض الأزمنة فلما خرج منها شيعه زهادهم وعبادهم حفاة مشاة الى أربعة فراسخ تعظيما له وإجلالا
ولم يترجل لهم ابراهيم فأوحى الله اليه انك لم تنزل لعبادى وهم يمشون بمعك حفاة لأعاقبتك بأن يباع

ولد من أولادك في هذه المدينة . ثم ان مالك بن دعر انطلق هو وأصحابه يوسف ومعهم اخوته يقولون لهم استوثقوا منه فانه آبق سارق كاذب وقد برثنا اليكم من عيوبه فحمله مالك على ناقه له وساروا به الى مصر وكان طريقهم على قبر أمه ، فلما رأى قبر أمه لم يتمالك ان رمى نفسه عن الناقة الى القبر وهو يقول يا أمي ياراحيل حلى عنك عقدة الردى وارفعي رأسك من الثرى وانظري الى ولدك يوسف ومالقي بعدك من البلاء ، يا أماه لو رأيت ضعفى وذلى لرحمتينى ، يا أماه لو رأيتينى وقد نزعوا قميصى وشدونى وفي الجب ألقونى وعلى حر وجهى لطمونى ، وبالْحجارة رجمونى ولم يرحمونى وكما تباع العبيد باعونى وكما يحمل الأسير حملونى .

قال كعب الأحبار : فسمع يوسف مناديا من خلفه وهو يقول اصبر وما صبرك الا بالله . قال فافتقده مالك على الناقة التى كان عليها فلم يجده فصاح فى القافلة ألا ان الغلام قد رجع الى أهله فطلب القوم يوسف فأروه فأقبل عليه رجل منهم فقال يا غلام قد خبرنا مواليك بأنك آبق سارق فلم تصدق حتى رأيناك تفعل ذلك ، فقال والله ما أبقت ولكنكم مررتم على قبر أمي فلم أتمالك أن رميت نفسي على قبرها . قال : فرجع مالك بن دعر يده ولطم حر وجهه وجره حتى حمله على ناقته . ويروى أنهم قيدوه فذهبوا به حتى قدموا مصر . قال مالك ما نزلت منزلا ولا ارتحلت إلا استبان لى بركة يوسف وكنت أسمع تسليم الملائكة عليه صباحا ومساء وكنت أنظر إلى غمامة يضاء تظله وتسير فوق رأسه اذا سار وتقف على رأسه اذا وقف ، فلما قدموا مصر أمره مالك بن دعر ان يغتسل فاغتسل وألبسه ثوبا حسنا وعرضه للبيع فاشتراه قطير بن رحيب وهو الغزير بمصر ونواخيا وكان على خزائن الملك الأعظم وكان الملك يومئذ بمصر ونواخيا الريان بن الوليد بن ثروان بن اراشة بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام . ويروى ان هذا الملك ما مات حتى آمن يوسف وتبعه على دينه ، ثم مات ويوسف حيا ، ثم ملك بعده قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن السلواس بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام وكان كافرا فدعا يوسف الى الاسلام فأبى ان يسلم .

قال ابن عباس لما دخلوا مصر تلقى قطير السيارة وابتاع يوسف من مالك بن دعر بعشرين دينارا وزوج نعال وثوبين أبيضين .

وقال وهب بن منبه : قدمت السيارة الى مصر فدخلوا يوسف الى السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس فى ثمنه وتزايدوا حتى بلغ ثمنه وزنه مسكا وورقا وخيرا فابتاعه قطير بهذا الثمن من مالك فلما اشتراه أتى به منزله وقال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . واسمها راعيل بنت رعيائيل قاله إسحق بن يسار .

وأخبرنى ابن فتحويه أخبرنا ابن أبى شيبة أخبرنا أبو حامد السيلنى أخبرنا أبو هاشم الرقاعى : قال اسم امرأة الغزير بكاء بنت فيوش ، قالوا فقال لها أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه .

ولدا تنبناه . وقال ابن إسحق كان قطير لا يأتي النساء وكانت امرأته راعيل حسناء ناعمة في ملك ودنيا .

أخبرنا أبو بكر الجوزقي أخبرنا أبو العباس الدعولي بسرحين أخبرنا علي بن الحسين الهلالي أخبرنا أبو نعيم أخبرنا زهير عن ابن إسحق عن أبي عبيد عن عبد الله بن مسعود . قال : أفرس الناس ثلاثة العزيز حين تفرس في يوسف وقال لامرأته أكرمي مثواه . والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر . قال الله تعالى . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض . يعني أرض مصر قال أهل الكتاب لما تم ليوسف في الأرض ثلاثون سنة استوزره فرعون مصر وجعله على خزائنه فذلك قوله تعالى . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث . الآية قالوا فلما أتى العزيز يوسف إلى منزله وقال لامرأته أكرمي مثواه فتأملت امرأة العزيز ورأت حسنه وجهه وقع حبه في قلبها وعشقه فراودته أي طلبت منه متابعها على هواها وذلك قوله تعالى . وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك . أي هلم تدعوه إلى نفسها فقال يوسف عند ذلك معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي يعني زوجك قطير سيدي إنه أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون يعني إن فعلت هذا فخته في أهله بعد ما أكرمني وأتمني فأنا ظالم له ولا يفلح الظالمون قال الله تعالى . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأي برهان ربه . ومعنى الهم بالشئ ما جدت الهم به نفسه ولم يفعل ذلك بعد . قال الشاعر :

هممت ولم أفعل وكبت وليتنى تركت على عثمان تبكي جلاله

أما ما كان من هم يوسف بالمرأة وهمها به فاختلف أهل العلم في ذلك قال السدي وابن اسحق لما أراد بيت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوقه إلى نفسها فقالت له يا يوسف ما أحسن شعرك ، قال : هو أول شيء يبتثر من جسدي قالت : يا يوسف ما أحسن عينيك قال هما أول ما يسيل في الأرض من جسدي قالت : ما أحسن وجهك . قال التراب يأكله فلم تزل تأمره مرة وتعظمه أخرى وتدعوه إلى اللذة وهو شاب مستقبل مجد شيق الشباب وهي حسناء جميلة حتى لأن لها لما يرى من كلفها به ولم يتخوف منها حتى خيلوا في بعض البيوت وهم بها .

وروى إسحق بن يسار عن جوير عن الضحاك ومقاتل جميعا عن ابن عباس فيما كان من محاورتهما قال : قالت يا يوسف ما أحسن شعرك قال هو أول شيء يبلى إذا مت قالت يا يوسف ما أحسن وجهك قال ربي تعالى صورني في الرحم قالت يا يوسف قد أتحت جسمي بصورة وجهك قال : الشيطان يعينك على ذلك قالت يا يوسف الجنية قد التهمت ناراً قم فأطفئها فقال ان اطفأها فبها احتراق قالت يا يوسف الجنية قد عطشت قم فاسقها قال من كان المفتاح بيده فهو الحق ان يسقها مني قالت يا يوسف بساط الجير قد بسط لك قم فأقض حاجتي قال : إذا ذهب نصيبي من

الجنة قالت يا يوسف ادخل معي تحت الستر فأسترك به قال ليس شيء يسترنى من ربى تعالى ان عصيته قالت يا يوسف ضع يدك على صدري تشفقى بذلك قال سيدى أحق بذلك منى قالت أما سيدك فأسقيه كأسا فيه زئبق الذهب فيتناثر لجمه ويتساقط عظمه ، ثم ألقه في استبرق وألقه في القيطون يعنى الخدع لا يعلم به أحد من الناس وأوليك بملكه قليله وكثيره . قال . فان الجزاء يوم الجزاء قالت يا يوسف إني كثيرة الدر والياقوت والزمرد فأعطيك ذلك كله حتى تنفقه في مرضاة سيدك الذى فى السماء فأبى يوسف .

قال ابن عباس فجرى الشيطان فيما بينهما فضرب باحدى يديه الى جنب يوسف وباليده الأخرى الى جنب المرأة حتى جمع بينهما قال ابن عباس فبلغ من هم يوسف الى أن حل الهيمان وجلس منها مجلس الرجل الحائن .

وروى جابر عن الضحاك عن ابن عباس ، همت يوسف أن يفرشها ، وهم بها . يعنى تمنها أن تكون له زوجة .

وأما البرهان الذى رآه يوسف . وكان سبب العصمة وصرف الفاحشة عنه فاختلوا فيه . أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الطبراني أخبرنا حسن بن عطية عن إسرائيل ابن أبي حسين عن أبي سعيد قال ابن عباس فى قوله تعالى - لولا أن رأى برهان ربه - قال مثل له يعقوب فضربه يده على صدره فخرجت شهوته من أنامله . وقال الحسن ومجاهد وعكرمة والضحاك انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضا على أصبعه قال فكل بنى يعقوب ولد له اثنا عشر ولدا إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر ولدا من أجل ما نقص من شهوته حين رأى صورة أبيه فاستحيا منه . وقال قتادة رأى صورة يعقوب فقال له يعقوب يا يوسف أتعلم عمل السفهاء وأنت مكتوب فى ديوان الأنبياء .

وقال السدى نودى يا يوسف لا تواقعها إنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير فى جوف السماء لا يطاق ومثلك ان واقعها مثله إذا مات ووقع فى الأرض لا يقدر أن يدفع عن نفسه ، ومثلك ما لم تواقعها مثل الثور الصعب الذى لا يعمل عليه ، ومثلك ان واقعها مثل الثور الذى يموت فيدخل النمل فى أصل قرنيه فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه .

أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد الأصماني أخبرنا أحمد بن محمد بن يزيد السكوني أخبرنا محمد ابن ابراهيم بن خالد بن عمر بن حفص البصرى ببغداد أخبرنا خالد بن يزيد البصرى أخبرنا جزي عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى - ولقد همت به وهم بها - فقد حل سراويله وقعد منها مقعد الرجل من المرأة فإذا بكف قد بدت فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها - وان عليكم لحافين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون - فقام هاربا فارا ، فلما ذهب غنهما الروح والرعب عادت وعاد فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته إذا لكف قد بدت فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها -

واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله - الآية . فقام هاربا وقامت ، فلما ذهب عنها الرعب عادت وعاد فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته إذ الكف قد بدت بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها - ولا تهربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا - فقام هاربا وقامت فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته قال الله تعالى لجبريل عليه السلام يا جبريل أدرك عبيد قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عاضا على أصابعه أو كفه وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء قال الله تعالى - كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين - .

أخبرنا يعقوب بن أحمد أخبرنا محمد بن عبد الله النعماني أخبرنا عبد الله بن أحمد بن عامر الطبرستاني حدثني أبي قال حدثني علي بن موسى الرضا حدثني أبي عن أبيه جعفر بن محمد الصادق حدثني أبي عن أبيه عن علي بن الحسين في قوله تعالى - لولا أن رأى برهان ربه - قال قامت امرأة العزيز إلى الصنم فظلمت دونه بثوب قال فقال لها يوسف ما هذا ؟ قالت أستحي أن يرانا فقال لها يوسف أتستحيين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه ولا أستحي أنا ممن خلق الأشياء كلها وعلمها . قالوا فلما رأى يوسف البرهان قام مبادرا إلى باب البيت هاربا عما أرادته فاتبعته المرأة فذلك قوله تعالى - واستبقا الباب - يعني تبادر يوسف وراعيل إلى الباب أما يوسف ففرارا من ركوب الفاحشة وأما المرأة فطلبا ليوسف ليقضى حاجتها التي راودته عنها ، فأدركته فتعلقت بقميصه من خلفه فحذبتة إليها مانعة له من الخروج فقدت : أي خرقت وشقت قميصه من دبر أي من خلفه لأن يوسف كان الهارب والمرأة الطالبة فلما خرجا ألفيا سيدها لدى الباب أي وجدا زوجها قطير عند الباب جالسا مع ابن عم لراعيل ، فلما رآته هابتة وقالت سابقة بالقول لزوجها ماجزاء من أراد بأهلك سوءا يعني الزنا إلا أن يسجن أو عذاب أليم يعني الضرب بالسياط .

عن ابن عباس : وهذا كالمثل السائر خذ اللص قبل أن يأخذك فقال يوسف بل هي راودتني عن نفسي فأبيت وفررت منها فأدركتني وشقت قميصي قال نوف الشامي ما كان يوسف يريد أن يذكرها فلما قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا غضب وقال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها . واختلفوا في هذا الشاهد من هو ؟

قال سعد بن جبير والضحاك : كان صيبا في المهد أنطقه الله تعالى ، يدل عليه حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال تكلم أربعة في المهد وهم صفار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج الراهب وعيسى بن مريم وقال الحسن وعكرمة وقتادة ما كان صيبا ولكن كان رجلا حكما وله رأى وكان من خاصة الملك . وقال السدي هو ابن عم راعيل كان جالسا مع زوجها على الباب فحكم بما أخبر الله تعالى عنه - أن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر -

عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام فقال انه من كيد كنّ ان كيد كن عظيم ثم أقبل على يوسف فقال يا يوسف أعرض عن هذا الحديث لا تذكره لأحد . ثم قال لامرأته - واستغفرى لذنبك انك كنت من المخاطئين - أى من المذنبين حين راودت شابا عن نفسه وخت زواجك فلما استعصم كذبت عليه .

قالوا فشاع امر يوسف وراعى وتحدث الناس بذلك وقال نسوة في المدينة وهنّ امرأة الساقى وامرأة الحجاز وامرأة صاحب الدواة وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه أى عبدها الكنعانى قد شغفها حبا اى دخل حبه في شغاف قلبها وهو حجابها وغلافه انا لنراها في ضلال مبين اى خطأ بين حيث تراود عبدها عن نفسه ، فلما سمعت راعيل بمكرهنّ أى بقولهنّ وحديثهنّ ، وقال ابن اسحق يعنى بكيدهنّ وذلك انما قلنه مكرها لثريهنّ يوسف لما بلغهنّ من حسنه وجماله فاتخذت راعيل مائدة ودعت اربعين امرأة منهنّ هؤلاء اللواتى عيرنها فذلك قوله تعالى - وأرسلت اليهنّ وأعتدت لهنّ متكاً - اعتدت اى هيات لهنّ مجلسا للطعام وما يتكئنّ عليه من التمارق والوسائد .

عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة يعنى هيات طعاما ، وقرأ مجاهد متكاً خفيفا غير مهموز وهو كل طعام تحزه بالسكين ، وقال وهب أعتدت لهنّ اترجا وبطيخا وموزا ورمانا ووردا وآتت كل واحدة منهنّ سكينا وقالت ليوسف اخرج عليهنّ وكانت قد اجلسته في مجلس غير المجلس الذى هنّ فيه جلوس فخرج عليهنّ يوسف فلما رأينه اكبرنه وهالهنّ امره وبهتنّ وقطن ايديهنّ بالسكاكين اللاتى معهنّ وهنّ يحسبنّ انهنّ يقطعنّ الأترج وغيره .

قال قتادة أبّن ايديهنّ حتى القينها فما احسن الا باللهم ولم يجدن من حز الأيدي ألما لشغل قلوبهنّ يوسف عليه السلام .

وقال وهب : بلغنى ان سبعا من الأربعين امرأة متن في ذلك المجلس وجدا يوسف عليه السلام وقلن حاش لله اى معاذ الله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم ، فقالت راعيل عند ذلك للنسوة فذلك الذى لمتنى فيه اى في حبه وشغفى به ثم انها ابدت لهنّ الليل الذى عندها فقالت ولقد راودته عن نفسه فاستعصم اى امتنع واستعصى ، فقالت النسوة ليوسف أطع مولاتك فقالت راعيل لأن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ، فاختار يوسف حين عاودته المرأة فى الراودة وتوعدته بالسجن على المخالفة فقال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى اليه وإلا تصرف عني كيدهنّ احب اليهنّ اى امل واتابعهنّ وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهنّ انه هو السميع العليم ثم بداهم اى العزيز واصحابه من بعد ما رأوا الآيات الدالة على براءة يوسف وهو قدّ القميص من دبر وخمش الوجه وقطع النسوة ايديهنّ ليسجننه حتى حين .

قال السدى : وذلك أن المرأة قالت لزوجها ان هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يعتذر اليهم

ويخبرهم أنى راودته عن نفسه ولست أطيق أن أعتذر بعذر ، فلما أن تأذن لي أخرج فأعتذر وإما أن تحبسه كما حبستني فحبسه بعد علمه ببراءته دفعا للتهمة عن امرأته ، وذلك ان الله تعالى جعل ذلك الحبس تطهيرا ليوسف من همه وتكفيرا لزلته . قال ابن عباس عثر يوسف ثلاث عثرات : حين هم بها فسجن ، وحين قال اذ كرني عند ربك فلبث في السجن بضع سنين . وحين قال لاختوته إنكم لسارقون قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . ولما سجن يوسف دخل معه السجن فتيان وهما غلامان كانا للوليد بن الريان ملك مصر الأكبر أحدهما خبازه وصاحب طعامه واسمه مجلب والآخر ساقيه وصاحب شرابه واسمه ييوص ، غضب عليهما الملك فحبسهما ، وذلك انه بلغه عنهما ان خبازه يريد ان يسيمه وأن ساقيه وافقه على ذلك ، وكان السبب فيه ان جماعة من مصر أرادوا السكر بالملك واغتياله فدسوا إلى هذين الغلامين وضمنوا لهما مالا ليسا بالطعام للملك والشراب فأجاباهم إلى ذلك ، ثم ان الساقى نكل عنه والخباز غش الملك وقبل الرشوة فسم الطعام ، فلما حضر وقته وأحضر الطعام قال الساقى أيها الملك لا تأكل فان الطعام مسموم ، وقال الخباز لا تشرب لأن الشراب مسموم ، فقال الملك للساقى اشرب فاشرب فلم يضره ، فقال للخباز كل من طعامك فأبى ، فجرب ذلك الطعام في دابة من الدواب فأكلته فهلك ، فأمر الملك بحبسهما ، وكان يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لأهله انى أعبر الأحلام فقال أحد الفتيين لصاحبه هلم نجرب علم هذا العبد العبرانى فنترأى له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا . قال عبدالله بن مسعود مارأى صاحب يوسف شيئا وإنما كانا تحالما ليجربا علمه ، وقال قوم بل كانت رؤياهما على صحة وحقيقة فسألاه عنها ، وقال مجاهد لما رأى الفتيان يوسف قالاله والله لقد أحبيناك حين رأيناك فقال لهما يوسف أنشدكما الله تعالى لا تحباني فوالله ما أحبنى أحد قط إلا دخل على من حبه بلاء ، لقد أحبتنى عمى فدخل على من حبه بلاء ، ثم أحبنى أبى فدخل على من حبه بلاء ، ثم أحبتنى زوجة صاحبي فدخل على من حبه بلاء ، فلا تحباني بارك الله فيكما قال فأيا الاحبه وألفاه حيث كان وجعل يعجبهما ما يريان من فهمه وعقله وقد كانا رأيا حين دخل السجن رؤيا فأتيا يوسف فقال الساقى أيها العالم انى رأيت كأتى في بستان فاذا أنا بأصل كرمة عليها ثلاث عناقيد من عنب فجنيتهما ، وكان كأس الملك يدي فعصرتهما وسقيت الملك شربة فذلك قوله تعالى - قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا - يعنى عنباً بلغة عمان يدل عليه قراءة ابن مسعود أعصر خمرا أى عنباً ، وقال الخباز إنى رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها خبز تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله إننا نراك من المحسنين .

أخبرنا ابوبكر محمد بن احمد بن محمد بن احمد بن عقيل أخبرنا عبيد الله بن محمد بن ابراهيم بن قالويه أخبرنا محمد بن يزيد السامى أخبرنا ابوالريبع الزهرانى أخبرنا خلف بن خليفة أخبرنا سليم عن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى - إننا نراك من المحسنين - قال كان إحسانه إذا مرض رجل في السجن قام عليه فاذا ضاق عليه وسع له وان احتاج جمع له وسأل ربه ، وقال قتادة بلغنا ان احسانه كان يداوى مريضهم ويعزى حزينهم ويجهد لربه ، وقال لما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قد

انقطع رجائهم واشتد بلاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول أبشروا واصبروا توجروا ان في هذا الأجر ثوابا ، فقالوا يافتي بارك الله فيك ما أحسن وجهك وخلقت وحديثك لقد بورك لنا في جوارك ، انا لانحب أن نكون في غير هذا المكان منذ رأيناك لما تخبرنا به من الأجر والكفارة والطهارة في ذلك فمن أنت يافتي ؟ قال أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب ابن ذبيح الله اسحق ابن خليل الله ابراهيم عليهم السلام فقال له عامل السجن والله يافتي لو استطعت لحليت سبيلك ولكن سأحسن جوارك وأحسن إيثارك فكن في أى بيت شئت قال فكره يوسف أن يعبر لهما ماسألاه لما علم في ذلك من المكروه على أحدهما فأعرض يوسف عن سؤالهما وأخذ في غيره ، قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما فقالا له هذا فعل الكهنة والسحرة ، فقال ما أنا بكاهن ولا ساحر ولكن ذلكما بما علني ربي ثم بين لهما دينه ومذهبه فقال - إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آباءى ابراهيم واسحق ويعقوب - الخ الآية ، فأراها يوسف فطته ودرايته ثم دعاها إلى الاسلام وأقبل عليهما على أهل السجن وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله فقال الزاما للحجة - يا صاحبي السجن أ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه - الآية ، ثم فسر رؤياها لما ألحا عليه فقال يا صاحبي السجن أما أحدكما وهو الساقى فيسقى ربه خمرا يعنى الملك ويعود إلى منزلته التي كان عليها ، وأما العناقيد الثلاثة فانها ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يخرج ، وأما الآخر فيصلب والسلال التي رآها في المنام ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يخرج فيصلب فتأكل الطير من رأسه .

قال ابن مسعود : ثم لما سمعا قول يوسف عليه السلام قال ما رأينا شيئا انما كنا نلعب ونجرب عليك هذا ، فقال يوسف قضى الأمر الذى فيه تستفتيان اى فرغ الأمر الذى عنه تسألان .

أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد بن الوزان أخبرنا محمد بن عبد الله الصفار أخبرنا أحمد بن مهران عن أبي رزين العقيلي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعب فاذا عبرت وقعت وان الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة واحسبه قال لا تقصها إلا على ذي رأى وعقل » وقال ﷺ « الرؤيا لأول عابر » فقال يوسف عليه السلام عند ذلك للذي علم أنه ناج منهما وهو الساقى اذ كرنى عند ربك يعنى الملك وقل له في السجن غلام محبوس ظلما - فأنساه الشيطان ذكر ربه - الآية ، والبضع ما بين الثلاثة إلى العشرة وأكثر المفسرين على ان البضع في هذه الآية سبع سنين .

وقال وهب بن منبه أصاب أيوب البلاء سبع سنين وعذب بمختصر بالمسخ سبع سنين وترك يوسف في السجن سبع سنين .

وروى يونس عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ « رحم الله أخى يوسف لولا كلمته ما لبث في السجن مالم يلبث » يعنى قوله اذ كرنى عند ربك ثم بكى .

وقال الحسن : نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس .

وقال مالك بن دينار : لما قال يوسف للساقى اذ كرني عند ربك ، فقيل له يا يوسف اتخذت من دوني وكيلا لأطيلن حبسك ، فبكى يوسف وقال : يارب أنسى قلبي كثرة البلوى فقلت ما قلت حويد لاخوتي . ويحكى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف وهو في السجن ، فلما رآه يوسف عرفه وقال يا أخا المنذرين مالي أراك بين المخطئين ؟ فقال له جبريل عليه السلام يا طاهر الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك ما استحييت مني ان استشفعت بالآدميين فوعزتي لألبثتك في السجن بضع سنين ، قال يوسف يا أخى يا جبريل وهو في ذلك راض عني ؟ قال نعم . قال : إذا لا أبالي ، وقال كعب الأحبار : قال جبريل ليوسف إن الله تعالى يقول لك من خلقك ؟ قال الله تعالى ، قال فمن حبيك إلى أيك ؟ قال الله تعالى ، قال فمن آسك في البر والبرك وأنت عريان ؟ قال الله تعالى ، قال فمن نجاك من كرب البر ؟ قال الله تعالى . قال فمن علمك تأويل الرؤيا ؟ قال الله تعالى قال فكيف استغثت بآدمي مثلك ؟ قالوا فلما انقضت سبع سنين قال الكلبي وهذه السبع سوى الخمس التي كانت قبلها . وذلك أنه حبس خمس سنين قبل أن يستشفع بالساقى وهو قوله تعالى - ليسجنه حتى حين - فلما استشفع بالساقى وقال له اذ كرني عند ربك بقى في السجن سبع سنين ، فلما انتهت محنته ودنا فرجه وراحته رأى ملك مصر الأكبر وهو الريان بن الوليد رؤيا عجيبة فهايته وذلك أنه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس . وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان فدخلت في بطونهن فلم ير منها شيئا ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وأفركت . وسبعاً آخر يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها . فجمع السحرة والكهنة ومعبريه وقصها عليهم وقال يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون : أي تفسرون قالوا أضغاث أحلام غخلطة مشتبهة التأويل أباطيل وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذي نجا منهما : اى من القتين وهو الساقى . واذكر بعد أمة اى وتذكر حاجة يوسف بعد حين قال ابن عباس بعد أمة اى بعد سنين انا أنبشكم بتأويله فأرسلون اى الى السجن .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يكن السجن في المدينة . فبعثوه فأتى ليوسف فقال له : أيها الصديق يعنى فيما عبرت لنا من الرؤيا . والصديق هو كثير الصدق . أفتنا في سبع بقرات سمان يا كلهن سبع عجاف إلى قوله لعلهم يعلمون : أى فضلك وعلمك . فقال له يوسف تزرعون سبع سنين دأبا إلى قوله وفيه يعصرون . فرجع الساقى الى الملك وأخبره بما افتاه به يوسف من تأويل رؤياه كالنهار . وعرف الملك ان الذي قال كائن . فقال الملك اتوني بالذى عبر رؤياى هذه . فلما جاء الرسول إلى يوسف أبى ان يخرج معه حتى يعرف عذره وبراءته ويعرف صحة أمره من قبل النسوة . فقال للرسول ارجع إلى ربك : أى سيدك الملك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن علم .

قال ابن عباس : لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك شأنه ما زالت في نفسه منه حاجة يقول هو هذا الذي راود امرأتى . وقال رسول الله ﷺ « لقد عجبت من أخى يوسف وكرمه وصبره والله تعالى يغفر له حين سئل عن البقرات السمان والعجاف ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشرط أن يخرجونى ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن مالم يث لأسرعت الاجابة وبادرت الباب ولم أبتغ العذر والله إنه كان حليما ذا أناة » قال فرجع الرسول الى الملك من عند يوسف برسالته ، فدعا الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن وامرأة العزيز فقال لهن ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ، فلما سمع ذلك يوسف قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وان الله لا يهدى كيد الخائنين ، فقال له جبريل ولا حين هممت بها يا يوسف ؟ فقال يوسف عند ذلك وما أبرئ نفسي الآية ، فلما تبين للملك عذر يوسف وعرف اماتته وكفايته وديانته وعلمه وعقله قال اتتوني به أستخلصه لنفسي . فلما جاء الرسول إلى يوسف قال له اجب الملك الآن . فخرج يوسف ودعا لأهل السجن بدعاء يعرف الى اليوم وذلك أنه قال : اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تغم عنهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار إلى اليوم فى كل بلدة . فلما خرج يوسف من السجن كتب على بابه هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشهادة الأعداء . ثم انه اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابا جددا حسنا وقصد إلى الملك . قال وهب فلما وقف بباب الملك قال حسبي ربي من دنياى حسبي ربي من خلقه عز جاره وجل ثناؤه ولا إله غيره . فلما دخل على الملك قال اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره . فلما نظر اليه الملك سلم عليه يوسف بالعربية فقال له الملك ما هذا اللسان ؟ قال لسان عمى اسماعيل ، ثم انه دعا له بالعبرانية ثانيا فقال له الملك ما هذا اللسان ؟ قال لسان أبى يعقوب . قال وهب وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا فكلما يوسف بلسان أنجابه بذلك اللسان . فأعجب الملك ما رأى منه وكان يوسف ابن ثلاثين سنة فلما رأى الملك حداثته منه وغزارة علمه قال لمن عنده : إن هذا علم تأويل رؤياى ولم تعلمه الكهنة والسحرة ، ثم إنه أجلسه وقال له انى أحب أن أسمع رؤياى منك شفاها ، فقال يوسف نعم أيها الملك رأيت سبع بقرات سمان شهب حسان غير عجاف كشف لك عنهن نهر النيل ، فطلعن عليك من شاطئه تشخب اخلافهن لنا ، فبينما أنت كذلك تنظر اليهن وقد أعجبتك حسنهن إذ نضب النيل فقارماؤه وبدا قعره ، فخرج من حمته ووحله سبع بقرات عجاف شعث غير ملصقات البطون ليس لهن ضروع ولا أخلاف ولهن انياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع ، فاخطلطن بالسمان واقترسنهن اقتراس السباع وأكلن لحمهن ومزقن جلودهن وخططن عظامهن ، ومشطن مخنهن ، فبينما أنت تنظر وتعجب كيف غلبنهن وهن مهازيل ثم لم يظهر فيهن سمن

ولا زيادة بعد أكلهن إذا سبغ سنبلات خضر وسبغ آخر سود يابسات في منبت واحد عروقهن في الثرى والماء ، فيينا أنت تقول في نفسك ما هذا هؤلاء خضر مشمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد وأصولهن في الماء إذ هبت ريح فردت أوراق السود اليابسات على الخضر الثمرات فأشعلت فيهن النار فأحرقتهن وصرن سودا متغيرات فهذا آخر ما رأيت من الرؤيا ، ثم انك انتبهت مذعورا فقال له الملك : والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجبا بأعجب مما سمعته منك ، فما ترى في رؤياي أيها الصديق ، فقال يوسف الصديق : إني أرى أيها الملك أن تجمع الطعام وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة وتبنى الأهرام والخزائن وتجعل الطعام فيها بقصبه وسنبله ليكون أبقى له ويكون قصبه وسنبله علفاً للدواب ، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس فيكفيك الطعام الذي جمعه لأهل مصر ومن حولها ، ثم تأتيك الحلق من جميع النواحي فيمتارون منك بحكمك فيجتمع عندك من الكنوز ما لا يجتمع لأحد قبلك ، فقال له الملك ومن لي بهذا ومن يجمعه ويبيعه لي ويكفيني الشغل فيه ؟ فقال له يوسف اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم : أي كاتب حاسب ، وقيل حفيظ لما استودعته عليم بسنى المجاعة وبلغة من يأتيني ، فقال له الملك ومن أحق به منك وولاه ذلك كله وقال له إنك اليوم لدينا مكين أمين .

أخبرني الحسين بن محمد بن الحسين الثقفي بن مخلد بن علوية أخبرنا إسماعيل بن جعفر الباقري أخبرنا الحسين بن علوية أخبرنا إسماعيل بن عيسى قال أخبرنا إسحق بن بشر عن جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن لأجل سؤاله إياه أخرعته ذلك سنة فأقام عند الملك في بيته سنة » وروى سفيان عن أبي سنان عن عبد الله بن أبي الهذلي قال : قال الملك ليوسف إني أريد أن تخالطني في كل شيء غير أني آتف أن تأكل معي ، فقال له يوسف إني أحق أن آتف بذلك منك لأنى أنا ابن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحق ذبيح إله ابن إبراهيم خليل الله ، فصار بعد ذلك يأكل معه . قال ابن عباس فلما انصرفت السنة من يوم سأل الامارة دعاه الملك فتوجه بتاجه وقلده بسيفه وحلاه بخاتمه وأمر له بسرير من الذهب مكلل بالدر والياقوت فضرب عليه قبة من إستبرق وكان طول السرير ثلاثين ذراعاً وعرضه عشرة أذرع وعليه ثلاثون فراشا وستون نمرقة ، ثم أمره أن يخرج فخرج متوجاً ولونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى فيه من يياض وجهه الناظر صفاء لونه ، ثم انطلق حتى جلس على السرير فدانت له الملوك ولزم الملك وقوض اليه أمر مصر وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه ، ثم مات قطفير عن قريب فزوج الملك يوسف براعيل امرأة قطفير ، فلما دخل عليها قال لها : أليس هذا خيراً مما كنت تريدين مني ؟ فقالت له أيها الصديق لا تلمني فإني كنت امرأة حسنة ناعمة كما رأيت في ملك ودنيا وكان صاحبي لا يأتي النساء وكنت كما جعلك الله في صورتك وهيئتك فغلبتني نفسي ، فلما بنى بها يوسف وجدها عذراء فأصابها فولدت له ابنين إفرائيم وميشا ابني يوسف عليه

السلام واستوثق ليوسف ملك مصر فأقام فيهم العدل فأحبه الرجال والنساء فذلك قوله تعالى - وكذلك نجزي المحسنين وكذلك مكنا ليوسف في الأرض - يعني أرض مصر - يتبوءاً منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين - وللبختری في هذا المعنى :

أما في رسول الله يوسف أسوة	لمثلك محبوساً على الظلم والافك
أقام جميل الصبر في السجن برهة	فآل به الصبر الجميل إلى الملك
وكتب بعضهم إلى صديق له هذه الأبيات :	
وراء مضيق الخوف متسع الأمن	وأول مفروح به آخر الحزن
فلا تيأسن فالله ملك يوسف	خزائنه بعد الخلاص من السجن

قال فلما اطمأن يوسف في ملكه وخلت السنين المخصبة ودخلت المجدة جاءت بهول لم تعهد الناس مثله، فأصاب الناس الجوع ، فلما كان بدء القحط نام الملك فينبأ هوناً ثم إذا صابه الجوع ، فتهتف الملك يا يوسف الجوع فقال يوسف هذا أوان القحط والجوع ، فلما دخل أول سنة من سني الجذب هلك فيها كل شيء أعدوه من السنين المخصبة ، فجعل أهل مصر يتبعون من يوسف الطعام فباعهم في أول سنة بالنقود من الذهب والفضة حتى لم يبق في مصر درهم ولا دينار إلا قبضه ، وباعهم في السنة الثانية بالحلى والحلل والجواهر حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء ، وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب حتى احتوى عليها أجمع ، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والاماء حتى لم يبق عبد ولا أمة إلا أخذه ، وباعهم في السنة الخامسة بالضيايع والعقار والدور حتى احتوى عليها ولم يبق لأحد ملك ، وباعهم في السنة السادسة بأولادهم فان الرجل كان يشتري بولده الحنطة أو الشعير من شدة السنة فلم يبق لأحد ولد ذكر ولا أنثى إلا بمالك ، وباعهم في السنة السابعة برقابهم وأرواحهم حتى لم يبق بمصر حر ولا عبد ولا أمة إلا صار ملكاً له ، فتعجب الناس من أمر يوسف وقالوا تالله ما رأينا ملكاً أجمل من هذا وأعظم ، ثم قال يوسف للملك كيف رأيت صنع ربى فما خولنى فما ترى في هذا ؟ فقال له الملك الراى رأيك وإنما نحن لك تبع ، فقال يوسف : فأنى أشهد الله وأشهدك أنى قد أعتقت أهل مصر جميعاً ، ورددت عليهم عقارهم وعبيدهم وأولادهم .

وروى أن يوسف كان لا يشبع من الطعام في تلك الأيام قليل له أن يجوع ويبدك خزائن الأرض فقال إني أخاف إن شبت أن أنسى الجائع .

وروى أن يوسف أمر طبابخ الملك أن يجعل غداءه نصف النهار مرة واحدة في اليوم والليله ، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائع ويحسن إلى المحتاجين ففعل الطبابخ ذلك فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار . وقصد الناس مصر من كل ناحية يمتارون فجعل يوسف لا يمكن أحدا منهم وإن كان عظيماً من أكثر من حمل بعير تقسيطين الناس وتوسيعا عليهم . فتزاحم

الناس عليه . قالوا وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام من القحط والشدة ما أصاب سائر البلاد . ونزل يعقوب من ذلك ما نزل بالناس فأرسل بنيه الى مصر يطلبون الميرة وأمسك عنده بنيامين أخا يوسف لأمه ، فجاء بنو يعقوب إلى يوسف عليه السلام وكانوا عشرة ، وكان منزلهم بالقرب من أرض فلسطين من ثغور الشام وكانوا أهل بادية ومواش . فلما دخلوا عليه عرفهم يوسف وأنكروه لما أراد الله تعالى أن يبلغ يوسف ماأراد . قال ابن عباس : وكان بين أن قذفوه في الجب وبين أن دخلوا عليه أرض مصر أربعون سنة . فلذلك أنكروه وقيل انه كان متزيا بزى فرعون مصر فكانت عليه ثياب الحرير جالساً على سرير وفي عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج من ذهب فلذلك لم يعرفوه . وقيل كان بينهم وبينه ستر فلذلك أنكروه . قال بعض الحكماء : العصية تورث النكرة ولذلك قال الله تعالى - وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون - قالوا فلما نظر إليهم يوسف وكلوه بالعبرانية قال لهم أخبروني من أتم وما أمركم فاني أنكرت شأنكم ؟ فقالوا نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار . فقال لعلكم عيون جثم تنظرون عورة بلادى ؟ فقالوا لا والله ما نحن بجواسيس وانما نحن إخوة بنو أب واحد شيخ كبير صدق الله نبي من أنبياء الله تعالى يقال له يعقوب قال فكم أتم ؟ قالوا نحن كنا اثني عشر فذهب منا أخ الى البرية فهلك فيها وكان أحب إلى أيينا منا . قال كم أتم ههنا ؟ قالوا عشرة . قال فأين الآخر ؟ . قالوا عند أيينا لأنه أخو الذي هلك من أمه فأبونا يتسلى به . قال فمن يعلم أن الذي تقولون حق ؟ فقالوا أيها الملك إنا في بلاد لانعرف فيها . فقال يوسف : فأتوني بأخيكم الذي من أيكم ان كنتم صادقين . فاني أرضى بذلك قالوا ان أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه . قال فضعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم فاقترعوا بينهم فأصاب القرعة شمعون . وكان أبرهم يوسف فخلفوه عنده فذلك قوله تعالى - ولما جهزهم بيهازهم قال اتوني بأخ لكم من أيكم - الآية إلى قوله وإنا لفاعلون . فقال عند ذلك يوسف لفتيانه أى لعلمانه الذين يكيلون الطعام اجعلوا بضاعتهم أى ثمن طعامهم . قال ابن عباس : كانت بضاعتهم النعال والأدم . وقال قتادة : كانت ورقا في رحالهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون .

واختلف العلماء في السبب الذي فعل ذلك يوسف بهم من أجله : فقال الكلبي تخوف يوسف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به اليه مرة أخرى . وقيل خشي أن يشق أخذ ذلك منهم على أبيه إذ كانت السنة سنة جدد ، وقيل رأى لثما أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع احتياجهم اليه فردّه عليهم من حيث لا يعلمون تكريماً وتفضلاً ، وقيل فعل ذلك لأنه علم ان دياتهم وأما تهم تحملهم على ردّ البضاعة ولا يستحلون امساكها فيرجعون اليه لأجلها . فلما رجعوا إلى أبيهم . قالوا يا أبانا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجل من ولد يعقوب ما أكرمنا كرامته . فقال لهم يعقوب إذا أتيتم ملك مصر فاقراءوا عليه مني السلام وقولوا له ان أبانا يصلي عليك

ويدعوك بما أوليتنا . ثم انه قال لهم اين شمعون ؟ فقالوا ان الملك ارتمه لنأتيه بنيامين ثم أخبروه بالقصة فقال لهم ولم أخبرتموه بذلك ؟ فقالوا له انه أخذنا وقال انكم جواسيس حيث كلمناه بلسان العبرانية ثم قصوا عليه القصة - وقالوا ياأبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا - يعنى بنيامين - نكتل وإنا له لحافظون - . فقال يعقوب - هل آمنكم عليه إلا كما أمتكم على أخيه من قبل - الآية .

قال كعب : لما قال يعقوب فإله خير حافظا وهو أرحم الراحمين قال الله وعزتي وجلالى لأردن عليك كلاهما بعد ماتوكلت على قالوا ولما فتحوا متاعهم الذى حملوه من مصر وجدوا بضاعتهم أى ثمن طعامهم ردت اليهم - قالوا ياأبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير - فقال لهم يعقوب - لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتني به إلا أن يحاط بكم - أى تهلكوا جميعا .

وروى جوير عن الضحاك عن ابن عباس : فى قوله تعالى - لتأتني به إلا ان يحاط بكم - إلى قوله - حتى تؤتون موثقا من الله ومن قبل - يعنى حتى تحلفوا لى بحق محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ان لا تغدروا بأخيكم ففعلوا ذلك فلما أتوه موثقهم قال يعقوب الله على ما تقول وكيل ، أى شاهد بالوفاء فلما أرادوا الخروج من عنده قال لهم لا تدخلوا مصر من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وذلك انه خاف عليهم العين لأنهم كانوا ذوى جمال وهيبة وصور حسان وقامات ممتدة وكانوا اولاد رجل واحد فأمرهم أن يتفرقوا فى دخولهم البلد لا يصابوا بالعين ثم قال لهم - وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكول المتوكلون - ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوم - وكان لمصر أربعة ابواب فدخلوا من ابوابها كلها ما كان يغنى عنهم من الله من شيء صدق الله يعقوب عليه السلام فيما قال إلى قوله تعالى - ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ولما دخلوا على يوسف فى الكرة الثانية قالوا ياأيها العزيز هذا اخونا الذى امرتنا أن نأتيك به قد جئناك به قال لهم احسبتم واصبتم وستحمدون على ذلك عندى ثم انه أنزلهم واكرمهم و اضافهم واجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين على مائدة وحده وحيدا فبكى . وقال لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه فقال لهم يوسف لقد بقى أخوكم هذا وحيدا فريدا ثم اجلسه يوسف معه على مائدته فجعل يؤاكله فلما كان الليل امر لهم يوسف بمثل ذلك وقال لهم ليبت كل اثنين منكم على فراش واحد فلما بقى بنيامين وحده قال يوسف هذا ينام معى على فراشى فبات معه فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح ، فجعل رويل يقول مارأينا مثل هذا ، فلما أصبح . قال لهم انى لأرى هذا الرجل الذى جئتم به ليس له أخ يؤنس فان تشاءوا أضمه إلى ليكون منزله معى ثم إن يوسف أنزلهم منزلا واجرى عليهم الطعام والشراب وأنزل اخاه لأمه معه فذلك قوله تعالى - آوى إليه اخاه فلما خلا به قال له ما اسمك ؟ قال بنيامين قال له وما بنيامين ؟ قال المشكل وذلك انه لما ولد فقدأمه .

قال وما اسم امك ؟ قال راحيل بنت لئان بن ناحور قال فهل لك من ولد ؟ قال نعم : قال كم ؟ قال عشرة بنين . قال فما اسماءهم : قال لقد اشتقت اسماءهم من اسم أخ لي من امي هلك اسمه يوسف فقال يوسف لقد اضطررت ذلك الى حزن شديد فما اسماءهم ؟ قال : بالعا واخير واشكل واحيا واخير ونعمان وورد ورأس وحيث وعيتم . قال فما هذه الأسماء : قال أما بالعا فان أخى ابتلعه الأرض ، وأما اخير فانه كان بكر أمي ، وأما أشكل فانه كان أخى لأبي وامى ومنى وأما احيا فلكونه كان حيا ، وأما خير فانه كان خيرا حيث كان ، وأما نعمان فانه كان ناعما بين ابويه ، وأما وورد فانه كان بمنزلة الورد في الحسن ، وأما رأس فانه كان منى بمنزلة الراس من الجسد ، وأما حيث فاعلمنى أبي أنه حى ، وأما عيتم فلو رأيت غرته لقرت عيني وتم سرورى . فقال له يوسف أتحبان اكون أخاك بدل اخيك ذلك الهالك ؟ فقال بنيامين أيها الملك ومن يجحد اخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل . قال فبكي يوسف عليه السلام وقام اليه وعانقه وقال انى انا اخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ولا تعلمهم بشيء من هذا . ثم ان يوسف أوفى لآخوته الكيل وحمل لبنيامين بعيرا باسمه .

قال كعب : لما قال له انى انا اخوك قال بنيامين فاني اذا لا افارقك قال يوسف انى قد علمت باغتمام الوالد فان حبستك زاد غمه ولا يمكننى حبسك إلا بعد اشتهارك بأمر فطيع . فقال لا ابالى افعل ما تريد فقال يوسف انى أؤس صاعى هذا فى رحلك ثم أنادى عليكم بالسرقة ليتيأ لى ردك بعد تسريحك . قال افعل فذلك قوله تعالى - فلما جهزهم ببجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه - وكانت مشربة يشرب بها الملك وكانت كأسا من الذهب مكللا مرصعا بالجواهر جعلها يوسف مكيالا يكتال بها ، ثم انهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى ظننوا ثم إن يوسف أمر بهم فأدركوا وحبسوا عن للسير - ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون - فوقفوا فلما قرب منهم الرسول قال لهم ألم نحسن منزلتكم ونكرم ضيافتكم ونوف كيلكم وفعلنا لكم ما لم نفعل لغيركم قالوا بلى وماذا لك ؟ قال سقاية الملك فقدناها ولم تنهم عليها غيركم - قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين - وانا منذ قطعنا هذه الطريق لم نرد أحدا بسوء واسألوا عنا من مررتا به هل اضررتا أحدا أو أفسدنا شيئا وانا قد رددنا الدراهم لما وجدناها فى رحالتنا فلو كنا سارقين مارددناها وفى الحديث انهم لما دخلوا مصر كموا أفواه دوابهم لئلا تتناول من حروث الناس شيئا فقال الرسول انه صاع الملك الأكبر الذى يسكن فيه وانه ائتمنى عليه فان لم أجده تخوفت ان تسقط منزلتى عنده وأفتضح فى مصر فمن ردّه علىّ فله حمل بعير من طعام وانا به زعيم : اى كفى قالوا معاذ الله أن نسرقة فقال المؤذن وأصحابه فما جزاؤه أى جزاء من وجد فى رحله ان كتم كاذبين ، قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين فقال الرسول عند ذلك لا بد من تفتيش أمتعتكم

ولستم يارحين حتى أفتشها ، ثم انه انصرف بهم إلى يوسف قبدأ بأوعيتهم قبل وعاء اخيه ثم استخرجها من وعاء اخيه لازالة التهمة وكان يفتش امتعتهم واحدا واحدا .

قال قتادة : ذكر لنا انه كان لا يفتح متاعا ولا ينظر في وعاء أحد إلا استغفر الله تعالى عما قذفهم به حتى لم يبق إلا الغلام فقال ما أظن ان هذا الغلام أخذ شيئا فقالت إخوته والله ما تركك حتى تنظر في رحله فانه أطيب لنفسك ولأنفسنا فلما فتحوا متاعه استخرجوا الصاع منه فلما أخرج الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم من الحياء ثم أقبلوا على بنيامين فقالوا إيش الذي صنعت بنا وفضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل لا يزال لنا منك بلاء أخذت هذا الصاع فقال لهم بنيامين ، بل ينوز ارحيل الذين لا يزال لهم منكم بلاء ذهبت بأخي إلى البرية فأهلكتموه ، ان الذي وضع الصاع في رحلي هو الذي وضع الدراهم في رحالكم . ثم انهم قالوا ليوسف إن يسرق فقد سرق أخيه من قبل ، وهذا هو المثل السائر : عذره شر من جرمة .

واختلف العلماء في السرقة التي وصفوا بها يوسف : قال سعيد بن جبير وقاتدة السرقة التي وصفوا بها يوسف انه سرق صنبا لجدته أبي أمه من ذهب فكسره وألقاه في الطريق . وقال ابن جريج أمرته أمه وكانت مسلمة أن يسرق صنبا لحاله من ذهب فأخذه وكسره . وقال مجاهد جاء سائل يوما فسرق يوسف بيضة من البيت وأعطاه السائل . وقال ابن عيينة : دجاجة فناولها السائل فعيروها بها . وقال وهب كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء . وقال الضحاك وغيره : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء ان عمته بنت اسحق كانت أكبر ولد اسحق وكانت منطقة اسحق عندها ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، وكانت راحيل أم يوسف ماتت فحضنته عمته وأحبته حبا شديدا وكانت لا تصبر عنه فلما ترعرع وبلغ سنوات وقع حبه في قلب يعقوب فأثاها وقال لها يا أختاه سلمى إلى يوسف فوالله ما أصبر عنه ساعة واحدة فقالت له ما أنا بباركته فلما ألح عليها يعقوب قالت دعه عندي أياما أنظر اليه لعل ذلك يسليني عنه ففعل ذلك فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة اسحق فحزمت يوسف بها تحت ثيابه ثم انها قالت فقدت منطقة اسحق فانظروا من أخذها فالتفت فلم توجد ، فلما فتشوا أهل البيت وجدوها مع يوسف فقالت والله انه ليسم لي أصنع فيه ماشئت وكان ذلك حكم آل ابراهيم في السارق فأثاها يعقوب فأخبرته بذلك فقال ان كان هذا فهو مسلم لك لا أستطيع غير ذلك فأمسكته بعلقة المنطقة فما قدر عليها يعقوب يأخذه منها حتى ماتت فهو الذي قال إخوته . ان يسرق فقد سرق أخيه من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم ييدها لهم قال أتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون .

قال الرواة : لما دخلوا على يوسف واستخرج الصواع من رحل بنيامين دعا يوسف بالصاع فنقره ثم أدناه من أذنه ثم قال ان صاعى هذا ليخبرني انكم كنتم اثني عشر رجلا وانكم انطلقتم بأخ فبعتموه فلما سمع بنيامين ذلك قام فسجد ليوسف ، وقال أيها الملك سل صواعك هذا عن أخي احيى هو ؟ فنقره ثم قال له احيى وسوف تراه فقال بنيامين اصنع بي ماشئت فانه ان علم بي سوف يستغفرني قال فدخل يوسف

إلى منزله ثم انه بكى وتوضاً فقال بنيامين ايها الملك انى اريد ان تضرب صواعك هذا فيخبرك بالحق من الذى سرقه فجعله فى رحله فنقره ثم انه قال إن صواعى غضبان وهو يقول كيف تسألنى عن صاحبي الذى سرقنى وقد رأيت مع من كنت قال وكان بنو يعقوب اذا غضبوا لم يطاقوا فغضب رويل وقال ايها الملك والله لئن لم تتركنا وتترك أخانا لأصيحن صيحة لا يبقى فى مصر امرأة حامل إلا ألفت ما فى بطنها وقامت كل شعرة فى جسده فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب اذا غضبوا ومس أحدهم الآخر ذهب غضبه فقال يوسف لابنه قم إلى جنب رويل ومسه فقام الغلام فمسه فسكن غضبه فقال رويل ان فى هذا البيت لشيئا من ولد يعقوب فقال يوسف من يعقوب فغضب رويل وقال ايها الملك لا تذكر يعقوب فانه اسرائيل الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله قال يوسف أنت إذا ان كنت صادقا صادق فلما أراد يوسف أن يحتبس أخاه عنده ويصير بحكمه وانه أولى به منهم واحتبسه ورأوا أن لاسبيل لهم الى تخليصه منه سألوه ان يخليه لهم ويعطونه واحدا منهم بدله فقالوا يا ايها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فيخذ أحدا من مكانه إنا نراك من المحسنين قال يوسف معاذ الله أن نأخذ إلامن وجدنا متاعنا عنده ولم يقل من سرق نحرزا عن الكذب إنا إذا لظالمون ان أخذنا بريئا بسقيم فلما استياسوا منه خلصوا نجيا اى خلا بعضهم ببعض متناجين متشاورين فقال كبيرهم يعنى فى العقل وهو شمعون عن مجاهد ، وقال قتادة والسدى كبيرهم فى السن وهورويل ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله فى هذا الغلام لتردونه ومن قبل ما فرطتم فى يوسف اى من قبل هذا قصرتم فى شأن يوسف فلن أبرح الأرض يعنى أرض مصر حتى يأذن لى أبى فأرجع إلى الملك فأناجزه القتال أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ارجعوا إلى أيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا اى نحن رأينا سرقة معه وما كنا للغيب حافظين حين سألناك ان ترسله معنا ولو علمنا الغيب انه يسرق ما ذهبنا به معنا واسأل القرية يعنى واسأل أهل القرية التى كنا فيها والغير التى أقبلنا فيها يعنى قوما صحبوه من أهل كنعان وإنا لصادقون لك فى قولنا فارجعوا إلى يعقوب بذلك القول فقال يعقوب بل سؤلت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل وهو الذى لاجزع فيه عسى الله أن يأتينى بهم جميعا يعنى يوسف وبنيامين انه هو العليم الحكيم وتولى عنهم يعقوب وقال يا أسفا على يوسف - وذلك انه لما بلغه خبر بنيامين تكامل حزنه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف فأعرض عنهم - وقال يا أسفا على يوسف - والأسف أشد الحزن .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لم تعط أمة من الأمم عند المصيبة إنا لله وإنا اليه راجعون إلا أمة محمد ﷺ ، ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه على ابنه ما أصابه من الحزن لم يسترجع إنما قال يا أسفا على يوسف » .

وقال الحسن : كان بين خروج يوسف من عنده الى يوم الالتقاء معه ثمانون سنة لم تجف عيناه من الدموع وما كان على وجه الأرض أكرم على الله تعالى من يعقوب ، فلما شكوا وبكى قال له ولده - تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا - اى مريضا ذاهب العقل من الهم - أو تكون من

المالكين - فقال يعقوب لما رأى غلظتهم وجفوتهم - إنما أشكوا بني وحزنى إلى الله - لا إليكم ، وفي الحديث « أن يعقوب كبر وضعف حتى سقط حاجباه على عينيه وكان يرفعهما بنخرة فقال له بعض جيرانه قد تهشمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أخوك فما بلغ بك ما أرى فقال طول الزمان وكثرة الأحزان فأوحى الله تعالى إلى يعقوب أتشكونى إلى خلقى ؟ فقال رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى قال لقد غفرت لك فكان بعد ذلك إذا سئل قال - إنما أشكوا بني وحزنى إلى الله » .

أخبرنى الحسين بن فتحويه : أخبرنا أحمد بن الحسن بن حامد أخبرنا الحسين بن أيوب أخبرنا عبد الله بن أبي زياد أخبرنا سيار بن حاتم عن عبد الله بن السمط قال سمعت أبي يقول بلغنا أن رجلاً قال ليعقوب ما الذى أذهب بصرى ؟ قال : حزنى على يوسف قال : فما الذى قوس ظهرك ؟ قال : حزنى على أخيه فأوحى الله تعالى إليه يا يعقوب أتشكونى وعزتى وجلالى لا أكشف ما بك حتى تدعونى فقال عند ذلك - إنما أشكوا بني وحزنى إلى الله - فأوحى الله تعالى إليه وعزتى وجلالى لو كانا ميتين لأخرجتهما لك حتى تنظر اليهما وإنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام بيا بكم مسكين يستطعم فلم تطعموه منها شيئاً وإن أحب الناس إلى من خلقى الأسخياء ثم المساكين فاصنع طعاماً وادع إليه المساكين فصنع طعاماً ثم قال : من كان صائماً فليطفر الليلة عند آل يعقوب .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله تعالى إلى يعقوب أتدرى لم عاقبتك وحبت عنك يوسف ثمانين سنة ؟ قال لا يا إلهى قال لأنك شويت عناقاً وقترت على جارك وأكلت ولم تطعمه ، ويقال إن سبب ابتلاء يعقوب بفقد يوسف أنه كان له بقرة ولد لها عجل فذبح عجلها بين يديها وكانت تخور فلم يرحمها يعقوب فأخذها الله بذلك فابتلاه بفقد أعزّ ولده إليه ثم إن يعقوب قال لبنيه - يا بني اذهبوا فتحسنوا من يوسف وأخيه ولا تياسوا من روح الله - الآية . قال السدى : لما أخبره ولده بنجر العزيز وقوله وفعله أحست نفس يعقوب وطمع وقال لعله يوسف .

وروى أنه كان رأى ملك الموت فى المنام فسأله هل قبضت روح يوسف فقال لا وأنه والله حى يرزق . وروى أنه رأى ملك الموت وقد زاره فقال له السلام عليك أيها الكظيم فأقشعر جلدته وارتعدت فرائضه وردّ عليه السلام ، ثم قال له من أنت ومن أدخلك هذا البيت وقد أغلقت على نفسى بابى كيلا يدخل على أحد وأشكوا بني وحزنى إلى الله فقال له يا بني الله أنا الذى أيتّم الأولاد وأرمل الأزواج وأفرّق بين الجماعات قال : فأنت إذا ملك الموت قال نعم ، فقال له يا ملك الموت أنشدك الله إلا أخبرتنى هل قبض روح من تأكله السباع ؟ قال نعم قال : فأخبرتنى عن الأرواح أتقبضها مجموعة أو متفرقة روحاً روحاً قال : أتقبضها روحاً روحاً . قال فهل مرّت بك روح يوسف فى الأرواح قال لا قال : فجئتني زائراً أم داغياً . فقال يا نبي الله ما جئتك إلا مسلماً فإن الله تعالى لا يميّتك حتى يجمع بينك وبين يوسف ولو كان فى الصخرة التى عليها قرار الأرضين وما أذن الله لى فى زيارتك إلا لأبشرك وأجيبك عما تسألنى عنه وإن شئت أعلمتك لماذا ابتليت بفقد ولدك : قال له فأعلمنى يا عزرائيل ، فقال يا إسرائيل الله

هل تذكرت الجارية التي اشتريتها عام كذا في شهر كذا ثم فرقت بينها وبين أبيها قال نعم يا ملك الموت كأنه كان بالأمس فقال له ملك الموت فلاجل ذلك ابتليت بفقد الولد ؟ وهل تعلم لماذا ابتليت بفقد البصر قال لا قال : أمرت يوما بذبج جذعة فذبحتها وشويتها في يوم كذا في شهر كذا فمرّ تميم العابد العبد الصالح بك وهو صائم ما أفطر منذ أسبوع فاشتد قنار الشوى فلم تطعمه شيئا فعند ذلك اعتق يعقوب من كان يحضرته من العبيد والإماء وأمر أن يذبج كل يوم من أغنامه كبشان ويفرق لهما على الفقراء والمساكين فقبل الله ذلك منه وشكره عليه وأتم الفرج فعند ذلك قال يعقوب - يا بني - اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه الى قوله تعالى إلا القوم الكافرون .

قال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله يعقوب عليه السلام ماساء ظنه بالله تعالى في طول بلائه ساعة قط من ليل أو نهار ، فعند ذلك خرج إخوة يوسف راجعين الى مصر . وهذه كرة ثالثة فدخلوا على يوسف - فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز - أي الملك بلغة مصر - مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة - أي قليلة رديئة لا تنفق في ثمن الطعام إلا بتجاوز من البائع فيها . واختلف المفسرون في هذه البضاعة ما هي ، فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة زيوفا لا تنفق إلا بوضيعة ، وقال ابن أبي مليكة رضى الله عنه كانت خلقة الغرائر والحبائل رثة المتاع ، وقال عبد الله بن الحارث والحسن كانت أمتعة الأعراب الصوف والسمن والأقط ، وقال الضحاك كانت النعال والأدم والسويق المقل - فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين - قال الضحاك : لم يقولوا إن الله يجزيك إن تصدقت علينا لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن ، وقال عبد الجبار بن العلاء : سئل سفيان بن عيينة حل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال سفيان : ألم تسمع قول الله تعالى - وتصدق علينا - أراهم سفيان أن الصدقة كانت لهم حلالا وإنما حرمت على نبينا عليه الصلاة والسلام ، فقال لهم يوسف محبيا لهم عند ذلك - هل علمتم ما فعلتم يوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون - واختلف العلماء في السبب الذي حمل يوسف على هذا القول الذي كان بدء فرج يعقوب وراحته وآخر بلائه ومحتته ، فقال محمد بن اسحق ذكر لنا أنهم لما كلموه بهذا الكلام غلبته نفسه وأدركته الرقة فرفض دمه با كيا ثم باح لهم بالذي كان يكتم فقال - هل علمتم ما فعلتم - الآية ، وقال الكلبي إنما قال ذلك حين حكي لآخوته أن مالك بن دعر قال : إني وجدت غلاما في بئر من حاله كيت وكيت فابتعته من قوم بكذا وكذا درهما فقالوا له أيها الملك نحن بعنا هذا الغلام فاغتاظ يوسف من ذلك وأمر بقتلهم فذهبوا بهم ليقتلوه فولى يهوذا وهو يقول كان يعقوب يبكي ويحزن لفقد واحد منا حتى كف بصره فكيف اذا أتاه خبر قتل بنيه كلهم ، ثم إنهم قالوا له إن انت فعلت بنا ذلك فابعث بأمثعتنا الى أيينا فانه بإمكان كذا وكذا فذلك الوقت رحمهم وبكى ، وقال لهم ذلك القول ، وقال بعضهم : إنما قال ذلك حين قرأ كتاب آية اليه ، وذلك ان يعقوب لما قيل له إن ابنك سرق كتب إلى يوسف كتابا من يعقوب اسرائيل .

الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله الى عزيز مصر المظهر العدل والموفى الكيل . أما بعد فانا أهل بيت موكل بنا بالبلاء ، فأما جدى قابلى بالنمروذ فشدت يداه ورجلاه وألقى فى النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما ، وأما أبى فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ليذبح ففداه الله بذبح عظيم ، وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب اولادى الى فذهب به إخوته الى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخا بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى من بكأى عليه ثم كان لى ابن آخر وكان أخاه من أمه وكنت اتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا انه سرق وانك حبسته لذلك وانا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فان رددته على وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك ، فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك نفسه من البكاء وعيل صبره فأظهر لهم امره ، وقال بعضهم : إنما قال ذلك حين سأل أخاه بنيامين هل لك ولد ؟ قال نعم : ثلاثة بنين قال فما سميتهم قال : سميت الأكبر منهم يوسف . قال ولم قال : حبة لك ولد كرك . قال فما سميت الثانى قال ذئبا . قال ولم والذئب سبع عاقر . قال لأذكرك به قال فما سميت الثالث قال دما قال ولم قال : لأذكرك به ، فلما سمع يوسف هذه المقالة خنقته العبرة ولم يتمالك ان قال لآخوته — هل علمتم ما فعلتم يوسف وأخيه إذ اتم جاهلون قالوا له أثبتك أنت يوسف — قال ابن اسحق لما قال يوسف لآخوته هل علمتم ما فعلتم يوسف وأخيه كشف عنه الغطاء ورفع عنه الحجاب فعرفوه فقالوا — أثبتك أنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى — .

وروى جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال لهم يوسف — هل علمتم ما فعلتم — الآية ثم تبسم وكان اذا تبسم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم ، فلما أبصروا ثناياه شهوه يوسف فقالوا له مستفهمين أثبتك أنت يوسف .

وروى عطاء عن ابن عباس انه قال : إن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه وكان له فى فرقه علامة وكان ليعقوب مثلها وكان لاسحق مثلها وكان لسارة مثلها شبه الشامة ، فلما رفع التاج عن رأسه ورأوا الشامة عرفوه . وقالوا له — أثبتك أنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا — بأن جمعنا بعد ما فرقم بيننا — إنه من يتقى ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين — ثم إنهم أقرؤا بفضل يوسف عليهم وجريعتهم اليه فقالوا — تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لحاطئين — فقال يوسف وكان حلما كريما موقفا — لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين — .

قال السدى وغيره : فلما عرفهم يوسف بنفسه سألتهم عن آية فقال ما فعل أبى من بعدى قالوا ذهبت عيناى فأعطاهم قميصه .

قال الضحاك كان ذلك القميص من نسيج الجنة وكان فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا على مستقيم الا أصبح وعوفي فأعطاهم يوسف ذلك القميص وهو الذى كان لإبراهيم وقد مضت قصته ، فقال

لهم - اذهبوا بقميصي هذا فالتقوه على وجه أبي يأت بصيرا وآتوني بأهلكم أجمعين فلما فصلت العير - من مصر متوجهين إلى كنعان قال أبوهم يعقوب - اني لأجد ريح يوسف لولا ان تفندون - أي تسفهون .

ويروى أن ريح الصبا استأذنت ربها أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل ان يأتيه البشير بالقميص فأذن لها فأنته بها . قال ابن عباس : وجد يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثمان ليال ، وقال مجاهد وذلك أنه هبت ريح فصفت القميص فاحتملت الصبا ريح القميص إلى يعقوب فوجد ريح الجنة فعلم انه ليس في الأرض من رياح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص فمن ثم قال - إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون - فقال له بنو بنيه - تالله إنك لفي ضلالك القديم - فلما أن جاء البشير - وهو يهوذا بن يعقوب . قال ابن مسعود : جاءه البشير من بين يدي العير ، وقال السدي . قال يهوذا ليوسف : أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم إلى يعقوب فأخبرته ان يوسف أكله الذئب فأعطني اليوم قميصك لأخبره أنك حي فأفرحه كما أحزته .

قال ابن عباس حمله يهوذا وخرج ماشيا حاسرا حاقيا وجعل يعدو حتى أتى أباه وكان معه سبعة أرغفة فلم يستوف أكلها حتى بلغ كنعان وكانت المسافة ثمانين فرسخا . فلما أتاه بالقميص ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال الضحاك رجع إليه بصره بعد العمى وقوته بعد الضعف وشبابه بعد الهرم وسروره بعد الحزن .

عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال : كان يعقوب عليه السلام أكرم أهل الأرض على ملك الموت وان ملك الموت استأذن ربه في ان يأتي يعقوب فأذن له فجاءه ، فقال له يعقوب يا ملك الموت أسألك بالذي خلقتك هل قبضت نفس يوسف فيمن قبضت من النفوس فقال لا ، ثم قال له ملك الموت يا يعقوب ألا أعلمك كلمات قال بلى قال قل إذا المعروف الذي لا ينقطع أبدا ولا يحصى أحد غيرك قال فدعا بها يعقوب في تلك الليلة فلم يطلع الفجر حتى طرح القميص على وجهه فارتد بصيرا فقال لهم عند ذلك - ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربي - الآية .

قال أكثر المفسرين آخر ذلك إلى السحر من ليلة الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء وذلك ان الدعاء في الأسحار لا يحجب عن الله تعالى ؛ فلما انتهى يعقوب إلى الوعد قام إلى الصلاة بالسحر فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله عز وجل ، وقال : اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لولدي ماجنوا على أخيه يوسف فأوحى الله إليه آتى قد غفرت لك ولهم اجمعين ، وقال وهب : كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة .

اخبرنا الحسين بن محمد بن فتحويه اخبرنا عبد الله بن محمد بن شيبة اخبرنا احمد بن أبي السفر بن ثوبان البصري اخبرنا اسحق بن زياد الأرمني اخبرنا الفضل بن حميد البغدادي اخبرنا اسحق بن

زياد وابن ضمرة عن رجاء بن أبي سلمة عن عطاء الخراساني قال : طلب الحوائج إلى الشباب أيسر منها إلى الشيوخ ، ألا ترى قول يوسف لإخوته لا تثريب عليكم اليوم ، وقول يعقوب سوف أستغفر لكم ربي .

وروى أن يعقوب قال للبشير لما أخبره بحياة يوسف كيف يوسف ؟ قال له انه ملك مصر فقال يعقوب ما أصنع بالملك على أي دين تركته . قال على دين الاسلام ، فقال يعقوب الآن تمت النعمة .

وقال الثوري : لما التقى يعقوب و يوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكى فقال يوسف بابت بكيت علي حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ؟ قال بلى يا بني ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك يوم القيامة ، قالوا : وكان يوسف قد بعث مع البشير جهازا ومائتي راحلة وسأله ان يأتيه بأهله ووالده أجمعين فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر فلما دنا يعقوب من مصر كلم يوسف الملك الأكبر الذي فوقه فخرج مع يوسف في أربعة آلاف من الجند وركب أهل مصر معهما يتلقون يعقوب ، وكان يعقوب يمشي متوكئا على يهودا فنظر يعقوب إلى الجنود والناس فقال يا يهودا هذا فرعون مصر الأكبر فقال لا هذا ابنك فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يدهو بالسلام فمنعه الله من ذلك وكان يعقوب أفضل واحق بذلك منه فابتدأ يعقوب بالسلام ؛ فقال السلام عليك يا مذهب الأحزان فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ورفعهما على العرش وابواه يعقوب وخالته ليا فسمى الحالة أما كما سمي العم أبافي قوله تعالى - قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحق - وقال الحسن نشر الله راحيل أم يوسف من قبرها حتى سجدت له تحقيقا للرؤيا فذلك قوله تعالى - وخرؤا له سجدا - وكانت تحية الناس يومئذ السجود ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض فلما رأى يوسف أبويه وإخوته قد خروا له سجدا اقشعر عند ذلك جلده ؛ وقال يا أبت هذا تأويل رؤيائي من قبل قد جعلها ربي حقا الآية .

قال وهب دخل يعقوب وولده مصر وهم اثنان وسبعون انسانا ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا سوى الذرية والهرمي والزمني وكانت الذرية ألف ألف سوى المقاتلة . وقال الفضيل بن عياض : بلغنا أن يعقوب عليه السلام لما دخل مصر ورأى يوسف ومملكته فكان يطوف يوما من الأيام في خزائنه فرأى خزانة مملوءة قراطيس بيضاء ، فقال له يا بني لقد تغيرت بعدى لك كل هذه القراطيس وما حملت بطاقة منها تكتب الى كتابا ، فقال يوسف هذه القراطيس كلها لك كنت كلما زاد شوقي وكثر حنيني آخذ ورقة حتى أكتب اليك يا أبت فيمنعني جبريل ان أكتب اليك فأتركها في هذه الخزانة حتى بلغت هذا المبلغ فسأل يعقوب جبريل عن ذلك فقال منعني ربي فسأل الله عن ذلك فأوحى الله اليه لأنك قلت أخاف ان يأكله الذئب فهلا خفتني هذه العقوبة لأجل تخوفك من غيري .

وروى صالح المري عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : إن الله تعالى لما جمع ليعقوب عمله خلا ولده نجيا ، فقال بعضهم لبعض أليس قد علمتم ما فعلتم بالشيخ يعقوب ويوسف قالوا بلى قالوا فان عفوا عنكم فكيف لكم بربكم فاستقام أمرهم على أن يأتوا الشيخ فأتوه وجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنب أبيه قاعدا فقالوا يا أبانا أتيناك على أمر لم نأتك بمثله قط ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله قط والأنبياء أرحم البرية ، فقال ما بكم يا بني ؟ فقالوا ألسنت تعلم ما كان منا إليك وإلى أخينا يوسف . قال بلى قد علمت قالوا فليستما قد عفوتما عنا قالا بلى قالوا فان عفوا كما لا يغنى عنا شيئا إذا كان الله تعالى لم يعف عنا قال : فما تريدون يا بني قالوا نريد أن تدعوا الله لنا فإذا جاءك الوحي من عند الله بسلامه أهل عفا الله عنا فإن أجابك بأنه قد عفا عنا جميعا قرأ أعيننا وأطمأنت قلوبنا وإلا فلا قرب لنا عين في الدنيا أبدا فقام الشيخ واستقبل القبلة وقام يوسف خلفه وقاموا كلهم خلفهما أذلة خاشعين فدعا يعقوب وأمن يوسف عليهما السلام فلم يجب فيهم قريبا من عشرين سنة . قال صالح المري : ثم نزل جبريل عليه السلام على يعقوب ، فقال ان الله تعالى بعثني إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك وأنه قد عفا عما صنعوا وأنهم قد انعقدت موثيقهم بعدك على النبوة قالوا : فأقام يعقوب بمصر بعد موافاته بأهله وولده أربعة وعشرين سنة بأغبط حال وأهنا عيش وأتم راحة وأدوم سلامة ؟ ثم حضرته الوفاة فلما اختضر جمع بين بنيه ، وقال ما تعبدون من بعدى قالوا ؟ نعبد الهك واله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحق ، ثم قال يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، ثم إنه أوصى إلى يوسف ان يحمل جسده إلى الأرض المقدسة حتى يدفنه عند أبيه اسحق وجده إبراهيم ففعل ذلك ونقله إلى بيت المقدس في تابوت من ساج وخرج معه يوسف في عسكره وأخوته وعظاء أهل مصر ووافق ذلك يوم وفاة عيص فدفنا في يوم واحد وكان عمرهما جميعا مائة وسبعا وأربعين سنة لأنهما ولدا في بطن واحد وقبرا في قبر واحد . قال فلما جمع الله ليوسف شمله وافر له عينه وأتم له تفسير رؤياه ، وكان موسعا عليه في ملك الدنيا ونعيمها وتعلم ان ذلك لا يدوم له وأنه لا بد من فراقه فأراد نعيم الجنة اذ هو أفضل منه فتأقت نفسه إلى الجنة فتمنى الموت ودعا به ولم يتمن نبى قبله ولا بعده الموت فقال - رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث بآية :

وروى ان يوسف لما حضرته الوفاة جمع إليه قومه من بني اسرائيل وهم ثمانون رجلا وأعلمهم بحضور أجله وتزول أمر الله تعالى به ، فقالوا يا بني الله نحب ان تعرفنا كيف تتصرف الأحوال بنا بعد خروجك من بين أظهرنا وإلى ما يؤول إليه امرنا وديننا وملتنا ، فقال لهم ان امركم يستقيم على ما أنتم عليه وتستقيمون على دينكم إلى ان يبعث رجل جازعات من القبط يدعى الزبوية فيقهركم ويذبح أبناءكم ويستحي نساءكم ويسومكم سنوء العذاب فتعد أيامه مدة مديدة ، ثم يخرج من بني اسرائيل من ولد لاوى بن يعقوب رجل اسمه موسى ابن عمران رجل طوال جعد الشعر آدم اللون فينجيكم الله من أيدي القبط على يده

قال فجعل كل من بنى اسرائيل يسمى ابنه عمران ويسمى عمران ابنه موسى . قال وكان ليوسف ديك وكان عمره خمسمائة سنة فقال لهم يوسف إنه يستقيم أمركم مادام يصرخ فيكم هذا الديك فاذا ولد هذا الجبار يسكن فلا يصرخ مدة ولايته . حتى اذا انقضت مدة ولايته وأذن الله تعالى بولد هذا النبي فيصرخ هذا الديك ويعود إلى صراخه ويكون ذلك علامة انقضاء ملك الجبار وظهور نبي الله في الأرض فما زالوا يراعون الحال إلى أن سكن صراخ الديك فوجموا له واكتأبوا وأيقنوا بوهي أركان دينهم وإضلال ما آذتهم به يوسف من مولد الجبار واعتزلوا لذلك واجتمعوا إلى أن يصرخ ذلك الديك فاستبشروا وتصدقوا وفرحوا واستيقنوا بالفرج والراحة ثم مات يوسف عليه السلام ، وكان قد أوصى إلى أخيه يهوذا واستخلفه على بني اسرائيل فتوفاه الله طيبا طاهرا ودفن في النيل في صندوق من رخام وذلك انه لما مات تشاح الناس عليه كل يحسب أن يدفن في محلهم لما يرجون من بركته حتى هموا بالقتال فرأوا أن يدفن في النيل حيث تفرق المياه بهصر فيهر الماء عليه ثم يصل إلى جميع مصر فيكونون كلهم فيه شرعا واحدا ففعلوا ذلك ، وكان قبره في النيل إلى أن جمعه موسى عليه السلام معه حين خرج من مصر ببني اسرائيل فنقله إلى الشام ودفنه بأرض كنعان خارج الحصن حيث هو اليوم فلذلك تنقل اليهود موتاهم إلى الشام من فعل ذلك فيهم .

وروى يونس بن عمران عن أبي موسى قال « نزل رسول الله ﷺ بأعرابي فأكرمه فقال رسول الله ﷺ أكرمتنا فأحسنست سل حاجتك . فقال ناقة نرحلها وعزة تحلبها أهلي فقال رسول الله ﷺ أعجز هذا أن يكون مثل عجوز بني اسرائيل فقالوا يا رسول الله وما عجوز بني اسرائيل فقال ان بني اسرائيل لما خرجوا ضلوا الطريق وأظلم عليهم الليل فقالوا ما هذا فقال علماءهم إن يوسف لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقا من الله أن لا نخرج من مصر حتى تنقل عظامه معنا قال موسى فمن يعلم موضع قبره قالوا عجوز لبني اسرائيل فبعث اليها موسى فأتته فقال دليني على قبر يوسف فقالت له وتعطيني حكمتي قال وما حكمتك قالت إن أكون معك في الجنة فكبره إن يعطيني حكمها فأوحى الله اليه أن أعطيها حكمها ففعل » .

ويروى من طريق آخر ان هذه العجوز كانت متعبة عمياء فقالت لموسى ألا أخبرك بموضع قبر يوسف قال نعم ، فقالت له لا أخبرك حتى تعطيني أربع خصال تطلق رجلي وتعيدني إلى بصرى وشبابي وتجعلني معك في الجنة قال فكبر ذلك على موسى فأوحى الله تعالى اليه أن أعطيها ما سألت فانك انما تعطى على فعل فانطلقت بهم إلى موضع عين في مستنقع ماء فاستخرجوه من شاطئ النيل في صندوق من مرمر فلما حملوا تابوته طلع القمر وأضاء الطريق مثل النهار فاهتدوا به وحملوه .

وقال أهل التاريخ : عاش يوسف بعد موت يعقوب عليه السلام ثلاثا وعشرين سنة ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة صلوات الله عليه وعلى جميع الأنبياء والرسلين والحمد لله رب العالمين .

مجلس في قصة موسى بن ميثا بن يوسف عليه السلام

وهو موسى الأول وقد ذكرنا فيما مضى أن يوسف عليه السلام ولد له ابنان أحدهما يقال له افرائيم والآخر ميثا وابنة يقال لها رحمة وهي امرأة النبي أيوب عليه السلام فولد لأفرائيم نون وولد لنون يوشع وهوفقي موسى بن عمران وخليفته علي بن إسرائيل ، وأما ميثا فولد له موسى فنبأه الله تعالى فزعم أهل التوراة أنه صاحب الخضر والعامة من العلماء أن صاحب الخضر موسى بن عمران ، وكذلك روى عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ .

قال أهل العلم بالتاريخ : لما مات يعقوب ويوسف عليهما السلام وآل الأمر إلى الأسباط كثروا ونموا وظهر فيهم ملوك فغيروا سيرتهم وأفسدوا في الأرض وفشا فيهم السحر والكهانة فبعث الله تعالى إليهم موسى بن ميثا رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وأداء أمره وإقامة سنته وذلك قبل مولد موسى بن عمران بمائتي سنة فأطاعه قوم منهم وعصاه آخرون .

وقال وهب بن منبه وغيره : كان مما أوحى الله إليه أن قل لقومك إني برىء ممن سحر أوسحر له أوتكهن أوتكهن له أوتطير أوتطير له من آمن بي صادقا وتوكل علي فاني كنت له كافيا ومثيبا وكفيته هم دينه وديناه وكنت له خير معين وهاد وكنت عند ظنه بي ومن عدل عني ووثق بغيري فأنا أغنى الشركاء عن الشرك أكله إلى من وثق به دوني ، ومن وكلته إلى غيري فليستعد للفتنة والعذاب ، ومن تباعد عني كنت عنه أشد تباعدا ومن تقرب إلي كنت إليه أشد تقربا منه إلى وقل لعبادي لا تغفلوا عن ذكرى وليكثروا ذكر الموت عند كل شهوة فانه يميم الشهوات واللذات كلها قالوا فلبث فيهم ما شاء الله أن يلبث يقيم أمرهم ويصلح أحوالهم ثم مات صلى الله عليه وسلم وعلي جميع الأنبياء والمرسلين والله تعالى أعلم .

مجلس في ذكر بقية عاد وقصة شديد وشداد وصفة إرم ذات العماد

قال الله تعالى - ألم تركيف لعل ربك بعاد إرم ذات العماد - الآية .

روى سفيان عن منصور عن أبي وائل قال : إن رجلا يقال له عبدالله بن قلابة خرج في طلب إبل له قد ضلت : أي شردت ، فبينما هو في بعض صحارى عدن في تلك الغلوات إذ وقع على مدينة عليها حصن حول ذلك الحصن قصور عظيمة وأعلام طوال ، فلما دنا منها ظن أن فيها من يسأله عن إبله فلم يرفها أحدا لا داخلا ولا خارجا فنزل عن ناقته وعقلها وسل سيفه ودخل من باب الحصن فإذا هو بباين عظيمين لم ير في الدنيا أعظم منهما ولا أطول وإذا خشبهما من أطيب عود وعليهما نجوم من ياقوت أصفر وياقوت أحمر ضوءها قد ملأ المكان ، فلما رأى ذلك أعجبه ففتح أحد البابين فإذا هو بمدينة لم ير الرءون مثلها قط وإذا هو بقصور معلقة تحتها أعمدة من زبرجد وياقوت وفوق كل قصر منها غرف

مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد على كل باب من أبواب تلك القصور مصراع مثل مصراع باب تلك المدينة من عود رطب قد نضدت عليه اليواقيت وقد فرشت تلك القصور باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران ، فلما رأى ذلك ولم ير هناك أحدا أخذه الفزع ثم انه نظر إلى الأزقة فاذا في كل زقاق منها أشجار قد أثمرت وتحتها أنهار تجري في قنوات من فضة أشد بياضا من الثلج فقال هذه الجنة التي وصفها الله لعباده في الدنيا والحمد لله الذي أدخلني الجنة ، ثم انه حمل من لؤلؤها وبنادق المسك والزعفران ولم يستطع أن يقطع من زبرجدها شيئا ولا من يواقيتها لأنها كانت مثبتة في أبوابها وجدرانها وكان اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران ماثورة بمنزلة الرمل في تلك القصور والغرف فأخذ منها ما أراد وخرج حتى أتى ناقته فركبها ثم إنه سار يقفو أثر ناقته حتى رجع إلى اليمن فأظهر ما كان معه وأعلم الناس بأمره وباع بعض ذلك اللؤلؤ وكان قد اصفر وتغير لونه من طول الزمان الذي مر عليه ففشا خبره حتى بلغ معاوية ابن أبي سفيان فأرسل رسولا إلى صاحب صنعاء وكتب إليه باشخاصه فأشخص حتى قدم على معاوية فخلابه ثم سأله عما عاين قمص عليه أمر المدينة وما رأى فيها فاستعظم ذلك معاوية وأنكر ما حدث به وقال له ما أظن ما تقول له حقا ، فقال له يا أمير المؤمنين إن معي من متاعها الذي هو مفروش في قصورها وغرفها ، فقال له وما هو ؟ قال اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران ، فقال له أرني إياه فعرض عليه مما حمله من تلك المدينة من اللؤلؤ وبنادق المسك فشم البنادق فلم يجد لها ريحا فأمر ببنفقة منها فدبت فسطح ريحها مسكا وزعفرانا فصدقه عند ذلك ثم قال معاوية كيف أصنع حتى أعرف اسم هذه المدينة ولين هي ومن بناها والله ما أعطى أحد مثل ما أعطى سليمان بن داود عليه السلام وما أظن انه كان له مثل هذه المدينة فقال له بعض جلسائه ما كان لسليمان مدينة مثل هذه وما يوجد خبر هذه المدينة في زماننا هذا إلا عند كعب الأحبار فان رأى أمير المؤمنين أن يبعث إليه ويأمر باشخاصه ويغيب عنه هذا الرجل في موضع هنا بحيث يسمع كلامه وحديثه ووصفه للمدينة حتى يتبين أمر هذه المدينة على مثال هذه الصفة فان كعبا سيخبر أمير المؤمنين بخبرها وأمر هذا الرجل إن كان دخلها لأن مثل هذه المدينة على مثل هذه الصفة لا يستطيع هذا الرجل دخولها إلا ان يكون قد سبق له في الكتاب دخولها فيعرف ذلك فأرسل معاوية إلى كعب الأحبار فلما حضر قال له يا أبا اسحق اني دعوتك لأمر رجوت أن يكون بعلمك عندك ، فقال له يا أمير المؤمنين على الخير سقطت سل عما بدالك فقال له اخبرنا يا أبا اسحق هل بلغك ان في الدنيا مدينة مبنية بالذهب والفضة وعمدها من زبرجد وياقوت وحصى قصورها وغرفها اللؤلؤ وأنهارها في الأزقة تجري تحت الأشجار فقال كعب والذي نفس كعب يده لقد ظننت اني سأسأل قبل أن يسألني أحد عن تلك المدينة وما فيها ولكن أخبرك بها يا أمير المؤمنين ولين هي ومن بناها ، أما تلك المدينة فهي حق على ما بلغ أمير المؤمنين وعلى ما وصفت له وأما التي بناها فشداد بن عاد وأما المدينة فهي إرم ذات العباد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، فقال له معاوية يا أبا اسحق حدثنا بحديثها يرحمك الله فقال كعب : يا أمير المؤمنين إن عادا كان له ابنان مسمى أحدهما شديدا والآخر شدادا فهلك عاد وبقي ولداه بعده فملكا وتجبرا وقهرا

كل البلاد وأخذها عنوة وقهر حتى دان لهما جميع الناس ولم يبق أحد في زمانهما إلا دخل في طاعتها
 لا في شرق الأرض ولا في غربها ، وانهما لما صفا لهما ذلك وقرّ قرارها مات شديد بن عاد وبقي شداد
 فملك وحده ولم ينازعه أحد وكانت له الدنيا كلها وكان مولعا بقراءة الكتب القديمة وكان كلما مر فيها
 على ذكر الجنة دعت نفسه أن يجعل تلك الصفة لنفسه في الدنيا عتوا على الله تعالى وكفرا فلما قر ذلك في
 نفسه أمر بصنعة تلك المدينة التي هي إرم ذات العماد وأمر على صنعها مائة قهرمان مع كل قهرمان ألف
 من الأعوان ثم قال لهم انطلقوا إلى أطيب بقعة في الأرض وأوسعها واعملوا فيها مدينة من ذهب وفضة
 وياقوت وزبرجد ولؤلؤ وتحت تلك المدينة أعمدة من زبرجد وياقوت وعلى المدينة قصور ومن فوق
 القصور غرف واغرسوا تحت القصور غرائس فيها أصناف الثمار كلها وأجروا فيها الأنهار تحت الأشجار
 فاني أرى في الكتب صفة الجنة وإنني أحب أن آخذ مثلها في الدنيا وأتعجل سكنها فقالت له قهارمة
 كيف لنا بالقدرة على ما وصفت لنا من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة فبنى منها مدينة كما
 وصفت لنا ؟ فقال لهم شداد أستم تعلمون ان ملك الدنيا كلها يدي قالوا بلى قال فانطلقوا إلى كل موضع
 به معدن من معادن الزبرجد والياقوت والذهب والفضة ، وأتى بحر فيه لؤلؤ فوكلوا به من كل قوم
 رجلا تخرج لكم ما في كل معدن من تلك الأرض ثم انطلقوا إلى ما في أيدي الناس من ذلك فخذوه سوى
 ما يأتكم به أصحاب المعادن فان معادن الدنيا فيها كثير من ذلك وفيها مما لا تعلمون أكثر وأعظم مما
 كلتم به من صنعة هذه المدينة .

قال فخرجوا من عنده وكتب معهم إلى كل ملك في الدنيا كتابا يأمره أن يجمع لهم ما في بلاده
 من الجواهر وأن يحفر معادنها فانطلق هؤلاء القهارمة وأعطوا كل ملك من الملوك كتابا يأخذ
 ما يوجد في مملكته فبقوا على تلك الحالة عشر سنين حتى جمعوا ما يحتاجونه إلى إرم ذات العماد من
 الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة وأخذوا موضعا كما أراد ووصف لهم فقال معاوية يا أبا
 اسحق كم عدد أولئك الملوك الذين كانوا تحت يد شداد قال كانوا مائتين وستين ملكا قال فخرج عند
 ذلك القعلة والقهارمة فتفرجوا في الصحارى ليتخذوا ما يوافق غرضه فلم يجدوا ذلك إلا في أرض أبين
 من بلاد عدن فوق عوابها على صحراء عظيمة تقية من التلال والجبال واذاهم بغيون مطردة فقالوا هذه
 صفة الأرض التي أمرنا بها فأخذوا يقدر ما أمرهم به من العرض والطول ثم جعلوا لها حدودا محدودة
 ثم عمدوا إلى مواضع الأزقة التي فيها الماء فأجروا فيها القنوات لتلك الأنهار ثم وضعوا الأساس من
 صخور الجزع اليماني ومجنوا طين ذلك الأساس من دهن البان والمخلب ، فلما فرغوا من وضع
 الأساس وأجروا فيها القنوات أرسل الملوك إليهم الجواهر والذهب والفضة فمنهم من بعث بالعمد
 مضروبة ، ومنهم من بعث بالذهب والفضة مصنوعة مفروغا منها فدفعوا كل ذلك إلى أولئك القهارمة
 والوزراء فأقاموا فيها حتى فرغوا من بنائها على ما أراد شداد ، فقال له معاوية يا أبا اسحق إني لأجسبهم
 أقاموا في بنائها زمانا من الدهر . قال نعم يا أمير المؤمنين إني لأجد في التوراة انهم أقاموا في بنائها ثمانمائة

سنة ، فقال معاوية كم كان عمر شداد صاحبها قال كان عمره سبعمائة سنة ، فقال له معاوية يا أبا اسحق لقد أخبرتنا خبرا عجيبا فحدثنا فقال يا أمير المؤمنين إنما سماها الله تعالى إرم ذات العماد من أجل العماد التي تحتها من الزبرجد والياقوت وليس في الدنيا مدينة من الزبرجد والياقوت غيرها فلذلك قال - التي لم يخلق مثلها في البلاد - .

قال كعب : إنهم لما أتوه وأخبروه بفراغهم منها . قال انطلقوا فاجعلوا عليها حصنا واجعلوا حول الحصن ألف قصر عند كل قصر ألف علم ويكون في كل قصر من تلك القصور وزير من وزرائي ويكون كل علم منها عليه ناطور فرجعوا وعملوا تلك القصور والأعلام والحصن ثم إنهم أتوه فأخبروه بالفراغ مما أمرهم به قال فأمر ألف وزير من خاصته ان يهيئوا اسبابهم ويعملوا على النقلة إلى إرم ذات العماد وأمر رجالا أن يسكنوا تلك الأعلام وان يقيموا فيها ليلهم ونهارهم وأمر لهم بالعطاء والأرزاق وأمر الملك من أراد من نسائه وخدمته ان يتجهزوا إلى إرم ذات العماد فأقاموا في جهازهم عشرين سنة ثم سار الملك بمن أراد إلى ارض ايمن وخلف من قومه أكثر مما سار به فلما استقل وسار إليها ليسكنها وبلغ منها موضعا وبقي بينه وبين دخولها مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليه وعلى كل من كان معه صيحة من السماء فأهلكهم جميعا ولم يبق أحد منهم ولم يدخل شداد ولا من كان معه إرم ذات العماد ولم يقدر احد منهم على الدخول فيها حتى الساعة فهذه صفة إرم ذات العماد وانه سيدخلها رجل من المسلمين في زمانك هذا ويرى ما فيها فيحدث بما عاين ولا يصدق فقال له معاوية يا أبا اسحق هل تصفه لنا قال نعم هو رجل أحمر اشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب إبل له في تلك الصحارى فيقع على إرم ذات العماد فيدخلها ويحمل مما فيها وكان الرجل جالسا عند معاوية فالتفت كعب فرأى الرجل فقال له هو ذاك الرجل يا أمير المؤمنين قد دخلها فأسأله عما حدثت به فقال معاوية يا أبا اسحق ان هذا من خدمي ولم يفارقني قال قد دخلها وإلا سوف يدخلها وسيدخلها أهل هذا الدين في آخر الزمان فقال معاوية يا أبا اسحق لقد فضلك الله على غيرك من العلماء ، ولقد أعطيت من علم الأولين والآخرين ما لم يعطه أحد فقال يا أمير المؤمنين والذي نفس كعب بيده ما خلق الله في الأرض شيئا إلا وقد فسر في التوراة لعبده موسى عليه السلام تفسيره ، وان هذا القرآن أشد وعيدا وكفى بالله شهيدا ووكيلا .

قال الشعبي : أخبرنا دغفل الشيباني عن رجل من حضرموت يقال له بسطام انه وقع على حفيرة شداد بن عاد في جبل من جبال حضرموت مطل على البحر قال كنت أسمع في صباي إلى أن اكتهلت بمغارة في جبل من جبالها وان الناس تهب دخولها فلم أحفل بما كنت أسمع من ذلك فبينما أنا في نادى قومى اذ أنشدوا حديث تلك المغارة وأطنبوا في ذكرها ووصفوا موضعها فقلت لقومى إني غير منته عن هذه المغارة حتى ادخلها فهل فيكم من يساعدني فقال فتى منهم حديث

السن انا أصاحبك ققلت يا ابن أخي أتجسر على ذلك قال عندي ما عند رجل من شدة الجأش وقوة القلب فهيأنا شمعة وحملنا معنا ادوات عظيمة مملوءة ماء وطعاما مقدار ما يقوم بنا وتقدر على حمله ثم مضينا نحو ذلك الجبل الذي فيه المغارة وكان مشرقا على البحر في المكان الذي يركب منه أهل حضرموت البحر فلما اتينا إلى باب تلك المغارة حزمنا علينا ثيابنا وأشعلنا الشمعة ثم ذكرنا الله تعالى ودخلناها ومعنا تلك الأدوات من الماء والطعام فاذا مغارة عظيمة عرضها عشرون ذراعا وطولها علوا نحو خمسين ذراعا فمشينا فيها وهويانا في طريق أملس مستو ثم أفضينا إلى درج عادية عرض الدرجة عشرون ذراعا في سمك عشرة أذرع فحملنا أنفسنا على نزول تلك الدرج ققلت لصاحبي هلم إلى يدك فسكنت آخذ بيده حتى ينزل فاذا نزل وقام في الدرجة تعلقت بطرف الدرجة وتشبثت حتى يتناول رجلى على منكبه فلم نزل كذلك وذلك دأبنا عامة يومنا حتى نزلناها وكانت مقدار مائة درجة فأفضينا إلى أزج عظيم محفور في الجبل في طول مائة ذراع وعرض أربعين ذراعا وسمكه في السماء قدر مائة ذراع وفي صدره سرير من ذهب منضد بصنوف الجواهر وفوقه رجل عاوى عظيم الجسم قد اخذ طول ذلك الأزج وعرضه وهو مضطجع على ظهره كهيئة النائم وعليه سبعون حلة بمقدار طوله وعرضه منسوجة تلك الحلل بقضبان الذهب والفضة واذا ذلك الأزج يضيء من ثقب عرضه ذراعان وارتفاعه ثلاثة أذرع خارجا إلى فضاء لم يدر ما هو وإذا على رأس السرير لوح من ذهب عظيم فيه كتابة ما لها مثل وهي كتابة كاتب عاد كتبها في زمانه محفورة تلك الكتابة في اللوح حفرا فطلعنا ودنونا من ذلك الرجل ومسنا تلك الحلل فصارت رميا وبقيت قضبان الذهب قائمة فجمعناها فكانت مقدار مائة رطل فجعلناها في أزرننا وأرديتنا ، وأردنا قلع شيء من الجواهر المنضد بها السرير فلم تقدر عليها لوثاقها فتركناها وهجم علينا الليل ونجن في ذلك الأزج وعرفنا ذهاب النهار بذهاب ذلك الضوء الذي كان يدخل من ذلك الثقب فبتنا ليلتنا في ذلك الأزج وطفئت الشمعة التي كانت معنا فلما أصبحنا قلت لصاحبي ما ترى قال أما الرجوع من حيث جئنا فلا سبيل إليه لارتفاع هذه الدرج وإنا لا نستطيع صعودها لاسيما والشمعة قد طفت ولكن هلم بنا نلزم هذا الضوء الذي نراه في هذا الثقب فإني أرجو أن نخرج منه إلى الفضاء أن شاء الله تعالى ققلت له لعمرى ان هذا هو الرأي فهضنا بما معنا من تلك القضبان التي من الذهب وحملنا معنا ذلك اللوح الذي كان عند رأس السرير وسرنا من ذلك الثقب فلم نزل نمشي في طريق ضيق مقدار مائة ذراع حتى خرجنا منه إلى كهف في ذلك الجبل كهيئة الحائط وقد خف بذلك الكهف البحر فجلسنا على باب ذلك الثقب ثلاثة أيام بلياليها تتمون بيقية الماء والطعام الذي كان معنا ، فلما كان اليوم الرابع نظرنا إلى مركب قد أقبل في البحر فلوحنا إليه فنظر إلينا أهله فأرسلوا لنا القارب فزلنا من باب ذلك الثقب نزولا شاقا حتى وثبنا إلى القارب فلما خرجنا من البحر اقتسمنا ذلك الذهب بيننا وصار ذلك اللوح إلى بقسطي ثم ان أنفسنا دعبتنا إلى العود إلى ذلك السرب مما يلي الثقب فركبنا قاربنا وسرنا في

البحر نحو المكان الذي خرجنا منه فحق علينا مكانه فعلنا أننا نرزق منه إلا ما أخذنا فرجعنا وإن اللوح مكث عندي حولا لا أجد أجدا يقرؤه لي حتى أتانا رجل من أهل صنعاء حميري كان يحسن قراءة تلك الكتابة فأخرجنا إليه اللوح فقرأه فآذافيه مكتوب هذه الآيات :

اعتبر في أيها الغرور بالعمر الشديد
أنا شداد بن عاد صاحب الحصن العميد
وأخو القوة والبا ساء والملك الحشيد
دان أهل الأرض طرا لي من خوف وعيد
وملكت الشرق والغر ب بسلطان شديد
وبفضل الملك والعد ة فيه والعديد
جاءنا هود وهكنا في ضلال قبل هود
فدعانا لو قبلنا كان بالأمر الرشيد
فمصيناه وناديناه ألا هل من عيد
فأتتنا صيحة تهسوى من الأفق البعيد
فتوافينا كزرع وسط يسداء حصيد

قال دغفل : سألت علماء حمير عن شداد ، وقلت إنه أصيب وقد كان دنا من إرم ذات العماد فكيف وجد في تلك المغارة ، وهي بحضرموت فقالوا إنه لما هلك هو ومن معه من الصيحة على مرحلة من تلك المدينة ملك من بعده يزيد بن شداد ، وقد كان أبوه خلفه على ملكه بحضرموت فأمر بحمل أبيه إلى حضرموت فحمل مطليا بالصبر والكافور ، ثم أمر بحفر تلك المغارة فحفرت واستودعه فيها على ذلك السرير الذي من الذهب ، والله أعلم .

مجلس في ذكر قصة أصحاب الرس

قال الله تعالى - وعادا وثمود وأصحاب الرس - اختلف العلماء من أهل التفسير وأصحاب الأقاصيص فيهم : فقال سعيد بن جبير والسكبي والخليل بن أحمد دخل كلام بعضهم في بعض وكل أخبر بطائفة من حديث أصحاب الرس أن أصحاب الرس بقية ثمود قوم صالح وهم أصحاب البئر التي ذكرها الله تعالى في كتابه في قوله تعالى - وبئر معطلة وقصر مشيد - وكانوا بقلج الحمامة نزولا على تلك البئر ، وكل ركية لم تطو بالحجارة والآجر فهي رس ، وكان لهم نبي يقال له حنظلة بن صفوان وكان بأرضهم جبل يقال له فتج مصعدا في السماء ميلا وكانت العنقاء تبيت به وهي كأعظم ما يكون من الطير وفيها من كل لون وسموها العنقاء لطول عنقها وكانت في ذلك الجبل تنقض على الطير فتأكله فجاءت ذات يوم وأعوزها الطير فانقضت على صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغرب لأنها تعرب بما تأخذه ، ثم انقضت على جارية

حين ترعرت فأخذتها فضمتها إلى جناحين لها صغيرين سوى الجناحين الكبيرين فشكوا ذلك إلى نبيهم فقال الله لهم خذوها واقطع نسلها وسلط عليها آية تذهب بها فأصابها صاعقة فاحترقت فلم يرها أثر بعد ذلك فضربت بها العرب مثلاً في أشعارها وحكمها وأمثالها ، ثم إن أصحاب الرس قتلوا نبيهم فأهلكهم الله تعالى .

وقال بعض العلماء بلغنى أنه كان رمان ، أما أحدهما فكان أهله أهل بدو وعمود وأصحاب غنم ومواش فبعث الله اليهم نبيا قتلوه ، ثم بعث اليهم رسولا آخر وعضده بولى قتلوا الرسول وجاهدوا الولي حتى أقحمهم وكانوا يقولون إلهنا في البحر وكانوا على شفيره ، وكان يخرج اليهم من البحر شيطان في كل شهر خرجة فيذبحون عنده ويتخذونه عيداً فقال لهم الولي أرايتم ان خرج إلهكم الذي تدعونه وتعبدونه إلى وأطاعني أتجيئونني إلى مادعوتكم إليه قالوا بلى فأعطوه على ذلك العهود والمواثيق فانتظر حتى خرج ذلك الشيطان على صورة حوت راكبا أربعة أحوات وله عنق مستعلية على رأسه مثل التاج ، فلما نظروا إليه خروا له سجداً فخرج الولي إليه وقال له ائتني طوعاً أو كرها باسم الله الكريم فنزل عند ذلك من على اخوته ، فقال له الولي ائتني راكبا عليهن ثلاثا يكون القوم من أمرهم على شك فأتى الحوت وأتى به الحيتان حتى أفضوا به إلى البرية يجرونه ويجرهن فلما رأوا ذلك سخرُوا وكذبوه ونقضوا العهود فبعث الله اليهم ريحا فألقهم في البحر ومواشيهم جميعا وبما كانوا يملكون من ذهب وفضة وآنية فأتى الولي الصالح إلى البحر وأخذ الذهب والفضة والأواني قسمها على أصحابه بالسوية حتى الصغير والكبير وانقطع ذلك النسل .

وأما الآخر . فانهم قوم كان لهم نهر يدعى الرس ينسبون إليه وكان فيهم أنبياء كثيرة لا يقوم فيهم نبي إلا قتلوه وذلك النهر بمنقطع أذربيجان بينها وبين أرمينية فاذا قطعت مدبرا دخلت في حد أرمينية واذا قطعتة مقبلا دخلت في حد أذربيجان ، وكان من حولهم من أهل أرمينية يعبدون الأوثان ومن قدامهم من أهل أذربيجان يعبدون النيران وهم كانوا يعبدون الجوارى العذارى فاذا تمت لأحدهن ثلاثون سنة قتلوها واستبدلوها غيرها وكان عرض نهرهم ثلاثة فراسخ وكان يرتفع في كل يوم وليلة حتى يبلغ أنصاف الجبال التي حوله وكان لا ينصب في بحر ولا بر فاذا خرج من حدهم يقف ويدور ، ثم يرجع اليهم فبعث الله تعالى اليهم ثلاثين نبيا في شهر واحد قتلوه جميعا فبعث الله تعالى اليهم نبيا وأيده بنصره وبعث معه ولدا جاهداهم في الله حق جهاده ، ثم بعث إليه ميكائيل حين نابذوه وكان في أوان وقوع الحب في الأرض وكانوا عند ذلك أحوج ما يكونون إلى الماء فحفر نهرهم في البحر وانصب ما في أسفله وأتى إلى عيونهم من فوق فسدها وبعث الله إليه خمسمائة من الملائكة أعوانا له فغرقوا ما بقي في وسط نهرهم ، ثم أمر الله جبريل فنزل فلم يدع في أرضهم عينا ولا نهرا إلا أبيضه بأذن الله تعالى وأمر ملاك الموت فانتقل إلى الواشي فأماها دفعة واحدة وأمر الرياح الأربع الجنوب والشمال والدبور والصباء فضمت ما كان لهم من متاع وألقى الله تعالى عليهم السبات ، ثم خفقت الرياح الأربع بذلك المتاع

أجمع فرمته في رءوس الجبال وبطون الأودية ، وأما ما كان من حلى وتبر وآنية فإن الله تعالى أمر الأرض فابتلغته فأصبحوا لاشاة عندهم ولا بقرة ولا مال يعودون اليه ولا ماء يشربونه ولا طعاما يأكلون فأمن بالله عند ذلك قليل منهم وهداهم الله إلى غار في جبل له طريق من خلفه فنجوا وكانوا أحدا وعشرين رجلا وأربع نسوة وصبيين وكان عدة الباقي من الرجال والنساء والذرارى ستائة ألف ماتوا عطشا وجوعا ولم يبق منهم باقية ، ثم عاد القوم إلى منازلهم فوجدوها قد صار أعلاها أسفلها فدعا القوم عند ذلك مخلصين لله أن يجيئهم بماء وزرع وماشية ويجعله قليلا لئلا يطغوا فأجابهم الله تعالى إلى ذلك لما علم من صدق نياتهم وإخلاصهم وقالوا إنه لا يبعث الله رسولا إلى من يلهم ويقاربهم إلا أعانوه وصدقوه وعضدوه فعلم الله منهم الصدق فأطلق لهم نهرهم وزادهم على ما سألوه فأقام أولئك القوم في طاعة الله ظاهرا وباطنا حتى مضوا وانقرضوا فحدث من بعدهم من نسلهم قوم أطاعوا الله في الظاهر ونافقوا في الباطن وأملى الله تعالى لهم وكان عليهم قادرا ، وكانت معاصيهم أكثر من طاعتهم وخالفوا أولياء الله فبعث الله عليهم من فارقهم وخالفهم فأسرع فيهم القتل وبقيت منهم شرذمة فسلط الله عليهم الطاعون فلم يبق منهم أحد وبقي نهرهم ومنازلهم وما فيها مائتي عام لا يسكنها أحد ، ثم أتى الله بقوم بعد ذلك فزلوها وكانوا صالحين فأقاموا فيها ستين سنة ثم أحدثوا فاحشة فجعل الرجل يدعو ابنته وأخته وزوجته فبييت معها جاره وأخاه أو صديقه يلتمس بذلك البر والصلة ثم ارتفعوا من ذلك إلى نوع آخر ترك الرجال النساء حتى شبقن واستغنى الرجال بالرجال فجاءت للنساء شيطانة في صورة امرأة ، وهى الدهان بنت إبليس ، وهى أخت الشيطان ، وكانا في بيضة واحدة فشبهت للنساء ركوب بعضهن بعضا وعلمتهن . كيف يصنعن فأصل ركوب النساء بعضهن بعضا من الدهان فسلط الله تعالى على هؤلاء القوم صاعقة في أول ليلهم وخسفا في آخره وصيحة مع الشمس فلم يبق منهم باقية وبادت منازلهم ، ولا أحسب منازلهم اليوم مسكونة .

وروى على بن الحسين زين العابدين عن أبيه عن جده على بن أبي طالب رضوان الله عليهم أن رجلا من أشراف بني تميم يقال له عمر أتاه ، فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن أصحاب الرس ، وفي أى عصر كانوا ، وأين كانت منازلهم ، ومن كان ملكهم ، وهل بعث الله إليهم رسولا أم لا وبماذا أهلكوا فأنى أجد في كتاب الله عز وجل ذكرهم ولا أجد خبرهم فقال له أمير المؤمنين على رضي الله عنه : لقد سألتني عن حديث ما سألتني عنه أحد قبلك ولا يحدثك به أحد بعدى . كان من قصتهم ، يا أخا تميم : أنهم كانوا قوما يعبدون شجرة صنوبر يقال لها شات درخت ، وكان ياقث بن نوح غرسها على شفير عين يقال لها دوسان كانت نبعت لنوح عليه السلام بعد الطوفان ، وإنما سموها أصحاب الرس لأنهم رسوا نبيهم في الأرض ، وذلك قبل سليمان بن داود عليهما السلام ، وكان لهم اثنتا عشرة قرية على شاطئ نهر يقال له الرس من بلاد المشرق ، وبهم سمى ذلك النهر ، ولم يكن يومئذ في الأرض نهر أغزر منه ولا أعذب منه ولا قرى أكثر سكنا وعمرا منها ، وكان أعظم

منازلهم اسفنديا ، وهي التي كانت ينزلها ملكهم ، وكان يسمى تركون بن عابور بن فوش بن سارب ابن النروذ بن كنعان فرعون ابراهيم عليه السلام ، وفيها العين التي يسقون منها الصنوبرة التي كانوا يعبدونها ، وقد غرسوا في كل قرية منها حبة من طلع تلك الصنوبرة فتنبت تلك الحبة وتصير شجرة عظيمة ثم حرموا ماء تلك العين والأنهار فلا يشربون منها لاهم ولا أنعامهم ، ومن فعل ذلك قتلوه ، ويقولون هي حياة آلهتنا فلا ينبغي لأحد ان ينقص من حياتها ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرس الذي عليه قراهم ، وقد جعلوا في كل شهر من السنة في كل قرية عيدا يجتمع اليه أهلها ويشربون على تلك الشجرة مظلة من الحرير فيها أصناف الصور ، ثم يأتون بشياه وبقر فيذبحونها قربانا للشجرة ويشعلون فيها النيران بالخطب الكثير ، فاذا سطح دخان تلك الذبائح وقتارها وبخارها في الهواء وحال بينهم وبين النظر للسماء خروا سجدا للشجرة يكون ويتضرعون إليها أن ترضى عنهم وكان الشيطان يحىء فيحرك أغصانها ويصيح في ساقها صياح الصبي : عبادى قد رضيت عنكم فطيخوا نفسا وقرؤا عينا فيرفعون عند ذلك رءوسهم ويشربون الخمر ويشربون المعازف فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم ، ثم ينصرفون ، حتى اذا كان عيد قريتهم العظمى اجتمع اليه صغيرهم وكبيرهم فيضربون عند شجرة الصنوبر والعين سرادقا من ديباج وعليه أنواع الصور . له اثنا عشر بابا كل باب لأهل قرية منهم فيسجدون للصنوبرة من خارج السرادق ويقربون اليها الذبائح أضعاف ما قربوا للشجرة التي في قراهم فيجىء إبليس عند ذلك فيحرك الصنوبرة تحريكا شديدا ويتكلم من جوفها كلاما جهوريا يعدم ويمنيهم بأكثر مما وعدتهم الشياطين جميعا فيرفعون رءوسهم من السجود ولهم من الفرح والسرور ما لا يفيقون ولا يتكلمون معه فيديمون الشرب والمعازف ويكونون على ذلك اثني عشر يوما وليلة بعدد أعيادهم في السنة . ثم انهم ينصرفون . فلما طال كفرهم بالله تعالى وعبادتهم غيره بعن الله اليهم نبيا من بنى اسرائيل من ولد يهوذا بن يعقوب فلبث فيهم زمانا طويلا يدعوهم الى الله تعالى ويعرفهم ربوبيته فلا يتبعونه ولا يسمعون مقالته ، فلما رأى شدة ما هم فيه من النقي والضلالة وتركهم قبول مآدعهم اليه من الرشد والصلاح حضر عند قريتهم العظمى ، وقال : يارب إن عبادك أبوا تصديقي ودعوتي اليهم وما أرادوا الا تكذيبى والكفر بك ثم غدوا يعبدون شجرة لا تنفع ولا تضر فأبى شجرهم أجمع وأرهم قدرتك وسلطانك فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كله فهاهم ذلك وخضعوا فصاروا فرقتين : فرقة قالوا سحر هذا الرجل الذي زعم أنه رسول رب السماء آلهتكم ليصرف وجوهكم عنها الى إلهه ، وفرقة قالت بل غضبت عليكم آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيها ويقع فيها ويدعوكم الى عبادة غيرها فحجبت حسنها وبهاءها وجمالها لكي تغضبوا لها فتنتصروا منه فأجمعوا أمرهم على قتله فأتخذوا مثال بيت واتخذوا أنابيب طوالا من رصاص واسعة الأفواه ، ثم انهم أرسلوها الى قرار العين واحدة فوق الأخرى مثل البرايخ ونزحوا ما فيها من الماء ثم حفروا في قعرها بئراضيقة العين عميقة فرسوا فيها نبيهم وألقوا على فيها صخرة عظيمة ، ثم أخرجوا الأنابيب

من الماء ، وقالوا : الآن نرجو ان ترضى عنا آلهتنا اذا رأت أنا قتلنا من كان يقع فيها ويصد عن عبادتها وأنا دفناه تحت كبيرها يتشفى فيه فيعود لها نورها ونضرتها كما كان فبقوا على ذلك عامة يومهم ويسمعون أنين نبيهم ، وهو يقول : سيدى ومولاي ترى ضيق مكاني وشدة كربى فارحم ضعف ركنى وقلة حيلتى وعجل قبض روحى ولا تؤخر إجابة دعوتى حتى مات عليه السلام ، فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام : انظر عبادى هؤلاء الذى غرهم حلى وأمنوا مكرى وعبدوا غيرى وقتلوا رسلى وأنا المنتقم ممن عصانى ولم يخش عقابى وانى حلفت بعزتى لأجعلنهم عبرة ونكالا للعالمين ، فبينما هم فى عيدهم إذ غشيتهم ريح عاصف حمراء فتحيروا فيها وذعروا منها وتضام بعضهم الى بعض نم إن الأرض صارت من تحتهم كحجر كبيرت تتوقد وأظلمت سحابة سوداء فألقت عليهم حجرا كالقبة يلتهب فأذاب أبدانهم كما يذوب الرصاص فى النار ، فنعوذ بالله من غضبه ودرك نعمته ، إنه هو السميع العليم . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا والله اعلم .

مجلس فى ذكر قصة نبي الله أيوب وبلائه عليه السلام

قال الله تعالى - واذا ذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه - الآية . وقال تعالى - وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين - .

قال : وهب وكعب وغيرهما من أهل الكتب كان أيوب رجلا من الروم . وكان رجلا طويلا عظيم الرأس . جعد الشعر . حسن العينين والخلق . قصير العنق . غليظ الساقين والساعدين . وكان مكتوبا على جبهته المبلى الصابر وهو أيوب بن اموص بن تارخ بن روم بن عيص بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام وكانت أمه من ولد لوط بن هاران وكان الله قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا وكان له الثنية من أرض الشام كلها سهلها وجبلها وما كان فيها وكان له من اصناف المال كله من الإبل والبقر والغنم والحيل والحمر مالا يكون لرجل افضل منه فى العدة والكثرة وكان له بها خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد و مال ويحمل آلة كل فدان أتان ولكل أتان ولد من الاثنين الى فوق الخمسة وكان الله اعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء وكان امرا تقيا رحيما بالمساكين يكفل الأيتام ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل وكان شاكرا لأنعم الله تعالى مؤديا لحقه قدامتغ من عدو الله إبليس ان يصيب منه ما أصاب من اهل النقى من الغرة والغفلة والتشاغل والسهو عن امر الله تعالى بما هو فيه من الدنيا وكان معه ثلاثة قد آمنوا به وصدقوه وعرفوا فضله رجل من أهل اليمن يقال له اليقن ورجلان من أهل بلاده يقال لأحدهما مالك وللآخر ظافر وكانوا كهولا .

قال وهب : ان لجبريل عليه السلام بين يدى الله مقاما ليس لأحد من الملائكة مثله فى القرية والفضيلة وان جبريل هو الذى يتلقى الكلام فاذا ذكر الله تعالى عبدا بخير تلقاه جبريل ثم ميكائيل ثم

من حوله من الملائكة المقربين والحافين من حول العرش فاذا شاع ذلك في الملائكة المقربين صارت الصلاة على ذلك العبد من أهل السموات فاذا صلت عليه ملائكة السموات هبط عليه بالصلاة إلى ملائكة الأرض ، وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السموات وكان يقف فيهن حيناً أراد ومن هناك وصل إلى آدم حين أخرجه من الجنة ، فلم يزل على ذلك يصعد إلى السماء حتى رفع الله تعالى عيسى عليه السلام فحجب عن أربع وكان يقعد في ثلاث ، فلما بعث الله محمداً ﷺ حجب عن الثلاث الباقية فهو وجنوده محجوب عن جميع السموات إلى يوم القيامة - إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبین - قال فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه ، فأدركه البغي والحسد وصعد سريعاً حتى صعد في السماء موقفاً كان يقفه فقال : يا إلهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ثم لم تختبره لابشدة ولا بلاء وأنا لك زعيم لأن ضربته بلاء ليكفرن بك ولينسينك ، فقال الله تعالى انطلق إليه فقد سلطتك على ماله فانقضّ عدو الله حتى بلغ الأرض ثم جمع عفاريت الشياطين وعظماءهم ، فقال لهم ماذا عندكم من القوة والمعرفة فاني قد سلطت على مال أيوب ، وزوال المال هو المصيبة الفادحة والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال ، فقال عفريت من الشياطين أعطيت من القوة ما لو شئت تحولت إعصاراً من نار فأحرقت كل شيء آتى عليه ، فقال له إبليس فأنت الابل فأحرقها ورعاتها فانطلق يؤمّ الابل وذلك حين وضعت رءوسها وثبتت في مراعيها فمات شعر الناس حتى ثارت من تحت الأرض إعصار من نار تنفخ فيه رياح السموم لا يدنو منها أحد الا احترق فلم يزل يحرقها ورعاتها حتى آتى على آخرها فلما فرغ منها تمثل إبليس على قعود منها في صفة راعيها ثم انطلق يؤمّ أيوب حتى وجده قائماً يصلي ، فقال له يا أيوب قال لييك ، فقال هل تدري ما الذي صنع ربك الذي اخترته وعبدته بابلك ورعاتها فقال أيوب انها ماله أعارنيها وهو أولى بها ان شاء تركها وان شاء أخذها وقد تحققت وطيبت النفس إني ومالي للفناء والزوال ، فقال له إبليس فان ربك أرسل إليها نارا من السماء فاحترقت كلها وبقي الناس مبهوتين وقواق عليها يتعجبون منها فمنهم من يقول ما كان أيوب يعبد شيئاً وما كان الا في غرور ، ومنهم من يقول بل هو الذي فعل ما فعل فشمت به عدوه وفجع به شيئاً لمنع وليه من حريق مواشيه ، ومنهم من يقول بل هو الذي فعل ما فعل فشمت به عدوه وفجع به صديقه ، فقال أيوب الحمد لله الذي أعطاني وحيث شاء نزع مني عريانا خرجت من بطن أمي وعريانا أعود إلى القبر وعريانا أحشر إلى ربي . ليس ينبغي لك أن تفرح حين أعارك الله وتجزع حين قبض عاريته فهو أولى بك وبما أعطاك ولو علم الله فيك أيها العبد خيراً لنقل روحك مع تلك الأرواح وصيرك شهيداً مع الشهداء ولكنه علم فيك شراً فأخرك وخلصك من البلاء كما يخلص الزوان من القمح الخالص ، فرجع إبليس إلى أصحابه خائباً ذليلاً وقال لهم ماذا عندكم من القوة إني لم أكلم قلبه ؟ فقال عفريت من عظمائهم عندي من القوة ما لو شئت صحت صوتاً لا يسمعه ذو روح إلا خرجت مهبة نفسه ، فقال له إبليس فأنت الغنم ورعاتها فانطلق يؤمّ الغنم ورعاتها حتى اذا توسطها صاح صوتاً ماتت

منه الغنم جميعا وماتت رعاتها ، ثم ان إبليس خرج متمثلا بقهرمان الرعاة حتى جاء الى أيوب وهو قائم يصلي ، فقال له مثل قوله الأول ورد عليه أيوب مثل ما قال في النبوة الأولى ، ثم ان إبليس رجع الى أصحابه فقال ماذا عندكم من القوة فاني لم أكلم قلب أيوب ؟ فقال عفريت من عظمائهم عندي من القوة ما اذاشت تحولت ريحا عاصفا تنشف كل شيء تأتي عليه حتى لا يبقى منه شيء ، فقال له إبليس فأت الفدادين والحرث فانطلق يؤمهم حتى قرب من الفدادين واستوى في الحرث وأولادهم رثوع فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف فنشفت كل شيء من ذلك حتى كأنه لم يكن ، ثم ان إبليس خرج متمثلا بقهرمان الحرث حتى جاء الى أيوب وهو قائم يصلي ، فقال له مثل قوله الأول ، فأجابه أيوب بمثل جوابه الأول فجعل إبليس يصيب ماله الأول فالأول حتى أتى على آخره .

قال : وأيوب كلما انتهى اليه بهلاك مال من ماله حمد الله وأحسن الثناء عليه ورضى بالقضاء ووطن نفسه بالصبر على البلاء حتى ما بقي له مال ، فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ولم ينل منه شيئا ولا نجاح في شيء من أفعاله شق عليه ذلك وصعد سريعا ووقف الموقف الذي كان يقفه وقال إلهي ان أيوب يرى أنك مهما متعته من نفسه وولده فأنت معطيه المال فهل أنت مسلط على ولده فانها الفتنة المضلة والمصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال ولا يقوى عليها صبرهم فقال الله تعالى له انطلق فقد سلطتك على ولده فانقض عدو الله حتى جاء بني نبي الله أيوب وهم في قصرهم فلم يزل يزلله حتى تداعى القصر من قواعده ثم جعل يناطح بجدره بعضها بعضها فرماه بالخشب والجنبدل حتى مثل بهم كل مثلة ثم رفع بهم القصر وقلبه فصاروا منكسين ، ثم ان إبليس انطلق الى أيوب متمثلا بالمعلم الذي كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الرأس والوجه يسيل دمه من دماغه فأخبره بذلك وقال له يا أيوب لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف قلب بهم القصر وكيف نكسوا على رؤوسهم تسيل دماؤهم وأدمغتهم من أنوفهم وشفاههم ، ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ويردده حتى رق أيوب لذلك وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه ، فاغتم إبليس الفرصة منه لذلك فصعد سريعا بالذي كان من جزع أيوب مسرورا ثم لم يلبث أيوب أن أبصر فاستغفر وشكر فصعد قرناؤه من الملائكة باستغفاره وتوبته فبدروا إبليس وسبقوه إلى الله والله أعلم بما كان ، فوقف إبليس خاسئا ذليلا فقال إلهي إنما هو ن على أيوب خطر المال والولد أنه يرى أنك مهما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد فهل أنت مسلط على نفسه وبدنه فاني لك زعيم لأن ابتليته في جسده لينسينك وليكفرن بك وليجحدن نعمتك ، فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على جميع جسده ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه ولا على عقله ، وكان والله أعلم به أنه لم يسلطه عليه الا رحمة ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين في كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به في الصبر ورجاء الثواب . فانقض عدو الله سريعا فوجد أيوب ساجدا قبل أن يرفع رأسه أتاه من قبل الأرض في موضع وجهه وتفتح في منخرينه

نفخة اشتعل منها جسده فذهل وخرج به من فرقه إلى قدمه ثأليل مثل أليات الغنم . ووقعت فيه حكمة لا يملكها ولا يتأسك عن حكمها فحك بأظفاره حتى سقطت كلها . ثم حكها بالمسوح الحشنة حتى قطعها ثم بالفخار والحجارة الحشنة فلم يزل يحكها حتى نزل لحمه وتقطع وتغير وأنتن . فأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته رحمة بنت افرائيم ابن يوسف بن يعقوب عليهم السلام وكانت تختلف إليه بما يصلحه وتكرمه . فلما رأى أصحابه الثلاثة ما ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه . فلما طال به البلاء انطلقوا إليه وهو في بلائه فبكتوه ولاموه وقالوا له تب إلى الله من الذنب الذي عوقبت به .

قال وكان حضر معهم فتى حديث السن وكان قد آمن به وصدقه فقال انكم تكلمتم أيها الكهول وكنتم أحق بالكلام لأسنانكم ولكنكم قد تركتم من القول أحسن من الذي قلتم ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذي وصفتم . فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكم ومن الرجل الذي عبتم واتهمتم . ألم تعلموا أن أيوب نبي الله وحبيبه وخيرته وصفوته من أهل الأرض في يومكم هذا ثم انكم لم تعلموا ولا أطلعكم الله تعالى على أنه سخط شيئا من أمره منذ آتاه ما آتاه إلى يومكم هذا ولا علمتم أنه نزع منه شيئا من الكرامة التي أكرمه الله بها ولا أن أيوب غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا فإن كان البلاء هو الذي أزرى به عندكم ووضعه في أنفسكم فقد علمتم أن الله تعالى يتلى النبيين والصدقين والشهداء والصالحين . ثم ان بلاءهم ليس دليلا على سخطه عليهم ولا هوانهم عليه ولكنه كرامة وخيرة لهم ولو كان أيوب ليس هو من الله بهذه المنزلة الا انكم آخيتموه على وجه الصحة لكان لا يحمل بالحكيم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ولكنه يرحمه ويبيكي معه ويستغفر الله له ويحزن لحزنه ويدله على رشد أمره وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فالله أيها الكهول فقد كان لكم في عظم الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ألم تعلموا أن الله عبادا أسكتهم خشيته من غير عى ولا بكهم وإنهم لهم الفصحاء النبلاء البلغاء الألباء العالمون بالله وآياته ولكنهم إذ ذكروا عظمة الله انقطع ألسنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم اعظاما لله تعالى واعزازا واجلالا ، فاذا استفاقوا استبقوا إلى الله تعالى بالأعمال الزاكية الصالحة يعدون أنفسهم مع الحاطثين الظالمين وانهم برآء يعدون أنفسهم مع المفرطين المقصرين وانهم لأكياس أقوياء وانهم لا يستكثرون الله الكثير ولا يرضون له بالقليل ولا يدلون عليه بالأعمال ، فهم مروعون مفزعون خاشعون مستكينون فقال أيوب إن الله تعالى يزرع الحكمة بالرحمة في قلب المؤمن الكبير والصغير ، فتى نبتت في القلب أظهرها الله تعالى على اللسان وليس تكون الحكمة من قبل السن والشيب ولا طول التجربة ، فاذا جعل الله العبد حكما في الصبا لم تسقط

منزله عند الحكماء وهم يرون من الله تعالى عليه نور الكرامة . ثم إن أيوب أقبل على الثلاثة وقال : أتيتموني غضابا رهبتكم قبل أن تسترهبوا وبكيتم قبل أن تضربوا كيف بكم لو قلت لكم تصدقوا عني بأموالكم لعل الله يخلصني وقربوا عني قربانا لعل الله يتقبلها ويرضى عني . وانكم قد أعجبتكم أنفسكم وظننتم أنكم قد عوفيتم باحسانكم فبهناكم بغيتم وتعززتم . ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوباً سترها الله عليكم بالعافية التي ألبسكم إياها وقد كنت فيما خلا الرجال توقرنى وأنا مسموع كلامى معروف حقى منتصف من خصمى . فأصبحت اليوم وليس لى رأى ولا كلام معكم فاتم اليوم أشد على من مصيبتى . ثم انه أعرض عنهم وأقبل على ربه مستغيثا متضرعا اليه فقال : رب لأى شىء خلقتنى ليتنى إذ كرهتنى ما خلقتنى ياليتنى كنت حيضة ألفتنى أمى أوليتنى قد عرفت الذنب الذى أذنبت والعمل الذى عملت فصرفت وجهك الكريم عني لو كنت أمتنى والحقتنى بآبائى فالموت كان أجمل لى . يا إلهى ألم أكن للغريب دارا وللمسكين قرارا ولليتيم وليا وللأرملة قبا . إلهى أنا عبد ذليل إن أحسنت فآلئى لك وإن أسأت فيبدك عقوبتى جعلتني للبلاء غرضا وللفتنة نصبا لقد وقع على بلاء لوسلطته على جمل لضعف عن حملة فكيف يحمله ضعفى . إلهى تقطعت أصابعى فأنى لا أرفع الأكلة من الطعام الا يبدى جميعا فما يبلغان فى الاغلى الجهد منى . إلهى تساقطت لهوائى ولحم رأسى فما بين اذنى من سداد بل إحداها ترى من الأخرى . وإن دماغى ليسيل من فى . إلهى تساقط شعر عيني ككأنا أحرق بالنار وجهى . وحدثتني متدليتان على خدى . وورم لسانى حتى ملأ فى فما أدخل فيه طعاما الا غصنى . وورمت شفقتى حتى غطت العليا أنفى والسفلى ذقنى وتقطعت أمعائى فى بطنى وانى لأدخل الطعام فيخرج كما دخل ما أحسه ولا ينفعنى . وذهبت قوة رجلى فكأنهما قد يبستا ولا أطيق حملهما ، وذهب المال فصرت أسأل بكفى ويطعمنى من كنت أعوله اللقمة الواحدة فيمن بها على ويعيرنى . إلهى هلك اولادى ولوبقى واحد منهم أعانى على بلائى وتفعنى . قد ملئ اهلئ وعقنى ارحامى وتكرت لى معارفى ورغب عني صديقى وقطعتنى اصحابى وجعدت حقوقى ونسيت صنائعى ، اصرخ فلا يصرخوننى واعتذر فلا يعذروننى ، دعوت غلامى فلم يجبنى وتضرعت لأمتى فلم ترحنى ، وإن قضاءك هو الذى اذلنى وادنانى واهانتى وأقامنى ، وإن سلطانك هو الذى اسقمنى وأنحل جسمى ، ولو ان ربى نزع الهية التى فى صدرى فأطلق لسانى لأتكلم بلاء فى ، ولو كان ينبغى للعبد ان يحاج عن نفسه لرجوت ان يعافينى عند ذلك بما بى ولكنه القانى وتخلى عني ، فهو يرانى ولا اراه ويسمعنى ولا اسمعه ولا نظر إلى فرحنى ولا دنائى ولا ادنائى فأتكلم ببراءتى واخاصم عن نفسى ، فلما قال ذلك ايوب واصحابه عنده اظلمت غمامة حتى ظن اصحابه انه عذاب ، ثم نودى يا أيوب إن الله تعالى يقول لك ها انا قد دنوت منك فلم ازل منك قريبا ، فقم فأدل بعذرک وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك واشدد عليك إزارك وقم مقام جبار ، فانه لا ينبغى أن يخاصمنى إلا جبار مثلى ولا ينبغى أن يخاصمنى الا من يجعل الزمام فى

قم الأسد والسخال في فم العنقاء واللحم في فم التنين ، ويكيل مكيالا من النور ويزن مثقالا من الريح ويصر صرة من الشمس ويرد أمس لقدمتك نفسك أمرا ما يبلغ بمثل قوتك ، ولو كنت إذ منتك نفسك ذلك ودعتك اليه تذكري أي مرام رامت بك أم أردت ان تكاثرني بضعفك ام اردت أن تخصمني بغيرك ام اردت أن تحاججني بخطئك ، أين كنت مني يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها هل علمت بأي مقدار قدرتها؟ أم كنت معي تمر بأطرافها ام تعلم ما بعدزواياها ام على أي شيء وضعت أكنافها ؟ أبطاعتك حمل الماء الأرض ام بحكمتك كانت الأرض على الماء غطاء ؟ أين كنت مني يوم رفعت السماء سقفا في الهواء لامعاليق تمسكها ولا تحملها دعائم من تحتها ، هل يبلغ من حكمتك ان تجري وتسير نجومها ، ام هل بأمرك يختلف ليلها ونهارها ، أين كنت مني يوم سجرت البحار وأنبعت الأنهار ، أقدرتك حبست أمواج البحار على حدودها ام قدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدتها ، أين أنت مني يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال ، هل لك ان تطيق حملها ام كنت تدري كم مثقال ما فيها أين الماء الذي أنزلته من السماء ، هل تدري كم بلدة أهلكتها وكم من قطرة أحصيتها وقسمت الأرزاق ام قدرتك تثير السحاب وتثر الماء ، هل تدري ما أصوات الرعد ام من أي شيء لمب البرق ، وهل رأيت عمق البحر ام هل تدري ما بعد الهواء ، ام هل تدري أين خزانة النهار بالليل وأين طريق النور وبأي لغة تتكلم الأشجار ، أين خزانة الريح وأين جبال البرد ، ام هل تدري من جعل العقول في أجواف الرجال ، ومن شق الأسباع والأبصار وذلت الملائكة للمسكة ، ومن قهر الجبارين بجبروته وقسم أرزاق الدواب والعباد بحكمته ، ومن قسم للأسد أرزاقها وعرف الطير معاشها وعطفها على افراخها ، ومن أعتق الوهموش من الخدمة وجعل مساكنها البرية لا تأنس بالأصوات ولا تهاب السلاطين أبحكمتك عطفت عليها أمهاتها حتى أخرجت لها طعاما من أجوافها وآثرتها بالعيش على نفوسها ام بحكمتك يبصر العقاب الصيد البعيد واضحا في أما كن الفلا ، اين انت يوم خلقت البهيموت مكانه في منقطع التراب واللوتيا يحملان الجبال والقرى والعمران أنياهما كأنها شجر الصنوبر الطوال ورءوسهما كأنها الجبال وعروق أفخاذهما كأنها عمد النحاس ، أنت ملأت جلودها لحما ام انت ملأت رءوسهما دماغا ، هل لك في خلقهما من شرك ام لك بالقوة التي غلبتهما يدان ام هل يبلغ من قوتك أن تضع يديك على رءوسهما ، ام تقعد على طريق فتجسهما او تصدها عن قوتهما ، اين انت يوم خلقت التنين ورزقه في البحر ومسكنه في السماء وعينه تتوقدان نارا ومنخراه يثوران دخانا أذناه مثل قوس السحاب يثور منهما لمب كأنه إعصار العجاج جوفه يحرق ونفسه يلتهب وزبده جمر كأمثال الصخور ، وكأن ضرب أسنانه اصوات الصواعق ، وكأن نظر عينيه لمع البرق ، تمر به الجيوش وهو متكى لا يفزع شيء ليس فيه مفصل ، زبر الحديد عنده مثل التبن والنحاس عنده مثل الخيوط ، لا يفزع من الشباب ولا ينحش وقع الصخور على جسده ويطير في الهواء كأنه عصفور فيملاك كل شيء يمر به ، هل أنت آخذة بأحبولتك وواضع اللجام في شدقه ، هل تحصى عمره ام هل تعرف

أجله أم تعرف رزقه أم هل تدري ماذا خرب من الأرض ، وماذا خرب فيما بقي من عمره ، أم هل تطيق غضبه حين يغضب أم تأمره فيطيعك تبارك الله أحسن الخالقين ، فقال أيوب عليه السلام : قصرت عن هذا الأمر الذي ورد على ليت الأرض انشقت لي فذهبت ولم أتكلم بشيء يسخط ربي حين اجتمع على البلاء ، إلهي قد جعلتني لك مثل العدو ، وقد كنت تعرفني وتعرف نصحي ، وقد علمت أن كل الذي ذكرت صنع يديك وتدير حكمتك وأعظم من هذا لو شئت علمت أن لا يعجزك شيء ولا تخفى عليك خافية ولا تغيب عنك غائبة . من هذا الذي يظن أن يسر عنك سرا وأنت تعلم ما يخطر على القلوب وقد علمت منك في بلائي هذا ما لم أكن أعلم وخفت أن يكون أمرا أكثر مما كنت أخاف إنما كنت أسمع بصوتك ، فأما الآن فهو نظر العين إنما تكلمت حين تكلمت لتعذرني ، وسكت حين سكت لترحمي كلمة زلت عن لساني فلن أعود . وقد وضعت يدي على فمي وعضضت على لساني وألصقت بالتراب خدي ودسست فيه وجهي لصغاري ، وسكت حين أسكتني خطيئتي فاغفر لي ما قلت فلن أعود لشيء تكرهه مني . فقال الله تعالى : يا أيوب تقدفك حكمتي وسبقت رحمتي غضبي إذا أخطأت فقد غفرت لك ما قلت ورحمتك ، ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلقت آية وتكون عبرة لأهل البلاء وعزاء للصابرين . فاركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فيه شفاء . وقرب عن أصحابك قربانا واستغفر لهم فانهم قد عصوني فيك . فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها فاغتسل . فأذهب الله عنه ما كان فيه من البلاء . ثم انه خرج وجلس فأقبلت امرأته فقامت تلمسه في مضجعه فلم تجده ، فقامت متكدرة كالوالهة فمرت به . فقالت يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان ههنا فقال لها : وهل تعرفينه إذا رأيته ؟ فقالت نعم وكيف لا أعرفه فتبسم وقال ها أنا هو فعرفته لما ضحك فاعتقته .

قال ابن عباس : والذي نفسي بيده ما فارقت من عناقه حتى مريهما كل ما كان لهما من المال والولد وذلك قوله تعالى - وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر - الآية .

واختلف العلماء في وقت ندائه ومدة بلائه والسبب الذي قال لأجله مسني الضر .

حدثنا الامام ابو الحسين محمد بن علي بن سهل املاء في شهر ربيع الأول سنة اربع وثمانين وثلثمائة أخبرنا ابوطالب عمر بن الريع بن سليمان الحشاش بمصر ، أخبرنا يحيى بن أيوب العلاف أخبرنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا نافع بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إن نبي الله أيوب لبث في بلائه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يخدمان اليه ويروجان ، فقال احدهما لصاحبه : والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه احد من العالمين ، فقال له صاحبه وما أدراك ؟ قال منذ ثمانى عشرة سنة له في البلاء لم يرحمه الله ويكشف ما به ، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك فقال أيوب ما أدري ما تقولان غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر بالرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع الى بيتي فأنكثي عنهما كراهة أن

يذكر الله تعالى الا في حق . قال وكان يخرج لحاجته فاذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها وذلك أن الله تعالى أوحى الى أيوب في مكانه أن - اركض برجلك - الآية فاستنبطته فذهبت لتتظر ماشأته فأقبل عليها وقد أذهب الله تعالى عنه ما أصابه من البلاء وهو أحسن مما كان . فلما رآته قالت له هل رأيت نبي الله المبتلى . فقال انى أنا هو وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض .

ويروى ان الله تعالى أمطر عليه جرادا من ذهب فجعل يحثومنه في ثوبه ، فناداه يا أيوب ألم أغنك عما ترى قال بلى يارب ولكن لا غنى لى عن فضلك ورزقك ورحمتك ومن يشبع من نعمتك . وقال الحسن : كان أيوب عليه السلام مطروحا على كناسة في مزبلة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهرا تختلف فيه الدواب . وقال وهب لم يكن بأيوب أكلة وانما كان يخرج منه مثل ثدى النساء ثم يتفقا . قال الحسن ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق ولا أحد يقربه غير رحمة امرأته صبرت معه تخدمه وتأتيه بطعام وتحمد الله معه إذا حمده وأيوب على ما به لا يفتقر عن ذكر الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه الله ، فصرخ عدو الله إبليس صرخة جمع بها جنوده من أقطار الأرض جزعا من صبر أيوب ، فلما اجتمعوا عليه قالوا له ما حاجتك ؟ قال لهم أعيانى هذا العبد سألت ربي ان يسلطنى على ماله وولده فلم أدع له مالا ولا ولدا فلم يزد ذلك إلا صبرا وثناء على الله ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقى على كناسة لا يقربه إلا امرأته وقد افتضحت من ربي فاستعنت بكم لتعينونى عليه فقالوا له أين مكرك أين علمك الذى أهلكك به من مضى قال بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا على قالوا نشير عليك بما أتيت به آدم حين أخرجه من الجنة من أين أتيت قال من قبل امرأته . قالوا فشأنك وأيوب من قبل امرأته فإنه لا يستطيع ان يعصيا وليس أحد يقربه غيرها قال اصبتم ، فانطلق حتى أتى امرأته وهى تطلب الصدقة فتمثل لها في صورة رجل فقال أين بعلك يا أمة الله ؟ فقالت هو ذاك يحك قروحه وتتردد الدواب في جسده ، فلما سمع منها طمع ان تكون كلمة جزع فوسوس لها وذكرها ما كانت فيه من النعيم والمال وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيه اليوم من الضرر وان ذلك لا ينقطع عنه ابدا . قال الحسن فصرخت فلما صرخت علم انها قد جزعت فأثاها بسخلة وقال لها ليذبح أيوب هذه لى ومسيراً ، قال فجاءت تصرخ وقالت يا أيوب الى متى يعذبك ربك ولا يرحمك اين المال اين الماشية اين الولد اين الصديق اين ثوبك الحسن قد تغير وصار مثل الرماد واين جسمك الحسن قد بلى وهو يتردد فيه الدود اذبح هذه السخلة واسترح ، فقال لها أيوب : اتاك عدو الله فنفع فيك فأجبتيه ويلك ارأيت ماتبكين عليه مما كنا فيه من المال والولد والصحة من أنعم به علينا ؟ قالت الله ، قال فكم متعنا به ؟ قالت ثمانين سنة قال فمنذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء ؟ قالت منذ سبع سنين ، قال ويلك والله ما عدلت ولا انصفت ربك ألا صبرت في هذا البلاء الذى ابتلانا به ربنا ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ، والله لئن شفىاني الله

لأجلدنك مائة جلدة كما أمرتني أن أذبح لغير الله تعالى وطعامك وشرابك الذي تأتيني به على حرام لأذوق مما تأتيني به شيئا بعد أن قلت هذا فاعزبني عنى لأراك فطردها فذهبت ، فلما رأى أيوب امرأته وقد طردها وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خروا لله ساجدا وقال رب مسني الضر ثم رد الأمر إلى ربه وسلم فقال وأنت أرحم الراحمين . فقيل له ارفع رأسك فقد استجيب لك - اركض برجلك - الآية فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل فلم يبق من دائه شيء ظاهر إلا سقط أثره وأذهب الله منه كل ألم وداء وكل سقم وعاد إليه شبابه وجماله أحسن مما كان وأفضل مما مضى ، ثم انه ضرب برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء إلا خرج ققام صحيحا وكسى حلة ، قال فجعل يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى شيئا مما كان له من أهل وولد ومال إلا وقد ضاعفه الله تعالى ، فخرج حتى جلس على مكان مشرف ثم إن امرأته قالت : أرايت إن كان قد طردني إلى من أكله أأدعه حتى يموت جوعا وعطشا ويضيع فتأكله السباع ، فوالله لأرجعن اليه فرجعت فلم تر الكناسة ولا الحال التي كانت تعهد لها وقد تغيرت الأمور . فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وأيوب ينظرها . قال وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأله فأرسل إليها أيوب فدعاها وقال لها ما تريدين يا أمة الله ؟ فبكت وقالت أريد ذلك المبتلى الذي كان منبوذا على هذه الكناسة لا أدري أضع أم ماذا فعل به . فقال أيوب عليه السلام ما كان منك فبكت وقالت بعلى فهل رأيت . فقال وهل تعرفينه اذ رأيتيه ؟ قالت وهل يخفى على ثم انها جعلت تنظر إليه وهي تهابه وقالت اما إنه كان أشبه خلق الله بك اذا كان صحيحا قال فأنا أيوب أمرتني أن أذبح لابليس فاني أطعت الله وعصيت الشيطان فرد علي ما ترين .

وقال كعب : كان أيوب في بلائه سبع سنين . وقال وهب لبث في ذلك البلاء ثلاث سنين لم يزد يوما واحدا . فلما غلب أيوب إبليس لعنه الله ولم يستطع له على شيء اعترض امرأته على هيئة ليست كهيئة بنى آدم في العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مركب الناس له عظم وبهاء وجمال . فقال لها انت صاحبة أيوب المبتلى قالت نعم . قال فهل تعرفيني قالت لا . قال انا إله الأرض وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت وذلك انه عبد إله السماء وتركني واغضبني ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليك ما كان لكما من مال وولد فانهم عندي ثم أراها ايام في بطن الوادي الذي لقيا فيه .

قال وهب : وقد سمعت انه قال لها : لو أن صاحبك اكل طعاما لم يسم عليه لعوفي مما هو فيه من البلاء والله اعلم ، واراد عدو الله ان يأتيه من قبلها ورأيت في بعض الكتب ان إبليس قال لرحمة : وإن شئت اسجد لي سجدة واحدة حتى ارد عليك الأولاد والمسال ، واعافى زوجك فرجعت الى أيوب فأخبرته بما قال لها وما اراد فقال لقد اراد عدو الله أن يفتك عن دينك ثم إن أيوب اقسم ان عافاه الله ليضربها مائة جلدة فقال عند ذلك مسني الضر من طمع إبليس في سجود حرمتي له ودعائه إياها وإيائي إلى الكفر قالوا ثم إن الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بهنبرها معه

على البلاء وخفف عنها واراد أن ير يمين ايوب فأمره ان يأخذ جماعة من الشجر مبلغ مائة قضيب خفافا لطافا فيضربها ضربة واحدة كما قال تعالى - وخديدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث - الآية وقد كانت امرأة ايوب تسكسب وتعمل للناس وتجيئه بقوته ، فلما طال عليها البلاء وسئمتها الناس فلم يستعملها أحد التمسست يوما من الأيام ما تطعمه فما وجدت شيئا فجرت قرنا من رأسها فباعته برغيف وأتته به فقال لها أين قرنك ؟ فأخبرته فقال عند ذلك مسنى الضر وقيل إنما قال ذلك حين قصدت الدود قلبه ولسانه نخشى ان يعيا عن الله كره والفكر وقيل إنما قال ذلك حين وقعت الدودة من فخذها فأخذها وردها إلى موضعها . وقال لها كلى فقد جعلنى الله طعامك فعضته عضه زاد ألمه على جميع ما قاسى من عض الديدان . وقال عبد الله بن عمر كان لأيوب اخوان فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران على الدنو منه من تنن ريحه فقال أحدهما لصاحبه لو كان الله علم فى ايوب خيرا ما ابتلاه بما ترى . قال فما سمع أيوب شيئا كان أشد عليه من تلك الكلمة وما جزع من شيء أصابه جزعه من تلك الكلمة فعند ذلك . قال مسنى الضر ثم قال اللهم ان كنت تعلم أنى لم أبت ليلة شعبان قط وانا أعلم بمكان جاثما فصدقنى فصدقه وهما يسمعان ، ثم قال اللهم ان كنت تعلم أنى لم اتخذ قميصا قط وانا أعلم بمكان عريانا فصدقنى بصدقه وهما يسمعان فخر ساجدا لله وقيل معناه مسنى الضر من شماتة الأعداء يدل عليه ما روى أنه قيل له بعد ما عوفى ما كان أشد عليك فى بلائك فقال شماتة الأعداء ، وأنشد بعضهم فى معناه .

كل المصائب قد تمر على الفقى قهون غير شماتة الحساد
إن المصائب تنقضى أيامها وشماتة الأعداء بالمرصاد

وقال الجنيد فى هذه الآية عرفه فاقة السؤال ليعن عليه بكرم النوال ، وذلك قوله تعالى - فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله - الآية .

واختلف العلماء فى كيفية ذلك ، فقال قوم لما ابتلى الله أيوب فى الدنيا مثل له أهله فأما الذين هلكوا فانهم لم يردوا عليه فى الدنيا وإنما وعد الله ايوب ان يؤتیه إياهم فى الآخرة . وقال وهب كان له سبع بنات وثلاث بنين ، وقال آخرون بل ردهم الله تعالى اليه بأعيانهم وأعطاه أهله ومثلهم معهم وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة وكعب قالوا أحياهم الله تعالى وآتاه مثلهم وهذا القول اشبه بظاهر الآية .

وذكر أن عمر أيوب كان ثلاثا وتسعين سنة وأنه أوصى عند موته الى ابنه حومل وأن الله بعث بعده بشر بن أيوب نبيا وسماه ذا الكفل وأمره بالدعاء الى توحيد الله وأنه كان مقما بالشام طول عمره حتى مات ، وكان مبلغ عمره خمسا وتسعين سنة وأن بشرا أوصى ابنه عبدان وأن الله تعالى بعث بعده شعيبا عليه السلام والله أعلم .

مجلس فى قصة ذى الكفل عليه السلام

هذا المجلس يأتى بعد فى آخر الكتاب بعد قصة اليسع وما كتب ههنا زيادة فى المجلس المذكور

روى الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبدالله بن الحارث أن نبيا من الأنبياء قال من يكفل لي أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب فقام شاب فقال انا فقال له اجلس ، ثم إنه أعاد مثل قوله الأول فقام ذلك الشاب فقال انا فقال له اجلس ، ثم إنه أعاد قوله ثالثا فقال الشاب انا فقال له تقوم الليل وتصوم النهار ولا تغضب ، قال نعم ، فمات ذلك النبي فجلس ذلك الشاب مكانه يقضى بين الناس فكان لا يغضب فجاءه الشيطان في صورة إنسان ليغضبه وهو صائم يريد أن يفطر فضرب الباب ضربا شديدا ، فقال من هذا ؟ فقال رجل له حاجة فأرسل اليه رجلا فقال لا أرضى بهذا الرجل فأرسل معه آخر فقال لا أرضى فخرج اليه فأخذ بيده وانطلق معه حتى إذا كان في السوق خلاه وذهب فسمى ذا الكفل ، وقال بعضهم ذو الكفل بشر بن أيوب الصابر بعثه الله بعد أبيه رسولا إلى أرض الروم فأمنوا به وصدقوه واتبعوه ثم إن الله تعالى أمرهم بالجهاد فكفوا عن ذلك وضعفوا وقالوا يا بشر إنا نحب الحياة ونكره المات ، ومع ذلك نكره أن نعصى الله تعالى ورسوله فلو سألت الله أن يطيل أعمارنا ولا يميتنا إلا إذا شئنا لنعبده ونجاهد أعداءه فقال لهم بشر لقد سألتوني عظيما وكلفتموني شططا ثم إنه قام وصلى ودعا وقال إلهي أمرتني بتبليغ الرسالة فبلغتها ، وأمرتني أن أجاهد أعداءك وانت تعلم أنني لأملك إلا نفسي . وإن قومي قد سألوني في ذلك ما أنت أعلم به مني فلا تؤاخذني بحريرة غيري فأنا أعوذ برضاك من سخطك وبغفوك من عقوبتك . قال فأوحى الله تعالى إليه : يا بشر إني سمعت مقالة قومك . وإنني قد أعطيتهم ما سألوني . طولت أعمارهم فلا يموتون إلا إذا شاءوا فكان كفيلا لهم مني بذلك فبلغهم بشر رسالة الله وأخبرهم بما أوحى الله إليه وتكفل لهم بذلك كما أمر الله تعالى فسمى ذا الكفل ثم إنهم توالدوا وكثروا ونموا حتى ضاقت عليهم بلادهم وتنقصت معيشتهم وتأذوا بكثرتهم فسألوا بشرا إن يدعو الله أن يردهم إلى آجالهم فأوحى الله تعالى إلى بشر أما علم قومك أن اختياري لهم خير من اختياريهم لأنفسهم ثم إنهم ردوا إلى أعمارهم فماتوا بآجالهم . قال فلذلك كثرت الروم حتى يقال إن الدنيا دارهم خمسة أسداسها للروم وسموا روما لأنهم نسبوا إلى جدتهم روم بن عيص بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام . قال وهب وكان بشر بن أيوب المسمى ذا الكفل مقبلا بالشام حتى مات وكان عمره خمسا وتسعين سنة والله أعلم .

مجلس في ذكر قصة شعيب النبي عليه السلام

قال الله تعالى - وإلى مدين أخاهم شعيبا - الآية ، اختلف العلماء في نسب شعيب . فقال أهل التوراة هو شعيب بن صيفون بن عيفا بن نابت بن مدين بن إبراهيم . وقال محمد بن إسحق هو شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم واسمه بالسريانية يترون وأمه ميكيل ابنة لوط وكان شعيب عليه السلام أعمى فذلك قوله تعالى إخبارا عن قومه - وإنا لنراك فينا ضعيفا - أي (١٠ - قصص الأنبياء)

ضريرا وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وان الله تعالى بعثه نبيا الى أهل مدين وهم أصحاب الأيكة والأيكة الشجر الملتف .

وقال قتادة بعثه الله تعالى الى أمتين أهل مدين وأصحاب الأيكة . قالوا وكان قوم شعيب أهل كفر بالله وبخس للناس وتطيف في المكاييل والموازين وكان الله قد وسع لهم في الرزق وبسط لهم في العيش استدراجا منه لهم فقال لهم شعيب - يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا للمكيال والميزان - الآية ونظيرها في الأعراف - فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم - الآية وذلك أنهم كانوا يجلسون على الطريق فيخبرون من قصد شعيبا ليؤمن به أنه كذاب فلا يفتنك عن دينك ، وكانوا يتوعدون المؤمنين بالقتل ويخوفونهم .

قال السدي وأبوروق كانوا عشارين . قال عبد الله بن زيد كانوا يقطعون الطريق . وقال النبي ﷺ « رأيت ليلة أسرى بي خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب أحد إلا شقته ولا شيء إلا حرقتة ، فقلت ما هذا يا جبريل ؟ فقال هذا مثل اقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ثم تلا - ولا تقعدوا بكل صراط توعدون - » الآية وكان من قول شعيب وجواب قومه إياه ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء .

قال المفسرون وكان مما نهام عنه شعيب وعذبوا لأجله قطع الدنانير وذلك قوله تعالى - قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك ان تترك ما يعبد آباؤنا . إلى قوله : الحليم الرشيد - أي السفية الفاوى وهو على الضد كما يقال للحبشي أبو البيضاء وكقوله تعالى - ذق انك أنت العزيز الكريم - .

قال ابن عباس رضى الله عنهما كان شعيب كثير الصلاة ، فلما كثر فسادهم وقل صلاحهم دعا عليهم فقال - ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين - فأجاب الله تعالى دعاءه فيهم فأهلكهم بالرجفة وهي الزلزلة عن الكلبي ويقال بالصيحة وبعباد الظلة .

قال ابن عباس وغيره وهي ان الله تعالى فتح عليهم بابا من أبواب جهنم فأرسل عليهم بردا وحرا شديدا فأخذوا بأنفاسهم فدخلوا في أجواف البيوت فلم ينفعهم ظل ولا ماء فأنضجهم الحر فخرجوا هربا إلى البرية فبعث الله عليهم سحابة فأظلمت ووجدوا لها بردا وجاءت ريح طيبة فنأدى بعضهم بعضا ، فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهمها الله عليهم نارا ورجفت الأرض بهم فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقل فصاروا رمادا وذلك قوله تعالى - فأصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها - وقال تعالى - فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم - .

قال ابن عباس بلغني أن رجلا من أهل مدين يقال له عمرو بن جلهم لما رأى الظلة فيها العذاب أقشعر جلده وقال .

يا قوم ان شعيبا مرسل فذرنا - عنكم شميرا وعمران بن شداد -
إني أرى غمة يا قوم قد طلعت - تدعو بصوت على حنانة الوادي -

فانه لن يرى فيها ضجاء غد إلا الرقيم يمشى بين انجناد
وشمير وعمران كاهنان لهم والرقيم كلب لهم . قال أبو عبد الله البجلي أبو جاد وحطى وهوز
وكلن وسعفص وقرشت أسماء ملوكهم وكان ملكهم يوم الظلة في زمن شعيب كلن فقالت أخت كلن
تبكيه حين هلك .

كلن هدد ركني هلكه وسط المحله
سيد القوم أتاه السحتف نارا وسط ظله
جعلت نارا عليهم دارهم كالمضمحل
قال الله تعالى - الذين كذبوا شعبيا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعبيا كانوا هم الخاسرين -
أى لهم الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة .

مجلس في ذكر صفى الله ونجيه موسى بن عمران عليه السلام وهو يشتمل على أبواب
الباب الأول في ذكر نسب موسى عليه السلام

قال الله تعالى - واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا - وهو موسى بن عمران
ابن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام . قال أهل العلم بأخبار الأولين وسير الماضين ولد
ليعقوب لاوى وقد مضى من عمره تسع وثمانون سنة ثم إن لاوى نكح ثابته بنت ماوى بن يشجب
فولدت له غرسون ومرزى ومردى وقاهث ثم إن قاهث بعد أن مضى له من عمره ست وأربعون سنة
نكح قاهى بنت ميين بن تنويل بن الياس فولدت له يصهر بن قاهث فنكح يصهر بن قاهث سميت
بنت يتادم بن بركياء بن يشعان بن إبراهيم فولدت له عمران وقد مضى له من عمره ستون سنة وكان عمر
يصهر مائة وسبعا وأربعين سنة فنكح عمران بن يصهر نجيب بنت شمويل بن بركياء بن يشعان
ابن إبراهيم فولدت له هرون وموسى واختلف في اسم أمهما فقال ابن إسحق نجيب وقيل ناجية
وقيل يوخايل وهو المشهور وكان عمر عمران مائة وسبعا وثلاثين سنة وولد له موسى عليه السلام
وقد مضى من عمره سبعون سنة والله أعلم .

الباب الثانى في ذكر مولد موسى عليه السلام

قال أهل التاريخ لمهمات الريان بن الوليد فرعون مصر الأول صاحب يوسف عليه السلام وهو
الذى ولي يوسف خزائن أرضه وأسلم على يده قلمامات ملك بعده قابوس بن مصعب صاحب يوسف
الثانى فدعاه يوسف الى الاسلام فأبى وكان جبارا وقبض الله يوسف فى ملكه و طال ملكه ثم هلك
وقام بالملك بعده اخوه ابو العباس بن الوليد بن مصعب بن الريان بن إراشة بن ثروان بن
عمرو بن فاران بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام وكان أغنى من قابوس

واكبر وأفجر وامتدت أيام ملكه وأقام بنو إسرائيل بعد وفاة يوسف عليه السلام وقد انتشروا وكثروا وهم تحت العمالة وهم على بقايا من دينهم مما كان يوسف ويعقوب واسحق وإبراهيم شرعوا فيه من الاسلام متمسكون به حتى كان فرعون موسى الذى بعثه الله اليه وقد ذكرنا اسمه ونسبه ولم يكن فيهم فرعون أعنى على الله ولا أعظم قولا ولا أقسى قلبا ولا أطول عمرا فى ملكه ولا أسوأ ملكا لبنى إسرائيل منه وكان يعذبهم ويستعبدهم وجعلهم خدما وخولا وصنفهم فى أعماله فصنف بينون وصنف محرثون وصنف يتولون الأعمال القذرة ومن لم يكن أهلا للعمل فعليه الجزية كما قال الله تعالى - يسومونكم سوء العذاب - وقد استنكح فرعون منهم امرأة يقال لها آسية بنت مزاحم رضى الله عنها من خيار النساء العدووات ويقال هى آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف الأول فأسلت على يد موسى.

قال مقاتل : لم يسلم من أهل مصر إلا ثلاثة آسية وحزقيل ومريم بنت تاموسى التى دلت موسى على قبر يوسف عليه السلام قالوا فعمر فرعون فيهم وهم تحت يده عمرا طويلا يقال إنه أربع مائة سنة يسومهم سوء العذاب فلما أراد الله أن يفرج عنهم بعث موسى عليه السلام وكان بدء ذلك على ما ذكره السدى عن رجاله ان فرعون رأى فى منامه كأن نارا قد أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقتها وأحرق القبط وترك بني إسرائيل فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين فسألهم عن رؤياه فقالوا يولد فى بني إسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ويخرجك وقومك من أرضك ويبدل دينك وقد أظلك زمانه الذى يولد فيه فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد فى بني إسرائيل فجمع القوابل من النساء من أهل مملكته وقال لمن لا يسقط على أيديكن غلام من بني إسرائيل إلا قتلته ولا جارية إلا تركتها ووكل بهن وكلاء فكن يفعلن ذلك .

قال مجاهد : لقد بلغنى أنه كان يأمر بالقصب فيشق ثم يجعل أمثال الشفار ثم يصف بعضه إلى بعض ثم يأتى بالحبالى من بني إسرائيل فيوقفهن عليه فتجرح أقدامهن حتى ان المرأة منهن لتضع ولدها فيقع بين رجلها فتظل تطؤه وتتقي به حد القصب عن رجلها لما بلغ من جهدها . وكان يقتل الغلمان الذين فى وقته ويقتل من يولد بعدهم ويعذب الحبالى حتى يضعن ما فى بطونهن وأسرع الموت فى مشيخة بني إسرائيل فدخل رءوس القبط على فرعون وقالوا له إن الموت قد وقع فى مشايخ بني إسرائيل وأنت تدب صغارهم وتميت كبارهم فيوشك أن يقع العمل علينا فأمر فرعون بذبج الولدان سنة وتركهم سنة فولد هرون فى السنة التى لا يذبج فيها أحد فترك وولد موسى فى السنة التى يذبجون فيها قال فولدت هرون أمه علانية آمنة فلما كان فى العام الذى أمر فيه بقتل الولدان حملت بموسى فلما أرادت وضعه حزنت من شأنه واشتد غمها فأوحى الله تعالى إليها - أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم

إلى قوله : المرسلين - فلما وضعته في خفية أرضعته ، ثم إنها اتخذت له تابوتا وجعلت مفتاح التابوت من داخل وجعلته فيه .

قال مقاتل : وكان الذي صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون ، وقيل إنه كان من بردى فاتخذت أم موسى التابوت وجعلت فيه قطنا محلوجا ووضعت فيه موسى وصرت رأسه ثم ألقت في النيل فلما فعلت ذلك وتواري عنها أتاها الشيطان فوسوس اليها فقالت في نفسها ماذا صنعت بابني لو ذبح عندي لواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه يدي في البحر وأدخله إلى دواب البحر ثم عصمها الله تعالى وانطلق الماء بموسى يرفعه الموج مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين الأشجار عند دار فرعون إلى روضة هي مستقى جوارى فرعون وكان بالقرب منها نهر كبير في دار فرعون داخل في بستانه فخرجت جوارى فرعون يغتسلن ويستقن فوجدن التابوت فأخذنه وظنن أن فيه مالا فحملنه على حالته حتى أدخلنه إلى آسية فلما فتحت رأت فيه العلام فألقى الله تعالى عليها محبة منه فرحمته آسية وأحبته حباً شديداً فلما سمع الله باحون بأمره أقبلوا على آسية بشفارهم ليدبحوا الصبي فقالت آسية للذباحين انصرفوا فإن هذا لا يزيد في بني إسرائيل فأنا آتى فرعون وأستوهبه إياه فإن وهبه لي كنتم قد أحسستم وإن أمركم بذبحه فلا ألوكم ، ثم إنها أتت به فرعون وقالت قرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا فقال فرعون قرّة عين لك أما أنا فلا حاجة لي فيه قال رسول الله ﷺ والذي يحلف به لو أقرّ فرعون أن يكون له قرّة عين كما أقرت لهداه الله تعالى به كما هدى به امرأته ولكن الله تعالى حرمه ذلك قال فأراد أن يذبحه وقال إني أخاف أن يكون هذا من بني إسرائيل وإن يكون هذا الذي هلاكنا على يده وزوال ملكنا فلم تزل آسية تسكمه حتى وهبه لها فلما آمنت آسية أرادت أن تسميه باسم اقتضاه حاله فسمته موسى لأنه وجد بين الماء والشجر ، وهو بلغة القبط : موالء وشى الشجر فعرب فقيل موسى .

أخبرنا ابن فتحويه أخبرنا محمد بن جعفر أخبرنا الحسن بن علوية أخبرنا إسماعيل بن عيسى أخبرنا ابن بشير أخبرني جوير ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : إن بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصي ووافق خيارهم أشرارهم ولم يأمرؤا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر فسلط الله عليهم القبط فاستضعفهم وساموهم سوء العذاب فذبحوا أبناءهم . قال وقال أبو الياس : قال وهب بلغني أنه ذبح في طلب موسى سبعون ألف ولد .

قال اسحق عن ابن عباس : إن أم موسى لما قربت ولادتها وكانت قابلة من القوايل التي وكلهن فرعون بحبالى بني إسرائيل مصافية لأم موسى فلما ضربها الطلق أرسلت اليها أم موسى فقالت نزل بي ما نزل فلينفعنك حبك إياي فقالت لها نعم فعالجت قبلها فلما وقع موسى على الأرض أضاء لها نور بين عيني موسى فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى في قلبها . ثم قالت لها يا هذه ماجئت إليك حين دعوتيني إلا في رأى قتل ولدك وإخبار فرعون بذلك ولكن وجدت لابنك هذا حباً ما وجدت حب شيء مثله فاحتفظي لابنك فإني أراه هو عدونا . فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاء إلى

بابها ليدخل على موسى . فقالت أخته يأماه : هذا الحرس بالباب فطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع به خوفا على موسى فلفت موسى في خرقة والفته في التور وهو مسجور . وكان ذلك إلهاماً من الله تعالى لها لما أراد الله بعبد موسى فدخلوا فاذا التور مسجور وأم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن . فقالوا لها ما أدخل عليك هذه القابلة قالت هي مصافية لي فدخلت على زائرة فخرجوا من عندها ورجع إليها عقلها . فقالت أخت موسى : أين الصبي قالت لأدري فسمعت بكاء الصبي في التور فانطلقت فوجدته قد جعل الله تعالى عليه النار بردا وسلاما فاحتملته .

قال اسحق بن بشر عن جوير ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : ثم إن أم موسى لما رأت إلحاح فرعون في طلب الولدان خافت على ولدها فقذف الله في نفسها أن تتخذ له تابوتا ثم تقذه في اليم وهو النيل فانطلقت إلى رجل نجار من أهل مصر من قوم فرعون فاشتت منه تابوتا صغيرا فقال لها النجار ما تصنعين بهذا التابوت ؟ فقالت أخبأ فيه ابنا لي وكرهت أن تكذب قال لم ؟ قالت أخشى كيد فرعون ؟ قال فلما اشتت التابوت وحملته وانطلقت انطلق النجار إلى الدباحين ليخبرهم بأمرها . فلما هم بالكلام أمسك الله لسانه فلم ينطق فجعل يشير بيده فلم تدر الأماء ما يقول . فلما أعياهم أمره قال كبيرهم اضربوه فضربوه وأخرجوه . فلما انتهى النجار إلى موضعه رد الله عليه لسانه فتكلم فانطلق أيضا يريد الأماء فأتاهم ليخبرهم فأخذ الله تعالى بلسانه ويصره فلم يطق الكلام ولم يبصر شيئا فضربوه وأخرجوه فوق في واد يهوى فيه حيران فأشهد الله تعالى عليه إن رد له لسانه وبصره أن لا يدل عليه وإن يكون معه يحفظه حيثما كان فعلم الله منه الصدق فرد الله عليه لسانه وبصره فخر الله ساجدا ، وعلم أن ذلك من الله تعالى فأمن به وصدقه . فانطلقت أم موسى به وألفته في البحر ، وذلك بعد ما أرضعته ثلاثة أشهر ، وكان لفرعون يومئذ بنت ولم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس عليه وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إليه ، وكان بها برص شديد وكان فرعون قد جمع لها الأطباء من مصر والسحرة فنظروا في أمرها . فقالوا له أيها الملك إنا لا نرى برأها إلا من قبل البحر شيء يؤخذ منه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه ويلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك في يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا في ساعة كذا وكذا حين تشرق الشمس . فلما كان في يوم الاثنين غدا فرعون إلى مجلس له كان على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم وأقربت بنت فرعون وجواربها حتى جلست على شاطئ النيل مع جواربها يتلاعبن وينضحن الماء على وجوههن فيبئس هن على ذلك إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج . فقال فرعون إن هذا شيء في البحر قد تعلق بالشجر اتنوني به فابتدروه من كل جانب بالسفن حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدرُوا عليه وعالجوا كسره فلم يقدرُوا فدنت منه آسية فرأت في جوف التابوت نورا لم يره غيرها للأمر الذي أراد الله تعالى من إكرامها وهدايتها فعالجته ففتحت التابوت فاذا هي بصبي صغير في مهده والنور بين عينيه وقد جعل الله رزقه في إبهامه يمص منها لبنا فألقى الله

تعالى محبة موسى في قلبها وأحبه فرعون وعطف عليه وأقبلت بنت فرعون عليه فلما أخرجوه من التابوت عمدت بنت فرعون إلى ما كان يسيل من ريقه فلطخت به برصها فبرأت فقبلته وضعته إلى صدرها فقالت العواة من قوم فرعون أيها الملك انا نظن ان المولود الذي تحذر منه من بني اسرائيل هو هذا ارم به في البحر أو اقتله فهم فرعون بقتله فاستوهبته منه آسية فوهبه لها ثم إنه قال سميه فقالت قد سميته موسى لأنه وجد بين الماء والشجر .

قالوا ثم ان أم موسى قالت لأخته وكانت تسمى مريم قصيه أي اتبعي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرا أحى هو أم قد أهلكته دواب البحر ونسيت وعد الله فبصرت به عن جنب أي عن بعد وهم لا يشعرون أنها أخته وكانت آسية قد أرسلت إلى من حولها من كل أنثى بها لبن لتختار له ظئرا تربي موسى فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل ثديها حتى أشفقت آسية ان يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق لتجتمع عليه الناس ترجو ان تصيب له ظئرا يقبلها ويأخذ ثديها ويرضع منها فلم يقبل ثدي امرأة فذلك قوله عز وجل - وحرمنا عليه اللراضع من قبل - فقالت أخت موسى حين أعياهم امره وأعيا الظؤورة هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فأخذوها وقالو لها وما يدريك بنصحهم له ولعلك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله فقالت ما أعرفهم وانما نصحهم له وشفقتهم عليه من أجل رغبتهم في ظؤورة الملك ورجاء منفعتهم فتركوها فانطلقت إلى أمه فأخبرتها بالخبر فأنت فلما وضعت على ثديها في حجرها نزل اللبن من ثديها حتى ملأ جنبه فانطلق البشير إلى آسية يبشرها ان قد وجدنا لابنك ظئرا فأرسلت اليها فأتى بها فلما رأت ما يصنع بها قالت لها امكئى عندي ترضع ابني هذا فاني لم أحب شيئا مثل حبه قط فقالت لا أستطيع أن ادع بيتي وولدي فيضيعوا فان طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي وولدي فيكون معي ولا أولى له إلا خيرا فعلت وإلا فاني غير تاركة بيتي وولدي فتذكرت أم موسى ما كان الله وعدا فتعاسرت على امرأة فرعون وايقنت ان الله سبحانه وتعالى منجز وعده فرجعت بابنها إلى بيتها من وقتها .

وقيل كانت غيبة موسى عن أمه ثلاثة ايام ثم رده الله اليها وذلك قوله عز وجل - فرددناه الى أمه كي تفرعينها ولا تحزن - فلما جاءت به أمه الى بيتها كادت تقول هو ابني فعصمها الله عز وجل فذلك قوله تعالى - ان كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين - وأنبته الله نباتا حسنا وحفظه . فلما ترعرع قالت آسية لأم موسى أحب ان تربي ابني فوعدها يوما تريها إياه فيه فقالت آسية لخواصها وقهارمتها لا يبقى منكن واحدة الا استقبلت ابني بهدية وكرامة فاني باعثة بأمانة تحصى ما تصنع كل قهرمانة منكن فلم تزل الهدايا والتحف تستقبله من وقت ان أخرج من بيت أمه الى أن دخل على امرأة فرعون فلما ان دخل عليها أكرمته وفرحت به وأعجبها ما رأت من حسن أثرها عليه ، ثم قالت لها انطلقى به الى فرعون ليكرمه فلما دخلت به على فرعون أخذته

ووضعه في حجره فتناول موسى لحية فرعون حتى جذبها وتنف منها بعض شعرات ، وكان فرعون طويل اللحية ويقال أنه لطم وجهه .

وفي بعض الروايات : انه كان يلعب بين يدي فرعون وييده قضيب صغير فضرب به على رأس فرعون فغضب غضبا شديدا وتطير منه . وقال هذا عدوى المطلوب فأرسل إلى الدباحين ليذبحوه فبلغ ذلك امرأة فرعون فجاءت تسعى الى فرعون وقالت له ما بذلك في هذا الصبي الذي قد وهبته لي فأخبرها بما فعل موسى فقالت له انما هو صبي لا يعقل وانما صنع هذا من صباه وانا اجعل فيه بيني وبينك أمرا تعرف به الحق وأضع له حليا من الذهب والياقوت وأضع له جمرا فان أخذ الياقوت فهو يعقل فاذهب به وان أخذ الجمرة علمت انه صبي . ثم إنهما وضعتاه طستا فيه الذهب والياقوت وطستا آخر فيه الجمرة فمد موسى يده على أن يأخذ الجواهر ليقبض عليه فحوّل جبريل عليه السلام يده إلى الجمر فقبض على جمرة ووضعها في فيه فجاءت على لسانه فأحرقتة وذلك الذي قال في قوله تعالى - واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي - فقالت له آسية ألا ترى الى فعله وانه صبي لا يعقل فكيف عن قتله وصرف الله عنه ذلك السوء فلم يزل عزيزا مكرما في بيت فرعون . وحبه الله اليه وإلى الناس كلهم حتى كان يحبه كل من يراه .

ويروى أنه سئل إبليس هل أحببت أحدا من العالمين قال لا إلا موسى بن عمران عليه السلام ف قيل له وكيف ذلك فقال لأن الله تعالى قال - وألقيت عليك محبة مني - فلم أملك أن أحبيته .

الباب الثالث : في ذكر حلية موسى بن عمران وهرون عليهما السلام

قال كعب الأحبار : كان هرون بن عمران نبي الله رجلا فصيح اللسان بين الكلام إذا تكلم تكلم بتؤدة وعلم ، وكان أطول من موسى وكان على رأسه شامة وعلى طرف لسانه أيضا شامة سوداء ، وكان موسى بن عمران رجلا آدم اللون جعدا طويلا كأنه من رجال أزد شنوءة وكان بلسان موسى عقدة وثقل وسرعة وعجلة وكان أيضا على طرف لسانه شامة سوداء .

الباب الرابع : في قصة قتله القبطي وخروجه من مصر ووروده مدين

قال أهل التفسير لما بلغ موسى بن عمران أشده كان يركب مرا كعب فرعون ويلبس ما يلبس فرعون وكان يدعى موسى بن فرعون وامتنع به عن بني اسرائيل كثير من الظلم والسخر التي كانت فيهم ولا يعلم الناس ان ذلك إلا من قبل الرضاة قالوا فركب فرعون ذات يوم مركبا وليس عنده موسى فلما جاء موسى قيل له إن فرعون قد ركب فركب موسى في أثره وأدركه المقييل بأرض يقال لها منف فدخلها نصف النهار وقد أغلقت أسواقها وليس في طرقها أحد وهي التي قال الله تعالى فيها - ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها - فبينما هو يمشي في ناحية المدينة إذ هو برجلين يقتلان أحدهما من بني اسرائيل والآخر من آل فرعون كما قال الله تعالى - فوجد فيها رجلين يقتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه - الآية

والذى من شيعته يقال له السامرى والذى من عدوه رجل من القبط كان خبازا لفرعون واسمه فاتون وكان قد اشترى حطباً للمطبخ فسخر السامرى ليحمله فامتنع السامرى فلما مر به موسى استغاثه السامرى على القبطى فقال موسى للقبطى دعه فقال الخباز لموسى إنا آخذة في عمل أليك وأبى أن يخلي سبيله فغضب موسى فبطش به وخلص السامرى من يده فنازعه القبطى فوكزه موسى فقتله وهو لا يريد قتله فذلك قوله تعالى - فوكزه موسى فقضى عليه قال - موسى - هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ثم - قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم - .

وقال وهب : أوحى الله الى موسى بن عمران وعزى وجلالى : لو كانت النفس التى قتلت أقرت لى طرفه عين أنى إله خالق رازق لأذقتك طعم العذاب وإعافوت عنك لأنها لم تقر لى ساعة واحدة أنى إله خالق رازق . قالوا ولما قتل موسى القبطى لم يرهما إلا الله تعالى والاسرائيلي فلما قتله أصبح فى المدينة خائفا يترقب الأخبار فاتوا فرعون وقالوا له إن بنى اسرائيل قد قتلوا رجلا من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم فى ذلك فقال فرعون اتونى بقاتله ومن يشهد عليه لأنه لا يستقيم أن يقضى بغير بينة ولا يثبت ملك على الأخذ بالظلم فاطلبوا ذلك فينبأهم يطوفون لا يجدون بينة إذ مر موسى من القدر فرأى ذلك الاسرائيلي يقاتل فرعونيا فاستغاثه الاسرائيلي على قتال الفرعونى فصادف موسى وهو نادى على ما كان منه بالأمس فكره الذى رآه فغضب موسى فمد يده وهو يريد أن يبطش بالفرعونى وقال للاسرائيلي - إنك لغوى مبين - ففر الاسرائيلي من موسى وظن أنه يبطش به من أجل أنه غلظ عليه فى الكلام وكان غضبان فلما أقبل لنصره ومد يده ظن أنه يريد قتله فقال له - يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسك بالأمس - الآية ، وإنما قال ذلك مخافة من موسى وظن ان يكون موسى أراداه ولم يكن أراداه ، وإنما أراد الفرعونى فتنازعا فذهب الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الاسرائيلي ، وذكر أن موسى هو الذى قتل الرجل بالأمس وهو المثل السائر : العدو العاقل أحرى عليك من الصديق الأحمق ، وينشد فى معناه .

إن اللبيب اذا تزايد بغضه أحرى عليك من الصديق الأحمق

قال فلما أخبر فرعون بذلك أرسل الدباحين وأمرهم بقتل موسى وقال لهم اطلبوه فإنه غلام لا يهتدى الى الطريق فطلب موسى فى ثنيات الطريق وكان موسى يسلك الطريق الأعظم فجاءه رجل من شيعته من أقصى المدينة يقال له حزقيل وكان على بقية من دين ابراهيم وكان أول من صدق بموسى وآمن به .

ويروى عن النبى ﷺ أنه قال « سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفه عين حزقيل مؤمن آل فرعون وحبيب النجار صاحب يس وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه بالجنة وهو أفضلهم » قال فجاء حزقيل مؤمن آل فرعون فأخبر موسى بما أمر به فرعون من قتله واختصر طريقا قريبا حتى سبق الدباحين اليه فأخبره الخبر فذلك قوله تعالى - وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن

الملا يا تمرون ليقتلوك فاخرج إلى لك من الناصحين - فتحير موسى ولم يدرك أين يذهب فجاءه ملك على فرس بيده عنزة فقال له اتبعني فاتبعه فهداه الطريق إلى مدين .

وروى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خرج موسى من مصر إلى مدين وبينهما مسيرة ثمان ليال ويقال نحو من الكوفة إلى البصرة فلم يكن له طعام إلا ورق الشجر فمأواصل إليها الا وقد وقع خف قدمه وان خضرة البقول لترى من بطنه .

الباب الخامس في دخول موسى مدين وزوج شعيب ابنته إياه

قالت العلماء : لما انتهى موسى إلى أرض مدين في ثمان ليال نزل في أصل شجرة وإذا تحتها بئر وهي التي قال الله تعالى - ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهما امرأتين تزدوران - أي تحبسان أغنامهما فقال لهما - ما خطبكما قالتا لانسق حتى يصدر الرعاء - لأننا امرأتان ضعيفتان لا تقدر على مزاحمة الرعاء فإذا سقوا مواشيهم سقينا أغنامنا من فضول حاجتهم وما يبق من حياضهم - وأبونا شيخ كبير - تعيان شعيبا .

وروى حماد بن سلمة عن أبي حمزة عن ابن عباس قال : اسم أبي امرأة موسى الذي استأجره ثبرون صاحب مدين ابن أخى شعيب النبي عليه السلام واسم إحدى الجاريتين لياويقال حنونا والأخرى صفورا وهي امرأة موسى عليه السلام فلما قالتا ذلك لموسى رحمهما وكان هناك بئر على رأسها صخرة عظيمة وكان النفر من الرجال يجتمعون إليها حتى يرفعوها عن رأسها .

وحكى الأستاذ أبو سعيد عبد الملك بن أبي عثمان الواعظ أن تلك البئر غير التي تسقى منها الرعاء قال وقد حضرتها ورأيتها ، قال فرفع موسى الصخرة عن رأسها وأخذ دلوا لهما وقال لهما قدما غنمكما فسقى لهما أغنامهما حتى أرواها فرجعا إلى أبيهما سريعا قبل الناس وتولى موسى إلى الظل ظل الشجرة و - قال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير - قال ابن عباس لقد قال ذلك موسى ولو شاء إنسان أن ينظر إلى خضرة أمعائه من شدة الجوع لنظرها وماسأل الله تعالى إلا أكلة وقال أبو جعفر محمد الباقر لقد قالها وإنه لمحتاج إلى شق تمره قالوا فلما رجعا إلى أبيهما قال لهما ما أعجلكما وأسرع رواحكما الليلة قالتا وجدنا رجلا صالحا فرحمنا فسقى لنا أغنامنا فقال لأحدهما اذهبي فادعيه إلى فجاءته إحداها وهي التي زوجها موسى وهي تمشي على استحياء قالت له إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فقام موسى فتقدمته وهو يلها : أي يتبعها فهبت ريح فألصقت ثوب المرأة بردفها فكره موسى أن يرى ذلك منها فقال لها موسى امشي خلفي ودليني على الطريق فاذا أخطأت فارمي قدامي بحصاة حتى أنهيح نهجا فانا بنى يعقوب لا تنظر إلى أعجاز النساء فنعت له الطريق إلى منزل أبيها ومشت خلفه حتى دخل على شعيب فسأل شعيب موسى عن حاله وقصته فأخبره الخبر فقال له لا تخف نجوت من القوم الظالمين فقالت إحداها وهي التي كانت الرسول إلى موسى يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين .

قال النبي ﷺ «أصدق النساء فراسة امرأتان كلتاها تفرستا في موسى فأصابتا احداها امرأة فرعون حين قالت قرعة عين لي ولك لا تقتلوه والأخرى بنت شعيب حيث قالت - يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين - وإنما قالت القوي الأمين لأنه أزال الحجر العظيم الذي لا يرفعه إلا أربعون رجلا فقال لها أبوها هبك انك عرفت قوتي فما أعلمك بأمانته فأخبرته بما أمرها موسى من استدبارها إياه في الطريق فازداد فيه شعيب رغبة فقال له - إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج - إلى قوله من الصالحين : أى فى حسن الصحبة معك والوفاء بشرطك فقال موسى - ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت - الآية .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه سئل : أى الأجلين قضى موسى قال أكملهما وأفضلهما ، وروى أنه قال قضى أوفاهما وتزوج بصغراهما .

الباب السادس فى ذكر نعت عصا موسى وبدء أمرها

اختلف العلماء فى اسمها والمنافع التى كانت فيها وما ظهر من دلالة قدرة الله فيها قالوا ثم ان شعيبا أمر ابنته أن تأتية بعصا ليعطيها موسى فيستعين بها فى رعايته فجاءته بعصا وكانت تلك العصا وديعة عنده دفعها اليه ملك على صورة رجل فردها عليها شعيب وأمرها ان تأتية بعصا أخرى فما زالت ترجع وتأتية بها بعينها لأنها كانت كلما ردتها الى مكانها وأرادت ان تأخذ غيرها سقطت هى فى يدها فما زالت كذلك حتى أخذها شعيب وأعطاها موسى فلما أعطاه إياها ندم على ذلك لأنها كانت وديعة عنده فقال له شعيب رد على العصا فأبى ان يردّها عليه فتنازعا الى أن شرطاً على أنفسهما ان يرتضيا حكم أول رجل يدخل عليهما فأتاهما ملك يمشى فتحاكما اليه فقال ضعها على الأرض فمن حملها فهى له فوضعها موسى على الأرض فعالجها الشيخ فلم يطق حملها فأخذها موسى بيده فرفعها فلما رأى شعيب ذلك تركها له ، وفى رواية أخرى ان موسى لبث عند شعيب ما شاء الله ثم استأذنه فى الانصراف فأذن له وقال له ادخل هذا البيت وخذ عصا من العصى تكون معك تدركها السباع عنك وعن غنمك وكانت عصى الأنبياء عند شعيب فلما دخل موسى البيت وثبت اليه العصا فصارت فى يده فخرج بها فقال شعيب ردّها واخذ غيرها وذلك ان شعيبا كان قد أخبر بأمر العصا ولم يدرك شعيب ان صاحبها هو موسى فردّها موسى الى البيت فألقاها وذهب ليأخذ غيرها فوثبت حتى صارت فى يده ففعل ذلك مرارا فقال له شعيب ألم أقل لك خذ غيرها فقال موسى قد رددتها مرات فكما فعلت ذلك وثبت حتى تصير فى يدي فعلم شعيب ان ذلك أمر يريدّه الله تعالى فقال له خذها .

قالوا : وزوجه ابنته ورعى له موسى عشر سنين وولد لموسى أولاد من ابنة شعيب . قالوا لما خرج موسى من مدين ووافى مصر كان شعيب يزوره فى كل سنة فاذا أكل قام موسى على رأسه ثم يكسر له الخبز ويلقيه بين يديه ويقول له كل .

وقال مقاتل : بل كان جبريل هو الذى دفع العصا الى موسى وهو متوجه الى مدين بالليل . قال كعب : لما قدم مكة عبد الله بن عمرو بن العاص قلت سلوه عن ثلاث فان أخبركم فانه عالم سلوه عن شيء من الجنة وضعه الله للناس وعن أول ما وضع في الأرض وعن أول شجرة غرس في الأرض فسئل عنها فقال عبد الله : أما الشيء الذى وضعه الله للناس في الأرض من الجنة فهو هذا الركن الأسود ، وأما أول ما وضع للناس في الأرض فبئر برهوت باليمن يردها أرواح الكفار وأما أول شجرة وضعها الله تعالى في الأرض فالعوسجة التى اقتطع منها موسى عصاه فلما بلغ ذلك كعبا قال صدق الرجل فعلى هذا القول إنما اقتطع موسى عصاه من تلك الشجرة فأظهر الله فيها قدرته ومعجزة موسى فيها وقال ابن عباس كتب صاحب الروم الى معاوية يسأله عن أربعة أشياء لم يركضوا في رحم فلما قرأ معاوية الكتاب قال أخزاه الله وما علمى بها ههنا فقبل له اكتب الى ابن عباس فاسأله عن ذلك فكتب اليه يسأله عنها فكتب اليه ابن عباس في الجواب أما الأربعة التى لم يركضوا في رحم فأدم وحواء والكبش الذى فدى به اسماعيل وعصى موسى حيث ألقاها فصارت ثعبانا . وقال أكثر العلماء كانت عصا موسى من آس الجنة وكان طولها عشرة أذرع على طول موسى حملها آدم من الجنة الى الأرض فورثها الناس صاغرا عن كابر الى أن وصلت الى شعيب فأعطاه موسى واختلف العلماء في اسمها فقال سعيد بن جبير اسمها ماسا وقال مقاتل بن سليمان اسمها نفعة وقال ابن حبان اسمها غياث وقال آخرون اسمها علق .

الباب السابع في صفة المآرب التى كانت فيها لموسى

قال أهل العلم بأخبار الماضين كان لعصا موسى شعبتان ومحجن في أسفل الشعبتين وسانان حديد في أسفلها وكان موسى إذا دخل مغارة ليلا ولم يكن قمر تضىء شعبتها كالشعبتين من نار تضيئان له مد البصر وكان إذا أعوزه الماء دلاها في البئر فتعد على قدر قعر البئر ويصير في رأسها شبه الدلو فيستقي بها وإذا احتاج الى الطعام ضرب الأرض بها فيخرج مايا كل يومه وكان إذا اشتهى فأكهة من الفواكه غرسها في الأرض فتخرج أغصان تلك الشجرة التى اشتهى موسى فأكتها وأثمرت له من ساعتها ويقال كانت عصا موسى من اللوز وكان إذا جاع ركزها في الأرض فأورقت وأثمرت وأطعمت وكان يأكل منها اللوز وكان إذا قابل بها عدوه يظهر على شعبتها تينان يقاتلان وكان يضرب بها على الجبل الوعر الصعب المرتقى وعلى الحجر والشوك فتفرج له الطريق وكان إذا أراد عبور نهر من الأنهار بلا سفينة ضرب بها عليه فانقلق وبدا له فيه طريق منفرج وكان يشرب من إحدى شعبتيها العسل ومن الأخرى اللبن وكان إذا أعيافى طريقه ركبا فتحمله الى أى موضع شاء من غير ركض ولا تحريك وكانت تدله على الطريق وكانت تقاتل أعداءه عنه وكان إذا طلب منها الطيب فاح منها الطيب فيتطيب ويطيب ثوبه وإذا كان في طريق فيه لصوص يخاف الناس جانبهم تكلمه العصا فتقول له خذ جانب كذا وكذا ولا تأخذ حيث كذا وكذا وكان يهش بها على غنمه ويدفع بها السباع عنها والحشرات

والحيات واذا سافر وضعها على عاتقه وعلق عليها جهازه ومتاعه ومخلاته ومقلاعه وكساءه وطعامه وشرابه . قال ابن حبان قال شعيب لموسى حين زوجته ابنته وسلم اليه أغنامه يرعاها اذهب بهذه الأغنام فاذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك وان كان السكلاً بها أكثر فان هناك تنينا عظيماً أخشى عليك وعلى الأغنام منه فذهب موسى بالأغنام حتى اذا بلغ مفرق الطريق أخذت الأغنام ذات اليمين فاجتهد موسى ان يصرفها ذات الشمال فلم تطعه فخلاها على ما تريده ثم نام موسى والأغنام ترعى واذا التين قد جاء فقامت العصا فخاربه فقتلته وأنت فاستلقت الى جانب موسى وهى دامية فلما استيقظ موسى رأى العصا دامية والتين مقتولا فعلم موسى ان فى تلك العصا قدرة وعرف ان لها شأنًا ، فهذه مأرب موسى اذا كانت فى يده . وأما اذا ألقاها فبرى أنها كانت تقلب حية كأعظم ما يكون من الثعابين سوداء مدطمة تدب على أربع قوائم فتصير شعبتها فما وفيه اثنا عشر ناباً وخرساً لها صريف وصرير يخرج منها لهب النار ، ويصير محجتها عرفاً لها كأمثال النار تلتهب ، وعيناها تلمعان كما يلمع البرق تهب منها رياح السموم فلا تصيب شيئاً إلا أحرقتة تمر بالصخرة مثل الناقة الكوماء فتبتلعها حتى إن الصخور فى جوفها تقعقع ، وتمر بالشجر فتقصمها بأنيابها وتحطمها وتبتلعها وجعلت تتلمظ وتبرم كأنها تطلب شيئاً تأكله وكانت تكون فى عظم الثعبان وفى خفة الجان ولين الحية ، وذلك موافق لنص القرآن حيث يقول الله تعالى فى موضع - فاذا هى ثعبان ميين - وفى موضع آخر - كأنها جان وفى موضع آخر - فاذا هى حية تسعى - .

الباب الثامن فى ذكر خروج موسى عليه السلام من مدين وتكليم الله إياه فى الطريق وارساله الى فرعون واستعائه بأخيه هرون ، وكيفية ذهابهما الى فرعون لتبليغ الرسالة قال الله عز وجل - فلما قضى موسى الأجل - الآية . قالت العلماء بسير الأنبياء : لما ورد موسى أرض مدين وأتى عليه من يوم وروده تسع سنين ، قال له شعيب انى وهبت لك كل بقاء وأبلى من نتاج اغنامى التى تضعها فى هذه السنة : يعنى السنة العاشرة أراد بذلك مبرة موسى وصلة ابنته صفورا امرأة موسى . قال فأوحى الله الى موسى أن اضرب بعصاك الماء الذى فى مستقى الأغنام ففعل موسى ذلك ثم سقى الأغنام من ذلك الماء فما اخطأت واحدة من تلك الأغنام إلا وضعت حملها مرتين ما بين أبلى وبقاء ، فعلم شعيب ان ذلك رزق ساقه الله تعالى الى موسى واهله فوفى موسى بشرطه وسلم اليه الأغنام التى وهبها منه وقضى موسى أتم الأجلين وأوقاها - فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله - منفصلاً من أرض مدين وكان فى أيام الشتاء ومعه امرأته وأغنامه وهى فى شهرها لا تدرى أتضع ليلاً أم نهارة فانطلق فى برية الشام عادلاً عن الدائن والعمران مخافة الملوك الذين كانوا بالشام وكان أكبرهم يومئذ طلب أخيه هرون واخراجه من مصر إن استطاع اليه سبيلاً ، فسار موسى فى البرية غير عارف بطريقها فألجأه السير الى جانب الطور الأيمن الغربى فى عشية شاتية شديدة البرد وأظلم عليه الليل وأخذت السماء ترعد وتبرق وتمطر واخذ امرأته الطلق ، فعمد موسى إلى زنده

فقدحه فلم ينور فتحير وقام وقعد إذ لم يكن له عهد يمثل ذلك في الزند ، وأخذ يتأمل ما قرب وما بعد
 نجيرا وضجرا ثم أخذ يتسمع طويلا هل يسمع حسا أو حركة فيينا هو كذلك إذ آنس من جانب الطور
 نورا فحسبه نارا - فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى -
 يعني من يدلني على الطريق وكان قد ضل الطريق فلما أتاها رأى نورا عظيما ممتدا من عنان السماء
 إلى شجرة عظيمة هناك ، واختلفوا في تلك الشجرة ما كانت قليل العوسجة وقيل العناب فتحير
 موسى وارتعدت فرائصه حيث رأى نارا عظيمة ليس لها دخان وهي تلهب وتشتعل من جوف شجرة
 خضراء لا تزدد النار إلا عظما ولا تزدد الشجرة الا خضرة ، فلما دنا موسى منها استأخرت عنه فلما
 رأى ذلك رجع عنها وخاف ثم ذكر حاجته الى النار فرجع اليها ودنت منه - فنودي من شاطئ
 الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة - أن يا موسى - فنظر فلم ير أحدا فنودي - إني أنا الله
 رب العالمين - فلما سمع ذلك علم أنه ربه تعالى فناداه ربه ان ادن واقرب ، فلما قرب وسمع النداء
 ورأى تلك الهية خفق قلبه وكل لسانه وضعفت بنيته وصار حيا كيت إلا أن روح الحياة تتردد فيه
 من غير حراك ، وأرسل الله اليه ملكا يشد ظهره ويقوى قلبه فلما تاب اليه عقله نودي - فاخلع
 نعليك انك بالواد المقدس طوى - وكان السبب في أمره بخلع نعليه ما أخبرنا حامد بن عبدالله الأصماني
 قال حدثنا يحيى السدي ، قال حدثنا أحمد بن بجدة ، قال حدثنا الجمالي ، قال حدثنا عيسى بن يونس
 عن حميد عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ في قوله فاخلع نعليك قال « كانتا من جلد حمار ميت »
 وفي بعض الأخبار غير مدبوغ :

وقال مجاهد وعكرمة : إنما قال فاخلع نعليك كي تمنح راحة قدمية الأرض الطيبة فتتاله بركتها
 لأنها قدست مرتين ، وقال سعيد بن جبير إنما قال له ذلك لأن الحفوة من أمارات التواضع والاحترام
 فقل له طأ الأرض حافيا كما تدخل الكعبة لتحصل من بركة الوادي . وقال أهل الإشارة : النعل
 عبارة عن المرأة ، وذلك تأويله في المنام فقل له فرغ قلبك من شغل أهلك . ثم قال تعالى تسكينا
 لقلبه واذا بها لدهشته - وماتلك يمينك يا موسى قال هي عصاى - الآية فقال الله تعالى - ألقها يا موسى
 فألقاها فاذا هي حية تسعى - قد صارت شعبتها فمها ومحجنها عرفا لها في ظهرها وهي تهتز لها أنياب
 وهي كما شاء الله أن تكون فرأى موسى أمرا فظيما فولى موسى مدبرا ولم يعقب فناداه ربه تعالى
 أن يا موسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين سنعيدها سيرتها الأولى : أى تردها عصا كما كانت
 ويقال إن الحكمة في أمر الله تعالى إياه بالقاء العصا قبل أن يصل الى فرعون لكيلا يفرغ منها موسى
 إذا رآها على تلك الحالة عند فرعون ، فلما أقبل موسى قال له خذها إذ كانت عصاك ولا تخف لأنه
 كان ادعى الملك فقال هي عصاى فنبه على ذلك ، وكان على موسى جبة من صوف فلف كفه على يده
 وهو لها هائب فنودي أن احسر يدك فحسر كفه عن يده ثم أدخل يده تحت لحية فلما أدخل يده
 قبض فاذا هي عصاه في يده ويده بين شعبتها حيث كان يضعها ، ثم قال له أدخل يدك في جيبيك تخرج

بيضاء من غير سوء آية أخرى ، وانما قال في جييك لأنه لم يكن للمبوسه كم واسع فضايق عليه فأدخل يده في جيبه ثم أخرجها ، فاذا هي نور تلهب يكلّ عنه البصر ثم ردها فخرجت كما كانت على لون يده ، فقال الله تعالى - قدانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه - الآية ثم قال له - اذهب إلى فرعون إنه طغى - فقال موسى - رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخى هرون هو أفصح مني لسانا ، الى قوله يكذبون - فقال له ياموسى انى أوقفتك موقفا لأجعل بعده لأحد عليك سلطانا دونى ولا ينبغي لمن بعدك أن يسمع كلامى وأنت فى اقرب الأما كن منى ، وعلى موسى يومئذ مدرعة من صوف قد خللها بخلال وجبة من صوف وثياب من صوف وقلنسوه من صوف والله تعالى يكلمه ويعهد اليه ويقول له ياموسى انطلق برسالتى وأنت بعينى وسمعى ومعك قوتى وبصرى بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى بطر نعمتى وأمن مكبرى وعبد دونى وغرته الدنيا حتى جحد حقى وأنكر ربوبيتى وزعم أنه لا يعرفنى ، وانى أحلف بعزى وجلالى لولا الحجة والقدرة اللتان جعلتهما بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السموات والأرض والبحار والجبال والشجر والدواب فلو أذنت للسماء لحصبتها وللأرض لا تبلمته وللجبال له كدكته وللبحار لغرقته ولكن سقط من عيني وهان علىّ وصغر عندى ووسعه حلمى وأنا الغنى عنه وعن جميع خلقى وحق ذلك لى وأنا خالق الغنى والفقر لاغنى إلا من أغنيته ولا فقر إلا من أفقرته فأبلغه رسالتى وادعه إلى عبادتى وتوحيدي والاخلاص لى وحذره بقمى وبأسى وذكره آياتى وأعلمه أنه لا يقوم لغضبى شيء وقل له فيما بين ذلك قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وبجله فى خطابك اياه ولا يروعك ما ألبسته من لباس الدنيا فان ناصيته يبدى ولا يطرّف ولا ينطق ولا يتنفس عن شيء إلا بعلمى وأخبره بأنى من العفو والمغفرة أسرع منى إلى الغضب والعقوبة وقل له أجب ربك فانه واسع المغفرة ، وقد أمهلك فى طول هذه المدة وفى كلها تدعى الربوبية دونه وتصد عن عبادته وفى كل ذلك يعطر عليك السماء وينبت لك الأرض ويلبسك العافية حتى لم تهرم ولم تسقم ولم تفتقر ولم تغلب ولو شاء لعاجلك بالنقمة ولسلبك ما أعطاك ولكنه ذو جلم عظيم ثم امسك الكلام عن موسى سبعة أيام بلياليها ثم قيل له بعد سبع ليل أجب ربك ياموسى فيما كلمك فقال - رب اشرح لى صدرى - الى قوله تعالى بصيرا ، فقال الله تعالى - قد أوتيت سؤالك ياموسى - فجاهد بنفسك وراخيك وكان قد خطر فى قلب موسى ان فرعون فى بأس عظيم وجند كثير وانا واخى وحيدان فريدان فقال الله تعالى له إنكما جندان عظيمان من جندى وانا معكما أسمع وأرى وابصر كما واكون معكما فلا تستضعفان ولا تستقلان ولو شئت ان آتية بجنود لا قبل له بها فعلت ، ولكن ليعلم ذلك الشقى الضعيف الذى قد أعجبته نفسه وجنوده ان الفئة القليلة ولا قليل معى تغلب الفئة الكثيرة باذنى ولا يعجبكما زينته ولا يهولكما عدته فلو شئت ان أزينكما من زينة الدنيا وبهجتها ما بهت فرعون وملاؤه اذا نظروا اليها ويعلم ان مقدرته تعجز عما آتيتكما فعلت ، فلا تأسفا عما أزو به عنكما من متاع الدنيا وزينتها فان ذلك دأبى فى اوليائى واصفيائى

اذودهم عن نعيم الدنيا ولذاتها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن المراتع الرديئة لكي تستكملوا نصيبكم من كرامتي في الآجل . واعلم أنه لا يترين أحد من عبادي بزينة هي أبلغ من الزهد في الدنيا وهي زينة الأبرار ، ويقال ان الله تعالى كلمه في تلك المدة مائة ألف كلمة وأربعة عشر ألف كلمة يقول له مع كل كلمة قتلت نفسا بغير حق .

وقيل لموسى عليه السلام بم عرفت ان الله تعالى هو الذى كلمك ، فقال لأن كلام المخلوق اما يسمع من جهة واحدة بحاسة واحدة وهي السمع وانى كنت أسمع كلام الله تعالى من جميع الجهات بجوارحي كلها فعرفت أنه كلام الله تعالى .

قالوا : ولما صعد موسى الجبل لمناجاة الله تعالى صار الجبل عقيقا فلما نزل موسى عنه عاد إلى حاله الأولى ، فلما رجع موسى شيعته الملائكة ، وكان قلب موسى مشغولا بولده وأراد أن يختنه فأمر الله تعالى ملكا فمد يده ولم تزل قدمه عن موضعها حتى جاء به الملك ملفوفا في خرقة وناولوه الى موسى فأخذ حجرين فحك أحدهما بالآخر حتى حدثه كالسكين من الحديد فختن به ابنه . ثم إن الملك عاجل القطوع من المختون فتفل فيه فبرا من ساعته باذن الله تعالى ، ثم إن الملك رده الى موضعه الذى جاء به منه ولم يزل أهل موسى مقيمين في ذلك المكان لا يدرون ما فعل موسى حتى مرت بهم ربح سن اهل مدين فعرفهم فاحتلمهم وردهم الى مدين فكانوا عند شعيب حتى بلغهم خبر موسى بعد ما فلق البحر وجاوزه بينى اسرائيل واغرق الله فرعون فبعث بهم شعيب الى مصر لموسى . قالوا وخرج موسى من فوره ذلك لما بعثه الله الى مصر لا علم له بالطريق ، وكان الله تعالى يهديه ويبدله وليس معه زاد ولا سلاح ولا حمولة ولا صاحب له ولا شيء من الأشياء غير العصا ومدرعة صوف وقلنسوة صوف ونعلين ، وكان يظل صاعما ويبيت قائما ويستعين بالصيد ويقول الأرض حتى ورد مصر فلما قرب من مصر أوحى الله تعالى اليه لا تخف ولا تجزع ثم أوحى الله تعالى الى أخيه هارون يبشره بقدم موسى ويخبره أنه قد جعله وزيرا له ورسولا معه الى فرعون وأمره ان يمر يوم السبت غرة ذى الحجة متكرا الى شاطئ النيل ليلتقى بموسى تلك الساعة . قال فخرج هارون وأقبل موسى فالتقيا على شاطئ النيل قبل طلوع الشمس واتفق انه كان يوم ورود الأسد الماء ، وكانت لفرعون أسد تحرسه في غيضة محيطة بالمدينة من حوالها وكانت ترد الماء غبا وكان فرعون إذ ذاك في مدينة حصينة عليها سبعون سورا ، وكان بين كل سورين بساتين وأنهار ذات مزارع وأرض واسعة في ريبض لكل سور سبعون ألف مقاتل ومن وراء تلك المدينة غيضة تولى فرعون غرسها بيده وعمل فيها ومساها بالنيل واسكنها الأسد فتناسلت وتوالدت حتى كثرت ثم اتخذها جندا من جنوده تحرسه وجعل خلال تلك الغيضة طرقا تنفض بمن سلكها الى أبواب المدينة معلومة ليس لتلك الأبواب طرق غيرها فمن أخطأها وقع في تلك الغيضة فتأكله الأسود ، وكانت الأسود إذا وردت النيل ظلت عليه يومها كله ثم تصدر مع الليل قال فلما التقى موسى بهرون وكان يوم ورودها فلما رأتهما الأسد مدت اعناقها ورءوسها اليها وشخصت

بأبصارها نحوها وقذف الله في قلوبها الرعب فانطلقت نحو الغيضة مسرعة هاربة على وجوهها يظاً بعضها بعضاً حتى اندست في الغيضة . وكان لها ساسة يسوسونها ودادة يدودونها : اى يغرونها ويسلطونها على الناس ، فلما أصابها ما أصابها خاف ساستها من فرعون ولم يشعروا من أين أتوا ، ثم إن موسى وهرون انطلقا في تلك الغيضة حتى وصلا الى باب المدينة الأعظم الذى هو أقرب أبوابها الى منزل فرعون ، وكان منه يدخل ويخرج وذلك ليلة الاثنين بعد هلال ذى الحجة يوم فأقاما عليه سبعة أيام فكلهما واحد من الحراس وقال لهما هل تدريان لمن هذا الباب ، فقال موسى ان هذا الباب والأرض كلها وما فيها لرب العالمين وأهلها عبيده فسمع ذلك الرجل كلاماً لم يسمع مثله قط ولم يظن أن أحداً من العالمين يفصح بمثله ، فلما سمع الرجل ما سمع أسرع الى كبرائه الذين فوقه وقال لهم سمعت اليوم قولاً وعانيت عجباً من رجلين هما عندى أعظم وأشنع وأفظع مما أصابنا فى الأسد وما كانا يقدران أن يقدما على ما قدما عليه إلا بسحر عظيم وأخبرهم بالقصة ، فلم يزل ذلك الخبر يتداول بينهم حتى انتهى الى فرعون . قال السدى بإسناده سار موسى بأهله نحو مصر حتى أتاهم ليلاً فتضيف أمه وهى لا تعرفه فأتاهم فى ليلة كانوا يأكلون فيها الطفيشل فنزل فى جانب الدار فجاء هرون ، فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه فأخبرته أنه ضيف فدعاه فأكل معه ، فلما قعدا وتحدثا سأله هرون من أنت ؟ فقال أنا موسى فقام كل واحد منهما الى صاحبه فاعتنقه ، فلما تعارفا قال له موسى يا هرون انطلق معى الى فرعون فإن الله تعالى قد أرسلنا اليه ، فقال له هرون سمعاً وطاعة فقامت أمهما وصاحت وضجت ، وقالت : أنشدكما الله أن لاتذهبا الى فرعون فيقتلكما فأيا عليها ومضيا لأمر الله تعالى فانطلقا اليه ليلاً فأتيا الباب والتمسا الدخول عليه ليلاً ففزع فرعون وفزع البواب ، فقال فرعون من هذا الذى يضرب بابى فى هذه الساعة ، فأشرف عليهما البواب وكلمهما ، فقال له موسى إني أنا رسول رب العالمين ففزع البواب وأتى فرعون وأخبره بما سمع ، وقال له : ان هنا انسانا مجنوناً يزعم أنه رسول رب العالمين . وقال ابن اسحق خرج موسى لما بعثه الله تعالى حين قدم مصر على باب فرعون هو وأخوه هرون يلتمسان الاذن عليه وهما يقولان - إنا رسول رب العالمين - فكثرا فيما بلغنا سنتين يفتدون الى بابهم ويروحان وفرعون لا يعلم بهما ولا يجترئ أحد ان يخبره بشأنهما حتى دخل عليه بطل له يلعب معه ويضحك ، فقال له الملك : ان على بابك رجلين يقولان قولاً عجيباً يزعمان أن لهما إلهما غيرك ، فقال فرعون أَدْخِلُوهُمَا فَأَدْخَلَ مُوسَى وَمَعَهُ هَرُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَام .

الباب التاسع فى ذكر دخول موسى وهرون على فرعون

قال الله تعالى - فأتيا فرعون فقولاً إنا رسول رب العالمين - . وقال تعالى - فقولاً له قولاً لنا

لعله يتذكر أو ينسى - .

وروى عمرو بن عبيد عن الحسن البصري في هذه الآية قال قال لهما أعذرا إليه لعله يتذكر أو يخشى قولاً له إنك ربا ومعبدا وإن بين يديك جنة ونارا لعله عند ذلك يتذكر أو يخشى وعيدكما ، وهو عندي لا يتذكر ولا يخشى . قال لكيلا يقول أهلكته قبل أن أعذر إليه . قال فلما أذن فرعون لموسى وهرون دخلا عليه ، فلما وقفا عنده دعا موسى بدعاء ، وهو لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله العلي العظيم ، سبحان رب السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن وما بينهن ورب العرش العظيم ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . اللهم إني أدرك بك في نحري وأعوذ بك من شره وأستعين بك عليه فاكفنيه بما شئت . قال : فتحول ما في قلب موسى من الخوف أمنا ، وكذلك كل من دعا بهذا الدعاء وهو خائف آمن الله خوفه ونفس كربته وهو آمن عليه سكرات الموت ، ثم إن فرعون قال لموسى من أنت ، فقال : أنا رسول رب العالمين فتأمله فرعون فعرفه ، فقال له - ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين - معنا على ديننا هذا الذي هو الآن تعييه . قال موسى - فعلتها إذا وأنا من الضالين - أي من الخطئين ، ولم أرد بذلك القتل - ففررت منكم لما خفتكم فوهد لي ربي حكما وجعلني من المرسلين - . ثم أقبل موسى ينكر عليه ما ذكره له من يده عليه ، فقال - وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل - أي اتخذتهم عبيدا تنتزع أبناءهم من أيديهم فتسترق من شئت وتقتل من شئت : أي إنما صيرني إليك ذلك - قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال فرعون - لمن حوله من ملئه : ألا تستمعون - انكارا لما قال موسى قال موسى - ربكم ورب آبائكم الأولين - قال فرعون - إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون - يعني ما هذا بكلام رجل صحيح العقل إذ يزعم أن لكم إلهاً غيري - قال موسى - رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون - ثم قال فرعون لموسى - لن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين . قال أولو جنتك بشيء مبين - تعرف به صدقي وكذبك وحقي وباطلك - قال فرعون - فأت به إن كنت من الصادقين فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين - فاتحة فاتها قد ملأت ما بين جاني القصر واضعة لحيا الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر حتى رأى بعض من كان خارجاً من مدينة مصر رأسها ، ثم توجهت لنحو فرعون تأخذه فانقض منها الناس وذعر منها فرعون ووثب عن سريره وأحدث حتى قام من بطنه في يومه ذلك أربعين مرة ، وكان فيما يزعمون لا يسعل ولا يتمخط ولا يتصدع رأسه ، ولا تصيبه آفة مما يصيب الناس ، وما كان يقوم الا في كل أربعين يوماً مرة واحدة ، وكان أكثر ما يأكل الوز لأنه لا يكون له ثقل فيحتاج الى القيام وكانت هذه الأشياء مما زين له أن قال ما قال لأنه ليس له من الناس شبيه .

قالوا فلما قصدته الحية صاح يا موسى أنشدك الله وحرمة الرضاع الا ما أخذتها وامسكها عني وانا أو من بك وأرسل معك بني إسرائيل فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت ، ثم إن موسى نزع يده من جيبه فأخرجها فقال له فرعون هذه يدك فما فيها فأدخلها موسى في جيبه ثم أخرجها ولها

نور ساطع في السماء تكلّ عنه الأبصار قد أضاء ماحولها ودخل ضوءها البيوت ورؤى من الكوى ومن وراء الحجب فلم يستطع فرعون النظر إليها ثم ردها موسى إلى جيبه ثم أخرجها فاذا هي على لونها الأول ، قالوا فهم فرعون بتصديقه فقام إليه هامان وجلس بين يديه ، ثم انه قال له بينما أنت إله تعبد إذ أنت تابع لعبد ، فقال فرعون لموسى أمهلني اليوم وغدا فأوحى الله لموسى ان قل لفرعون إنك إن آمنت بالله وحده عمرتك في ملكك ورددتك شاباطريا فاستنظره فرعون فلما كان من الغد دخل إليه هامان فأخبره فرعون بما وعده موسى من ربه فقال له هامان والله ما يعدل هذا عبادة هؤلاء لك يوما واحدا ونفخ في منخره ثم قال له هامان أنا أردك شابا فأني بالوشم فخضبه به فهو أول من خضب بالسواد فلذلك كرهه ﷺ ونهى عنه ، فلما دخل عليه موسى ورآه على تلك الحالة هاله ذلك فأوحى الله تعالى إليه لا يهولنك ما رأيت فانه لن يلبث إلا قليلا حتى يعود إلى حاله الأولى .

وفي بعض الروايات أن موسى وهرون لما انصرفا من عند فرعون أصابهما مطر في الطريق فأتيا على عجوز من أقرباء أمهما وكان فرعون وجه الطلب في أثرهما فلما دخل عليهما الليل ناما في دارها وجاء الطلب إلى الباب والعجوز منتبهة ، فلما أحست بهم خافت عليهما فخرجت العصا من جانب الباب والعجوز تنظر إليها فقاتلتهم فقتلت منهم سبعة أنفس ، ثم عادت ودخلت النار فلما انتبه موسى وهرون أخبرتهما العجوز بقصة الطلب ونكاية العصا فيهم ، ثم ان العجوز آمنت بهما وصدقتهما .

الباب العاشر في قصة موسى وهرون مع فرعون والسحرة وخروجهم

يوم الزينة إلى الفضاء للمغالبة

قالت العلماء بأخبار الأنبياء : ان موسى وهرون عليهما السلام وضع فرعون أمرها وما أتيابه من سلطان الله تعالى على السحر فقال للملأ حوله إن هذان لساحران عليان فماذا تأمرون ، قالوا اقتلهما ، فقال العبد الصالح حزقيل مؤمن آل فرعون - أقتلون رجلا أن يقول ربي الله - إلى قوله تعالى - سبيل الرشاد - وقال الملأ من قوم فرعون أرجئه وأخاه وابعث في الدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم - وكانت لفرعون مدائن فيها سحرة معدة للأمر اذا أحزنه .

قال ابن عباس : قال فرعون لما رأى من سلطان الله تعالى في اليد والعصا ما رأى إنا لا تغالب موسى إلا بمن هو مثله فأخذ غلمانا من بني اسرائيل فبعث بهم إلى قرية يقال لها الغرقاء يعلمونهم السحر كما يعلمون الصبيان في الكتاب فعلموهم سحرا كثيرا ، ثم إن فرعون واعد موسى موعدا ، ثم بعث إلى السحرة فجاء بهم ومعهم معلمهم ، فقال له ماذا صنعت فقال له معلمهم قد علمتهم سحرا عظيما كبيرا لا تطيقه سحرة الأرض إلا أن يكون أمرا من السماء فانهم لا طاقة لهم به ، ثم إن فرعون بعث إلى الشرط في مملكته فلم يتركوا في مملكته ساحرا الا أتوا به . واختلفوا في عدة السحرة

الذين جمعهم فرعون ، فقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين ساحرا : اثنان من القبط وهما رؤساء القوم ، وسبعون من بني اسرائيل .

وقال السكبي : كانوا سبعين ساحرا غير رؤوسهم وكان الذي يعلمهم السحر رجلين مجوسيين من أهل نينوى .

وقال كعب : كانوا اثني عشر ألفا ، وقال السدي : كانوا بضعة وثلاثين ألفا ، وقال عكرمة : سبعين ألفا ، وقال محمد بن المنكدر : ثمانين ألفا ، والجامع لهذه الأقاويل ماروي أن فرعون جمع السحرة وهم سبعون ألفا ، فاختار منهم سبعة آلاف ليس فيهم إلا من هو ساحر ماهر ، ثم اختار منهم سبعائة ، ثم اختار منهم سبعين من كبارهم وعلمائهم . قال مقاتل ، وكان اسم رأس السحرة شمعون ، وقال ابن جريج يوحنا ، وقال عطاء : كان رأس السحرة بأقصى مدائن الصعيد وكانا أخوين ، فلما جاءهما رسول فرعون قال لأمهما دلينا على قبر أيينا فدلتهما عليه فأتياه وصاحا باسمه فأجابهما ، فقالا له إن الملك وجه الينا رسولا لنقدم عليه لأنه أتاه رجلان ليس معهما سلاح ولا رجال ولهما عز ومنعة وقد ضاق الملك ذرعا من عزهما ومنعتهما ومعهما عصا اذا ألقياها لا يقوم لها شئ حتى تبلع الحديد والحشب والحجارة فأجابهما أبوهما ، وقال انظراهما اذاهما ناما فاذا قدرتما أن تسلا العصا فسلاها فان الساحر لا يعمل سحره وهونأتم فان عملت العصا وهما نائمان فذلك أمر رب العالمين لا طاقة لكما به ولا للملك ولا لجميع أهل الدنيا ، ثم انهما أتياهما في خفية وهما نائمان ليأخذا العصا فقصدهما العصا ، قالوا ثم إنه واعد موسى غدوة يوم الزينة وكان يوم سوق لهم ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان يوم ماشوراء ووافق ذلك يوم السبت أول يوم من السنة وهو يوم النيروز وكان يوم عيد لهم تجتمع اليه الناس من جميع الآفاق ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كان جمعهم بالمقات بالاسكندرية ، ويقال بلغ ذنب الحية الجزيرة من وراء البحر يومئذ ، قالوا ثم ان السحرة قالت لفرعون - أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين - قال فرعون نعم - وإنكم إذا لمن المقربين - يعني في المنزلة ، فلما اجتمع السحرة والناس جاء موسى متكئا على عصاه ومعه أخوه هرون حتى أتيا المجتمع وفرعون في مجلسه مع أشراف قومه فقال موسى للسحرة حين جاءهم - ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحقكم بعذاب وقد خاب من افترى - فتناجى السحرة فيما بينهم ، فقال بعضهم لبعض ما هذا بقول ساحر فذلك قوله تعالى - فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرؤا النجوى - فقالت السحرة لنائينك اليوم بسحر لم ترمثله ، - وقالوا بعزة فرعون إنا نحن الغالبون - وكانوا قد جاءوا بالعصى والجبال يحملها ستون بعيرا ، فلما أبوا إلا الإصرار على السحر قالوا لموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين - قال لهم موسى بل ألقوا أتم جبالكم وعصيكم فألقوا فاذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا تسعى فذلك قوله تعالى - ينخل اليه من سحرهم أنها تسعى - الى قوله تعالى - خيفة موسى - فقال موسى والله إنها كانت لعصيا في أيديهم ولقد عادت حيات وماعصى هذه .

فلما حدث نفسه بذلك أوحى الله إليه - لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا
إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى - ففرح موسى ثم انه ألقى عصاه من يده فاذا هي
ثعبان مبين - كأعظم ما يكون من الثعابين أسود مدلهم يدب على أربع قوائم قصار غلاظ شداد
وهو أعظم وأطول من بختي عظيم وله ذنب يقوم عليه فيشرف فوق حيطان المدينة برأسه وعنقه
وكاهله لا يضرب بذنبه على شيء إلا حطمه وقصمه ويكسر بقوامه الصخور الصم الصلاب ويطحن
كل شيء ويصرم الحيطان واليوت نفسه نار . وله عيان تلتهبان نارا ومنخراه ينفخان سموما وعلى
معرفة شعر كأمثال الرماح وصارت الشعبتان له فما سعتة اثنا عشر ذراعا وفيه أنياب وأضراس لها
فحيح وكشيش وصرير فاستعرضت ما ألفت السحرة من جبالهم وعصيمهم وهي تخيل في
أعين الناس وعين فرعون أنها تسعى فجعلت تلقفها وتبلعها واحدا واحدا حتى لم ير في الوادي
لأقليا ولا كثيرا مما ألقوا وانهمز قوم فرعون هاربين منقلبين فتراحموا وتضاغطوا ووطىء بعضهم
بعضا حتى مات منهم يومئذ في ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفا وانهمز فرعون فيمن انهمز متخوفا
مرعوبا ذاهبا عقله ، وقد استطلق عليه بطنه من يومه ذلك أربعمئة مرة فصار يحصل له ذلك أربعين
مرة في كل يوم وليلة على الدوام إلى أن هلك . فلما انهزم الناس وعان السحرة ما عانوا قالوا لبعضهم
لو كان ساحرا ما غلبنا ولا خفي علينا أمره ولو كان سحرا فأين جبالنا وعصينا - فألقى السحرة ساجدين
قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون - وكان فيهما اثنان وسبعون شيخا قد انحنت ظهورهم
من الكبر وكانوا علماء ورؤساء وكان رؤوس السحرة خمسة نفر : سابورا وغادر وجفظ وخطط
ومصفا . وهم الذين آمنوا حين رأوا مارأوا من سلطان الله تعالى . فلما رأى فرعون ذلك أسف
وقال لهم متجلدا - آمنتم له قبل ان آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر - إلى قوله تعالى -
أشد عذابا وأبقى قالوا لن نؤثر على ما جاءنا من البينات - الآية - فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف
وصلبهم في جذوع النخل وهو أول من فعل ذلك فأصبحوا سحرة كفره وأمسوا شهداء بررة ورجع
فرعون مغلوبا مهزوما مكسورا ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر فتابع الله عليه الآية
وأخذه وقومه بالسنين إلى أن أهلكهم . ثم إن موسى عاد راجعا إلى قومه والعصا على حالها حية
تتبعه وتبصبص حوله وتلوذ به كما يلوذ الكلب الألوف بصاحبه والناس ينظرون اليها ويتعجبون منها
وقدملثوا رعبا فلم تزل العصا على هيئة الحية والناس يتحدثون وينظرون اليها ويتصاعقون ويتضاغطون
حتى دخل موسى عليه السلام عسكر بني اسرائيل فأخذ برأسها فاذا هي عصا كما كانت أول مرة
وشتت الله على فرعون أمره ولم يجد إلى موسى سيلا واعتزل موسى مدينته ولحق بقومه وعسكره
وكانوا مجتمعين إلى أن صاروا ظافرين .

الباب الحادى عشر فى قصة حزقيـل مؤمن آل فرعون وامراته
ومقتله وأولاده رضى الله عنهم أجمعين

قالت الرواة : كان حزقيـل من أصحاب فرعون نجارا وهو الذى صنع لأم موسى التابوت حين ولدته وألقته فى البحر . وقيل إنه كان خازنا لفرعون قد خزن له مائة سنة وكان مؤمنا مخلصا يـكـتم إيمانه إلى أن ظهر موسى على السحرة فأظهر حزقيـل أمره فأخذ يومئذ وقتل مع السحرة صلبا وهو الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله تعالى - وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه - وقال رسول الله ﷺ «سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين حبيب النجار مؤمن آل يس وحزقيـل مؤمن آل فرعون وعلى مؤمن آل محمد ﷺ وهو أفضلهم» واما امرأة حزقيـل فانها كانت ماشطة بنات فرعون وكانت مؤمنة من إماء الله الصالحات إلا أنها كانت مع بنات فرعون تخدمهن . وكان من قصتها ما أخبرنا به بالأسانيد عن سعيد بن جبـير عن ابن عباس ان رسول الله ﷺ قال « لما أسرى بى مررت برائحة طيبة فقلت لجبريل عليه السلام ماهذه الرائحة ؟ قال هذه رائحة ماشطة آل فرعون وأولادها كانت تمشط ذات يوم بنت فرعون فوق المشط من يديها فقالت باسم الله فقالت بنت فرعون أبى قالت لا بل ربى ورب أليك فقالت لها لأخبرن بذلك أبى فلما أخبرته دعا بها وبولدها وقال لها من ربك فقالت ان ربى وربك الله فأمر بتنور من نحاس فأحمى وأمر بها وبولدها أن يلقوا فيه فقالت له ان لى اليك حاجة فقال وما هى قالت تجمع عظامى وعظام ولدى فتدفنها قال ولك ذلك لما علينا من الحق . ثم أمر بأولادها فألقوا واحدا واحدا فى التنور حتى إذا كان آخر أولادها ولدا صبيا رضيعا فقال اصبرى يا أماء فانك على الحق فألقيت فى التنور مع ولدها . فسئل ابن عباس فيمن تكلم فى المهد فقال : تكلم فى المهد أربعة عيسى بن مريم وشاهد يوسف وصاحب جريج وهذا الصبي .

الباب الثانى عشر فى ذكر آسية بنت مزاحم امرأة فرعون
ومقتلها رحمها الله تعالى

قال الله تعالى - وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون - يقال إن امرأة فرعون آسية كانت من بنى اسرائيل وكانت مؤمنة مخلصه وكانت تعبد الله سرا حتى إنها كانت لتعلل فى قضاء حاجتها فتبرز فتصلى يومها فى مزرها خوفا من فرعون . وكانت على تلك الحالة الى ان قتل فرعون امرأة حزقيـل وكانت آسية متطلعة من كوة فى قصر فرعون تنظر الى الماشطة امرأة حزقيـل كيف تعذب وتقتل . فلما قتلت الماشطة عاينت آسية للملائكة وقد عرجت بروحها لما أراد الله تعالى من كرامتها وما أراد لها من الخير فزادت يقينا بالله وتصديقا فينا هى كذلك إذ دخل عليها فرعون وجعل يخبرها بخبر الماشطة امرأة حزقيـل وما صنع بها فقالت له آسية الويل لك يا فرعون ما أجراؤك على الله تعالى فقال لها لعلك قد اعتراك الجنون الذى اعترى صاحبك فقالت ما اعترانى جنون ولكنى

آمنت بالله ربى وربك رب العالمين فدعا فرعون أمها وقال لها إن ابنتك قد أخذها الجنون الذى أخذ الماشطة ، ثم انه أقسم لتذوقن الموت او لتكفرن بالله موسى فخلت بها أمها وسألتها موافقة فرعون فيما أراد فأبت وقالت تريدن ان أكفر بالله فلا والله ما أفعل ذلك أبدا فأمر بها فرعون فمدت بين أربعة أوتاد ثم مازالت تعذب حتى ماتت رحمها الله تعالى ، وذلك قوله تعالى - وفرعون ذى الأوتاد - عن ابن عباس قال أخذ فرعون امرأته آسية حين ابتدأ بها يعذبها لتدخل فى دينه فمر بها موسى وهو يعذبها فشكت اليه بأصبعها فدعا الله موسى ان يخفف عنها من العذاب فبعد ذلك لم يجد للعذاب ألما الى أن ماتت فى عذاب فرعون فقالت وهى فى العذاب - رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى - الآية فأوحى الله اليها أن ارفعى رأسك ففعلت فرأت البنت فى الجنة من درة فضحكت ، فقال فرعون انظروا الى الجنون الذى بها تضحك وهى فى العذاب .

الباب الثالث عشر فى بناء الصرح

قال الله تعالى - وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا - الآية قالت العلماء كان الله تعالى قد أُملى لفرعون فى كل باب من أبواب التملك والتسلط والثروة والتتم والترفع والتمتع ما قد استخف به رعيته من أهل مملكته حتى استعبدهم فعبدوه وادعى الربوبية فقبلوه مع مأوتى من العمر الطويل والقوة والمتعة والسعة والجنود والشوكة والعدة والعدد ، وكان قد بلغ من صحة جسمه واعتدال طبيعته وخلقته وقوة تركيبه وبنيته أنه ربما لبث أربعين يوما وليلة لا يخرج منه شيء إلا مرة واحدة وهو مع ذلك يأكل ويشرب ولا يبرق ولا يتمخط ولا يتنحج ولا يسعل ولا يأخذ وجع فى بطنه ولا ترمد عيناه ولا يمرض ولا تصيبه آفة فى نفسه ولا كراهة قالوا وبلغ من إملاء الله تعالى انه كان يركب كل صعب وذلول من دوابه قال سعيد بن جبير ملك فرعون أربعائة سنة لا يرى مكروها ولو كان فى تلك المدة أدرك جوع يوم أو حمى ليلة لما ادعى الربوبية وقدم على خطب عظيم وخطر جسيم فلم يمسه سوء ولا مكروه ولا تلقاه الا محبوب ومرغوب وكان له قصر من قصوره مشرف منيف على ألف درجة وسخر الله له دابة من دوابه يركبها فيصعد ذلك القصر عليها ، وكان يركبها صاعدا ونازلا مع ما أنعم الله تعالى به عليه استدراجا منه فلما عين من أمر موسى ما عين لم يزد ذلك إلا اعتوا واستكبارا ، وعلم من قومه الرعب والخوف فخاف عليهم أن يؤمنوا بموسى ويجعلوه مكانه فاحتال لنفسه وعزم على بناء صرح يقوى به سلطانه ويشيد أركانه فقال لوزيره يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع الى إله موسى وإني لأظنه كاذبا فأمر هامان بينائه فجمع له العمال والفعلة ولم يترك أحدا يقدر عليه ممن يعمل البنيان إلا جمعه لبنائه حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ممن يطبخ الآجر والجص ويتخذ الخشب والأبواب والمسامير فلم يزل يبني الصرح ويسر الله تعالى له أمره استدراجا له منه وأتاه الأمر على ما يريد الى أن فرغ منه فى سبع سنين فارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق منذ خلق الله السموات والأرض

فشق ذلك على موسى فاوحى الله تعالى اليه أن دعه وما يريد فاني مستدرجه وآخذ به بغته واني مبطل كل ما عمله في ساعة واحدة وكان ذلك الصرح إذا طلعت الشمس ضرب ظله نحو المغرب وإذا غربت ضرب ظله نحو المشرق بحيث لا يعلمه الا الله تعالى فلما أتم بناءه بعث الله تعالى جبريل عليه السلام فضرب بجناحه الصرح ضربة فقطعته ثلاث قطع فوقعت قطعة منه في البحر وقطعة في الهند وقطعة في المغرب . قال الضحاك بعث الله جبريل فضرب بجناحه الصرح فقفز به على عسكر فرعون قتل منهم ألفي ألف رجل قالوا ولم يبق أحد ممن عمل فيه إلا أصابه موت أو حريق أو عاهة فما من نجار أو حداد أو بناء إلا ليست يده ، وأما الذين كانوا يطبخون الآجر والجص فانهم احترقوا عن آخرهم ، وأما القهارمة والعمال فماتوا وكان تدمير فرعون من امر الله تعالى على ذلك كله ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس ، فلما رأى فرعون ذلك من امر الله تعالى علم ان حيلته لم تكن عنه شيئاً فعزم على قتال موسى وقومه فأمر أصحابه فنصبوا له الحرب ثم إن عسكر فرعون قالوا لموسى إنك لساحر وأنت عبد من عبيد فرعون أبقت منه وكفرت نعمته وتربيته ونسيت احسانه اليك ومنته عليك حيث ألقاك امك في اليم قبجباك وبغضا لك لما علمت ما أنت صائر اليه من سوء الحال فاستنقذك فرعون من الغرق واستدركك من الموت فأواك وكفلك ورباك واتخذك ولداً ، ثم فررت منه آبقاً كافراً وجتته عدواً محارباً فلسنا بممتنعين عنك حتى نردك إلى عبادته وخدمته أو نذيقك الدل والهوان ، فلما رأى الله تعالى ذلك وقد علم انه لا يغني عنهم ما جاءهم به موسى لما سبق فيهم من مكر الله النافذ وحقت عليهم كلمة العذاب ابتلاهم الله بالعذاب وبالآيات .

الباب الرابع عشر في ذكر الآيات التي ابتلى الله بها فرعون وقومه حين دنا هلاكهم اظهاراً لقدرته وإلزاماً لحجته

قال الله تعالى - ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات - قال المفسرون هي العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس وخلق البحر فقال تعالى - ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات .

قال قتادة : أما السنون فكانت ياديتهم ومواشيهم ، وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم قال الله تعالى - فأرسلنا عليهم الطوفان - الآية . واختلف المفسرون في ذلك الطوفان ما هو .

قال ابن عباس : كان أول الآيات الطوفان وهو الماء أرسل عليهم من السماء ، وقال مقاتل هو الماء طغى فوق حرونها فأهلكها ، وقال الضحاك هو الغرق ، وقال مجاهد وعطاء هو الموت التدريج الجارف ، وروى ذلك عن رسول الله ﷺ ، وقال وهب هو الطاعون بلغة أهل اليمن أرسل الله الطاعون على ابكار آل فرعون فاقتضهن في ليلة فلم يبق منهن باقية ، وقال أبو قلابة الطوفان الجدرى فهم أول من عذب به فبقى في الأرض والجراد والقمل .

واختلفوا في القمل ماهو ، فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس القمل هو السوس الذي يخرج من الحنطة . وروى عن أبي طلحة انه الذباب . وقال مجاهد والسدى وقتادة والكلبي وغيرهم الجراد الطيارة التي لها أجنحة والقمل الصغار التي لا أجنحة لها . وروى معمر عن قتادة قال القمل أولاد الجراد ، وقال عبد الرحمن بن أسلم هو البراغيث . وقال عطاء هو القمل دليله قراءة الحسن والقمل بفتح القاف وجزم الميم . وقال أبو عبيدة هو الحنّان وهو ضرب من القردان قال أبو العالية أرسل الله الحنّان على دوابهم فأكلها حتى لم يبق منها شيء ولم يقدرُوا على السير قال أمية ابن أبي الصلت الثقي .

أرسل الله الجراد عليهم وعذابا فأهلكهم دبور

باب في صفة تنزيل هذه الآيات وتفصيلها وكيفيتها

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن اسحق وغيرهم من أصحاب الأخبار دخل حديث بعضهم في حديث بعض : لما آمنت السحرة وصلبهم عدو الله فرعون ورجع عدو الله مغلوبا مقهورا انصرف موسى وهرون إلى عسكر بني اسرائيل فأمر فرعون قومه أن يكلفوا بني اسرائيل ما لا يطيقون فكان الرجل من القبط يجيء الى الرجل من بني اسرائيل يقول له انطلق معي فاكنس حتى واعلف دوابي واستقل وتجيء القبطية الى الكريمة من بني اسرائيل فتكلفها ما لا تطيق ولا يطعمونهم في كل ذلك خيرا فاذا اتصف النهار يقولون لهم اذهبوا فاكثبوا لأنفسكم ماتا كلون فشكوا ذلك إلى موسى فقال لهم - استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين - . قالوا - يا موسى - أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا - كنا نطعم اذا استعملونا من قبل أن تأتينا فلما جئتنا استعملونا ولم يطعمونا ، فقال موسى - عسى ربكم أن يهلك عدوكم - يعني فرعون والقبط - ويستخلفكم في الأرض - يعني الشام ومصر - فينظر كيف تعملون - فلما أبى فرعون وقومه إلا التماذى على الكفر والاقامة على الشر والظلم دعا موسى ربه فقال : يارب إن عبدك فرعون قد طغى في الأرض وبغى وعتا وان قومه تقضوا عهده وأخلفوا وعده ، رب خذهم بعقوبة تجعلها لهم تقمة ولقومي عظة ولن بعدهم من الأمم اعتبارا فتابع الله عليهم الآيات المفصلات بعضها في اثر بعض فأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات ثم بعث الله عليهم الطوفان وهو الماء أرسل عليهم من السماء حتى كادوا يهلكون ويوت بني اسرائيل ويوت القبط مشتبكة مختلطة بعضها في بعض فامتلاّت بيوت القبط حتى قاموا في الماء الى تراقيهم من جلس منهم غرق ولم يدخل بيوت بني اسرائيل من الماء قطرة واحدة وفاض الماء على وجه أراضهم وركد فلم يقدرُوا على أن يحرثوا ولا يعملوا شيئا حتى جهدوا ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت ، فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا العذاب فنؤمن بك ونرسل معك بني اسرائيل . فدعا موسى ربه فرفع عنهم الطوفان فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني اسرائيل وعادوا الى أشرف ما كانوا عليه . فأثبت الله تعالى لهم في تلك السنة من

الكلاء والزرع والثمرة ما لم ينبت قبل ذلك فأعشبت بلادهم وأخصبت . فقالوا هذا ما كنا نتمنى وما كان هذا الماء الانعمة لنا وما يسرنا أنا لم نمطر فأقاموا شهرا في عافية ثم بعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زرعهم وثمارهم وأوراق أشجارهم وزهرها حتى انها كانت لتأكل الأبواب والشياب والأمتعة وسقوف البيوت والخشب والسامير من الحديد حتى تساقطت دورهم وابتلى الجراد بالجوع فجعل لا يشبع وكان لا يدخل بيوت بني اسرائيل ولا يصيبهم من ذلك شيء فعجبوا وضجوا وقالوا - يا موسى ادع لناربك بماعهد عندك لأن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك وترسلن معك بني اسرائيل فأعطوه عهد الله وميثاقه فسأل موسى ربه فكشف الله عنهم الجراد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت ، ويقال ان موسى برز الى الفضاء فأشار الى المشرق بالعصا فذهب الجراد من حيث جاء كأن لم يكن .

فصل في بعض ماورد من الأخبار الغريبة في الجراد

أخبرني الحسن بن محمد بإسناده عن جابر عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه كان يدعو على الجراد يقول : اللهم اقطع الجراد . اللهم اقطع دابرهم . اللهم اقل كبارهم وأهلك صغارهم وأفسد بيضه وخذ بأفواههم عن معاشنا وأرزاقنا إنك أنت سميع الدعاء فقال رجل من القوم كيف ذلك يا رسول الله تدعو على جند من جنود الله بهلاكه وقطع دابره ؟ فقال إنما الجراد شر حوت من البحر .

قال ابن علاثة : وحدثني من رأى الحوت ينثره ، وبإسناده عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « في صدر الجراد مكتوب جند الله الأعظم » . وبإسناده عن جابر بن عبد الله قال . عدم الجراد في سنة من سنن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلم يخبر عنه بشيء فاعتم لذلك فأرسل راكبا إلى اليمن وراكبا إلى الشام وراكبا إلى العراق يسألون هل رأوا شيئا من الجراد أو لا فأتاه الراكب إلى اليمن فدخل اليمن بقبضة من الجراد فألقاه في يده فلما رآه كبر ثلاثا ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « خلق الله ألف أمة منها ستمائة في البحر وأربعمائة في البر فأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد فاذا هلك الجراد تتابع مثل النظام إذا قطع سلكه » وبإسناده عن أبي أمامة الباهلي يحدث عن النبي ﷺ أنه قال « إن مريم ابنة عمران سألت ربها أن يطعمها لحما لادم له فأطعمها الجراد فقالت اللهم أعشه بغير رضاع وتابع بينه وبينه شباع » فقلت يا أبا المضيء ما الشباع ؟ قال الصوت ، وبإسناده عن عبد الله بن ضميره السلولي قال : لما أخرج الله تعالى ابليس من الجنة قال : لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا قال الله تعالى : وأنا متخذ من خلقي جندا هو الجراد فقال ابليس وأنا جندي النساء هن شبكي التي لا تخطيء أبدا .

أخبرنا الحسين بإسناده عن الأوزاعي يقول : كان ببيروت رجل صالح يذكّر أنه رأى رجلا صالحا راكبا على جرادة قال وعليه خفان طويلان أظنهما أحمرين وهو يقول الدنيا باطل باطل

ما فيها ويقول بيده هكذا فحيثما أشار استأق الجراد الى ذلك الموضع فبلغنا ان ذلك الرجل ملك الجراد . قال فأقام قوم فرعون شهرا في عافية ثم بعث الله عليهم القمل وذلك ان موسى أمر أن يمشى الى كتيب أعفر بقرية من قرى مصر تدعى عين شمس فمشى موسى الى ذلك الكتيب وكان مهिला عظيما فضربه بعصاه فانها لم تضره القمل فتبع ما بقي من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكلها ولحس الأرض كلها وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعضه وكان يأكل أحدهم الطعام فيمتلىء قملًا حتى إن أحدهم ليبنى الأسطوانة بالجلس ويتركها حتى لا يرتقى فوقها شيء ثم يرفع فوقها الطعام فاذا صعد اليه لياأكله وجده مليء قملًا فما أصيبوا يبلاء كان أشد عليهم من القمل وأخذ القمل اشعارهم وابشارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزمت جلودهم كأنها الجدري عليها ومنعهم النوم والقرار ولم يستطيعوا لها حيلة . وقال سعيد بن جبير القمل السوس الذي يخرج من الحبوب فكان الرجل يخرج عشرة أقفزة الى الرحافلاترد منها ثلاثة أقفزة فلما رأوا ذلك شكوا الى مرسى وصاحوا وقالوا يا أيها الساحر : اى أيها العالم إنا نتوب ولا نعود فادع لنا ربك بما عهد عندك يكشف عنا هذا العذاب فدعا موسى ربه فكشف عنهم القمل فانتشروا في أقطار الأرض وأطراف البلاد بعدما أقام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت ثم نكثوا العهد وعادوا الى أخبت أعمالهم وقالوا ما كنا قط أحق ان نستيقن أن موسى ساحر لنا إلا اليوم فيجعل الرمل دواب فعلى ماذا نؤمن ونرسل معه بنى اسرائيل فقد أهلك زرعنا وحروثنا وأذهب أموالنا فما عسى ان يفعل أكثر مما فعل وعزة فرعون لا تصدق به أبدا ولا تتبعه ، فدعا عليهم موسى بعدما أقاموا شهرا في عافية وقيل أربعين يوما فأوحى الله تعالى اليه وأمره ان يقوم على ضفة النيل فيغرز عصاه فيه ويشير بالعصا الى أدناه وأقصاه وأعلاه وأسفله ففعل ذلك فتتابعته الضفادع بالنقيق من كل جانب حتى أعلم بعضها بعضا وأسمع أدناها أقصاها ثم انها خرجت من النيل مثل الليل الدامس سراعا تؤم نحو باب المدينة فدخلت عليهم في بيوتهم بغتة وامتلأت منه أفئيتهم وآنيتهم وأبنيتهم وكان أحدهم لا يكشف ثوبا ولا إناء ولا طعاما ولا شرابا إلا وجد فيه الضفادع وكان الرجل يجلس الى ذقنه في الضفادع ويهم أن يتكلم فتثب الضفادع في فيه وكان أحدهم ينام على فراشه وسريره فيستيقظ وقد ركبته الضفادع ذراعا بعضها فوق بعض وتسير عليه ركاما حتى لا يستطيع ان ينصرف الى شقه الأيمن ولا الأيسر وكان أحدهم يفتح فاه لأكلته فتسبقه الضفدعة الى فيه وكانوا لا يعجنون شيئا من العجين الا انشدخت فيه ولا يطبخون قدرا الا امتلأت منه وكانت تثب في نيرانهم فتطفئها وفي طعامهم فتفسده فلقوا منها أذى شديدا .

روى عكرمة عن ابن عباس قال : كانت الضفادع برية فلما أرسلها الله تعالى على فرعون سمعت وأطاعت فجعلت تقذف أنفسها في القدور وهي تفور وفي التناير وهي مسجورة فأثابها الله تعالى بحسن طاعتها برد الماء قال فضجوا الى فرعون من ذلك وضاق عليهم أمرهم حتى كادوا يهلكون وصارت المدينة وطرقها مملوءة جيفا من كثرة ما يطئونها بأقدامهم وأروحت البقاع كلها منها فلما

رأوا ذلك بكوا وشكوا الى موسى وقالوا اكشف عنا هذا البلاء فاننا نتوب هذه المرة ولا نعود فأخذ على هذا عهدهم وموآثيقهم ثم ان موسى دعاه فكشف عنهم الضفادع وذلك فيما يروى أن موسى أمر أن يهتف بعصاه ويميلها ففعل ذلك فانقشع ما كان منها حيا فلحق بالنيل وأرسل الله على الميتة ريحا ففتحها عن مدينتهم بعدما أقامت عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت فأقاموا شهرا في عافية وقيل اربعين يوما ثم نقضوا العهد وعادوا الى كفرهم وتكذيبهم ، فدعا عليهم موسى فأرسل الله عليهم الدم وذلك أن الله تعالى أمر موسى أن يذهب الى شاطئ البحر فيضربه بعصاه ففعل ذلك فسال عليهم النيل دما وصارت مياههم كلها دما وما يسقون من الأنهار والآبار إلا وجدوه دما أحمر عبيطا فشكوا ذلك الى فرعون وقالوا انا قد ابتلينا بهذا الدم وليس لنا شراب غيره فقال لهم إنه قد سحركم موسى فكان يجتمع الرجلان على الاناء الواحد القبطى والاسرائيلى فيكون ما يلى الاسرائيلى ماء وما يلى القبطى دما عبيطا وكان القبطى والاسرائيلى يستقيان من ماء واحد فيخرج ماء القبطى دما وماء الاسرائيلى ماء عذبا وكانا يقومان الى الجرة التى فيها ماء فيخرج للاسرائيلى ماء وللqبطى دم حتى ان المرأة من آل فرعون تآتى الى المرأة من بنى اسرائيل حين يجهدا العطش فتقول اسقينى من مائك فتسكب لها من جررتها أو تعصب لها من قربتها فتعود فى الاناء دما حتى إنها تقول لها اجعليه فى فيك ثم يجيه فى فى فتأخذ فى فيها ماء فاذا مجته صار دما قالوا والنيل على ذلك يسقى الزرع والشجر فاذا ذهبوا ليستقوا من بين الزرع عاد الماء دما عبيطان وان فرعون اعتراه العطش فى تلك الأيام حتى انه اضطر الى مضغ الأشجار الرطبة فاذا مضغها صار ماء دما ملحاً أجابا ومرآ زعاقاً فكثوا فى ذلك سبعة أيام لا يأكلون ولا يشربون الا الدم .

وقال زيد بن أسلم : كان الدم الذى سلط عليهم الرعاف فلما اضجروا من ذلك قالوا لموسى عليه السلام ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك وترسل معك بنى اسرائيل فدعا موسى ربه فكشف عنهم ذلك وذلك ان موسى أمر أن يضرب النيل بعصاه ضربة أخرى فضربه فتحول ماء صافيا كما كان فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهدوا عليه وذلك قوله تعالى - فأرسلنا عليهم الطوفان - الآيات قال نوف البكالى ابن امرأة كعب الأحبار مكث موسى فى آل فرعون عشرين سنة بعد ما غلب السحرة يريهم الآيات الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وقال أصحاب الأخبار لما يئس موسى من إيمان فرعون وقومه وآهم لا يزدادون إلا الطغيان والكفر والتمادى والكبر دعا عليهم وأمن هرون عليهما السلام وهو - ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم - فأجاب الله دعاءهما كما قال تعالى - قد أجيب دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان - الآية قالوا وكان لفرعون وأصحابه من أثاث الدنيا وزهرتها وزينتها من الذهب والفضة والياقوت وأنواع الحلى والجواهر ما لا يحصىه إلا الله تعالى وكان أصل ذلك المال مما جمعه يوسف عليه السلام فى زمانه أيام القحط فبقى ذلك فى يد القبط فأوحى الله الى موسى عليه السلام إني مورت بنى اسرائيل ما فى أيدي آل فرعون من العروض والحلى وجاعله

لهم جهازا وعيادا إلى الأرض المقدسة فاجعل لذلك عيدا تعتكف عليه أنت وقومك تشكرونى وتذكرونى وتعظمونى ذلك اليوم وتعبدونى فيه لما أريكم من الظفر ونجاة الأولياء وهلاك الأعداء واستعبروا لعيدكم من آل فرعون الحلى وأنواع الزينة فانهم لا يمنعون عنكم للبلاء الحال بهم فى ذلك الوقت ولما قذفت فى قلوبهم لكم من الرعب ففعل موسى ذلك كما أمره الله تعالى فأمر فرعون بزينة اهله وولده وما كان فى خزائنه من أنواع الحلى فأعيرت لبني اسرائيل لما أراد الله بذلك أن ينقذ على موسى وقومه أفضل أموال أعدائهم بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا رجل لطفًا منه بهم وفضلا عليهم فلما دعا موسى عليهم مسخ الله الأموال التى بقيت فى أيديهم حجارة كلها حتى المنخل والدقيق .

قال محمد بن كعب القرظى : سألنى عمر بن عبد العزيز عن التسع آيات التى أراها الله فرعون وقومه فقلت الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد البيضاء والطمس وقلق البحر فقال عمر لا يكون الفقه إلا هكذا ثم إنه دعا بخريطة فيها أشياء مما كان أصيب لعبد العزيز بن مروان اذ كان فيها بقايا أموال فرعون فأخرج البيضة مشقوقة نصفين وإنها لحجر والجوزة مشقوقة وإنها لحجر والحصى والعدسة .

وروى محمد بن اسحق عن رجل من أهل الشام كان بمصر قال : قد رأيت نخلة مصروعة وانها لحجر وقال لقد رأيت انسانا وما شككت أنه انسان وإنه لحجر وكان ذلك المسخ فى أرقائهم دون أحرارهم اذ العبيد من جملة أموالهم فلم يبق لهم مال إلا مسخه الله تعالى ما خلا الذى بأيديهم من اسرائيل من الحلى والجواهر وأنواع الزينة .

وقال ابن عباس : أول الآيات العصا وآخرها الطمس . قالوا وبلغنا أن الدنانير والدراهم صارت حجارة منقوشة كهيتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا وجعل سكرهم حجارة .

الباب الخامس عشر فى قصة اسراء موسى عليه السلام ببني اسرائيل وخبر فلق البحر لهم قال الله تعالى - وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون - قال العلماء بأخبار الأنبياء : أوحى الله تعالى الى موسى حين أراد اظهاره على عدوه أن اجمع بني اسرائيل كل أهل أربعة بيوت فى بيت ثم اذبحوا أولاد الضأن واضربوا بدمائها على الأبواب فانى مرسل على أعدائكم عذابا وانى سأرسل الملائكة فلا تدخل بيتا على بابة الدم وسأمرها أن تقتل أبكار آل فرعون من أنفسهم وأموالهم فتسلون أتم ويهلكون هم ثم اخبزوا فطيرا فانه أسرع لكم ثم أسر بعبادى حتى تنهى بهم الى البحر فياثيك أمرى فأمر موسى بني اسرائيل ففعلت ذلك فقالت القبط لبني اسرائيل لم تجعلوا هذا الدم على أبوابكم . فقالوا إن الله تعالى لمرسل العذاب عليكم فنسلم وتهلكون فقالت لهم القبط فما يعرفكم ربكم إلا بهذه العلامة فقالوا هكذا أمرنا نبينا فأصبحوا وقد طعن أبكار آل فرعون وماتوا كلهم فى ليلة واحدة وكانوا سبعين ألفا فاشتغلوا بدفنهم وبما نالهم من

حزنهم على المصيبة وسرى موسى وقومه متوجهين إلى البحر وهم ستمائة ألف وعشرون ألفا لا يعد فيهم ابن سبعين سنة لكبره ولا ابن عشرين سنة لصغره وهم المقاتلة سوى الذرية وكان موسى على الساقة وهرون على المقدمة ، فلما فرغ القبط من دفن أبكارهم وبلغهم خروج بني اسرائيل . قال فرعون هذا عمل موسى وقومه قتلوا أبكارنا من أنفسنا ثم إنهم خرجوا ولم يرضوا أن ساروا بأنفسهم حتى ذهبوا بأموالنا معهم فنأدى فرعون في قومه كما قال الله تعالى - فأرسل فرعون في المدائن حاشرين إن هؤلاء لشر ذمة قليلون وإنهم لنا لعائنون وأنا لجميع حاذرون - ثم إن فرعون تبعهم في قومه وعلى مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة ويده حربة ، وقال ابن جريج أرسل فرعون في أثر موسى وقومه ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسوّر مع كل ملك ألف رجل ثم خرج فرعون خلفهم في الدهم وكان في عسكر فرعون مائة ألف حصان أدهم سوى سائر الألوان وذلك حين طلعت الشمس وأشرقت كما قال الله تعالى - فأتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان ورأت بنو اسرائيل غبار عسكر فرعون قالوا يا موسى أين ما وعدتنا من النصر والظفر هذا البحر قدامنا إن دخلنا غرقنا وفرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا ولقد أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا فقال موسى لقومه يا قوم استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقال عيسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون - .

[فصل] قالوا لما سار موسى ببني اسرائيل من مصر وأرادوا أن يسيروا ضرب الله عليهم التيه فلم يدرؤا أين يذهبون فدعا موسى عليه السلام مشايخ بني اسرائيل فسألهم عن ذلك فقالوا له إن يوسف عليه السلام لما مات بمصر أخذ على اخوته عهدا أن لا يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم فيضعوه في الأرض المقدسة فلذلك نالنا هذا الأمر فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموه فقام موسى ينادى : أنشد الله كل من يعلم موضع قبر يوسف الا أخبرني ومن لا يعلم صمت أذناه عن قولي ، فكان يمر بين الرجلين ينادى فلا يسمعان قوله حتى سمعته عجوز منهم ، فقالت له : رأيته إن دلتك عليه أطميني ما سألتك ؟ فأبى عليها ، وقال حتى أستاذن ربي فأمره ربه أن يعطيها منها فأعطاه ذلك . فقالت له : اني أريد أن لا تنزل غرفة من الجنة الا نزلتها معك . قال نعم ، قالت فاني عجوز كبره لا أستطيع أن أمشي فأحملني فحملها فلما دنت من النيل قالت له : انه في جوف هذا الماء فادع الله أن يحسر عنه الماء فدعا الله تعالى فحسره عنه ، فقالت له : احضر ههنا ففعل فاستخرجه وهو في صندوق من مرمر فحمله معه ودفنه في الأرض المقدسة .

قال عروة بن الزبير : وقد كان الله تعالى أمر موسى أن يسير ببني اسرائيل إذا طلع الفجر فدعا ربه أن يؤخر طلوعه حتى يفرغ من أمر يوسف ففعل ، فمن ثم تحمل اليهود موتاهم من كل بلد إلى الأرض المقدسة من فعل نبهم ذلك .

أخبرني الحسن بن محمد بإسناده عن ابن أبي موسى الأشعري عن أبيه عن النبي ﷺ قال :
 نزل النبي ﷺ بأعرابي فأكرمه ، فقال له عليه السلام : تعاهدنا فأتاه الأعرابي ، فقال له عليه
 السلام : ما حاجتك ؟ قال له الأعرابي : ناقة يارسول الله برحلتها وأعز يحلبها أهلي ، فقال له رسول
 الله ﷺ ثانية ما حاجتك ، فقال مالى حاجة غيرها ، فقال عليه السلام : إن عجوز بنى إسرائيل
 كانت أحسن مسألة من هذا وذكر الحديث الذى فى قصة يوسف . قال فلما انتهى موسى إلى البحر
 هاجت الريح وعادت ترمى بموج كالجبال ، فقال له يوشع بن نون : يا كليم الله أين أمرت فقد غشنا
 فرعون والبحر أمامنا ؟ فقال موسى ههنا فخاض يوشع بن نون الماء فجاز البحر ولم يوار حافر دابته
 للماء ، وقال الذى يكتم إيمانه وهو حزقيل مؤمن آل فرعون : يا كليم الله أين أمرت . قال ههنا
 فكبح فرسه بلجامه حتى طار الزيد من شدقه ، ثم اقتحم البحر فارتسب فى الماء فذهب القوم
 ليصنعوا مثل ذلك فلم يقدروا فجعل موسى لا يدرى كيف يصنع فأوحى الله إليه - أن اضرب بعصاك
 البحر - وكان الماء فى ذلك الوقت فى غاية الزيادة فضرب موسى البحر بعصاه فلم يطعه فأوحى الله
 تعالى إليه : أن كنهه فضربه ثانيا وقال : انقلب ياأبا خاله باذن الله تعالى - فانقلب فكان كل فرق
 كالطود العظيم - فلما انقلب البحر فاذا بالرجل الذى أقحم فرسه البحر واقف على فرسه لم يتبل سرجه
 ولا لبده وظهر فى البحر اثنا عشر طريقا لاثنى عشر سبطا لكل سبط طريق وأرسل الله تعالى الريح
 والشمس على قعر البحر حتى صار يبسا كما قال الله تعالى - فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف
 دركا ولا تخشى - .

قال سعيد بن جبير : أرسل معاوية الى ابن عباس يسأله عن مكان لم تطلع فيه الشمس الا مرة
 واحدة فأرسل إليه انه المكان الذى انقلب عنه البحر لبنى إسرائيل .

أخبرنا الحسن بن محمد بإسناده عن عبد الله بن سلام أن موسى عليه السلام لما انتهى الى
 البحر قال : يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء اجعل لنا فرجا
 ومخرجا فأوحى الله تعالى إليه - أن اضرب بعصاك البحر - فاضرب بعصاه البحر - فانقلب فكان
 كل فرق كالطود العظيم - .

وروى الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أعلمكم الكلمات التى
 تكلم بها موسى حين جاز البحر بينى إسرائيل ؟ قلنا بلى يارسول الله . قال قولوا : اللهم لك الحمد واليك
 المشتكى ، وأنت المستعان ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » قال عبد الله :
 فماتركتهن منذ سمعتن من رسول الله ﷺ .

قالوا فخاض بنو إسرائيل البحر كل سبط فى طريق وعلى جانبيه الماء كالجبل العظيم لا يرى بعضهم
 بعضا فخافوا ، وقال : كل سبط قد قتل اخوانا فأوحى الله الى جبال الماء أن تشبكى فصار الماء شبكات
 كهيئات الطاقات فنظر بعضهم بعضا فأخذوا يجاوزون البحر وهم يرون بعضهم بعضا ويسمع بعضهم بعضا

حتى عبروا البحر سالمين فذلك قوله تعالى - وإذ فرقنا بكم البحر - أي فلقنا وميزنا لكم الماء يمينا وشمالا - فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأتم تنظرون - وذلك انه لما خرجت ساقة عسكر موسى من البحر وصلت مقدمة عسكر فرعون اليه فأراد موسى أن يدعو البحر ليرجع الى حالته الأولى فأوحى الله اليه - أن اترك البحر رهوا - أي ساكنا على حاله - إنهم جند مغرقون - فلما وصل جند فرعون الى البحر رأوه منفلقا ، فقال فرعون : انظروا الى البحر كيف انفلق لهيبتي حتى أدرك أعدائي وعبيدي الذين أبقوا مني فأقتلهم فادخلوا البحر فهاب قومه أن يدخلوه ولم يكن في خيل فرعون أنثى وانما كانت ذكورا كلها فجاء جبريل عليه السلام على فرس له أنثى وديق مشتهية للفحل وعليه عمامة سوداء فتقدمهم وخاض البحر فظن أصحاب فرعون أن الفارس منهم ، فلما شممت الحيل ربحها اقتحمت البحر في أثرها حتى خاضوا كلهم وجاء ميكائيل على فرس خلف القوم يستحثهم ويقول لهم : الحقوا بأصحابكم ، فلما أراد فرعون أن يسلك طريق موسى نهاه وزيره هامان وقال له : إني قد أتيت الى هذا الموضع مرارا ومالي عهد بهذا الطريق ، وإني أخاف ولا آمن ان يكون مكرا من الرجل يكون فيه هلاكنا وهلاك أصحابنا فلم يطعه فرعون وذهب معاجلا على حصانه ليدخل البحر فامتنع الحصان فجاءه جبريل على رمكة بيضاء فصهلت فحمحم اليها حصان فرعون فخاض جبريل البحر فتبعها حصان فرعون فأقحمه البحر ، فلما توافوا في البحر وهم أولهم ان يخرج من البحر أمر الله تعالى البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم فغرقهم أجمعين ، وذلك بمراى من بنى اسرائيل ، فذلك قوله تعالى - وأغرقنا آل فرعون وأتم تنظرون - يعنى إلى مصارعهم ، وانفرد جبريل عليه السلام بفرعون ، فلما أدرك فرعون الغرق - قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين - فقال له جبريل - الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين - ثم إن جبريل أراه فتياه وتوقعه الذى فيه وقال انما هذا فتياك الذى أفتيت به ، ثم جعل يدس في فيه من حمأ البحر مخافة أن يعيد تلك الشهادة . وفي الحديث أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ « ما بغضت أحدا من الخلق ما بغضت رجلين : أما أحدهما فمن الجن وهو إبليس عليه لعنة الله حين أبى أن يسجد لآدم ، والآخر من الإنس ، وهو فرعون حين قال - أنار بكم الأعلى - ولورأيتنى يا محمد وأنا آخذ من حمأ البحر وأدسه في فيه مخافة أن يقول كلمة التوحيد فيرحمه الله تعالى بها » .

قالوا فلما سمعت بنو اسرائيل صوت التطام البحر قالوا لموسى : ماهذه الضوضاء ، فقال لهم ، إن الله قد أهلك فرعون وكل من كان معه غرقا . فقالوا لموسى إن فرعون لا يموت ألم تر انه كان يلبث كذا وكذا يوما لا يحتاج الى شيء مما يحتاج اليه الانسان فأمر الله تعالى البحر فألقاه على نجوة من الأرض وعليه درعه حتى نظرا اليه بنو اسرائيل ، فذلك قوله تعالى - فاليوم نتجيك بيدنا لتكون لمن خلفك آية - فيقال انه لو لم يخرج الله يده لشك فيه بعض الناس ، فلما جاوز موسى بنى اسرائيل البحر أتوا على

قوم يعكفون على أصنام لهم — قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون — .

أخبرني الحسن بن محمد بإسناده عن محمد بن قيس قال : جاء يهودى إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فقال : يا أبا الحسن ما صبرتم بعد نبيكم خمسا وعشرين سنة حتى قتل بعضكم بعضا ، فقال بنى قد كان صبر وخير ولكنكم ما جفت أقدامكم من حمأ البحر حتى قلتم يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة فلما أغرق الله تعالى فرعون ومن معه ونجى موسى ومن معه بعث موسى جندين عظيمين من بنى اسرائيل كل جند اثنا عشر ألفا إلى مدائن فرعون ، وهى يومئذ خالية من أهلها قد أهلك الله عظماءهم ورؤساءهم وقادتهم ومقاتلتهم ، فلم يبق منهم الا النساء والصبيان والهرمى فأمر على الجندين يوشع بن نون وكالب بن يوقنا فدخلوا بلاد فرعون وغنموا ما كان فيها من أموالهم وكنوزهم فحموا من ذلك ما استقلت به الجمول منها ، وما لم يطيقوا حمله باعوه من قوم آخرين فذلك قوله تعالى — كم تركوا من جنات وعيون — إلى قوله تعالى — فاكهن كذلك وأورثناها قوما آخرين — إلى آخر القصة ، ثم إن يوشع بن نون استخلف على قوم فرعون رجلا منهم وعاد إلى موسى بمن معه من المسلمين فأنعمين شاكرين .

الباب السادس عشر فى قصة ذهاب موسى الجبل لميقات ربه وصفة إيتاء الله تعالى له الألواح وإنزاله التوراة وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى — وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر — وقال فى موضع آخر — وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة — . قال العلماء بقصص النبيين وسير الماضين : إن موسى كان وعد بنى اسرائيل وهو بمصر اذا خرجوا منها وهلك عدوهم أن يأتيهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون ، فلما أهلك الله تعالى فرعون وقومه واستنقذ بنى اسرائيل من أيديهم وأمنهم من عدوهم ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليها قالوا يا موسى : اثنتا بالكتاب الذى وعدتنا به فسأل موسى ربه ذلك فأمره الله أن يصوم ثلاثين يوما ثم يطهر ويظهر ثيابه ويأتى طور سيناء ليكلمه ويعطيه ذلك الكتاب فصام ثلاثين يوما ، فلما صعد الجبل أنكر خلوف فيه فتسوك بعود خرنوب .

وقال أبو العالية : أخذ من لحاء الشجر فصه فقالت له الملائكة إنا كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدتها بالسواك ، فأوحى الله تعالى إليه أن صم عشرة أيام آخر ، وقال له أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من رائحة المسك وكانت فتنتهم فى العشرة الأيام التى زادها الله تعالى على موسى فذلك قوله تعالى — وواعدنا موسى ثلاثين ليلة — ذا القعدة — وأتممناها بعشر — يعنى من ذى الحجة .

أخبرني الحسن بن محمد بإسناده عن أبي هريرة أن جميع الشهور تنقص ما خلا ذا القعدة لقوله

تعالى - وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر - أى من ذى الحجة - فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة - فلما مضت أربعون ليلة تطهر موسى وطهر ثيابه لميقات ربه ، فلما أتى طور سيناء كله ربه ونجاه وقرّبه وأدناه كما قال تعالى - وقرّبناه نجيا - .

قال وهب : كان بين الله وبين موسى سبعون حجابا فرفعها الله كلها الاحجابا واحدا فتخلى موسى لكلام الله تعالى واشتاق الى رؤيته وطمع فيها - فقال رب أرني أنظر اليك - .

قال السدى : لما كلم الله موسى غاص الحبيث إبليس في الأرض حتى خرج من بين قدمي موسى فوسوس في قلبه وقال : إن مكلمك الشيطان فعند ذلك سأل الرؤية ، فقال الله تعالى - لن ترانى - وليس يطيق البشر النظر الىّ في الدنيا من نظر الىّ مات ، فقال إلهي سمعت كلامك فاشتقت للنظر اليك ولأن أنظر اليك ثم أموت أحب الىّ من أن أعيش ولا أراك ، فقال له انظر الى الجبل وهو أعظم جبل في مدين يقال له زير وذلك ان الجبال لما علمت أن الله يريد أن يتجلى لجبل منها تعاضمت وتشاخصت رجاء أن يتجلى الله لها وجعل زير يتواضع من بينها ، فلما رأى الله تواضعه رفعه من بينهنّ وخصه بالتجلى . قال الله تعالى - فان استقرّ مكانه فسوف ترانى - فتجلى الله تعالى للجبل .

واختلف العلماء في معرفة التجلى . قال ابن عباس : ظهر نوره للجبل ، وقال الضحاك : أظهر الله تعالى من نور الحجب مثل منخر الثور ، وقال عبدالله بن سلام وكعب الأحبار : ما تجلى من عظمة الله تعالى للجبل إلا كسمّ الحياض حتى صار دكا دكا ، وقال السدى : ما تجلى لإلّقدر الخنصر يدلّ عليه ما روى ثابت عن أنس عن النبي ﷺ انه قرأ هذه الآية فقال : هكذا ووضع الابهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل يعني غار . وقال الحسن : أوحى الله تعالى الى الجبل وقال هل تطيق رؤيتي ؟ فغار الجبل وساخ في الأرض وموسى ينظر اليه حتى ذهب أجمع ، وقال ابوبكر بن عمر الوراق : حكى عن سهل بن سعد الساعدي أن الله تعالى أظهر من بين سبعين ألف حجاب نورا قدر درهم فجعل الجبل دكا . قال ابوبكر : فعذب إذ ذاك كل ماء وأفاق كل مجنون وبرى كل مريض وزال الشوك عن الأشجار واخضرت الأرض وأزهرت وخمدت نار المجوس وخرت الأصنام لوجوهها ، وقال السدى : ما تجلى للجبل لإلّقدر جناح بعوضة فصار الجبل دكا ، وقال ابن عباس ترابا ، وقال سفيان ساخ حتى وقع في البحر . قال عطية العوفي صار رملا هائلا ، وقال الكلبي جعله دكا : أى مكسرا جيالا صفارا ، وبالإسناد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى - فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا - قال صار بعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة في المدينة : أحد وورقان ورضوى ، ووقعت ثلاثة بمكة : نور وثبير وحراء - وخرّ موسى صعقا - قال ابن عباس : مغشيا عليه ، وقال قتادة ميتا ، وقال الكلبي : خرّ موسى صعقا يوم الخميس يوم عرفة ، وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النحر . قال الواقدي لما خرّ موسى صعقا ، قالت الملائكة ما لابن عمران وسؤاله الرؤية .

وفي بعض الكتب : أن ملائكة السموات والأرض أتوا موسى وهو مغشى عليه فجعلوا

يلكزون به بأرجلهم ويقولون يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة ، وقال وهب : لما سأل موسى الرؤية أرسل الله تعالى الضباب والصواعق والظلمة والرعد والبرق فأحاطت بالجبل الذي عليه موسى وأمر الله تعالى ملائكة السموات أن يعرضوا على موسى أربعة فراسخ من كل ناحية فمرت به الملائكة ملائكة سماء الدنيا كثيرا مثل البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بصوت عظيم كصوت الرعد الشديد ، ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى فهبطوا عليه مثل الأسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففرع موسى بما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة في جسده فقال : ندمت على مسئلتى فهل ينجيني من مكاني الذي أنا فيه شيء ان خرجت احترقت وإن قعدت مت ، فقال له خير الملائكة ورئيسهم ياموسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ، ثم هبطت ملائكة السماء الثالثة كأمثال النور لهم قصف ورجف ولبس شديد وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس والتهليل كلجب الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار ففرع موسى عليه السلام واشتد فزعه وأيس من الحياة ، فقال له رئيس الملائكة مكانك يا ابن عمران حتى ترى ما لاصبر لك عليه ، ثم هبطت عليه ملائكة السماء الرابعة لا يشبههم شيء من الذين مرّوا به ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الأبيض أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مرّوا به ، ثم هبطت عليه ملائكة السماء الخامسة في سبعة ألوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم طرفه ولم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلاً جوف موسى فزعا واشتد خوفه وكثر بكأؤه ، ثم قال له خير الملائكة وكبيرهم يا ابن عمران مكانك حتى ترى بعض ما لا تصبر عليه ، ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على عبدى الذى أراد رؤيتى فاعترضوا عليه فهبطوا وفى يد كل ملك منهم حربة طويلة تلهب نارا أشد ضوءا من الشمس ولباسهم كلهب النار وإذا سبحوا وقدموا جاوبهم كل من كان قبلهم من ملائكة السموات كلهم يقولون بشدة أصواتهم سبوح قدوس رب العزة أبدا لا يموت ، وفى رأس كل ملك منهم أربعة أوجه ، فلما رآهم موسى رفع رأسه وصوته يسبح معهم ويصيح ويقول : رب اذكرنى ولا تنس عبدك لا أدري هل أخلص مما أنا فيه أولا إن خرجت احترقت وإن مكثت احترقت ، فقال له رئيس الملائكة وكبيرهم أوشك يا ابن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذى سألت ، ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة . قال الله تعالى : أروه إياه ، فلما بدانور العرش انصدع الجبل من عظمة رب العزة ورفعت ملائكة السموات أصواتهم جميعا يقولون سبحان الملك القدوس رب العزة أبدا لا يموت بشدة أصواتهم فارتج الجبل واندك وخر موسى صعقا على وجهه ليس معه روح فقلب الله الحجر الذى كان موسى عليه وجعله كهيئة القبة لئلا يحترق موسى وأرسل الله عليه روح الحياة برحمته فقام موسى يسبح الله ويقول آمنت بأنك ربى وصدقت بأنه لا يراك أحد فيحيا ومن نظر الى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظمك وأعظم

ملائكتك أنت ربّ الأرباب واله الآلهة وملك الملوك لا يعدلك شيء ولا يقوم لك شيء تبت اليك لك الحمد لا شريك لك أنت ربّ العالمين .

قال السدي حف حول الجبل بالملائكة وحف حول الملائكة بالنار وحف حول النار بالملائكة وحف حول الملائكة بالنار ثم تجلى ربه للجبل .

أخبرني الحسن بإسناده عن عروة بن ديلم اللخمي . قال : كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى بماء ملساء ، فلما تجلى الله للجبل صار الطور دكا وتفطرت الجبال وصار فيها كهوف وسقوف قالوا ثم بعث الله تعالى جبريل عليه السلام الى جنة عدن فقطع منها شجرة فاتخذ منها تسعة ألواح طول كل لوح منها عشرة أذرع بذراع موسى وكذلك عرضه وكانت الشجرة التي اتخذ منها الألواح من زمرد أخضر ثم أمر جبريل أن يأتيه بتسعة أغصان من سدرة المنتهى فجاء بها فصارت جميعا نورا وصار النور قلما أطول مما بين السماء والأرض وكتب التوراة لموسى بيده وموسى يسمع صرير القلم فكتب الله له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا وذلك يوم الجمعة وأشرقت الأرض بالنور ثم أمر الله موسى أن يأخذها بقوة ويقرئها قومه فوضعت الألواح على الساق فلم تطق حملها لثقل العهود والمواثيق التي فيها فقالت يارب كيف أطيق أن أحمل كتابك الثقيل المبارك وهل خلقت خلقا يطيق حمل ذلك فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام وأمره أن يحمل الألواح فيبلغها موسى فلم يطق حملها فقال يارب من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها من النور والبيان والعهود وهل خلقت خلقا يطيق حملها فأمد الله بملائكة يحملونها بعدد كل حرف من التوراة فحملوها حتى بلغوها موسى وعرضوا له الألواح على الجبل فانصدع لها الجبل وخشع ، وقال يارب من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها وضرب الله مثلا في القرآن فقال تعالى - لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون - كما أنزل التوراة على الجبل فلم يطق حملها . قال فلما وضعوها على الجبل بين يدي موسى ، وذلك عند صلاة العصر فقبض موسى على الألواح فلم يطق حملها فلم يزل يدعو حتى هون الله عليه حملها فحملها فذلك قوله - يا موسى إني اصطفيتك - الآية وقوله تعالى - وكتبنا له في الألواح - الآية .

فصل في نسخة العشر الكلمات التي كتبها الله تعالى لموسى نبيه وصفيه في الألواح

وهي معظم التوراة وعليها مدار كل شريعة

وهي بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله الملك الجبار العزيز القهار لعبده ورسوله موسى بن عمران أن سبحنى وقدسنى لا اله إلا أنا فاعبدنى ولا تشرك بى شيئا واشكر لى ولوالديك إلى المصير أحيك حياة طيبة ولا تقتل النفس التي حرم الله عليك فأضيق عليك السماء بأقطارها والأرض برحبها ولا تحلف باسمى كاذبا فانى لا أطهر ولا أزكى من لا يعظم اسمى ولا تشهد بما لا يعنى سمعك ولا تنظر غينك ولا يقف عليه قلبك فانى أوقف اهل الشهادات على شهادتهم يوم القيامة وأسألهم عنها ولا تحسد

الناس على ما آتيتهم من فضلى ورزقى فان الحاسد عدو نعمتى ساخط لقسمتى ولا تزن ولا تسرق فأحجب عنك وجهى وأغلق دون دعوتك أبواب السموات ولا تدبج لغيرى فانه لا يصعد الى من قربان أهل الأرض إلا ما ذكر عليه اسمى ولا تفجرن بحليلة جارك فانه أكبر مقتا عندى وأحجب للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ، فهذه نسخة العشر الكلمات ، وقد أعطاها الله جميعها لمحمد ﷺ فى ثمان عشرة آية وهى قوله تعالى فى سورة بنى اسرائيل - وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه - إلى قوله - ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ثم جمعها فى ثلاث آيات من سورة الأنعام وهى قوله تعالى - قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم - إلى قوله تعالى - ذلكم وماكم به لعلكم تتقون .

أخبرنا أبو عمر محمد الفريابى بإسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لما أعطى موسى الألواح نظرفها فقال يارب لقد أكرمتنى بكرامة لم تكرم بها أحدا من العالمين قبلى قال - يا موسى إنى اصطفتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين - اى بقوة وجد ومحافظة وتموت على حب محمد عليه السلام قال موسى يارب ومن محمد ؟ قال أحمد الذى أثبت اسمه على عرشى قبل أن اخلق السموات والأرض بألفى عام وأنه نبي وصفي وخيرتى من خلقى وهو أحب إلى من جميع خلقى وجميع ملائكتى ، فقال موسى يارب ان كان محمد أحب إليك من جميع خلقك فهل خلقت أمة أكرم عليك من أمتى قال الله تعالى ان فضل أمة محمد عليه السلام على سائر الأمم كفضلى على جميع الخلق قال يارب ليتنى أراه وأراهم قال يا موسى انك لن تراهم ولو أردت أن تسمع كلامهم أسمعك قال يارب فانى أريد أن أسمع كلامهم قال الله تعالى يا أمة محمد فأجبنا كلنا من أصلاب آبائنا وأرحام أمهاتنا : لبيك اللهم لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك فقال الله تعالى يا أمة محمد ان رحمتى سبقت غضبى وعفوى سبق عقابى قد أعطيتكم من قبل أن تسألونى وقد أجبكم من قبل أن تدعوني ، وقد غفرت لكم من قبل أن تعصونى من جاء يوم القيامة بشهادة أن لا اله إلا الله وان محمدا عبدي ورسولى دخل الجنة ولو كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر ، وهذا قوله تعالى - وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين - وقوله تعالى - وما كنت بجانب الطور اذ نادينا - .

أخبرنا ابو عبد الله محمد بن احمد بن على بن نصير المكي قال اخبرنا أبو العباس محمد بن اسحق السراج قال حدثنا قتيبة بن سعيد قال حدثنا سعيد بن عبد الرحمن المعافى عن ابيه ان كعب الأخبار رأى حبرا من اليهود يبكى ، فقال له ما يبكيك ؟ فقال ذكرت بعض الأمر ، فقال كعب الأخبار أنشدك الله لئن أخبرتكم بما أبكاك لتصدقن . قال نعم . قال أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل على موسى عليه الصلاة والسلام ان موسى نظرفى التوراة فقال : إنى أجد أمة هم خير الأمم أخرجت للناس يأملون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأول والآخر ويقاثلون أهل

الضلالة حتى يقاتلوا الأعور النجاء ، فقال موسى رب اجعلهم أمتي قال هم أمة محمد يا موسى قال له الخبر نعم . قال كعب أنشدك الله تعالى هل تجد في كتاب الله المنزل على موسى أن موسى نظر في التوراة ، فقال اني أجدا أمة هم الحامدون رعاة الشمس هم المحكمون اذا أرادوا أمرا قالوا تفعله ان شاء الله تعالى . فقال موسى فاجعلهم أمتي فقال هم أمة محمد يا موسى قال له الخبر نعم ، قال كعب أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة ، فقال يارب اني أجدا أمة يا كلون كفاراتهم وصدقائهم ، وكان الأولون يحرقون صدقاتهم بالنار غير أن موسى كان يجمع صدقات بني اسرائيل فلا يجد عبدا مملوكا ولا أمة إلا اشتراها من تلك الصدقة وما فضل يحفر له حفرة عميقة القعر وألقاه فيها ، ثم دفنه كي لا يرجعوا فيه وهم المسبحون المستجيبون المستجاب لهم وهم الشافعون والمشفعون . قال موسى : يارب اجعلهم أمتي قال هي أمة محمد يا موسى . قال الخبر نعم قال كعب أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة ، فقال اني أجدا أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله تعالى وإذا هبط إلى واد حمد الله تعالى ، الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء غرا محجلين من آثار الوضوء فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد يا موسى قال الخبر نعم قال كعب أنشدك الله هل تجد في التوراة أن موسى نظرها فقال يارب اني أجدا أمة اذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، واذا عملها كتبت له عشر الى سبعائة ضعف ، واذا هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه واذا عملها كتبت عليه سيئة مثلها فاجعلهم يارب أمتي . قال هم أمة محمد يا موسى . قال الخبر نعم . قال كعب أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة ، فقال يارب اني أجدا أمة مرحومة أصفاء يرثون الكتاب فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجدا أحدا منهم إلا مرحوما فاجعلهم أمتي قال هم أمة أحمد يا موسى : فقال الخبر نعم . قال كعب : أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل ان موسى نظر في التوراة فقال يارب اني أجدا أمة مصاحفهم في صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصطفون في صلاتهم صفوفًا كصفوف الملائكة أصواتهم في مساجدهم كدوى النحل لا يدخل النار منهم أحد ، ومنهم من لا يرى الحساب الا مثل ما يرى الحر من وراء الشجر فاجعلهم أمتي . قال هم أمة محمد يا موسى . قال الخبر نعم . قال فلما عجب موسى من الخير الذي أعطاه الله لأمة محمد ﷺ وعليهم أجمعين . قال موسى يا ليتني من أصحاب محمد : فأوحى الله تعالى اليه بثلاث آيات يرضيه بهن فقال تعالى - يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فيخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين إلى قوله تعالى - دار الفاسقين - وقوله تعالى - ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون - قال فرضي موسى كل الرضا .

وقال ابن عباس : لما صار موسى الى طور سيناء الى اليقات . قال له ربه ما تبغى قال جئت أبتغي الهدى . قال وجدته يا موسى قال موسى يارب : ائني عبادك أحب اليك . قال الذي يذكركني

ولا ينساني . قال فأى عبادك أقضى . قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى . قال أى عبادك أعلم . قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه فيسمع الكلمة تهديه الى هدى أو ترده عن ردى .

وقال عبد الله بن مسعود : لما قرب الله تعالى موسى الى طور سيناء رأى عبدا فى ظل العرش جالسا قال يارب من هذا قال عبد لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله بر بوالديه لا يمشى بالنيمة . قال موسى يارب اغفر لى ما جرى من ذنبي وما غبر وما بين ذلك وما أنت أعلم به منى أعوذ بك من وسوسة نفسى وأعوذ بك من سوء عملى . قال قد كفيت ذلك يا موسى قال موسى يارب : أى الأعمال أحب اليك أن أعمل به قال تذكرنى ولا تنساني . قال : أى عبادك خير عملا قال من لم يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزنى فرجه مؤمن فى خلق حسن . قال فأى عبادك شر عملا قال فاجر فى خلق سيئ جيفة بالليل بطلال بالنهار قال ، فلما رجع موسى الى قومه ، وقد آتاهم بالتوراة أبوا أن يقبلوها ويعملوا بما فيها من الأثقال والأغلال التى كانت عليهم فيها وكانت شريعة ثقيلة فأمر الله جبريل فقلع جبلا على قدر عسكرهم ، وكان فرسخا فى فرسخ فرفعه فوق رؤوسهم مثل الظلة مقدار قامة الرجل ، وقال أبو صالح عن ابن عباس أمر الله تعالى جبلا من جبال فلسطين فاقطع من أصله حتى قام على رؤوسهم مثل الظلة فذلك قوله تعالى - وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور - وقوله تعالى - واذتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة - . وقال عطاء عن ابن عباس : رفع الله تعالى فوق رؤوسهم الطور وبعث نارا من قبل وجوههم وآتاهم البحر ملحاً من خلفهم ، وقيل لهم خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا فان قبلتموه وفعلتم ما أمرتكم به والا رضختكم بهذا الجبل وأغرقتكم فى هذا البحر وأحرقتكم بهذه النار ، فلما رأوا أن لا مهرب لهم منها قبلوا ذلك وسجدوا على شق وجوههم يلاحظون الجبل وهم سجدون فصارت سنة فى اليهود لا يسجدون الا على انصاف وجوههم فلما زال الجبل قالوا يا موسى سمعنا وأطعنا ولولا الجبل ما أطعناك .

وروى قتادة عن الحسن قال : مكث موسى بعد ما تعشاء نور رب العالمين وانصرف الى قومه أربعين ليلة لا يراه أحد الا مات حتى إنه اتخذ لنفسه برنسا وعليه برقع لا يبدى وجهه لأحد مخافة أن يموت .

وأخبرنى أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين الثقفى قال حدثنا محمد بن أبى شيبة قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله القزوينى قال حدثنا محمد بن مرزوق النضرى قال حدثنا هانىء بن يحيى السلمى قال حدثنا الحسن بن أبى سهل عن جعفر عن قتادة عن يحيى بن وثاب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لما كلم الله موسى كان يبصر بعد ذلك ديب النملة فى الليلة المظلمة على الصفا من مسيرة عشرة فراسخ .

وأخبرنا أبو عبد الله الثقفى . قال : حدثنا عبد الله بن شيبة قال حدثنا أبو حامد المستملى قال حدثنا

إسحق قال حدثنا خالد بن خراش قال حدثنا عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه أن موسى كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته نارا لشدة .

باب في ذكر قصة بني اسرائيل وهرون مع السامري حين اتخذ لهم العجل
قال أهل السير وأصحاب التواريخ : لما أهلك الله فرعون وقومه . قال موسى إني ذاهب إلى الجبل لميقات ربي وآتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذكرون وواعدكم ثلاثين ليلة واستخلف عليهم أخاه هرون فجاء جبريل عليه السلام على فرس يقال لها فرس الحياة وهي بقاء أنثى لا تصيب شيئا إلا حي فلما رآه السامري على تلك الفرس عرفه ، وقال إن لهذه الفرس لشأنا عظيما واخذ قبضة من تراب حافر فرس جبريل هذا قول السدي .

وقال الكلبي : إنما اتخذ السامري من تراب حافر فرس جبريل العجل حين عبروا البحر وبعث الله تعالى جبريل على فرس بقاء خطوتها مد البصر عليها تركب الأنبياء كلهم وخاض البحر وشمّت خيول قوم فرعون ريحها فخاضت في أثرها قالوا وإنما عرف السامري جبريل دون بني اسرائيل لأن فرعون حين أمر يذبح أولاد بني اسرائيل جعلت المرأة إذا ولدت الغلام انطلقت به سرا في جوف الليل إلى صحراء أو واد أو غار في جبل فأخفته فيقيض الله له ملكا من الملائكة يطعمه ويسقيه حتى يختلط بالناس ، وكان الذي ربي السامري جبريل عليه السلام فجعل يمص من أحد إبهاميه ممنا ومن الآخر عسلا فمن ثم عرفه ، ومن ذلك الوقت إذا جاع الطفل يمص إبهامه فيروي من المص لأنه جعل له فيه رزق ويقال إن جبريل عليه السلام وكل بالسامري وعلا لبونا تسقيه اللبن بالغداة والعشي حتى كبر واختلط بالناس ، فلذلك عرفه دون سائر بني اسرائيل لأنه هو الذي رباه وكان أبو عمرو^(١) السكندري يقول دابة موسى وفرعون دابة موسى أزاله بهشت وفرعون أزاله دوزخ ، ودابة السامري وجبريل دابة جبريل أزاله بهشت والسامري أزاله دوزخ بود . قال قتادة والسدي كان عظيما من عظماء بني اسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة ، ولكن عدو الله نافق وقال سعيد بن جبیر كان السامري من أهل كرمان ، وقال غيرهما كان رجلا صائغا من أهل باجرمي واسمه منجا ، وقال ابن عباس اسمه موسى ظفر ، وكان رجلا منافقا قد أظهر الاسلام ، وكان من قوم يعبدون البقر فدخل في قلبه حب البقر فلما ذهب موسى لميقات ربه ، وكان قد وعد قومه ثلاثين ليلة وأتمها الله بعشر حتى صارت أربعين فعذب بنو اسرائيل ثلاثين ليلة فلما لم يرجع اليهم افتتنوا وقالوا إن موسى أخلفنا الوعد فاغتنمها السامري حتى فعل ما فعل ، وقال قوم انهم عدوا الليل يوما والنهار يوما ، وكان موسى قد وعدهم أربعين ليلة فلما مضت عشرون يوما افتتنوا فأتاهم السامري وقال لهم إن موسى قد احتبس عنكم فينبغي أن تتخذوا إلها فان موسى ليس براجع اليكم ، وقد تم الميقات

(١) قوله وكان أبو عمرو الخ ، عبارة فارسية معناها دابة موسى وجبريل عليهما السلام من أهل الجنة ، ودابة فرعون والسامري من أهل جهنم اه من هامش الأصل .

فينبغي لكم أن تتخذوا إلهاً ، وإنما طمع فيهم السامريّ لأنهم يوم عبر موسى البحر مروا على قوم من العمالة وهم يعكفون على أصنام لهم فقالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة الآية فاعتنمها السامريّ ، فلما كان ذلك اليوم وخرج موسى ومضى من خروجه عشرون يوماً وكانوا قد استعاروا حلياً كثيراً من آل فرعون حين أرادوا الخروج من مصر بعلّة العيد ، وأهلك الله فرعون وقومه وبقي ذلك الحلي بأيدي بني إسرائيل فلما خرج موسى . قال هرون لبني إسرائيل إن حليّ القبط الذي استعتموه منهم غنيمة ولا يحل لكم فاجمعوه جميعاً واحفروا له حفرة وادفنوه فيها حتى يرجع موسى فيرى فيه رأيه ففعلوا ذلك فجاء السامريّ بالقبضة التي أخذها من تحت حافر فرس جبريل عليه السلام ، فقال لهرون يا بني الله هل أقذفها فيه فظن هرون أنه من الحلي يريد به ما يريد أصحابه فقال له أقذف فقذفها في الحفرة على الحلي فصارت عجلاً جسداً له خوار .

وقال ابن عباس : أوقد هرون ناراً ، وأمرهم أن يقذفوها فيه فقذف السامريّ تلك القبضة فيها ، فقال كن عجلاً جسداً له خوار ، وكان البلاء والفتنة حين صار كذلك ، وذلك أن السامريّ قال لهرون ألقى ما في يدي ؟ وهو يظن أنه من تلك الحلي فقال نعم ، ويقال إن الذي قال لبني إسرائيل إن الغنيمة لا تحل لكم هو السامريّ فصدقوه وجمعوها ودفعوها إليه فصاغ منها عجلاً في ثلاثة أيام ، ثم ألقى فيه القبضة فجثا وخار خورة ثم لم يعد ، وقال السدي كان ينخور ويمشي فلما أخرج السامريّ العجل ، وكان من ذهب مرصع بالجواهر كأحسن ما يكون ، وقال هذا إلهكم وإله موسى فنسى : أي أخطأ الطريق فتركه ههنا وخرج يطلبه فلذلك أبطأ عليكم وأخلف الموعد وفي بعض الروايات أن السامريّ لما صاغ العجل وقذف القبضة فيه أشعر العجل وعدا وخار فصار له لحم ودم ويروى أن إبليس خار في وسطه ، ويقال إن السامريّ جعل مؤخر العجل إلى حائط وحفر في الجانب الآخر في الأرض وأجلس فيه انساناً فوضع فيه دبره فخار وتسكلم بما تسكلم به ، وقال هذا إلهكم وإله موسى فلبس السامريّ على أوغاد بني إسرائيل وجهاً لهم حتى أضلهم وقال لهم إن موسى قد أخطأ ربه فأنا كم ربه أراد أن يريكم أنه قادر على أن يدعوكم إلى نفسه بنفسه ، وأنه لم يبعث موسى لحاجة منه إليه وأنه قد أظهر اليكم العجل ليكلّمكم من وسطه كما كلم موسى من الشجرة .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، إنما سمى العجل لأنهم تعجلوه قبل رجوع موسى إليهم . وقال الحسن البصري : اسم عجل بني إسرائيل الذي عبدوه يهيموت قالوا فلما رأوا العجل وسمعوا قول السامريّ افتتنوا به غير اثني عشر ألفاً ، وكان مع هرون ستمائة ألف فعكفوا عليه يعبدونه من دون الله وأحبوه حباً ما أحبوا مثله شيئاً قط ، فقال لهم هرون يا بني إسرائيل ، إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى فأقام هرون فيمن معه من المسلمين ، وأقام من يعبد العجل على عبادته وتخوف هرون أن سار بمن

معه من المسلمين الى المفتونين الضالين أن يقول له موسى فرقت بين بني اسرائيل ، وكان له هائباً مطيعاً ، وقال قتادة في هذه القصة قد كره الصالحون الفرقة قبلكم .

أخبرني الحسن بإسناده عن راشد بن سعيد قال : لما واعد الله موسى أربعين يوماً . قال الله تعالى يا موسى إن قومك قد افتتوا من بعدك قال يارب كيف يفتنون وقد نجيتهم من فرعون ومن البحر وأنعمت عليهم . قال انهم اتخذوا العجل إلها من دوني وهو عجل ذوجسد له خوار . قال يارب من نفخ فيه الروح قال أنا ، قال أنت وعزتك ففتتهم إن هي إلا فتنتك الآية فقال الله تعالى يا موسى يارب أس النبيين يا أبا الأحكام إنى رأيت ذلك في قلوبهم فيسرته لهم ، فلما رجع موسى من الميقات الى قومه وقرب منهم مع اللفظ حول العجل وكانوا يعزفون ويرقصون حوله ولم يخبر موسى أصحابه السبعين بما أخبره ربه من حديث العجل ، فقالوا هذا قتال في المحلة فقال موسى لهم لا ولكنه صوت الفتنة افتتن القوم بعدنا بعبادة غير الله ، فذلك قوله تعالى - ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا - فلما رآهم حول العجل وما يصنعون به ألقى الألواح من يده فتكسرت فصعد عامة الكلام الذي كان فيها ولم يبق فيها الا سدسها ، ثم أعيدت له في لوحين .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « ليس المعايين كالخبر قال الله تعالى لموسى إن القوم قد فتتوا فلم يلق الألواح فلما عاين ألقى الألواح فكسرها » .

عن عيم الداري قال : قلت يا رسول الله مررت بمدينة صفتها كيت وكيت قريبة من ساحل البحر ، فقال عليه الصلاة والسلام « تلك انطاكية أما إن في غار من غيراتها رضا من ألواح موسى وما من معجزة شرقية ولا غربية تمر بها إلا ألفت عليها من بركاتها ولن تذهب الأيام والليالي حتى يسكنها رجل من أهل بيتي يملؤها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً » . قالوا فلما رأى موسى ما صنع قومه من بعده من عبادة العجل أخذ بشعر رأس أخيه هرون يمينه ولحيته بشماله وكان هرون قد اعترلهم في اثني عشر ألفاً لم يعبدوا العجل ، فقال لهرون - مامنك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أف عصيت أمرى - هلا قاتلتهم إذ علمت أنى لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم فقال هرون - يا ابن أم - الآية . قال المفسرون كان هرون أخا موسى لأبيه وأمه ولكنه أراد بقوله يا ابن أم ترقية واستعطافه عليه لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي أي بذوائي إني خشيت إن قاتلتهم أن يصيروا حزبين يقتل بعضهم بعضاً فتقول فرقت بين بني اسرائيل ولم تقرب قولي أي ولم تحفظ وصيتي حين قلت لك اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ، ثم إن موسى أقبل على السامري وقال له ما خطبك يا سامري أي ما أمرك وشأنك ؟ فقال السامري بصرت بما لم يصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول يعني أخذت تراباً من أثر فرس جبريل فنبذتها وطرحتها في العجل وكذلك سولت لي نفسي أي زينت لي ، قالوا فلما علم بنو اسرائيل أنهم قد اخطئوا وضلوا في عبادتهم العجل ندموا على ذلك واستغفروا الله تعالى كما قال تعالى - ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرجعنا ربنا ونغفر لنا لكونن من الخاسرين - فقال لهم موسى يا قوم إنكم

ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل . قالوا له فأى شيء نصنعه وما الحيلة ؟ قال توبوا إلى الله بارئكم أي ارجعوا إلى خالقكم ، قالوا فكيف تتوب ، قال فاقتلوا أنفسكم أي ليقتل البريء المجرم ذلكم يعني القتل خير لكم عند بارئكم . قال ابن عباس أبي الله أن يقبل توبة بني إسرائيل إلا بالحال الذي كرهوا أن يقتلوه حين عبدوا العجل ، وقال قتادة جعل الله توبة عبدة العجل القتل لأنهم ارتدوا وكفروا والكفر مبيح الدم ، فلما أمرهم موسى بالقتل استسلموا لأمره وقالوا نصبر لأمر الله ، فجلسوا في الألفية محتبين وأظلت عليهم القوم بالسيوف والخنجر فكان الرجل يرى أخاه وابنه وأباه وقريبه وجاره فلم يمكنه إلا إمضاء أمر الله تعالى فقالوا يا موسى كيف نصنع ، فأرسل الله ضبابا وسحابة سوداء حتى لا يبصر بعضهم بعضا وقيل لهم من حل حبوته أو مد طرفه إلى قاتله أو اتقاء يداور رجل فهو ملعون مردودة توبته فكانوا يقتلونهم إلى المساء ، فلما كثرت فيهم القتل وبلغ عدة القتلى سبعين ألفا دعا موسى وهرون ربهما وجزعا وتضرعا وقالا يارب هلكت بنو إسرائيل البقية البقية ، فكشف الله السحابة عنهم وأمرهم أن يرفعوا السلاح ويكفوا القتل فلما انكشفت السحابة عن القتلى اشتد ذلك على موسى فأوحى الله تعالى إليه أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة ، فكان من قتل منهم شهيدا ومن بقي منهم مكفرا ذنبه الله فذلك قوله تعالى - فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم - وقالوا أمر الله تعالى موسى أن ييرد العجل بالمبرد ويحرقه ثم يذروه في النيل فمن شرب ماء من عبدة العجل اصفر لون وجهه واسودت شفاته وقيل ثبت على شارب الذهب فكان علما لجرمه ، فأخذ موسى العجل فذبحه ثم برده ثم أحرقه وجمع رماده وأمر السامري بالبول عليه استخفافا به وتصغيرا له ثم ذراه في الماء فذلك قوله تعالى - وانظر إلى إهلك الذي ظلت عليه عاكفا - الآية قالوا ثم إن موسى أمرهم بالشرب من ذلك الماء فشربوا منه فاصفرت وجوه الذين عبدوه واسودت شفاههم فأقروا بحب العجل وعبادته وقالوا يا موسى إننا قد ندمنا على ما صنعنا وتبنا إلى الله فلو أمرنا أن نقتل نفوسنا لتقبل توبتنا قتلناها ، فقيل لهم . فاقتلوا أنفسكم ، ثم إن موسى هم بقتل السامري ، فأوحى الله تعالى إليه لا تقتله فإنه سخي فلغنه موسى وقال له - فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه - أي بعذابك في القيامة ، ثم أمر موسى بني إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه فصار السامري وحشيا لا يألف أحدا ولا يؤلف ولا يدنو من الناس ولا يمس أحدا منهم فمن مسه قرض ذلك الموضع بالمقراض وكان كذلك حتى هلك قال قتادة إن بقاياهم إلى اليوم يقولون ذلك أي لا مساس وفي بعض الكتب أنه إن مس أحدا من غيرهم أو واحدا منهم حم كلالها في الوقت ، قالوا ثم إن الله تعالى أمر موسى أن يأتيه في ناس من خيار بني إسرائيل ليعتذروا إليه من عبادة قومهم العجل ، فاختر موسى سبعين رجلا لينطلقوا معه إلى الجبل كما أمر الله تعالى وأمره أن يكونوا شيوخا فلم يصب الاستين شيئا ، فأوحى الله تعالى إليه أن يختار من الشباب عشرة فاخترهم فأصبحوا شيوخا .

وروى : أنه اختار من كل سبط ستة نفر فصاروا اثنين وسبعين رجلا فقال إنما أمرت

بسبعين رجلا فليتحلف منكم رجالان فتشاحوا على ذلك فقال موسى ان لمن قعد مثل أجر من خرج فقعد يوشع بن نون وكالب بن يوقنا ، فأمر موسى السبعين أن يصوموا ويتطهروا ويظهروا أثوابهم ثم خرج بهم إلى الطور لميقات ربه وذلك قوله تعالى - واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا - الآية وكان لا يأتيه الا باذن منه ، فلما دنا موسى إلى الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بني اسرائيل أن ينظر اليه فضرب دونه الحجاب ودنا القوم حتى دخلوا في الغمام وخروا سجدا وسمعوا الله تعالى وهو سبحانه وتعالى يكلم موسى ويأمره وينهاه وأسمعهم الله تعالى : إني أنا لا إله الا أنا ذوبكة ، أخرجتكم من أرض مصر فاعبدوني ولا تعبدوا غيري ، فلما فرغ موسى من الكلام وانكشف الغمام أقبل اليهم فقالوا لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهي نار جاءت من السماء فأحرقتهم جميعا . قال وهب بل أرسل الله عليهم جندا من السماء فلما سمعوا حسهم ماتوا يوما ليلة فذلك قوله تعالى - واذا قلت يا موسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأتم تنظرون - فلما ماتوا قال موسى رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا يارب كيف أرجع إلى بني اسرائيل وقد أهلكت خيارهم ، ولم يزل موسى يناشد ربه حتى أحياهم الله له جميعا رجلا بعد رجل ينظر بعضهم بعضا كيف يحيون ، فذلك قوله تعالى - ثم بعثناكم من بعد موتكم - الآية . أخبرني الحسن بإسناده عن أنس قال قال رسول الله ﷺ « إذا راح منا إلى الجمعة سبعون كانوا كالسبعين الذين وفدوا مع موسى إلى ربه وأفضل » .

باب في قصة قارون حين عصى ربه واستكبر وأورثه ماله الطغيان والبطر حتى أهلكه الله تعالى قال الله تعالى - إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم - الآية قالت العلماء بأخبار القدماء قارون كان ابن عم موسى لأنه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وموسى هو ابن عمران بن قاهث هذا قول أكثر العلماء . وقال ابن اسحق : تزوج يصهر بن قاهث سمين بنت ماريت بن برشيا بن يقشان بن ابراهيم فولدت له عمران بن يصهر وقارون بن يصهر فنكح عمران بنحيت بنت شمويل بن برشيا بن يقشان فولدت هارون وموسى ابني عمران فموسى على قول ابن اسحق ابن أخى قارون وقارون عمه لأبيه وأمه وعلى قول الآخرين ابن عمه وعليه أصحاب التواريخ وكان قارون أعلم بني اسرائيل بعد موسى وهرون وأفضلهم وأجملهم ، قال قتادة كان يسمى المنور لحسن صورته ولم يكن في بني اسرائيل أقرأ للتوراة منه ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري فبغى على قومه كما قال تعالى - فبغى عليهم - واختلفوا في معنى هذا البغى قال ابن عباس رضى الله عنهما كان فرعون قد ملك قارون على بني اسرائيل حين كانوا بمصر .

وأخبرني الحسين : بإسناده عن المسيب بن شريك أن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم قال كان عاملا لفرعون على بني اسرائيل وكان يبغى عليهم ويظلمهم ، وقال عطاء الخرساني وشهر ابن حوشب زاد عليهم في الثياب شبرا ، وروى شيبان عن قتادة قال بغى عليهم بالكبر والبذخ وبكثرة ماله وكان أغنى أهل زمانه وأثراهم كما قال تعالى - وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء - الآية أي لتثقل وتميل بهم إذا حملوها لثقلها ، واختلف المفسرون في عدد العصبة في هذا الموضع فقال مجاهد ما بين العشرة إلى الخمسة عشر ، وعن قتادة ما بين العشرة إلى الأربعين ، وعن عكرمة منهم من يقول أربعون ومنهم من يقول سبعون ، وعن الضحاك ما بين الثلاثة إلى العشرة وقيل همستون . وروى جرير عن خيشمة قال وجدت في الانجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقرستين بغلاغرا محجلة ما يزيد منها مفتاح على أصبع لكل مفتاح منها كنز ويقال إن قارون كان أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد ، فلما ثقلت عليه جعلها من خشب فثقلت عليه فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع فكانت تحمل معه إذا ركب على أربعين بغلا . واختلفوا في سبب جمع تلك الأموال فقيل كان عنده علم الكيمياء . قال سعيد بن المسيب كان موسى يعلم الكيمياء فعلم يوشع ابن نون ثلث ذلك العلم ، وعلم كالب بن يوقنا مثله وعلم قارون مثله فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه ، وفي الخبر أن الله تعالى علم موسى الكيمياء فعلم موسى أخته فعلته قارون فكان ذلك سبب أمواله فذلك قوله تعالى - إنما أوتيته على علم عندي - أو بالتصرف في التجارات والزراعات وسائر أنواع المكاسب والمطالب - وقيل في سبب جمعه تلك الأموال ما أخبرنا الثقفى بإسناده عن أبي الحواري قال سمعت أبا سليمان الداراني كان يقول تبدى ابليس لقارون وكان قارون قد أقام على جبل أربعين سنة يتعبد حتى إذا غلب جميع بني اسرائيل في العبادة بعث اليه ابليس شياطينه فلم يقدروا عليه فتقدم هو له وجعل يتعبد مع قارون وجعل ابليس يقهره بالعبادة ويفوقه فخضع له قارون وقال له ابليس يا قارون قد رضينا بهذا الذي نحن فيه لانشهد لبني اسرائيل جماعة ولا نعود لهم مريضا ولا نشهد جنازة . قال فأحدره من الجبل إلى البيعة فكانوا يؤتون بالطعام ، فقال له ابليس يا قارون قد رضينا أن نكون هكذا كلا على بني اسرائيل ، فقال له قارون فأى رأى عندك ، قال نكتسب يوما في الجمعة وتتعب بقية الجمعة قال فتكسبا في يوم الجمعة وتعبدا بقيتها فقال ابليس قد رضينا أن نكون هكذا ، قال قارون فأى رأى عندك ، قال نكتسب يوما وتتعب يوما فتصدق ونعطى قال فلما كسبا يوما وتعبدا يوما جلس ابليس وتركه ففتحت على قارون ابواب الدنيا فبلغ ماله ما أخبرنا به ابن فتحويه بإسناده عن المسيب بن شريك قال ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة وكانت أربعائة ألف في أربعين خزانة فصار في الثروة وكثرة المال بحيث يضرب به الأمثال أنشدني أبو العباس سهل بن محمد الروزي عن بعضهم :

وعدتني وعدك حتى إذا أطمعتني في كنز قارون

جئت من الليل بغسالة تغسل ماقلت بصابون

فبغى قارون وطغى وتجبّر حين استغنى وأثرى حتى هلك فصار عبرة للغابرين وعظة للباقيين وكان أول طغيانه وعصيانه انه تكبر واستطال على الناس بكثرة الأموال فكان يخرج في زينته وهيئته ويختال كما قال تعالى - فخرج على قومه في زينته - الآية قال مجاهد خرج على براذين يبيض عليها سروج الأرجوان وعليها المعصفرات وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم خرج في سبعين ألفا عليهم المعصفرات قال وكان ذلك أول يوم ظهرت المعصفرات في الأرض . فما كان أبي يذكركلى عن مقاتل انه خرج على بغلة شهباء عليها سرج من الذهب عليه الأرجوان ومعه ألف فارس عليهم وعلى دوابهم الأرجوان ، ومعه ستمائة جارية يبيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال الشهب فتمنى أهل الحسارة والجهالة مثل الذى أوتي به فقالوا - ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لنذو حظ عظيم - ، فأنكر عليهم اهل العلم بالله وقالوا لهم اتقوا الله واعملوا بما أمركم الله به وانتهوا عما نهاكم عنه فان - ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون - عن لذات الدنيا وشهواتها قال الله تعالى - وما يلقاها إلا الذين صبروا - اى لا يوفق لهذه الكلمة إلا الصابرون على طاعة الله وعن زينة الحياة الدنيا .

قالوا ثم ان الله أوحى الى نبيه موسى عليه السلام أن يأمر قومه أن يعلقوا في أرديتهم خيوطا اربعة في كل طرف خيط أخضر لونه كلون السماء فقال موسى يارب لم أمرت بنى اسرائيل بتعليق هذه الخيوط الأخضر في أرديتهم ؟ فقال الله تعالى إن بنى اسرائيل في غفلة وقد أردت أن أجعل لهم علما في ثيابهم يذكرونى به إذا نظروا اليه ويذكرون إله السماء ويعلمون أنى منزل منها كلامى ، فقال موسى : يارب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضرا فان بنى اسرائيل تحقر هذه الخيوط قال له يا موسى إن الصغير من أمرى ليس بصغير وان لم يطيعونى فى الأمر الصغير لم يطيعونى فى الأمر الكبير . قال فدعا موسى بنى اسرائيل ثم قال لهم : إن الله أمركم أن تعلقوا فى أرديتكم خيوطا خضرا كلون السماء لتذكروا ربكم اذا رأيتموها ، ففعلت بنو اسرائيل ما أمرهم به واستكبر قارون فلم يقطع ، وقال ما يفعل هذه إلا الأرباب بعبدهم لكي يتميزوا عن غيرهم فكان أيضا هذا من بغيه وعصيانه .

قالوا فلما قطع موسى بنى اسرائيل البحر جعلت الحبارة وهى رياسة المذبحة وبيت القربان لهرون فكانت بنو اسرائيل يأتون بهديهم فيدفعونه إلى هرون فيضعه على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فوجد قارون فى نفسه من ذلك فأتى موسى وقال يا موسى : لك الرياسة والرسالة ولهرون الحبارة ولست أنا فى شيء من ذلك وأنا أقرأ للتوراة منكما ولا صبرى على هذا ، فقال موسى والله ما جعلتها أنا فى هرون بل الله جعلها له فقال له قارون والله لا أصدقك فى ذلك حتى ترى بيانه ، قال فجمع موسى رؤساء بنى اسرائيل وقال : ها تولى عصيكم فمن أصبحت عصاه خضراء فهو أحق بالحبارة فجمعوا العصى وجاءوا بها وكتب كل واحد اسمه على عصاه فحزمتها موسى وألقاها فى القبة التى كان يعبد الله فيها وجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا فأصبحت عصاهرون قد اهتزت ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز

فقال موسى : يا قارون ترى هذا من فعلى فقال قارون : والله ما هذا بأعجب مما تصنع السحرة وذهب قارون مغاضبا واعتزل موسى بأتباعه وجعل موسى يداريه للقراءة التى بينهما وهو يؤذيه فى كل وقت ولا يزيد كل يوم إلا اعتوا وتجبوا ومخالفة ومعاداة لموسى حتى أنه بنى دارا وجعل بابها من الذهب الأحمر وضرب على جدرانها صفائح الذهب ، وكان الملا من بنى اسرائيل يغدون عليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه . قال ابن عباس ثم إن الله أنزل الزكاة على موسى فلما أوجب الله الزكاة عليهم أتى قارون موسى فصالحه عن كل ألف دينار واحد وعن كل ألف درهم درهم واحد وعن كل ألف شاة واحدة وعن كل شيء شيء ثم رجع قارون الى بيته وحسبه فوجده كثيرا فلم تسمح نفسه بذلك فجمع بنى اسرائيل وقال لهم يا قوم إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعموه وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا له أنت كبيرنا وسيدنا فمرنا بما شئت فقال أمركم أن تبحثوا بفلانة البغى فنجعل لها جعلا على أن تقذف موسى بنفسها فإذا فعلت ذلك خرجت عليه بنو اسرائيل فرفضوه فاسترحنا منه فأتوا بها فجعل لها قارون ألف درهم وقيل ألف دينار وقيل طستا من ذهب وقيل حكمها وقال لها أنا أملك وأخلطك بنسأى على أن تقذفى موسى بنفسك غدا إذا حضر بنو اسرائيل ، فلما كان من الغد جمع قارون بنى اسرائيل ثم أتى موسى فقال إن بنى اسرائيل اجتمعوا ينتظرون خروجك لتأمرهم ونهاهم وتبين لهم أعلام دينهم وأحكام شرعهم ، فخرج اليهم موسى وهم فى براح من الأرض فقام فيهم خطيبا ووعظهم وقال فيما قال : يا بنى اسرائيل من سرق قطعنا يده ، ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة ، ومن زنى وليس له امرأه جلدناه مائة جلدة وإن كان له امرأة رجماه حتى يموت ، فقال له قارون وإن كنت أنت ؟ قال وإن كنت أنا ، قال ان بنى اسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة قال أنا قال نعم ، قال ادعوها فان قالت فهو كما قالت ، فدعوها فلما جاءت قال لها موسى يا فلانة أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء وعظم عليها وسألها بالذى فلق البحر لموسى وبنى اسرائيل وأنزل التوراة على موسى الا صدقت ، فلما ناشدها تداركها الله بالتوفيق وقالت فى نفسها لأن أحدث اليوم توبة أفضل من ان أؤذى رسول الله فقالت لا بل كذبوا ولكن جعل لى قارون جعلا على أن أقذفك بنفسى ، فلما تكلمت بهذا الكلام سقط فى يد قارون ونكس رأسه وسكت الملا وعرف انه قد وقع فى مهلكة فخر موسى ساجدا لله يبيكى ويقول : يارب إن عدوك هذا قد آذانى وأراد فضيحتى وسببى اللهم ان كنت رسولك فاغضب لى وسلطنى عليه ، فأوحى الله تعالى اليه أن ارفع رأسك وأمر الأرض بما شئت تطعك فقال موسى : يا بنى اسرائيل إن الله تعالى قد بعثنى الى قارون كما بعثنى الى فرعون ، فمن كان معه فليلبث مكانه ومن كان معى فليعتزل عنه فاعتزلوا عن قارون ولم يبق معه الا رجلا ن ثم قال موسى يا أرض خذيه ، فأخذتهم الى كعابهم ثم قال يا أرض خذيه فأخذتهم الى ركبتهم ثم قال يا أرض خذيه فأخذتهم الى جنوبهم ثم قال يا أرض خذيه فأخذتهم الى أحقابهم ثم قال يا أرض خذيه فأخذتهم الى أعناقهم وقارون وصاحبه فى كل ذلك يتضرعون الى موسى ويناشده قارون بالله والرحم حتى روى فى بعض الأخبار أنه ناشده سبعين مرة

وموسى فى جميع ذلك لا يلتفت اليه لشدة غضبه عليه ثم قال يا أرض خذهم فانطبقت الأرض عليهم واوحى الله إلى موسى يا موسى ما أفظك استغاثوا بك سبعين مرة فلم تغثهم ولم ترحمهم أما وعزتى وجلالى لو إياى دعوا لوجدوني قريبا مجيبا . قال قتادة ذكر لنا ان الله تعالى يخسف بهم فى كل يوم قامة وانه يجلبل بهم فيها لا يبلغون قعرها إلى يوم القيامة .

أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون بقراءتى عليه قال أحمد بن محمد بن الحسين أخبرنا محمد بن يحيى وعبد الرحمن بن بشير وأحمد بن يونس قالوا أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر بن راشد عن همام ابن منبه قال أخبرنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « بينا رجل يتبختر فى برديه وينظر فى عطفه وقد أعجبه نفسه إذ خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » قالوا فلما خسف الله بقارون وصاحبيه الأرض أصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم ان موسى إنما دعا على قارون ليستبد بداره وامواله وكنوزه ، فدعا الله موسى حتى خسف الله بداره وامواله الأرض وأوحى الله تعالى اليه إني لا أعيد الأرض لأحد بعدك ابدا فذلك قوله تعالى - فخنسنا به وداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين - ، فلما حلت نعمة الله بقارون حمد الله تعالى المؤمنون الدين وعظوه وأنذروه بأس الله كما أخبر الله تعالى - إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين - أى لا تبطر ولا تأثر - وابتغ فيما آتاك الله الدارة الآخرة - الآية وندم الذين كانوا يتمنون مكانه بالأمس وماله وحاله كما قال الله - وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكان الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر - فنجى الله نبيه موسى صلوات الله على سيدنا محمد وعليه وسلامه والمؤمنين من كل بلاء وعنة ، وأهلك أعداءهم فرعون وهامان وقارون كما قال تعالى - وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض - الآيات .

باب فى قصة موسى حين لقي الخضر وما جرى بينهما من العجائب

إلى أن بلغ من أمرهما ما بلغ

قال الله تعالى - وإذ قال موسى لفته لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا - قال الأستاذ الامام : اختلف العلماء فى السبب الذى قصد موسى لأجله الخضر فروى الحسن بن عمارة عن الحكم بن عيينة عن سعيد بن جبير قال : جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب فقال بعضهم يا ابن عباس إن نوحا ابن امرأة كعب يزعم عن كعب ان موسى عليه السلام الذى طلب العلم إنما هو موسى بن ميثا ، قال ابن عباس كذب نوح حدثني أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ أن موسى نبي بنى اسرائيل سأل ربه ، فقال يارب إن كان فى عبادك أحد هو اعلم منى فدلى عليه ، فقال الله عز وجل : نعم فى عبادى من هو اعلم منك ثم نعت له مكان الخضر عليه السلام واذن له فى لقاءه ، وروى هرون بن عنترة عن ابيه عن ابن عباس قال : سأل موسى ربه فقال يارب اى عبادك احب اليك ؟ فقال الذى يذكرني ولا ينساني ، قال فأى عبادك اقضى ؟ قال الذى يقضى بالحق

ولا يتبع الهوى . قال يارب اى عبادك اعلم ؟ قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه عسى ان يصيب كلمة تهديه الى هدى او ترده عن ردى . قال فهل فى الأرض احد اعلم منى ؟ قال نعم . قال يارب من هو قال الخضر ، قال فأين اطلبه ؟ قال على الساحل عند الصخرة التى يقف عندها الحوت وجعل الحوت علما له ودليلا . وقال اذا حى هذا الحوت فان صاحبك هناك . وكان قد تزود سمكا مملحا وروى عطية العوفى عن ابن عباس قال : لما ظهر موسى وقومه على مصر واستقرت بهم الدار أنزل الله عليهم المن والسلوى . فخطب موسى قومه فذكرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة اذ نجاهم من آل فرعون واهلك عدوهم واستخلفهم فى الأرض . قال وكلم الله نبيكم تكلموا واصطفاه لنفسه وألقى عليه محبة منه وآتاكم من كل ما سألتوه ، فنيبكم أفضل اهل الأرض واتم تقرأون التوراة فلم يترك نعمة انعمها الله عليهم الا ذكرها وعرفهم إياها ، فقال له رجل منهم من بنى اسرائيل قد عرفنا الذى تقول فهل على وجه الأرض احد أعلم منك يا نبي الله ؟ قال لا قال فعتب الله عليه حيث لم يرد العلم اليه فبعث اليه جبريل عليه السلام ، فقال له : يا موسى ما يدريك أين أضع علمي بل إن لى عبدا بمجمع البحرين أعلم منك ، فسأل موسى ربه ان يريه إياه فأوحى الله اليه ان ائت البحر فانك تجد على شاطئ البحر حوتا فيخذه وادفعه إلى فتاك ثم الزم شاطئ البحر ، فاذا نسيت الحوت وهلك منك فثم نجد العبد الصالح . قال فخرج موسى وقتاه يقصدان مجمع البحرين للقاء الخضر عليه السلام ومعهما حوت مالح فذلك قوله تعالى - واذا قال موسى - يعنى ابن عمران لفتاه اى لصاحبه يوشع بن نون بن افرايم بن يوسف عليه السلام لا أبرح اى لا ازال اسير حتى ابلغ مجمع البحرين يعنى بحر فارس والروم مما يلى الشرق . قال قتادة وقال أبى بن كعب هو افريقية ، وقال محمد بن كعب طنجة أو امضى حقبادهرا وزمانا طويلا فذهبا ومعهما الخبز والسمك المملوح وسارحتى اتيا إلى الصخرة عند مجمع البحرين ليلا . قال معقل بن زياد وهى الصخرة التى دون نهر الزيت قال وعندها عين تسمى ماء الحياة ولا يصيب ذلك الماء شيئا الا عاد حيا ، فلما اصاب السمكة روح الماء وبرده اضطربت فى المكث وعاشت ودخلت البحر ، فذلك قوله تعالى : فلما بلغا يعنى موسى وقتاه مجمع بينهما يعنى البحرين نسيا تركا حوتيهما ، وإنما كان الحوت مع يوشع وهو الذى نسيه يدل عليه قوله تعالى - إني نسيت الحوت - ولكنه صرف النسيان اليهما والمراد به احدهما كما قال تعالى - بخرج منهما اللؤلؤ والمرجان - وإنما يخرجان من المالح دون العذب فاتخذ الحوت سبيلا فى البحر سربا أى مذهبا ومسلكا واختلفوا فى كيفية ذلك ، فروى ابى بن كعب عن رسول الله ﷺ قال « انجاب الماء عن مسلك الحوت فصار كوة فلم يلتئم ، فدخل موسى الكوة على اثر الحوت فاذا هو بالخضر عليه السلام » وقال ابن عباس رأى اثر جناحيه فى الطين حين وقع فى الماء وجعل الحوت لا يمس شيئا من البحر إلا يبس حتى يصير صخرة ، وروى ابن عباس عن ابى بن كعب عن رسول الله ﷺ قال « لما اتيا إلى الصخرة وضعا رءوسهما فناما فاضطرب الحوت فى المكث

فخرج منه وسقط في البحرها ربا فاتخذ سبيله في البحر سربا فأمسك الله تعالى عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ موسى عليه السلام نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليتهما حتى اذا كان من الغد قال موسى لفتهاء - آتنا غداءنا - الآية ، وقال قتادة رد الله الى الحوت روحه فسرب حتى أفضى الى البحر ثم سلكه جعل لا يسلك منه موضعاً إلا صار ماء جامداً طريقاً يبساً ، وقال الكلبي توضع يوشع بن نون من عين الحياة فاتضح على الحوت المملح من ذلك الماء وهو في الكتل فعاش ووثب في الماء ، فجعل يضرب بذنبه الماء فلا يضرب بذنبه شيئاً من الماء وهو ذاهب إلا يبس . قال الحكماء كان لموسى عليه السلام خمسة أسفار : الأول سفر الحرب وهو قوله تعالى - ففرت منكم لما خفتكم - الآية . والثاني سفر الطور وهو قوله تعالى - فلما أتاها نودي أن بورك من في النار ومن حولها - الآية وقوله تعالى - فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن - الآية . والثالث سفر الطلب وذلك عند خروجه من مصر قال الله تعالى - وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادي - والرابع سفر الحرب وهو قوله تعالى إخباراً عن قول قومه - فاذهب أنت وربك فقاتلا - الآية . والخامس سفر النصب وهو قوله تعالى - لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا - وذلك أنه لما ألقى على موسى الجوع بعد ما جاوز الصخرة ليتذكر الحوت ويرجع إلى موضع مطلبه فقال له فتاه وتذكر - أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت - أي تركته وفقدته ، وقيل فيه إضمار تقديره فإني نسيت أن أذكر أمر الحوت - وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا - . قال عبد الرحمن بن زيد أي شيء أعجب من حوت كان دهرًا من الدهور يؤكل منه ثم صار حيا حتى حشر في البحر قال وكان شق حوت ، وقال وهب بن منبه ظهر في الماء من أثر جرى الحوت أخذود شبه نهر من حيث دخل إلى حيث انتهى فرجع موسى حتى انتهى إلى مجمع البحرين وإذا هو بالخضر فذلك قوله تعالى - قال ذلك ما كنا نبغ أي نطلب فارتدّا - فارتجعا على آثارهما الذي جاء منه قصصاً أي يقصان الأثر - فوجدا عبداً من عبادنا - يعني الخضر عليه السلام .

فصل في ذكر جمل من أخبار الخضر عليه السلام وأحواله

واسمه بليابن ملكان بن قانع بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وإنما لقب بالخضر كما أخبرنا به أبو سعيد محمد بن عبد الله بن حمدون بقراءتي عليه . قال أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسين الشريقي ، قال حدثنا محمد بن يحيى وعبد الرحمن بن بشر وأحمد بن يوسف قالوا أنبأنا عبد الرزاق أنبأنا عبد الله بن حامد الوراق قال أنبأنا مكي بن عبدان قال أنبأنا أبو الأزهر قال حدثنا عبد الرزاق قال أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فاذا هي تهتز تحته خضراء » وأخبرنا أبو نصر محمد بن علي بن الفضل الخزاعي . قال أنبأنا أبو بكر محمد بن الحسن القصار قال أنبأنا أحمد بن يوسف السلمي قال أنبأنا محمد بن يوسف الفريابي قال ذكر سفيان عن منصور عن مجاهد قال : إنما سمى الخضر لأنه أينما صلى خضر حوله .

فصل في بدء أمر الخضر عليه السلام

يروى أن رسول الله ﷺ ، لما أسرى به إلى السماء بينما هو على البراق وجبريل يمر به إذ وجد رائحة طيبة ، فقال يا جبريل ماهذه الرائحة الطيبة ؟ قال إنه كان ملك في الزمان الأول له سيرة حسنة في أهل مملكته ، وكان له ابن ولم يكن له ولد غيره . قال أصحاب الأخبار وكان أبوه ملكا عظيما فسلمه إلى المؤدب يؤدبه ، وكان يختلف إليه وكان بين منزله ومؤدبه رجل عابد كان يمر به فأعجبه حاله فألفه وكان يجلس عنده والعلم يظن أنه في المنزل وأبوه يظن انه عند العلم حتى شب ونشأ وأخذ من العابد شمائله وعبادته ، فقالوا لأبيه ليس لك ولد غيره يرث ملكك فلوزوجته لعله يرزق أولادا فعرض عليه أبوه الزواج فأبى ، ثم عاوده فعرض عليه فرضى فزوجه جارية من بنات الملوك فزفت إليه ، فلما بقيت عنده . قال لها إني مخبرك بأمر إن أنت ممعتيه صرف الله عنك شر الدنيا وعذاب الآخرة وإن أفشيت سرى عذبك الله في الدنيا والآخرة . قالت وماذا ؟ قال إني رجل مسلم لست على دين أبي وليست النساء من حاجتي فإن رضيت أن تقيمي معي على ذلك وتتابعيني على ديني فذاك إليك ، وإن أنت أبيت لحقت بأهلك ، فقالت المرأة بل أقيم معك ، فلما أتت عليها مدة قالوا لأبيه ما نظن ابنك إلا عاقرا لا يولد له ولد فسأله أبوه ، فقال ما ذلك بيدي وإنما ذلك بيد الله يؤتيه من يشاء فدعا المرأة وسألها فردت عليه مثل ما رد عليه الخضر فمكث أبوه زمانا ثم دعا ابنه إليه ، فقال له أحب أن تطلق امرأتك هذه وأزوجه امرأة غيرها ولودا ربما ترزق منها ولدا فكره ذلك الخضر وألح عليه أبوه حتى فرق بينهما وزوجه امرأة غيرها ولودا ثيبا فعرض عليها الخضر مقالته الأولى فرضيت وقالت أقيم معك فلبثا زمانا ثم إن أباه استبطأ الولد منه فدعاه وقال له ليس يولد لك فقال ليس ذلك بيدي ولكنه بيد الله ثم إنه دعا امرأته وقال لها أنت امرأة شابة ولود وقد كنت ولدت عند غير ابني ولست تلدين عند ابني فقالت ما مسنى منذ صحبتك وكذلك المرأة الأولى فدعاها وسألها ؟ فقالت مثل ذلك ، فدعا ابنه وعيره وعنفه ، ففرغ من أبيه ولم يأمن على نفسه منه فخرج من عنده فهام على وجهه ولم يدر أحد من خلق الله تعالى أين توجه فندم أبوه على ما فعل فأرسل في طلبه مائة رجل من طرق شتى مختلفة فانطلقوا في طلبه فأدركه منهم عشرة في جزيرة من جزائر البحر ، فقال لهم إني أقول لكم شيئا واحدا فاكنموه عني فإن كنتموه صرف الله عنكم شر الدنيا وعذاب الآخرة وإن أبيتتم ذلك وأفشيتم سرى عذبك الله في الدنيا وفي الآخرة قالوا له قل ما شئت . قال هل بعث أبي في طلبي أحدا غيركم ؟ قالوا نعم ، فقال لهم إذا فاكتموا أمرى ولا تخبروا أبي انكم رأيتموني وقولوا مثل قول نظائركم الذين لو أرسلهم في طلبي فلم يروني لأنكم ان أخبرتموه بي أو ذهبتم بي إليه قتلني وصرتم أتم مؤاخذين بدى . قال فخلوا عنه وانصرفوا ، فلما دخلوا على أبيه . قال تسعة منهم قد وجدناه ، وقال لنا كيت وكيت فخلينا عنه ، وقال العاشر ما لنا به علم ومالى به خبر والتسعة قالوا بلى قد ظفرنا به وإن شئت أتيناك به ، فقال لهم ارجعوا في طلبه وأتوني به وإن الخضر خاف ان يظفروا به فأنحاز من ذلك الموضع إلى موضع آخر فأتوا إليه فلم يجدوه فرجعوا وقالوا لم نره فقتلهم

أبوه . قال وان أباه دعا بالمرأه الثيب ، وقال لها أنت صنعت هذا بابني حتى هرب فقتلها وسمعت المرأة الأولى بذلك فهربت مخافة القتل . وقال العاشر الذي أنكر رؤيا الخضر ما يؤمنني أن يقتلني كما قتل التسعة فهرب حتى آتى قرية فاذا المرأة الهاربة أيضا في تلك القرية فكانت تحتطب ، فقالت يوما باسم الله فسمعها الرجل الهارب . فقال لها من أنت ؟ فأخبرته خبرها ، فقال ياهذه أنا العاشر خرجت خوف القتل فهل لك أن تزوجك ونعبد الله حتى نموت فقالت نعم ثم إنهما انطلقا حتى أتيا قرية فيها بعض من الفراعنة فاتخذوا بيتا من قصب ومكثا فيه ورزقا فيه ثلاثة أولاد فقال لها الرجل إذا أنا مت فادفني في هذا البيت وكذلك كل من مات منكم فاني لا أحب ان تكون قبورنا مع هؤلاء فاذا كان آخرنا موتا يوصى أن يهدم عليه البيت فمات الرجل فدفنته امرأته ثم انه بلغ فرعون زمانهم أنهم يوحّدون الله ويعبدونه فجاء بالمرأة الى حضرته فأمرها أن ترجع عن دينها فأبّت فأمر بقدر من نحاس فملئت ماء وأغلى غليانا شديدا وأمر بالمرأة وولدها ، فلما أحضروا . قال لها ارجعي عن دينك وإلا ألقيتك أنت وأولادك في هذا القدر فأبّت عليه فأمر بولدها الأكبر فألقى فيه فتفسخ فيه وكذلك الثاني وكان في حجرها ابن رضيع فأرادوا إلقاءه فرقت المرأة ونازعته في شأنه فتكلم الغلام الرضيع وقال لها اصبري فانا جميعا في الجنة فلما أرادوا أن يلقوها في القدر قالت لهم لي إليكم حاجة يسيرة قالوا وما هي ؟ قالت إذا رميتموني في القدر فادفنوها بما فيها من عظامنا في بيتنا واهدموه علينا ، ففعلوا ذلك فلما أسرى رسول الله ﷺ وجد رائحة طيبة ، فقال ماهذه يا جبريل ؟ فأخبره بقصتهم وقال هذه رائحتهم . وروى ان جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ إن قوما من أهل تلك المدينة ركبوا البحر في تجارتهم فضربتهم الأمواج فتكسرت بهم سفيتهم فانفلت منهم رجلان على لوح من ألواحها فضربتهم الأمواج حتى أسندتهما الى جزيرة من جزائر البحر فخرجا يحولان في الجزيرة فاذاها بالخضر عليه السلام وعليه ثياب بيض وهو قائم يصلي فجلسا حتى فرغ من صلاته فالتفت اليهما وقال لهما من أنتم قالنا نحن من مدينة كذا وكذا خرجنا في هذا البحر لطلب التجارة فانكسرت بنا هذه السفينة ودفعنا الى هذه الجزيرة فقال اختارا إن شئنا ان نقيم في هذا الموضع تعبدان الله تعالى وتأتيكما أرزاقكما وإن شئنا أردّا كما الى منازلكما قالوا بل تردنا الى منازلنا ، فقال لهما على أن تعطيانى عهد الله وميثاقه على أنكما لا تخبران بشيء مما تريانه فأعطياه العهد والميثاق على الكتمان فنظرا فاذا سحائب تمر فداهن وسألهن فقالت كل واحدة منهن أريد بلد كذا وكذا فدعا التي تريد بلادها فقال لها احملى هذين حتى تضعيهما على سطوحيهما فسقطت السحابة وانشقت لهما ثم رفعتهما ومضت حتى وضعتهما على سطوحيهما فعزم احدهما على الكتمان ونزل الى منزله وعزم الآخر على اذا عته فنزل من سطحه وخرج من بابه وانطلق الى باب المدينة ونادى النصيحة فأدخل على الملك فقال له ما نصيحتك ؟ فقال رأيت ابنك في موضع كذا وكذا وصنع بي كذا وكذا ، فقال له من يعلم ذلك قال فلان كان رفيقي فبعث اليه وسأله

عما قال ؟ فقال أما ركوب البحر فقد ركبنا جميعا وقد انكسرت بنا السفينة وصرنا على لوح من ألواحها فلم تزل الأمواج تضربنا حتى صرنا الى الساحل فخرجنا من البحر فلم نزل نعيش من الشجر ونبات الأرض والثمر ترفعنا أرض وتضعنا أخرى حتى اتينا الى منازلنا ، فقال له الغادر ابعث معي رسلك حتى أدفعه اليك وتعلم أن هذا قد كذب فأمر بالرجل الكاتم فحبس وتوعده بالصلب ان وفى صاحبه بما قال وأوعد الغادر بالصلب ان هو كذب ولم يأت به فبعث معه رسلا فركبوا البحر حتى اتوها الى الجزيرة فطلبوا الخضر فلم يجدوا شيئا فرجعوا بالرجل الى الملك وقالوا هذا أ كذب خلق الله مارأينا مما قال شيئا فصلبه وخلى عن الآخر ، ثم ان أهل تلك المدينة لم يزالوا يعملون المعاصي حتى غضب الله عليهم . قال جبريل عليه السلام فبعثنى الله تعالى اليهم فأدخلت جناحي تحتها واقتلعتها فرفعتها حتى سمع أهل سماء الدنيا نباح الكلاب وصياح الديوك ثم أمرنى فقلبتها فجاءت تهوى بمن فيها حتى انتهت الى وجه الأرض فبقى بيت الرجل الكاتم والمرأة الكاتمة من جانب سالمين ثم انطبقت الأرض بمن فيها فلم ينج منهم غيرها فجعلنا يدوران فى حدود المدينة فلا يلقي كل واحد منهما غير صاحبه فلما ان كثر ذلك قال الرجل أيتها المرأة قد رأيت ما أصاب القوم وانه لم يفلت غيرى وغيرك فبأى شئ ننجونا فأخبرينى وأنا اخبرك فعاهد كل واحد منهما صاحبه على الكتمان فتصادقا فاذا قصتهما واحدة وإنما نجاهما الكتمان ، فقال لها هل لك أن تزوجينى نفسك ونخرج الى مدينة من هذه المدائن فأكتبس عليك وتكتسبين على حتى يقضى الله من أمرنا ما يشاء ففعلت فذهبا الى مدينة فرعون من القراعنة فاتخذنا لهما بيتا وولد لهما أولاد وتلطفت المرأة لآل فرعون وصارت ماشطة لهم فحظيب عندهم فينما هى ذات يوم قاعدة تسرح رأس بنت الملك إذ سقط المشط من يدها فقالت باسم الله تعس من كفر بالله ففرغت الجارية من ذلك وقالت لها من الله ؟ قالت ربي ، فقالت لها وإن لك لربا غير أبى ؟ فقالت نعم هو ربي ورب أبىك ورب كل شئ ، فهبطت الجارية ودخلت على أبيها وقالت تعلم ان فلانة تقول قولا عجيبا تقول كذا وكذا فأرسل اليها فحضرت ، فقال لها ما هذا الذى بلغنى عنك ؟ فقالت هو ما بلغك قال فهل أحد يقول بقولك ؟ قالت نعم بعلى وصيقتى فبعث اليهم وامتنحهم فاذا هم يقولون قولا واحدا ، فقال لهم إنا لا نقركم على ما أنتم عليه حتى ترجعوا الى ديننا ، فقالوا له اصنع ما أنت صانع فأمر بقدر من نحاس عظيمة فملئت ماء ثم أشعل تحتها حتى اضطرب الماء ثم دعا بالصبية فعرض عليهم واحدا واحدا ليكفروا فأبوا أن يكفروا فأخذهم وطرحهم فى القدر ثم انه دعا بالزوج وعرض عليه الكفر فأبى فألقاه فى القدر ثم دعا بالمرأة وقال لها إن لك علينا حقا فان أنت رجعت الى ديننا وإلا ألقيناك فى القدر ، فقالت له اصنع ما أنت صانع ثم انها قالت له لى اليك حاجة . قال وماهى ؟ قالت إذا صنعت ما أنت صانع فمريبتنا أن يحفر فيه حفرة ، ثم تأمر بالقدر فتحمل بما فيها ثم يأتون بها منزلنا فيسكب ما فى القدر فى الحفرة ثم يعاد علينا التراب ثم يهدم علينا البيت ففعل ذلك فهذه

الرائحة رائحة المسك تسطع من بيتهم الى يوم القيامة فهذه قصة الحضرمع أبيه وبدء أمره وكان في زمن افريدون الملك ابن القباء على قول عامة اهل الكتب الأولى ، وقيل إنه كان على مقدمة ذى القرنين الأكبر الذى كان في زمن ابراهيم عليه السلام وهو الذى قضى بيثر اليسع وهى بئر كان احتفرها ابراهيم عليه السلام لما شيته في صحراء الأردن وان قوما من أهل الأردن ادعوا الأرض التى احتفرها فيها ابراهيم عليه السلام فحاكمهم ابراهيم عليه السلام الى ذى القرنين الذى كان الحضرمع على مقدمته أيام مسيره في البلاد وانه بلغ مع ذى القرنين نهر الحياة وشرب من مائه وهو لا يعلم به ولا يعلم ذوالقرنين ومن معه في محله فخلد وهو في الحياة الى الآن . وقيل ان ذالقرنين الذى كان على عهد ابراهيم عليه السلام وكان الحضرمع عليه السلام على مقدمته هو افريدون الملك وزعم بعضهم أن الحضرمع من ولد من كان آمن بابراهيم خليل الرحمن واتبعه على دينه وهاجر معه من أرض بابل .

وروى محمد بن إسحق بن يسار عن وهب بن منبه أن الحضرمع هو أرميا بن خلفيا وكان من سبط هرون بن عمران وهو الذى بعثه الله نبيا في أيام ناشئة بن أموص ملك بني اسرائيل والقول الأول أشبه بالحق وأولى بالعدل والصدق لأن ناشئة بن أموص كان في عصر كرفشت بن كراشت في أيام يختصر ويين افريدون وكرفشت من الدهور والأزمان ما لا يحمله ذو علم بأيام الناس وأخبارهم .

وقد صح الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي بن كعب أن صاحب موسى ابن عمران الذى أمر بطلبه وبالاقتباس منه هو الحضرمع عليه السلام ورسول الله ﷺ أعلم الخلق بالأمور الماضية والباقية وموسى بن عمران إنما نبى في عصر متوشهر الملك وكان متوشهر الملك ملك بعد جده افريدون فدل هذا على خطأ من قال انه أرميا بن خلفيا لأن أرميا كان في أيام يختصر ويين عهد موسى ويختصر من المدة ما لا يخفى على أهل العلم اللهم إلا أن يكون الأمر كما قال من قال إنه كان على مقدمة ذى القرنين صاحب ابراهيم عليه السلام فشرب من ماء عين الحياة فخلد ولم يبعث في أيام ابراهيم ومن بعده إلى أيام ناشئة بن أموص فبعث حينئذ نبيا والله أعلم ، والصحيح أنه نبى معمر محجوب عن الأبصار .

وروى محمد بن التوكل عن ضمرة بن عبيد الله بن سوار قال : الحضرمع من ولد فارس وإلياس من بني اسرائيل يلتقيان في كل عام في الموسم ، وأخبرني محمد بن القاسم اخبرنا أبو بكر محمد بن القاسم قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد بن يعقوب قال أخبرنا يزيد بن سمعان بن حبان الواسطي أخبرنا على بن للنذر عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال ان الحضرمع وإلياس لا يزالان حين في الأرض مادام القرآن فيها فإذا رفع القرآن ماتا ، وأخبرني أبو عمرو العمراني أخبرنا أبو أحمد بن محمد بن الرازي أخبرنا ابراهيم بن إسحق الأنماطي أخبرنا أبوهم الوليد بن شجاع السلمي أخبرنا عمر بن عبد الواحد عن ابن ثوبان عن بعض أهل العلم عن أنس بن مالك قال : خرجت مع رسول الله ﷺ وإذا بصوت يحنى من شعب . فقال يا أنس انطلق فأبصر ما هذا الصوت ؟ . قال فانطلقت فاذا رجل يصلى ويقول :

اللهم اجعلنى من أمة محمد الرحومة المغفور لها المستجاب لها التوب عليها ، فأتيت رسول الله ﷺ فأعلمته بذلك فقال لى انطلق فقل له ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام ويقول لك من أنت ؟ . فأتيته فأعلمته بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى أقرى رسول الله ﷺ منى السلام وقل له أخوك الحضر يقول لك ادع الله ان يجعلنى من أمتك الرحومة المغفور لها المستجاب لها التوب عليها .

رجعنا الى حديث موسى وفتاه : قالوا فأتى موسى وفتاه الى الحضر وهو قائم يصلى على طنفسة خضراء على وجه الماء وهو متشح بثوب أخضر فسلم عليه موسى فقال الحضر وأنى بأرضك السلام فقال أنا موسى فقال موسى بنى اسرائيل قال نعم قال يا موسى لقد كان فى بنى اسرائيل شغل قال موسى ان ربي أرسلنى إليك لأتبعك وتعلم من علمك ثم جلسا يتحدثان فجاءت خطافة وحملت بمنقارها من الماء . فقال الحضر يا موسى خطر يبالك انك أعلم اهل الأرض ما علمك وعلمى وعلم جميع الأولين والآخرين فى جنب علم الله تعالى إلا أقل من الماء الذى حملته الخطافة بمنقارها فذلك قوله تعالى - فوجدنا عبدا من عبادنا آتينا رحمة من عندنا - اى نبوة وحكمة - وعلمناه من لدنا علما - .

وقال ابن عباس : كان الحضر يعلم علم الغيب فقال له موسى - هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا قال إنك لن تستطيع معى صبرا - لأننى اعلم علم الباطن علما علمنيه الله تعالى وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا يعنى على ما لم تعلمه قال موسى ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ علمته مما تنكره حتى أحدث لك منه ذكرا وأبين لك شأنه فانطلقا يسيران يلتزمان سفينة يركبان فيها فمرت بهما سفينة جديدة وثيقة فركباها فقال اصحاب السفينة هؤلاء لصوص وأمروهم بالخروج منها فقال صاحب السفينة ما هؤلاء بلصوص ولكنى أرى وجوههم وجوه أنبياء وقال أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ : انطلقا يمسيان على ساحل البحر إذمرت بهما سفينة فكلما هم أن يحملوهم فعرفوا الحضر فحملوهم بغير نول فلما دخلوا فى البحر أخذ الحضر عليه السلام فأسا فخرق لوحا من السفينة حتى دخلها الماء فحشاها موسى بثوبه وقال أخرجتها لتغرق أهلها وقد حملونا وأحسنوا لينا فخرقت سفيتهم ما هذا جزاؤهم منا لقد جئت شيئا إمرا أى عجبا منكرا قال الحضر ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا قال موسى لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا يعنى لا تكلفنى ولا تضيق على أمرى .

قال ابن عباس : لما خرق الحضر السفينة تنحى موسى ناحية وقال فى نفسه ما كنت أصنع بمصاحبة هذا الرجل كنت فى بنى اسرائيل أتلو عليهم كتاب الله غدوة وعشية وأمرهم فيطيعونى فقال له الحضر يا موسى أتريد أن أخبرك بما حدث به نفسك قال نعم ؟ : قال قلت : كذا وكذا

قال صدقت ؟ . فانطلقا يمشيان حتى أتيا أيلة فاذا هما بغلمان عشرة فيهم غلام هو أظرفهم وأضوؤهم وجها .

قال ابن عباس : كان غلاما لم يبلغ الحلم ، وقال الضحاك : كان غلاما يعمل الفساد فتأذى منه أبواه ، وقال الكلبي : كان الغلام يسرق المتاع بالليل فاذا أصبح لجأ إلى أبويه فيحلفان دونه شفقة عليه ويقولان لقد بات عندنا .

واختلفوا في اسمه . فقال الضحاك : كان اسمه حسود ، وقيل الحسين ، وقال وهب بن منبه كان اسم أبيه ملاس واسم أمه رحمة قال فأخذه الحضر عليه السلام فقتله .

واختلفوا في كيفية قتله . قال سعيد بن جبير أخذه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين ، وقال الكلبي : صرعه ثم نزع رأسه ، وقال قوم رفسه برجله فقتله ، وقال آخرون ضرب رأسه بالجدار حتى قتله ، وفي رواية أخرى أدخل أصبعه في سرة الصبي فاقتلعها فمات فلما قتله قال موسى أقتلت نفسا زكية يعني ماهرة لم تذنّب ولم تستوجب القتل بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا أي منكرا . قال قتادة المنكر أشد وأعظم من الأمر . قال فغضب الحضر واقتلع كتف الصبي الأيسر وقشر اللحم عنه فاذا في عظم كتفه مكتوب كافر لا يؤمن بالله أبدا .

ويدل على صحة هذا القول ما أخبرنا به عبد الله بن حامد أخبرنا أحمد بن عبيد الله أخبرنا محمد بن عبد الله بن سليمان أخبرنا يحيى أخبرنا قيس عن أبي إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « كان الغلام الذي قتله الحضر طبع كافرا » فقال الحضر لموسى ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا أي في فراق .

أخبرنا عبد الواحد بن حامد الوزان أخبرنا مكي بن عبدان أخبرنا عبد الرحمن بن بشر أخبرنا حجاج بن محمد أخبرنا حمزة الزيات عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحدا بدعائه بدأ بنفسه . فقال ذات يوم رحمة الله علينا وعلى أخي موسى لوليت مع صاحبه لأبصر العجب العجيب ولكنه قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا فانطلقا يمشيان حتى أتيا أهل قرية .

واختلفوا في القرية . قال ابن عباس : هي انطاكية وقال محمد بن سيرين هي أيلة وهي أبعد أرض الله من السماء ، وقيل هي قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة واليه ينسب النصارى . قالوا فوافياها قبل غروب الشمس فاستطعما أهلها واستضافاهم فأبوا أن يضيفوهما . قالوا كانوا أهل قرية لثاما وقال قتادة في هذه الآيات : شر القرى لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه قالوا فلم يجدوا تلك الليلة في تلك القرية قرى ولا ماء ولا ملوى ، وكانت ليلة باردة فالتجئوا إلى حائط على شارع الطريق يريد

أن ينقض أى يكاد ينهدم ويسقط ولم يكن يمرّ به اهل القرية ولا غيرهم من الناس إلا على خوف منه ، وكان قد بناه رجل صالح .

وفي بعض الأخبار : ان سمك ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعا بذراع ذلك القرن ، وكان طوله على وجه الأرض خمسمائة ذراع وعرضه خمسون ذراع فأقامه الخضر اى سواء وقال ابن عباس هدمه وبناه . وقال سعيد بن جبير مسح الجدار وسواه بيده ومنكيه فاستقام . فقال له موسى لو شئت لاتخذت عليه أجرا ليكون لنا قوتا وبلغة على سفرنا إذ استضفناهم فلم يضيفونا . فقال له الخضر هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ثم أخذ يفسر له . فقال أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر الآية . قال كعب وغيره كانت لعشرة إخوة زمني لم يكن لهم معيشة غيرها ورثوها من أبيهم خمسة منهم يعملون في السفينة في البحر وخمسة لا يطيقون العمل فأما العمال منهم فأحدهم كان مجذوما والثاني أعور والثالث أعرج والرابع أدر والخامس عموم لاتقطع عنه الحصى الدهركله وهو أصغرهم والخمسة الذين لا يطيقون العمل اعمى وأصم وأخرس ومقعّد ومجنون وكان البحر الذي كانوا يعملون فيه ما بين فارس إلى بحر الروم .

ويروى عن عكرمة قال قلت لابن عباس في قوله - أما السفينة فكانت لمساكين - كانوا مساكين والسفينة تساوى ألف دينار فقال ان المسافر مسكين وان كان معه ألف دينار ولهذا قيل ان المسافر وماله على قلة إلا ما وقى الله تعالى فأردت أن أعيها قطعا لطمع الطامعين فيها ودفع الشرم وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ورائهم أى أمامهم قال الله تعالى - من وراءهم جهنم ومن وراءهم برزخ الى يوم يبعثون - أى أمامهم ، وقيل خلفهم لأنه كان رجوعهم في طريقهم عليه ولم يكونوا يعلمون خبره فأعلم الله تعالى الخضر خبره وكان يأخذ كل سفينة صالحة غصبا وكذلك كان يقرأها ابن عباس فخرقتها وعبثها كيلا يتعرض لها ذلك الملك .

واختلفوا في اسم ذلك الملك . فقال أكثر العلماء : اسمه جلندى وكان كافرا . وقال ابن اسحق : كان اسمه منواه بن جلندى الأردنى ، وقال شعيب الجبائى : كان اسمه هدد بن بدد وقيل كان لهذا الملك ثلثمائة وستون قصرا في كل قصر امرأة . قال فلما جاوزوا الملك سد الخضر خرق السفينة ورمها وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أى فعلنا أن يرهقهما يغشاها طغيانا وكفرا فهلكهما وقيل خشى أن يدرك فيدعو أبويه إلى الكفر فيجيباه ويدخلامعه في دينه لفرط محبتهم له ، وقيل خشيا على الغلام أن يعمل عمل القساق فيتغافل أبواه فيدخلان النار فأردنا أن يبدلهم ربهما خيرا منه زكاة وصلاحا وأقرب رحما .

قال ابن عباس : يعنى واصلا للرحم وبراً لوالديه فأبدلهم الله جارية مؤمنة أدركت يوسف بن متى وتزوجها نبي من الأنبياء فولدت له نبيا فهدى الله على يديه أمة من الأمم .
أخبرنا عبد الله بن حامد قال أخبرنا حامد بن أحمد قال أخبرنا ابو محمد عبد الله بن يحيى بن الحارث

أخبرنا عبد الوهاب بن فليح أخبرنا ميمون بن القداح عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه في هذه الآية قال : أبدلتهما جارية فولدت سبعين نبياً ، وقال ابن جريج أبدلتهما بـغلام مسلم وكان المقتول كافراً وقال قتادة في هذه الآية قد فرح به أبواه حين ولد وحزننا عليه حين قتل ولو بقي كان فيه هلاكهما فرضا المؤمن بقضاء الله تعالى فيما يكره خير له من رضاه فيما يحب .

وأما الجدار فكان لـغلامين يتييمين في المدينة واسمهما أصرم وصريم وكان تحته كنز لهما . واختلفوا في ذلك الكنز ما هو ؟ فقال ابن عباس وسعيد بن جبیر كان صحفا مدفونة تحته فيها علم وقال الحسن وجعفر بن محمد كان لوحاً من ذهب مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم عجبا لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن . وعجبا لمن يوقن بالرزق كيف يتعب . وعجبا لمن يوقن بالموت كيف يفرح وعجبا لمن يؤمن بالحساب كيف يجمع . وعجبا لمن يعرف الدنيا وتقلبها كيف يطمئن إليها . لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ .

وقال آخرون كان ذلك الكنز مالا يدل عليه ما أخبرنا أبو بكر الحمادى المزكى أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن قيدوس الطرائقي أخبرنا عثمان بن سعيد أخبرنا صفوان بن صالح الدمشقي أخبرنا يزيد بن مسلم الصنعاني عن يزيد بن يزيد عن مكحول عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى - وكان تحته كنز لهما - قال كان ذهبا وفضة وكان أبوهما اسمه كاشع وكان صالحا تقيا أميناً فحفظا لصالح أبيهما ولم يذكرا منهما صلاح وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء .

أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد قال أخبرنا بشر بن موسى أخبرنا الحميدى أخبرنا سفيان أخبرنا محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر قال : إن الله عز وجل ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وبقعته التي هو فيها والدويرات التي حوله فما يزالون في حفظ الله وستره . وعن سعيد بن المسيب أنه كان إذا رأى ابنه . قال يا بني لأزیدن في صلاتي من أجلك لعلني أحفظ فيك ويتلو هذه الآية . أخبرنا يحيى بن اسماعيل بن سلمة قال كانت لي أخت أسن مني فاختلفت وذهب عقلها فتوحشت وكانت في غرفة في أقصى سطوحنا فلبثت كذلك بضع عشرة سنة وكانت مع ذهاب عقلها تحرص على الصلاة والطهور فيينا أنا نائم ذات ليلة إذ أنا بباب بيتي يدق نصف الليل فقلت من هذا ؟ فقالت بحجة فقلت أختي قالت أختك فقلت لبيك فقممت فتحت الباب فدخلت ولا عهد لها في البيت أكثر من عشرين سنة فقلت يا أختي خيرا فقالت خيرا يا أخي بت الليلة فأتاني آت في منامي فقال لي السلام عليك يا بحجة فقلت وعليك السلام . فقال لي إن الله قد حفظ أباك اسماعيل بن سلمة بن كهيل بسلمة جدك وحفظك بأبيك اسماعيل فان شئت دعوت الله لك فيذهب ما بك وإن شئت صبرت ولك الجنة فان أبا بكر وعمر رضي الله عنهما قد تشفعا لك إلى الله تعالى لحب أبيك وجدك إياها فقلت إن كان ولا بد من اختياري أحدهما فالصبر على ما أنا فيه والجنة وإن الله واسع الفضل لخلق لا يتعاطمه

شيء في حكمه ولو شاء لجمعهما لي ، قالت فقيل لي قد جمعهما الله لك ورضي عن أبيك وجدك بحبهما أبا بكر وعمر فانزلي فان الله أذهب ما كان بك .

ويحكى عن بعض العلوية أنه دخل على هارون الرشيد وقد هم بقتله فلما دخل عليه أكرمه وخلي سبيله فقيل له بم دعوت حتى نجاك الله قال قلت : يا من حفظ الكنز على الصبيين لصالح أبيهما احفظني منه لصالح آبائي - فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما - المدفون تحت الجدار وما فعلته عن امرى وإنما فعلته بأمر الله تعالى - ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا - ويقال للمعابرة موسى على الخضر خرق السفينة وقتله الغلام واقامته الجدار محتسبا مجانا قال له يا موسى أتلومني على خرق السفينة مخافة غرق أهلها ونسيت نفسك حين التفتك امك وانت صغير في اليم ضعيف فحفظك الله ، وتلومني على قتل الغلام الكافر بلا أمر ونسيت نفسك حين قتلت القبطى بغير أمر؟ وتلومني على ترك أخذ الأجرة في إقامة الجدار ونسيت نفسك حين سقيت غنم شعيب محتسبا لأجل الملك الجبار . قال بعض اهل الأخبار هذا ما كان من قصة موسى وقتله وقصدهما الخضر حيث كانوا في التيه فلما فارق موسى الخضر رجع إلى قومه وهم في التيه .

ويروى عن علي بن أبي طالب وغيره أن موسى لما أراد فراق الخضر قال له الخضر استودعتك الله ، ثم قال له موسى أوصني ، فقال له الخضر : لا تكن مشاء في غير حاجة وإياك واللجاجة ولا تضعك من غير عجب ولا تعير الخاطئين بخطاياهم وإياك على خطيئتك ولا تؤخر عمل اليوم إلى غده . وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال « ألا أحدثكم عن الخضر ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال بينما الخضر يمشى في سوق من أسواق بني اسرائيل إذ لقيه مكاتب فقال له تصدق على باريك الله لك ، فقال آمنت بالله وما يقضى الله من أمر سيكون مامعى من شيء أعطيكه ، فقال له الرجل تصدق على باريك الله عليك فاني أرى الخير في وجهك فرجوت الخير من قبلك فقال له الخضر آمنت بالله وما يقضى الله من أمر سيكون مامعى شيء أعطيكه ، فقال له السائل أسألك بالله لما تصدقت على فقال له الخضر آمنت بالله ما يقضى الله من أمر سيكون مامعى شيء أعطيكه إلا أن تأخذ بيدي وتدخلني في السوق فتبيعي ، قال الرجل وهل يكون مثل هذا قال الحق أقول انك سألتني بعظيم سألتني بوجه ربي وقد أجبته فخذ بيدي وأدخلني السوق فبعتي فأخذ بيد الخضر فأدخله السوق فباعه بأربعمائة درهم فلبث عند البتاع أياما لا يستعمله في شيء ، فقال له الخضر استعملني فقال له إنك شيخ كبير وأكره أن أشق عليك قال لا يشق على ذلك قال فقم فانقل هذه الحجارة من ههنا إلى ههنا وكانت الحجارة لا ينقلها الا ستة نفر في يوم تام فقام ونقلها في ساعة واحدة وأمد الله تعالى على نقلها بملك من الملائكة فتعجب الرجل منه وقال أحسنت ثم عرض للرجل سفر فقال للخضر اني أراك أمينا صالحا فاخلقني في أهلي قال نعم ان شاء الله تعالى فاستعملني في شيء قال أكره أن أشق عليك قال لا يشق ذلك على فقال اضرب لي لبنا أريده لقصر لي ووصفه له ثم خرج لسفره

فلما قضى حاجته ورجع من سفره اذ هو بالخضر عليه السلام قد شيد بنيانه على ما أراد ، فازداد منه تعجبا وقال له من أنت قال أنا المملوك الذى كنت اشتريتنى ، فقال له سألتك بوجه الله أن تخبرنى من أنت فقال الخضر إن هذا القسم هو الذى أوقعنى فى العبودية أما أنا فساخبرك أنا الخضر سألتنى سائل بوجه ربه أن أعطيه ولم يكن معى شئ أعطيه فأمكنه من نفسى حتى باعنى وبلغنى أن من سئل بوجه الله ورد سائله وهو يقدر على قضاء حاجته وقف يوم القيامة بين يدى ربه وليس على وجهه لحم ولا جلد الا عظم يتققع ، قال فبكى ذلك الرجل وانكب عليه يقبله ويقول له بأبى أنت وأبى شقت عليك ولم أعرفك فاحكم على فى مالى وأهلى وإن أحببت أن أخلى سبيلك فعلت قال نعم بل أحب أن تخلى سبيلى أعبد ربه وكان الرجل كافرا فأسلم على يديه واعطاه أربعمئة دينار وخلى سبيله فأوحى الله اليه قد نجيتك من الرزق وأسلم الكافر على يدك واعطاك مكان كل درهم ديناراً لتعلم ان لا ينخر احد فى معاملتى ، فهذا آخر قصة الخضر وموسى وفتاه والله اعلم .

باب فى ذكر قصة عاميل قتل بنى اسرائيل وقصة البقرة

قال الله تعالى - واذا قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة - قال المفسرون وجد قتل فى بنى اسرائيل اسمه عاميل لم يدر من قتله . واختلفوا فى قاتله وسبب قتله ، فقال عطاء والسدى كان فى بنى اسرائيل رجل كثير المال وله ابن عم مسكين ولا وارث له غيره فلما طالت عليه حياته قتله ليرثه ، وقال بعضهم كان تحت عاميل ابنة عم له مالها فى بنى اسرائيل مثل فى الحسن والجمال فقتله ابن عم لها لينكحها فلما قتله حمله من قرية إلى قرية أخرى فألقاه هناك . وقال عكرمة كان لبنى اسرائيل مسجد له اثنا عشر باباً لكل سبط منهم باب فوجد قتل على باب سبط جر الى باب سبط آخر فاختصم فيه السبطان ، وقال ابن سيرين قتله القاتل ثم احتمله ووضع على باب رجل منهم ثم أصبح يطلب ثأره ودمه ويدعيه عليه وقيل ألقاه بين القريتين فاختصم أهلها وجاء أولياؤه إلى موسى واتوه بناس وادعوا عليهم القتل وسألوه القصاص فسألهم موسى عن ذلك فوجدوا ولم يكن لهم بينة فاشتبه أمر القتل على موسى ووقع بينهم قتال واختلاف وذلك قبل نزول القسامة فى التوراة فسألوا موسى أن يدعو الله ليعين لهم أمر ذلك القتل فسأل موسى ربه فأمرهم بذبح البقرة فقال لهم موسى - ان الله أمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا - جئناك لنسألك عن القتل فتأمرنا بذبح بقرة وإنما قالوا ذلك لتباعد الأمرين فى الظاهر ولم يدروا وجه الحكمة فيه فقال موسى - أعود بالله أن أكون من الجاهلين - أى من المستهزئين بالمومنين فلما علم القوم أن ذبح البقرة أمر من الله تعالى قد لزمهم سألوه الوصف فقال ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ولو أنهم عمدوا إلى ادنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم لكنهم شددوا الأمر على أنفسهم فشدد الله عليهم وإنما كان تشديدهم تقديرًا من الله وحكمة وكان السبب فيه على ما ذكره السدى وغيره أن رجلاً فى بنى اسرائيل كان باراً بأبيه ، وبلغ من بره أن رجلاً أتاه بلؤلؤة فابتاعها

بخمسين ألفا وكان فيها فضل ورج فقال البائع اعطني ثمن اللؤلؤة فقال ان أبي نائم ومفتاح الصندوق تحت رأسه فأمهلي حتى يستيقظ وأعطيك الثمن فقال أيقظ أباك وأعطني المال . فقال ما كنت لأفعل ولكن أزيدك عشرة آلاف وأنظرنى حتى ينتبه أبى ، فقال الرجل أنا أحط عنك عشرة آلاف ان أيقظت أباك وعجلت النقد فقال أنا أزيدك عشرين ألفا ان انتظرت انتباهه فقال قبلت فقعد ولم يوقظ أباه ، فلما استيقظ أبوه اخبره بذلك فدعا له وجزاه خيرا وقال له أحسنت يا بني وهذه البقرة لك بما صنعت وكانت بقية بقر كانت لهم وقال رسول الله ﷺ في هذه القصة : انظروا ما صنع الله به لأجل البر .

وقال ابن عباس ووهب وغيرها من أهل الكتب : كان في بني اسرائيل رجل صالح وله ابن مفلح وكان له عجلة فأتى بالعجلة إلى غيضة وقال اللهم انى استودعتك هذه العجلة لابنى حتى يكبر ، ثم مات الرجل وشبت العجلة في الغيضة حتى صارت عوانا وكانت تهرب من كل من رآها ، فلما كبر الابن وكان بارا بوالده وكان يقسم الليل ثلاثة أثلاث يعلى ثلثا وينام ثلثا ويجلس عند رأس أمه ثلثا فاذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتى به السوق فيبيعه بما شاء الله ثم يتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطى والدته ثلثه ، قالت له أمه يوما يا بني ان أباك ورثك عجلة وذهب بها الى غيضة كذا وكذا واستودعها الله تعالى ، فانطلق اليها واعزم عليها باله ابراهيم واسماعيل واسحق أن يردها عليك وعلامتها أنك إذا نظرت اليها يتخيل لك أن شعاع الشمس يخرج من جلدتها وكانت اسمها المذهبة لحسن خلقها وصفاء لونها وصفرتها ، فأتى الغيضة فرآها وهى ترعى فصاح بها الفتى وقال لها أعزم عليك باله ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب أن تردى على فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه فقبض على عنقها وقادها فتكلمت البقرة باذن الله تعالى وقالت أيها الفتى البار بوالدته اركبني فان ذلك أوهون لك ، فقال ان أمى لم تأمرنى بذلك وإنما قالت خذ بعنقها ، فقالت البقرة وإله بني اسرائيل لو ركبتنى ما كنت تقدر على أبدا فانطلق فانك لو أشرت الى الجبل أن ينقلع من أصله وينطلق لفعل لبرك بوالدتك فانطلق الفتى بها فاستقبله عدو الله إبليس في صورة راع فقال له أيها الفتى إني راع من رعاة البقر اشتقت الى أهلى فأخذت ثورا من ثرائى وحملت عليه زادى ومتاعى حتى اذا بلغت شطر هذه الطريق ذهبت لأقضى حاجتى فعدا وسط الجبل وما قدرت عليه ، وانى لأخشى على نفسى الهلكة فان رأيت ان تحملنى على بقرتك هذه وتنجينى من الموت وأعطيك بقرتين مثل بقرتك ، فلم يفعل الفتى وقال اذهب فتوكل على الله فلو علم الله منك اليقين لبلغك بلازاد ولا راحلة ، فقال له إبليس لعنه الله ان شئت فبعنيتها بحكمك وان شئت فاحملنى عليها وأعطيك عشرة أمثالها فقال له الفتى ان أمى لم تأمرنى بهذا فبينما الفتى كذلك إذ طار طائر من بين يدي البقرة ، فنفرت البقرة هاربة في القلاة وغاب الراعى ، فدعاها الفتى وقال باسم الله اله ابراهيم فرجعت اليه البقرة وقالت أيها الفتى البار بوالدته ألم تر الى الطائر الذى طار فانه إبليس عدو الله اختلسنى أما انه لو ركبنى لما قدرت على أبدا فلما دعوت باله ابراهيم جاءنى ملك انزعنى

من يد إبليس وردني اليك لبرك بأملك وطاعتك لها فجاء بها الفتى الى أمه فقالت له انك فقير لا مال لك ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبع هذه البقرة وخذ ثمنها فقال بكم أبيعها فقالت بثلاثة دنانير ولا تبعها بغير رضاي ومشورتي وكان ثمن البقرة في ذلك الوقت ثلاثة دنانير فانطلق بها الى السوق فبعث الله الى الفتى ملكا ليرى خلقه قدرته وليختبر الفتى كيف بره بوالدته وكان الله به خيرا ، فقال له الملك بكم تباع هذه البقرة فقال بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضا والدتي فقال له الملك أنا أعطيك ستة دنانير ولا تستأمر أمك فقال له الفتى لو أعطيتني وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضا أمي فردها الى أمه فأخبرها بالثمن ، فقالت ارجع فبيعها بستة دنانير على رضاي فانطلق الفتى بالبقرة الى السوق ، فأتى الملك فقال له استأمرت والدتك فقال الفتى نعم أمرتني أن لا أبصصها عن ستة دنانير على أن استأمرها فقال له الملك اني أعطيتك اثني عشر دينارا على أن لا تستأمرها فأبى الفتى ورجع الى أمه فأخبرها بذلك فقالت ان ذلك الرجل الذي يأتيك هو ملك من الملائكة يأتيك في صورة آدمي ليختبرك فاذا أتاك فقل له أتا مني ان أبيع هذه البقرة أم لا ففعل الفتى ذلك ، فقال له الملك اذهب الى أمك وقل لها أمسكي هذه البقرة فان موسى بن عمران يشتريها منك لتقتل في بني اسرائيل ولا تباعها إلا بثلثي ثمنها دنانير ، فأمسك البقرة وقدر الله على بني اسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها مكافأة له على بره بوالدته فضلا منه ورحمة فذلك قوله تعالى - قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي - وما سمعها قال موسى إنه يعني الله يقول - إنها بقرة لا فارض ولا بكر - اي لا كبيرة ولا صغيرة عوان بين ذلك نصف بين السنين ، فافعلوا ما تؤمرون من ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال - قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها - قال انه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين - اليها وتعجبهم من حسنها وصفاتها لأن العين تسر وتولع بالنظر الى الشيء الحسن وقال علي بن أبي طالب من لبس نعلان صفراء قلّ همّه لأن الله تعالى يقول صفراء فاقع لونها تسر الناظرين - قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي - أسائبة أم عاملة - إن البقر تشابه علينا وإنا ان شاء الله لمهتدون - الى وصفها قال رسول الله ﷺ « وإيم الله لو لم يستثنوا لما قبلت منهم الى آخر الأبد » - قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول مذلة بالعمل تثير الأرض - تقلبها للزراعة - ولا تسقى الحرث مسلمة - بريئة من العيوب لاشية فيها ، قال عطاء لا عيب فيها ، وقال قتادة لا يبيض فيها أصلا ، وقال محمد بن كعب لا لون فيها يخالف معظم لونها . قال فلما قال لهم موسى هذا - قالوا الآن جئت بالحق - اي بالوصف الثابت التام البين ، فطلبوها فلم يجدوها بكال وصفها الا عند الفتى البار بأمه فاشتروها منه بملء مسكها ذهباً ، وقال السدي اشتروها بوزنها عشر مرات ذهباً ، - فذبحوها وما كادوا يفعلون - من غلو ثمنها ، وقال القرطبي : وما كادوا يذبحونها باجتماع أوصافها وذلك قوله تعالى - وإذ قتلتم نفسا - يعني عاميل وهذه الآية أول القصة - فاذا رأيتم فيها - اي فاختلفتم فيها والله مخرج اي مظهر ما كنتم تكتمون اي تخفون فقلنا اضربوه يعني القتل ببعضها اي بعض البقرة واختلفوا في هذا البعض ماهو ، قال ابن عباس ضربوه بالعظم الذي يلي الغضروف وهو

القتل ، وقال الضحاك بلسانها قال حسين بن الفضل ، وهذا اولى الأقاويل لأن المراد من إحياء القتل كلامه واللسان آلة وقال سعيد بن جبير بعجب ذنبها ، قال غياث وهو اولى التأويلات بالصواب لأن عجب الذنب اساس البدن الذى ركب عليه الخلق وهو اول ما يخلق الله وأخر ما يبلى . وقال مجاهد بذنبها وقال عكرمة والسكبي بفخذها الأيمن وقال السدى بالبضعة التى بين كتفها وقيل بأذنها ففعلوا ذلك فقام القتل حيا باذن الله تعالى واوداجه تشخب دما وقال قتلى فلان ثم سقط ومات مكانه قال الله تعالى - كذلك يحيى الله الموتى - كما أحيا عاميل بعد موته - ويرىكم آياته - دلائل قدرته وشواهد حكمته - لعلمكم تعقلون - قالوا فلما كان من أمر عاميل ما كان أوحى الله تعالى إلى موسى أن يتوجه إلى الأرض المقدسة بينى اسرائيل لينظر إلى كل قتل يوجد بين قريتين او محلتين ، فليأخذ اقرب القريتين اليه ويلزمهم الدية ، فان علموا قاتله سلموه إلى اهله وان لم يعلموا تخيروا خمسين رجلا من شيوخهم وصلاحائهم ثم ليأخذوا بقرة حولية ويذبحوها بطن واد يسميه لهم ثم لتضع الخمسون رجلا ايديهم عليها ثم ليحلفوا بالله العظيم رب السموات والأرض إله بنى اسرائيل واسحق ويعقوب واسماعيل انا ما قتلناه ولا علمنا له قاتلا ، فاذا حلفوا برئوا من دمه وادوا ديته إلى أوليائه فلم يزل موسى يقضى بالقسامة بينهم إلى ان مات وكذا بنو اسرائيل حتى جاء الاسلام فقضى رسول الله ﷺ بالقسامة والله أعلم .

باب فى ذكر بناء بيت المقدس والقربان والتابوت والسكينة وصفة النار التى كانت

تأكل القربان وما أمر به موسى عليه السلام من ذلك

قال الله تعالى - الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا تؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار - الآية .

أبنا محمد بن حمدويه باسناده عن وهب بن منبه قال : أوحى الله إلى موسى أن يتخذ مسجدا لجماعتهم وبيت قدس للتوراة والتابوت والسكينة وقبابا للقربان ، وأن يجعل لذلك المسجد سرادقات باطنها وظاهرها من الجلود الملبسة عليها ، وأن تكون تلك الجلود من جلود ذبائح القربان وحبالها التى تمد بها من أصواف تلك الذبائح وعهد إليه أن لا ينزل تلك الحبال حائض ولا يدبغ تلك الجلود جنب وأمره أن ينصب تلك السرادقات على عمد من نحاس طول كل عمود منها أربعون ذراعا ، ويجعل فيها اثني عشر قسما مسرجا ، فاذا انقضى وصار اثني عشر جزءا جعل على كل جزء بما فيه من العمد سبطا من أسباط بنى اسرائيل ، وأمره أن يجعل سعة تلك السرادقات ستمائة ذراع فى ستمائة ذراع وان ينصب فيه سبع قباب ستة منها مشبكة بقضبان الذهب والفضة كل واحدة منهن منصوبة على عمود من فضة طوله أربعون ذراعا ، وعليها أربعة دسوت من ثياب محلاة الباطن . الأولى سندس أحضر . والثانى أرجوان أحمر . والثالث ديباج . والرابع من جلود القربان وقاية لها من المطر والغبار وحبالها التى تمد بها من صوف القربان ، وأن يجعل سعتها أربعين ذراعا ، وأن

ينصب في جوفها موائد من فضة مربعة يوضع عليها القربان ، سعة كل مائدة منها أربعة أذرع في أربعة أذرع كل مائدة منها على أربع قوائم من فضة ، كل قائمة ثلاثة أذرع لا ينال الرجل منها إلا قائما ، وأمره ان ينصب بيت المقدس على عمود من ذهب طوله سبعون ذراعا يضعه على سبيكة من ذهب أحمر طولها تسعون ذراعا مرصع بأنواع الجواهر ، وان يجعل أسفله مشتبكا بقضبان الذهب والفضة ، وأن يجعل حبالها التي تمتد لها من أصواف القربان ، وأن يجعله مصبوغا بألوان من أحمر وأصفر وأخضر ، وان يلبسه سبعة من الجلال محلاة الباطن . الأول منها سندس أخضر ، والثاني أرجوان أحمر . والثالث من الديباج الأصفر . والرابع من الحرير الأصفر وبذلك أثواب نحوها وسائرها من الديباج والوشى والظاهر له غاشية من جلود القربان وقاية من الأذى والندى ، وأمره أن يجعل سعته سبعين ذراعا وأن يفرش القباب بالقز الأحمر ، وأمره أن ينصب فيه تابوتان من ذهب كتابوت لليثاق مرصع بألوان الجواهر واليواقيت الأحمر والأشهب والزمرد الأخضر وقوائمه من ذهب ، وأن يجعل سعته سبعة أذرع في أربعة أذرع وعلوه قائمة موسى ، وأن يجعل له أربعة أبواب باب تدخل منه الملائكة ، وباب يدخل منه موسى ، وباب يدخل منه هرون ، وباب يدخل منه أولاد هرون ، وهم سدنة ذلك البيت وخزان التابوت ، وأمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام أن يأخذ من كل محتلم فيها من بني اسرائيل مثقالا من ذهب ، فينفقه على هذا البيت وأن يجعل باقى ذلك المال الذى لا يحتاج اليه من الحلى والحلل التى ورثها الله بنى اسرائيل وموسى وأصحابه من فرعون وقومه دفينا فى أرض بيت المقدس ، ففعل ذلك فبلغ عدد بنى اسرائيل ستمائة ألف وسبعة وخمسين رجلا ، فأخذ منهم ذلك المال وأوحى الله اليه إني منزل عليكم من السماء نارا لا دخان لها ولا تحرق شيئا ولا تطفأ أبدا لتأكل القرايين المتقبلة وتسرج القناديل التى فى بيت المقدس ، وهى من ذهب معلقة بسلاسل من الذهب منظومة من اليواقيت والآلى وأنواع الجواهر ، وأمره ان يضع فى وسط البيت صخرة عظيمة من الرخام وينقر فيها نقرة لتكون كأنون تلك النار التى تنزل من السماء ، فدعا موسى أخاه هرون وقال له : ان الله قد اصطفانى بنار تنزل من السماء تأكل القرايين المتقبلة وتسرج منها القناديل وأوصانى بها ، وإني قد اصطفيتك بها وأوصيتك بها ، فدعا هرون ابنه وقال لهما : ان الله تعالى قد اصطفى موسى بأمر وأوصاه به وانه قد اصطفانى له وأوصانى به وإني قد اصطفيتكما له وأوصيتكما به ، وكان أولاد هرون هم الذين يلون سدنة هذا البيت وأمر القربان والنيران ، فشربوا ذات ليلة حتى عملوا ثم دخلوا البيت وأسرجوا القناديل من هذه النار التى فى الدنيا فغضب الله عليهم وسلط عليهم تلك النار فأحرقتهما وموسى وهرون يدفعان عنهما النار فلم يغنيا عنهما من أمر الله شيئا ، فأوحى الله تعالى إلى موسى هكذا أفعل بمن عصانى ممن يعرفنى فكيف أفعل بمن لا يعرفنى من أعدائى ، وهذا آخر القصة والله أعلم .

باب في ذكر مسير بني اسرائيل إلى الشام حين جاوزوا البحر وصفة حرب
الجبارين وقصة التيه وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى - وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم
ملوكا - الآيات اختلفت عبارات المفسرين في الأرض المقدسة ماهي ، فقال مجاهد هي الطور
وما حوله . وقال مقاتل هي إيليا وبيت المقدس . وقال عبد الله بن عمر الحرم محرم بمقداره من
السموات والأرض والبيت المقدس مقدس بمقداره من السموات والأرض ، وقال عكرمة والسدي
هي أريحاء . وقال الكلبي هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن . وقال الضحاك هي الرملة والأردن
وفلسطين . وقال قتادة هي الشام كله .

[فصل في فضل الشام وأهلها] قال زيد بن ثابت بينما نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم
نؤلف القرآن من الرقاع إذ قال « طوبى لأهل الشام قيل يا رسول الله ولم ذلك ؟ قال إن ملائكة الرحمن
باسطة أجنحتها عليهم » عن عبد الله بن خولة قال : كنا عند النبي ﷺ فقال « والله لا يزال هذا
الأمر فيكم حتى يفتح الله لكم أرض فارس والروم وأرض حمير وحتى تكونوا أجنادا ثلاثة جند بالشام
وجند بالعراق وجند باليمن ، فقلت يا رسول الله اختبرني إن أدركني ذلك ، فقال أختار لك الشام فإنها
صفوة الله تعالى من بلاده واليهابحتي صفوته من عبادته ، يا أهل الاسلام عليكم بالشام فإن صفوة الله
من الأرض الشام ، وإن الله تعالى قد تكفل لي بالشام وأهلها » وقال عبد الله بن مسعود حدثنا رسول
الله ﷺ قال « قسم الله الخير عشرة أجزاء فجعل منه تسعة أجزاء في الشام وواحدة في العراق ،
وقسم الله الشر عشرة أجزاء فجعل منه تسعة في العراق وواحدة بالشام ، ودخل الشام عشرة آلاف
عين رأت النبي ﷺ ونزل حمص تسعمائة من أصحاب النبي ﷺ فيهم سبعون بدريا . وقال
الكلبي سعد ابراهيم عليه السلام جبل لبنان وقيل له انظر فما أدركه بصرك فهو مقدس ، وهو
ميراث لذريتك من بعدك فذلك قوله تعالى - يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم -
يعني كتب الله في اللوح المحفوظ أنها لكم مساكن ، وقال ابن إسحق وهبها الله لكم مساكن وقال
السدي أمركم أن تدخلوها .

ذكر قصة بلعام بن باعوراء

قال الله تعالى - واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها الآية . واختلفوا فيه فقال أكثر
المفسرين هو بلعام بن باعوراء بن باعربن أيدين مارت بن لوط ، وكان من الكنعانيين من مدينة بلقاء
وهي مدينة الجبارين ، وميت بلقاء لأن ملكها رجل يقال له بالق بن صافوراء . وكانت قصة بلعام
على ما ذكره ابن عباس وابن إسحق والسدي والكلبي وغيرهم أن موسى عليه السلام لما قصد حرب
الجبارين ونزل أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إلى بلعام وكان عنده اسم الله الأعظم ،

فقالوا له ان موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وانه قد جاء ليخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى اسرائيل وانا قومك وبنو عمك وجيرانك وليس لنا منزل وانت رجل مجاب الدعوة فاقدم الينا وأشر علينا في هذا الرجل العدو الذى قد أرهقنا فادع الله أن يرد عنا موسى وقومه ، فقال لهم بلعام : ويلكم هذا نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون كيف أدعوا عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم وإنى إن فعلت ذلك ذهبت دنياى وآخرتى ، فلم يزالوا به حتى قال لهم اصبروا حتى أستأمر ربي وكان لا يدعوا حتى ينظر ما يؤمر به فى المنام فتأمر فى الدعاء عليهم فى المنام فقبل له لاتدع عليهم ، فقال لقومه : إني قد أمرت ربي فى الدعاء عليهم فنييت عن ذلك فراجعوه فقال حتى أوامر ثانيا فآمر فلم يجب فقال قد أمرت فلم يجب لى شيئا ، فقالوا لو شكره ربك أن تدعو عليهم لهلك كما فعل فى المرة الأولى فلم يزالوا يرفقون به ويناشدونه ويتضرعون اليه حتى فتتوه فافتتن ، فقالوا لبعضهم اهدوا اليه فيقال إنهم أهدوا اليه هدية فقبلها . ويقال إن بلعام بن باعوراء لما أبى أن يدعو على موسى وقومه اجتمع آراء قومه على أن يحملوا شيئا إلى امرأته وقالوا إنها فقيرة وانه يصغى إلى رأيها فانطلق عشرة من عظمائهم وحمل كل واحد منهم صحيفة من ذهب مملوءة ورقا فأهدوها لها فأقبلت على صاحبها وألحت عليه حتى قالت له ارجع الى ربك فاسأله أن يأذن لك فى مؤازرتهم والدعاء على عدوهم فلم تزل به حتى استجاب فلم يجب اليه بشيء فقالت له إنه قد خيرك فى الدعاء عليهم فلم يأذن لهلك . قالوا فركب أتاناه متوجها الى جبل يطلعه على عسكر بنى اسرائيل يقال له حسان وكانت مراكب العباد الأولين الآن ، فماسار عليها غير بعيد حتى ربضت به فنزل عنها وضربها حتى أزلقها فقامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت به ففعل بها مثل ذلك فقامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت به فضربها حتى إذا أزلقها أذن الله تعالى لها فى الكلام حجة عليه فقالت له : ويحك يا بلعام أين تذهب ألا ترى أن الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعوا عليهم ؟ فلما سمع ذلك خر ساجدا ، فلم يزل با كيا متضرعا حتى غابت عنه الملائكة ثم رفع رأسه فجاءه الشيطان وقال له امض لوجهك فان ربك يستجيب لك ولولم يرد ذلك لما برحت عنك الملائكة ولما خلوا سبيلك فركب أتاناه وخلق الله سبيلها فانطلقت به حتى أشرفت على جبل حسان فجعل لا يدعوا عليهم بشيء من الشر إلا صرف الله به لسانه الى قومه ولا يدعوا لقومه بخير إلا صرف الله به لسانه إلى بنى اسرائيل ، فقال له قومه أتدري ما تمنع يا بلعام ؟ إنما تدعوا لهم وتدعوا علينا فقال هذا أمر لا أملك منه شيئا قد غلبنى الله عليه فاندلع لسانه فوقع على صدره فعلم ما حل به فقال لقومه قد ذهبت منى الدنيا والآخرة ولم يبق إلا الكر والحيلة فسأمر لكم واحتال فجملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يعن فيه ويشترين وأمروهن أن لاتمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فانهم لوزنى رجل منهم كفيتموهم ففعلوا ذلك ، فلما دخلت النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كبشابت صوريا برجل من عظماء بنى اسرائيل يقال له زمري بن سلوم من سبط شمعون بن يعقوب بن إسحق بن ابراهيم ، فقام اليها وأخذ يديها حين أعجبه حسنهما وجمالها ثم وقف

على موسى وقال : إني سأظنك أن تقول هذه حرام عليك فقال أجل هي حرام عليك لا تقربها . قال والله لا أطيعك في هذا ، ثم إنه دخل بهاقبه فواقعها فأرسل الله الطاعون على بني إسرائيل في الوقت ، وكان فنحاص بن عيزار بن هرون صاحب موسى رجلا قد أعطى بسطة في الخلق وقوة في البطش وكان غائبا حين صنع زمري بن سلوم ماصنع فجاء والطاعون يجوس في بني إسرائيل فأخبر الخبر ، فأخذ حربته وكانت حديدًا كلها ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان فانتظمهما في حربته ، ثم خرج بهما رافعهما يديه إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة على لحيته ، وكان بكر العيزار وجعل يقول : اللهم هكذا تفعل بمن يعصيك ، فرفع الطاعون عنهم فحسب من هلك من بني إسرائيل من الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد أهلك منهم سبعين ألف نفس في ساعة واحدة . فمن هناك يعطى بنو إسرائيل لبنية من كل ذبيحة ذبحوها الحاصرة والذراع واللقى ، لاعتماده بالحربة على خاصرته وأخذه إياها بذراعه وإسناده إياها إلى لحيته والبكر من كل أموالهم لأنه كان بكر العيزار بن هرون ، ففي بلعام أنزل الله تعالى - واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا - الآية .

قال مقاتل : إن ملك البلقاء قال لبلعام ادع الله على موسى والاقم لك فقال انه من أهل ديني ولا ادعو عليهم فجاء بخشبة ليصلبه . فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو عليه فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان ووقفت فضربها فقالت له لم تضربني وأنا مأمورة فلا تظلمني وهذه نار أمامي قد منعني أن أمشي فرجع فأخبر الملك فقال له لتدعون عليه وإلا صلبتك فدعا على موسى بالاسم الأعظم أن لا يدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى . ونو إسرائيل في التيه بدعائه فقال موسى يارب بأي ذنب وقعنا في التيه ؟ قال بدعاء بلعام فقال موسى يارب كما سمعت دعاءه على فاسمع دعائي عليه أن تنزع منه الاسم الأعظم والايمان فسلخه الله مما كان عليه ونزعت منه المعرفة فخرجت كحمامة بيضاء وأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال آخرون هونبي من بني إسرائيل يقال له بلعام أوتى النبوة فرشاه قوموه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه .

وقال عبد الله بن عمر وزيد بن أسلم وأبورو أنزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت الثقفي كانت قصته أنه كان في ابتداء أمره قد قرأ الكتب السالفة وعلم أن الله تعالى مرسل رسول في ذلك الوقت ورجا أن يكون هو ذلك الرسول فلما أرسل محمد ﷺ حسده وكان قصد بعض الملوك ، فلما رجع مر بهتلى بدر فسأل عنهم فقيل له قتلهم محمد ، فقال لو كان نبيا ما قتل أقرباءه ، فلما مات أمية أتت أخته فارعة رسول الله ﷺ فسألتها عن وفاة أخيها فقالت بيتا هو راقد إذ أتاه رجلان فكشطا سقف البيت ونزلا فقعدا أحدهما عند رجله والآخر عند رأسه فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه أوعى قال وعى ، قال أزكا قال زكا ، قالت فسأله عن ذلك ؟ فقال خير أريدني ، ثم قطرت عينه ، ثم غشي عليه ، فلما أفاق قال :

كل عيش وإن تطاول دهرا صائر أمره إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في قلال الجبال أرعى الوعولا
إن يوم الحساب يوم عظيم شاب فيه الصغير يوما ثقيلا
ثم قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أطيبه من شعر سألتك بالله أن تنشدي شعر أخيك فأنشدته :

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا فلا شيء أعلى منك جدا وأجود
ملك على عرش السماء مهيمن لعزته تغنو الوجوه وتسجد
وهي قصيدة طويلة وأنشدته حتى أتت على آخرها ثم أنها أنشدته قصيدته التي يقول فيها :

عند ذى العرش يعرضون عليه يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم تأتيه وهو رب رحيم إنه كان وعده مأثيا
يوم تأتيه مثل ما قال فردا لم يذر فيه راشدا وغويا
أسعِد سعادة أنا أرجو أم مهان بما كسبت شقيا
رب إن تعف فالمعافاة ظني أو تعاقب فلم تعاقب بريا
إن أؤاخذ بما اجترمت فاني سوف ألقى من العذاب قويا

فقال ﷺ « آمن شعره وكفر قلبه » فأنزل الله تعالى فيه - وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا - الآية ، وقال سعيد بن المسيب نزلت في أبي عامر بن النعمان بن صيفي الراهب الذي سماه النبي ﷺ الفاسق ، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس السوح فقدم المدينة ، فقال النبي ﷺ ما هذا الذي جئت به ؟ قال جئت بالحنيفية دين إبراهيم . قال فأنا عليها فقال النبي ﷺ لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها فقال أبو عامر أمات الله الكاذب منا في مناظرته طريدا فريدا وحيدا فخرج إلى الشام وأرسل إلى النافقين أعدوا القوة والسلاح وابنوا إلى مسجدا فاني ذاهب إلى قيصر وآتي بجند لنخرج محمدا وأصحابه من المدينة فذلك قوله تعالى - وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل - يعني انتظارا لمحبيته فمات في الشام طريدا وحيدا فريدا ، ومنهم من قال أنها نزلت في البسوس وكان رجلا قد أعطى ثلاث دعوات مستجابات وكان له امرأة وله منها ولد ، فقالت له اجعل لي منها واحدة ، فقال لك منها دعوة فما تريدين ؟ قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل ، فدعا فجعلت أجمل امرأة في بني إسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه فغضب الرجل فدعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهب فيها دعوتان فجاء بنوها فقالوا ليس لنا على هذا قرار ولا صبر صارت أمنا كلبة نباحة وإن الناس يعيروننا بها فدعا الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله فصارت كما كانت فذهبت فيها الثلاث دعوات كلها .

باب في ذكر النقباء الذين اختارهم موسى ليكونوا كفلاء على قومهم
حين بعثه إياهم الى أرض كنعان جواسيس له ولقومه

قال الله تعالى - ولقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا - الآية وذلك أن الله تعالى وعدهم موسى أن يورثه وقومه الأرض المقدسة وهي الشام وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون وهم العمالة من ولد عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ووعد الله أن يهلكهم ويجعل أرض الشام مساكن بني اسرائيل فلما استقرت بين اسرائيل الدار بمصر أمرهم الله بالمسير الى أريحا من أرض الشام وهي الأرض المقدسة فقال يا موسى إني قد كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرج اليها وجاهد من فيها من العدو فاني ناصركم عليهم فخذ من قومك اثني عشر رجلا من كل سبط نقيبا يكون كفلاء على قومهم بالوفاء بما أمروا به فاختر موسى من كل سبط نقيبا وأمره عليهم وهذه أسماءهم من سبط روييل شمعون بن ذكور ومن سبط شمعون شوقط بن حوري ومن سبط يهوذا كالب بن يوقنا ومن سبط جاد جابد بن يوسف ومن سبط رايالون حدي بن سوري ومن سبط أشير شايون بن مليكيك ومن سبط يقيال حبي بن وقسي ومن سبط دان حمل بن وكيل بن خمل ومن سبط لاوي خولا بن مليكا ومن سبط يوسف افرايم ومن سبط افرايم يوشع بن نون وها سبطان لموسى ومن سبط ميشاحي بن موسى ومن سبط بنيامين ناظم بن زقون ، ثم إنه سار بيني اسرائيل قاصدا أريحا فبعث موسى اليها هؤلاء النقباء يتجسسون الأخبار له ويعلمون حالها وحال أهلها فلقبهم رجل من الجبارين يقال له عوج بن عنق .

فصل في ذكر جمل من أخبار عوج بن عنق وأحواله

قال ابن عمر كان طول عوج ثلاثة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا بالذراع الأول ، وكان عوج يحتجز السحاب ويشرب منه الماء ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه اليها ثم يأكله .

ويروى أنه أتى نوحا في أيام الطوفان فقال له احملي معك في سفينتك فقال له اذهب يا عدو الله فاني لم أؤمر بك فطبق الماء الأرض من سهل ومن جبل وما جاوز ركبتيه وعاش ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يد موسى وكان لموسى عسكر فرسخ في فرسخ فجاء عوج ونظر اليهم ثم جاء الى الجبل وقور منه صخرة على قدر العسكر ثم حملها ليطبقها عليهم فبعث الله عليه الهدهد ومعه الطيور فجعلت تنقر بمناقيرها حتى قورت الصخرة وانتقبت فوقعت في عنق عوج بن عنق فطوقته وصرعته فأقبل موسى وطوله عشرة أذرع وطول عصاه عشرة أذرع وقفز الى فوق عشرة أذرع فما أصاب منه إلا كعبه وهو مصروع في الأرض فقتله قالوا فأقبل جماعة كثيرة ومعهم الخناجر فجهدوا حتى حزوا رأسه ، فلما قتل وقع على نيل مصر فحسره سنة قالوا وكانت أمه عنق هي إحدى بنات آدم من صلبه ويقال إنها كانت أول من بنى على وجه الأرض وكان كل أصبع من أصابعها طوله ثلاثة أذرع في عرض ذراعين

في كل أصبع ظفران حادان مثل النجلين وكان موضع مقعدها خربة من الأرض ولما بلغت بعث الله اليها أسودا كالفيلة وذئبا ونمورا كالابل ونسورا كالحر وسلطهم عليها فقتلوها وأكلوها .

قالوا فلما لقىهم عوج يعنى أصحاب موسى وكان على رأسه حزمة حطب أخذ الاثنى عشر ثقيبا وجعلهم في حزمته وانطلق بهم الى امرأته ، وقال لها انظري الى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا وطرحهم بين يديها وقال لأطحنهم برجلي ، فقالت له امرأته لا تفعل بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا ففعل ذلك وخلق سبيلهم فجعلوا يتعرفون أحوالهم وكان لا يحمل عنقود عنهم إلا خمسة نفرينهم في خشبة ويدخل في قشرة الرمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس أو أربعة ، فلما خرجت النقباء قال بعضهم لبعض يا قوم إنكم ان أخبرتم بنى إسرائيل خبر القوم فشلوا وارتدوا عن نبي الله ولكن اكتبوا شأنهم واخبروا موسى وهرون فيريان رأيهم فيهم فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك ، ثم انهم انصرفوا الى موسى وجاءوا بحبة من عنبهم وقشرة من قشور رمانهم واخبروه بما رأوا ثم ان النقباء نكثوا العهد وجعل كل واحد منهم ينهى سبطه وقومه عن قتالهم واخبروهم بما رأوا من حالهم إلا رجلين منهم وفيما هما قالا وهما يوشع بن نون بن افرايم فتى موسى وكالب بن يوقنا ختن موسى على أخته مريم بنت عمران فلما سمع القوم ذلك من الجواسيس رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا يا ليتنا متنا في أرض مصر او ليتنا نموت في هذه البرية ولا يدخلنا الله ارضهم فتكون نساؤنا وأولادنا واموالنا غنيمة لهم وجعل الرجل منهم يقول لأصحابه تعالوا نجعل علينا رئيسا وننصرف الى مصر فذلك قوله تعالى اخبارا عنهم - قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين - الآية قال قتادة كان لهم أجسام وخلق عجيب ليس لغيرهم مثله - وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون - قال موسى ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم فان الله سيفتحها عليكم وان الذي أنجاكم من آل فرعون وخلق لكم البحر هو الذي يبلغكم ويظفركم عليهم فلم يقبلوا قوله ولم يفعلوا وردوا عليه امره وهموا بالانصراف الى مصر فخرج يوشع بن نون وكالب بن يوقنا الى القوم وهما اللذان أخبر الله عنهما بالتوفيق والعصمة في قوله تعالى - قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما - بالتوفيق والعصمة - ادخلوا عليهم الباب - يعنى باب مدينة الجبارين فاذا دخلتموه فانكم غالبون لأن الله منجز وعده فانا رأيانهم وخبرناهم فكانت جسومهم عظيمة قوية وقلوبهم ضعيفة فلا تحشوهم وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين فأراد بنو اسرائيل ان يرجعوا بالحجارة وعصوها وقالوا يا موسى انا لن ندخلها ابدا ماداموا فيها فاذهب انت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون .

وروى أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم الحديبية حين صد عن البيت انى ذاهب بالهدى فناحره عند البيت فاستشار أصحابه في ذلك ، فقال المقداد بن الأسود الكندى إنا والله لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى فاذهب انت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكننا نقول إنا معك مقاتلون والله لنقاتلن عن يمينك وشمالك وبين يديك ولو خضت بحرا لحضناه ولو تسمنت جبلا لعلوناه ولو

ذهبت بنا الى برك الغماد يعنى مدينة بالحبشة لتبعناك ، فلما سمع ذلك أصحاب النبي ﷺ تابعوه على ذلك فأشرق لذلك وجه النبي ﷺ . قال ابن عباس لأن أكون صاحب هذا المشهد احب الى من الدنيا وما فيها .

قال فلما فعلت بنو إسرائيل ما فعلت من معصيتهم نبيهم ومخالفتهم أمر ربهم سوى يوشع وكالب غضب موسى فدعا عليهم - وقال رب انى لأملك الانفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين - أى العاصين وكانت عجلة عجلها موسى فظهر الغمام على باب قبة موسى وأوحى الله تعالى الى موسى الى متى يعصينى هذا الشعب والى متى لا يصدقون بهذه الآيات لأهلكهم جميعا ولأجعلن لك شعبا أقوى وأكثر منهم ، فقال موسى إلهى لو أنك قتلت هذا الشعب كلهم لرجل واحد لقالت الأمم الذين سمعوا ذلك إنما قتل هذا الشعب من اجل انه لم يستطع أن يدخلهم الأرض المقدسة فقتلهم فى البرية وانك طويل صبرك كثيرة نعمتك وأنت تغفر الذنوب وتحفظ الآباء على الأبناء وأبناء الأبناء فاغفر لهم ولا توبقهم ، فقال الله تعالى لموسى انى قد غفرت لهم بكلمتك ولكن بعد ما سميتهم فاسقين ودعوت عليهم حلفت بعزتى لأحرمن عليهم دخول الأرض المقدسة غير عبدى يوشع بن نون وكالب ولأتينهم فى هذه البرية أربعين سنة مكان كل يوم من الأيام التى تحبسوا فيها سنة وكانت أربعين يوما وليأتينهم حتفهم فى هذه القفار ، وأما بنوهم الذين لم يعصونى ولم يعملوا الخير ولا الشر فانهم يدخلون الأرض المقدسة فذلك قوله تعالى - فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض - متحيرين - فلا تأس على القوم الفاسقين - فلبثوا أربعين سنة فى ستة فراسخ وكانوا ستمائة ألف مقاتل وكانوا كل يوم يسرون جادين حتى اذا هم أمسوا فاذا هم بالموضع الذى منه ارتحلوا وشموا الموضع الذى هم فيه فارتحلوا ومات أولئك النقباء العشرة الذين أفشوا الخير ، وكل من دخل التيه ممن جاوز عشرين سنة مات فى تلك المدة غير يوشع بن نون وكالب بن يوقنا ولم يدخل أحد أريحاء ممن قال إذا لن ندخلها أبدا . فلما هلكوا وانقضت أربعون سنة ونشأت النواشىء من ذراريهم ساروا الى حرب الجبارين وفتح الله لهم .

باب فى ذكر النعمة التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل فى التيه وخصهم بذلك

ورفع عنهم المهالك كرامة لنبيه وصفيه موسى عليه السلام

قال الله تعالى - يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم - الآية كقوله تعالى - وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها - والعد لا يقع على الواحد - التى أنعمت عليكم - أى على أجدادكم وأسلافكم . وذلك ان الله تعالى فلق لهم البحر وأنجاهم من آل فرعون وأهلك عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وأنزل عليهم التوراة فيها بيان كل شىء يحتاجون اليه وأعطاهم ما اعطاهم فى التيه وذلك انهم قالوا لموسى اهلكتنا واخرجتنا من العمران والبنيان إلى مفازة لا ظل فيها ولا كن فأنزل الله عليهم غمامة بيضاء رقيقة ليست بغمام المطربل ارق واطيب وبارد منه فأظلمتهم ،

وكانت تسير بسيرهم اذا ساروا وتدور عليهم من فوقهم اذا نزلوا وذلك قوله تعالى - وظللنا عليكم الغمام - يعنى في التيه يقيمكم حر الشمس . ومنها أنه جعل لهم عمودا من نور يضيء لهم بالليل اذا لم يكن ضوء القمر . فقالوا هذا الظل والنور قد حصل فأين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن .

واختلفوا فيه فقال مجاهد هو شيء كالصمغ يقع على الأشجار وطعمه كالشهد . وقال الضحاك هو البر يختبز . وقال وهب هو الخمر الرقاق . وقال السدى كان عسل يقع على الشجر من الليل فيأكلون منه . وقال عكرمة هو شيء أنزله الله عليهم مثل الرب الغليظ . وقال الزجاجى المن ما يمن الله به مما لا تعب فيه ولا نصب . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « السكاءة من المن » وماؤها شفاء للعين » قالوا وكان الله ينزل هذا المن كل ليلة يقع على الأشجار مثل الثلج لكل إنسان منهم صاع كل ليلة . فقالوا يا موسى قتلنا هذا المن بحلاوته فادع الله ربك لنا يطعمنا اللحم فدعا موسى فأنزل الله عليهم السلوى .

واختلفوا فيه فقال ابن عباس وأكثر الناس هو طائر يشبه السمانى ، وقال أبو العالية ومقاتل هو طير أحمر بعثه الله عليهم فأمطر به السماء في عرض ميل قدر رمح في السماء بعضها على بعض وكانت السماء تمطر عليهم ذلك ، وقيل إنه كان طيرا مثل فراخ الحمام طيبا سميئا قد تمعطر ريشه وزغبه وكانت الريح تأتي به اليهم فيصبحون وهو في معسكرهم ، وقيل انه كان يأتيهم فيسترسل اليهم فيأخذونه بأيديهم . وقال عكرمة هو طير يكون بالهند أكبر من العصفور . وقال المؤرج هو العسل بلغة كنانة . قال شاعرهم :

وقاسمها بالله جهدا لأتم ألة من السلوى إذا ما نشورها

فكان الله ينزل عليهم المن والسلوى وكان أحدهم يأخذ ما يكفيه يومه وليلته فاذا كان يوم الجمعة أخذ كل واحد ما يكفيه ليومين لأنه لم يكن ينزل عليهم يوم السبت فذلك قوله تعالى - وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا - أى قلنا لهم كلوا من طيبات حلال ما رزقناكم ولا تدخروا لغد فخبأوا لغد فدود وفسد ما ادخروا وقطع الله عنهم ذلك قال الله تعالى - وما ظلمونا - أى أضرونا بالمعصية ومخالفة الأمر - ولكن كانوا أنفسهم يظلمون - باستصحابهم الغذاء وقطع عنهم مادة الرزق الذى كان ينزل عليهم بلامؤنة ولا مشقة في الدنيا ولا حساب ولا تبع في العقبى .

أخبرنا شعيب بن محمد قال أخبرنا مكى بن عبدان قال أخبرنا أحمد بن الأزهر قال حدثنا روح ابن عباد قال حدثنا عون بن عبد الله عن جلاس بن عمر عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لولا بنو اسرائيل لم يختر اللحم ولم يخبت الطعام ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها » . ومنها أنهم عطشوا في التيه . فقالوا يا موسى من أين تشرب ؟ فاستسقى لهم موسى فأوحى الله اليه أن اضرب بعصاك الحجر .

واختلف العلماء فيه . فقال وهب كان موسى يقرع لهم أقرب حجر في أرض الحجازة فينفجر

منه عيون لكل سبط منهم عين ، وكانوا اثني عشر سبطا ثم تسيل كل عين في جدول السبط الذي مر لسقيهم . فقالوا إن فقد موسى عصاه متنا عطشا فأوحى الله تعالى اليه لا تفرعن الحجارة بالعصا ولكن كلها تطعك لعلهم يعتبرون ، وكان يفعل ذلك . فقالوا كيف بنا إذا مضينا إلى الرمل وإلى الأرض التي ليس فيها حجارة فأمر موسى أن يحمل معه حجرا فحينما نزل ألقاه . وقال آخرون كان حجرا مخصوصا بعينه ، والدليل عليه قوله تعالى الحجر فأدخل الألف واللام التعريف والتخصيص كقوله رأيت الرجل .

ثم اختلفوا في ذلك الحجر ماهو ؟ فقال ابن عباس كان حجرا خفيفا مربعا مثل رأس الرجل أمر أن يحمله فحمله فكان يضعه في مخلاته فاذا احتاجوا إلى الماء أخرجه وضربه بعصاه فيتفجر عيوننا كما ذكرنا فسقام قال أبو روق كان الحجر من الكدان وكان فيه اثنتا عشرة عينا أي حفرة ينبع من كل حفرة عين ماء عذب فيأخذونه فاذا فرغوا وأراد موسى حمله ضربه بعصاه فيذهب الماء وكان كل يوم يسقى ستائة ألف من جميع الأجناس . وقال سعيد بن جبير هو الحجر الذي وضع موسى عليه ثوبه ليغتسل ففر الحجر بثوبه . فلما وقف الحجر أتاه جبريل عليه السلام فقال يا موسى إن الله يقول لك ارفع هذا الحجر فلي فيه قدرة ولك فيه معجزة وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله - يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا - الآية وهو ما أخبرنا به الحسن بن أحمد الخلدی بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « كانت بنو اسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سواة بعض وكان موسى يغتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر قال فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه فجمع في أثره موسى يقول ثوبي يا حجر ثوبي يا حجر حتى نظر بنو اسرائيل إلى سواة موسى فقالوا والله ما بموسى من بأس قال فقام الحجر بعد ما نظر إليه بنو اسرائيل فأخذ ثوبه وطفق بالحجر ضربا فقال أبو هريرة والله إن أثر ضرب موسى بالحجر ستة أو سبعة ، قال عبد العزيز السكتاني كان موسى ضرب الحجر اثنتي عشرة ضربة فكان يظهر في كل موضع ضربة مثل ثدي المرأة ثم يتفجر بالأنهار المطردة فذلك قوله تعالى - فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا - .

ومنها أنهم قالوا لموسى في التيه من أين لنا اللباس فخلد الله تعالى ثيابهم التي عليهم حتى لا تزيد على الأيام ومرور الأعوام إلا جدّة وظرافة ولا تخلق ولا تبلى وتتمو على صبيانهم كما تتمو فكثوا على ذلك زمانا طويلا والله أعلم .

باب فتح أريحاء ونزول بني اسرائيل الشام

اختلف العلماء فيمن تولى حرب الجبارين وفيمن كان على يده الفتح فقال قوم انما فتح أريحاء موسى ويوشع وكان يوشع على مقدمته فسار موسى اليهم بمن بقي من بني اسرائيل في التيه ولم يمت في التيه فدخلها بهم يوشع وقتل الجبارين الذين كانوا بها فدخلها موسى ببني اسرائيل

فقام فيها ماشاء الله أن يقيم ثم قبضه الله تعالى ولم يعلم أحد قبره من الناس وهذا أولى الأقاويل بالصدق وأقربها إلى الحق لإجماع العلماء بأخبار الأنبياء ، أن عوج بن عنق قتله موسى ، وقال آخرون ما قاتل الجبارين إلا يوشع بن نون ولم يسر اليهم إلا بعد موت موسى وهلاك من كان أبي المسير إليها وقالوا مات موسى وهرون عليهما السلام في التيه .

قصة وفاة هرون عليه السلام

قال السدي : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أني متوف هرون فأت به جبل كذا وكذا فانطلق موسى وهرون نحو ذلك الجبل واذها بشجرة لم يرمثلها وبيت مبني وفيه سرير عليه فرش واذفيه ريح طيبة فلما نظر هرون إلى ذلك أعجبه وقال يا موسى اني أحب أن أنام على هذا السرير فقال نعم عليه فقال اني أخاف ان يأتي رب هذا البيت فيغضب علي قال له موسى لا تخف أنا أكفيك رب هذا البيت فثم فقال يا موسى نعم معي فان جاء رب هذا البيت غضب علينا جميعا فنام موسى وأخذ هرون الموت ، فلما وجد حسه قال يا موسى خدعتني فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير إلى السماء ، فلما رجع موسى إلى بني اسرائيل وليس معه هرون قالوا قتل موسى هرون وحسده لحبنا إياه فقال موسى ويحكم إن هرون أخى ووزيرى فكيف أقتله فلما أكثروا عليه قام وصلى ركعتين ثم دعا الله تعالى فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدقوه . وقال عمرو بن ميمون : مات موسى وهرون في التيه ومات هرون قبل موسى ، وكانا خرجا في التيه إلى بعض الكهوف فمات هرون ودفنه وانصرف إلى بني اسرائيل . فقالوا أين هرون ؟ قال مات ، قالوا كذبت ولكنك قتلته لحبنا إياه ، وكان عجبيا في بني اسرائيل فتضرع موسى إلى ربه وشكا إلى ربه مالتى من بني اسرائيل فأوحى الله إليه ان انطلق بهم إلى قبره فاني باعته حتى يخبرهم انه مات موتا ولم تقتله فانطلق بهم إلى قبر هرون فناداه يا هرون فخرج من قبره ينفض التراب عن رأسه فقال له أنا قتلتك قال لا والله ولكني مت فعاد وانصرفوا والله أعلم .

ذكر وفاة موسى عليه السلام

قال ابن اسحق : كان موسى قد كره الموت واستعظمه فلما كرهه أراد الله أن يحبب إليه الموت ويكره إليه الحياة ، وكان يوشع بن نون يغدو إليه ويروح فيقول له موسى يا نبي الله ما أحدث الله إليك ؟ فيقول له يوشع يا نبي الله ألم أصبح بك كذا وكذا سنة فهل كنت أسألك عن شيء مما أحدث الله إليك حتى تكون أنت الذي تبتدى به وتذكره ولا يذكره شيئا . فلما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحب الموت . قال الأستاذ باسناده : حدثني عبد الصمد بن معقل قال سمعت وهبا يقول وذكر من كرامة موسى عليه السلام انه ضاق بيني اسرائيل ذرعا لما كثروا عليه فبعث الله إليه ألف نبي يكونون أعوانا له . فلما مال الناس إليهم وجد موسى في نفسه غيرة فأماهم الله لكرامته في يوم واحد .

واختلفوا في صفة موت موسى عليه السلام . حدثنا أبو سعيد محمد بن عبد الله بن حمدون بإسناده عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال جاء ملك الموت إلى موسى فقال له أجب ربك فلطم موسى عين ملك الموت ففقاها قال فرجع ملك الموت إلى الله عز وجل فقال يارب انك أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت وبقاعيني فرد الله عنه وقال ارجع إلى عبيدي وقل له الحياة تريد ؟ فان كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما وارت يدك من شعر فانك تعيش بعدد كل شعرة من ذلك سنة قال ثم ماذا ؟ قال ثم تموت قال فالآن من قريب قال يارب فأدني من الأرض المقدسة رمية حجر ، قال رسول الله ﷺ لو كنت عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر . قال سمعت أبا سعيد بن حمدون يقول سمعت أبا حامد الشرقي يقول سمعت محمد بن يحيى يقول قد صح هذا عن رسول الله ﷺ يعني قصة ملك الموت وموسى عليه السلام لا يردها إلا كل مبتدع ضال . وفي حديث آخر : أن رسول الله ﷺ قال إن ملك الموت كان يأتي الناس عيانا حتى أتى موسى ليقبضه فلطمه ففقا عنه فجاء ملك الموت بعد ذلك خفية .

قال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني وعن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ قالوا : بينما موسى عليه السلام يمشي وفتاه يوشع بن نون إذ أقبلت ريح سوداء فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة فقال يا قوم أظن أنها الساعة وأنا ملتزم بموسى نبي الله فأنسل من تحت القميص وترك القميص في يد يوشع فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا قتلت نبي الله فقال والله ما قتلت له ولسكنه أنسل مني فلم يصدقوه وأرادوا قتله فقال لهم إذا لم تصدقوني فأخروني ثلاثة أيام فدعا الله فأتى كل رجل ممن كان يحرسه آت في المنام وأخبره أن يوشع لم يقتل موسى وإنما قدر فعناه إلينا فتركوه . قال وهب بن منبه : خرج موسى ليقضي حاجة فمر برهط من الملائكة فعرفهم فأقبل إليهم حتى وقف عليهم فاذا هم يحفرون قبرا لم ير شيئا قط أحسن منه ولم ير مثله قط في الحضرة والنضرة والبهجة . فقال لهم يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر ؟ فقالوا نحفره لعبد صالح كريم على ربه فقال موسى إن هذا العبد لمن الله بمنزلة عظيمة مارأيت كالיום أحسن منه مضجعا . فقالت الملائكة يا صفي الله أتحب أن يكون لك . قال ووددت ذلك ، قالوا فانزل واضطجع فيه وتوجه إلى ربك ، ثم تنفس أسهل نفس تتنفسه فتزل فاضطجع فيه ثم توجه إلى ربه ثم تنفس فقبض الله روحه ثم سوت الملائكة عليه التراب ، وقيل إنه أتاها ملك الموت بتفاحة من الجنة فشتمها فقبض الله روحه .

ويروى أن يوشع بن نون رآه بعد موته في المنام ، فقال له ؟ كيف وجدت الموت يا نبي الله ؟ قال كشاة تسليخ وهي في الحياة .

ويروى أن موسى لما مات قالت الملائكة بعضهم لبعض : مات صفي الله موسى بن عمران فمن الذي يطعم في البقاء . وكان عمر موسى مائة وعشرين سنة : عشرون منها في ملك أفريدون ومائة سنة في ملك منو جهر .

قال الأستاذ . رجعنا إلى قصة حرب أريحاء وخبر الفتح . قال : فلما انقضت أربعون سنة ومات موسى بعث الله يوشع بن نون نبيا فأخبرهم أنه نبي الله وأن الله قد أمره بقتال الجبارين فصدقوه وبايعوه فتوجه بني إسرائيل إلى أريحاء ومعه تابوت الميثاق فأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر ، فلما كان في الشهر السابع نفخوا في القرون وصاحوا صيحة واحدة فسقط سور المدينة فدخلوها وقاتلوا الجبارين وهزموهم وهجموا عليهم وجعلوا يقتلونهم ، فكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها لا يقطعونها ، وكان القتال يوم الجمعة فبقى منهم بقية وكادت الشمس أن تغرب وتدخل ليلة السبت فخشي يوشع أن يعجزوه . فقال : اللهم اردد الشمس عليّ ، أو انه قال للشمس : إنك في طاعة الله وأنا في طاعة الله فسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل غروب الشمس فردت له الشمس وزيدته في النهار ساعة واحدة حتى قتلهم أجمعين .

أخبرنا أحمد بن عبد الله بن حامد الأصفهاني بأسناده عن عروة بن عبد الله قال : دخلت على فاطمة بنت عليّ رضوان الله عليهما فرأيت في عنقها خرزا ورأيت في يديها مسكتين غليظتين ، وهي عجوز كبيرة ، فقلت لها ما هذا ؟ فقالت : انه يكره للمرأة أن تتشبه بالرجل ، ثم حدثتني أن أسماء بنت عميس الخثعمية حدثتها أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان مع نبي الله وقد أوحى الله اليه فجعله بشوبه ولم يزل كذلك حتى أدبرت الشمس تقول غابت أو أرادت أن تغيب ، ثم إن نبي الله سرى عنه . فقال : أصليت يا عليّ قال لا . فقال النبي ﷺ « اللهم اردد عليه الشمس » فرجعت حتى بلغت نصف المسجد .

قال : ثم أرسل ملوك الأرامنة ، وكانوا خمسة فأرسل بعضهم إلى بعض فجمعوا كلمتهم على يوشع وقومه فهزمت بنو إسرائيل الملوك حتى أهبطوهم إلى ثنية حوران ورماهم الله بأحجار البرد ، فكان من قتله البرد أكثر ممن قتله بنو إسرائيل بالسيف ، وهرب الملوك الخمسة واختفوا في غار فأمر بهم يوشع فأخرجهم وصلبهم ثم أنزلهم فطرحهم في ذلك النار ، وتتبع ملوك الشام فاستباح منهم أحدى وثلاثين ملكا حتى غلب على جميع أرض الشام ، وصار الشام كله لبني إسرائيل وفرق عماله في نواحيها ، ثم جمع الغنائم فلم تنزل النار ، فأوحى الله تعالى إلى يوشع : ان فيها غلولا فأمرهم أن يبائعوك فبايعوه فالتصقت يدرجل بيده . فقال له : هلم ما عندك فأناه برأس ثور من ذهب مكلل بالدر والياقوت والجوهر كان قد غلله فجعله في القربان وجعل الرجل معه فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « غزا نبي من الأنبياء فقال للقوم : لا يتبعني رجل كان قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولا آخر قد بني له بيتا ولم يرفع سقفه ولا آخر قد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها ، قال قدنا من القوم صلاة العصر أو قريبا من ذلك ، فقال للشمس أنت مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها عليّ ساعة فحبست له ساعة حتى فتح الله عليه ، قال ثم وضعت الغنيمة فجاءت النار فلم تأكلها ، فقال : إن فيكم غلولا فليبايعني من كل قبيلة منكم رجل فبايعوه فالتصقت يد رجل بيده ،

فقال : فيكم الغلول أتم غلتم . قال : فأخرجوا مثل رأس البقرة من ذهب فألقوه في الغنيمة وهي بالصعيد فجاءت النار فأكلتها » . قال النبي ﷺ « لم تحمل الغنائم لأحد قبلنا ، وذلك أن الله تعالى رأى عجزنا وضعفنا فوهبها لنا » قالوا : ثم أمرهم الله أن يدخلوا أريحاء متواضعين مستغفرين خافضين رؤوسهم . وذلك قوله تعالى - وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة - . وكان لهم سبعة أبواب سجدا : أي منحنيين متواضعين . وقولوا حطة : أي حط عنا خطايانا . قال وهب : أنهم أذنبوا بأبائهم ، وكان توبتهم إذ أذنبوا دخول أريحاء ، فلما فصلوا من أتيه أحب الله أن يستنقذهم من الخطيئة . قال ابن عباس : حطة قول لا إله إلا الله ، مميت بذلك لأنها تحط الذنوب - تغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين - إحسانا - فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم - وذلك أنهم دخلوا مترحفين على أساتهم ، وقالوا حطا ممتقانا : يعني حنطة حمراء استخفافا بأمر الله تعالى - فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء - أي عذابا من السماء - بما كانوا يفسقون - وذلك أن الله تعالى أرسل عليهم طاعونا وظلما فهلك منهم سبعون ألفا في ساعة واحدة ثم رفعه الله عنهم ورحمهم قالوا فلما استقرت بنو إسرائيل بالشام وصفت لهم توفي الله نبيه يوشع ودفن في جبل افرايم ، وكان عمره مائة وعشرين سنة ، وتديره أمر بني إسرائيل بعد موت موسى سبعا وعشرين سنة .

مجلس في ذكر الأنبياء والملوك الذين قاموا بأمر بني إسرائيل

بعد يوشع وقصة كالب عليه السلام

قالت العلماء بأخبار الماضين وأمر الأمم السالفة : لما حضرت الوفاة يوشع بن نون استخلف على بني إسرائيل كالب بن يوقناختن موسى عليه السلام ، وهو أحد الرجلين الذين أنعم الله عليهما . قال الله تعالى - قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما - فأحسن الخلافة حتى قبضه الله عز وجل واستخلف على بني إسرائيل ابنه يوساقوس ، وكان فيما ذكر يشبه يوسف عليه السلام في الحسن والجمال والبهاء وكانوا يفتنون به ، وكانوا من شغفهم به يأتونه وينظرون إليه ويقولون له : أيها العبد الصالح جئنا لنسلم عليك وهو يستحي أن يردهم ، فلما أكثروا خاف الفتنة فسأل الله أن يغير صورته مع سلامة حواسه وجوارحه فأصابه الجدري فصار مجدورا ملوّا فلبث فيهم مائة وأربعين سنة ثم قبضه الله إليه ، والله أعلم .

ذكر خبر حزقيل عليه السلام

قالت العلماء بأخبار الأنبياء عليهم السلام : لما قبض الله كالب وابنه بعث الله تعالى حزقيل إلى بني إسرائيل نيا ، وهو حزقيل بن بوري . ويلقب بابن العجوز ، وإنما لقب بابن العجوز لأن أمه سألت

الله تعالى الولد وهى عجوز وقد كبرت وعقمت عن الولد فوهبه الله تعالى لها ، وهو الذى أحيا الله تعالى به القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فأحياهم الله تعالى بعد موتهم بدعوته فى قوله تعالى - ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت - الآية

قال أكثر المفسرين : كانت قرية يقال لها [داوردان] قرية قبل واسط وقع بها الطاعون فخرج منها طائفة هاريين من الطاعون وبقيت طائفة فهلك أكثر من بقى فى القرية وسلم الذين خرجوا ، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين ، فقال الذين بقوا إن أصحابنا كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ، ولئن وقع بها الطاعون ثانية لنخرجن الى الأرض التى لا وباء فيها فوقع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها وخرجوا حتى نزلوا واديا أفيح ، فلما نزلوا المكان الذى يبتغون فيه النجاة والحياة إذا هم بملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه يناديهم كل واحد منهما أن موتوا فماتوا جميعا .

عن محمد بن زكريا قال سمعت الأصمعى يقول : لما وقع الطاعون بالبصرة خرج رجل من أهلها عنها على حمار له ومعه ولده وخلفه عبد حبشى يسوق الحمار فطفق العبد يرتجز ويقول :

لن يسبق الله على حمار ولا على ذى منعة خطار قد أصبح الله أمام السارى

فرجع الرجل لما سمع من قوله بعياله .

وروى عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا سمعتم بالوباء فى بلدة فلا تقدموا عليه وإذا وقع وأتمم بها فلا تخرجوا فرارا منه » . وقال الضحاك ومقاتل والكلبي : إنما فرّ هؤلاء من الجهاد وذلك أن ملكا من ملوك بني اسرائيل أمرهم أن يخرجوا الى قتال عدوهم فخرجوا فعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت واعتلوا وقالوا لملكهم : إن فى الأرض التى نأثيها الوباء فلا نأثيها حتى ينقطع الوباء عنها فأرسل الله عليهم الموت ، فلما رأوا أن الموت قد كثر فيهم خرجوا من ديارهم فرارا من الموت ، فلما رأى الملك ذلك قال اللهم رب يعقوب وإله موسى قد ترى معصية عبادك فأرهم آية فى أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفرار من حكمك وقضائك ، فلما خرجوا قال الله لهم موتوا فماتوا جميعا وماتت دوابهم كموتهم موة رجل واحد فما أتى عليهم ثلاثة أيام حتى انفجروا وأروحو وأروحت أجسادهم فخرج اليهم الناس فعجزوا عن دفنهم فحفظوا عليهم حظيرة دون السباع وتركوهم فيها . واختلفوا فى مبلغ عددهم ، فقال عطاء الخراسانى : كانوا ثلاثة آلاف ، وقال ابن عباس ووهب كانوا أربعة آلاف ، وقال مقاتل والكلبي ثمانية آلاف ، وقال أبو روق عشرة آلاف وقال أبو مالك ثلاثين ألفا ، وقال السدى بضعا وثلاثين ألفا وقال ابن جريج أربعين ألفا ، وقال عطاء بن أبي رباح سبعين ألفا . قال فأتى على ذلك مدة وقد بليت أجسادهم وعريت عظامهم وتقطعت أوصالهم ، فمرّ عليهم حزقيل النبی عليه الصلاة والسلام فوقف متفكرا متعجبا فأوحى الله تعالى اليه يا حزقيل تريد أن أريك كيف أحيى الموتى ؟ قال نعم يارب فأحياهم الله

جميعا . هذا قول السدى وجماعة من المفسرين ، وقال مقاتل والكلبي بل كانوا قوم حزقيल ، فلما تحصيهم ذلك بكى حزقيل وقال يارب كنت في قوم يعبدونك ويدكرونك فبقيت وحيدا لا قوم لي ، فلو شئت أحييت هؤلاء فيعمرون بلادك ويعبدونك . قال الله تعالى او تحب ان أفعل ذلك ؟ قال نعم يارب . قال الله تعالى قد جعلت حياتهم اليك ، فقال لهم حزقيل احيوا باذن الله تعالى فعاثوا وقال وهب أصابهم بلاء وشدة من الزمان فشكوا مآصياهم وقالوا ياليتنا قد متنا واسترحنا مما نحن فيه فأوحى الله الى حزقيل ان قومك قد ضجوا من البلاء وزعموا أنهم ودّوا لو ماتوا استراحوا ، وأى راحة لهم في الموت أيتظنون أنى لأقدر أبعثهم بعد الموت فانطلق إلى جبانة كذا فان فيها أقواما ماتوا فأتاهم ، فأوحى الله تعالى اليه يا حزقيل قم فنادهم ، وكانت أجسادهم وعظامهم قد تفرقت ومزقها الطير والسباع فنادى حزقيل أيتها العظام إن الله يأمرك أن تعودى وتكتسى اللحم فاكتست جميعا اللحم وبعد اللحم جلودا ودما وعصبا وعروفا فكانت أجسادا فنادى أيتها الأرواح إن الله تعالى يأمرك ان تعودى إلى أجسادك فقاموا جميعا وعليهم ثيابهم التي ماتوا فيها وكبروا تكبيرة واحدة . وروى منصور بن المعتمر عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا سبحانه الله ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت فرجعوا الى قومهم وتناسوا بعد ما أحياهم الله وعاثوا دهرا يعرفون أنهم كانوا موتى سحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوبا إلا عاد رميا مثل الكفن حتى ماتوا لآجالهم التي كتب الله لهم . قال ابن عباس فانه ليجد في ذلك السبط من اليهود تلك الريح ، قال قتادة مقتهم الله على فرارهم من الموت وتقصيرهم في الجهاد فأماتهم الله عقوبة لهم ثم بعثهم لبقية آجالهم ليفوها ولو كانت آجال القوم قد جاءت ما بعثوا بعد موتهم فلما أحياهم الله تعالى أمرهم بالجهاد وقال - وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم - .

باب في قصة إيلياس عليه السلام

قال الله تعالى - وإن الياس لمن المرسلين - الى آخر القصة قال ابن اسحق والعلماء من أصحاب الأخبار لما قبض الله تعالى حزقيل عليه السلام عظمت الأحداث في بني اسرائيل وظهر فيهم الفساد ونسوا عهد الله اليهم في التوراة حتى نصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله عز وجل فبعث الله تعالى اليهم إيلياس نبيا وهو إيلياس بن يس بن فنحاص بن عيزار بن هرون بن عمران . وإنما كانت الأنبياء بعد موسى يبعثون اليهم بتجديد ما نسوا وضيعوا من أحكام التوراة وبنو اسرائيل يومئذ متفرقون في أرض الشام وفيهم ملوك كثيرة ، وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون لما فتح أرض الشام وملكها بوأها بني اسرائيل وقسمها بينهم فأخذ سبط منهم بعلبك ونواحيها هم سبط الياس فبعث الله تعالى اليهم نبيا وعليهم يومئذ ملك يقال له لاجب قد ضل وأضل قومه وجبرهم على عبادة الأصنام وكان هو وقومه يعبدون صنما يقال له بعل وكان طوله عشرين ذراعا وكان له أربعة وجوه . وقال ابن اسحق : قد سمعت بعض اهل العلم يقولون ما كان البعل الا امرأة كانوا

يعبدونها من دون الله تعالى فذلك قوله تعالى - إذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين - قال فجعل الياس يدعوهم الى الله تعالى ولا يطيعونه ولا يجيبونه الى ذلك الا ما كان من أمر لاجب الملك الذي كان يعليك فانه آمن به وصدقه وكان الياس يقوّم أمره ويسدده ويرشده وكان لاجب امرأة يقال لها أرييل وكان يستخلفها على رعيته إذا غاب عنهم في غزاة أو غيرها فكانت تبرز بين الناس كما يبرز زوجها وتركب كما يركب وتجلس كما يجلس في مجلس القضاء وتقضي بين الناس وكانت قتالة للأنبياء وكان لها كاتب رجل مؤمن حكيم يكم إيمانه وكان قد خلص من بين يديها ثلثمائة نبي كانت تريد قتل كل واحد منهم إذا بعث سوى الذين قتلتهم وكانت في نفسها غير محصنة ولم يكن على وجه الأرض أفحش منها ، وهي مع ذلك قد تزوجت سبعة ملوك من ملوك بني اسرائيل وقتلهم كاهنم بالاغتيال وكانت معمرة ، ويقال إنها ولدت سبعين ولدا . قال وكان لاجب هذا جار من بني اسرائيل رجل صالح يقال له مزدكي . وكانت له جنينة يعيش منها ويقبل على عمارتها ويزينها ، وكانت الجنينة إلى جانب قصر الملك وامراته ، وكانا يشرفان على تلك الجنينة يتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويقيلان فيها حيناً . وكان لاجب مع ذلك يحسن جوار صاحبها مزدكي وامراته أرييل تحسده على ذلك لأجل تلك الجنينة . وتحتال على غضبها لما سمعت الناس يذكرون الجنينة من حسناتها ويقولون ما أحرى ان تكون هذه الجنينة لأهل هذا القصر ، ويتعجبون من أمر الملك وامراته كيف لم يغصباها فلم تزل امرأة الملك تحتال على العبد الصالح مزدكي في أن تقتله وتأخذ جنينته ، والملك ينهاها عن ذلك فلا تجداليه سبيلاً . ثم إنه اتفق خروج الملك إلى سفر بعيد ، فلما طالت غيبته اغتصمت امراته أرييل ان تتم لها الحيلة على العبد الصالح مزدكي في ان تقتله وتأخذ جنينته وهو غافل عما تريد به مقبل على عبادة ربه وإصلاح معيشته فجمعت أرييل جمعا من الناس وأمرتهم ان يشهدوا على مزدكي بالزور انه يسب لاجب الملك فأجابوها الى ما سألتهم من الشهادة بالزور ، وكان حكمهم في ذلك الزمان على من يسب الملك القتل إن قامت البينة فأحضرت مزدكي ، وقالت له بلغنا عنك انك شتمت الملك واغتبطته فأنكر مزدكي ذلك فأقامت البينة فشهدوا بالزور عليه بحضرة الناس فأمرت بقتله . فقتل وأخذت جنينته غضبا فغضب الله عليهم بقتل العبد الصالح . فلما قدم الملك من السفر أخبرته الخبر فقال لها ما أصبت خيرا ولا وفقت ولا أرانا نفلح بعدها أبدا وإنا كنا عن جنينته لأغنياء وقد كنا نتنزه فيها وقد جاورنا وتحرم بنامند زمان طويل فأحسننا جواره وكففنا عنه الأذى لوجوب حقه علينا فقبحت بنا الجوار وما حملك على اجترائك عليه إلا سفهك وسوء رأيك وقلة تفكيرك في العواقب ، فقالت إنما غضبت لك وحكمت بحكمك فقال لها ما كان يسع حلمك وعظيم خطر كالعفو عن رجل واحد فتحفظين جواره فقالت قد كان ما كان فبعث الله تعالى الياس عليه السلام الى لاجب وقومه وأمره أن يخبرهم أن الله تعالى قد غضب عليه لوليه حين قتلوه بين أظهرهم ظلما . وقد آلى على نفسه انهما إن لم يتوبا من صنعهما ويرددا الجنينة على ورثة مزدكي وإلا يهلكهما يعني لاجب وامراته في جوف الجنينة أشرما يكون

يسفك دمهما ثم يدعهما جيفتين ملقتين فيها حتى تتعري عظامهما عن لحومهما ولا يمتنعان بها إلا قليلا . قال فجاء الياس وأخبر الملك بما أوحى الله اليه في أمره وأمر امرأته والجنينة . فلما سمع الملك ذلك اشتد غضبه . ثم قال له يا إيلياس والله ما أرى ماتدعوننا اليه إلا باطلا والله ما أرى فلانا وفلاتا وسمى ملوكا منهم عبدوا الأوثان إلا على مثل ما نحن عليه يأكلون ويشربون ويتمتعون بملكين ما ينقص من دنياهم ولا من أمرهم الذي تزعم انه باطل شيء وما نرى لكم علينا من فضل . قال ثم هم بتعذيب الياس وقتله . قال فلما سمع الياس ذلك وأحس بالشر رفضه وخرج عنه فلدحق بشواهدق الجبال وعاد الملك إلى عبادة بعل فارتقى الياس إلى أصعب جبل وأشمخه فدخل مغارا فيقال انه بقي فيه سبع سنين شريدا وحيدا فريدا خائفا يأوى إلى الشعاب والكهوف ويأكل من نبات الأرض وثمار الشجر وهم في طلبه وقد وضعوا عليه العيون يتوقعون أخباره ويجهدون في أخذه والله تعالى يستره ويحفظه ويدفع عنه البلاء ، فلما تم له سبع سنين أذن الله تعالى في إظهاره عليهم وشفاء غيظه منهم فأمرض الله تعالى ابن الملك لأجب وكان أحب أولاده اليه وأعزهم عليه وأشبههم به فأدنف حتى يش منه فدعاصمه بعلا وكانوا قد فتتوا ببعل فعظموه حتى إنهم سموامدينتهم به فقالوا لها بعلبك وجعلوا له أربعائة سادن فوكلوهم به وجعلوهم أمناء وجعل الشيطان يدخل في جوف الصنم فيكلمهم بأنواع الكلام والاربعائة يصغون بأذانهم إلى ما يقول الشيطان ويوسوس لهم شريعة من الضلال فيكتبونها للناس ويعملون بها ويسمونهم الأنبياء فلما اشتد مرض ابن الملك طلب الملك أن يشفعوا له إلى بعل ويطلبوا منه لابتداء الشفاء والعافية فدعوه فلم يجبههم ومنع الله تعالى بقدرته الشيطان عن صنمهم فلم يمكنه الولوج في جوفه ولا الكلام وهم مجتهدون في التضرع اليه والريض لا يزداد بذلك إلا ألما وجهدا . فلما طال عليهم ذلك قالوا للأجب أيها الملك إن في ناحية الشام آلهة أخرى وهى فى العظم مثل الهك فابعث اليها الأنبياء يشفعون لك اليها فلعلها أن تشفع لك إلى بعل فانه غضبان عليك ولولا غضبه عليك لكان قد أجابك وشفى مرض ابنك . فقال لأجب لأى شيء غضب طى وأنا أطيعه وأطلب رضاه ولم أسخطه ساعة قط ؟ قالوا من أجل انك تقتل الياس وفرطت فيه حتى نجاسلما وهو كافر بالهك يعبد غيره فذلك الذى أغضبه عليك قال لأجب وكيف لي أن أقتله في يومى هذا وأنا مشغول عن طلبه بوجع ابني وليس لالياس مطلب ولا يعرف له موضع فيقصد فلو عوفي ابني تفرغت لطلبه ولم يكن لي هم ولا مشغل غيره حتى آخذه وأقتله وأريح إلهى منه وأرضيه قال ثم إنه بعث الاربعائة نبي ليشفعوا إلى الآلهة التى بالشام ويسألوها ان تشفع الى صنم الملك ليشفى ابنه فانطلقوا إلى الأصنام وكلوها فمنع الله عز وجل الشيطان الولوج فى الأصنام ولم تكلمهم فرجعوا إلى الملك وأخبروه بذلك فقال الملك وكيف لي أن أقتل الياس فى هذا اليوم . قال فخرج أربعائة حتى إذا كانوا بحيال الجبل الذى فيه الياس أوحى الله اليه ان يهبط من الجبل ويعارضهم ويستوقفهم ويكلمهم وقال له لا تخف فانى سأصرف عنك شرهم وألقى الرعب فى قلوبهم فنزل

الياس من الجبل فلما تقيمهم استوقفهم فلما وقفوا . قال لهم : إن الله أرسلني اليكم وإلى من وراءكم فاسمعوا أيها القوم رسالة ربكم لتبلغوها صاحبكم ارجعوا اليه وقولوا إن الله تعالى يقول لك : أأنت تعلم يا لاجب اننى أنا الله لا إله إلا أنا إله بنى اسرائيل الذى خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم فلا يحملنك جهالك وقلة عقلك على أن تشرك بى وتطلب الشفاء لابنك من غيرى ممن لا يملكون لأنفسهم شيئا الا ما شئت وإنى آليت باسمى لأغيظنك فى ابنك ولأميتنه من فوره هذا حتى تعلم أن أحدا لا يملك له شيئا دونى ، فلما قال لهم ذلك رجعوا وقد ملثوا منه رعبا فلما صاروا إلى الملك ووصلوا اليه قالوا له ما قال لهم الياس وأخبروه بأن الياس انحط عليهم من الجبل وهو رجل نحيف طويل وقد قشف وقحل وتمعط شعره وييس جلده وعليه جبة من شعر وعباءة قد خللها على صدره بخلال فاستوقفنا ، فلما وقفنا صار معنا قذف له فى قلوبنا الرعب والهيبه وتقطعت ألسنتنا ، ونحن فى هذا العدد الكثير وهو واحد فلم تقدر أن نكلمه ونراجعه وملاً أعيننا منه حتى رجعنا اليك ، ثم إنهم قصوا عليه كلام الياس ، فقال لاجب لا أتففع بالحياة مادام الياس حيا ما الذى منعكم أن تبطشوا به حين لقيتموه وتوثقوه وتأتونى به وأنتم تعلمون أنه طلبتى وعدوى ؟ قالوا له قد أخبرناك بالذى منعنا عنه ، ومن كلامه والبطش به ، فقال لاجب إذا ما نطبق الياس إلا بالمكر والخديعة فقيض له خمسين رجلا من قومه من ذوى القوة والبأس وعهد اليهم عهده وأمرهم بالاحتياى عليه وأن يطعموه بأنهم قد آمنوا به هم ومن وراءهم ليطمئن اليهم ويفتربهم ويمكنهم من نفسه فيأتون به ملكهم فانطلقوا حتى ارتقوا ذلك الجبل الذى فيه الياس عليه السلام ، ثم إنهم تفرقوا فيه وهم ينادون بأعلى أصواتهم ويقولون يابنى الله ابرز لنا وأشرف علينا بنفسك فانا قد آمنابك وصدقناك وملكنا لاجب وكذلك جميع قومنا مقرون بذلك ويقراءون عليك السلام ، ويقولون قد بلغتنا رسالتك وعرفنا ما قلت وآمنا بك وأجبناك إلى ما دعوتنا اليه فهلم الينا فأنت نبينا ورسول ربنا فأقم بين أظهرنا واحكم بيننا فانا ننقاد الى ما أمرتنا وننتهى عما نهيتنا وليس يسعك أن تتخلف عنا بعد إيماننا بك وطاعتنا لك فتداركنا وارجع الينا وكل هذا كان مكرامتهم وخديعة ، فلما سمع الياس مقاتلتهم وقع فى قلبه إيمانهم وخاف الله وأشفق من سخطه ان هو لم يظهر لهم ولم يحببهم بعد الذى سمع منهم ، فلما صم على البروز اليهم رجع إلى نفسه ، وقال لو أنى دعوت الله تعالى فسألته أن يعلمنى ما فى نفوسهم ويطلعنى على حقيقة أمرهم ، وكان ذلك إلهاما من الله تعالى وتوفيقا له فقال اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فائذن لى فى البروز اليهم وان كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمهم بنار تحرقهم جميعا فما استتم قوله حتى حصبوا بالنار من فوقهم فأحرقوا أجمعون قال وبلغ لاجب وقومه الخبر فلم يرتدع عن ضمير السوء واحتال ثانيا فى أمر الياس فقيض له فئة أخرى مثل عدد أولئك وأقوى منهم وأمكن فى الحيلة والرأى فأقبلوا حتى وافوا ذلك الجبل وارتقوه متفرقين وجعلوا ينادون يابنى الله إنا نعوذ بالله وبك من غضب الله وسطوته إنا لسنا كالكاذبين أتوك قبلنا أولئك فرقة نافقوا وخالفوا فصاروا اليك ليمكروا بك من غير رأينا ولو علمنا بهم لقتلناهم والآن قد كفاك الله

أمرهم وأهلكهم بسوء نياتهم وانتقم لنا ولك منهم ، فلما سمع الياس مقاتلتهم دعا الله بدعوته الأولى فأمرهم عليهم ناراً فأحرقوا جميعاً عن آخرهم كل ذلك وابن الملك في البلاء الشديد من وجعه كما وعده الله تعالى على لسان نبيه الياس لا يقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابه ، فلما سمع الملك بهلاك أصحابه ثانياً ازداد غيظاً إلى عيظه وأراد أن يخرج في طلب الياس بنفسه إلا أنه شغله عن ذلك مرض ابنه فوجه نحو الياس الكاتب المؤمن الذي هو كاتب امرأته رجاء أن يأنس إليه فينزل معه وأظهر للكاتب أنه لا يريد بالياس سوءاً ولا مكروهاً وإنما أظهر له ذلك لما اطلع عليه من إيمانه وكان الملك مع اطلاعه على إيمانه مغضياً عنه لما هو عليه من الكفاية والأمانة والحكمة وسداد الرأي والبصيرة بالأمر ، فلما وجهه نحوه أرسل معه فئة من أصحابه وعهد إليهم دون الكاتب أن يوثقوا الياس ويأتوه به إن أراد التخلف عنهم وإن جاء معهم آنساً بالكاتب ووثاقاً بمكانته لم يوحشوه ولم يروعوه ثم إنه أظهر للكاتب الانابة فقال له إنه قد آذن لي أن أتوب وأتعظ فقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا والبلاء الذي فيه ابني وقد عرفت أن ذلك بدعوة إلياس ولست آمن أن يدعو علي وعلى جميع قومي فنهلك بدعوته فكن رسولنا إليه وأخبره أنا قد تبنا وأنبنا وأنه لا يصلحنا في توبتنا وما نريد من رضا ربنا وخلع أصنامنا إلا أن يكون الياس بين أظهرنا يأمرنا وينهانا ويخبرنا بما يرضى ربنا ، قال ثم إنه أمر قومه أن يعزلوا الأصنام وقال له أخبر الياس بأننا قد خلعنا آلهتنا التي كنا نعبد وقد أهملنا أمرها حتى ينزل إلينا فيكون هو الذي يحرقها ويهلكها وكان ذلك كله مكرًا من الملك . قال فانطلق الكاتب والفئة معه حتى علوا الجبل الذي فيه إلياس فناداه الكاتب فعرف الياس صوته فتأقت نفسه إليه وانس به وكان مشتاقاً إلى لقائه فأوحى الله تعالى إلى إلياس عليه السلام أن ابرز إلى اخيك الصالح فآلقه وجدد منه العهد فبرز إليه وصافحه وسلم عليه ، وقال له ما الخبر ؟ فقال له المؤمن أنه قد بعثنى إليك هذا الجبار الطاغى وقومه وقص عليه ما قاله ، وقال له أني لحائف أن رجعت إليه ولست معي أن يقتلني فأمرني بما شئت أن افعله وانتهى إليه إن شئت انقطعت إليك وكنت معك وتركته وإن شئت جاهدته معك وإن شئت أرسلتني إليه بما تحب فأبلغه رسالتك وإن شئت دعوت ربك يجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً فأوحى الله تعالى إلى الياس أن كل ماجاءك منهم مكر وكذب ليظفروا بك وإن لاجب أن أخبرته رساله أنك قد لقيت هذا الرجل ولم يأت بك إليه فانه يتهمه ويعرف انه قد داهن في أمرك ولم يأمن أن يقتله فانطلق معه فان انطلقك معه عذره وبراءته عند لاجب وأنى سأشغله عنكما واضاعف على ابنه البلاء حتى لا يكون له هم غيره ثم أميته على شر حال فاذا مات هو فارجع أنت ولا تقم عنده قال فانطلق الياس معهم حتى قدموا على لاجب فلما دخلوا عليه شدد الله على ابنه الوجع وأخذ الموت يكظمه فشغل الله بذلك لاجب وأصحابه عن الياس ورجع الياس سالماً إلى مكانه ، فلما مات ابن

لاجب وفرغوا من أمره وقر جزعه اتقه لالياس وسأل عنه الكاتب المؤمن الذى جاء به فقال له ليس لى به علم وذلك انه قد شغلنى عنه موت ابنك والجزع عليه ولم اكن احسبك الاقد استوتقت منه فأطرق عنه لاجب وتركه لما كان به من الحزن على ابنه ، فلما طال الأمر على الياس من الكث فى الجبل والقام به واشتاق الى العمران والناس فنزل من الجبل وانطلق حتى نزل بامرأة من بنى اسرائيل وهى أم يونس بن متى ذى النون فاستخفى عندها ستة أشهر ويونس ابنها يومئذ مولود رضيع وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتواسيه بذات يدها ولا تدخر عنه كرامة تقدر عليها ، قال ثم ان الياس عليه السلام سئم ضيق البيوت بعد عوده فى الجبال ودوحها فأحب الحقوق بالجبال فعاد إلى مكانه فى الجبال ، فجزعت أم يونس لفراقه وأوحشها فقده ، ثم لم يلبث الا قليلا حتى مات ابنها يونس حين فطمته فعظمت مصيبتها به فخرجت فى طلب الياس فلم تزل ترقى الجبال وتطوف فيها حتى عثرت عليه ووجدته فسلمت عليه وقالت له إني فجعت بعدك بموت ابني وعظمت به مصيبتى واشتد لفقده بلائى وليس لى ولد غيره فارحمنى وادع ربك تعالى أن يحيى لى ابني ويحبر مصيبتى فانى قد تركته مسجى لم أدفنه وقد أخفيت مكانه ، فقال لها الياس عليه السلام : ليس هذا مما أمرت به ، وانما أنا عبد مأمور أعمل بما أمرنى ربى به ولم يأمرنى بهذا فجزعت المرأة وتضرعت فعطف الله قلب الياس عليها ، فقال لها ومتى مات ابنك ؟ فقالت منذ سبعة أيام فانطلق الياس عليه السلام معها وسار سبعة أيام حتى أتى إلى منزلها فوجد ابنها يونس ميتا منذ أربعة عشر يوما فتوضأ الياس وصلى ودعا فأحيا الله يونس بن متى ، فلما عاش وجلس وثب الياس وانصرف وتركه وعاد إلى موضعه . قال : فلما طال عصيان قومه ضاق الياس بذلك ذرعا وأجهده البلاء ، فأوحى الله اليه بعد سبع سنين وهو خائف مذعور مجهود يا الياس ما هذا الحزن والجزع الذى أنت فيه ألسنت أمينى على وحيى وحجتى فى أرضى وصفوتى من خلقى فاسألنى أعطتك فانى ذوالرحمة الواسعة والفضل العظيم . قال الياس عليه السلام : تميتنى وتلحقنى بآبائى فانى قد مللت بنى اسرائيل وملونى وأبغضتهم فيك وأبغضونى ، فأوحى الله اليه يا الياس ما هذا اليوم الذى أعزى منك الأرض وأهلها ، وانما قوامها وصلاحها بك وأشباهك ، ولكن سلنى أعطتك . قال الياس : فان لم تمننى يا إلهى فأعطينى ثأرى من بنى اسرائيل فأوحى الله تعالى اليه فأى شيء تريد أن أعطيك يا الياس . قال تمكثنى من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشى عليهم سحابة إلا بدعوتى ولا تمطر عليهم سبع سنين قطرة الا بشفاعتى فانهم لا يذلم الا ذلك قال الله تعالى - يا الياس أنا أرحم بعبادى من ذلك وان كانوا ظالمين . قال فست سنين . قال أنا أرحم بخلقى من ذلك وان كانوا ظالمين . قال فخمس سنين ، قال أنا أرحم بخلقى من ذلك وان كانوا ظالمين . قال فأربع سنين . قال أنا أرحم بخلقى من ذلك وان كانوا ظالمين . ولكننى أعطيتك ثأرك منهم ثلاث سنين أجعل خزائن المطر بيدك ولا أنشر عليهم سحابة إلا بدعوتك ولا أنزل عليهم قطرة إلا بشفاعتك . قال الياس فبأى شيء أعيش . قال أسخر لك جيشا من الطير تنقل اليك طعامك وشرابك من الريف والأرض التى لم تقحط

قال الياس : قد رضيت فأمسك الله المطر عنهم ثلاث سنين حتى هلكت المواشى والدواب والهوام والشجر وجهد الناس جهدا شديدا والياس على حاله محتف من قومه بموضع ينساق له فيه الرزق ويأتيه حينما كان وقد عرفه بذلك قومه ، فكانوا إذا وجدوا ريح الحبز في بيت قالوا لقد دخل الياس هذا المكان فيطلبونه ويلقى منهم أهل ذلك المكان شرا . قال ابن عباس : أصاب بني اسرائيل القحط ثلاث سنين متواليات فمر الياس بعجوز فقال لها هل عندك طعام فقالت نعم شيء من دقيق وزيت قليل فجاءته بشيء من الدقيق والزيت فدعا فيهما بالبركة ومسهما فبارك الله في ذلك حتى ملأت جرابها دقيقا وملأت خوابيها زيتا فلما رأى بنو اسرائيل ذلك عندها قالوا لها من أين لك هذا ؟ قالت مررت برجل من حاله كذا وكذا ووصفته بصفته فعرفوه وقالوا لها ذلك الياس ثم انهم طلبوه فوجدوه فهرب منهم الى الجبال والله أعلم .

قصة اليسع عليه السلام

ثم ان الياس أتى إلى بيت امرأة من بني اسرائيل لها ابن يسمى اليسع بن أخطوب وكان به ضرر فأونته وأخفت أمره فدعاه فعوفى من الضر الذي كان به واتبع اليسع الياس وآمن به وصدقه ولزمه فكان يذهب معه حيثما ذهب ، وكان الياس قد أسنّ وكبر ، وكان اليسع غلاما شابا ، ثم ان الله تعالى أوحى إلى الياس عليه السلام انك قد أهلك كثيرا من الخلق بمن لم يعصوني سوى بني اسرائيل من البهائم والدواب والهوام والشجر والنبات بحبس المطر عن بني اسرائيل فيزعمون والله أعلم أن الياس قال يارب دعني أكون الذي أدعولهم وآتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء الذي أصابهم لعلمهم يرجعون عما هم عليه من عبادة غيرك ، فقيل له نعم فجاء الياس الى بني اسرائيل ، وقال لهم ويلكم انكم قد هلكتم جوعا وجهدا وقد هلكت البهائم والدواب والطيور والشجر والنبات بحبس المطر عنكم بخطاياكم وانكم على باطل وغرور فان كنتم تحبون أن تعلموا أن أصنامكم التي تدعونها من دون الله لن تنقذكم شيئا فاخرجوا بأصنامكم هذه فان استجابت لكم فذلك كما تقولون وان هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل وغرور فنزعتم عنها ودعوت الله تعالى لكم أن يفرج عنكم ما أتم فيه من البلاء قالوا أنصفت فخرجوا ومعهم أوثانهم فدعوا فلم تستجب لهم ولم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء ، فقالوا يا الياس إنا قد هلكنا فادع الله لنا فدعا الله الياس ومعه اليسع عليهما السلام بالفرج مما هم فيه وأن يسقوا فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر وهم ينظرون اليها فأقبلت نحوهم وطبقت عليهم الأفق ثم أرسل الله عليهم المطر فأغاثتهم وأحيت بلادهم . قال فشكوا الى الياس هدم الجدران وعدم البذر ، وقالوا ليست لنا حبوب فأوحى الله تعالى اليه أن يأمرهم بأن ييذروا الملح في الأرض ففعلوا فأثبت الله لهم منه الحبوب وأمرهم أن ييذروا الرمل فأثبت الله لهم منه الدخن ، فلما كشف الله تعالى عنهم الضر تقضوا العهد ولم ينزعوا عن كفرهم ولم يقلعوا عن ضلالهم وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه ، فلما رأى الياس ذلك

دعا ربه أن يرجمه منهم ، فقيل له انتظر يوم كذا وكذا فاخرج الى موضع كذا وكذا فاذا جاءك شيء فاركبه ولا تهبه فخرج الياس ومعه اليسع بن أخطوب حتى إذا كانا بالموضع الذي أمر بالخروج اليه أقبل فرس من نار حتى وقف بين يديه فوثب عليه الياس فانطلق به الفرس فناداه اليسع يا الياس ما تأمروني به فقذف اليه كساءه من الجوّ الأعلى ، فكان ذلك علامة على استخلافه إياه على بني إسرائيل وذهب الياس فكان ذلك آخر العهد به ورفع الله الياس بين أظهرهم وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساء الريش وكان إنسيا ملكيا سماويا أرضيا وسلط الله تعالى على لاجب الملك وامراته وقومه عدوا لهم فقصدهم من حيث لا يشعرون به حتى رهقهم فقتل لاجب الملك وامراته في بستان مزدكي فلم تزل جيفتاها ملتقائين في تلك الجنية حتى بليت لحومهما ورمت عظامهما ونبأ الله تعالى بفضل اليسع عليه السلام ، وبعثه نبيا ورسولا الى بني إسرائيل ، وأوحى الله تعالى اليه وأيده بمثل ما أيد به عبده الياس فأمنت به بنو إسرائيل وكانوا يعظمونه ويتهون إلى رأيه وأمره وحكم الله تعالى فيهم قائم الى أن فارقه اليسع .

أخبرنا أبو عبد الله الحسن بن محمد الحافظ عن عبد العزيز بن أبي دواد ، قال : ان الحضر والياس عليهما السلام يصومان شهر رمضان بيت المقدس ، ويوافيان الموسم في كل عام . وأخبرني ابن فتحويه عن رجل من أهل عسقلان أنه كان يمشي بالأردن عند نصف النهار فرأى رجلا ، فقال يا عبد الله من أنت ، فقال أنا الياس : قال فوقعت على رعدة شديدة فقلت له : ادع الله أن يرفع عني ما أجد حتى أفهم حديثك وأعقل عنك . قال فدعا لي بثان دعوات وهن يا بر يا رحيم يا حنان يا منان يا حي يا قيوم ودعوتين بالسريانية لم أفهمهما ، وقيل هما باهيا شراهما فرفع الله عني ما كنت أجد ووضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين يدي ، فقلت له أيوحى إليك اليوم ، فقال منذ بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولا فانه لا يوحى إلى . قال فقلت له فكم من الأنبياء اليوم أحياء . قال أربعة اثنان في الأرض واثنان في السماء ، أما اللذان في السماء فعيسى وإدريس عليهما السلام ، وأما اللذان في الأرض فالياس والحضر عليهما السلام ، قلت كم الأبدال . قال ستون رجلا خمسون منهم من لدن عرش مصر إلى شاطئ القرات ورجلان بالصيغة ورجل بعسقلان وسبعة في سائر البلدان كلها أذهب الله واحدا منهم جاء بآخر مكانه وبهم يدفع الله عن الناس البلاء وبهم يمطرون قلت فالحضر أين يكون ؟ قال في جزائر البحر فقلت : هل تلقاه قال نعم قلت أين قال بالموسم قلت فما يكون حديثكما . قال يأخذ من شعري . وآخذ من شعره . قال وكان ذلك حين جرى بين مروان بن الحكم وبين أهل الشام القتال قلت فما تقول في مروان بن الحكم . قال رجل جبار عات على الله تعالى والقاتل والمقتول والشاهد في النار قلت فاني قد شهدت ولم أطعن برمح ولا رميت بسهم ولم أضرب بسيف وأنا أستغفر الله من ذلك المقام أن أعود إلى مثله أبدا قال أحسنت فهكذا فكن . قال فبينما أنا وإياه قاعدان اذ وضع

بين يديه رغيفان أشد يابضا من الثلج فأكلت أنا وهو رغيفا وبعض الآخر ، ثم رفعت رأسى وقد رفع باقى الرغيف الآخر فما رأيت أحدا وضعه ولا رأيت أحدا رفعه . قال وله ناقة ترعى فى وادى الأردن فرفع رأسه إليها فلما دعاها جاءت وبركت بين يديه فركبها فقلت له إني أريد أن أصحبك قال انك لا تقدر على صحبتى قال فقلت له انى خلوا لزوجتي لى ولا عيال . قال تزوج وإياك والنساء الأربع الناشزة والمختلعة والملاعنة والبرزة وتزوج ما بدالك من النساء قال فقلت انى أحب أن ألقاك قال فاذا رأيتنى فقد لقيتني انى أعتكف فى بيت المقدس فى شهر رمضان ، ثم حالت بينى وبينه شجرة فوالله ما أدري كيف ذهب وهذا آخر القصة .

مجلس فى قصة ذى الكفل عليه السلام

قال الله تعالى - واسمعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين - قال مجاهد : لما كبر اليسع قال : لو أنى استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل فجمع الناس ، ثم قال من يتكفل لى بثلاث استخلفته يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب ، فقام إليه رجل شاب تزدرية العيون فقال : أنا، فردده ذلك اليوم وقال مثلها فى اليوم الثانى فسكت الناس فقام ذلك الرجل وقال : أنا أعمل ذلك فاستخلفه . قال فلما رأى ابليس ذلك جعل يقول للشياطين عليكم بفلان فأعياهم ، فقال دعونى وإياه فأتاه فى صورة شيخ كبير فقير حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام بالليل والنهار إلا تلك النومة فدق ابليس الباب فقال : من هذا ؟ فقال شيخ كبير مظلوم ففتح الباب فجعل يقص عليه القصة ويقول : ان بينى وبين قومى خصومة وإنهم ظلمونى وفعلوا وفعلوا وجعل يطول عليه حتى حضر وقت الرواح وذهبت القائلة ، فقال له اذا رحت فانى آخذ لك بحقك فانطلق وراح الى مجلسه ، فلما جلس جعل ينظر ليرى الشيخ فلم يره وقام يتبعه فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس وينتظره فلم يره فلما رجع الى القائلة وأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال : من هذا ؟ فقال أنا الشيخ المظلوم ففتح له ، وقال ألم أقل لك اذا قعدت فأتنى ، فقال انهم أخبث قوم اذا عرفوا أنك قاعد يقولون نحن نعطيك حقا واذا قت جحدونى . قال فانطلق فاذا رحت فأتنى وفاته القائلة فراح وأقبل وجعل ينظره فلا يراه فشق عليه الناس ، فقال لبعض أهله لاتدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أقوم فانه قد شق على عدم النوم ، فلما كانت تلك الساعة جاء فلم يأذن له أحد فلما أعياه نظر فاذا كوة فى البيت فتسور منها فاذا هو فى البيت واذا به يدق الباب من داخل فاستيقظ الرجل ، وقال يا فلان ألم أمرك أن لاتأذن لأحد على ، فقال أما من قبلى فما آتى فانظر من قبل من آتى فقام الى الباب فاذا هو مغلق كما أغلقه واذا الشيخ معه فى البيت ، فقال له أتمام والخصوم ببابك فعرفه ، فقال له يا عدو الله ما ألباك

الى هذه الفعّال ، فقال له إنك أعيتني في كل شيء أردت بك ففعلت معك ما ترى لأغضبك فعصمك الله متى قسمي ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به .

أخبرنا ابن فتحويه : قال حدثنا عمر بن الفضل عن أبي هاشم . أخبرنا ابن الفضل قال : أخبرنا الأعمش عن عبد الله بن عبيد الله الداري عن سعيد عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثاً لو لم أسمعته إلا مرة أو مرتين لم أحدث به سمعته منه أكثر من سبع مرات يقول « كان في بني إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل لا ينزع عن ذنب عمله فاتبع امرأة فأعطاهما ستين ديناراً على أن تعطيه نفسها فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة ارتعدت وبكت ، فقال لها ما يبكيك ؟ فقالت من هذا الفعل فاني ما فعلته قط ، فقال لها أكرهتك قالت لا ولكن حملتني عليه الحاجة ، فقال لها اذهبي فهي لك » ، ثم إنه قال والله لا أعصى الله بعدها قط أبداً فمات من ليلته . فقيل مات ذو الكفل فوجدوا على باب داره مكتوباً : ان الله تعالى قد غفر لذي الكفل ، وقال أبو موسى الأشعري : ان ذا الكفل لم يكن نبياً ، وإنما كان عبداً صالحاً تكفل بعمل رجل صالح وكان يصلي لله تعالى في كل يوم مائة صلاة فأحسن الله عليه الثناء ، وقيل هو الياس ، وقيل هو زكريا والله أعلم بالصواب .

مجلس في قصة عيلي وشمويل وهو اسمعيل بالبرانية وقصة التابوت

وخر طالوت وجالوت ، وهذه قصة كبيرة تشتمل على أبواب كثيرة

قال الله تعالى - ألم تر الى اللاء من بني إسرائيل - الآية .

[فصل في سياق الآية ومقدمة القصة] قال وهب بن منبه لما نبأ الله تعالى اليسع بعد الياس عليهما السلام واستخلفه على بني إسرائيل وكان فيهم ماشاء الله أن يكون ، ثم قبضه الله تعالى اليه وخلف فيهم الخلوف عظمت فيهم الخطايا وكان عندهم التابوت يتوارثونه كابراً عن كابر فيه السكينة وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون وكانوا لا يلقاهم عدو فيقدموا التابوت ويزحفون به معهم إلا هزم الله تعالى ذلك العدو وكان الله تعالى قد بارك لهم في أرزاقهم فكان أحدهم فيما يذكرون يجمع التراب على صخرة ، ثم يبذر فيه الحب فيخرج الله له ما يأكل منه هو وعياله ويكون لأحدهم الزيتون فيعصر منها ما يأكل هو وعياله سنة ، فلما كثرت أحداثهم وعظمت ذنوبهم وتركوا ما عهد الله اليهم سلط الله عليهم العاقبة وهم قوم كانوا يسكنون غزة وعسقلان وساحل البحر ما بين مصر وفلسطين وكان جالوت الملك فيهم فظهروا على بني إسرائيل وغلبوهم على كثير من أراضهم وسبوا كثيراً من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعين غلاماً وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم وبقوا على اضطراب من أمرهم واختلاف من حالهم يتمادون

أحيانا في غيرهم وضلالتهم فسلط الله تعالى عليهم من ينتقم له منهم ليرجعوا الى التوبة أحيانا ويكفهم الله شر من بغى عليهم حتى بعث الله فيهم طالوت ملكا ورد عليهم توراتهم فانتظم أمرهم واستوثق ملكهم وكان مدة ما بين وفاة يوشع بن نون التي آل أمر بني اسرائيل في بعضها الى السامة منهم ، وفي بعضها الى غيرهم ممن يقهرهم ويتملك عليهم الى أن ثبت الملك فيهم ورجعت النبوة اليهم بشمويل النبي عليه السلام أربعمئة سنة وستين سنة وكان آخر من ملكهم في هذه المدة رجل يقال له إيلاف وكان يدبر أمرهم في ملكه شيخ كبير يقال له عيلي الكاهن كان حبرهم وصاحب قربانهم وكانوا ينتهون الى رأيه ، فلما مضى من وقت قيامه بأمرهم مدة بعث الله شمويل نبيا .
القول في بدء أمر شمويل وصفة نبوته صلى الله على نبينا وعليه وسلم

قال وهب بن منبة : كان لأبي شمويل امرأتان إحداها عجوز عاقر لم تلد له ولدا وهي أم شمويل ، والأخرى قد ولدت له عشرة أولاد . قال وكان لبني اسرائيل عيد من أعيادهم أقاموا فيه شرائطه وقرّبوا القرابين فحضر أبو شمويل وامراتاه وأولاده العشرة ذلك العيد ، فلما قرّبوا قربانهم أخذ كل واحد منهم نصيبا وكان لأم الأولاد عشرة أنصباء وللعجوز نصيب واحد فعمل الشيطان بينهما ما يعمل بين الضرائر من الحسد والبغى ، فقالت أم الأولاد للعجوز الحمد لله الذي كثرتني بولدي وقللتك فوجئت المعجوز وجوبا شديدا ، فلما كان عند السحر عمدت الى متعبيها فقالت : اللهم بعلمك وسمعتك كانت مقالة صاحبي واستطالتها على بنعمتك التي أنعمتها عليها وأنت ابتدأتها بالنعمة والاحسان فارحم ضعفي وارزقني ولدا تقيارضا واجعله لك ذخرا في مسجد من مساجدك يعبدك ولا يكفرك ويطيعك ولا يحجرك ، فإذا رحمت ضعفي ومسكنتي وأجبت دعوتي فأجعل لي علامة أعرف بها قبول دعائي ، فلما أصبحت حاضت وكانت قبل ذلك قد يشئت من الحيض فجعله الله علامة لما سأله فألم بها زوجها فحملت وكنمت أمرها وتقى بنو اسرائيل في ذلك الوقت من عدوهم بلاء وشدة ولم يكن لهم نبي يدبر أمرهم فكانوا يسألون الله تعالى أن يعث لهم نبيا يشير عليهم ويجاهدون عدوهم معه وكان سبط النبوة قد هلك ولم يبق منه إلا تلك المرأة الحبلي ، فلما علموا بحملها تعجبوا من أمرها ، وقالوا ما حملك هذا إلا نبي لأن اليائسات لا يحملن إلا بالأنبياء كسارة امرأة ابراهيم عليه السلام حملت باسحق وايشاع امرأة زكريا حملت يحيى عليه السلام فأخذوها وحبسوها في بيت رهبة أن تلد جارية فتبذلها بعلام لما ترى من رغبة بني اسرائيل في ولدها فجعلت المرأة تدعو الله تعالى أن يرزقها ولدا ذكرا فولدت غلاما وممته شمويل تقول مع الله دعائي ، فلما شب الغلام أسلمته ليتعلم التوراة فكفله عيلي وتبناه ، فلما بلغ الغلام الوقت الذي يبعثه الله فيه نبيا أتاه جبريل عليه السلام وهو نائم الى جانب الشيخ عيلي الكاهن وكان لا يأمن عليه أحدا فدعاه جبريل بلحن الشيخ يا شمويل ققام الغلام فزعا مرغوبا الى الشيخ ، وقال يا أبتاه أدعوتني فذكره الشيخ أن يقول لا فيفرع الغلام ، فقال يا بني

ارجع فتم فرجع الغلام فنام ، ثم دعاه جبريل ثانيا فانتبه الغلام ، وقال ادعوتني يا أبتاه ، فقال الشيخ ماشأنتك . قال أما دعوتني ؟ قال لا ، فقال شمویل فانی سمعت صوتا فی البيت وليس فيه غیرنا ، فقال الشيخ ارجع فتوضأ وصل فانك ان دعيت باسمك فأجب وقل ليک أنا طوعک فأمرنی بما شئت أفعل ما تأمرنی به ففعل ذلك الغلام فنودی ثالثة ، فقال ليک أناطوعک فأمرنی بأمرك أفعل ما تأمرنی به فظهر له جبريل عليه السلام ، فقال له اذهب إلى قومک فبلغهم رسالة ربک فان الله سبحانه عزوجل قد بعثک فيهم نبيا وإن الله قد ذرأک يوم ذرأک للنبوة ورحم وحده أمک ذلك اليوم الذي تاهت عليها ضررتها فيه فلا أحد اليوم أشد منها عضدا ولا ملاذا فانطلق الى عیلى فقل له انک کنت خليفة الله على عبادہ ودينه قمت زمانا بأمره حاکما بکتابه محافظا على حدوده ، فلما امتدت مدتك ودق عظمک وذهبت قوتک وفنى عمرک وقرب أجلك وصرت أققر ما يكون الى الله تعالى ولم تزل فقيرا اليه عطلت الحدود وجرت بين الخصوم وعملت بالرشا والمصانعات وأضعفت حکم الحق حتى عز الباطل وأهله وذل الحق وحزبه وظهر النکر وخفى المعروف وفشا الکذب وقل الصدق وما کان الله عاهدک على هذا ولا عليه استخلفک فبئسما ختمت به عملک - والله لا يحب الخائنين - بلغه هذه الرسالة وقم بعده بالخلافة ، فلما بلغه شمویل هذه الرسالة فزع وجزع . وكان السبب فيما عاتب الله عبده عیلى ووجحه عليه أنه کان له ابنان شابان فأحدثا شيئا فى القربان لم يكن فيه ، وذلك أنه کان مسواط القربان الذى كانوا يسوطونه به كلايين فما أخرجنا کان للکاهن الذى کان يسوطه فجعل ابنه کلايب فأوحى الله الى شمویل : أن انطلق الى عیلى فقل له منعک حب الولد أن تزجر ابنیک أن يحدثا فى قربانى وأن يعصيانى فلا تنزعن الکهانة منك ومن ولديک ولأهلکک وإياهما ، فأخبر شمویل عیلى فزع فزعاً شديدا وسار اليهم عدوهم ومن حولهم فأمر عیلى ابنه أن يخرج بالناس فيقاتلوا ذلك العدو فخرجوا وأخرجوا معها التابوت ، فلما تأهبوا للقتال جعل عیلى يتوقع ماذا صنع القوم فجاءه رجل وهو قاعد على کرسیه فأخبره بأن الناس قد انهزموا وأن ابنیک قد قتل ؟ قال فما فعل بالتابوت . قال ذهب به العدو . قال فشقق ووقع على قفاه من کرسیه فمات ، فلما بلغ ملکهم إيلاف الخبر أن التابوت قد سلب وأن عیلى قد مات فمات کذا ، فلما مات الأمير والوزير وأخذ التابوت مرج أمر بنى اسرائيل واختل واجترأ عليهم عدوهم ، فقالوا لشمویل - ابعت لنا ملکا يقاتل فى سبيل الله - - وذلك بعد ما دبر شمویل امرهم عشر سنين ، فلما نالهم الدل والهوان والقتل والسبي من عدوهم بشؤم معصيتهم سألوا نبیهم شمویل أن يبعث لهم ملکا يقاتلون معه فى سبيل الله وإنما کان قوام أمر بنى اسرائيل بالاجتماع على الملك وإطاعة الملك للأنبياء ، وكان الملك هو الذى يسير بالجیوش ويقاتل العدو ، وكان النبى منهم هو الذى يقيم له أمره ويشير عليه ويرشده ويأتيه بالخبر من عند الله تعالى .

قال وهب بن مہر : بعث الله شمویل نبيا فلبثوا أربعين سنة فى أحسن حال ، ثم کان من أمر

جالوت والعمالة ما كان فسألوا شمويل عليه السلام أن يبعث لهم ملكا فذلك قوله تعالى - ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله - يعنى شمويل ، وهو بالعبراية اسماعيل بن بالى بن علقمة بن ماجد بن عموصا بن النهر بن ضون بن علقمة صاحب عموصا بن عزريا . وقال مجاهد : هو شمويل بن هلفاقا ولم ينسبه أكثر من ذلك . وقال مقاتل : هو من نسل هرون عليه السلام . فقال لهم نبيهم - هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا - فأجابوا بما قص الله في كتابه - قالوا ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا - الآية ، فلما أخذ شمويل عليهم الميثاق على الطاعة والجماعة والجهاد سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكا .

ذكر قصة الملك طالوت وإتيان التايوت وحرب جالوت وما يتعلق به

قال الله تعالى - وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا - الآية . قال المفسرون : إن شمويل لما قالوا له ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكا فأتى بعضا وقرن فيه دهن القدس . وقيل له إن صاحبكم الذى يكون ملكا طول هذه العصا ، وانظر إلى القرن الذى فيه الدهن فاذا دخل عليك رجل فنش الدهن الذى فى القرن فهو ملك بنى إسرائيل فادهن به رأسه وملكه عليهم ، ثم انهم قاسوا أنفسهم بالعصا فلم يكونوا مثلها وكان طالوت بطولها ، واسمه بالسريانية سادل ، وبالعبزانية شاول بن قيس بن أفيل بن صارون بن نحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب ابن اسحق بن إبراهيم الخليل عليه السلام وكان رجلا دباغا يعمل الأدم .

قال وهب بن منبه : كان يدبغ الجلود ، وعكرمة والسدى يقولان كان سقاء يستقى على حمار له من النيل فضل حماره فخرج في طلبه . قال وهب بن منبه : بل ضاعت حمار لأبي طالوت فأرسله وغلما له يطلباناهمرا بيت شمويل عليه السلام . فقال الغلام لطالوت : لودخنا على هذا النبي فسألناه في أمر الحمار ليرشدنا ويدعولنا فيها بخير . فقال له نعم فدخلا عليه ، فبينما هما عنده يذكران له خبر الحمار إذ نش الدهن فى القرن ، فقام شمويل وقاس طالوت بالعصا فكانت على طوله ، فقال له شمويل : قرب رأسك إلى فدهنه بدهن القدس ، ثم انه قال له : أنت ملك بنى إسرائيل وقد أمرنى ربى أن أملكك عليهم . فقال طالوت أنا فقال نعم . قال أوما علمت أن سبطى أدنى أسباط بنى إسرائيل قال بلى . قال أوما علمت أن بيتى أدنى بيت فى بنى إسرائيل قال بلى : قال فيأى آية قال بآية أنك ترجع وقد وجد أبوك الحمار فكان كذلك ، ثم ان شمويل قال لبنى إسرائيل : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا . قال مجاهد : أميرا على الجيش - فقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال - وإنما قالوا ذلك لأنه كان فى بنى إسرائيل سبطان : سبط نبوة ، وسبط مملكة وكان سبط النبوة سبط لاوى بن يعقوب ومنهم موسى وهرون . وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ومنهم داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من سبط النبوة ولا من سبط المملكة وإنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب وكانوا عمالوا ذنبا عظيما

كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهارا فغضب الله عليهم ونزع النبوة والملك منهم . فلما قال لهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا - أنكروا ذلك لأنه كان من ذلك السبط فقالوا آتى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ومع ذلك انه فقير لم يؤت سعة من المال . فقال لهم شمویل - إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم - بالحرب - والجسم - يعنى بالطول في قومه والقوة وانما سمى طالوت لطوله . ولذلك كان يفوق الناس برأسه ومنكيه . وقال ابن كيسان بالجمال : وكان طالوت أجمل رجل في بني اسرائيل وأعلمهم - والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم - قالوا فما آية ذلك - قال لهم نبينهم إن آية ملكه أن يأتكم التابوت - الآية .

قصة التابوت وصفته وابتداء أمره إلى انتهائه

قال أهل التفسير وأصحاب الأخبار : إن الله تعالى أهبط تابوتا على آدم عليه السلام من الجنة حين أهبط إلى الأرض فيه صور الأنبياء من أولاده وفيه بيوت بعدد الرسل منهم ، وآخر البيوت بيت محمد ﷺ من ياقوتة حمراء واذاهو قائم يصلى وعن يمينه الكهل المطيع مكتوب على جبينه : هذا أول من يتبعه من أمته أبوبكر الصديق رضى الله عنه ، وعن يساره الفاروق ، وعلى جبهته مكتوب قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم ، ومن ورائه ذوالنورين آخذ بحجزته مكتوب على جبهته : بار من البررة ، ومن بين يديه على بن أبى طالب كرم الله وجهه شاهر سيفه على عاتقه ، ومكتوب على جبهته : هذا أخوه وابن عمه المؤيد بالنصر من عند الله وحوله همومته والخلفاء والنقباء والكبكة الحضراء أنصار الله وأنصار رسوله ، نور حوافر دوابهم يوم القيامة مثل نور الشمس في دار الدنيا وكان التابوت نحوا من ثلاثة أذرع في ذراعين وكان من عود الشمشاذ الذى يتخذ منه الأمشاط محموه بالذهب ، وكان عند آدم عليه السلام إلى أن مات ثم عند شيث إلى أن مات ثم توارثه أولاد آدم إلى أن بلغ إلى ابراهيم عليه السلام ، فلما مات كان عند اسماعيل لأنه أكبر ولده فلما مات اسماعيل كان عند ولده قيثار فنازعه فيه ولد اسحق وقالوا له إن النبوة صرفت عنكم وليس لكم الا هذا النور الواحد يعنى نور محمد ﷺ فأعطنا التابوت فكان يمتنع عليهم ويقول انه وصية أبى ولا أعطيه لأحد من العالمين ، قال فذهب ذات يوم ليفتح ذلك التابوت فعصر عليه فتحة فناداه مناد من السماء مهلا يا قيثار فليس لك إلى فتح هذا التابوت سبيل انه وصية نبي ولا يفتحها إلا نبي فادفعه إلى ابن عمك يعقوب اسرائيل الله ، فحمل قيثار التابوت على عنقه وخرج يريد أرض كنعان وكان بها يعقوب عليه السلام . قال فلما قرب قيثار صر التابوت صرة سمعها يعقوب عليه السلام . فقال لبنيه أقسم بالله لقد جاءكم قيثار بالتابوت فقوموا نحووه ، فقام يعقوب وأولاده جميعا فلما نظر يعقوب إلى قيثار سعى إليه باكيا وقال يا قيثار ما لي أرى لوتك متغيرا وقوتك ضعيفة أأرهقك عدو أم أتيت بمعصية بعدأيك اسماعيل ؟ قال ما أرهقني عدو ولا أتيت بمعصية ولكن أثقل ظهري نور محمد ﷺ فلذلك تغير لوني وضعف ركني . قال يعقوب آتى بنات اسحق ؟ قال لا ولكن في

العربية الجرهمية وهي العامرية ، فقال يعقوب بن نج شرفا لمحمد ﷺ لم يكن الله ليخرجه الا في العربيات الطاهرات يا قيذار وأنا مبشرك ببشارة . قال وما هي ؟ قال علم أن العامرية قد ولدت لك البارحة غلاما . قال قيذار وما أعلمك يا ابن عمي وأنت بأرض الشام وهي بأرض الحرم : قال يعقوب قد علمت ذلك لأنني رأيت أبواب السماء قد فتحت ورأيت نورا كالقمر الدور بين السماء والأرض ورأيت الملائكة ينزلون من السماء بالبركات والرحمة فعلمت أن ذلك من أجل محمد ﷺ ، ثم إن قيذار دفع التابوت الى ابن عمه يعقوب ورجع الى أهله فوجدها قد ولدت غلاما فسماه حملا وفيه نور محمد ﷺ ، قالوا وكان التابوت في بني اسرائيل الى أن وصل الى موسى وكان موسى يضع فيه التوراة ومتاعا من متاعه وكان عنده الى أن مات ، ثم تداولته أنبياء بني اسرائيل الى وقت شمويل عليه السلام فوصل الى شمويل وقد تكامل أمر التابوت بما فيه وكان فيه مما ذكر الله في كتابه - فيسكنه من ربكم - .

واختلفوا في السكينة ما هي فقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : السكينة ربح خجوج هفافة لها رؤسان ووجهها كوجه الانسان ، وقال مجاهد لها رأس كرأس الهرة وذنب كذنب الهرة وجناحان . وقال محمد بن اسحق عن وهب بن منبه عن بعض علماء بني اسرائيل في السكينة رأس هرة كانت اذا صرخت في التابوت صرخة أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح .

وروى السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال : هي طست من ذهب الجنة ينسل فيه قلوب الأنبياء .

وروى بكار بن عبد الرحمن عن وهب بن منبه : هي روح من الله تكلمهم اذا اختلفوا في شيء فتخبرهم ببيان ما يريدون . وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون .

قال المفسرون : فيه عصا موسى ورضاض الألواح وذلك أن موسى لما ألقى الألواح تكسرت فرفع بعضها وجمع ما بقي فجعله في التابوت وكان فيه أيضا لوحان من التوراة وقفيز من المن الذي كان ينزل على بني اسرائيل ونعلا موسى وعمامة هرون وعصاه ، قالوا وكان التابوت عند بني اسرائيل اذا اختلفوا في شيء تكلم وحكم بينهم ، واذا حضروا القتال أقاموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوهم ، فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم العاقلة فغلبوهم على التابوت وسلبوهم إياه وذلك في أيام عيلي الكاهن الذي ربي شمويل وقدمضت القصة فيه وكان جالوت يوم سبي قومه التابوت صغيرا ، فلما ذهب التابوت اختل أمر بني اسرائيل الى أن بعث الله طالوت ملكا فسأله الآية على ملكه ، فقال لهم شمويل إن آية ملكه أن يأتكم التابوت .

وكانت قصة ذلك التابوت : أن القوم الذين سبوا التابوت آتوا به قرية من قرى فلسطين يقال لها أردن وجعلوه في بيت صنم لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم ، فأصبحوا من الغد واذا الصنم تحته فأخذوه وجعلوه فوقه وتمروا قدمي الصنم على التابوت . فأصبحوا من الغد وقد قطعت يدا الصنم ورجلاه وأصبح ملقى تحت التابوت . فأصبحت الأمثال كلها منكسبة فأخرجوه من بيت الأصنام

ووضعوه في ناحية من مدينتهم فأخذ أهل تلك الناحية وجع في أعناقهم حتى هلك أكثرهم ، فقال بعضهم لبعض أليس قد علمتم أن إله بني إسرائيل لا يقوم له شيء فأخرجوه من مدينتكم قال فأخرجوا إلى قرية أخرى فبعث الله على أهل تلك القرية فأرا بيت الرجل صحيحا فيقرضه الفأر فيصبح ميتا وقد أكلت ما في جوفه ، فأخرجوه منها إلى الصحراء ودفنوه في مجرى لهم ، فكان كل من تبرز هناك أخذه الباسور والقولنج فأخرجوه ووضعوه في بيت فمكث فيهم عشر سنين وسبعة أشهر لا يدنو أحد منه الا احترق وأصابهم في المدينة الآفات والعاهات وفي مواشيهم الموت وفي نساءهم الطاعون ، فتحيروا وكانت عندهم امرأة من نساء بني إسرائيل من أولاد الأنبياء فقالت إنكم لا تزالون ترون ماتكرهون مادام هذا التابوت فيكم فأخرجوه عنكم ، فأتوا بعجلة بإشارة تلك المرأة فحملوا عليها التابوت ثم علقوها على ثورين وضربوا جنوبيهما فأقبل الثوران يسيران ووكل الله بهما أربعة من الملائكة يسرقونهما فلم يمر التابوت بأرض الا كانت مقدسة فأقبلوا حتى وقفوا على أرض فيها جصاد لبني إسرائيل فكسر برثهما وقطع جبالهما ووضع التابوت فيها ورجع الثوران إلى أرضيهما ، فلم تدبر بنو إسرائيل الا والتابوت عندهم فكبروا وحمدوا الله تعالى واجتمعوا على طالوت فذلك قوله تعالى — تحمله الملائكة — أي تسوقه الملائكة .

وقال ابن عباس : جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته في دار طالوت ، فأقروا بملكه قال الله تعالى — ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين — قال ابن عباس : ان التابوت وعصا موسى في بحيرة طبرية وانهما يخرجان قبل القيامة والله أعلم .

باب في قصة شمويل حين أوحى الله اليه أن يأمر طالوت بالمسير إلى قتال جالوت

مع بني إسرائيل وصفة نهر الابتلاء

قال الله تعالى — فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر — الآية ، قال فلما أوحى الله إلى شمويل عليه السلام أن يأمر طالوت بالمسير إلى جالوت من بيت المقدس بالجنود لم يتخلف عنه إلا كبر لمومه أو مريض لمرضه أو ضرير لضره أو معذور لعذره ، وذلك أنهم لما رأوا التابوت قالوا قد أتنا التابوت وهو نصر لاشك فيه ، فسارعوا إلى الجهاد فقال طالوت لأحاجة لي فيما أرى لا يخرج معي رجل بني بناء لم يفرغ منه ولا صاحب تجارة مشغل بها ولا رجل عليه دين ولا رجل تزوج بامرأة ولم يدخل بها ولا يتبعني الا الشاب النشط الفارع ، فاجتمع ثمانون ألفا على شرطه فخرج بهم وكان في حر شديد فشكوا قلة المياه بينهم وبين عدوهم ، وقالوا ان المياه لا تحملنا فادع الله تعالى أن يجري لنا نهرا ، فقال لهم طالوت بأمر شمويل عليه السلام — ان الله مبتليكم بنهر — فمَن شرب لم يدرى طاعتكم وهو أعلم بكم وهو نهر بين الأردن وبين فلسطين عذب

يقال له أدعى ، - فمن شرب منه فليس منى - أى من أهل ديني وطاعتي - ومن لم يطعمه - لم يشربه - فانه منى - ثم استثنى فقال - الا من اغترف غرفة بيده - وهو ملء السكف ومن فتح العين أراد المرة الواحدة فشربوا منه الا قليلا منهم .

قال السدى : كانوا أربعة آلاف وقال غيره كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلا وهو الصحيح يدل عليه حديث البراء بن عازب قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر « أتم اليوم على عدة أصحاب طالوت حين عبروا النهر وما جاوز معه الا مؤمن » قال وكانوا يومئذ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا فمن اغترف غرفة بيده كما أمر الله تعالى قوى قلبه وصح ورجع ايمانه وعبر النهر سالما وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه ، وحمله ودوابه ، والذين شربوا وخالفوا أمر الله تعالى اسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يرووا وبقوا على شاطئ النهر وجبنوا عن لقاء العدو ولم يشهدوا الفتح ، فلما جاوز النهر مع طالوت القليل الذين ثبتوا معه قالوا يعنى الذين شربوا وخالفوا أمر الله تعالى - لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده - وانصرفوا عن طالوت ولم يشهدوا قتال جالوت وقال الذين يظنون أى يعلمون ويوقنون أنهم ملاقوا الله وهم القليل الذين ثبتوا مع طالوت - كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله - الآية ومروا قاصدين الجهاد ،

باب في ذكر أمر داود عليه السلام وخبر جالوت وصفة قتله

قال الله تعالى - ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا - إلى قوله تعالى - وقتل داود جالوت - قال المفسرون والمخبرون بالفاظ مختلفة ومعان متفقة عبر النهر مع طالوت فيمن عبر إيتا أبو داود ومعه ثلاثة عشر ابنا له وكان داود أصغرهم وأحقهم فأبى ذات يوم أباه فقال يا أبتاه ما قدفت بمقلاعى هذه شيئا الا أصبته وصرعته فقال أبشر يا بنى فان الله قد جعل رزقك في قدافتك يعنى في مقلاعك ثم أتاها يوما آخر فقال : يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فرأيت أسدا رابضا فركبته وقبضت بأذنيه فلم يهمنى قبضت على فكيه ، ففطرتها برأسه وعنقه إلى لبتة بيدي من غير مكين ولا ضرب بحديد وتراه هناك مقتولا فقال له أبوه : أبشر يا بنى فان هذا خير أعطاك الله ، ثم أتاها يوما آخر وقال يا أبتاه : إني لأمشى بين الجبال فأصبح فثما يبقى جبل إلا سبج معى ، قال أبشر يا بنى فان هذا خير أعطاك الله وسيكون لك شأن عظيم . قال فلما وصلت غزاة بنى اسرائيل مع طالوت إلى عسكر جالوت أرسل جالوت إلى طالوت أن ابرز إلى أو أبرز إلى من يقاتلنى ، فان قتلتى فلكم ملكى وإن قتلتى فلى ملككم فشق ذلك على طالوت فتأذى في عسكره من قتل جالوت زوجته ابنتى وناصفته مملكتى فهاب الناس قتال جالوت فلم يحبه أحد ، فسأل طالوت نبيهم شمويل عليه السلام فدبأ الله تعالى في ذلك فأبى بقرن فيه دهن القدس وشبه تنور من حديد وقيل له إن الذى يقتل جالوت هو الذى يوضع هذا القرن على رأسه فيخل الدهن حتى يدهن منه رأسه ولا ينسل على وجهه بله

يكون على رأسه كهيئة الاكليل ويدخل في هذا التنور فيملؤه ولا يتقلقل فيه فدعا طالوت أشداه بنى اسرائيل وأقوياءهم فجربهم فلم يوافقهم منهم أحد ، فأوحى الله إلى شمويل عليه السلام إن في ولد ايشا من يقتل جالوت وإنى أريد أن أجعله خليفة في الأرض من بعدك أعلمه فصل الخطاب وهو راعى الغنم فقل لإيشا يعرض عليك بنيه واحدا واحدا ، فدعا ايشا وقال له : اعرض على بنيك فأخرج له اثني عشر ولدا أمثال السوارى وفيهم رجل بارع فجعل يعرضهم على القرن والتنور فلا يرى شيئا ويقول لذلك الجسم ارجع فيرده على التنور ، فأوحى الله تعالى إليه إنا لا نأخذ الرجال على صورهم ولكننا نأخذهم على صلاح همهم وقلوبهم فقال لا يشا : هل بقى لك ولد غيرهم ؟ قال لا ، قال شمويل : رب قد زعم أنه ليس له ولد غيرهم فقال كذب ، فقال شمويل يا إيشا إن ربى كذبك قال صدق الله يا نبي الله إن لى ابنا صغيرا يقال له داود استحيت أن يراه الناس لقصر قامته وحقارته وخلفته في الغنم يرعاها وهو في شعب كذا وكذا ، وكان داود عليه السلام قصيرا سقيما مصفرا أزرق العينين فدعاه طالوت ويقال خرج إليه فوجد الوادى قد حال بالماء بينه وبين الزريبة التى كان يتروح إليها فوجده يحمل الغنم شاتين شاتين يعبر بهما السيل ولا يخوض بهما الماء ، فلما رآه شمويل قال : هذا هو لا شك فيه هذا يرحم البهائم فهو أرحم بالناس ، فدعاه فوضع القرن على رأسه ففاض وأجلسه في التنور فملاه . فلما رأى طالوت ذلك قال له هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتى وأجرى حكمك فى مملكتى قال نعم . قال فهل لقيت من نفسك شيئا يتقوى به على قتله ؟ قال نعم أنا راعى الغنم فيجىء الأسد والثمر والذئب ليأخذ شيئا فأقوم إليه وأقبضه وأفتح لحية عنها وأجرهفهما إلى قفاه ، فلما سمع طالوت منه ذلك رده إلى عسكره فمر داود عليه السلام فى الطريق بحجر فناداه يادادو احملنى فأنى حجر هرون الذى قتل به ملك كذا وكذا فوضعه فى مخلاته ، ثم مر بحجر آخر فناداه يادادو احملنى فأنى حجر موسى عليه السلام الذى قتل به ملك كذا وكذا فحملة فى مخلاته ، ثم مر بحجر آخر فقال احملنى فأنى حجر الذى تقتل به جالوت وقد خبأتى الله لك موضعه فى مخلاته ، فلما تصافوا للقتال برز جالوت وسأل المبارزة فاستدب له داود وكان طالوت أعطاه فرسا ودرعا وسلاحا فركب الفرس ولبس السلاح وسار قليلا فوجد فى نفسه زهوا فانصرف وعاد سريعا إلى الملك فقال من حوله . جين الغلام فجاء حتى وقف على الملك فقال له ما شأنك ؟ فقال له داود إن الله تعالى إن لم ينصرنى فما يغنى عنى هذا السلاح شيئا فدعنى أقاتل كما أريد ، فقال له طالوت أفعل ما تريد . فأخذ داود عليه السلام مخلاته فتقلدها وأخذ المقلاع ومضى نحو جالوت وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده وكان له بيضة وزنها ثلثمائة رطل حديد وكان له فرس أبلق مثله فى الشدة والقوة وعظم الخلق ، فلما برز جالوت إلى داود ألقى الله تعالى فى قلبه الرعب فقال له أنت تبرز إلى ؟ قال نعم وكان جالوت راكبا على

فرس أبلق وعليه السلاح التام فقال له يا بني تأتيني بالحجر بالمقلاع كما يؤتى الكلب بالحجر؟ قال نعم أنت أشر من الكلب . قال لا جرم لأقسمن لحك بين سباع الأرض وطير السماء فقال داود باسم الله ويقسم الله لحك بين السباع وطير السماء وأخذ حجرا منها وقال باسم إله إبراهيم ووضعه في مقلاعه وأخذ حجرا ثانيا وقال باسم الله إله اسحق ووضعه في مقلاعه ثم أخرج ثالثا وقال باسم الله إله يعقوب ووضعه في مقلاعه . قال فصارت الأحجار الثلاث كلها حجرا واحدا وأدار المقلاع ورمى به فسخر الله له الريح حتى أصاب الحجر أنف البيضة فخالط دماغه وخرج من قفاه وقتل من ورائه ثلاثين رجلا . ويقال إنه من بعد ما خرج من قفاه تكسر وتفتت بأذن الله تعالى حتى عم جميع جنود جالوت فلم يبق منهم أحد إلا وقد أصابته منه قطعة ومثل ذلك صار كرامة للنبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين بحثا الجثوة من التراب فانهزم الجيش وخر جالوت قتيلا وأسرع داود عليه السلام إليه فحز رأسه وانزع من يده خاتمه وأقبل برأسه يجره حتى ألقاه بين يدي طالوت ففرح المسلمون فرحا شديدا وانصرفوا إلى مدينتهم سالمين غانمين بحمد الله رب العالمين .

ذكر بقية قصة طالوت وما كان منه إلى داود عليه السلام بعد قتل جالوت

قالوا لما قتل داود جالوت ذكر الناس داود وعظم في أنفسهم، فجاء داود إلى طالوت وقال له : أتجز إلى ما وعدتني وأعطيني امرأتى فقال له طالوت : أتريد ابنة الملك بغير صداق عجل صداق ابنتي وشأنك بها ، فقال داود لطالوت : ما شرطت على صداقا وليس لي شيء فتحكم في الصداق بما تريد وأفرضني مهرها وعلى الأداء والوفاء لك به ، فقال طالوت أصدقها نصيبك من الملك فقال له بنو إسرائيل لا تظلمه وأتجزله ما وعدته ، فلما رأى طالوت ميل بنو إسرائيل إلى داود أحسن ثناءه عليه وقال . لا حاجة لابنتي في المال ولا أكلفك مالا تطيق أنت رجل جرى وفي جبالنا أعداء من المشركين فانطلق فجاهدهم فاذا قتل منهم مائتي رجل وجئتني برءوسهم زوجتك ابنتي ، فأقام دواود عليه السلام وجعل كلما قتل منهم رجلا احتز رأسه ونظمه في خيط حتى نظم رءوسهم ثم جاء بهم إلى طالوت وألقاهم بين يديه وقال له : ادفع إلى امرأتى فزوجه امرأته وأجرى خاتمه في ملكه فقال الناس إلى داود عليه السلام وأحبه بنو إسرائيل وأكثروا من ذكره فوجد طالوت من ذلك في نفسه فأراد قتله

قال وهب بن منبه : كانت الأنبياء والملوك يومئذ يتوكأون على العصي ويعرزون في أطراف العصي أزجة من حديد وكان داود عليه السلام جالسا في ناحية البيت فدخل طالوت فرماه بالعصا بفتة ليقتله بها صبرا فلما أحس داود بذلك حاد عن رميته وأمال نفسه من غير أن يبرح من مكانه فارتكزت العكازة في الجدار فقال له داود : أردت قتلي ؟ قال له طالوت لا بل أردت أن أقف على ثباتك عند الطعان وربط

(١٦ - قصص الأنبياء)

جأشك للأقران ، فقال له داود عليه السلام أفلقيته على ما قدرته في قال نعم ولكنك لعلك فزعت ؟ قال معاذ الله أن أخاف إلا الله ولا ألقأ إلا إليه ولا يدفع الشر إلا هو ثم إن داود انتزعها من الجدار وهزها هزة منكرة ، وقال له اثبت لي كما ثبت لك فأيقن طالوت بالهلاك فقال له : أنشدك بالله وبحرمة المصاهرة التي بيني وبينك وما كان هذا القول من داود عن قصد قتل طالوت ولكن كان مقال تخويف وتحذير ، فقال داود لطالوت : إن الله قد كتب في التوراة جزاء السيئة سيئة مثلها واحدة والبادي أظلم ، قال طالوت : أفلا تقول قول هايل - لن بسطت الي يديك لتقتلني ما أنا بياسط يدي اليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين - فقال داود قد عفوت عنك لوجه الله تعالى ، فلبث طالوت زما نأ يريد قتل داود عليه السلام فعزم على أن يأتيه ويقتله في داره فأخبرت بذلك بنت طالوت زوجة داود أخبرها رجل يقال له ذوالعينين فقالت لداود إنك لمقتول الليلة قال ومن يقتلني ؟ قال أبي قال وهل أجرت جرما ؟ قالت حدثني من لا يكذب ولا عليك بأس أن تعيب الليلة حتى تنتظر مصداق ذلك فقال لن كان أراد ذلك لا أستطيع خروجاً ولكن اثني بزق من خمر فأثته به فوضعه في مضجعه على السرير وسجاء ودخل تحت السرير قال فدخل طالوت نصف الليل وأراد أن يقتل داود فلم يجده ، فقال لابنته أين بعلك ؟ فقالت هونأثم على السرير فضربه بالسيف فسال الحمر ، فلما وجد ربح الحمر قال رحم الله داود ما كان أكثر شربه للخمر وخرج فلما أصبح علم أنه لم يفعل شيئا فقال إن رجلا طلبت منه ما طلبت لخلق أن لا يدعني حتى يدرك ثأره مني ، ثم انه استتر بحجابه وحراسه وأغلق دونه الأبواب . قال فأتى داود ذات ليلة وقد هدأت العيون وأعمى الله عنه الحجاب وفتح الله الأبواب فدخل عليه وهو نائم على فراشه فوضع سهما عند رأسه وسهما عند رجله وسهما عن يمينه وسهما عن شماله ثم خرج ، فلما استيقظ طالوت وجد السهام فعرفها فقال : رحم الله داود هو خير مني ظفرت به فقصدت قتله وظفرتني فكف عني لو شاء لوضع هذا السهم في حلقى وما أنا بالذي آمنه . فلما كانت الليلة اتقابلة أناه داود ثانيا وأعمى الله عنه أعين الحجاب فدخل وهو نائم على فراشه فأخذ إبريق طالوت الذي كان يتوضأ منه وكوزه الذي كان يشرب به وقطع شعرات من لحيته وشيئا من هذب ثيابه ثم خرج وهرب وتوارى ، فلما أصبح طالوت ورأى ذلك سلط على داود العيون وشدة في طلبه فلم يقدر عليه ، ثم إن طالوت ركب ذات يوم فوجد داود عليه السلام يمشى في البرية فقال طالوت في نفسه اليوم أقتل داود أنارا كب وهو ماش وكان داود إذا فر لم يدركه فر كض طالوت في أثره واشتد داود في الجري فدخل غارا فأوحى الله الى العنكبوت فنسجت عليه بيتا فلما انتهى طالوت الى الغار ونظر الى بناء العنكبوت قال : لو كان ههنا لحرق بيت العنكبوت فتركه ومضى فلما مضى خرج داود من الغار وانطلق الى الجبل مع المتعبدين فجعل يشهد فيه قطعن العلماء والعباد على طالوت في شأن داود . فجعل طالوت لا ينهاء أحد عن قتل داود إلا قتله فجعل يقتل العلماء فلم يكن يقدر في بني اسرائيل على عالم ويطلق قتله إلا قتله ولم يكن يخارب جيشا الا هزمه حتى أتى بامرأة تعلم الاسم الأعظم فأمره خبازه بقتلها فرحمها

الحباز وقال : لعلنا محتاج الى عالم فتركها ووضع الله في قلب طالوت التوبة فقدم على ما فعل وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس وكان كل ليلة يخرج الى القبور فيبكي وينادي أنشد الله عبدا يعلم لي توبة إلا أخبرني بها فلما كثر عليهم بكاءؤه ناداه مناد من القبور يا طالوت أما ترضى أنك قتلنا أحياء حتى تؤذينا أمواتا فازداد حزنا وبكاء فرحمه الحباز وقال له مالك أيها الملك . فقال هل تعلم لي في الأرض عالما أسأله هل لي من توبة فقال له الحباز أيها الملك هل تدري مامثلك قال لا ؟ قال مامثلك الا كمثل ملك نزل قرية عشاء فصاح الديك فتطير منه ، فقال لا تتركوا في هذه القرية ديكا إلا ذبحتموه ، فلما أراد أن ينام . قال لأصحابه اذا صاح الديك فأيقظونا حتى ندلج فقبل له وهل تركت ديكا يسمع صوته ، وأنت هل تركت عالما في الأرض ، فازداد حزنا وبكاء فلما رأى الحباز ذلك . قال أرايت ان دلتك على عالم لعلك تقتله قال لا فتوثق منه الحباز بالآيمان فأخبره أن المرأة العالمة عنده ، فقال له انطلق بنا اليها اسألها هل لي من توبة وكانت تعلم الاسم الأعظم وكان إنما يعلم هذا الاسم أهل بيت لها ففقت رجالهم وعلمت نساؤهم فلما بلغ طالوت الباب . قال له الحباز إنها ان رأتك فرغت منك ثم جعله خلفه ودخل عليها الحباز . فقال ألبست أعظم الناس عليك منة أنجيئك من القتل وأوثقتك عندي ؟ قالت بلى . قال ليأليك حاجة هذا طالوت يسأل هل له من توبة ؟ فلما سمعت يذكره غشي عليها من الفرق فلما أفاقتم قال لها إنه لا يريد قتلك ولكن يسألك هل من توبة ؟ قالت لا والله ماله من توبة ولكن هل تعلمون قبر شمويل عليه السلام ؟ قالوا نعم قالت فانطلقوا بنا الى قبره ، فلما وصلوا اليه صلت عنده ركعتين ثم انها نادى : يا صاحب القبر ، فخرج شمويل عليه السلام من القبر ينفض التراب عن رأسه ، فلما نظر الى الثلاثة المرأة والحباز والملك . فقال لهم أقامت القيامة ؟ قالوا لا ولكن هذا طالوت يسألك هل له من توبة ؟ فقال له شمويل ما فعلت يا طالوت بعدى ؟ قال لم أدع شيئا من الشر إلا فعلته ، وقد جئت أطلب التوبة . قال كم لك من ولد ؟ قال عشرة رجال قال ما أعلم لك من توبة إلا أن تتخلي من ملكك وتخرج أنت وولدك تجاهد في سبيل الله ، ثم تقدم ولدك حتى يقتلوا بين يديك ، ثم انك تقاتل حتى تقتل آخرهم ، ثم رجع شمويل عليه السلام الى القبر فسقط ميتا ورجع طالوت أحزن ما يكون وخاف أن لا يتابعه ولله فبكي حتى ذهب أشفار عينيه ونحل جسمه فدخل عليه أولاده ، فقال لهم أرايتم لودعتم الى النار أكنتم تنقذونني قالوا نعم ؟ تنقذك بما قدرنا عليه قال فانها النار ان لم تفعلوا ما أقول لكم ، قالوا فاعرض علينا مقاتلتك فذكرهم القصة ، فقالوا وإنا لمقتول بعدنا ؟ قال نعم قالوا لاخير لنا في الحياة بعدك قد طابت أنفسنا بالذي سألت فتجهز بأولاده الى الغزو وكانوا عشرة فقاتلوا بين يديه حتى قتلوا ثم شد بعدهم فقاتل حتى قتل فجاء قاتله الى داود يشره بقوله له قد قتل عدوك ، فقال داود ما كنت بالذي تحيا بعده فضرب عنقه .

مجلس في خلافة داود عليه السلام وما يتعلق بها

قال الله تعالى - يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض - الآية ، قالت العلماء بأخبار الأنبياء لما استشهد طالوت أتى بنو إسرائيل أي داود فأعطوه خزانة طالوت وملكوه على أنفسهم وذلك بعد قتل داود جالوت بسبع سنين ولم تجتمع بنو إسرائيل على ملك واحد بعد يوشع بن نون الا على داود عليه السلام فذلك قوله عز وجل - وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة - الآية

باب في ذكر نسبه

هو داود بن ايشا بن عوفيد بن يوعز بن سلمون بن يئحشون بن عمينوذب بن رم بن حصرون بن بارص بن يهوذا بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم أجمعين .

باب في ذكر صفته وحليته

أخبرني الحسن بن محمد الدينوري باسناده عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زرقه العينين يمن » وكان داود عليه السلام أزرق العينين أحمر الوجه دقيق الساقين سبط الشعر أبيض الجسم طويل اللحية فيها جمودة حسن الصوت والحلق ظاهر القلب تقيه .

باب في ذكر ما خص الله تعالى به نبيه داود عليه السلام من الفضل والكرامة حين أعطاه الله النبوة والملك

فنها أنه أنزل عليه الزبور بالعبرانية مائة وخمسون سورة ، في خمسين منها ذكر ما يكون من يختصر وأهل بابل . وفي خمسين منها ذكر ما يلقون من الروم من أهل يرون . وفي خمسين منها موعظة وحكمة ولم يكن فيها حلال ولا حرام . فذلك قوله تعالى - وآتيناه داود زبوراً - . ومنها الصوت الطيب والنعمة الطيبة اللذيذة والترجيع والألحان ولم يعط الله أحدا من خلقه مثل صوته وكان يقرأ الزبور بسبعين لحنا بحيث يعرق المحموم ويفيق النعسى عليه . وكان إذا قرأ الزبور برز إلى البرية فيقوم وتقوم معه علماء بني إسرائيل خلفه وتقوم الناس خلف العلماء وتقوم الجن خلف الناس وتقوم الشياطين خلف الجن وتدنو الوحوش والسباع ويؤخذ بأعناقها وتظله الطيور مضحية ويركد الماء الجاري ويسكن الريح وما صنعت الزامير والبرابط والصنوج الا على صوته . وذلك أن إبليس لعنه الله حسده واشتد عليه . فقال لعفاريته ألا ترون ما دهاكم ؟ فقالوا له مرنا بما شئت . فقال انه لا يصرف الناس عن داود إلا ما يضاده ويحاده في مثل حاله فهيثوا الزامير والعيدان والأوتار والملاهي على أجناس أصوات داود فسمعها سفهاء الناس فمالوا إليها فاغتروا بها ، ويقال إن داود عليه السلام كان إذا قرأ الزبور بعدما قارف الذنب لا يقف له الماء . ولا تصغي له الوحوش ولا البهائم ولا الطيور كما كانت

قبلها ونقصت نعمته ، فقال إلهي ما هذا ؟ فأوحى الله تعالى إليه ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية يا داود إن الخطيئة هي التي غيرت صوتك وحالك . فقال إلهي أوليس قد غفرتها لي ؟ قال بلى ، ولكن لمرتفعت الحالة التي بيني وبينك من الود والقرب فلن تدركها أبدا .

أخبرنا أبو سعيد بن أحمد بن حمدون عن وهب بن منبه . قال هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . « قال خفف الله على داود القرآن فكان يأمر بدوابه أن تسرج فكان يقرأ القرآن قبل أن تسرج دابته وكان لا يأكل إلا من عمل يده . قال الأستاذ الامام أراد بالقرآن الزبور .

وبالاسناد أخبرنا أبو بكر الجوزقي عن أبي موسى الأشعري قال . قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد أعطيت زممارا من مزامير آل داود . فقلت أما والله يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لجبرته لك تحيرا .

وأخبرنا أبو بكر قال أخبرنا أبو العباس بالاسناد عن البراء بن عازب قال « سمع النبي ﷺ صوت أبي موسى ، فقال كأن صوت هذا من صوت آل داود .

ومنها تسخير الجبال والطير له يسبحن معه إذا سبح كما قال تعالى — ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد — وقوله تعالى — إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق — ويقال إن داود عليه السلام كان إذا تحلل الجبال فسبح الله تعالى جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح ، ثم قال في نفسه ليلة من الليالي لأعبدن الله تعالى عبادة لم يعبد أحد بمثلا ، فصعد الجبل فلما كان جوف الليل داخلته وحشة ، فأوحى الله تعالى إلى الجبال أن آتني داود فاصطكت الجبال بالتسبيح والتقديس والتهليل ، فقال داود في نفسه كيف يسمع صوتي مع هذه الأصوات ، فهبط عليه جبريل عليه السلام وأخذ بعضده حتى انتهى به إلى البحر فوكزه برجله فانخرج له البحر فاتمى به إلى الأرض فوكزها برجله فانفجرت له الأرض فاتمى به إلى الحوت فوكزه برجله فاتمى به إلى الصخرة فوكز الصخرة برجله فانفلقت فخرج منها دودة تنش ، فقال له جبريل إن ربك يسمع نشيش هذه الدودة في هذا الموضع . قوله تعالى — يسبحن بالعشي والإشراق — قال المفسرون يعني صلاة الضحى وصلاة الأوابين بين العشاءين . قال ابن عباس ، وكان داود يفهم تسبيح الحجر والشجر والدر .

ومنها أنه أكرمه الله تعالى بالحكمة وفصل الخطاب فالحكمة هي الإصابة في الأمور ، وأما فصل الخطاب فاختلفوا فيه ، فقال ابن عباس يان الكلام وقال ابن مسعود والحسن المعنى علم الحكم والنظر في القضاء كان لا يتتبع في القضاء بين الناس . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هو البينة على من ادعى واليمين على من أنكر .

أخبرنا أبو عبد الله . قال سمعت زيادا يقول فصل الخطاب الذي أعطى داود عليه السلام . ما أخبرنا أبو حفص عن الأعمش عن أبي صالح عن كعب الأخبار في قوله وفصل الخطاب قال الشهود والأيمان . عن الشعبي قال سمعت زيادا يقول فصل الخطاب الذي أعطى داود أما بعد . قال الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى وهو أول من قالها .

ومنها السلسلة التي أعطاها الله تعالى له ليعرف الحق من البطل في المحاكمة إليه . وهو ما روى الضحاك عن ابن عباس قال إن الله تعالى أعطى داود سلسلة موصولة بالحجرة والفلك ورأسها عند محراب داود عليه السلام حيث يتحاكم الناس إليه وكانت قوتها قوة الحديد ولونها لون النار ، وحلقها مستديرة مفصلة بالجواهر ومندسة بقضبان اللؤلؤ الرطب فلا يحدث في السماء حاصل إلا صلبت السلسلة فيعلم داود ذلك الحادث ، ولا يمنها ذو عاهة إلا برا ، وكان علامة دخول قومه في الدين أن يمسوها بأيديهم ثم يمسحون بأكفهم على صدورهم وكانوا يتحاكمون إليها فمن اعتدى على صاحبه وأنكر ماله من حق آتى السلسلة فمن كان صادقا محقا مد يده إلى السلسلة فينالها ومن كان كاذبا ظلما لم ينلها فكانت فيهم إلى أن ظهر فيهم المكر والخديعة .

قال بلغنا أن بعض ملوكهم أودع رجلا جوهرة ثمينة فلما جاء يستردها أنكرها فتجاكما إلى الفلسفة فعلم الرجل الذي كانت عنده الجوهرة أن يده لا تنال السلسلة فعمد إلى عكازة له فنقرها ثم ضمنها الجوهرة واعتمد عليها حتى حضر معه غريمه عند السلسلة فقال لصاحب الجوهرة إن لي عندك وديعة فقال خصمه ما أعرف لك وديعة فان كنت صادقا فتناول السلسلة فتناولها بيده ، ثم قيل للنكر قم أنت أيضا فتناولها فقال لصاحب الجوهرة الزم أنت عكازتي هذه فاحفظها حتى أتناول السلسلة فأخذها وقام الرجل وقال اللهم إن كنت تعلم أن هذه الوديعة التي يدعيها قد وصلت إليه فقرب مني السلسلة فمد يده فتناولها فتعجب القوم وتفكروا فيها فأصبحوا وقد رفع الله تلك السلسلة وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اشتبه عليه الأمر بين الخصمين اللذين يتحاكما إليه يقول : ما أحوكما إلى سلسلة بني إسرائيل كانت تأخذ بعنق الظالم فتجره إلى الحق جرا .

ومنها القوة في العبادة وشدة الاجتهاد كما قال الله تعالى - وا ذكر عبدنا داود ذا الأيد - يعني القوة في العبادة إنه أواب أي تواب مسبح مطيع وكان يصوم يوما ويفطر يوما يصوم النهار ويقوم الليل وما مرت به ساعة من الليل إلا وفيها من آل داود قائم يصلي ولا يوم من الأيام إلا وفيه منهم صائم .

ومنها قوة الملكة كما قال الله تعالى - وشددنا ملكه - أي قويناه وقرأ الحسن وشددنا ملكه بالتشديد .

وقال ابن عباس : كان أشد ملوك الأرض سلطانا وكان يحرس محرابه كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألف رجل . وقال السدي كان يحرسه كل ليلة أربعة آلاف رجل .

أخبرنا عبد الله بن حامد عن عكرمة عن ابن عباس : أن رجلا من بني إسرائيل تعدى على رجل من عظمائهم فاجتمعا على داود عليه السلام . فقال للمتعدى إن هذا قد غصبنى بقرتي فسأل داود الرجل عن ذلك فجحد وسأل الآخر البينة فلم يكن له بينة . فقال لهما داود قوما حتى أنظر في أمركما فقاما من عنده فأوحى الله تعالى إليه في منامه أن يقتل الرجل الذي تعدى . فقال هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتبين فأوحى الله تعالى إليه مرة أخرى أن يقتله . فقال هذه رؤيا . فأوحى الله تعالى إليه مرة ثالثة أن يقتله . فأرسل داود إلى الرجل فقال له إن الله تعالى قد أوحى إلي أن أقتلك . فقال له الرجل تقتلني بغير ذنب ولا بينة . فقال داود نعم والله لأتقذن أمر الله فيك . فلما عرف الرجل أنه قاتله قال لا تعجل علي حتى أخبرك أني والله ما أخذت بهذا الذنب ولكني كنت اغتلت ولد هذا فقتلته فأمر به داود فقتل . فاشتدت هية بني إسرائيل عند ذلك لداود واشتد له ملكه فذلك قوله تعالى - وشددنا ملكه - ، ويقال كان داود إذا جلس للحكم كان على يمينه ألف رجل من الأنبياء ، وعلى يساره ألف رجل من الأجناد .

ومنها شدة البطش فيروى أنه مافر ولا انحاز من عدو له قط .

ومنها إلانة الحديد له وكان سبب ذلك ما روى في الأخبار أن داود عليه السلام لما ملك بني إسرائيل كان من عادته أن يخرج إلى الناس متسكرا فإذا رأى رجلا لا يعرفه تقدم إليه فيسأله عن داود فيقول له مات قول في داود واليك هذا أي الرجل هو فيثني عليه ويقول خير فيينا هو كذلك يوما من الأيام إذ قبض الله له ملكا في صورة الآدميين فلما رآه تقدم إليه داود على عادته فسأله فقال له الملك نعم الرجل هو لولا خصلة فيه فراع داود ذلك فقال ما هي يا عبد الله ؟ قال إن داود يأكل ويطعم عياله من بيت المال قال فتنبه لذلك وسأل الله تعالى أن يسبب له سببا يستغنى به عن بيت المال فينفق منه ويطعم عياله فالان له الحديد فصار في يده مثل الشمع والعجين والطين المبلول وكان يصرفه بيده كيف يشاء من غير إدخال نار ولا ضرب بحديد وعلمه الله تعالى صنعة الدروع فكان يتخذ الدروع وهو أول من عملها وكانت قبل ذلك صفائح فيقال إنه كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف درهم فأكل ويطعم عياله ويتصدق منها على الفقراء والمساكين فذلك قوله تعالى - وعلناه صنعة لبوس لكم - وقوله تعالى - وألنا له الحديد أن يعمل سبغات - أي دروعا كوامل واسعات - وقد روى السرد - أي لا تجعل المسامير دقاقا فتعلق ولا غلاظا فتكسر الحلق فكان يفعل ذلك حتى اعتد من ذلك مالا .

وروى أن لقمان الحكيم رأى داود عليه السلام وهو يعمل درعا فتعجب من ذلك ولم يدبر ما هو فأراد أن يسأله فسكت حتى فرغ داود من نسج الدرع فقام فلبسه وقال نعم التميمي هذا للرجل المحارب فعمل لقمان ما أراد به فقال : الصمت حكمة وقليل فاعله .

باب في قصة داود عليه السلام حين ابتلى بالخطيئة وما يتصل بذلك

قال الله تعالى - وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم -
الآيات .

اختلف العلماء بأخبار الأنبياء في سبب امتحان الله تعالى نبيه داود عليه السلام بما امتحنه الله به من الخطيئة. فقال قوم : كان سبب ذلك أنه غنى يوما من الأيام على ربه تعالى منزلة آباءه إبراهيم وإسحق ويعقوب وسأله أن يمتحنه بمثل الذي كان يمتحنهم ويعطيه من الفضل مثل الذي أعطاهم فرؤى السدي والكلبي ومقاتل عن أشياخهم دخل حديث بعضهم في بعض قالوا كان داود عليه السلام قد قسم الدهر ثلاثة أيام : يوما يقضى فيه بين الناس ، ويوما يخلو فيه بنفسه ، ويوما لعبادة ربه وقراءة الكتب ، وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام فيقول يا رب أرى الخير قد ذهب به آباءى الذين كانوا قبلى فأوحى الله تعالى إليه أنهم ابتلوا بلأيا لم يبتل بها أحد فصبروا عليها ، ابتلى إبراهيم عليه السلام بنار النمرود وبذبح ولده ، وابتلى إسحق بالذبح ، وابتلى يعقوب بالحزب وذهب بصره على يوسف وإنك لم تبتل بشيء من ذلك ، فقال داود عليه السلام يا رب فابتلى كما ابتليتهم وأعطنى كما أعطيتهم فأوحى الله تعالى إليه إنك مبتلى في شهر كذا في يوم كذا فاحترس على الصبر . فلما كان في اليوم الذي وعده الله دخل داود عرابه وأغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور ، فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان وتمثل له في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن فوقعت بين يديه فمد يده ليأخذها .

وفي بعض الروايات ليدفعها إلى ابن له صغير ، فلما أهوى إليها طارت غير بعيد من غير أن تؤسسه من نفسها فامتد إليها ليأخذها فتحت فتبعها فطارت فوقعت في كوة فذهب ليأخذها فطارت من الكوة فنظر داود أين تقع فبيث إليها من يصيدها فنظر إلى امرأة في بستان على شط بركة تغتسل هذا قول الكلبي . وقال السدي رآها تغتسل على سطح لها فرآها امرأة من أحسن النساء خلقا فعجب داود من حسنها وحانت منها التفاتة فأبصر ثم ظل داود عليه السلام فنشرت شعرها فغطى بدنها كلها فزاد بذلك إعجابا بها فسأل عنها فقيل له هي سابع بنت شائع امرأة أوريا بن حنان وزوجها في غزاة اللقاء مع أيوب بن سوريا بن أخت داود فكتب داود إلى ابن أخته أيوب صاحب بعث بقاء أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وكذا وقدمه على التابوت وكان المقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع إلى ورائه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد فبعث به ففتح له فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه داود أيضا أن ابعثه إلى غزوة كذا وكان رئيسها أشد منه بأسا فبعثه فقتل في المرة الثانية ، فلما انقضت عدتها تزوجها داود فهي أم سليمان عليه السلام .

وقال آخرون . إنما سبب امتحانه أن نفسه حدثته أنه يطيق قطع يوم بغير مفارقة سيئة

وعن الحسن أخبرنا شعيب بن محمد قال ان داود عليه السلام جزأ الدهر أربعة أجزاء يوماً لنسائه ويوما لعبادة ربه ويوما لقضاء حوائج المسلمين ويوما لبني اسرائيل يذاكرهم ويذاكرونه يسألهم ويسألونه . فلما كان يوم بني اسرائيل ذكروا : فقالوا هل يأتي على الانسان يوم لا يصيب فيه ذنبا فأضمر داود في نفسه أنه سيطيق ذلك فلما كان يوم عبادة ربه غلق أبوابه وأمر أن لا يدخل عليه أحد وانكب على التوراة فينما هو يقرأ إذ هو بحمامة من ذهب فيها كل شيء حسن قد وقفت بين يديه فأهوى اليها ليأخذها فطارت فوقعت غير بعيد من غير أن تؤسه من نفسها فما زال يتبعها حتى أشرف على امرأة تغتسل فأعجبه خلقها وحسنها فلما رأت ظله في الأرض جللت جسدها بشعرها فزاده ذلك إعجابا بها وكان قد بعث زوجها في بعض جيوشه فكتب اليه أن سر إلى مكان كذا وكذا مكانا إذا وصل اليه قتل ولم يرجع ففعل فأصيب فخطبها داود وتزوجها وقال بعضهم في سبب ذلك كما أخبرنا قتادة عن الحسن بن محمد إن داود عليه السلام قال لبني اسرائيل حين ملك والله لأعدن فيكم ولم يستثن فابتلى .

وقال أبو بكر بن محمد بن عمر الوراق : كان سبب ذلك أن داود عليه السلام كان كثير العبادة فأعجب بعمله فقال هل في الأرض أحد يعمل عملي فأتاه جبريل عليه السلام فقال ان الله تعالى يقول : أعجبت بعبادتك والعجب يأكل العبادة فان أعجبت ثانيا وكتكتك إلى نفسك فقال داود يارب كلني إلى نفسي سنة فقال انها لكثير قال فشهرا قال فانه لكثير قال فأسبوعا فقال انه لكثير قال فيوما قال انه لكثير قال فساعة قال فشأنك بها قال فوكل الحراس ولبس الصوف ودخل المحراب ووضع الزبور بين يديه فينما هو في نسكه وعبادته إذ وقع الطائر بين يديه وكان من أمر المرأة ما كان قالوا فلما دخل داود بامرأة أوريثه لم يلبث إلا يسيرا حتى بعث الله تعالى ملكين في صورة رجلين فطلبا أن يدخلوا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحراس أن يدخلوا عليه فقتلوا المحراب وهو يصلي فما شعر إلا وهما بين يديه جالسان فذلك قوله تعالى — وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم — حين هجما عليه في محرابه بغير اذنه — قالوا لا تخف خصمان بنى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط — أي ولا تجر ولا تفرط — واهدنا إلى سواء الصراط — ارشدنا إلى وسط الطريق المستقيم — ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة — وهذا من أحسن التعريض حيث كنى بالنعاج عن النساء والعرب تفعل ذلك كثيرا تورى عن النساء وتكنى عنها بألقاب كالظباء والنعاج والبقر وهو كثير فاش في أشعارهم فقال أ كفلنيها وعزني في الخطاب قال الضحاك أعطينها وتحول لي عنها واجعلها كفلى أي نصيبي وعزني في الخطاب قال الضحاك يقول ان تكلم كان أفصح مني وان حارب كان أبطش مني فقال داود — لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه — .

قال السدي باسناده : ان أحدهما لما قال ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة قال داود للآخر

ما تقول قال ان لى تسعا وتسعين نعمة وله نعمة واحدة فأريد أن آخذها منه وأكل نعاजी مائة قال وهو كاره قال نعم ؟ قال إذا لاندعك وان رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا يعنى طرف الأنف وأصل الجهة فقال الرجل ياداوود أنت أحق بضرب هذا منى حيث كان لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأورياء الا امرأة واحدة فلم تعرضه للقتال حتى قتل وتزوجت امرأته فهذا وجه الآية ، الا أن داود حكم قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر . قالوا ثم ان داود نظر فلم ير أحدا فعرف ما قد وقع فيه فذلك قوله تعالى - وظن داود أنما فتناه - أى ابتليناه . وقال سعيد بن جبیر : إنما كانت فتنة داود بالنظر .

قال الأستاذ رحمه الله تعالى ولم يعتمد داود عليه السلام النظر الى المرأة ولكنه أعاد النظر إليها فصارت عليه وبالا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تتبع النظرة النظرة فان لك الأولى وعليك الأخيرة » فهذه أقاويل السلف الصالحين من أهل التفسير فى قصة داود عليه السلام . وقد روى الحارث الأعور عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص معتقدا صحته جلده حدين لعظيم ما ارتكب وجليل ما احتجب يعنى ما اكتسب من الوزر والآنم يرمى من قدر رفع الله محله وأرسله من خلقه رحمة للعالمين وحجة للمجتهدين .

وقال القائلون بتنزيه المرسلين : فى هذه القصة أن لا ذنب انما كان تمنى أن تكون له امرأة أورياء حلالا وحدث نفسه بذلك فاتفق له غزوة فأرسل أورياء فقدمه أمام الحرب فاستشهد فلما بلغه قتله لم يجزع عليه ولم يتوجع له كما كان يجزع على غيره من جنده اذا هلك ووافق قتله مراده . ثم تزوج امرأته فعاتبه الله على ذلك لأن ذنوب الأنبياء وان صغرت فهى عظيمة عند الله . وقال بعضهم : كان ذنب داود أن أورياء كان قد خطب تلك المرأة ووطن نفسه عليها . فلما غاب فى غزاته خطبها داود فتزوجت منه لجلالته ، فاعتم لذلك أورياء غما شديدا فعاتبه الله على ذلك حيث لم يترك هذه الواحد لخطبها الأول ، وقد كان عنده تسع وتسعون امرأة ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يبيع أحدكم على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه » ومما يصدق ما ذكرناه ما قيل عن المفسرين المتقدمين مما أخبرنا به عقيل بن محمد الفقيه المغافرى عن زكريا عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن داود عليه السلام حين نظر الى المرأة قطع على بنى إسرائيل بعثا وأوصى صاحب البلقاء اذا حضر العدو فقدم فلانا بين يدى التابوت وكان التابوت فى ذلك الزمان يستنصر به ومن قدم بين يديه لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم الجيش عنه فقتل زوج المرأة ونزل الملك ليقصا عليه قصته ففطن داود وسجد فمكث أربعين ليلة ساجدا يبكى حتى نبت الزرع من دموعه حول رأسه وأكلت الأرض جبينه وهو يقول فى سجوده زل داود زلة هى أبعد مما بين المشرق والمغرب رب ان لم ترحم ضعف داود وتغفر له ذنبه جعلت

ذنبه حديثا في الخلائق من بعده ، فجاء جبريل عليه السلام بعد أربعين ليلة فقال يا داود ان الله تعالى قد غفر لك اللهم الذي هممت به ، فقال داود قد علمت ان الله قادر على أن يغفر اللهم الذي هممت به وقد عرفت أن الله عدل لا يحيف فكيف بفلان يعني أورياء إذا جاء يوم القيامة فقال يارب دمي الذي عند داود قال جبريل ما سألت ربك عن ذلك ولئن شئت لأفعلن قال نعم ؟ فرجع جبريل عليه السلام وسجد داود فكث ما شاء الله ثم نزل ، فقال قد سألت الله يا داود عن الذي أرسلتني فيه ، فقال الله تعالى قل لداود ان الله يجمعكم يوم القيامة فيقول له هب لي دمك الذي عند داود فيقول هولك يارب فأقول ان لك في الجنة ما شئت وما اشتيت عوضا عن دمك .

أخبرنا ابن فتحويه بإسناده عن كعب الأحبار وعن وهب بن منبه ، قالوا جميعا ان داود عليه السلام لما دخل عليه الملكان وقضى على نفسه تحولا في صورتها فعرجا وهما يقولان قضى الرجل على نفسه وعلم داود أنما فتناه فخر ساجدا أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا الحاجة لا بد منها أو صلاة مكتوبة ثم يعود فيسجد تمام أربعين يوما لا يأكل ولا يشرب وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه وهو ينادي ربه تعالى ويسأله التوبة وكان يقول في سجوده سبحان الملك الأعظم الذي يتلى الخلائق بما يشاء ، سبحان خالق النور ، سبحان الحائل بين القلوب إلهي خلقت بيني وبين عدوي إبليس فلم أتنبه لفتنته إذ زل بي قدمي ، سبحان خالق النور إلهي تبكي الشكلى على ولدها إذا فقدته ويكي داود على خطيئته ، سبحان خالق النور يغسل الثوب فيذهب درنه ووسخه والخطيئة لازمة لي لا تذهب عني . سبحان خالق النور إلهي لم أتعظ بما وعظت به غيري سبحان خالق النور إلهي أمرتني أن أكون لليتيم كالأب الرحيم وللأرملة كالزوج العطوف فنسيت عهدك . سبحان خالق النور إلهي خلقتني وفي سابق علمك كان ما أنا صائر اليه . سبحان خالق النور إلهي الويل لداود اذا كشف عنه الغطاء فيقال هذا داود الخاطي . سبحان خالق النور إلهي بأي عين أنظر اليك يوم القيامة ، وإنما ينظر الظالمون من طرف خفي . سبحان خالق النور إلهي بأي قدم أقوم أمامك يوم تزل أقدام الخاطئين يوم القيامة من سوء الحساب ، سبحان خالق النور إلهي مضت النجوم وكنت أعرفها بأسمائها فتؤنسني فتركتني والخطيئة لازمة لي . سبحان خالق النور إلهي أمطرت السماء ولم تمطر حولي وأعشبت الأرض ولم تعشب حولي بخطيئتي . سبحان خالق النور إلهي أنا الذي لا أطيق حر شمسك فكيف أطيق حر نارك . سبحان خالق النور إلهي أنا الذي لا أطيق صوت وعدك فكيف أطيق صوت جهنم . سبحان خالق النور إلهي كنت تستر الخاطئين بخطاياهم وأنت شاهد حيث كانوا . سبحان خالق النور إلهي رق القلب وجمدت العينان من مخافة الحريق على جسدي . سبحان خالق النور إلهي الطير تسبح لك وأنا العبد الخاطي الضعيف الذي لم أراع وصيتك ، سبحان خالق النور إلهي الويل لداود من الذنب العظيم الذي أصاب ولا علم له بذلك . سبحان خالق النور إلهي أنا المستغيث وأنت المغيث فمن يدعو المستغيث إلا المغيث . سبحان خالق النور إلهي أسألك بأبي إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب أن تعطيني مؤلى ، سبحان خالق النور اللهم برحمتك اغفر لي ذنوبي ولا تباعدني من رحمتك

لهواني فانك أرحم الراحمين . سبحان خالق النور إلهي اني أعوذ بك من دعوة لا تستجاب وصلاة لا تقبل وذنب لا يغفر وعذاب لا يفتقر ، سبحان خالق النور إلهي اني أعوذ بك وبنور وجهك الكريم من ذنوبي التي أوبقتني ، سبحان خالق النور إلهي فررت اليك من ذنوبي واعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين ولا تحزنني يوم يبعثون . سبحان خالق النور إلهي فرغ الحنين وفرغت الدموع وتناثر الدود من ركبتي وخطيئتي ألزم لي من جلدي . سبحان خالق النور . قالوا فاتاه النداء أجائع أنت فتطمع أو ظمان أنت فتسقي أو مظلوم أنت فتتصر ولم يجبه في ذكر خطيئته بشيء ، فصاح صيحة فهاج منها ما حوله ثم نادى يارب الله رب الذي أصبته فنودي ياداوود ارفع رأسك فقد غفرت لك فلم يرفع رأسه حتى أتاه جبريل عليه السلام فرفعه . قال وهب بن منبه ان داود عليه السلام أتاه نداء اني قد غفرت لك فقال يارب كيف وأنت لا تظلم أحدا فقال اذهب الى قبر أورياء فناداه وأنا أسمع نداءك فتحلل منه قال فانطلق داود عليه السلام حتى أتى قبره وقد لبس المسوح فجلس عند قبره ثم ناداه يا أورياء فقال ليك من هذا الذي قطع عليّ لدتي وأيقظني . قال أنا داود قال ما جاء بك يا بني الله قال جئت آتحملا مما كان مني اليك . قال وما كان منك اليّ قال عرضتك للقتل قال عرضتني للجنة وأنت في حلّ ، فأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ألم تعلم اني حكم عدل لا أقضي الا بالحق ألا أعلمته أنك تزوجت امرأتك ، قال فانطلق داود اليه فناداه يا أورياء فأجابه فقال من هذا الذي قطع عليّ لدتي ؟ قال أنا داود . قال يا بني الله ما حاجتك أليس قد عفوت عنك قال نعم لكن أنا ما فعلت بك ذلك الا لمكان امرأتك واني قد تزوجتها . قال فسكت أورياء ولم يجبه فدعاه فلم يجبه فقام عند قبره وحثا التراب على رأسه ثم نادى الويل ثم الويل لداود سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل لداود سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل له اذا نصبت الموازين القسط ليوم القيامة . سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الدائم له حين يؤخذ برقبته ثم يدفع الى المظلوم . سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يسحب على وجهه مع الخاطئين الى النار . سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل له حين تقربه الزبانية مع الظالمين الى النار . سبحان خالق النور قال فاتاه النداء من السماء ياداوود قد غفرت لك ذنبك ورحمتك ورثيت لطول مكانك واستجبت دعاءك وأقلت عثرتك . قال يارب كيف لي أن تعفو عني وصاحبي لم يعف عني قال ياداوود وان يعف أو لم يعف فأنا أعطيه يوم القيامة ما لم ترعينا ولم تسمع أذناه فأقول له قدر ضيت عبيد فيقول يارب من أين هذا ولم يبلغه عملي ؟ فأقول هذا عوض من أجل عبيد داود فأستوهبك منه فيهبك لي ، فقال داود يارب الآن قد عرفت أنك قد غفرت لي فذلك قوله عز وجل - فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب - وروى أبو معشر عن محمد بن كعب ومحمد بن قيس قال في قوله تعالى - وان له عندنا لزلفى وحسن مآب - ان أول من يشرب الكأس يوم القيامة داود عليه السلام .

أخبرنا أبو الحسن بن محمد حدثنا عليّ أخبرنا بكر بن أحمد بن معقل أخبرنا عمر بن محمد الشرقي

قال النصر الكعبى قال حدثنا أبو سعيد عبد الله المزنى قال حدثنا محمد بن المنكدر عن محمد بن عبد الرحمن بن عوف حدثني أبو سعيد الحدرى قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله إني رأيت الليلة في منامى كأنى تحت شجرة والشجرة تقرأ سورة ص ، فلما بلغت الشجرة الى السجدة سجدت فسمعتها تقول في سجودها : اللهم اكتب لى بها أجرا واحطط عني بها وزرا وارزقنى بها شكرا وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود عليه السلام ، فقال له رسول الله ﷺ : أفسجدت أنت يا أباسعيد ؟ قال قلت لا يا رسول الله فقال أنت أحق بالسجدة من الشجرة ، ثم قرأ رسول الله ﷺ حتى بلغ السجدة فسجد ثم قال مثل قول الشجرة .

قال وهب بن منبه : ان داود عليه السلام لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة لا ترقأ له دعة ليلا ولا نهارا وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة وقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أقسام يعنى أربعة أيام فجعل يوما للقضاء بين الناس ويوما لنسائه ويوما يسبح في الفيافى والجبال والتقفار والسواحل ويوما يخلو في داره وفيها أربعة آلاف محراب ، فيجتمع اليه الرهبان فينوح بعضهم على بعض ويساعدونه على ذلك ، فاذا كان يوم سياحته يخرج الى الفيافى ويرفع صوته كالزمير ويبكى فيبكي معه الشجر والمدر والطير والوحش حتى يسيل من دموعه مثل الأنهار ، ثم يجىء الى الجبال ويرفع صوته كالزمير فيبكى وتبكي معه الجبال والحجارة والدواب والطير حتى تسيل الأودية من بكائهم ثم يجىء الى الساحل ويرفع صوته كالزمير فيبكى وتبكى معه الحيتان ودواب البحر والطير والماء والسباع فاذا أمسى رجع ، فاذا كان يوم نوحه على نفسه نادى مناديه ان اليوم يوم نوح داود على نفسه فليحضر من يساعده . قال فيدخل الدار التي فيها المحاريب فيسقط له ثلاث فرش من مسوح حشوها الليف ليجلس عليها وتجيء الرهبان أربعة آلاف راهب عليهم البرانس وعليهم المسوح وفي أيديهم العصي ، ثم يجلسون في تلك المحاريب ثم يرفع صوته بالبكاء والنوح ويرفع الرهبان معه أصواتهم ، فلا يزال يبكي حتى يغرق الفرش من دموعه ويقع داود فيها مثل الفرخ يضطرب فيجىء ابنه سليمان عليه السلام فيحمله فيأخذ داود من تلك الدموع بكفه ثم يمسح بها وجهه ويقول يارب اغفر لى ماترى فلو عدل بكاء داود ودموعه يبكاء أهل الأرض ودموعهم لعدلها .

أخبرنا ابن فتحويه عن عثمان بن أبي عاتكة أنه قال : كان من دعاء داود عليه السلام سبحانه إلهى إذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الأرض برحبها وإذا ذكرت رحمتك ارتدت الى روحى ، إلهى أتيت أطباء عبادك ليداوونى فكلمهم عليك دلونى ، وقال صلى الله عليه وسلم « خذ الدمع في وجه داود مثل خذ الماء في الأرض » أخبرنا ابن فتحويه عن الحسن بن عبد الله القرشى قال لما أصاب داود الخطيئة فزع إلى العبادة فأتى راهبا في قلة جبل فناداه بصوت عال فلم يجبه فلما أكثر عليه الصوت قال الراهب من هذا الذى يتادبنى ؟ قال أنا داود نبي الله . قال صاحب القصور الحسنة الحصينة والخيول المسومة والنساء والشهوات لأن نلت الجنة بهذا لأنت أنت . قال

داود فمن أنت ؟ قال أنا راهب راغب منزو مترقب . قال فمن أنيسك ومن جليستك ؟ قال اصعد تراه ان كنت تريد ذلك . قال فتخلل دواد الجبل ورقى إلى القلة فاذا هو بميت مسجى ، فقال له هذا أنيسك هذا جليستك ؟ قال نعم قال وما هذا ؟ قال تلك قصته مكتوبة في لوح من نحاس عند رأسه فقرأ دواد الكتاب فاذا فيه أنا فلان بن فلان ملك الملوك عشت ألف عام وبنيت ألف قصر وألف مدينة وهزمت ألف عسكر وتزوجت ألف امرأة واقتضضت ألف بكر ، فبينما أنا في ملكي إذ أتاني ملك الموت فأخذني وأخرجني مما كنت فيه فهذا التراب فراشي والدود جيرانى . قال فخر دواد عليه السلام مخشياً عليه .

وعن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان الناس يعودون داود عليه السلام فيظنون أنه مريض وما به الا الحياء والخوف من الله تعالى » قال وهب بن منبه : لما تاب الله على داود كان يبدأ إذا دعا فيستغفر للخطئين قبل نفسه فيقول : اللهم اغفر للخطئين فعساك أن تغفر لدواد معهم .

وعن قتادة عن الحسن قال : كان داود بعد الخطيئة لا يجالس الا الخطئين ثم يقول تعالوا إلى داود الخطي . ولا يشرب شرابا الا هو ممزوج بدموع عينيه ، وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قصعته ولا يزال يبكي حتى يبتل بدموعه وكان يذر عليه الملح والرماد فيأكل ويقول هذا أكل الخطئين . قال وكان داود عليه السلام قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر ، فلما كان من خطيئته ما كان صام الدهر كله وقام الليل كله .

وقال وهب : ان داود عليه السلام لما تاب الله عليه قال يارب أغفرت لى ؟ قال نعم . قال فكيف لى أن لا أنسى خطيئتي فأستغفر منها لى وللخطئين إلى يوم القيامة . قال فوسم الله خطيئته في يده اليمنى فمارفع بها طعاما ولا شرابا الا بكى إذا رآها وما قام خطييا في الناس الا بسط راحته فاستقبل الناس ليروا وسم الخطيئة .

وأخبرنا عبد الله بن حامد عن ثابت قال : كان دواد عليه السلام إذا ذكر عقاب الله تعالى تخلعت أوصاله ولا يشدها الا الأنين فاذا ذكر رحمة الله تعالى تراجعت .

وعن أبي عبد الله البجلي قال : ما رفع داود بعد الخطيئة رأسه إلى السماء قط حتى مات ، وصلى الله على نبينا محمد وعليه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

باب في ذكر خروج ابن داود على أبيه وما كان من أمرها

قال وهب وغيره من أهل الكتب : ان داود عليه السلام لم يزل قائما بالملك بعد طالوت إلى أن كان من أمره وأمر امرأة أوريا ما كان ، فلما واقع الخطيئة واشتغل بالتوبة منها استخفت به بنو اسرائيل واستضعفوه واجتمع أهل الزينخ من بني اسرائيل وذهبوا إلى ابن لداود من ابنة طالوت يقال له شالون وقيل ايشا وقالوا له قد كبر أبوك واشتغل بخطيئته وتوبته وضاعت

حقوق الناس وضعف أمر الملك ، فلم يزالوا به حتى بايعوه وخلعوا داود وعبدوا عنه ودعا هذا الابن إلى نفسه ، فلما رأى ذلك دواود خرج من بين أظهرهم مع ابن أخ له يقال له ثواب وتوغل في الجبال ، فأشار قومه على ابنه أن يقتل أباه ، فلما بلغ ذلك داود أرسل إليه رفيقه وقال له قل له هل سمعت بابن قتل أباه ؟ فقال له الابن وهل سمعت أنت بنبي أذنب فلم تقبل توبته ؟ فقال له الرسول ان كان الله تعالى قد أذن لك في هلاكه فلا تبشره أنت فانه لا يحمل في الآخرة حدوته منك ، فقبل منه ذلك فكف عن قتل أبيه داود وبقي ابنه ملكا سنتين ، فلما تاب الله على داود صارت الناس تأتيه فحارب ابنه فهزمه ووجه في طلبه قائدا من قواده وأوصاه أن يتوقى حتفه ويتلطف في أسره فطلبه القائد وهو منهزم فاضطره إلى شجرة فربض بها وكان الغلام ذاجمة فتعلق غصن من أغصانها بشعره فحبسه ولحقه القائد فقتله مخالفا لأمر داود عليه السلام ، فحزن عليه داود حزنا شديدا وتنكر للقائد وكان له بأس شديد في ملاقاته العدو فكره داود أن يقتله فتركه لأجل مجاهدة العدو ، فلما حضر داود الموت أوصى ولده سليمان عليهما السلام بقتل القائد فقتله حين فرغ من دفن أبيه ، وكانت مدة داود من يوم خرج من ملكه وانقطع عنه الوحي إلى أن قبل الله توبته ورد عليه ملكه ورجع إلى قومه سنتين .

باب في قصة أصحاب السبت

قال الله تعالى - واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت - الآية . قال ابن عباس ووهب بن منبه : ان قوما من بني اسرائيل سكنوا قرية على شاطئ البحر بين مصر ومدين يقال لها ايلة حرم الله عليهم صيد الحيتان وسائر العمل يوم السبت ، وأمرهم أن يفرغوا لعبادته ذلك اليوم وذلك في زمان داود عليه السلام ، فكان إذا خلا يوم السبت لم يبق حوت في البحر إلا اجتمع هناك ويخرجون من الماء خراطيمهم حتى لا يرى الماء من كثرتهم ، حتى إذا مضى السبت تفرقوا ولزموا مقر البحر لا يرى منهم الا القليل ، فذلك قوله تعالى - إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبثون لا تأتيهم كذلك نبأهم - الآية .

سمعت أبا القاسم . قال سمعت أبي يقول سئل الحسن بن الفضيل هل تجوز في كتاب الله الحلال لا يأتيك الا قوتا والحرام يأتيك جزافا . قال نعم في قصة داود عليه السلام وأهل أيلة إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبثون لا تأتيهم ، قال فعمد رجال منهم فحفروا الخياض حول البحر وشرعوا إليها من الأنهار فاذا كانت عشية الجمعة فتحو تلك الأنهار فيقبل الموج بالحيتان إلى الخياض فلا تطيق الخروج منها لبعدها وعمقها وقلة الماء فاذا كان يوم الأحد أخذوها ، وقيل انهم كانوا ينصبون الحبال والشخوص يوم الجمعة ويخرجونها يوم الأحد ، قال وكانت الحيتان تأتيهم

يوم السبت كثيرا وفي غير يوم السبت لا يأتهم حوت واحد ، فأخذ رجل منهم حوتا وربط في ذنبه خيطا ثم ربطه إلى خشبة في الساحل ثم تركه في الماء إلى يوم الأحد فأخذه فشواه فوجد جاره له ربح الحوت فقال له يافلان انى أجد في بيتك ربح الحوت فأنكره فاطلع الجار في تنوره فاذا هو في بيته فقال له انى أرى الله سيعذبك ، فلما رأى العذاب لم يأخذه أخذ في السبت الآخر حوتين ، فلما رأوا العذاب لا ينزل عليهم أخذوا وملحوا وأكلوا وباعوا فأثروا وكثرت أموالهم ولم تنزل عليهم عقوبة فقسست قلوبهم وتجبروا وتجرءوا على الذنب وقالوا ما نرى السبت الا قد أحل لنا وانما حرم ذلك على آبائنا لأنهم قتلوا أنبياءهم ، فلما فعلوا ذلك صار أهل تلك القرية وكانوا نحو من سبعين ألفا ثلاثة أصناف . صنف أمسك ونهى وصنف أمسك ولم ينه ، وصنف انتهكوا الحرمه ، فكان الذين نهوا اثني عشر ألفا ، فلما أبى المجرمون قبول النصيحة قال الناهون والمسكون والله لنخرجن من القرية ولا نساكنكم في قرية واحدة ثم قسموا القرية بينهم بحدار ومكثوا على ذلك سنين ، فلعنهم الله على لسان داود عليه السلام وغضب عليهم لاصرارهم على المعصية فخرج الناهون ذات يوم من بابهم والمجرمون لم يفتحوا بابهم ولا خرج منهم أحد ، فلما أبطثوا تسوروا عليهم الحائط فاذا هم جميعهم قد مسخوا قردة فذلك قوله تعالى - فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين يهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس - أى شديد - بما كانوا يفسقون فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاستين - أى صاغرين نظيره قوله تعالى - لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود - يعنى عصاة أهل أيلة - وعيسى ابن مريم - يعنى كفار أصحاب المائدة - ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون - قالوا فلما دخلوا عليهم ورأوا أنهم قد مسخوا عرفت القردة أنسباءهم من الانس ولم تعرف الانس أنسباءهم من القردة فجعل القرديأتى نسيبه من الانس فيشم ثيابه ويكي ، فيقول له الرجل ألم تهكم فيقول القردي برأسه نعم . قال فتادة صارت الشباب قردة والشيخوخ خنازير فما نجا الا الذين نهوا وهلك سائرهم ، ثم خرج المسوخون من المدينة وهاموا على وجوههم متحيرين ومكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا وكذلك لم يبق قوم مسخوا أكثر من ثلاثة أيام ولم يتوالدوا ولم يتناسلوا ، ثم بعث الله عليهم ريحا ومطرا قذفهم في البحر ، فاذا كان يوم القيامة أعادهم الله تعالى إلى صورهم البشرية فدخلهم النار .

وروى أبو نصر عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة بعذاب من السماء بعد ما أنزل الله التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية التى كانت حاضرة البحر الذين مسخوا قردة ، ألم تسمع قول الله تعالى - ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى - الآية .

باب في قصة داود وسليمان عليهما السلام في الحرث

قال الله تعالى - وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وصكنا لحكمهم شاهدين

قال ابن عباس وقتادة : كان الحرث زرعاً ، وقال ابن مسعود وشريح : كان الحرث كرماً قد تدلت عناقيده إذ نفشت فيه غنم القوم رعته ليلاً فأفسدته ، والنفس بالليل والهمل بالنهار وهما جميعاً الرعى بلا راع وكنا لحكمهم شاهدين لا يخفى علينا منه شيء . قال ابن عباس وقتادة : إن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب غنم والآخر صاحب حرث ، فقال صاحب الزرع إن هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقعت في حرثي فلم تبق منه شيئاً . قال له داود اذهب فإن الغنم لك فأعطاه رقاب الغنم بالحرث ، فمرا على سليمان فقال لهما ، كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه فقال سليمان لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا فأخبراً بذلك داود فدعاه فقال : له كيف كنت تصنع في القضاء بينهما ؟ قال كنت أدفع الغنم إلى صاحب الحرث سنة فيكون له نسلها وصوفها ومنافعها ويئذ صاحب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم فإذا كان العام المقبل وصار الحرث كهيته يوم أكل فيدفع إلى أهله ويأخذ صاحب الغنم غنمه .

وقال ابن مسعود وشريح : إن راعياً نزل ذات ليلة بجنب كرم فدخلت الأغنام الكرم وهو لا يشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم ، فسار صاحب الكرم من الغد إلى داود فقضى بالأغنام لصاحب الكرم لأنه لم يكن بين ثمن الأغنام وثمر الكرم تفاوت . قال فمراً بسليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة ، فقال لهما ما قضى بينكما داود فقضا عليه القصة فقال سليمان غير هذا أرفق بالفريقين فعادا إلى داود فأخبراه بذلك : فدعا سليمان وقال له بحق النبوة والأبوة إلا ما أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين ، فقال سليمان تسلم الأغنام إلى صاحب الكرم لينتفع بنسلها وصوفها ومنافعها ويعمل الراعي في إصلاح الكرم إلى أن يعود كهيته ثم يتسلمه صاحبه وترد الأغنام إلى صاحبها ، فقال داود القضاء ما قضيت وحكم بذلك قوله تعالى - ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً - قال الحسن كان الحكم ما قضى به سليمان ولم يعنف الله داود في حكمه . قال الأستاذ وهذا يدل على أن كل مجتهد مصيب .

باب في قصة استخلاف داود ابنه سليمان عليهما السلام وذكر بدء أمر الخاتم

قال أبو هريرة رضى الله عنه : أنزل الله تعالى كتاباً من السماء على داود عليه السلام محتوماً بنحاتم من ذهب فيه ثلاث عشرة مسألة . فأوحى الله تعالى إليه أن سل عنها ابنك سليمان فإن هو أخرجها فهو الخليفة من بعدك . قال فدعا داود عليه السلام سبعين قساً وسبعين حبراً وأجلس سليمان بين أيديهم وقال : يا بني إن الله تعالى أنزل على كتاباً من السماء فيه مسائل ، وأمرني أن

أسألك عنها فان أخرجتها فأنت الخليفة من بعدى ، فقال ، سليمان : ليسأل نبي الله عما بداله وماتوفيقى إلا بالله . قال داود يا بنى ما أقرب الأشياء وما أبعداها ؟ وما آتس الأشياء وما أوحشها ؟ وما أحسن الأشياء وما أقبحها ؟ وما أقل الأشياء وما أكثرها ؟ وما القائمات وما الساعيات ؟ وما المشتركات وما المتباغضات ؟ وما الأمر الذى إذا ركبته الرجل حمد آخره ؟ وما الأمر الذى إذا ركبته الرجل ذم آخره فقال سليمان عليه السلام : أما أقرب الأشياء فالآخرة ، وأما أبعد الأشياء فما فاتك من الدنيا ، وأما آتس الأشياء فمجسد فيه روح ، وأما أوحش الأشياء فمجسد لاروح فيه ، وأما أحسن الأشياء فالإيمان بعد الكفر ، وأما أقبح الأشياء فالكفر بعد الإيمان ، وأما أقل الأشياء فاليقين ، وأما أكثر الأشياء فالشك ، وأما القائمات فالسما والأرض ، وأما الساعيات فالشمس والقمر ، وأما المشتركات فالليل والنهار ، وأما المتباغضات فالموت والحياة ، وأما الأمر الذى إذا ركبته الرجل حمد آخره فالعلم عند الغضب ، وأما الأمر الذى إذا ركبته الرجل ذم آخره فالحدة عند الغضب . قال ففكروا الخاتم فاذا جواب المسائل سواء على ما نزل من السماء ، فقال القسيسون والرهبان لانرضى حتى نسأله عن مسألة فان أخرجها فهو الخليفة من بعدك ، فقال سليمان عليه السلام : سلونى وماتوفيقى إلا بالله ، فقالوا له ما الشئ الذى إذا صلح صلح كل شئ من الانسان وإذا فسد فسد كل شئ من الانسان ؟ فقال هو القلب ، فقام داود فصعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : إن الله تعالى أمرنى أن أستخلف عليكم سليمان قال فضجت بنو اسرائيل وقالوا غلام حدث يستخلف علينا وفيما من هو أفضل منه وأعلم ، فبلغ ذلك داود عليه السلام فدعا رؤساء أسباط بنى اسرائيل وقال لهم . إنه قد بلغنى مقاتلكم فأرونى عصيكم فأى عصا أثمرت فان صاحبها ولى هذا الأمر بعدى ، قالوا قد رضينا فجاءوا بعصيم فقال لهم داود ليكتب كل رجل منكم اسمه على عصاه فكتبوا ، ثم جاء سليمان بعصاه فكتب عليها اسمه ثم أدخلت بيتا وأغلق عليها الباب وسد بالأقفال وحرسه رؤوس أسباط بنى اسرائيل ، فلما أصبح صلى بهم الغداة ثم أقبل ففتح الباب فأخرج عصيم كما هى وأما عصا سليمان فقد أورقت وأثمرت : قالوا فسلموا الأمر فى ذلك لداود عليه السلام ، فلما رأى ذلك داود حمد الله وحمل سليمان خلفه ثم سار به فى بنى اسرائيل فقال إن هذا خلقتى عليكم من بعدى .

قال وهب بن منبه لما استخلف داود ابنه سليمان عليهما السلام وعظه فقال : يا بنى إياك والهزل فان نفعه قليل ويهيج العداوة بين الاخوان وإياك والغضب فان الغضب يستخف بصاحبه وعليك بتقوى الله وطاعته فانهما يغلبان كل شئ وإياك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شئ فان ذلك يورث سوء الظن بالناس وان كانوا برآء اقطع طمعك عن الناس فان ذلك هو الغنى وإياك والطمع فانه الفقر الحاضر وإياك وما يعتذر منه من القول والفعل وعود نفسك ولسانك الصدق والزم الاحسان فان استطعت أن يكون يومك خيرا من أمسك فافعل وصل صلاة مودع ولا تجالس السفهاء

ولا ترد على عالم ولا تماره في الدين وإذا غضبت فالصق نفسك بالأرض وتحول من مكانك وارج رحمة الله فانها وسعت كل شيء .

قالوا ثم إن سليمان بعد أن استخلف أخفى أمره وتزوج بامرأة واستتر عن الناس وأقبل على العلم والعبادة ، ثم أن امرأته قالت له ذات يوم بأبي أنت وأمي ما أكمل خصالك وأطيب رائحتك ولا أعلم لك خصلة أكرهها إلا أنك في مؤنة أبي ، فلو دخلت السوق فتعرضت لرزق الله لرجوت أن لا يخيبك الله ، فقال سليمان : إني ما عملت عملا قط ولا أحسنه ، ثم إنه دخل السوق صبيحة يومه ذلك فلم يقدر على شيء ، فرجع فأخبرها فقالت غدا يكون إن شاء الله ، فلما كان اليوم الثاني مضى حتى انتهى إلى ساحل البحر فاذا هو بصياد ، فقال له : هل لك أن أعينك وتعطيني شيئا قال نعم . قال فأعانه فلما فرغ أعطاه الصياد سمكتين فأخذهما وحمد الله تعالى ، ثم إنه شق بطن إحداهما فاذا هو بنحاس في بطنها ، فأخذه وصره في ثوبه وحمد الله عز وجل وأخذ السمكتين وجاء بهما إلى منزله ففرحت امرأته بذلك ، فأخرج الخاتم ولبسه في أصبعه فعكنت عليه الطير والريح ووقع عليه بهاء الملك ، ثم لم يلبث أبوه أن مات فلما مات حمل المرأة وأبأها إلى إصطخر والله اعلم .

باب في ذكر وفاة داود عليه السلام

قال الشيخ أبو يزيد : سمعت الشيخ أبا عمرو الفارابي يروي أن داود عليه السلام كانت له وصيفة تعلق الأبواب كل ليلة وتأتيه بالمفاتيح ثم تنام ويقبل داود على ورده في العبادة ، فأغلقت ذات ليلة الأبواب وجاءت بالمفاتيح ثم ذهبت لتنام ، فرأت رجلا قائما في وسط الدار فقالت له ما أدخلك هذه الدار فان صاحبها رجل غيور فخذ حذرك ، فقال لها أنا الذي أدخل الدور على الملوك بغير إذنهم . قال فلما سمع داود ذلك وكان في المحراب واقفا يصلي فزع واضطرب وقال لها على به فأثام ، فقال له داود ما أدخلك هذه الدار في هذا الوقت بغير إذن ؟ فقال له أنا الذي أدخل الدور على الملوك بغير إذن ، فقال له اذا فأنت ملك الموت قال نعم قال أفجئت داعيا أم ناعيا ، فقال بل ناعيا ، فقال داود عليه السلام فهلا أرسلت إلي قبل ذلك وأذنتي لأستعد للموت ، فقال كم أرسلت اليك فلم تنتبه . قال ومن كانت رسلك التي أرسلت إلي ؟ فقال يا داود أين أبوك أيشا وأين أمك أين أخوك وأين جارك أين قهارمك أين فلان وفلان ، فقال ماتوا كلهم فقال أما علمت أنهم رسل اليك وأن النوبة تبلغك .

قال الأستاذ رضي الله عنه وفي هذا المعنى قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لا يزال المرء ينعي أخاه حتى يكونه وقد يرجو الرجاء فيحول الموت دونه ، وقد نظمته بعض الشعراء فقال .

وإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول

وإذا وليت أمور قوم مدة فاعلم بانك عنهم معزول
وقال أهل التاريخ كان عمر داود عليه السلام مائة سنة وكانت مدة ملكه أربعين سنة ، وقد
مضى في قصة آدم وما وهب لداود من عمره عليهما السلام .

مجلس في قصة سليمان عليه السلام وما يتعلق به

قال الله تعالى — وورث سليمان داود — يعني نبوته وحكمته وعلمه وملكه دون سائر أولاده وكان
لداود عليه السلام تسعة عشر ابناً .

وقال مقاتل : كان سليمان عليه السلام أعظم ملكاً من أبيه داود وأقضى منه ، وكان داود عليه
السلام أشد تعبدًا من ابنه سليمان ، وكان سليمان حين آتاه الله الملك والحكمة ابن ثلاث عشرة سنة
وكان ملكه ما بين الشام إلى إصطخر وقيل أنه ملك الأرض كلها .
وروى مجاهد عن ابن عباس . قال ملك الأرض أربعة مؤمنان وكافران فأما المؤمنان فسليمان
عليه السلام وذو القرنين وأما الكافران فالنمرود بن كنعان وبختنصر .

باب في صفة حليته عليه السلام

قال وهب بن منبه وكعب الأحبار : كان سليمان أبيض جسيماً وضيئاً جميلاً كثير الشعر يلبس
من الثياب البيض وكان خاشعاً متواضعاً يخالط المساكين ويجالسهم ويقول مسكين جالس مسكيناً
وكان أبوه في أيام ملكه يشاوره في كثير من أموره مع صغر سنه ووفور عقله وعلمه صلى الله على
نبينا وعليه وسلم .

باب فيما خص الله به نبيه سليمان عليه السلام حين ملكه

من أنواع المناقب والمواهب وغير ذلك

قال الله تعالى — ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده
المؤمنين — وقال الله تعالى إخباراً عنه — رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي
إنك أنت الوهاب — ، فأجاب الله دعاءه وأكرمه بخصائص لم يكرم بها أحداً من خلقه قبله ولا بعده
فمنها تسخير الله له الريح كما قال عز وجل — فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أوصاب — أي
أراد بلغة حمير .

قال محمد بن اسحق وغيره من أصحاب الأخبار : كان سليمان عليه السلام رجلاً غزاً لا يكاد
يقعد عن الغزو وكان لا يسمع بملك في ناحية من الأرض إلا أتاه حتى يذله ويقهره وكان إذا أراد
الغزو أمر بمعسكره فيضرب له خشب ثم ينصب له على الخشب سرير ثم يحمل عليه الناس والدواب

وآلة الحرب كلها حتى إذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت تلك الحشب فحملتها حتى إذا أقلتها أمر الرخاء فمرت به شهرا في غدوته وشهرا في روحته الى حيث أراد كما قال تعالى - ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر - وقال ابن اسحق ذكر لي أن رجلا نزل منزلا من ناحية الدجلة فوجد فيه كتابا مكتوبا كتبه بعض أصحاب سليمان إما من الجن أو من الانس نحن نزلناه وما بنيناه ومبينا وجدناه غدونا من إصطخر ققلناه ونحن رانحون ان شاء الله تعالى فباتون الشام . قال وكان فيما بلغني تمر بمعسكر الريح الرخاء تهوى به الى حيث أراد وإنها لتمر بالمرعة فلا تحركها ، وأخبرنا الحسن بن محمد بن فتحويه بإسناده عن وهب بن منبه عن أبيه . قال ان سليمان عليه السلام ركب الريح يوما فمرت بحراث فنظر اليها الحراث وقال لقد أوتى آل داود ملكا عظيما فحملت الريح كلامه وألقته في أذن سليمان عليه السلام فنزل حتى أتى الحراث وقال له اني سمعت قولك وانما نزلت اليك لثلاثمني مالا تقدر عليه ، ان تسبيحة واحدة يقبلها الله منك خير مما أوتى آل داود ، فقال له الحراث أذهب الله همك كما أذهبت همي .

وقال مقاتل : نسجت الشياطين لسليمان عليه السلام بساطا فرسखा في فرسخ ذهبا في ابرسم وكان يوضع له منبر من الذهب في وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاث آلاف كرسى من الذهب والفضة فيقعد الانبياء على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظاههم الطير بأجنحتها لثلاثم عليهم الشمس وترفع ريع الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح الى الرواح ومسيرة شهر من الرواح الى الصباح .

أخبرنا ابن فتحويه بإسناده عن محمد بن كعب القرظي . قال : بلغني أن عسكر سليمان عليه السلام كان مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للانس وخمسة وعشرون منها للجن وخمسة وعشرون منها لالوحوش وخمسة وعشرون منها للطيور ، وكان له ألف بيت من القوارير على الحشب فيها ثلثمائة سرير وسبعمائة امرأة فيأمر الريح العاصفة فتحمله ويأمر الرخاء فتسير به ، فأوحى الله تعالى اليه وهو سائر بين السماء والأرض اني قد زدت في ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلا جاءت الريح به اليك فأخبرتك به .

ومنها تعليم الله كلام الطير حتى النمل كما قال الله تعالى - يا أيها الناس علمنا منطق الطير - الآية . قال ابن فتحويه بإسناده عن كعب الأجار قال : صاح ورشان عند سليمان فقال أتدرون ما يقول قالوا لا فقال انه يقول لدوا للموت وابنوا للخراب وصاحت فاختة عند سليمان فقال أتدرون ما تقول قالوا لا قال انها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا قال انه يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول من لا يرحم لا يرحم وصاح صرد فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول استغفروا الله يامذنبون فمن ثم نهى رسول الله ﷺ عن قتله قال وصاح الطيطوى فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول كل حي ميت وكل جديد بال قال وصاح خطاف فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول قدموا خيرا تجدوه

فمن ثم نهى رسول الله ﷺ عن قتله وهدرت حمامة فقال أتدرون ما تقول قالوا لا قال انها تقول سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وملء أرضه وصاح قمرى فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول سبحان الحى الذى لا يموت أبدا وصاح غراب فقال أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا قال فانه يلعن العشارين والحدأة تقول كل شىء هالك إلا وجهه والقطا تقول من سكت سلم والعنقاء تقول ويل لمن الدنيا همه والبارزى يقول سبحان ربى الأعلى وبحمده والضفدع يقول سبحان ربى القدوس والعصفور يقول سبحان المذكور بكل مكان .

وأخبرنا ابن ميمون بإسناده عن مكحول قال صاح دراج عند سليمان عليه السلام فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال فانه يقول الرحمن على العرش استوى وبإسناده عن صالح المروى عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ « الديك اذا صاح يقول اذكروا الله يا غافلون » .

وروى عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن الحسين بن على عليهم السلام أنه قال اذا صاح النسر يقول يا ابن آدم عش ماشئت فان آخرك الموت واذا صاح العقاب قال فى البعد عن الناس أنس واذا صاح القنبر قال اللهم العن مبغضى آل محمد واذا صاح الخطاف قرأ الحمد لله رب العالمين ويمد الضالين كما يمدّها القارىء .

وقال فرقد السنجى مرّ سليمان يبلبل فوق شجرة وهو يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه أتدرون ما يقول هذا البابل ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال انه يقول أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء .

وأخبرنا أبو عبد الله بن حامد بإسناده عن ابن مسعود عن أبيه . قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفرة فمررنا بشجرة فيها فرخا حمامة فأخذناها فجاءت الحمامة وشكت الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم من فجع هذه الحمامة بفرخيها ؟ فقلنا نحن فقال ردهما الى موضعهما .

وروى أن قنبرة باضت فى طريق سليمان عليه السلام فقال الله كرا للأنثى ألم أنك أن تبضى فى طريق سليمان الملك لو ركب الينا لحطم بيضنا ، فقالت الأنثى ويحك ان نبى الله أرحم بنا من ذلك ، فسمع سليمان قولهما فبعث اليهما جنيا حين أراد أن يركب وقال اجعل بيضهما تحت رجلك وإياك أن تصيبه بشىء فلما مرّ سليمان فى موكبهما وجاوزهما قالت الأنثى ألم أقل لك ان نبى الله أرحم بنا من ذلك ، فقال الله كرا للأنثى عندى للملك هدية قالت وما عندك ؟ قال عندى جرادة ادخرتها لولدى فقالت الأنثى عندى تمرة ادخرتها لولدى . قال فأخذنا التمرة والجرادة ثم طارا حتى وقفا بين يدي سليمان وهو على سريره فى مجلسه فوضعاها بين يديه ومسح بيده على رؤوسهما ، فيروى أن هذه القشرة التى على رأس القنبر من مسح سليمان عليه السلام إياها .

قال ومرّ سليمان بموكبه على نملة فقالت النملة سبحان الله العظيم ما أعظم ما أوتى آل داود فتبسم

سليمان من قولها وفسر قولها لجنوده ثم قال ألا أنبئكم بخبر هو أعجب من هذه النملة ؟ قالوا بلى قال تقول اتقوا الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الغضب والرضا .

وروى أن سليمان عليه السلام خرج يوما يستسقي ومعه الانس والجن فمر بنملة عرجاء ناشرة جناحها رافعة يديها وهي تقول : اللهم انا خلق من خلقك لا غنى لنا عن رزقك فلا تؤاخذنا بذنوب بني آدم وأسقنا ، فقال سليمان لمن معه ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم .

وحكى أن نملة دبت على سليمان فحملها ورمى بها فوقعت النملة فقالت ما هذه الصولة وما هذا البطش أما علمت أني أمة من أنت عبده فغشى على سليمان فلما أفاق قال اتوني بها فأتوه بها فسألها فقالت له جلدي رقيق وبدني ضعيف وأخذتني ورميتني ، فقال لها سليمان اجعليني في حل فاني لم أقصد ذلك فقالت بشرط أن لا تنظر الى الدنيا بعين الشهوة ولا تستغرق في شهواتك وضحكك ولا يستعين أحد بجاهك إلا بذلته له قال قد فعلت ذلك قالت فأنت في حل .

ومنها قصة وادى النمل قال الله تعالى - وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون - أي يحبس أولهم على آخرهم - حتى اذا أتوا على وادى النمل - الآية قال الشعبي وكعب وغيرهما من أهل الكتب : ان سليمان عليه السلام كان اذا ركب حمل أهله وحشمه وخدمه وكتابه في مركبه الذي هي له وقد اتخذ فيه مطابخ ومخازن يحمل فيها تنانير الحديد وقدورا عظاما يسع كل قدر عشرة من الجزر وقد اتخذ ميادين للدواب أمامه فيطبخ الطباخون ويخبز الخبازون وتجري الدواب بين يديه بين السماء والأرض والريح تهوى بهم فصار من إصطخر الى اليمن وتوغل في البادية فسلك على مدينة الرسول ﷺ ، فقال سليمان هذه دار هجرة نبي يبعث في آخر الزمان طوبى لمن آمن به واتبعه ، ثم أتى أرض الحرم فرأى حول البيت أصناما تعبد من دون الله فجاوز البيت فلما جاوز سليمان بكى البيت فأوحى الله تعالى الى البيت ما يبكيك ؟ فقال يارب هذانبي من أنبيائك وقوم من أوليائك مرّوا على فلم يهبطوا بي ولم يصلوا عندي ولم يذكروك بحضرتي وهذه الأصنام تعبد حولي من دونك . قال فأوحى الله تعالى اليه لا تبك فاني سوف أملؤك وجوها سجدا لي وأنزل فيك قرآنا جديدا وأبعث منك في آخر الزمان نبيا هو أحب الأنبياء اليّ وأجعل فيك عبادا من خلقي يعبدونني وأفرض على عبادي فريضة يزفون بها اليك زفا مثل زفيف النسور إلى أوكارها ويحنون اليك حنين الناقة الى ولدها والحمامة الى بيضها وأطهرك من الأوثان وعبدة الشيطان ، ثم أمر الله سليمان عليه السلام أن ينزل عليه ويصلي فيه ويقرب عنده قربانا ففعل ذلك قال فدبح عند الكعبة خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة وقال لمن حضر من أشراف قومه ان هذا المكان يخرج منه نبي عربي ويعطى النصر على جميع من ناواه ويكون السيف على رقبة من خالفه وتبلغ هيئته مسيرة شهر القريب والبعيد عنده سواء لا تأخذه في الله لومة لائم فطوبى لمن أدركه وصدقه قالوا فكم بيننا وبين خروجه يا نبي الله ؟ قال قريب من ألف عام . قال ثم ان سليمان مضى

حتى أتى على وادى السدير واد من الطائف فأتى على وادى النمل فقامت نملة تمشى وكانت عرجاء تسكاوس وكانت مثل الذئب العظيم . وقال الشعبي : كانت ذات جناحين .

واختلفوا في اسمها : فأخبرني ابن ميمونة بإسناده عن الضحاك . قال كان اسم نملة سليمان طاخية وقيل خرمى فنادت لما رأت سليمان في موكبه - يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون - وكان لا يتكلم خلق إلا حملته الريح وألقته في مسامع سليمان . قال مقاتل : فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال - فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي - الآية .

وفي بعض الأخبار : أن سليمان لما سمع قولها نزل عليها وقال ائتوني بها فأتوه بها . فقال لها لم حذرت النمل هل سمعت أي ظالم ؟ أما علمت أي نبي عدل ؟ فلم قلت لا يحطمنكم سليمان وجنوده ؟ قالت النملة يا نبي الله أما سمعت قولي وهم لا يشعرون مع أي ما أردت حطم النفوس وإنما أردت حطم القلوب خشيت أن يتمنين ما أعطيت فيفتن ويستغلن بالنظر اليك عن التسبيح فقال لها عظمي فقالت له النملة هل علمت لم سمى أبوك داود قال لا ؟ قالت لأنه داوى جراحة قلبه ثم قالت وهل تدري لم سميت سليمان قال لا ؟ قالت لأنك سليم ركنت الى ما أوتيت بسلامة صدرك وحق لك أن تلحق بأبيك داود . ثم قالت أتدري لم سخر الله تعالى لك الريح ؟ قال لا ، قالت ليخبرك أن الدنيا كلها ريح - فتبسم ضاحكا من قولها - متعجبا - وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي - الآية .

أخبرني ابن ميمونة بإسناده عن ابن عباس قال نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربعة من الدواب : الهدهد والصرذ والنحلة والنملة .

ومنها قصة العنقاء في اثبات القضاء والقدر . أخبرنا أبو محمد عبد الله بن حامد بإسناده عن محمد بن جعفر الصادق قال : عاتب سليمان الطير في بعض عتابه فقال لها انك لتأتين كذا وتفعلين كذا فقالت والله رب السماء والثرى انا لنحرص على الهدى ولكن قضاء الله يأتي إلى منتهى علمه وقدره ، قال صدقت لاحيلة في القضاء ، فقالت العنقاء لست أومن بهذا فقال لها سليمان ألا أخبرك بأعجب العجب قالت بلى ، قال إنه ولد اليلة غلاما بالمغرب وجارية بالمشرق هذا ولد ملك كبير وهذه ابنة ملك والجارية والولد يجتمعان في أمنع المواضع بقدره الله تعالى وأهولها على سفاح في جزيرة في وسط البحر ، فقالت العنقاء يا نبي الله أوقد ولد هذان الولدان المذكوران قال نعم الليلة ؟ قالت فهل أخبرت بهما من هما وما اسمهما واسم أبيهما ، قال بلى اسمهما كذا وكذا واسم أبيهما كذا وكذا فقالت العنقاء يا نبي الله أنا أبطل القدر وأفرق بينهما فقال لها سليمان انك لا تقدرين على ذلك قالت بلى ؟ فأشهد سليمان عليها الطير وكفلتها البومة فمرت العنقاء وكانت في كبر الجمل عظما ووجهها وجه انسان ويدها يدا انسان وثديها ثدي امرأة وأصابعها كذلك فحملت في الهواء حتى أشرفت على الدنيا فأبصرت

كل دار وما فيها وكل انسان وأبصرت الجارية وهي في مهدها وقد أجلسوها فاختلفت الجارية من المهد وطارت بها حتى انتهت الى جبل شاهق في السماء في جوف البحر وسط جزيرة وفي الجزيرة شجرة عالية لا ينالها طائر إلا بجهد طيرانه ولها أغصان عظيمة تزيد على ألف غصن كل غصن كأعظم ما يكون من شجر الأرض كثيرة الورق فاتخذت لها وكرا في وسط الشجرة عجيبا واسعا مضيئا وطيبا وأرضعتها وحضنت الجارية تحت جناحها وصارت تأتيها بأنواع الطعام والشراب وتحفظها من البرد والحر وتؤنسها بالليل ولا تخبر أحدا بشأنها كي يتم أمرها وهي تغدو إلى سليمان وتروح إلى وكرها فعلم سليمان بذلك ولم يبد له فبلغ الغلام مبلغ الرجال وصار ملكا من ملوك الدنيا وكان يلهم بالصيد ويحبه ويطلبه فصار لا يقر ليلا ولا نهارا وكان أبوه ملكا عظيما فلما رأى الملك ولده لا هيبا بالصيد لم يزجره عنه حتى نال منه منالا طويلا وأمره عظيم فقال يوما لأصحابه كل صيد البر وقلواته ومقازاته قد نلت منه فلو ركبتم البحر فأنال من صيده فإنه كثير الصيد وكثير العجائب فقال له المشيرون من وزرائه نعم مارأيت وهو أكثر شيء من خلق الله صيدا وعجائب فأمر الغلمان بتجهيز ما يحتاجون اليه وهيا السفن وجعل يأخذ من كل شيء يملكه وأخذ من الوزراء والمشيرين والغلمان والجواري والطباخين والحبازين والدواب والبزاة والصقور وكلاب الماء وجميع ما يحتاجون اليه بما يريد ويستنيه من الملامى وركب السفن ومرت في البحر كذلك يتصيد ويتلذذ بالفرح ولا يعرف شيئا غير ذلك حتى سار مسيرة شهر فأرسل الله تعالى على سفينة ريحا خفيفة فضربت بها وساقها حتى قربت من جزيرة العنقاء والجارية وهي مسيرة خمسين سنة في مئتي خمسين ليلة كل ليلة مسيرة سنة ثم ركبت سفينة باذن الله تعالى وأصبح الغلام فرأى سفينة راكدة فأخرج رأسه من ناحية ونظر فاذا هو بجبل شاهق في وسط جزيرة في البحر في لون الزعفران طويلة لا يدرى أين منهاها ولا عرضها واذا هو بشجرة خضراء في رأس الجبل ملتفة كثيرة الأغصان والأوراق ورقها في عرض آذان الفيلة تفوح بريح الأقحوان ليس لها تمر يضاء الساق فقال لأصحابه انى أرى عجبا أرى جبلا شاهقا في وسط جزيرة لم أر مثله ولا مثل طوله ولا عرضه وأرى شجرة فيها كل حسن قد أعجبنى منظرها ثم انه حرك سفينة وجاء بها الى الجزيرة التي فيها الجبل وأرساها عندها وقال لأصحابه أقيموا ههنا حتى أمضى وأبصر هذه الجزيرة وهذا الجبل الذي في وسطها هل عمارة أو أثر آدمي في تلك الجزيرة وآتيكم بخبرها ثم انه نزل من السفينة هو ورقفته وداروا في الجزيرة فلم يروا فيها أثر عمارة ولا عبر بها آدمي قبله ثم إنه صعد الى رأس الجبل فرأى أصل الشجرة وكانت الجارية قد نظرت إلى السفينة وهي جارية فلم تعرف ما هي لأنها أخذت صغيرة ولم تدر ما السفن فبقيت متعجبة وليس عندها أحد تسأله عن ذلك ، فبينما هي متفكرة في أمر السفينة اذا حس حديث الأدميين فأخرجت رأسها من الوكر فنظرت يمينا وشمالا فلم تر أحدا فنظرت في أصل الشجرة فاذا بالغلام ورقفته فتعجبت منهم لما رأيت من حسنهم وجمالهم وكيف وصلوا الى ذلك الموضع وان الغلام لما بلغ أصل الشجرة نظرت يمينا وشمالا وبقي متعجبا من عظم تلك الشجرة

ورفعها في السماء وصار ينظر إلى أغصانها وكانت الجارية قد أخرجت رأسها لتتنظر إلى السفينة فحانت منها التفاتة إلى أصل الشجرة فوقعت عينها في عين الغلام فرأى الغلام صورتها ورأى عجباً من عظم جمالها وكثرة شعرها وذوائبها فقال لها الغلام بلسان فصيح أجنبية أنت أم انسية قالت لا والله أنا من خيار الانس فمن أنت فأفهمها لغته فقالت لا أدري ما تقول وما أنت إلا أنى أرى وجهك كوجهى وكلامك ككلامى وأنى لأعرف شيئاً غير العنقاء وهى أمى التى ربنتى وحضنتى وهى تأتينى كل ليلة وتسمينى بتها فقال لها الغلام وأين العنقاء فقالت هى فى نوبتها فقال الغلام وما نوبتها قالت تغدو كل يوم إلى ملكها سليمان فتسلم عليه وتقيم عنده إلى الليل ثم تجيئنى وتحدثنى بكل ما يحكم به سليمان وأنه لملك عظيم طى ما تصفه لى أمى العنقاء من ملكه وانها تخبرنى أنه أحسن الناس وجهاً وأتم خلقاً منى قال فارعد الغلام ثم قال عرفته وهو الذى قتل أبى وسبى دولته وأنى لمن طلقائه ومن يؤدى إليه الخراج وقد سخر الله له الطير والرياح ثم بكى الغلام ساعة فقالت له الجارية ما يبكيك ؟ قال وحدثك فى مثل هذا الموضع الذى لأنس فيه ولا أحد وإن مثلك فى الدنيا عدد الشجر والمدر وكلهم فى مقاصير الذهب والفضة والعيش الحنى والرغد واللذة الحسنة مع الأزواج يتعاقون ويتنعمون ويتوالدون الأولاد مثل خلقك وخلقى أرأيت إن هاجت الريح فأزعجتك من وكرك من يمنعك أن تقمى فى البحر وإن وقعت فى البحر فمن ذا الذى يخرجك قال ففرغت الجارية من قوله قالت وكيف يكون منى أنسى مثلك يحدثنى بمثل حديثك ويحفظنى مما ذكرت فقال لها الغلام أولاً تعلمين أن الله اتخذ سليمان نبياً وسخر له الريح والطير هو الذى رحمك وساقى إليك لأكون لك إلفاً وصاحباً وأنيساً وأنى لمن أولاد الملوك فقالت له الجارية وكيف تصيرلى وأصير إليك وإن العنقاء هذه تروح وتجيء وتحضنى إلى صدرها بين جناحيها فقال لها الغلام تكثيرين جزعك ووحشتك وبكاءك على العنقاء ليلتك هذه فإذا جاءت إليك وقالت لك ما تحبين وما تريدن وما شأنك فأخبرها بوحديثك فى نهارك ثم انظرى ما يكون من ردها عليك فأخبرنى بذلك ففعلت وإن العنقاء رجعت إليها فوجدتها باكية حزينة ، فقالت لها يا بنية مالك ؟ فقالت الوحدة والوحشة قتلتنى وأنى لمرعجة على نفسى من ذلك ، فقالت لها يا بنية لا تخافى ولا تحزنى فانى أستمّر سليمان عليه السلام أن آتية يوماً ويوما لا آتية فيكون ذلك أنسا . فلما أصبحت أخبرت الغلام بجوابها ، فقال لها أو تصبرين على ذلك ؟ لا ولكنى سأتحرك من دوابى هذه فرسا وأبقر بطنه وأخرج ما فيه وأطيه بطيب مى وأدخل أنا فى جوفه وألقيه على رأس سفينتى هذه فإذا جاءت العنقاء تقولين لها أرى عجباً أرى خلقة ملقاة على كوثل هذه السفينة فلو اختطفيتها وحملتيا إلى فكانت مى فى وكرى فأنظر إليها وأنس بها كأن أحب إلى من كونك عندى نهاراً وإمساكك عن أخبار سليمان وأخبار المسلمين فلما رجعت العنقاء وجدتها على حالتها وكان سليمان قد شغل عنها فلم تصل إليه فى استئذانها إياه فى المقام يوماً والعدو يوماً ، فقالت لها يا بنية إن نبي الله قد اشتغل عنى اليوم بالحكم بين آدميين فلم أصل إليه قالت لها إني لأريد أن تبخلى عنى نهاراً لمكان أخبار سليمان

وأخبار المسلمين ، وإنى أرى عجبا في البحر أرى شيئا مرتفعا فماهو ؟ قالت لها العنقاء هذه سفينة قوم سيارة راكين في البحر قالت فما الذى أراه ملقى على رأس هذه السفينة ؟ قالت دابة مية ألقوها قالت فاحتملها الى لأستأنس بها وأنظر اليها فاتقضت العنقاء فاختطفت الفرس وكان الغلام في بطنها فحملتها الى عشا ، فقالت الجارية يا أماء ما أحسنه وضحكت ففرحت العنقاء بذلك وقالت يا بنية لو علمت لكنت أتيك بمثل هذا منذ حين ، ثم انها طارت الى نوبتها عند سليمان فخرج الغلام من بطن الفرس فلاعها ولا مسها واقتضاها وأحبلها من ساعتها وفرح كل واحد منهما بصاحبه واستأنس به وكان سليمان عليه السلام قد جاءه الخبر باجتماعهما من قبل الريح وأن العنقاء راحت وكان مجلس سليمان يومئذ مجلس الطير وحكمهم ، فجلس سليمان عليه السلام للطير في مرتبته ودعا بعرفاء الطير وأمرها أن لا تدع طيرا إلا حشرته اليه فحشرت اليه جميع الطيور ثم أمر عرفاء الجن أن يحشروا قبائل الجن من سكان البحار وسكان الجزائر والهواء والمغارات والقلوات والأمصار فحشروا اليه وأمر الشياطين فأحضرت كذلك ، وكذلك الانس كهيتهم ثم كل دابة تدب على وجه الأرض فاشتد الخوف وقالوا في انفسهم نشهد بالله أن نبي الله قد أحهم أمر عظيم فأول سهم قد خرج في تقديم الطير سهم الحداة وكانت الطير لا تتقدم الا بالسهم وكذلك الجن والشياطين فتقدمت الحداة تدعى على زوجها وكان قد جحد ولدها ، فقالت ياني الله انه سفدنى حتى إذا احتضنت يضى وأخرجت ولدى جحدنيه فقال سليمان للذكر ما تقول فقال ياني الله انها لا تمتنع من الطير وهي تحوم البرارى فلا أدري هل هو منى أو من غيرى . قال فأمر سليمان بولدها فجىء به فوجد الشبه واحدا فألقه بالذكر ثم قال لها لا تمكنيه من السيفاد حتى تشهدى عليه بذلك الطير بالصراخ فانه لا يجحدك بعدها أبدا إلى يوم القيامة فهي إذا سفدها ذكرها صاحت وقالت يا طيور سفدنى اشهدوا معاشر الطيور اشهدوا ثم خرج سهم العنقاء فتقدمت اليه فقال لها سليمان ما قولك في القدر فقالت ياني الله لى من القوة والاستطاعة ما أدفع الشر وأفعل الخير فقال لها سليمان فأين الشرط الذى كان بيني وبينك زعمت أنك تفرقين بقوتك واستطاعتك بين الجارية والغلام فقالت قد فعلت قال سليمان الله أكبر فائتنى بها الساعة والخلق شهود لأعلم صدق قولك ثم أمر عريف الطير أن يكون معها لا يفارقها حتى تأتى بها فمريت العنقاء حتى قربت من الجارية وكانت الجارية إذا قربت منها العنقاء تسمع خفيف أجنحتها فيأدر الغلام ويدخل جوف الفرس فلما رأتها البنت قالت لها كالفرعة ان لك شأنا إذ رجعت من ساعتك قالت لها أى لعمري ان لى شأنا . هذا سليمان قد أمر باحضارك الساعة لأمر كان بيني وبينه فى أمرك وإننى لأرجو نصرتي اليوم فيك قالت لها كيف تحملينى قالت على ظهري قالت وهل أستقر على ظهرك وإنى أرى أهوال البحر فلا آمن أن أزال فأسقط وأهلك قالت فى منقارى قالت فكيف أصبر فى منقارك قالت لها وكيف أحشع ولا بد لى من احضارك عند سليمان وهذا عريف الطير معنى وقد دعا بكفيلتى

البومة . فقالت لها أدخل في جوف هذا الفرس ثم ترفعيه على ظهرك أوفى منقارك فلا أرى شيئا ولا أسقط ولا أفزع من شيء . قالت أصبت . قال فدخلت جوف الفرس واجتمعت مع الغلام ، وحملت العنقاء الفرس في منقارها وطارت حتى وضعت الفرس بين يدي سليمان عليه السلام . فقالت يابني الله هي الآن في جوف الفرس فأين الغلام ؟ فتبسم سليمان طويلا ثم قال لها أتؤمنين بقضاء الله وقدره وأنه لا حيلة لأحد في دفع قضائه وقدره وعلمه السابق الكائن من خير وشر فقالت أو من بالله وأقول إن المشيئة إلى العباد والقوة فمن شاء فليفعل خيرا أو شرا قال سليمان كذبت ما جعل الله من المشيئة للعباد شيئا ، ولكن من شاء الله أن يكون سعيدا كان سعيدا ومن شاء أن يكون كافرا كان كافرا ولا يقدر أحد أن يدفع قضاء الله وقدره بحيلة لا بفعل ولا بعلم وإن الغلام الذي قد ولد بالمغرب مع الجارية التي ولدت بالمشرق قد اجتمعا الآن في مكان واحد على سفاح . وقد حملت الجارية من الغلام بولد فقالت العنقاء لا تقل يابني الله هذا فان الجارية معي في جوف هذا الفرس فقال سليمان : الله أكبر أين البومة التكفلة بالعنقاء ؟ قالت ها أنا يابني الله . قال سليمان أنت على مثل قول العنقاء قالت نعم فقال سليمان قدر الله السابق قبل الخلق أخرجهما على قضائه ومشيته قال فأمر البومة ففتحت جوف الفرس وأخرجتهما جميعا من جوف الفرس .

فأما العنقاء ففرغت وذهبت وطارت في السماء فأخذت نحو المغرب واختفت في بحر من بحاره وآمنت بالقدر وحلفت لا تنظر في وجه طير أبدا استحياء منه .

وأما البومة فاتها لزممت الآجام والجبال وقالت أما بالنهار فلا خروج لي ولا سبيل إلى العاش فهي إذا خرجت نهارا وبغتها الطير واجتمعت عليها وقالت لها يا قدرية فهي تخضع لهذا ، وهذا ما كان من شأن العنقاء والبومة في القضاء والقدر والله أعلم بالغيب .

ومنها تخصيص الله تعالى سليمان عليه السلام بالخيول الجياد العرب التي أخرجها له من البحر في قول أكثر أهل الأثر قال الله تعالى - إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد - والصافنات الخيل القامات على ثلاث قوائم ، وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل والجياد السراع قال الحسن : بلغني أنها كانت خيلا خرجت من البحر لها أجنحة ، وقال الكلبي غزا سليمان أهل نصيبين فأصاب منهم ألف فرس . وقال مقاتل ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس ، وكان أبوه أصابها من العمالة قالوا فصلى سليمان صلاة الظهر وقعد على كرسيه فعرض عليه منها تسعمائة فاشتغل بحسنها وكثرتها والاعجاب بها حتى غابت الشمس وفاته صلاة العصر ولم يعلمه أحد بذلك هيبه له ، فاغتم لذلك وقال ردوها على فردوها فعرقها وعقرها بالسيف وقربها إلى الله تعالى وبقي منها مائة فرس ، فمات في أيدي الناس من الخيل العرب فهي من نسل تلك المائة .

وقال كعب : كانت الأفراس أربعة عشر فأمر بضرب أعناقها وسوقها بالسيف وقتلها

فسلب الله ملكه أربعة عشر يوما لأنه ظلم الخيل بقتلها . قال الحسن فلما عقر الخيل لأجل الله تعالى أبدله الله تعالى مكانها خيرا منها وأسرع وهي الريح تجري بأمره رخاء كيف يشاء غدوها شهر ورواحها شهر وكان يغدو من إيلياء فيقيل في اصطخر ثم يروح منها فيبيت بابل .

ويروى أن سليمان سار من أرض العراق غاديا فقال بمدينة مرو وصلى العصر بمدينة بلخ فعمله الريح وتظله الطير بخيله وجنوده ، ثم سار من مدينة بلخ متخللا بلاد الترك ، ثم جاوزها إلى أرض الصين ثم عطف يمينه على مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى أرض الهند ، ثم خرج منها إلى مكران وكرمان ثم جاوزها حتى أتى أرض فارس فنزلها أياما ، ثم غدا منها فقال بكسركر ، ثم رجع إلى الشام وكان مستقره مدينة تدمر وكان قد أمر الشياطين قبل خروجه من الشام إلى العراق أن يبنوا له تدمر فبنوها بالصفائح والعمد والرخام الأبيض والأصفر وفي ذلك يقول الشاعر :

واذكر سليمان إذ قال للمليك له قم في البرية فأحدها عن القند
وجيش الجيش أنى قد أبحت لهم بناء تدمر بالأحجار والعمد
قال ووجدت هذه الآيات منقورة في صخرة بأرض كسركر أنشأها بعض أصحاب سليمان بن
داود عليهما السلام :

ونحن ولا حول سوى حول ربنا نروح إلى الأوطان من أرض تدمر
إذا نحن رحنا كان أمر رواحنا مسيرة شهر والعدو لآخر
أناس سروا والله طوع نفوسهم لنصرة دين النبي الطاهر
لهم في معالي الدين فضل ورأفة وإن نسبوا يوما فمن خير معشر
مق ركبوا الريح للطبيعة أسرع مبادرة عن شهرها لم تقصر
تظللهم طير صفوا عليهم مق رفرفت من فوقهم لم تفت

[رجعنا إلى القصة] وقال قوم من العلماء : معنى قوله تعالى - فطقق مسحاً بالسوق والأعناق - حبسها في سبيل الله وكوى سوقها بميسم الصدقة وقال الزهري مسح سوقها وأعناقها من الغبار . قال وهي رواية الواقدي عن ابن عباس قال : وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثم إن الله أمر الملائكة الوكيلين بالشمس حتى ردوها على سليمان وصلى العصر في وقتها .

حدثنا أبو عبد الله عقيل الأنصاري بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أراد الله تعالى أن يخلق الخيل قال للريح الجنوب أني خالق منك خلقا فأجعله عزاً لأوليائي ومذلة لأعدائي وجمالا لأهل طاعتي ، فقالت الريح : إلهي وسيدى ومولائي إني مطيعة فقبض منها قبضة فخلق فرسا وقال له : خلقتك عربيا وجعلت الخيل معقودا بناضيتك والغنائم مجموعية على ظهورك وعطقت عليك ساجيك وجعلتك تطير بلا جناح

فأنت للطلب وأنت للهرب ، وسأجعل على ظهرك رجلا يسبحونني ويحمدونني ويكبرونني فتسبحني إذا سبحوا وتهللي إذا هللوا وتكبرني إذا كبروا » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن تسبيحة وتحميدة وتمجيدة وتكبيرة يكبرها صاحبها فتسمعها الاتجيبه بمثلها » قال فلما سمعت الملائكة صفتها ونظروا خلقها قالوا ربنا نحن ملائكتك نسبحك ونحمدك فماذا لنا ؟ فخلق الله لهم خيلا بلقا أعناقها كأعناق البخت ، فلما أرسل الله الفرس إلى الأرض واستوت قدماء عليها صهل ، فقيس له بوركت من دابة إذ بصهيلك أذل الله المشركين وأذل بك أعناقهم وملا بك آذانهم وأرعب بك قلوبهم ، فلما عرض الله تعالى على آدم من كل شيء قال له اختر من خلقى ما شئت فاختر الفرس ف قيل له اخترت عزك وعز ولدك خالدا ما خلدوا وباقيما بقوا بركتي عليك وعليهم ما خلقت خلقا أحب إلى منك ومنهم .

ومنها قوله تعالى - وأسلنا له عين القطر - أذنباله عين النحاس أسيلت ثلاثة أيام كما يسيل الماء وكانت بأرض اليمن وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرجه الله لسليمان عليه السلام .
ومنها تسخير الله تعالى له الجن والانس والطير والوحوش والشیاطين يعملون له ما يشاء كما قال الله تعالى - ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير - وذلك أن الله تعالى وكل بهم ملكا بيده سوط من نار فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقتة ، فلما عملت له الشياطين بأمره وأحدثوه له الحمامات والطواحين والقوارير والصابون وأشياء كثيرة واحتفروا له نهر الملك وألقوا ترابه بين خاتقين وقصر شيرين ومما عملوا له الفياصة كما قال الله تعالى - ومن الشياطين من يغوصون له - الآية وقال تعالى - والشياطين كل بناء وغواص - وكانوا يغوصون في البحار ويستخرجون أنواع الآلى والدرد والمرجان وسائر الجواهر البحرية ، وكانوا يستخرجون له اليواقيت والزمرد وأنواع الجواهر الثمينة من المعادن وهم أول من فعل ذلك .

حديث القبة

قال وهب بن منبه : بينا سليمان عليه السلام على ساحل البحر والريح من تحته والانس عن يمينه والجن عن شماله والطير تظله إذ نظر إلى عظم أمواج البحر فدعته نفسه أن يعلم ما في قعر البحر فأمر الريح فسكنت من تحته ، ثم قعد على كرسي ملكه ثم دعا رأس الغواصين فقال له : اختر لي من أصحابك مائة رجل فاختر له مائة رجل فقال له اختر لي من المائة ثلاثين فاختر له ثلاثين فقال اختر لي من الثلاثين عشرة فاختر له عشرة فقال اختر لي من العشرة ثلاثة فاختر له ثلاثة فقال لواحد منهم غص حتى تنظر إلى قعر البحر وتأتيني بالخبر فقال له سمعا وطاعة لك يا نبي الله فغاص للبحر وأبعد ثم خرج فقال له سليمان ما الذي رأيت ؟ قال يا نبي الله ما رأيت إلا أمواجا وحيتانا غير أني

رأيت ملكاً عظيماً فقال لى أين تريد فقلت له إن نبي الله سليمان أرسلنى أنظر له قعر هذا البحر فقال ارجع إليه فاقراً عليه منى السلام وقل له إن قوماً ركبوا هذا البحر منذ أربعين عاماً فعاب عليهم مركبهم فخرجوا يصلحونه فسقط من أحدهم قدوم فهو يتجلىل فى البحر ولم يبلغ قعره بعد فرجع إليه وأخبره بالخبر فتعجب نبي الله سليمان عليه السلام من ذلك ولها عما كان قصد ، قال : فيينا هو على شاطئ البحر إذ رأى قبة من زجاج تضربها الأمواج فى لجة البحر فعارضها وقال للغواصين غرصوا فى أثرها فغاصوا فأخرجوها فلما وضعت القبة على ساحل البحر انفتح لها بابان بمصراعين وخرج من القبة شاب عليه ثياب أبيض من اللبن وكان رأسه تقطر ماء فجاء حتى وقف بين يدي سليمان فقال له سليمان يا فتى من الجن أنت أم من الانس ؟ قال بل من الانس قال فتعجب سليمان منه ومن زيه ثم قال له ما بلغ بك ما أرى فقال يانبي الله كانت لى والدته وكنت من أبر الناس بها أطعمها وأسقيها بيدي ولا أترك شيئاً من صنائع البر الا صنعتها بها فلما حضرتها الوفاة سألتها أن تدعولى فرفعت رأسها إلى السماء وقالت يارب قد عرفت برّ ولدى بى فارزقه العباداة فى موضع لا يكون لإبليس وجنوده عليه سبيل ثم ماتت فدفتها فخرجت يوماً إلى ساحل البحر فاذا أنا بهذه القبة فدعتنى نفسى أن أدخلها فلما دخلتها انطبقت على أبوابها وتزاحرت الأمواج بها وكان هذا آخر عهدى يانبي الله فقال له سليمان فمن أين مطعمك ومشربك ؟ فقال يانبي الله إذا كان الليل جاءنى طائر أبيض فى منقاره شيء أبيض فيدفعه إلى فأأكله فهو يقيتنى من الطعام والشراب فقال له سليمان فمن أين تعرف الليل والنهار وأنت فى ظلمة هذا البحر قال يانبي الله فى القبة خيطان خيط أبيض وخيط أسود فاذا رأيت الخيط الأبيض زائدا علمت أنه النهار وإذا رأيت الخيط الأسود زائدا علمت أنه الليل فقال له سليمان هل لك فى صحبتنا رغبة ؟ قال لا يانبي الله إن تشأ تأذن لى أن أعود إلى قبى فأذن له فانطلق ودخلها وانطبق عليه بابها وتزاحرت به الأمواج فكان آخر العهد به .

ومنها قوله تعالى - يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب - يقال إنها الحياض كانت تسع الجنة الواحدة طعام ألف رجل فيجتمعون عليها يأكلون بين يديه - وقدور راسيات - ثابتات لا تزول يسع القدر الواحدة عشرة جزر .

قصة مدينة سليمان عليه السلام التى كان يسافر بها فى الهواء

ومما عملوا له مدينة من قوارير عشرة آلاف ذراع فى عشرة آلاف ذراع فيها ألف سقف ما بين كل سقفين عشرة أذرع فى كل سقف جميع ما يحتاج اليه من الساكن والقباب والمرافق أسفلها أغلظ من الحديد وأعلاها أرق من الماء يرى من داخلها ما وراء خارجها من صفائه وبقائه والشمس بالنهار والقمر بالليل وعلى السقف الأعلى قبة بيضاء عليها علم أبيض يستغنى به فى الليل الحاجى العسكر كله يتلأأ شعاعه مد البصر وبها من الأركان ألف ركن على منهاكب الشياطين تحت كل ركن منها

عشرة من الشياطين تسع سليمان وجنوده وحشمه وأولياءه علوا وسفلا تحملها الريح إلى حيث يشاء وكانت تلك المدينة له مستقرا يأكل ويشرب وينام ويتمتع بها وفي أسفلها مرابط وإصطبلات وأواري وأواخي لحيه ودوابه . ومما عملوا له كرسى ملكه .

صفة كرسى سليمان عليه السلام

قال الله تعالى - وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب - يروى أن نبي الله سليمان عليه السلام أمر الشياطين باتخاذ كرسى يقعد عليه للقضاء وأمر أن يعمل بديعاً مهولاً بحيث لو رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وبهت قال فعملوا له كرسياً من أنياب الفيلة وفضصوه بالياقوت واللؤلؤ والزبرجد وأنواع الجواهر وحفوه بأربع نخلات من الذهب شماريخها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر على رأس نخلتين منها طاوسان من ذهب وعلى رأس الأخيرتين نسران من ذهب بعضها مقابل بعض وجعلوا من جانب الكرسى أسدين من ذهب على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر وقد عقدوا على النخلات أشجار الكرم من الذهب الأحمر واتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر بحيث يظل عريش الكروم والنخل الكرسى قالوا وكان سليمان إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى فيستدير الكرسى ورجله فيها ويدور دوران الرحى السرعة وتنفث تلك النسور والطواويس أجنحتها ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذناهما وكذلك يفعل في كل درجة يضعدها سليمان فإذا استوى بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين المسك والعنبر يفتتاها عليه ثم تتناول حمامة من ذهب قائمة على عمود من جوهر من أعمدة الكرسى التوراة فتفتحها لسليمان فيقرأها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء، قال وتجلس عظام بني إسرائيل على كراسي الذهب والفضة المفصصة بالجواهر وهي ألف كرسى على يمينه وتجيء عظام الجن فيجلسون على كراسي الفضة عن يساره وهي ألف كرسى حافين به جميعاً ثم تظلم الطير وتقدم الناس إليه للقضاء فإذا دعا بالبينات وتقدمت الشهود لأقامة الشهادات دار الكرسى بجميع ما فيه وما حوله دوران الرحى السرعة . قال معاوية لو هب بن منبه ما الذي كان يدير ذلك الكرسى ؟ قال بلبان من ذهب وذلك الكرسى مما عمله صخر الجنى قالوا فإذا دار الكرسى بسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذناهما وينثر النسران والطاوسان أجنحتهما فتفرع منه الشهود ويدخلهم من ذلك رغب شديد فلا يشهدون إلا بالحق ، فهذا شأن كرسى سليمان عليه السلام وعجائب ما كان فيه ، فلما توفي سليمان عليه السلام بعث مختصراً فأخذ ذلك الكرسى وحمله إلى أنطاكية فأراد أن يصعد عليه ولم يكن له علم بالصعود عليه ولا بأحواله فلما وضع قدميه على الدرجة السفلى رفع الأسد يده اليمنى فضرب ساقه ضربة شديدة دقها ورماء فحمل مختصراً فلم يزل يعرج ويتوجع منها حتى مات وبقي الكرسى بأنطاكية حتى غزاهم ملك من الملوك يسمى كبداش بن سداس فهزم خليفة مختصراً ورد الكرسى إلى بيت المقدس فلم يستطع أحد من الملوك الجلوس عليه ولا الاستمتاع به

هو وضع تحت الصخرة فغاب ولم يعرف خبره ولا يدري أين هو والله أعلم . ومنها بيت المقدس .
صفة بنيانه وبدء أمره

قال الله تعالى - سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى - الآية
وقال تعالى - ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين - قيل بالمياه والأشجار والثمار
وقيل إن كل ماء عذب يخرج من تحت أصل الصخرة التي بيت المقدس يهبط من السماء إليها ثم
يتفرق في الأرض وذلك قوله تعالى - باركنا فيها للعالمين - .

وروى خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« صخرة بيت المقدس على نخلة من نخيل الجنة وتلك النخلة على نهر من أنهار الجنة على ذلك
النهر آسية بنت مزاحم ومريم ابنة عمران رضى الله عنهما ينظمان حلى أهل الجنة إلى القيامة »
وأما بدء بناء بيت المقدس ، وصفة بنائه على ما ذكره أهل البصيرة بالسيرة هو أن الله تعالى بارك في
نسل إبراهيم حتى جعلهم في الكثرة غاية لا يحصون ، فلما كان زمان داود عليه السلام لبث فيهم
مدة مديدة بأرض فلسطين وهم يزدادون كل يوم كثرة فأعجب داود بكثرتهم وأراد أن يعلم عدد
بنى إسرائيل كم هم فأمر بعدهم وبعث بذلك عرفاء وتقباء وأمرهم أن يرفعوا إليه ما يبلغ من
عددهم فكانوا يعدون زمانا من الدهر حتى عجزوا فبعث الله جبريل عليه السلام وأوحى إليه
ياداود قد علمت أتى وعدت أباك إبراهيم يوم أمرته بذبح ولده فصبر وأتم أمرى بأن أبارك له في
ذريته حتى يصيروا بعدد نجوم السماء وأجعلهم بحيث لا يحصى عددهم فأردت أن تعلم عددهم
إنه لا يحصى عددهم غيرى وإنى قد أقسمت لأبتليهم بيلة يقل منها عددهم ويذهب عنك إعجابك
بهم وبكثرتهم فاخترأوا إما أن أبتليكم بالجوع والقحط ثلاث سنين أو أسلط عليكم عدوكم ثلاثة
أشهر أو الموت ثلاثة أيام فجمع داود بنى إسرائيل وأخبرهم بما أوحى الله تعالى إليه وخبرهم فيه
فقالوا أنت أعلم بما هو أيسر لنا وأنت نبينا فانظر لنا غير أن الجوع لا صبر لنا عليه وتسليط العدو
أمر فاضح فإن كان ولا بد فالموت لأنه يده لا يد غيره فأمرهم داود أن يتجهزوا للموت - فاغتسلوا
وتحنطوا ولبسوا الأكفان وبرزوا إلى صعيد بيت المقدس قبل بناء المسجد بالدرارى والأهلين
وأمرهم أن يضجوا إلى الله تعالى ويتضرعوا إليه لعله أن يرحمهم فأرسل الله إليهم الطاعون فأهلك
منهم في يوم وليلة ألفا كثيرة لا يدري عددهم ولم يفرغوا من دفنهم إلا بعد موتهم بشهر فلما أصبحوا
في اليوم الثانى خر داود عليه السلام ساجدا لله تعالى يبتهل إلى الله تعالى ويقول : يارب أنا
كل الحل الحامض وبنو إسرائيل يضرسون يعنى أذنبت وبنو إسرائيل يعاقبون فمننا كان من
شئ فى أنزله وأعف عن بنى إسرائيل فاستجاب الله دعاءه وكشف عنهم الطاعون ورفع عنهم
الموت فرأى داود عليه السلام الملائكة سالين سيوفهم فعمدوها وارثقوا في ستم من ذهب في
(١٨٨ - قصص الأنبياء)

صخرة بيت المقدس إلى السماء ، فقال داود لبني إسرائيل ان الله تعالى قد من عليكم ورحمكم فجددوا له شكرا قالوا فكيف تأمرنا قال آمركم أن تتخذوا في هذا الصعيد الذي رحمكم الله فيه مسجدا لا يزال فيه منكم ومن بعدكم ذا كر لله تعالى فأخذ داود في بنائه فلما أرادوا أن يبتدئوا بالبناء جاء رجل صالح فقير يختبرهم ليعلم كيف اخلاصهم في بنائهم فقال لبني إسرائيل إن لي فيه موضعا أنا محتاج إليه ولا يحل لكم أن تحجبوني عن حق فقالوا يا هذا ما من أحد من بني إسرائيل إلا وله في هذا الصعيد حق مثل حقك فلا تكن أبخل الناس ولا تضايقنا فيه فقال أنا أعرف حقى وأتم لا تعرفون حقكم فقالوا له أما ترضى وتطيب نفسك وإلا أخذناه منك كرها فقال لهم آتجدون هذا في حكم الله وحكم داود ، قال فرغ خبره الى داود عليه السلام فقال أرضوه فقالوا بكم تأخذه منه يانبي الله قال خذوه بمائة شاة فقال الرجل زدنى يانبي الله قال داود خذوه بمائة بقرة قال زدنى قال بمائة بعير قال زدنى يانبي الله فأنما تشتريه لله تعالى والله كريم لا يبخل فقال داود حيث قلت هذا فاحتكم أعطك قال تشتريه بحائط مثله زيتونا ونخلا وعنب قال نعم فقال الرجل أنت تشتريه لله تعالى فلا تبخل قال سل ماشئت قال أنت أكرم على الله منى ولكن ابن لي حوله جدارا مشرقا ثم تملؤه ذهباً وإن شئت ورقا قال داود هذا هين فالتفت الرجل الى بني إسرائيل وقال لهم هذا هو الثائب الخالص ثم قال لداود يانبي الله لأن يغفر الله لي ذنبا واحدا أحب الى من كل شيء وهبت لي ولكنى كنت اختبرتكم فجدوا في بناء بيت المقدس وكان ذلك فيما قيل لاحدى عشرة سنة مضت من ملك داود ، وكان داود ينقل الحجارة على ظهره وكذلك أخيار بني إسرائيل حتى رفعوه قامة وعجزوا فأوحى الله تعالى اليه ان هذا بيت مقدس وانك رجل سفاه الدماء ولست بيبانيه ولكن ابن لك أملكه بعدك اسمه سليمان أسلمه من سفك الدماء وأقضى أتمامه على يديه ويكون صيته وذكره وأجره لك باقيا فصلوا فيه زمانا إلى أن توفي داود عليه السلام واستخلف سليمان فأمره الله تعالى بأتمام بيت المقدس فجمع سليمان الجن والانس والشياطين وقسم عليهم الأعمال وخص كل طائفة بعمل يصلح لها وأرسل الجن والشياطين في تحصيل عمل الرخام والبلور الأبيض الصافي من معادنه وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفائح وجعلها اثني عشر ربضا لكل ربض منها سبط من الأسباط وكانوا اثني عشر سبطا فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ في بناء المسجد فوجه الشياطين فرقا فريق منها يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنه وفريق يغوصون في البحر ويستخرجون أنواع الدر وفريق يقطعون أنواع الرخام وفريق يغوصون على الجواهر وفريق يأتون بالمسك والعنبر وأنواع الطيب من أما كنها فأتى بشيء من ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى ، ثم إنه أحضر الصناع وأمرهم بنحت تلك الحجارة وتنضيدها ألواحا وإصلاح تلك الجواهر ونقشها فكانوا يعالجونها فتصوت صوتا شديدا لصلابتها فكره سليمان تلك الأصوات فدعا الجن وقال لهم هل عندكم حيلة في نحت هذه الجواهر من غير تصويت فقالوا

يأني الله ليس في الجن أكثر تجارب ولا أكثر علما من صخر العفريت فأرسل إليه من يأتيك به فطبع سليمان بخاتمه طابعا وكان يطبع للشياطين بالنحاس ولسائر الجن بالحديد وكان إذا طبع بخاتمه لمع ذلك كالبرق الخاطف فكان لا يراه أحد من جن ولا شيطان إلا انقاد إليه باذن الله تعالى فأرسل الطابع مع عشرة من الجن فأتوه به وهو في بعض جزائر البحر فأروه الطابع فلما نظر إليه كاد أن يصعق خوفا فأقبل مسرعا مع الرسل حتى دخل على سليمان فسأل سليمان رسله عما أحدث العفريت في طريقه فقالوا يأني الله إنه كان يضحك في بعض الأحياء من الناس فقال له سليمان ما رضيت بتمردك على وترك المجيء إلى طاعتي حتى صرت تسخر من الناس فقال يأني الله إني لست أسخر منهم غير أن ضحكي كان تعجبا مما كنت أسمع وأرى في طريقى فقالة له سليمان وما ذاك قال مررت على شط نهر فوجدت رجلا ومعه بغلة يريد أن يسقيها وجرة يريد أن يستقي بها فسقى البغلة وملا الجرة ثم أراد أن يقضى حاجته فشد البغلة بأذن الجرة فنفرت البغلة وكسرت الجرة فضحكت من حمق الرجل حيث توهم أن الجرة تحبس البغلة ومررت أيضا برجل آخر وهو جالس عند إسكاف يستعمله في إصلاح خبأه فسمعتة يشترط عليه أن يصلحه بحيث يبقى معه أربع سنين ونسى نزول ملك الموت إليه من قبله فضحكت من قلة عقله وجهله ومررت بعجوز تتكهن وتخبر الناس بما لا يعلمون من أمور السماء وقد كنت عهدت رجلا دفن في موضع فراشها ذهب كثيرا في الدهور الخالية فرأيتها تموت جوعا وتحت رأسها ذهب كثير وهي لا تعلم بمكانه ثم تخبر الناس بأمر السماء فضحكت منها ومررت برجل في بعض المدن وقد كان به داء فيما قيل فأكل البصل فبرأ من دائه فصار يطلب الناس وكان لا يأتيه أحد يسأله عن علة إلا أمره بأكل البصل وإنه لأضر شيء حتى أن ضرره يصل إلى الدماغ فضحكت منه ومررت في بعض الأسواق فرأيت الثوم وهو أفضل الأدوية يكال كيلا ورأيت الفلفل وهو من السموم القاتلة يوزن وزنا فضحكت ومررت بناس قد جلسوا يبتهلون إلى الله ويسألونه الرحمة والمغفرة فمل منهم قوم فقاموا وجاء آخرون فجلسوا فرأيت الرحمة قد نزلت عليهم وأخطأت الدين كانوا من قبل وغشيت الدين جاءوا فضحكت تعجبا للقضاء والقدر ، فقال له سليمان هل علمت من كثرة تجاربك وجولانك في البحار شيئا ينحت لي هذه الجواهر قتلين ويسهل نحتها وثقبها بلا صوت ؟ قال نعم يأني الله أعرف حجرا أبيض كاللبن يقال له الساموار غير أنني لا أعرف معدنه الذي هو فيه وليس في الطير شيء أحيل ولا أهدى من العقاب فأمر بفراخه أن يجعل في صندوق من تلك الجواهر فإنه يأتي بذلك الحجر فيضرب به الصندوق حتى يثقبه ليصل إلى أولاده قال فأمر سليمان بفراخ العقاب أن تضم في صندوق من حجر منها يوما وليلة فحجب عن أفراخه فمر مسرعا وجاء بالحجر بعد يوم وليلة فثقب به الصندوق حتى وصل إلى أفراخه فوجه سليمان مع العقاب تفرا من الجن حتى أتوه منه بقدر ما علم أن فيه الكفاية واستعمل ذلك في أدوات الصناعات فسهل عليهم نحتها من

غير صوت وهو حجر يستعمل في نقش الخواتيم وثقب الجواهر الى اليوم وهو ثمين عزيز قالوا
فبنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر وعمده من الما الصافي وسقفه بألواح
الجواهر الثمينة وفصص سقفه وحيطانه بالآلئ والياقوت وأنواع الجواهر وبسط أرضه بألواح
الفيروزج فلم يكن يوجد يومئذ في الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد وكان يضيء في
الليل كالقمر في ليلة البدر ، فلما فرغ منه جمع اليه أحبار بني اسرائيل وأعلمهم أنه بناء لله تعالى وكل
شيء منه خالص لله تعالى واتخذ ذلك اليوم الذي فرغ منه عيداً لم يتخذ في الأرض قط أعظم
عيد من ذلك اليوم ولا أطعمة أكثر منه فذبح فيه من الجزر ألف جزور ومن البقر خمسة وعشرين
ألفاً معلوفة ومن الغنم أربعمائة ألف شاة . قالوا ومن عجائب ما اتخذ سليمان بيت المقدس أنه بنى
بيتاً وطين حائطه بالجص وصقله فكان إذا دخله البار استبان خياله في ذلك الحائط أبيض وإذا
دخله الفاجر استبان خياله في ذلك الحائط أسود فارتدع من ذلك كثير من الناس عن الفجور
والجناية ونصب في زاوية من زوايا المسجد عصا ابنوس فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم يضره
منها شيء ومن مسها من غيرهم احترقت يده ، فلما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس قرب قرباناً على
الصخرة ثم قال اللهم أنت وهبت لي هذا الملك منامك عليّ وجعلتني خليفتك على أرضك وأكرمتني
به من قبل أن أكون شيئاً فلك الحمد ، اللهم إني أسألك لمن دخل هذا المسجد خالصاً أن لا يدخله أحد
يصلّي فيه ركعتين مخلصاً فيهما الا يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، ولا يدخله مذنب إلا تبت عليه
ولا خائف الأمتة ولا سقيم الاشقيته ولا مجذب الأخصبته وأغنيته ، وإذا أجيبت دعوتي وأعطيتني
طلبتي فاجعل علامته أن تتقبل قرباني . قال : فنزلت نار من السماء فسدت ما بين الحافقين ثم امتد
منها عنق فاحتمل القربان وصعد به إلى السماء وكان بيت المقدس على ما بناه سليمان عليه السلام إلى
أن غزا بختنصر بني اسرائيل فحرب بيت المقدس وألقى فيه الجيف وكبسه بالتراب وتقل جميع ما فيه
من الذهب والفضة والجواهر والآنية إلى أرض بابل ، وكان بيت المقدس خراباً إلى أن بناه المسلمون
في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأمره والله أعلم .

باب قصة بلقيس ملكة سبأ والمهدد وما يتصل به

قال الله تعالى - وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى المهدد أم كان من الغائبين - الآية ، قالت العلماء
بأخبار القدماء : إن نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى
أرض الحرم فتجهز للمسير واصطحب معه من الناس والجن والشیاطين والطيور والوحش ما بلغ عسكره
مائة فرسخ وأمر الريح الرخاء فحملتهم فلما وافوا الحرم أقام به ما شاء الله أن يقيم وقرب القرابين وقضى
لناسك وبشر أهله بخروج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأخبرهم ابنه سيد الأنبياء وخاتم النبيين وأن
ذلك مثبت في زبورهم ، ثم أحب أن يسير إلى أرض اليمن فخرج من مكة صباحاً وسار نحو اليمن يوم نعيم

سهيل فوافي صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا بيضاء حسنة تزهر بمحسرتها فأحب النزول بها ليصلى ويتغدى فطلبوا الماء فلم يجدوه وكان الهدهد دليلا وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى أحدكم كأسه بيده ، فينقر الأرض فيعرف موضع الماء وعمقه ثم تجيء الشياطين فيسلخونه كما يسلخ الالهاب يستخرجون الماء . قال سعيد بن جبير : لما ذكر ابن عباس هذا الحديث قال له نافع بن الأزرق كيف يبصر الماء من تحت الأرض ولا يبصر الفخ اذا غطى له بقدر أصبع من تراب ؟ قال ويحك اذا جاء القدر عمى البصر . وروى قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « أنها كم عن قتل الهدهد فانه كان دليل سليمان على الماء » فطلب سليمان الهدهد فلم يجده فتوعده ، ثم إن الهدهد لما جاء قال - وجئتكم من سبأ بنبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم - الآية وذلك أنه لما نزل سليمان قال الهدهد في نفسه إن سليمان قد اشتغل بالنزول فارتفع إلى نحو السماء ونظر إلى طول الدنيا وعرضها ونظر يميننا وشمالا فرأى بستان بلبقيس فقال إلى الحضرة فوقع فيها فاذا هو بهدهد اليمين فهبط عليه وكان اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمين عفير فقال عفير ليعفور من أين أقبلت وإلى أين تريد ؟ قال أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود عليه السلام فقال له الهدهد ومن سليمان ابن داود ؟ قال ملك الجن والانس والشياطين والوحوش والرياح فمن أين أنت قال أنا من هذه البلاد قال ومن ملكها قال امرأة قال فما اسمها قال يقال لها بلقيس وان لصاحبكم سليمان ملكا عظيما ولكن ليس ملك بلقيس دونه فانها ملكة اليمين كله وتحت يدها اثنا عشر ألف قيل مع كل قيل مائة ألف مقاتل والقيل هو القائد بلغة أهل اليمين فهل أنت منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها قال فاني أخاف أن يتفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء فقال الهدهد اليماني إن صاحبك ليس به أن تأتبه بخبر هذه الملكة فانطلق معه حتى أتى بلقيس ونظر ملكها وما رجع إلى سليمان إلا وقت صلاة العصر قال فلما نزل سليمان ودخل عليه وقت صلاة العصر طلب الهدهد ، وذلك أنه نزل على غير ماء فسأل الانس عن الماء فقالوا لانعلم ههنا ماء فسأل الجن والشياطين فقالوا لانعلم فتفقد عند ذلك الهدهد فلم يجده فتوعده .

قال ابن عباس في بعض الروايات عنه : وقعت قطعة من الشمس على رأس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عن الهدهد فقال أصلح الله الملك ما أدرى أين هو وما أرسلته الى موضع فغضب عند ذلك سليمان وقال - لأعذبه عذابا شديدا أولاذبجحه - واختلف العلماء في العذاب الشديد ما هو ؟ فقال أكثر المفسرين : كان عذابه أن يتنف ريشه وذنبه ويدعه ممعطا ثم يلقيه في بيت النمل فتلدغه . وقال الضحاك : لأتفنه ولأشدن رجله ولأشمسه وقال مقاتل : لأطليه بالقطران ولأشمسه ، وقيل لأودعنه القفص ، وقيل لأفرقن بينه وبين الفه . وقيل لأمنعه من خدمتي - أولياتيني بسلطان مبین - أي حجة واضحة .

وروى عكرمة عن ابن عباس قال : كل سلطان في القرآن حجة ، قال ثم دعا العقاب سيد الطيور

فقال له عليّ بالهدهد الساعة ، فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى التصق بالهواء فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم فنظر يمينا وشمالا ، فاذا هو بالهدهد مقبلا من نحو اليمن فانقض العقاب نحوه يريد به فلما رأى الهدهد أن العقاب يريد به سوء ناشده الله وقال بحق الذي قوّاك وأقدرك عليّ إلا رحمتي ولا تتعرض لي بسوء ، قال فولى العقاب عنه وقال له ويلك ثكلتك أمك إن نبي الله سليمان قد حلف أن يعذبك أو يذبحك ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلما اتبها إلى المعسكر تلقاهم النسر والطير كله وقالوا له أين غبت في يومك هذا فلقد توعدك نبي الله سليمان وأخبروه بما قال ، فقال الهدهد وما استثنى نبي الله قالوا بلى إنه قال - أوليائتي بسلطان مبین - فطار الهدهد والعقاب حتى أتيا سليمان وكان قاعدا على كرسيه ، فقال العقاب قد أتيتك به يا نبي الله ، فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وألقى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض تواضعا لسليمان فمد سليمان يده إلى رأسه فجذبها وقال أين كنت لأعذبك عذابا شديدا فقال له الهدهد يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله ، فلما سمع ذلك سليمان ارتعد وعفا عنه .

أخبرني الحسين بن محمد الثقفى بإسناده عن عكرمة فقال : إنما صرف سليمان عن ذبح الهدهد به بوالديه ثم سأله ما الذي أبطأك عني قال الهدهد ما أخبر الله به - أحطت بما لم تحط به - أي علمت بما لم تعلم به - وجئت من سبأ نبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء - واسمها بلقيس بنت البشير وهو الهذهاذ ، وقيل هي بلعمة بنت شراحيل بن ذي جدين بن البشير بن الحارث ابن قيس بن صنعاء بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وكان أبو بلقيس الذي يسمى البشير ويلقب بالهذهاذ ملكا عظيم الشأن وكان ملك أرض اليمن كلها وكان يقول للملوك الأطراف ليس أحد منكم كفؤا لي وأبي أن يتزوج منهم فزوجوه بامرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت الشكر وكانت الانس اذ ذاك ترى الجن وتخالطهم فولدت له بلعمة وهي بلقيس ولم يكن له ولد غيرها وتصدق هذا ما أخبر به ابن ميمونة بإسناده عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « كان أحد أبوي بلقيس جنيا » قالوا فلما مات أبو بلقيس ولم يخلف ولدا غيرها طمعت في الملك وطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها آخرون فاخترأوا عليها رجلا فملكوه عليهم وافترقوا فرقتين كل فرقة منهم استولت على طرف من أرض اليمن ، ثم ان هذا الرجل الذي ملكوه أساء السيرة في أهل مملكته حتى كان يمد يده إلى حرم رعيته يفجر بهن فأراد أصحابه خلعه فلم يقدروا عليه فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة فأرسلت إليه وعرضت نفسها عليه فأجابها الملك إلى ذلك ، وقال مامعنى أن أبتدئك بالخطبة إلا اليأس منك فقالت لا أرغب عنك فانك كفؤ كريم فاجمع رجالى وقوى واخطبني منهم فجمعهم وخطبها منهم ، فقالوا لانراها تفعل هذا . فقال إنما هي التي ابتدأتني وإنى أحب أن تسمعوا قولها فتشهدوا عليها ، فلما جاءوها وذكروا لها ذلك قالت نعم إني أحبت الولد ولم أجبه منذ كنت أرغب عن هذا والساعة قد رضيت له

فزوجوها منه ، فلما زفت اليه خرجت في أناس كثير من خدمها وحشمها حتى غصت منازلهم ودوره بهم ، فلما جاءت سقته الحمر حتى سكر ثم حزت رأسه وانصرفت من الليل الى منزلها ، فلما أصبح الناس ورأوا الملك قتيلاً ورأسه منصوب على باب داره علموا أن تلك النكاكة كانت مكرماً وخديعة منها فاجتمعوا اليها وقالوا لها أنت أحق بهذا الملك من غيرك فقالت لولا العار والنار ماقتلته ولكن رأيت قد عمّ فساد فأخذتني الحمية ففعلت به ما فعلت فملكوها واستثبت أمرها في المملكة . وروى ابن ميمونة بإسناده عن الحسن بن علي عن أبي بكر . قال ذكرت بلقيس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » قالوا فلما ملكت بلقيس اتخذت قصراً وعرشاً .

صفة القصر الذي بنته بلقيس

قال الشعبي : روى أن بلقيس لما ملكت أمرت ببناء قصر فحمل اليها خمسمائة أسطوانة من رخام طول كل أسطوانة خمسون ذراعاً فأمرت بها فنصب على تل قريب من مدينة صنعاء وجعلت بين كل أسطوانتين عشرة أذرع ، ثم جعلت فيها سقفا منظومة بألواح الرخام والحم بعضها الى بعض بالرصاص حتى صارت كأنها لوح واحد ، ثم بنت فوق ذلك قصراً مربعاً من آجر وجمص في كل زاوية من زواياه قبة من ذهب مشرفة في الهواء وفيما بين ذلك مجالس حيطانها من ذهب وفضة مرصعة بألوان الجواهر المربعة وجعلت فيه : أي في باب ذلك القصر ممّا يلي المدينة برجاً من الرخام الأبيض والأخضر والأحمر ، وفي جوانبه حجر لحجابها ونوابها وحراسها وخدمها وحشمها على قدر مراتبهم .

صفة عرشها

كان مقدمه من ذهب مفصص بالياقوت الحمر والزمرد الأخضر ومؤخره من فضة مكلل بألوان الجواهر ، وله أربع قوائم ، قائمة من ياقوت أحمر ، وقائمة من ياقوت أخضر ، وقائمة من زمرد أخضر ، وقائمة من درأصفر وصفائح السرير من الذهب وعليه سبعون بيتاً وعلى كل بيت باب مغلق ، وكان طوله ثمانين ذراعاً في ثمانين ذراعاً في الهواء فذلك قوله عز وجل - وأوتيت من كل شيء - أي مما تحتاج اليه في الملك من الآلة والعدة - ولها عرش عظيم - أي سرير ضخم حسن - وجدتتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله - وذلك أنها قالت لوزرائها ما كان يعبد آباؤنا الماضون ، قالوا كانوا يعبدون إله السماء ، قالت وأين هو ؟ قالوا هو في السماء وعليه في الأرض ، قالت فكيف أعبدونه وأنا لا أراه ولست أعرف شيئاً أشد من نور الشمس فهي أولى ما ينبغي لنا عبادته فعبدت الشمس من دون الله تعالى وحملت قومها على عبادتها وكانوا يسجدون لها إذا طلعت وإذا غربت .

قال : فلما قال ذلك الهدهد لسليمان . قال له سليمان - سننظر أصدق أم كنت من الكاذبين ثم ان الهدهد دلهم على الماء فاحتفروا الركيا وهي الآبار التي لم تطو يطن كل واد فروى الناس والدواب وكانوا قد عطشوا ، ثم كتب سليمان كتابا من عبد الله سليمان بن داود الى بلقيس ملكة سبأ بسم الله الرحمن الرحيم - السلام على من اتبع الهدى - أما بعد - أن لا تعلوا على واثقوني مسلمين - قال ابن جريج وغيره ولم يزد سليمان على ما قص الله تعالى في كتابه شيئا وكان أبلغ الناس في كتابه وأقله إملاء ، وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يكتبون جملا ولا يطيلون كتابا ولا يكثرُونَ ، قالوا فلما كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه ، وقال للهدهد - اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم - وكن قرينا منهم - فانظر ماذا يرجعون - أي يردون من الجواب فأخذ الهدهد الكتاب وآتى به الى بلقيس وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام فوافاها في قصرها وقد غلقت الأبواب وكانت اذا رفدت غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها ومضت الى فراشها فأثاها الهدهد وهي نائمة مستلقية على ظهرها فألقى الكتاب على نحرها هذا قول قتادة ، وقال مقاتل - حمل الهدهد الكتاب بمنقاره وطار حتى وقف على رأس المرأة فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها ، وقال وهب بن منبه : كانت لها كوة ، يعنى طاقة مستقبلة للشمس تقع الشمس فيها حين تطلع ، فاذا نظرت اليها سجدت لها ، فجاء الهدهد الى تلك الكوة فسدها بجناحيه فارتفعت الشمس ولم تعلم فاستبطأت الشمس فقامت تنظرها فرمى الصحيفة في وجهها قالوا فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة كآنية عريية من قوم تبع بن شراحيل الحميري ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان كان في خاتمه وعرفت أن الذي أرسل هذا الكتاب هو أعظم ملكا منها ، وقالت إن ملكا تكون رسله الطير لملك عظيم فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد ، ثم إنها جاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت اللا من قومها وهم اثنا عشر ألفا قيل تحت يد كل قيل منهم مائة مقاتل وكانت تكلمهم من وراء الحجاب ، فاذا حزبها أمر أسفرت عن وجهها ، فلما جاءوا وأخذوا مجالسهم ، قالت لهم بلقيس : إني ألقى الى كتاب كريم : أي شريف لشرف صاحبه ، وقال الضحاك : سمته كريما لأنه كان محتوما يدل عليه ما أخبرني به أبو حامد الوراق بإسنادة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كرم الكتاب ختمه » وقيل سمته كريما لأنه مصدر بيسم الله الرحمن الرحيم ، فذلك قوله تعالى - إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا على واثقوني مسلمين - ثم قالت - يا أيها اللا أفتوني في أمري - وأشيروا على فيما عرض لي - ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون - أي تحضرون ، فقالوا مجيبين لها - نحن أولو قوة وأولو بأس شديد - عند الحرب - والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين - تجدينا لأمرك طائعين ، فقالت لهم بلقيس حين عرضوا أنفسهم للحرب

— إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة — أى أهانوا أشرفها وكبراءها لكي يستقيم لهم الأمر فصدق الله قولها ، فقال — وكذلك يفعلون — أنشدنى أبو القاسم الجنيد فى هذا المعنى . قال أنشدنى أبى فى معناه :

ان الملوك بلاء حيثما حلوا فلا يكن لك فى أكنافهم ظل
ماذا تأمل من قوم اذا غضبوا جاروا عليك وان أرضيتهم ملوا
وان مدحتهم خالوك تخدعهم واستتقلوك كما يستتقل السكل
فاستغن بالله عن أبوابهم كرما ان الوقوف على أبوابهم ذل

قال الله تعالى مخبرا عنها — وإنى مرسله اليهم بهدية — وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة عاقلة قد ساست الملأ من قومها وجربت الأمر وساسته — إنى مرسله اليهم — الى سليمان وقومه بهدية أصانعه عن ملكى وأخبره بها أملك أم نبى ، فان يك ملكا قبل الهدية وانصرف ، وان يك نبيا لم يقبل الهدية ولم يرض منا إلا أن تتبعه على دينه ، ثم إنها أهدت اليه ووصفاء ووصائف . قال ابن عباس : ألبستهم لباسا واحدا حتى لا يكون يعرف الذكر من الأنثى ، وقال مجاهد : ألبست الغلمان لباس الجوارى وألبست الجوارى لباس الغلمان . واختلفوا فى عددهم ، فقال الكلبي عشرة جوار وعشر غلمان ، وقال مقاتل مائة وصيف ومائة وصيفة ، وقال مجاهد مائتا غلام ومائة جارية ، وقال وهب خمسمائة غلام وخمسمائة جارية ، وأرسلت اليه أيضا بصفائح الذهب واختلفوا فى كميتها وعددها .

أخبرنى ابن ميمونة أيضا باسناده عن ثابت البنانى فى قوله تعالى — وإنى مرسله اليهم بهدية — قالت أهدت له صفائح الذهب فى أوعية الديباج ، فلما بلغ ذلك سليمان أمر الجن فموهوا له الآجر بالذهب ، ثم أمر به فألقى فى الطريق فى كل مكان فلما جاءوا رأوه ملقى فى الطريق فى كل مكان ، قالوا قد جئنا نحمل شيئا نراه ههنا ملقى لا يلتفت اليه فصغرى أعينهم ما جاءوا به ، وقيل كانت أربع لبنات من ذهب وقال وهب بن منبه وغيره من أهل الكتب عمدت بلقيس الى خمسمائة جارية وخمسمائة غلام ، فألبست الجوارى لباس الغلمان الأقيية والمناطق ، وألبست الغلمان لباس الجوارى ، وجعلت فى سواعدهم أساور من ذهب ، وفى أعناقهم أطواقا من ذهب ، وفى آذانهم أقراطا وشنوفا مرصعات بأنواع الجواهر ، وحملت الجوارى على خمسمائة فرس والغلمان على خمسمائة برذون على كل فرس سرج من ذهب مرصع بالجواهر غواشيها من الديباج الملون ، وبعثت اليه أيضا خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة وتاجا مكلا بالدر والياقوت المرتفع وأرسلت اليه أيضا بالمسك والعنبر والعود والألنجوج وعمدت الى حقة فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وجزع خرزة مثقوبة معوجة الثقب ودعت رجلا من أشرف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت اليه رجالا من قومها أصحاب رأى وعقل وكتبت معهم كتابا بنسخة الهدية ، وقالت

في الكتاب : إن كنت نبيا فميز بين الوصائف والوصفاء وأخبرنا بما في الحقة قبل أن تفتحها واثقب الدرة ثوبا مستويا وأدخل خيطا في الخرزة ، ثم أمرت بلقيس الغلمان ، فقالت لهم : إذا كلمكم سليمان فكلّموه بكلام فيه تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء ، وأمرت الجوارى أن يكلموه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ، ثم اتها قالت للرسول : انظر الى الرجل اذا دخلت عليه ، فان نظر اليك نظر غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولك منظره فأنا أعز منه ، وإن رأيته رجلا بشاشا لطيفا فاعلم أنه نبي مرسل فتفهم كلامه ورد الجواب فانطلق الرسل بالهدايا ، فلما رأى الهدهد ذلك أقبل مسرعا الى سليمان وأخبره بالخبر كله فأمر سليمان الجن أن يصنعوا له لبنا من الذهب والفضة ففعلوا ذلك ، ثم أمرهم أن يبسطوا له من موضعه الذي هو فيه الى تسع فراسخ ميدانا واحدا بلبات الذهب والفضة ، وأن يجعلوا حول الميدان حيطانا مشرفة من الذهب والفضة ففعلوا ذلك ، فقال لهم : أي الدواب أحسن مما رأيتم في البر والبحر فقالوا : يا نبي الله إنا رأينا في بحر كذا دواب مختلفة ألوانها ، لها أجنحة وأعراف ونواص ، فقال : سليمان : على بها الساعة فأتوه بها ، فقال : شدوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبناات الذهب والفضة ، وألقوا لها علوفة فيها ، ثم قال للجن . على بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقامهم فيها عن يمين الميدان وعن يساره ، ثم قعد سليمان في مجلسه على سريرته ووضع أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثلها عن يساره ، وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفا فراسخ ، وأمر الإنس فاصطفوا فراسخ وأمر الوحوش والسباع والحوام والطيور فاصطفوا فراسخ عن يمينه وعن يساره ، فلما أقبل القوم ودنوا من الميدان ونظروا الى ملك سليمان ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم مثلها تروث على لبن الذهب والفضة تقاصرت اليهم أنفسهم ورموا بما معهم من الهدايا .

وفي بعض الروايات أن سليمان عليه السلام لما أمر بفرش الميدان بلبناات الذهب والفضة وأمرهم أن يتركوا في طريقهم على قدر اللبناات التي معهم ، فلما رأت الرسل موضع اللبناات خاليا وكل الأرض مفروشة خافوا أن يهتموهم بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان .

قال : فلما جاءوا الى الميدان ورأوا الشياطين نظروا إلى منظر عجيب ففرعوا منهم ، فقبل لهم : جوزوا فلا خوف عليكم . قال : فكانوا يمرون على كردوس كردوس من الجن والإنس والطيور والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان عليه السلام فنظر اليهم سليمان نظرا حسنا بوجهه طلق ، وقال : ما وراءكم فأخبره رئيس القوم بما جاءوا به وأعطوه كتاب الملكة ، فلما نظر اليه وقرأه ؟ قال لهم : أين الحقة فأثى بها فحركها ، فجاءه جبريل عليه السلام فأخبره بما في الحقة . فقال : إن فيها درة ثمينة بلا ثقب وخرزة مثقوبة معوجة الثقب . فقال له الرسول : صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط في الخرزة ، فقال سليمان عليه السلام : من لي بثقبها فسأل الإنس فلم

يكن عندهم علم ذلك . ثم سأل الجن فلم يكن عندهم علم ذلك ، ثم سأل الشياطين ، فقالوا له : أرسل الى الأرضة فأرسل اليها ، فلما أتت أخذت شعرة في فيها ومرت في الخرزة حتى خرجت من الجانب الآخر ، فقال لها سليمان : سلى حاجتك . قالت : أن تصير رزقي في الشجر ، قال لك ذلك ، ثم قال : من لهذه الخرزة يسلكها بالحيط ؟ فقالت : دودة بيضاء أنا لها يابني الله ، فأخذت الدودة خيطا في فيها ودخلت الثقب فخرجت من الجانب الآخر ، فقال لها سليمان ما حاجتك ؟ فقالت أن تصير رزقي في الفواكه . قال لها لك ذلك ، ثم انه ميز بين الجوارى والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فكانت الجارية تأخذ الماء من الآنية باحدى يديها ثم تجعله في اليد الأخرى ثم تضرب به الوجه والغلام يأخذه من الإناء يديه ويضرب به وجهه ، وكانت الجارية تصب على باطن ساعدها والغلام على ظهر الساعد ، وكانت الجارية تصب الماء صبا وكان الغلام يحذر الماء على ساعده حدرا فيز بينهم بذلك ، ثم رد سليمان الهدية كلها ، وقال - أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أتم بهديتكم تفرحون - لأنكم أهل المفاخرة والمكاثرة في الدنيا ولا تعرفون غير ذلك ، وليست الدنيا من حاجتي لأن الله تعالى قد مكنتني منها وأعطاني ما لم يعط أحدا من العالمين فيها ، ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى أكرمني بالنبوة والحكمة ، ثم انه قال للمنذر بن عمرو أمير القوم - ارجع إليهم بالهدية فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون - إن لم يأتوني مسلمين . قالوا فلما رجعت رسل بلقيس اليها من عند سليمان وأخبروها . قالت : والله ما هذا بملك ومالنا به من طاقة ، فبعثت الى سليمان عليه السلام إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو اليه من دينك . ثم ان بلقيس أمرت بعرشها فجعل في سبعة أبيات : بعضها داخل بعض في آخر قصر من قصورها ، ثم أغلقت دونه الأبواب ووكلت به حراسا يحفظونه ثم انها قالت لمن خلفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك وسرير ملكي فلا تخلص إليه أحدا ولا يراه حتى آتيك ، ثم إنها أمرت مناديا ينادي في أهل مملكته ليؤذنهم بالرحيل ، ثم شخصت الى سليمان في اثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن ، تحت يد كل قيل مائه ألف مقاتل . قال ابن عباس . وكان سليمان عليه السلام رجلا مهيبا لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه ، فخرج يوما فجلس على سرير ملكه فرأى رهجا قريبا منه ، فقال ما هذا ؟ قالوا بلقيس يا رسول الله . قال : أو قد نزلت منا بهذا المكان ؟ قالوا نعم .

قال ابن عباس : وكان ما بين الكوفة والحيرة قدر فرسخ فأقبل سليمان على جنوده وقال : - أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين - أي طائعين خاضعين .

واختلف العلماء في السبب الذي لأجله أمر سليمان باحضار العرش ، فقال أكثرهم لأن سليمان علم أنها اذا أسلمت حرم عليه مالها ، فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه باسلامها

وقال قتادة : لأنه أعجبه صفته لما وصفه الهدهد فأراد أن يراه قبل أن يراها ، وقيل ليرىها قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه في معجزة يأتي بها في عرشها - قال عفريت من الجن - وهو المارد القوي - أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك - أي مجلسك الذي تقضى فيه . قال ابن عباس : كان له غداة كل يوم مجلس يقضى فيه إلى نصف النهار .

واختلفوا في اسمه ، فقال وهب : انه كودي ، وقال شعيب : انه كوزان - وإني عليه لقوى - أي قوى على حمله - أمين - على ما فيه من الجواهر . فقال سليمان : أريد أسرع من هذا ، - فقال الذي عنده علم من الكتاب - . واختلفوا فيه ، فقال بعضهم : هو جبريل عليه السلام . وقال آخرون : ملك من الملائكة أيد الله به نبيه عليه السلام . وقال آخرون : بل كان رجلا من بني آدم . ثم اختلفوا فيه فقال أكثر المفسرين هو آصف بن برخيا بن شمعي بن ملكيا وكان صديقا يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى .

أخبرنا ابن ميمونة بأسناده عن ابن عباس قال ان آصف قال لسليمان حين صلى ودعا الله تعالى مد عينيك حتى ينتهي طرفك ، قال فمد سليمان عينيه فنظر نحو اليمين فبعث الله الملائكة فحملوا السرير من تحت الأرض يحدون الأرض خدا حتى انخرقت الأرض بالسرير فنبع بين يدي سليمان .

واختلف العلماء في الدعاء الذي دعا به آصف بن برخيا عند الاتيان بالعرش ، فروى عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها أن الاسم الأعظم الذي دعا به آصف بن برخيا : يا حي يا قيوم ، وروى عن الزهري قال : دعاء الذي عنده علم من الكتاب يا إلهنا وإله كل شيء إلهنا واحدا لا إله إلا أنت اثنتي بعرشها . وقال مجاهد : يا ذا الجلال والإكرام .

حدثنا ابن ميمونة بأسناده عن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : الذي عنده علم من الكتاب رجل صالح ، وكان في جزيرة من جزائر البحر فخرج ذلك اليوم ينظر مساكن الأرض وهل يعبد الله أو لا يعبد فوجد سليمان فدعا باسم من أسماء الله تعالى فاذا هو بالعرش قد حمل فأتى به سليمان عليه السلام من قبل أن يرتد إليه طرفه ، وبأسناده عن مجاهد قال : حدثنا سهيل بن حرب قال زعم ابن أبي بردة أن اسم الذي عنده علم من الكتاب أسطوم . وقال قتادة : اسمه مليحا ، وقال محمد بن النكدر : إنما هو سليمان آتاه الله علما وفقها قال له عالم من بني إسرائيل - أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك - فقال سليمان هات ، قالت النبي ابن النبي وليس أحد عند الله أوجه منك ، فان دعوت الله وطلبت منه كان عندك . قال صدقت ففعل ذلك فجاء بالعرش في الوقت ، فلما رأى سليمان العرش مستقرا عنده شحمولا من إليه من مأرب إلى الشام في قدر ارتداد الطرف وهو مدة يسيرة - قال هذا من فضل ربي ليأوني أشكر أم أكفر ومن شكر فأنما يشكر لنفسه - أي لم ينفع بذلك إلا نفسه حيث استوجب

شكره لتمام النعمة ودوامها لأن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة - ومن كفر فان ربي غنى - عن شكره - كريم - الافضال عمن يكفر نعمته ، فقال سليمان عليه السلام - نكروا لها عرشها - أى زيدوا فيه واتقصوا منه واجعلوا أعلاه أسفله وأسفله أعلاه - ننظر أتهتدى - الى عرشها فتعرفه - أم تكون من الجاهلين - الذين لا يهتدون اليه أراد أن يختبر عقلها ، وانما حمل سليمان على ذلك ما ذكره وهب بن منبه ومحمد بن كعب وغيرهما من أهل العلم أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان ويستولدها فتفتشى اليه أسرار الجن فلا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده فأرادوا أن يزهّدوه فيها فأساءوا الثناء عليها وقالوا له ان فى عقلها شيئا وان رجلها كحافر حمار فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتكثير عرشها وينظر الى قدميها ببناء الصرح ، فلما جاءت بلقيس - قيل لها أهكذا عرشك قالت كأنه هو - فشبهته به وكانت قد تركته خلفها فى بيت مسعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها فلم تقرب بذلك ولم تنكر فعلم سليمان كمال عقلها .

قال الحسين بن الفضل : شبهوا عليها فشبهت عليهم وأجابتهم على حسب سؤالهم ، ولو قالوا لها هذا عرشك لقالت نعم ، فقال سليمان : وأوتينا العلم بابتلائها ومجيئها طائعة من قبلها : أى من قبل مجيئها وكنا مسامحين طائعين خاضعين لله تعالى هذا قول مجاهد وغيره ، وقال بعضهم هو من قول بلقيس لما رأت عرشها عند سليمان قالت قد عرفت هذا وأوتينا العلم بصحة نبوة سليمان عليه السلام بالآيات المتقدمة من قبلها : أى من قبل هذه الآية - وكنا مسلمين - أى منقادين لك مطيعين لأمرك من قبل أن جئناك ، فلما وافى سليمان عليه السلام قيل لها ادخلى الصرح وذلك أن سليمان لما أقبلت بلقيس تریده أمر الشياطين فبنوا له صرحا : أى قصرا من زجاج كأنه الماء يابضا وأجروا من تحته الماء وألقى فيه السمك ، ثم وضع سريره فى صدره ، وجلس عليه وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، وانما أمر ببناء الصرح لأن الشياطين قال بعضهم لبعض قد سخر الله لسليمان ماسخر وبلقيس ملكة سبأ ينكحها فتلد غلاما فلا تنفك من العبودية والسخرة أبدا ، فأرادوا أن يزهّدوه فيها ، فقالوا ان رجلها رجل حمار وانها شعراء الساقين لأن أمها كانت جنية فأراد سليمان أن يعلم حقيقة ذلك وينظر قدميها وساقها فأمر ببناء الصرح . وقال وهب بن منبه : انما بنى الصرح ليختبر عقلها وفهمها يعاينها بذلك كما فعلت هى بتوجيهها إليه الوصائف والوصفاء ليميز بين الذكر والأنثى فلما جاءت بلقيس ، قيل لها ادخلى الصرح ، فلما رآته حسبه لجة وهى معظم الماء فكشفت عن ساقها لتخوضه إلى سليمان فنظر سليمان عليه السلام : فاذا هى أحسن الناس ساقا وقدماء إلا أنها كانت شعراء الساقين ، فلما رأى سليمان ذلك صرف بصره عنها ونادىها انه صرح ممرّد من قوارير وليس بماء ، فلما جلست قالت له ياسليمان إني أريد أن أسألك عن شيء قال سلى قالت أسألك عن ماء ليس من الأرض ولا من السماء ، وكان سليمان إذا جاء شيء لا يعلمه سأل عنه الإنس ، فان كان عندهم علم ذلك وإلا سأل الجن

فإن علموا والا سأل الشياطين فسأل الشياطين عن ذلك ، فقالوا ما أهون ذلك أوامر بالحيل أن تجري ثم املاً الآنية من عرقها ، فقال لها سليمان عرق الحيل ، فقالت صدقت ، ثم قالت أخبرني عن كون ربك فوثب سليمان عن سريرته وخرّ ساجدا وصعق فقامت عنه وتفرقت جنوده فجاءه جبريل عليه السلام ، وقال له يا سليمان يقول لك ربك ما شأنك قال يا جبريل ربي أعلم بما قالت ، قال فإن الله يأمرك أن تعود إلى سريرك فترسل إليها وإلى من حضرها من جنودك وجنودها فتسألها وتسألهم عما سألتك عنه ففعل ذلك سليمان فلما دخلوا عليه واستقروا . قال لها عماذا سألتني قالت عن ماء ليس من أرض ولا من سماء فأجبت . قال : وعن أي شيء سألتني أيضا ، قالت ما سألتك عن شيء إلا هذا فسأل الجنود ، فقالوا مثل قولها وأنساهم الله تعالى ذلك وكفى الله سليمان الجواب ، ثم إن سليمان دعاها إلى الاسلام وكانت قد رأت حال الهدد والهدية والرسول والعرش والصرح فأجابت وقالت ربّ إني ظلمت نفسي بالكفر وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

واختلف العلماء : في أمرها بعد الاسلام ، فقال أكثرهم لما أسلمت بلقيس أراد سليمان أن يتزوجها فلما همّ بذلك كره لما رأى من شدة كثرة شعراقتها وقال ما أقبح هذا فسأل الإنس عما يذهب ذلك فقالوا موسى ، فقالت المرأة ما لمسني حديد قط فكره سليمان موسى ، وقال إنها تقطع ساقها فسأل الجن ؟ فقالوا لا ندرى ، ثم سأل الشياطين فتكروا عليه وقالوا لا ندرى ، فلما ألح عليهم قالوا نحن نحتال لك عليه حتى يكون كالفضة البيضاء فاتخذوا لها النورة والحمام .

قال ابن عباس : انه أول يوم رؤيت فيه النورة فاستنكحها سليمان عليه السلام .

أخبرني ابن ميمونة بسنده عن أبي موسى يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : أول من اتخذ الحمامات سليمان عليه السلام . فلما التصق ظهره بالجدار . قال أوّاه من عذاب الله تعالى ، قالوا فلما تزوجها سليمان أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها وأمر الجنّ فبنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعا وحسنا وهي سلحين وغمدان وبنين ، ثم إن سليمان كان يزورها في كل شهر مرة بعد أن ردها إلى ملكها ويقم عندها ثلاثة أيام ثم يكر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام .

وروى محمد بن اسحق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه . قال سليمان بلقيس : لما أسلمت وفرغ من أمرها اختارني رجلا من قومك حتى أزوجهك إياه ، قالت ومثلي ينكح الرجال يا نبي الله ، وقد كان لي في ملكي وقومي من السلطان ما كان . قال نعم انه لا يكون في الاسلام إلا ذاك ، ولا ينبغي لك أن تحرمي ما أحلّ الله لك ، قالت زوجني إن كان ولا بد من تبع الأكرملك همدان فزوجه إياها ، ثم ردها إلى اليمن وسلط زوجها ذا تبع علي اليمن ودعا سليمان زوبعة أمير جن اليمن فقال له اعمل لذي تبع ما استعملك فيه قال فصنع لذي تبع المصانع باليمن ، ثم لم يزل

بها ملكا يعمل فيها ما أراد حتى مات سليمان عليه السلام . قال فلما حال الحول وبلغ الجن موت سليمان أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى اذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته يامعشر الجن ان سليمان نبي الله قد مات فارفعوا أيديكم قال فعمدت الشياطين الى حجرين عظيمين فكتبوا فيهما كتابا بالمسند يعنى خط الحميرية نحن بنينا سلحين وابنيين وبنينا صرواح ومرواح وفنقون وهندة وهنيدة ودلوم ، وهذه الحصون كانت باليمن عملتها الشياطين لذى تبع ولولا صارخ بهامة لما رفعوا أيديهم فانطلقوا وتفرقوا واتقضى ملك ذى تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان عليه السلام والله أعلم .

باب في ذكر غزوة سليمان عليه السلام أبا زوجته الجرادة وخبر الشيطان الذى أخذ خاتمه من يده وسبب زوال ملكه

قال الله تعالى - وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب - وروى محمد بن اسحق عن بعض العلماء أن سليمان أخبر أن في جزيرة من جزائر البحر رجلا يقال له صيدون ملك عظيم الشأن لم يكن للناس اليه سبيل لمكانه في البحر ، وكان الله قد آتى سليمان في ملكه سلطانا لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر فخرج الى تلك المدينة فحملته الريح على ظهرها حتى نزل عليها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها وسبي مافيها فأصاب فيما أصاب بنتا لذلك الملك يقال لها جرادة لم ير مثلها حسنا وجمالا فاصطفاها لنفسه ودعاها الى الاسلام فأسلمت على يده في الظاهر على خيفة منه وقلة ثقة فأحبها حبا شديدا لم يحبه أحدا من نساؤه وكانت منزلتها عنده منزلة عظيمة وكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها ولم يرقأ دمعها فشق ذلك على سليمان ، فقال لها ويحك ماهذا الحزن الذى لا يذهب والدمع الذى لا يرقأ ؟ فقالت إني أذكر أبى وأذكر ملكه وسلطانه وما كان فيه فيحزننى ذلك ؟ فقال لها سليمان قد أبدلك الله ملكا هو أعظم من ملكه وسلطانا هو أعظم من سلطانه وهداك الله الى الاسلام وهو خير لك من ذلك كله ، قالت ان ذلك كذلك ولكنى اذا ذكرت أصابنى ماترى من الحزن فلو أنك أمرت الشياطين يصورون لى صورته فى دارى التى أنا فيها أراء بكرة وعشية لرجوت أن يذهب ذلك حزنى ويسلبنى عن بعض ما أجد فى نفسى ، فأمر سليمان الشياطين أن يمثلوا لها صورة أبيها فى دارها حتى لا تنكر منه شيئا فمثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلا أنه لا روح فيه فعمدت اليه حين صنعوه فأزرتة وقصته وعممته وردته بمثل ثيابه التى كان يلبسها ، ثم إنها كانت اذا خرج سليمان من دارها تعدو اليه فى ولائدها فتسجد له ويسجدن له معها كما كانت تصنع معه فى ملكه وتروح اليه كل عشية تفعل معه مثل ذلك وسليمان لا يعلم بشيء من ذلك أربعين صباحا فبلغ ذلك آصف بن برخيا وكان صديقا وكان لا يرد عن باب سليمان أى ساعة أراد دخول بيته دخل حاضرا أم غائبا فأتاه ، فقال يابى الله كبرسنى ودق عظمى ونقد عمري

وقد حان الذهاب منى ، وقد أحببت أن أقوم مقاما قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله تعالى وأثنى عليهم بعلمى فيهم وأعلم الناس بعض ما يجهلون من كثير من أمورهم ، فقال افعلى فجمع له سليمان الناس ققام فيهم خطيبا فذكر من مضى من أنبياء الله تعالى وأثنى على كل نبى بما فيه وذكر ما فضلهم الله به حتى انتهى الى سليمان فقال له ما كان أحكمك فى صغرك وأورعك فى صغرك وأفضلك فى صغرك وأحكم أمرك فى صغرك وأبعدك من كل ما يكره فى صغرك ثم انصرف فوجد سليمان فى نفسه من ذلك حتى امتلأ غيظا فلما دخل سليمان داره أرسل إليه فلما أتاه قال له يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله تعالى فأثنت عليهم خيرا فى كل أزمانهم وعلى كل حال من أمورهم فلما ذكرتى أثنت على بنى فى صغرى وسكت عما سوى ذلك من أمرى فى كبرى فما الذى أحدثت فى آخر عمرى ؟ فقال له إن غير الله يعبد فى دارك أربعين صباحا فى هوى امرأة ، فقال سليمان فى دارى قال نعم فى دارك ، فقال إنا لله وإنا إليه راجعون لقد علمت أنك ماقلت ماقلت إلا عن شىء بلغك ، ثم إن سليمان رجع الى داره فكسر ذلك الصنم وعاقب تلك المرأة وولائدها ، ثم إنه أمر بثياب الطهر فأثى بها وهى ثياب لا يغزلها إلا الأبقار ولا تمسها امرأة ذات دم فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده وأمر برماد ففرش ، ثم أقبل تائبا الى الله تعالى حتى جلس على ذلك الرماد وتمسك فيه بثيابه تذلل الله تعالى وتضرعا اليه يبكى ويدعو ويستغفر مما كان فى داره ، ويقول فما يقول رب ما كان ينبغى لآل داود أن يعبدوا غيرك وأن يقرؤا فى دورهم وأهاليهم عبادة غيرك فلم يزل كذا يومه حتى أمسى ، ثم رجع الى داره وكانت له وليدة يقال لها أمينة كان اذا دخل مذهبها أو أراد قضاء حاجة أو أراد اصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهر ، وكان لا يمسه خاتمه إلا وهو متطهر لأن خاتمه كان من ياقوتة خضراء أتاه بها جبريل عليه السلام مكتوب عليه لا إله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ملكه فى خاتمه فوضعه يوما من الأيام عندها كما كان يضعه عند دخول مذهبها ، فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان وكان اسمه صخرًا فظنته سليمان لأنها لم تنكر منه شيئا فقال يا أمينة خاتمى فناولته إياه فجعله فى يده ، ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان فعكفت عليه الطير والجن والانس والشياطين ، فخرج سليمان فأثى الى أمينة وقد تغير من حاله ونفسه ما كان معهودا منه عند كل من رآه فقال يا أمينة خاتمى فقالت ومن أنت ؟ قال سليمان بن داود فقالت كذبت لست سليمان فقد جاء سليمان وأخذ خاتمه وها هو جالس على سرير ملكه فعرف سليمان أن الخطيئة قد أدركته فخرج سليمان وجعل يقف على الدار من دور بنى اسرائيل فيقول أنا سليمان بن داود فيحثون عليه التراب ويسبونونه ويقولون انظروا الى هذا المجنون وأى شىء يزعم يقول إنه سليمان ، فلما رأى سليمان ذلك خرج متوجها الى البحر فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر من البحر إلى السوق فيعطونه كل يوم سمكتين فاذا أمسى باع إحدى السمكتين بأرغفة وشوى الأخرى فباعها فمكث كذلك أربعين صباحا

عدة ما كان ذلك الوثن يعبد في داره ، فأنكر آصف بن برخيا وعلماء بني اسرائيل حكم عدو الله الشيطان في تلك الأربعين يوما فقال آصف يامعشر بني اسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم سليمان مارأيت ؟ قالوا نعم فقال أمهلوني حتى أدخل على نساءه فأسألهن هل أنكرن منه في خاصة أمره ما أنكرناه من عامة أمر الناس وعلا نيته فدخل على نساءه فقال لهن ويحك هل أنكرتن من أمر سليمان بن داود ما أنكرناه قتلنا أشد ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة فقال آصف إنا لله وإنا اليه راجعون إن هذا هو البلاء المبين ، ثم إنه خرج الى بني اسرائيل فقال ما في الخاصة أعظم مما في العامة ، فلما مضت أربعون صباحا زال الشيطان عن مجلسه ثم مر في البحر فقذف الخاتم فيه فابتلعه سمكة فاصطادها بعض الصيادين وقد عمل له سليمان صدر يومه ذلك حتى إذا كان العشاء أعطاه السمكتين وكان من جملة السمة التي ابتلعت الخاتم فحمل سليمان سمكته فباع التي ليس في بطنها الخاتم بالأرغفة ثم عمد الى السمكة الأخرى فشقه ليشويها فوجد خاتمه في جوفها فأخذه فجعله في يده ووقع ساجدا فعكفت عليه الطير والجن والانس والشياطين وأقبل على الناس وعلم أن الذي دخل عليه لما أحدث في داره من عبادة الوثن فرجع الى ملكه وأظهر التوبة من ذنبه ثم أمر الشياطين وقال ائتوني بصخر المارد فطلبت الشياطين حتى أتت به فنحت له صخرة فأدخله فيها ثم سد عليه بأخرى ثم أوثقها بالحديد والرصاص ثم أمر به فقذف في البحر فهذا حديث وهب بن منبه .

وقال السدي : في سبب ذلك كان لسليمان مائة امرأة وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة وهي أثر نساءه وآمنهن عنده وكان إذا أراد أن يأتي حاجته أودخل مذهب نزع الخاتم ولم يأتمن عليه أحدا من الناس غيرها فجاءته يوما من الأيام وقالت له إن أخى بينه وبين فلان خصومة وأنا أحب أن تقتضى له إذا جاءك فقال نعم ولم يفعل فابتلى بقوله فأعطاه خاتمه ودخل الخدع فخرج الشيطان في صورته فقال لها هات الخاتم فأعطته فجاء حتى جلس على مجلس سليمان وخرج سليمان بعده فسألها أن تعطيه خاتمه فقالت له ألم تأخذه ؟ فقال لا ، فخرج من مكانه تائبا ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوما فأنكر الناس حكمه واجتمع قراء بني اسرائيل وعلماءهم فجاءوا حتى دخلوا على نساءه فذكروا لهن ما أنكروا قتلن ونحن قد أنكرنا هذا فان كان سليمان قد ذهب عقله وأساء أحكامه فليس لنا صبر على ذلك وبكى النساء عند ذلك ، قال فأقبلوا يمشون حتى أتوه وأحدقوا به وأخذوا مجالسهم ثم إنهم نشروا التوراة فقرءوها فلما قرءوا التوراة طار من بين أيديهم حتى ذهب الى البحر فوق الخاتم منه في البحر فابتلعه الحوت ، قال وأقبل سليمان على حاله التي كان فيها حتى انتهى الى صيادين وهو جائع وقد اشتد جوعه فاستطعمهم من صيدهم ، وقال إني سليمان بن داود فقام اليه بعضهم فضربه بعصاه فشجه فسال دمه وهو على شاطئ البحر (١٩ - قصص الأنبياء)

فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه وقالوا له بشما صنعت حيث ضربته ، فقال إنه زعم أنه سليمان ابن داود فأعطوه سمكتين ممن ضرب عندهم فلم يشغله ما كان فيه من ألم الضرب حتى قام إلى شاطئ البحر فشق بطنهما وجعل يغسلهما فوجد خاتمه في بطن إحداها فأخذه ولبسه فرد الله عليه ملكه وبهاء وجاءت الطير حتى حامت عليه فعرفه القوم فجاءوا يعتذرون إليه مما صنعوا ، فقال ماؤاخذكم على عدوانكم ولألومكم على ما كان منكم هذا ما كان لابد منه ثم جاء حتى أتى ملكه وأمر أن يأتوا بالشيطان الذي أخذ خاتمه فأتى به فجعله في صندوق من حديد ثم أطبقه وأقفل عليه بقفل وختمه بخاتمه ثم أمر به فألقى في البحر وهو فيه كذلك إلى الساعة .

وفي بعض الروايات : أن سليمان عليه السلام لما افتتن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه فأخذه سليمان وأعادته عليه فسقط من يده فلما رآه سليمان لايثبت في يده أيقن بالفتنة ، فقال آصف لسليمان إنك مفتون بذهبك والخاتم لا يماسك أربعة عشر يوما ففر إلى الله تائبا من ذنبك وأنا أقوم مقامك وأسير في عملك وأهل بيوتك بسيرك إلى أن يتوب الله عليك ويردك إلى ملكك ففر سليمان هاربا إلى ربه وأخذ آصف الخاتم فوضعه في يده فثبت وإن الجسد الذي قال الله تعالى - وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب - هو آصف كاتب سليمان ، وكان عنده علم من الكتاب فأقام آصف في ملك سليمان وعاله يسير بسيرته ويعمل بعمله أربعة عشر يوما إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائبا إلى الله تعالى ورد الله عليه ملكه فأقام آصف من مجلسه وجلس سليمان على كرسيه وأعاد الخاتم في يده فثبت

وقيل سبب ذلك ما أخبرنا شعيب بن محمد العجلي بإسناده عن سعيد بن المسيب : أن سليمان ابن داود احتجب عن الناس ثلاثة أيام ، فأوحى الله إليه ان يا سليمان احتجبت عن عبادي ثلاثة أيام فلم تنظر في أمورهم ولم تنصف مظلوما من ظالم ، وذكر حديث الخاتم وأخذ الشيطان إياه كما روينا ، وقال في آخره قال على كرم الله وجهه ذكرت ذلك للحسن فقال ما كان الله تعالى ليلسط على نساؤه ونعوذ بالله أن يسلط الشيطان على نساء أنبيائه بالمباشرة وكيف يعتقد ذلك أحد ، وقد نزه الله تعالى أنبياءه عن مثل هذا القبيح ، وهذا القول أصح الأقوال وأليق بأنبياء الله تعالى وأقرب إلى التقوى . وقال بعض المفسرين : كان سبب فتنة سليمان أنه أمر أن لا يتزوج امرأة إلا من بني إسرائيل فتزوج امرأة من غيرهم فعوقب على ذلك .

وقيل إن سليمان عليه السلام لما أصاب بنت الملك صيدون أعجب بها وعرض عليها الاسلام فامتنعت فخوفها سليمان فقالت له إن أكرهتنى على الاسلام قتلت نفسي فخاف سليمان أن تقتل نفسها فتزوج بها مشركة فكانت تعبد صنما لها من ياقوتة أربعين صباحا في خفية من سليمان إلى أن أسلمت فعوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يوما .

وقال الشعبي في سبب زوال ذلك ولد لسليمان ابن فاجتمعت الشياطين فقال بعضهم لبعض

ان عاش له ولد لم تنفك مما نحن فيه من البلاء والسخره فسيلنا أن تقتل ولده أو نخبله فعلم سليمان ذلك فأمر السحاب أن تأخذ ابنه وأمر الريح فحملته وغدا ابنه في السحاب فأمن مضرة الشياطين فعاتبه الله لتخوفه من الشياطين ومات الولد فألقى على كرسيه وهو الجسد الذي قصه الله علينا بقوله وألقينا على كرسيه جسدا له ثم أناب والله تعالى أعلم.

باب في ذكر وفاة سليمان عليه السلام

قال الله تعالى فلما قضينا عليه الموت الآية . قال أهل التاريخ : لبث سليمان في ملكه بعد أن رده الله تعالى عليه تعمل له الجن والشياطين ما يشاء من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب وقدور واسيات وغير ذلك ويعذب من الشياطين من يشاء ويطلق من يشاء ويأمرهم بحمل الحجارة الثقيلة وتقلها إلى حيث أحب . قال فتزيأهم إبليس وهم دائبون في العمل فقال كيف أتم ؟ قالوا مالنا طاقة لما نحن فيه ، فقال إبليس تذهبون تحملون الحجارة وترجعون فراغا لا تحملون شيئا قالوا نعم ، قال فأنتم في راحة ، قال فأبلغت الريح ذلك سليمان فأمرهم أن يحملوا ذاهبين وراجعين فجاءهم إبليس ، فقال كيف أتم ؟ فشكوا إليه وأخبروه أنهم يحملون ذاهبين وراجعين فقال لهم إبليس أتمامون بالليل ؟ قالوا نعم قال فأنتم في راحة ، قال فأبلغت الريح ذلك سليمان فأمرهم أن يعملوا بالليل والنهار فتزيأهم إبليس فشكوا إليه أنهم يعملون بالليل والنهار وأنهم دائبون في العمل فقال كيف أتم ؟ قالوا لا طاقة لنا فيما نحن فيه فقال لهم إبليس وما يشاء فعله قالوا نعم قال فتوقعوا الفرج وقد بلغ الأمر منتهاه فلم يلبثوا الا قليلا وقد مات سليمان عليه السلام .

قال ابن عباس وغيره : كان سليمان عليه السلام يحتجب في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر يدخل فيه بطعامه وشرابه فدخله في المرة التي مات فيها وكان بدء أمره في ذلك أنه لم يكن يوما يصبح فيه الاتبت له بيت المقدس شجرة فيسألها سليمان ما اسمك فتقول الشجرة اسمي كذا وكذا فيقول لأي شيء أنت فتقول لكذا وكذا فيأمر بها فتقطع فان كانت تنبت لغرس كتب عليها غرسها في مكان كذا وكذا وإن كانت لدواء كتب عليها لكذا وكذا فبينما هو يصلي يوما إذ رأى شجرة نابتة بين يديه فقال لها ما اسمك قالت الحرنوبة قال ولأي شيء نبتك قالت لحراب هذا المسجد فقال سليمان بن داود ما كان الله تعالى ليخربه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها في حائط له ، ثم قال اللهم عم على الجن موتى حتى تعلم الانس أن الجن لا يعلمون الغيب ، وكانت الجن تخبر الانس أنهم يعلمون من الغيب أشياء وأنهم يعلمون ما يكون في غد ، ثم إن سليمان دخل المحراب فقام يصلي متكئا على عصاه فمات ثم بقى على تلك الحالة ولم يعلم بذلك من الشياطين أحد وهم مع ذلك يعملون ويخافون أن يخرج فيعاقبهم . وقال عبد الرحمن بن زيد : قال سليمان للملك الموت إذا أمرت بي فأعلمني . قال فأتاه فقال ياسليمان قد أمرت بك وقد بقى لك سويعة فدعا

الشياطين فبنوا له صرحا من قوارير ليس له باب ققام يصلى واتكأ على عصاه فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متكئ على عصاه .

وفى رواية أخرى أن سليمان عليه السلام ، قال ذات يوم لأصحابه : إن الله تعالى آتاني من الملك ماترون ومامر على يوم فى ملكى صاف من الكدر ، وقد أحبيت أن يكون لى يوم واحد يصفو لى الى الليل ولا أغم فيه ولكن ذلك اليوم غدا ، فلما كان من الغد دخل قصره له وأمر باغلاق أبوابه ومنع الناس من الدخول عليه ومنع من رفع الأخبار اليه لئلا يسمع شيئا يسوؤه ، ثم أخذ العصا بيده ووضعها فوق خصره واتكأ عليها ينظر إلى ممالكه إذ نظر شابا حسن الوجه عليه ثياب بيض قد خرج عليه من جانب القصر فقال له السلام عليك ياسليمان فقال وعليك السلام فكيف دخلت على هذا القصر بغير إذن ، وقد منعت من دخوله أما منعك البواب والحجاب أما هبتنى حين دخلت قصرى بغير إذن ، فقال أنا الذى لا يحجبني حاجب ولا يدفعني البواب ولا أخاف الملوك ولا أقبل منهم الرشا وما كنت لأدخل هذا القصر بغير إذن ، فقال له سليمان فمن أذن لك فى دخوله فقال له ربى ، قال فارتعد سليمان وعلم أنه ملك الموت ، فقال له أنت ملك الموت ؟ قال نعم ، قال فيم جئت ؟ قال لأقبض روحك قال ياملك الموت هذا يوم أردت أن يصفولى ولا أسمع فيه ما يغمى ، فقال ياسليمان إنك أردت يوما يصفولك فيه عيشك حتى لا يغمك فيه شيء وذلك يوم لم يخلق فى الدنيا فارض بقضاء ربك فانه لامردله . قال فاقبض كما أمرت فقبض ملك الموت روحه وهو متكئ على عصاه قالوا وكانت الشياطين تجتمع حوله وحول محرابه ومصلاه أينما كان ، وكان للمحراب بابان باب بين يديه وباب خلفه ، فقال بعض الشياطين لصاحبه ان كنت جليدا فادخل من الباب الذى بين يديه واخرج من الباب الذى خلفه فدخل ذلك البعض ولم يكن شيطان ينظر الى سليمان فى المحراب إلا احترق فمر ذلك الشيطان فلم يسمع صوته ، ثم رجع فلم يسمع فوقف بالبيت فلم يحترق فنظر الى سليمان وقد سقط ميتا فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عليه فأخرجوه ووجدوا منسأته وهى العصا بلغة الحبشة قد اكلتها الأرض فلم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرض على العصا فأكلت منها يوما وليلة ثم حسبوا على ذلك النحر فوجدوه قد مات منذ سنة وكانوا يعملون بين يديه وينظرون اليه ويحسبون انه حى ولا ينكرون احتباسه عن الخروج الى الناس لطول صلاته قبل ذلك .

وفى رواية ابن مسعود : فسكتوا يدانون له بعد موته حولا كاملا فأيقن الناس أن الجن كانوا يكذبون فى ادعائهم علم الغيب فلو أنهم علموا الغيب لعلموا موت سليمان ولم يلبثوا فى الغناء والعذاب سنة يعملون له ، ثم إن الشياطين قالوا للأرض لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك باطيب الطعام ولو كنت تشربين الماء لسقيناك أعذب الشراب ، ولكننا نتقل اليك الماء والطين شكرا لك فالذى يكون فى جوف الحشب فهو ما تأتيا به الشياطين والشياطين تسكن إليها ، فذلك قوله

تعالى - فلما قضينا عليه الموت مادهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته - الآية .
قال أهل التاريخ : كان عمر سليمان عليه السلام ثلاثا وخمسين سنة ومدة ملكه منها أربعون سنة وذلك أنه ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضي من ملكه . ثم ملك من بعد سليمان ابن له يقال له رحبعم وكان قد استخلفه فنبأه الله وكان نبيا ولم يكن رسولا ثم قبض وكان ملكه سبع عشرة سنة . ثم ملكهم بعده ابنه آفيا بن رحبعم وكان ملكه ثلاثا وستين سنة : ثم ملك بعده أسابن آفيا وكان رجلا صالحا وكان أعرج يعتريه عرق النساء فطمع فيه الملوك لضعفه واقتربت ملوك بني اسرائيل فغزاهم ملك من ملوك الهند يقال له روح الهند في جمع كثير وقبيلة كبيرة فبعث الله عليهم الملائكة فهزمتهم فقصدوا البحر حتى إذا ركبوا جميعا بعث الله عليهم الرياح والأمواج فضربت سفنهم بعضها في بعض فتكسرت وغرق روح الهند ومن كان معه واضطربت الأمواج حتى ألقت أثقالهم وأموالهم وسلبهم إلى محلة بني اسرائيل ونودوا أن خذوا ماغنمكم الله تعالى وكونوا له من الشاكرين ثم لم تزل تغزوهم الملوك ملك بعد ملك من ملوك العراق وغيرهم فهلكهم الله تعالى إلى أن ظهر فيهم الظلم والفساد وفشت فيهم المعاصي وعبد بعض ملوك بني اسرائيل الأصنام من دون الله تعالى فغضب الله عليهم بكفرهم ومعصيتهم وسلط عليهم مختصر .

مجلس في قصة مختصر وما يتصل به

وخبر شعيا وأرميا ودانيال وعزير عليهم وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام
قال الله تعالى - وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب - إلى قوله عز وجل - وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا - .

قصة شعيا عليه السلام

قال محمد بن اسحق وغيره من أهل السير والأخبار : كان مما أنزل الله تعالى على موسى خبر بني اسرائيل من أحداثهم وما هم فاعلون بعده كما قال الله تعالى - وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا - إلى قوله - حصيرا - فكانت بنو اسرائيل يركبون الأحداث والذنوب وكان الله تعالى يتجاوز عنهم تعظفا عليهم واحسانا إليهم وكان أول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم من تلك الوقائع كما أخبر الله تعالى على لسان موسى عليه السلام أن ملكا منهم كان يدعى صديقة وكان الله تعالى إذا ملك ملكا من ملوك بعث له نبيا يسدده ويرشده ويكون واسطة فيما بينه وبين الله تعالى فيما يحدث من أمورهم ولا ينزل عليهم كتابا وإنما يأمرهم أن يأمرهم بأحكام التوراة والنهي عن المعاصي والمنكرات والدعاء إلى ما تركوا من الطاعات فلما ملك ذلك الملك بعث الله تعالى شعيا بن أمضيا وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى وشعيا هو

الذى بشر بيت المقدس حين شكا إليه الحراب فقال أبشر فانه يأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب البعير فملك ذلك الملك بنى اسرائيل وبيت المقدس زمانا ، فلما انقضى ملكه فيهم عظمت الأحداث الرديئة وشعيا معه فبعث الله عليهم سنجاريب ملك بابل فنزل هو وجنوده في ستمائة ألف راية فأقبل سائرا حتى نزل حول بيت المقدس والملك مريض في ساقه قرحة شديدة فجاء إليه شعيا فقال يا ملك بنى اسرائيل ان سنجاريب ملك بابل قد نزل هو وجنوده في ستمائة ألف راية وأقبل سائرا حتى نزل بيت المقدس وقد هابهم الناس وتفرقوا عنهم فكبر ذلك على الملك وقال يا نبي الله هل أتاك وحى من الله فيما حدث فتخبرنا به كيف يفعل الله بنا وبعدونا سنجاريب وجنوده فقال النبي لم يأت وحى ، فبينما هم كذلك إذ أوحى الله تعالى إلى شعيا عليه السلام أن ائت ملك بنى اسرائيل فأمره أن يوصى بوصيته ويستخلف على مملكته من يشاء من أهل بيته وعترته فأتى شعيا صديقه فقال ان ربك قد أوحى إلى أن آمرك أن توصى بوصيتك وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك فانك ميت ، فلما قال ذلك شعيا لصديقه أقبل على الله تعالى وصلى ودعا وبكى وقال في دعائه وهو يبكي ويتضرع إلى الله تعالى بقلب محض وظن صادق اللهم رب الأرباب وإله الآلهة القدوس المقدس يارحمن يارحيم يارءوف يامن لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرنى بنيتى وفعلى وحسن قضائى فى بنى اسرائيل وذلك كله كان منك وأنت أعلم به منى سرى وعلايتى لك ، ثم ان الله استجاب دعائه ورحمه وكان عبدا صالحا فأوحى الله تعالى إلى شعيا وأمره أن يخبر صديقه الملك أن ربه قد استجاب له ورحمه وقبل منه وقد أخرج له خمسة عشرة سنة وأنجاه الله من عدوه سنجاريب ملك بابل وجنوده فأتى شعيا إليه وأخبره بذلك ، فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجد وانقطع عنه الهزال وخر ساجدا لله تعالى وقال يا إلهى وإله آبائى لك سجدت وسبحت وكبرت وعظمت أنت الذى تعطى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين أنت الذى أجبت دعوتى ورحمت تضرعى فلما رفع رأسه أوحى الله تعالى إلى شعيا أن قل للملك صديقه أن يأمر عبدا من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ففعل ذلك فبرأ فقال الملك لشعيا سل ربك أن يجعل لنا علما بما هو صانع بعدونا هذا فقال الله لشعيا قل له إني كفيتك عدوك هذا وأنجيتك منه وأنهم سيصبحون موتى كلهم الاسنجاريب وخمسة نفر من كبرائه وكتابه فلما أصبحوا جاءهم صارخ يصرخ على باب المدينة يا ملك بنى اسرائيل قد كفاك الله عدوك فاخرج فان سنجاريب ومن معه قد هلكوا فلما خرج الملك التمس سنجاريب فلم يوجد فى الموتى فبعث الملك فى طلبه فأدركه الطلب هو ومن معه فى خمسة نفر من كبرائه فى مغارة أحدهم يختصر فجعلوهم فى الجوامع ثم أتوا بهم ملك بنى اسرائيل فلما رأهم خر ساجدا لله تعالى من حين طلعت الشمس إلى العصر ثم قال يا سنجاريب كيف ترى فعل ربنا بكم ألم يقتلكم بحوله

وقوته ونحن وأتم غافلون فقال له سنجاريب قد أتاني خبر ربكم ونصرته اياكم من قبل أن أخرج من بلادى فلم أطع مرشدا ولم يلقي في الشقوة إلا قلة عقلى فلو سمعت وعقلت ما غزوتكم ولكن الشقوة غلبت على وعلى من معى قال: فقال صديقة الحمد لله رب العالمين الذى كفاناكم بما شاء ان ربنا لم يبقك ومن معك لكرامتك عليه ولكن إنما أبقاك ومن معك لتزدادوا شقاوة في الدنيا وعذابا في الآخرة وتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا بكم وبمن معكم ولدكم ومن معك أهون عند الله من دم قرادة لو قتلت . ثم ان ملك بنى اسرائيل أمر أمير جيشه قحذف في رقابهم الجوامع وطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس وإيلياء وكان يطعمهم كل يوم رعينين من شعير لكل رجل منهم فقال سنجاريب لملك بنى اسرائيل القتل خير مما تفعل بنا فافعل ما أردت فأمرهم الملك إلى سجن القتل فأوحى الله إلى شعيا أن قل للملك يرسل سنجاريب ومن معه لينذروا من وراءهم وليكرموا وليحملوا حتى يبلغوا بلادهم فبلغ شعيا الملك ذلك ففعل فخرج سنجاريب ومن معه لينذروا من وراءهم حتى قدموا بابل فلما قدموا جمع سنجاريب الناس فأخبرهم كيف فعل الله بجنوده فقال له كهانه وسحرته ياملك قد كنا نقص عليك خبرهم وخبر نبهم ووحى الله إليه فلم تطعنا وهى أمة لا يستطيعها أحد وكان في أمر سنجاريب مما خوفوا به ثم كفاهم الله إياه تذكرة وعبرة ثم لبث سنجاريب بعد ذلك سبع سنين ثم مات واستخلف من بعده بختنصر وكان ابن ابنه وكان بختنصر يعمل كما يعمل جده ويقضى بقضائه فلبث سبع عشرة سنة ثم قبض الله تعالى ملك بنى اسرائيل صديقة فمرج أمر بنى اسرائيل وتنافسوا في الملك حتى قتل بعضهم بعضا وظهر فيهم البغى والفساد ونبههم شعيا فيهم لا يرجعون إليه ولا يقبلون قوله فلما فعلوا ذلك قال الله تعالى لشعيا عليه السلام قم في قومك يوح على لسانك فلما قام النبي أطلق الله لسانه بالوحى فقال يا سماء اسمعى ويا أرض أنصتى فإن الله أراد أن يقضى شأن بنى اسرائيل الذين رباهم بنعمته واصطفاهم لنفسه وخصهم بكرامته وفضلهم على عباده واستقبلهم بالكرامة وهم كالغنم الضائعة التى لا راعى لها فأوى شاردها وجمع ضالها وجبر كسيرها وداوى مريضها وأمن هزيلها وحفظ ممينها فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها قتل بعضهم بعضا حتى لم يبق منهم عظم صحيح يجبر إليه كسير فويل لهذه الأمة الخاطئة الذين لا يدرون أجاهاهم الخير أم الشر وان البعير يذكر وطنه فينتابه وان الحمار يذكر الآرى الذى يشبع عليه فيراجعه وان الثور يذكر المسرح الذى يسرح فيه فينتابه وان هؤلاء القوم لا يدرون من أين جاءهم الخير وهم أولو الأبواب والعقول ليسوا بيقر ولا حمير انى ضارب لهم مثلا فليسمعوه قل لهم كيف ترون فى أرض كانت خرابا مواتا فبقيت خرابا زمانا طويلا لا عمران فيها وكان لها رب حكيم قوى فأقبل عليها بالعمارة وكره أن تخرب أرضه فأحاط عليها جدارا وشيد فيها قصرا وأجرى نهرا وأثبت عليها غرسا من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وأنواع الثمار كلها وولى ذلك واستحفظه إذا رأى حفيظا

قويا أمينا فانتظرها فلما أطلعت جاء طلعتها خرنوبا فقال بثست الأرض هذه نرى أن يهدم
جدرها وقصرها ويغيض ماء نهرها ويحرق غرسها حتى تصير كما كانت خرابا أول مرة مواتا لا عمران
فيها فقال الله تعالى قل لهم ان الجدار ذمتي وان القصر شريعتي وإن النهر كتابي وان القيم نبي
والغراس هم وان الخرنوب الذي أطلع الغراس أعمالهم الحبيثة وانى قضيت عليهم قضاءهم على
أنفسهم وانه مثل ضربه الله لهم فمرهم يتقربوا إلى بذبح البقر والغنم وليس ينالني اللحم ولا
آكله ولكن يتقربون إلى بالتقوى والكف عن ذبح النفس التي حرمها فأيديهم مخضوبة منها
وبنائهم مزملة بدمائها ، ويشيدون لى البيوت والمساجد ويطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم
وأجسادهم ويدنسونها فأى حاجة لى إلى تشييد البيوت ولست أسكنها وأى حاجة لى إلى تزويق
المساجد ولست أدخلها وانما أمرت برفعها لأذكر فيها وأصبح ، ولتكن معلما لمن أراد أن يصلى
فيها ويقولون لو كان الله يقدر على أن يجمع ألفتنا لجمعها ، ولو كان الله يقدر أن يفقه قلوبنا لفقهها
فاعمد إلى عودين يابسين ثم أبهما وهم فى أجمع ما يكون قفل للعودين إن الله يأمر كما أن تكونا
عودا واحدا ، فلما قال لهما ذلك اختلطا فصارا عودا واحدا فقال الله تعالى قل لهم انى قدرت على
أن أولف بين العودين اليابسين ، فكيف لأقدر على ألفتهم ان شئت أم كيف لأقدر على أن أفقه
قلوبهم وأنا الذى صورتهم يقولون صمنا فلم يرفع صيامنا وصلينا فلم تنور قلوبنا وتصدقنا فلم تزك
صدقاتنا وان دعونا بمثل حنين الجمال وبكينا بمثل عواء اللئاب فى ذلك لا يسمع ولا يستجاب لنا
قال الله تعالى فسلهم ما الذى يمننى أن أستجيب لهم ألت أسمع السامعين وأنظر الناظرين وأقرب
المحيين وأرحم الراحمين أذات يدى قلت ، كيف ويداي مبسوطتان بالخير أنفق كيف أشاء مفاتيح
الجزائن عندى لا يفتحها غيرى أم يقولون رحمتى ضاقت فكيف ورحمتى وسعت كل شىء انما
يتراحم المتراحمون بفضلى ، أم يقولون البخل يعترينى ، أولست أكرم الأكرمين وأنا الفتح
بالخيرات ، ألت أجود من أعطى وأكرم من سئل ؟ ولو أن هؤلاء القوم نظروا لأنفسهم
بالحكمة التى نورت فى قلوبهم فتدبروها ولم يشتروا بها الدنيا لأبصروا وتيقنوا أن أنفسهم هى
أعدى العداة لهم ، فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بالزور ويتقوون عليه بطعمة الحرام ، أم
كيف أنور صلاتهم وقلوبهم طاغية تركزن إلى من يحاربني ويتك محارمى ، أم كيف تزكو عندى
صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم وانما أجزى عليها أهلها الغصويين ، أم كيف أستجيب لهم
دعاء وانما هو قول بألتهم والعقل من ذلك بعيد انما أستجيب قول المستضعف المسكين ، وان
من علامة رضا المسكين ولورحموا المساكين وقربوا الضعفاء وأنصفوا المظلوم ونصروا المظلومين
وعالوا الغائب وأدوا إلى الفقير واليتيم والأرملة والمسكين حقه ، ولو كان ينبغى لى أن أكلم البشر
إذا لكلمتهم وكففت أذاهم وكنت نور أبصارهم وسمع آذانهم ومعقول قلوبهم وأعمرت أركانهم
وكنت قوة أيديهم وأرجلهم وكنت ألتهم الا أنهم يقولون لما سمعوا كلامى وبلغتهم رسالتى إنها أقاويل

منقولة وأحاديث متواترة وتأليف فيما يؤلف السحرة والكهنة ، وزعموا أن لو شاءوا أن يأتوا بحديث مثله لفعلوا وأن يطلعوا على علم الغيب بما توحى اليهم الشياطين إذا طلعوا ، وكلهم يستخفي بالذي يقول ويسر وهم يعلمون أني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما يدون وما يكتُمون واني قد قضيت يوم خلقت السموات والأرض قضاء بينته على نفسي وجعلت له أجلا مؤجلا لا بد أنه واقع ، فان صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفذه وفي أي زمان يكون وان كانوا يقدرُون على أن يأتوا بما يشاءون فليأتوا بمثل هذه القدرة التي بها أقضى فاني مظهره على الدين كله ولو كاره المشركون وان كانوا يقدرُون على أن يأتوا بما يشاءون فليأتوا بمثل هذه الحكمة التي أدبر بها أمر ذلك القضاء ان كانوا صادقين فاني قضيت يوم خلقت السموات والأرض بأن أجعل النبوة في الأحرار وأجعل الملك في الرعاء وأجعل العز في الأذلاء والقوة في الضعفاء والغنى في الفقراء والثروة في الأقلاء والمدائن في الفلوات والآجام في المقاوز والثرى في العيطان والعلم في الجهلة والحكم في الأميين فسلهم ممن هذا ومن القيم بهذا وعلى يد من أنشئه ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره ، فاني باعث لذلك نبيا أميا لا أعمى من العميان ولا ضالما من الضالين ليس بفظ ولا غليظ ولا بصخاب في الأسواق ولا متري بالفحش ولا قوالا بالحنأ ، أسدده بكل جميل وأهب له كل خلق كريم ، أجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته والحق شريعته والهدى إمامه والاسلام ملته وأحمد اسمه أهدي به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأرفع به بعد الحُمالة وأشهر به بعد النكرة وأكثر به بعد القلة وأغنى به بعد الفقر وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به قلوبا مختلفة وأهواء مشتتة وألحما متفرقة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرُون بالمعروف وينهون عن المنكر بآياتي وتوحيدي ، يصلون قياما وقعودا وركوعا وسجودا ويقَاتِلُونَ في سبيل الله صفوا وزحفا ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله ، ألهمهم التكبير والتحميد والتسبيح والتمجيد والتوحيد في مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتعلبهم ومثواهم يكبرون ويهللون ويقسسون على رؤوس الأشراف ويظهرون لى الوجوه والأطراف ويعقدون الثياب في الأنصاف قربانهم دماؤهم وقرآنهم في صدورهم زهبان بالليل ليوث بالنهار - ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم - فلما فرغ نبيهم شعيا من مقاتله غسدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم فلقيته شجرة فانقلقت له فدخلها فأدركه الشيطان فأخذ بهدبة من ثوبه فأراهم إياها فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه وهو في وسطها والله أعلم .

قصة أرمياء عليه السلام

فاستخلف الله على بني إسرائيل بعد قتلهم شعيا رجلا منهم يقال له ناثينة بن أموص وبعث الله

اليهم الخضر نبيا ليسدده ويأتيه بالخبر من الله تعالى واسم الخضر أرميا بن خلفاء ، وكان من سبط هرون بن عمران ، وانما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ققام عنها وهي تزهر خضراء فقال الله تعالى لأرميا حين بعثه الى بني اسرائيل : يا أرميا من قبل أن أخلقك اخترتك ومن قبل أن أصورك في بطن أمك قدستك ، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك ، ومن قبل أن تبلغ السعي نبأتك ولأمر عظيم اجتيتك فذكر قومك نعمى وعرفهم أحداهم وادعهم الى . فقال أرميا إني ضعيف إن لم تقوين عاجز إن لم تتصرنى ، فقال الله تعالى أنا ألهمك ققام أرميا فيهم خطيا ولم يدر ما يقول ، فألهمه الله تعالى في الوقت خطبة بليغة طويلة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب العصية . وقال لهم في آخرها إن الله قال : فإني أحلف بعزتي وجلالي إن لم ينتهوا لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ولأسلطن عليهم جبارا قاسيا ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم . ثم أوحى الله تعالى الى أرميا عليه السلام إني مهلك بني اسرائيل يافث ويافث هم أهل بابل وهم من ولد يافث بن نوح ، فلما سمع أرميا بكى وصاح وشق ثيابه وحشا الرماد على رأسه ، فلما سمع الله تضرع أرميا وبكاه ناداه يا أرميا أشق عليك ما أوحيت اليك قال نعم يارب أهلكني قبل أن أرى في بني اسرائيل مالا أسريه ، فقال الله تعالى وعزتي وجلالي لأهلك أحدا من بني اسرائيل حتى يكون الأمر في ذلك من قبلك ، ففرح أرميا بذلك وطابت نفسه وقال والذي بعث موسى بالحق لأرضي بهلاك بني اسرائيل ثم آتى الملك فأخبره بذلك وكان ملكا صالحا ففرح واستبشر وقال : إن يعذبنا ربنا فبذنوب كثيرة وإن يرحمنا فبرحمته ، ثم انهم لبثوا بعد الوحي ثلاث سنين لم يزدادوا فيها الا معصية وتماديا في الشر وذلك حين اقترب هلاكهم وقل الوحي ودعاهم الملك الى التوبة فلم يفعلوا ، فسلط الله عليهم بختنصر فخرج في ستمائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس ، فلما فصل بختنصر سائرا الى الملك آتى الملك الخبر فقال الملك لأرميا أنت زعمت أن الله أوحى اليك ، فقال أرميا ان الله لا يخلف الميعاد وأنا به واثق ، فلما قرب الأجل وأراد الله هلاكهم بعث الله الى أرميا ملكا قد تمثل له في صورة رجل من بني اسرائيل ، فقال له يابني الله اني أستفتيك في أهل رحى وصلت أرحامهم ولم أزل اليهم محسنا ولا يزيد اكرامى إياهم إلا استخفافا بي فأفتنى فيهم ، فقال له أحسن فيما بينك وبين الله وصلهم وأبشر بخير فانصرف الملك ، فلما مكث الا أياما ثم أقبل عليه في صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه فقال له أرميا أو ما ظهرت أخلاقهم لك بعد ؟ قال يابني الله والذي بعثك بالحق نبيا ما أعلم كرامة يأتيا أحد من الناس الى أهل رحى الا قدمتها اليهم وأفضل . قال أرميا عليه السلام ارجع الى أهلك فأحسن اليهم وسل الله الذي يصلح عباده الصالحين أن يصلحهم ققام الملك فمكث أياما وقد نزل بختنصر وجنوده حول بيت المقدس بأكثر من الجراد ففرع منهم بنو اسرائيل وشق عليهم فقال لهم أرميا يابني الله أين ما وعدك الله به ؟ قال اني بري لو اتيتم ثم أقبل الملك على أرميا

وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربه الذي وعده قاعد بين يديه وقال له أنا الذي أتيتك في شأن أهلي مرتين فقال له أرمياء عليه السلام ألم يأن لهم أن يتنبأوا من الذي هم فيه فقال له يانبي الله كل شيء كان يصيني منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه واليوم رأيتهم في عمل لا يرضى الله تعالى فقال أرمياء عليه السلام على أي عمل رأيتهم ؟ قال على عمل عظيم من سخط الله تعالى فغضبت لذلك وأتيتك لأخبرك ، واني أسألك بالله الذي بعثك بالحق نبيا الا مادعوت الله تعالى عليهم ليهلكهم ، فقال أرمياء ياملك السموات والأرض ان كانوا على حق وصواب فأبقهم وان كانوا على سخطك وعمل لا ترضاه فأهلكهم . قال فما خرجت الكلمة من فم أرمياء تماما حتى أرسل الله صاعقة من السماء في بيت المقدس فالتهب مكان القربان وخسف بسبعة أبواب من أبوابه فلما رأى ذلك أرمياء صاح وبكى وشق ثيابه وحثا الرماد على رأسه وقال : يا ملك السموات والأرض أين ميعادك الذي وعدتني ؟ فنودي إنه لم يصيهم الذي أصابهم إلا بفتياك ودعائك فاستيقن أرمياء عليه السلام أنها فتياه وان ذلك السائل كان رسول ربه فسار أرمياء حتى خالط الوحوش ودخل يختصر وجنوده بيت المقدس ثم امر جنوده ان يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا ثم يقدفه في بيت المقدس فقدفوا فيه التراب حتى ملئوه ثم انصرفوا إلى بابل واحتمل معه سبائا بني اسرائيل وأمرهم ان يجمعوا ما كان في بيت المقدس فجمعوا كل صغير وكبير من بني اسرائيل فاختر منهم سبعين ألف صبي ، فلما أراد ان يقسم الغنائم في جنده . قالت له الملوك الذين كانوا معه أيها الملك لك غنائمنا كلها واقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بني اسرائيل ففعل ذلك فأصاب كل واحد منهم أربعة غلمان وكان من أولئك الغلمان دانيال وحنانيا وعزازيا وميشايل وسبعة آلاف من أهل بيت داود وأحد عشر ألفا من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين وثمانية آلاف من سبط يساخر بن يعقوب وأربعة آلاف من سبط يهوذا بن يعقوب وأربعة آلاف من سبط رويل ولاوى ابني يعقوب ومن بقى من بني اسرائيل جعلهم يختصر ثلاث فرق فثلثا أقره بالشام وثلثا سبي وثلثا قتل وذهب بأواني بيت المقدس حتى أقدمها بابل وذهب بالغلمان السبعين ألفا وسائر السبائا حتى قدم بهم بابل وكانت هذه الواقعة الأولى التي أنزلها الله على بني اسرائيل بأحداثهم وظلمهم وذلك قوله تعالى - فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأسا شديدا - يعني يختصر وجنوده . وكان بدء أمر يختصر على ماروى حجاج عن ابن جريج عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير قال كان رجل من بني اسرائيل يقرأ التوراة حتى اذا بلغ بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأسا شديدا بكى وفاقت غيناه وأطبق الصفح ثم انطلق إلى المسجد ، وقال يارب أرني هذا الرجل الذي جعلت هلاك بني اسرائيل على يديه فأرى في المنام انه مسكين يبابل يقال له يختصر فانطلق يمال وأعبد له وكان رجلا مؤسرا . فقيل له أين تريد ؟ قال أريد التجارة ، ثم ذهب حتى زل دارا ببابل فاستكراها ليس فيها أحد غيره فجعل يدعو المساكين ويتلطف بهم حتى

لأياته أحد مسكين الأعطاه ، فقال هل بقي مساكين غيركم قالوا نعم مسكين بفتح آل فلان مريض يقال له يختصر ، فقال لعلمانه انطلقوا وانطلق معهم حتى أتاه ، فقال له ما اسمك ؟ قال يختصر فقال لعلمانه احموه فقله اليه ومرضه حتى برى فكساه واعطاه نفقة ، ثم أذن الاسرائيلي في الرحيل فبكى يختصر ، فقال الاسرائيلي مايبيك ، فقال أبكى لأنك فعلت معي ما فعلت ولا أجد شيئاً أجازيك به ، فقال جزائي شيء يسير قال وما هو قال له ان صرت ملكاً وملكيت بيت المقدس أعطيتني ما أطلبه فجعل يتبعه ويقول له أتستهزئ بي ولا يمنعني ان يعطيه ما سأله إلا انه يرى انه يستهزئ به قال فبكى الاسرائيلي ، وقال قد علمت ما يمنعك ان تعطيني ما سألتك إلا الله تعالى يريد ان ينفذ قضاءه فكتب له كتاباً وضرب الدهر ضرباته ، فقال يوماً صيحوون وهو ملك بابل لو أنا أرسلنا طليعة الى الشام قالوا ماضرك لو فعلت قال فمن ترون قالوا فلانا فبعث رجلاً وأعطاه مائة ألف فخرج يختصر في مطبخه لم يخرج إلا لياً كل في مطبخه ، فلما قدم الى الشام رأى صاحب الطليعة أكثر أهل الأرض فرساناً ورجلاً جلداً فكبر ذلك في عينه فلم يصل ولم يسألهم عن شيء وكان يختصر دخل الشام ولم يزل يجلس مجلس أهل الشام ويسألهم ويقول لهم ما منعكم ان تغزوا بابل فلو غزوتوها لنلتهم منها شيئاً كثيراً فقالوا إنا لانحسن القتال ولا تقابل حتى انتقد مجالس أهل الشام وتعرف سرائرهم ثم إن الطليعة رجعوا فأخبروا ملكهم بما رأوا وكان يختصر رجع معهم فجعل يقول لفراس الملك لودعاني الملك لأخبرته غير الخبر الذي أخبره فلان وفلان فرفع ذلك إلى الملك فدعاه فأخبره الخبر ، وقال إن فلانا لما رأى أكثر أهل الأرض كراعاً ورجلاً جلداً كبر ذلك في عينه ولم يسألهم عن شيء وأنا لم ادع مجلساً بالشام الا جلست فيه اسأل أهله فقلت لهم كذا وكذا وقالوا كذا وكذا . قال سعيد بن جبير ، قال صاحب الطليعة ليختصر فضحتني لك مائة ألف دينار وترجع عما قلت ، فقال له لو أعطيتني بيت مال بابل مارجعت عما قلت ثم ضرب الدهر ضرباته ؟ فقال الملك لوبعثنا جريدة خيل الى الشام فان وجدوا مساغاً ساغوا والا أمسكوا ما قذروا عليه ؟ فقالوا ماضرك لو فعلت ذلك قال فمن ترون قالوا فلانا قال بل الرجل الذي أخبرني بما أخبرني فبعث يختصر فيعته ، ثم انتخب معه أربعة آلاف من فرسانهم فانطلقوا فجاسوا خلال الديار فسبوا مائة الله تعالى ولم يخربوا ولم يقتلوا ومات صيحوون الملك فقالوا استخلفوا ملكاً قالوا على رسلكم حتى تأتي أصحابكم فانهم فرسانكم فأمهلوا حتى جاء يختصر بالسبي وما معه قسمه بين الناس ، فقالوا ما رأينا أحداً أحق بالملك منه ، فهذه القصة الأولى فلكوه على أنفسكم .

وقال السدي بأسناده ان رجلاً من بني اسرائيل رأى في المنام أن خراب بيت المقدس وهلاك في اسرائيل على يد غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل يدعى يختصر ، وكانوا يصدقون فتصدق رؤسهم فأقبل يسأل عنه حتى نزل في بيت أمه وكان قد ذهب يحتطب فجاء وعلى رأسه حزمة عطب فألقاها ثم قعد في جانب البيت فكلمه ، ثم أعطاه ثلاثة دراهم وقال له اشتر بها طعاماً

وشرابا فاشترى بدرهم لحما وبدرهم خبزا وبدرهم خمرا وجاء به فأكلوا وشربوا حتى إذا كان اليوم الثاني فعل به مثل ذلك واليوم الثالث فعل كذلك ثم قال له الاسرائيلي إني أحب أن تكتب لي أمانا إذا أنت ملكت يوما من الدهر ، فقال يختصر أفسخ مني قال لا أفسخ منك ، ولكن ما عليك أن تجعل عندي لك يدا فكلمته أمه ، فقالت ما عليك أن كان وإلا لم ينقصك شيئا فكتب له أمانا ، فقال أرأيت أن جئتكم والناس حولك قد حالوا بيني وبينك فاجعل لي علامة تعرفني بها قال ترفع صحيفتك على قصة فأعرفك بها فكتب له أمانا وأعطاه إياه ، ثم إن ملك بني اسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريا عليهما السلام ويدني مجلسه ويستشيريه في أمره ولا يقطع أمرا دونه وإن الملك هوى أن يتزوج بنت امرأة له هذا قول السدي . وقيل كانت بنت أخته لما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال بعث عيسى بن مريم يحيى بن زكريا عليهما السلام في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس وكان فيما نهام عنه نكاح بنت الأخت قال ، وكان للمكهم ابنة أخت تعجبه ويريد أن يتزوجها وكان لها في كل يوم حاجة يقضيها لها وذكر الحديث في مقتل يحيى ابن زكريا عليهما السلام .

رجعنا الى حديث السدي : قال فسأل يحيى عن نكاحها ، فقال لست أرضاها لك فبلغ ذلك أمها فحققت على يحيى حين نهى أن يتزوج ابنتها فعمدت حين جلس الملك على شرابه فألبست ابنتها ثيابا حمرا رقاقا فاخرة وطيبتها وألبستها من الجلى شيئا لاقيمة له من غايته وألبستها فوق ذلك كساء أسود وأرسلتها الى الملك وأمرتها أن تسقيه الخمر وإن تعرض له فإن راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما سألته ويكون الذي تسأله إن يأتيه برأس يحيى بن زكريا في طشت ففعلت ذلك وجعلت تسقيه الخمر وتعرض له فلما أخذ من يدها الشراب راودها عن نفسها فقالت لا أفعل حتى تعطيني ما أسألك قال وما تسأليني ؟ قالت أسألك أن تبعث الى يحيى بن زكريا فتأتينى برأسه في طشت فقال ويحك سليني غير هذا قالت ما أريد غير هذا فلما أبت عليه بعث الى يحيى فأتى برأسة فجعلت الرأس تسكلم حتى وضعت بين يديه وهي تقول إنها لا تحمل لك ، فلما أصبح الملك وإذا دم يحيى يغلي فأمر بالتراب فألقى عليه فرقى الدم فوق التراب يغلي فألقى عليه أيضا وارفع الدم فوقه فلم يزل يلقي عليه من التراب حتى بلغ سور المدينة وهو مع ذلك يغلي فبلغ سنجاريب ملك بابل ذلك فنادى في الناس وأراد أن يبعث لهم جيشا ويؤمر عليهم رجلا فأتاه يختصر وكله ، وقال إن الذي أرسلت تلك المرة ضعيف وإني قد دخلت المدينة وممعت كلام أهلها فابعثني فبعث يختصر حتى إذا بلغوا ذلك المكان ورآهم أهلهم تحصنوا في مدائنهم فلم يطقهم ، فلما اشتد عليهم القام وجاع أصحابه أرادوا الرجوع فخرجت اليهم عجوز من عجائز بني اسرائيل وقالت أين أمير الجند فأتى بها اليه فقالت له بلغني أنك تريد الرجوع بجندك قبل أن تفتح هذه المدينة . قال نعم قد طال مقامي وجاع أصحابي فلست أستطيع المقام فوق الذي كان مني قالت أرأيتك إن دلتك على فتح المدينة تعطيني ما أسألك وتقتل

من أمرك بقتله وتكف عمن أمرك بالكف عنه ؟ . قال لها نعم قالت اذا أصبحت فاقسم جندك أربعة أقسام ثم اقسم على كل زاوية ربعا ثم ارفعوا أيديكم الى السماء ونادوا ياربنا دلنا على من قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام فانهم اذا فعلوا ذلك تساقط سور المدينة ففعلوا ذلك فتساقط سور المدينة ودخلوا من جوانبها فانطلقت به إلى دم يحيى بن زكريا عليهما السلام وقالت له اقتل على هذا الدم حتى يسكن قتل عليه سبعين الفا حتى سكن ، فلما سكن الدم قالت له كف يدك فان الله تعالى اذا قتل نبي لا يرضى حتى يقتل من قتله ومن رضى بقتله ، وأتاه صاحب الصحيفة بصحيفته فكف عنه وعن أهل بيته وخرب بيت المقدس وأمر أن تطرح فيه الجيف ، وقال من طرح عليه جيفة فله جزيته في تلك السنة وأعانه على خرابه الروم من أجل ان بنى اسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا فلما خربه بختنصر ذهب بوجوه بنى اسرائيل وسراياهم .

قصة دانيال عليه الصلاة والسلام

وذهب دانيال وقوم من اولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت ، فلما قدم بختنصر ارض بابل وجد سنجاريب قدماء فملك مكانه واستقام له الأمر وثبت على ذلك مدة ، ثم ان بختنصر رأى رؤيا غريبة فأفرغته فسأل عنها السحرة والكهنة فجزوا عن تفسيرها فبلغ ذلك دانيال وكان في السجن مع اصحابه وقد احبه صاحب السجن وأعجب به لما رأى من حسن منته وهدايتيه ، فقال دانيال لصاحب السجن انك قد أحسنت إلى وإن صاحبكم قد رأى رؤيا فدلّه على لأعبرها له فجاء السجان وأخبر بختنصر بقصة دانيال فقال على به وكان لا يقف بين يديه أحد إلا سجد له فأثّوا به فقام بين يديه . ولم يسجد له ، فقال له ما الذى منعك من السجود لى فقال له إن لى ربا آتانى العلم والحكمة وامرنى ان لا اسجد إلا لله فخشيت ان سجدت لغيره ان ينزع منى العلم الذى آتانى ويهلكنى فأعجب به وقال نعم ما فعلت وقد احسنت حيث وفيت بعهده واجللت علمه ، ثم قال هل عندك علم بهذه الرؤيا وهل لك فى تعبيرها قال نعم قال فأخبرنى فأخبره برؤياه التى رآها قبل ان يخبره بها ثم عبرها وكانت الرؤيا ما اخبرنا عبد الله بن حامد باسناده عن وهب بن منبه يقول : ان بختنصر رأى فى منامه صنما رأسه من ذهب وصدره من فضة وبطنه من نحاس وفخذيه من حديد وساقه من فخار ، ثم رأى حجرا من السماء قد وقع عليه فدقه ، ثم ربا الحجر حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب ، ورأى شجرة اصلها فى الأرض وفرعها فى السماء ، ثم رأى رجلا يسيده فاس وسمع مناديا ينادى اضرب جذعها ليتفرق الطير من فروعها وتتفرق الدواب والسباع من تحتها واترك اصلها قائما فعبرها له دانيال عليه السلام ، فقال : اما الصنم الذى رأيت رأسه من ذهب فأنت الراس الذهبى وانت افضل الملوك ، وأما الصدر الذى رأيت من فضة فهو ابنك يملك من بعدك ، وأما البطن الذى رأيت من نحاس فملك يكون بعد ابنك ، وأما ما رأيت من الفخذ الذى من حديد فتتفرق فرقتان فى فارس تكونان أشد الملوك ، وأما الفخار فآخر ملكهم يكون دون الجديد ، وأما الحجر الذى رأيت

قد وقع من السماء وربا حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب فني يبعثه الله في آخر الزمان فيفرق ملكهم كلهم ويربو ملكه حتى يملأ ما بين المشرق والمغرب ، وأما الشجرة التي رأيت والطير الذي عليها والسباع والدواب التي تحتها وما أمر بقطعها فيذهب ملكك ويردك الله طائرا نسرا عظيما فتملك الطيور ، ثم يردك الله ثورا فتملك الدواب ، ثم يردك الله أسدا فتملك السباع والوحوش وتكون منذ مسخك الله على ما ذكرنا سبع سنين في ذلك كله وقلبك قلب انسان حتى تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ، وهو يقدر على الأرض ومن عليها ، وأما ما رأيت من أن أصلها قائم فان ملكك قائم ، فسئل وهب بن منبه أكان مؤمنا أم لا ، فقال وجدت أهل الكتاب قد اختلفوا في ذلك ، فمنهم من قال مات مؤمنا ، ومنهم من قال مات كافرا لأنه حرق بيت المقدس والكتب التي فيه وقتل الأنبياء وغضب الله عليه غضبا شديدا فلم يقبل منه يومئذ ثوبته ، قالوا فلما عبر دانيال لبختنصر رؤياه وأخبره بها أكرمه وأكرم أصحابه وجعل يقبل عليه ويستشير في أموره حتى كان أكرم الناس عليه وأحبهم اليه فحسده المجوس على ذلك فوشوا به وبأصحابه الى بختنصر فقالوا له ان دانيال وأصحابه ما يعبدون إلهك ولا يأكلون ذبيحتك فعداؤهم وسألمهم فقالوا أجل ان لنا ربا نعبده ولسنا نأكل من ذبيحتكم فأمر بأخدود فخدة لهم واقفوا فيه وهم ستة والقي معهم سبع ضاريا كلهم ، ثم قال انطلقوا لنا كل ونشرب فذهبوا فأكلوا وشربوا ، ثم إنهم رجعوا فوجدوهم جلوسا والسبع مفترش ذراعيه بينهم ولم يחדش عنهم أحدا ولم ينسكهم بشيء ووجدوا معهم رجلا زائدا فعدوهم فوجدوهم سبعة ، فقالوا ما بال هذا السابع وإنما كانوا ستة فخرج اليهم السابع وكان ملكا من الملائكة فلطم بختنصر لطمه فصار في الوحوش والسباع ومسحه الله سبع سنين ، ثم رده الى صورته ورد عليه ملكه . قال السدي : فلما رد الله عليه ملكه كان دانيال وأصحابه أكرم الناس عليه فحسدهم المجوس أيضا وشوا بهم ثانية وقالوا لبختنصر ان دانيال اذا شرب الخمر لم يملك نفسه ان يبول وكان ذلك فيهم عارا فجعل لهم بختنصر طعاما وشرا بافاً كلوا وشربوا منه ، ثم قال للبواب انظر أول من يخرج عليك ليبول فاضربه بالطبرزان فان قال أنا بختنصر فقل له كذبت ان بختنصر أمرني فحبس الله عن دانيال وأصحابه البول فكان أول من قام من القوم يريد البول بختنصر ققام مدلا وكان ذلك ليلا ققام يسحب ثيابه فلما رآه البواب شد عليه ، فقال له أنا بختنصر ، فقال كذبت ان بختنصر أمرني أن أقتل كل من يخرج أولا ثم ضربه قتيلا . وأما محمد بن اسحق فانه قال في هلاك بختنصر غير ما قال السدي ، وذلك أنه قال بأسناده : لما أراد الله هلاك بختنصر . قال لمن كان في يده من بني اسرائيل أرايتم هذا البيت الذي خربت وهو لا يزال الناس الذين قتلتم من هم وما هذا البيت ؟ فقالوا هذا بيت الله تعالى ومسجد من مساجده وهو لا يزال أهله كانوا من ذراري الأنبياء فظلموا وتعبدوا وعصوا فسلط الله عليهم عدوهم بذنوبهم . قال فآخبروني ما الذي يطلع به الى السماء وأطلع عليها فأقتل من فيها وآخذها ملكا فاني قد فرغت من

الأرض وما فيها ، قالوا ما يقدر عليها أحد من الخلق ، فقال لتفعلن أولاً قتلنكم عن آخركم فشكوا الى الله تعالى وتضرعوا فبعث الله تعالى عليه بقدرته ليريه ضعفه وهو أنه بعوضة دخلت في منخره ثم ساخت فيه حتى عضت بأم دماغه ، فما كان يقر ولا يسكن حتى يضرب على أم دماغه ، فلما عرف الموت قال لخاصته من أهله اذا أنا مت فشقوا رأسي وانظروا ما الذي قتلتني ، فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة عاضة بأم دماغه ليرى الله العباد قدرته وسلطانه ونجى الله تعالى من كان بقي في يده من بنى اسرائيل ورحمهم وردهم الى ايلياء والشام فبنوا فيها وربوا وكثروا حتى كانوا على أحسن ما كانوا عليه ، فيزعمون أن الله أحيا المؤمنين الذين قتلوا ولحقوا بهم ، ثم أنهم لما رجعوا الى الشام وجدوا يختصر قد أحرق التوراة وليس معهم عهد من الله فجدد الله توراتهم وردّها اليهم على لسان عزيز وسند كر القصة فيه ان شاء الله تعالى ، وكان عمر يختصر أيام مسخه نيفا وخمسة مائة عام وخمسين يوما ، فلما مات يختصر استخلف ابنه فلسطين وكانت آنية بيت المقدس التي حملها يختصر الى بابل عنده وكان نجسها بلحوم الخنازير وشرب فيها الخمر وأقصى دانيال فلم يقبل منه فاعتزل دانيال ، فبينما فلسطين قاعد ذات يوم إذ بدت له كف معلقة بغير ساعد فكبت ثلاثة أحرف بمشده ، ثم غابت فصجب من ذلك وتحير ولم يدرك ما هي فدعا دانيال عليه السلام واعتذر اليه وسأله أن يقرأ له ذلك الكتاب ويخبره بتأويله ، فقال دانيال - بسم الله الرحمن الرحيم - وزن فخف ووعد فأبجز وجمع ففرق ، فقال أما قوله وزن فخف ، أى وزن عملك في الميزان فخف ، ووعد فأبجز : أى وعد ملكك بالحراب فأبجز اليوم ، وجمع ففرق : أى جمع لك ولوالدك من قبلك ملكا عظيما ، ثم فرق اليوم فلا يجتمع الى يوم القيامة فلم يلبث إلا قليلا حتى أهلكه الله تعالى وضعف ملكهم وبقي دانيال عليه السلام بأرض بابل الى أن مات بالسوس والله أعلم .

خبر وفاة دانيال عليه السلام

قال أهل الأخبار : لما فتح الله السوس على يد أبي موسى الأشعري في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه قتل أبو موسى ملكها سابور واحتوى على المدينة فغنم ما فيها وأخذ أموال سابور وملكها وجعل يدور في الخزانة فيأخذ ما فيها حتى أقضى الى خزانة مقفلة وقد ختم على قفلها بالرصاص ، فقال أبو موسى الأشعري لأهل السوس ما في هذه الخزانة فأنى أراها مختومة بالرصاص ؟ فقالوا له أيها الأمير ليس فيها شيء من حاجتك ، فقال لا بد لي أن أعلم ما فيها فافتحوا بابها حتى أنظر ما فيها فكسروا القفل وفتحوا الباب فدخل أبو موسى الخزانة فنظر فإذا هو بحجر طويل محفور على مثال الحوض وفيه رجل ميت وقد كفن بأ كفان منسوجة بالذهب ورأسه مكشوفة . قال فتعجب أبو موسى من طولها وكل من كان معه ، ثم إنهم شبروا أنفه فإذا هو يزيد على شبر ، فقال أبو موسى لأهل السوس ويحكم من هذا الرجل ؟ قالوا ان هذا الرجل كان بالعراق وكان أهل العراق اذا سجن

عنهم المطر استسقوا به فيسقون فأصابنا من قحط المطر ما كان يصيب أهل العراق فأتى سدا إليهم وسألناهم أن يدفعوه إلينا حتى نستسقى به فأبوا علينا فرهنا عليه عندهم خمسين رجلا وحملناه إلى بلدنا هذا ، ثم استسقينا به فسقينا فرأينا من الرأى أن لانرده إليهم فلم يزل مقبلا عندنا إلى أن أدركه الموت فمات فهذه قصته وحاله . قال فأقام أبو موسى الأشعري بالسوس وكتب إلى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يخبره بما فتح الله عليهم من مدينة السوس وما والاها وكتب في كتابه أمر ذلك الرجل الميت ، فلما وصل الكتاب وقرأه عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعا أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم عن ذلك فما وجد عند واحد منهم عنه ، فقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه . ان هذا الرجل دانيال الحكيم وهو نبى غير مرسل كان في قديم الزمان مع بختنصر ومن كان بعده من الملوك وجعل علي بن أبي طالب رضى الله عنه يحدث عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن قصة دانيال من أولها إلى آخرها إلى وقت وفاته ، ثم قال اكتب إلى صاحبك وأمره أن يصلى عليه ويدفنه في موضع لا يقدر عليه أهل السوس ، فكتب عمر إلى أبي موسى بذلك ، فلما قرأ أبو موسى كتاب عمر أمر أهل السوس أن يكفوا نهرهم إلى موضع آخر ، ثم أمر دانيال فكفن بأكفان غير التي كانت عليه ، ثم صلى عليه هو وجميع من كان معه من المسلمين ، ثم أمر بقبور فحفر له في وسط النهر ، ثم دفنه وأجرى عليه النهر ، فيقال ان دانيال عليه السلام في نهر السوس والماء يجري عليه إلى يومنا هذا والله أعلم .

قال الأستاذ رضى الله عنه : فهذا الذى ذكرت جميع أمر بختنصر الذى جاء في التفسير إلا أن رواية من يروى أن بختنصر هو الذى غزا بنى اسرائيل عند قتلهم يحيى غلط عند أهل السير والأخبار والعلماء بأمر الباطنيين من أهل الكتاب والمسلمين وذلك أنهم يجمعون على أن بختنصر إنما غزا بنى اسرائيل عند قتلهم نبيهم شعيا وفي عهد أرمياء عليه السلام وهى الواقعة الأولى التى قال الله تعالى فيها - فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار - الآية ، يعنى بختنصر وجنوده ، قالوا ومن عهد أرمياء وتخريب بختنصر بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا أربعمئة وإحدى وستون سنة ، وذلك أنهم يعدون من لدن تخريب بختنصر بيت المقدس إلى آخر عمرانه في عهد كرب بن حرسوبن شير بيت أصهيل يبابل من قبل بهمن اسفنديار بن يستاسف سبعين سنة ، ثم من بعد عمرانه إلى ظهور الاسكندر على بيت المقدس واحصاره ملكها وضمها إلى مملكته ثمان وثمانون سنة ، ثم من بعد ملكه بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا ثلثمائة وثلاثون سنة ، وإنما الصحيح في ذلك ما ذكره محمد بن اسحق بن يسار . قال عمرت بنو اسرائيل بيت المقدس بعد ما عمرت الشام وعاد إليها ملكها بعد اخراب بختنصر إياها وسببهم منها ففعلوا يحدثون الأحداث بعد مهلك عزيز عليه السلام ، فبعث الله فيهم الأنبياء ، ففريقا يكذبون

وفريقا يقتلون حتى كان آخر من بعث الله اليهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وكانوا من آل داود عليه السلام فمات زكريا وقتل يحيى بسبب نهيه الملك عن نكاح تلك المرأة فلما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى بن زكريا عليهم السلام بعث الله عليهم ملكا من ملوك بابل يقال له [كردوس] فسار اليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام ، فلما دخل عليهم أمر رئيسا من رؤوس جنوده يقال له [بنورازادان] صاحب القتل ، فقال له : إني قد حلفت باللهم لئن أنا ظهرت وظفرت على أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري إلا أن لا أجد أحدا أقتله فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ، ثم ان بنورازادان دخل بيت المقدس فأقام في البقعة التي كانوا يقربون فيها قربانهم فوجد فيها دما يغلي فسألهم عنه ، فقالوا : هذا دم قربان قرّيناه فلم يقبل منا فلذلك هو يغلي كما تراه ، ولقد قرّينا منذ ثمانمائة سنة القربان قبل منا الا هذا . قال : ما صدقتموني الخبر ، فقالوا له لو كان أول دماننا قبل منا ولكنه قد انقطعت منا الملوك والأنبياء والوحي فلذلك لم يقبل فذبح منهم بنورازادان على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رئيسا من رؤوسهم ، فلم يهدأ الدم فأمر بسبعة آلاف من بنهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ ، فلما رأى بنورازادان الدم لا يهدأ قال لهم : ويلكم يا بني اسرائيل اصدقوني قبل أن أفنيكم واصبروا على أمر ربكم ، فلقد طالما ملككم في الأرض تفعلون فيها ما شئتم ؟ اصدقوني قبل أن لا أترك منكم نافع نار لا أنثى ولا ذكرا إلا قتلته ، فلما رأوا الجدد وشدة القتل صدقوه الخبر ، وقالوا : إن هذا دم نبي منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله ، فلو أننا أطعناه فيها لكان أرشد لنا وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدقه وقتلناه فهذا دمه يغلي فقال بنورازادان : ما كان اسمه ، قالوا يحيى بن زكريا : قال : الآن صدقتموني بمثل هذا ينتقم منكم ربكم ، فلما رأى بنورازادان أنهم صدقوه خروا ساجدا ، وقال لمن حوله : أغلقوا أبواب المدينة وأخرجوا من كان ههنا من جيش كردوس وأبقوا من بقي من بني اسرائيل ، ثم قال : يا يحيى بن زكريا قد علم ربى وربك ما أصاب قومك من أجلك وما قتل منهم من أجلك فاهدا بإذن الله تعالى قبل أن لا أبقى أحدا من قومك فهدا دم يحيى بن زكريا بإذن الله تعالى ورفع بنورازادان عنهم القتل ، ثم قال آمنت باللهى آمنت به بنو اسرائيل وصدقت به وأيقنت أنه لا رب غيره ، فأوحى الله تعالى إلى رأس من رؤوس بقية الأنبياء أن بنورازادان حنون صدوق ، وحنون بالعبرانية : حديث الايمان ، ثم ان بنورازادان قال لبني اسرائيل : إن عدو الله كردوس أمرنى أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكري وإني لست أستطيع أن أعصيه ، فقالوا له افعل ما أمرت به فأمرهم فحفروا خندقا ، ثم أمر بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم في العسكر ، وأمر ينقل الدين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم وكانوا فوقهم فلم يظن كردوس

الا أن ما في الخندق من بني إسرائيل، فلما بلغ اللسم الى عسكره أرسل إلى بنورازادان: أن ارفع عنهم القتل فقد بلغتني دماؤهم، ثم انه انصرف عنهم الى بابل وقد أفنى بني إسرائيل أو كاد أن يفنيهم وهي الواقعة الأخيرة التي أنزل الله تعالى فيها قوله تعالى - وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين - الآيات فكانت الواقعة الأولى لبختنصر وجنوده، ثم رد الله لهم الكرة، وكانت لهم الديانة والرياسة، وكانت الواقعة الأخيرة لكردوس وجنوده، فلم تقم لهم من بعد ذلك قائمة ولا راية وانتقل عن الشام ونواحيها الى الروم واليونانية الى أن تناسل بنو إسرائيل وكثروا وانتشروا بعد ذلك، وأحدثوا الأحداث، واستحلوا المحارم وضيعوا الحدود، فسلط الله عليهم بلطوس ابن اسنايوس فخرّب بلادهم وطردهم عنها، ونزع الله تعالى منهم الملك والرياسة، وضرب عليهم الللة، فليسوا في أمة من الأمم إلا وعليهم الصغار والللة والجزية والملك في غيرهم، وبقي بيت المقدس خرابا الى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فعمره المسلمون بأمره، والله أعلم.

باب في ذكر اللى مر على قرية وهي خاوية على عروشها

قال الله تعالى - أو كاللى مر على قرية وهي خاوية على عروشها - الآية. واختلفوا في ذلك المار من كان فقال عكرمة وقتادة والريبع بن أنس والضحاك والسدى: هو عزيز بن شرحبيل وقال وهب بن منبه وعبد الله بن حميد وعبيد بن عمير: هو أرمياء بن خلفاء، وكان من سبط هرون بن عمران، وهو الحضر. واختلفوا أيضا في القرية التي مر عليها، فقال عكرمة وهب وقتادة والريبع: هي بيت المقدس. وقال الضحاك: هي الأرض المقدسة. وقال السدى: هي سلماباد. وقال الكلبي: هي دير سايرا باذ، وقيل دير هرقل، وقيل هي قرية العنب، وهي على فرسخين من بيت المقدس، وكان السبب في ذلك ما روى محمد بن اسحق بن يسار عن وهب ابن منبه أن بختنصر لما وطى الشام وخرّب بيت المقدس وقتل بني إسرائيل وسباهم طار أرمياء حتى خالط الوحوش، فلما ولي بختنصر عنهم راجعا إلى بابل ومعه سبايا بني إسرائيل أقبل أرمياء على حمار له ومعه عصير عنب في ركوة وسلّة تين حتى غشى إيلياء، فلما وقف عليها وعابن خرابها قال - أتى يحيى هذه الله بعد موتها -، ثم ربط أرمياء حماره بحبل جديد، وألقى الله تعالى عليه النوم، فلما نام نزع منه الروح مائة عام، ومات حماره وعصيره وتينه عنده وأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد، وذلك ضحى ومنع الله السباع والطير عن لحمه، فلما مضى من موته سبعون سنة أرسل الله ملكا إلى ملك من ملوك فارس عظيم يقال له [يوشك] فقال له ان الله يأمرك أن تنفر بقومك وتعمّر بيت المقدس وإيلياء وأرضهما حتى يعودا أعمر ما كانا فاستدب الملك ألف قهرمان مع كل قهرمان ثلثمائة ألف^(١) عامل وجعلوا يعمرونها وأهلك الله تعالى بختنصر ببعوضة

(١) قوله مع كل قهرمان ثلثمائة ألف الخ، كذا بالأصل وهو مما لا يمكن عادة كما لا يخفى اهـ مصححه.

دخلت في دماغه ونجى الله تعالى من بقى من بنى اسرائيل ولم يميت منهم جميعا أحد يابل وردهم الله تعالى الى بيت المقدس ونواحيها فعمرها ثلاثين سنة وكثروا حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه ، فلما مضت المائة عام على عزير أحيا الله منه عينيه وسائر جسده ميت ثم أحيا جسده وهو ينظر ثم نظر إلى حماره فاذا عظامه متفرقة بيض تلوح وسمع صوتا من السماء : أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعى فاجتمع بعضها الى بعض واتصل بعضها ببعض ، ثم نادى ثانية : إن الله يأمرك أن تكسى لحما ودما جلدا فكان كذلك ، ثم نادى إن الله يأمرك أن تحيا فقام حماره ينهض باذن الله تعالى ، وعمر الله أرمياء فهو الذى يوجد في الفلوات .

أخبرني ابن فتحويه الحافظ بإسناده عن وهب قال : ليس في الجنة كلب ولا حمار الا كلب أهل الكهف وحمار أرمياء الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه . وقال الذين قالوا ان الماركان عزيرا : إن يختصر لما خرب بيت المقدس قتل أربعين ألف رجل من قراء التوراة والعلماء بها وقتل فيهم أبا عزير وجده ، وكان عزير يومئذ غلاما قد قرأ التوراة وتقدم في العلم فأقدمه مع سببا بنى اسرائيل الى أرض بابل وهو من ولد هرون وكان معه سبعة آلاف من أهل بيت داود ، فلما نجا عزير من بابل ارتحل على حمار له حتى نزل على دير هرقل على شاطئ دجلة فطاف في القرية فلم يرفيها أحدا وعامة شجرها حامل فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه وجعل فضل الفاكهة في سلة وفضل العصير في زق فلما رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال - آنى يحيى هذه الله بعد موتها - لم يشك في البعث ولكن قالها تعجبا ثم ربط حماره بحبل جديد ونام - فأماته الله مائة عام ثم بعثه - فأناه جبريل عليه السلام فقال له كم لبثت - قال لبثت يوما أو بعض يوم - وذلك أن الله تعالى أماته ضحى وأحياه آخر النهار قبل غيوبة الشمس فقال لبثت يوم وهو يرى أن الشمس قد غربت ، ثم التفت فرأى بقية الشمس ، فقال أو بعض يوم ، فقال له جبريل عليه السلام : بل لبثت مائة عام - فانظر إلى طعامك - يعنى التين وشرابك - يعنى عصير العنب - لم يتسنه - يعنى لم يتغير - وانظر إلى حمارك - قال قوم وذلك أن الله تعالى لم يميت حماره فأحياه الله تعالى رأسه وسائر جسده ميت ثم قال له انظر الى حمارك فنظر فرأى حماره قائما كهيئة يوم ربطه حيا لم يطعم ولم يشرب مائة عام ونظر إلى الرسن في عنقه جديدا لم يتغير وهذا قول الضحاك وقتادة ، وتقدير الآية على هذا القول وانظر إلى حمارك وانظر إلى عظامك كيف ننشزها وقال آخرون أراد به عظام حماره كما قدمنا ذكره فذلك قوله تعالى - ولنجعلك آية للناس - أى عبرة ودلالة على البعث بعد الموت . وقال الضحاك هو أنه عاد إلى قريته وأولاده وأولاد أولاده فوجدهم شيوخا وعجائز وهو أسود الرأس واللحية .

أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد الحافظ بإسناده عن ابن عباس قال : لما أحيا الله عزيرا بعد ما أماته مائة سنة ركب حماره حتى أتى محله فأسكره الناس وأنسكر منازله فإطلق على وهم منه

حتى أتى منزله فاذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة وكانت أمة له فخرج عنهم عزير ، وهي بنت عشرين سنة وكانت عرفتة وعقلته ، فلما أصابها الكبر أصابتها الزمانة فقال لها عزير : يا هذه هذا منزل عزير قالت نعم هذا منزل عزير ما رأيت كذا وكذا سنة أحدا يذكر عزيرا وقد نسيه الناس . قال فاني أنا عزير ؟ قالت سبحان الله فان عزيرا قد فقدناه منذ مائة سنة ولم نسمع له بذكر ، قال فاني أنا عزير كان الله قد أماتني مائة سنة ثم بعثني . قالت فان عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة يدعو للمريض وصاحب البلاء بالعافية والشفاء فيعافيه الله تعالى ويشفيه فادع الله تعالى أن يرد عليّ بصرى حتى أراك فان كنت عزيرا عرفتك . قال فدعا ربه ومسح يده على وجهها وعينها فاستجاب الله له فعوفيت ورد الله عليها بصرها ، ثم أخذ بيدها وقال لها قومي باذن الله تعالى فأطلق الله رجلها فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال فنظرت الى عزير فعرفتة ، فقالت أشهد أنك عزير . ثم انها انطلقت الى محلة بنى اسرائيل وهم في أفنيهم ومجالسهم وابن عزير شيخ ابن مائة سنة وثمان عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ في المجلس فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها ، فقالت أنا فلانة مولاتكم دعالي ربه فردّ عليّ بصرى وأطلق رجلي وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه . قال فهض الناس وأقبلوا اليه فقال ابنه : كانت لأبي شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه فكشف عن كتفه فاذا هي بحالها فعرف عند ذلك أنه عزير عليه الصلاة والسلام

باب في ذكر تمام قصة عزير عليه السلام وحاله بعد ما رجع الى قومه

قال الله تعالى - وقالت اليهود عزير ابن الله - . روى عطية العوفي عن ابن عباس قاله : قال كان عزير من أهل الكتاب وكانت التوراة عندهم فعملوا بها ما شاء الله أن يعملوا ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق وكان التابوت فيهم ، فلما رأى الله تعالى أنهم قد أضاعوها وعملوا بالأهواء رفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم فأرسل الله عليهم مرضا فاستطلقت بطونهم حتى كان الرجل يمس كبده حتى نسوا التوراة وفيهم عزير فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعد ما نسخت التوراة من صدورهم ، وكان عزير قد أمر علماءهم أن يدعوا الله تعالى فدعا الله هو وإياهم وابتهل أن يرد اليه ما نسخ من صدره ، فبينما هو يصلي مبتهلا إلى الله إذ نزل نور من السماء فدخل جوفه فعاد إليه الذي كان ذهب من صدره من التوراة فأذن في قومه ، وقال : يا قوم قد آتاني الله التوراة وردّها إلى فطلق يعلمهم فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا وهو يعلمهم التوراة ، ثم إن التابوت نزل بعد ذلك بعد ذهابه منهم ، فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله ، فقالوا والله ما أوتي عزير هذا الا لأنه ابن الله .

قال السدي وابن عباس في رواية عمار : انما قالت اليهود هذا لأن العياقة ظهروا عليهم قتلواهم وأخذوا التوراة وهرب علماءهم النبين بقوا ودفنوا التوراة في الجبال وغيرها ولحق عزير بالجبال

والوحوش ، وجعل يتعبد في رموس الجبال ولا يخالط الناس ولا ينزل الا يوم عيد ، وجعل يبكي ويقول يا رب تركت بني اسرائيل بغير عالم وجعل يبكي حتى سقطت أشفار عينيه فنزل مرة الى العيد فلما رجع فاذا هو بامرأة قد تمثلت له عند قبر من تلك القبور وهي تبكي وتقول : يامطعماه يامكسياء فقال لها عزيز : يا هذه اتقي الله واصبري واحتسبي ، أما علمت أن الموت سبيل الناس ، ثم قال لها ويحك من كان يطعمك ويسقيك ويكسوك قبل هذا الرجل يعني زوجها الذي كانت تندبه ، فقالت الله تعالى . قال فان الله عز وجل حي لا يموت أبدا . قالت يا عزيز فمن كان يعلم العلماء قبل بني اسرائيل قال الله تعالى . قالت فلم تبكي عليهم وقد علمت أن الموت حق وأن الله حي لا يموت ، فلما علم عزيز أنه قد خصم ولي مدبرا ، فقالت له : يا عزيز إني لست امرأة ولكني الدنيا ، أما إنه سينبع لك في مصلاك عين وتنبت شجرة فكل من تلك الشجرة واشرب من ماء تلك العين واغتسل وصل ركعتين فانه سيأتيك شيخ ويعطيك شيئا فما أعطاك فخدمته ، فلما أصبح نبعت العين في مصلاه ونبتت شجرة ففعل ما أمر به فجاء شيخ وقال له افتح فاك ففتح فاه فالتقى فيه شيئا كهيئة الفوارير ثلاث مرات ، ثم قال له ادخل هذه العين فامش فيها حتى تبلغ أملك . قال فدخل وجعل لا يرقع قدمه الا يزيد في علمه فرجع اليهم وهو من أعلم الناس بالتوراة ثم قال يا بني اسرائيل قد جئتكم بالتوراة ، قالوا يا عزيز ما كنت كذابا فربط على كل اصبع له قلما وكتب بأصابعه كلها حتى كتب التوراة كلها عن ظهر قلبه فأحيا لهم التوراة والسنة فلما رجع العلماء استخرجوا كتبهم التي دفنوها وقابلوها بتوراة عزيز فوجدوها مثلها ، فقالوا ما أعطى الله له هذا إلا لأنه ابنه ، وقال الكلبي : ان يختصر لما ظهر على بني اسرائيل وهدم بيت المقدس وقتل من قرأ التوراة وكان عزيز إذ ذاك غلاما صغيرا فاستصغره فلم يقتله ولم يدر أنه قد قرأ التوراة ، فلما مات مائة سنة ورجعت بنو اسرائيل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله تعالى فيهم عزيزا ليحدثهم التوراة ويكون لهم آية فأتاهم عزيز وقال أنا عزيز فكذبوه ، وقالوا ان كنت عزيزا كما تزعم فأمل علينا التوراة فكتبها ، وقال هذه التوراة ، ثم ان رجلا قال : إن أبي حدثني عن جدي أن التوراة جعلت في خاية دفنت في كرم فلان في موضع كذا فانطلقوا معه حتى احتفروا وأخرجوا الخاية والتوراة فيها فأخذوها وقابلوها بما كتب لهم عزيز فلم يجدوه غادر منها آية ولا حرفا فعجبوا ، وقالوا ان الله تعالى لم يقذف التوراة في قلب رجل واحد منا بعد ما ذهبت من قلوبنا إلا أنه ابنه فعند ذلك قالت اليهود عزيز ابن الله .

مجلس في ذكر غزوة بختنصر العرب وقصة يوحنا وخراب حضور

قال الله تعالى - وكم قضينا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين - الى قوله - حصيدا حامدين - قال هشام بن محمد بن الكلبي وغيره . كان يده نزول العرب أرض العراق واتخاذهم بالحيرة .

والأنبار منزلاً أن الله تعالى أوحى إلى يوحنا بن برخيا بن رزاييل بن سنسبل وسنسبل هذا هو أول من اتخذ الطفيشل كان من ولد يهوذا بن يعقوب أن ائت بختنصر وأمره أن يغزو العرب الذين لأغلاق لبيوتهم ولأبواب ويطأ بلادهم ويقتل مقاتلتهم ويستبيح أموالهم لكفرهم بي واتخاذ الآلهة دوني وتكذيبهم أنبيائي ورسلي وذلك بعد قتل أهل حضور وهي بلدة باليمن بعث الله فيهم نبيا فأقبل يوحنا حتى قدم على بختنصر يبابل فأخبره بما أوحى الله تعالى إليه وقص عليه ما أمره به وذلك في زمن معد بن عدنان فأوحى الله تعالى إلى يوحنا إني قد سلطت بختنصر على أهل قرية عربية لأنتقم به منهم فعليك بمعد بن عدنان الذي من ولده النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه في آخر الزمان وأختم به النبوة وأرفع به من أطاعه فخرج تطوى له الأرض حتى سبق بختنصر فلقى عدنان وقد تلقاه فنظر إلى معد ولمعد يومئذ اثنتا عشرة سنة فحملة يوحنا على البراق وأردفه خلفه فاتىها إلى أرض نجران من ساعتها ، قالوا ووثب بختنصر على من كان في بلاده من تجار العرب وكانوا يقدمون عليه بالتجارات والامتيار فجمع من ظفريه منهم فبنى لهم ديرا على نجف وحصنه ، ثم ضمهم فيه فقيدوا ووكل بهم حرسا وحفظة ، ثم نادى في الناس بالغزو فتأهبوا لذلك وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب فخرجت إليه الطوائف منهم مسلمين مستأمنين فاستشار بختنصر فيهم يوحنا فقال ان خروجهم اليك من بلادهم قبل نهوضك اليهم رجوع منهم عما كانوا عليه فأقبل منهم وأحسن اليهم . قال فأنزلهم بختنصر السواد على شاطئ الفرات والتقى بختنصر مع العرب فهزمهم وأثنى فيهم بالقتل والأسر وسار حتى بلغ الحجاز والتقى عدنان في قومه من العرب وبختنصر بذات عرق فهزمهم ونادى مناد من جوف السماء يا لثارات الأنبياء فأخذتهم السيوف من خلفهم ومن بين أيديهم فندموا على ذنوبهم ونادوا بالويل فذلك قوله تعالى - فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون - أي يسرعون هاربين فأخذتهم السيوف ، وقالت لهم الملائكة - لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترقتم فيه ومساكنكم - الآية ، فلما عرفوا أنه واقع بهم أقروا بالذنوب - قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم - فما زالوا يدعون بها حتى هلكوا فذلك قوله تعالى - فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين - ثم رجع بختنصر إلى بابل بما جمع من سبايا العرب فألقاهم في الأنبار فقبل أنبار العرب وانضم اليه المستأمنون من العرب وخلي بختنصر أهل الدير بعد فراغه من غزو العرب وابتنوا لأنفسهم بلدين قسموا إحداهما الأنبار والأخرى الحيرة وخالطهم بعد ذلك النبط ومات عدنان وبقيت بلاد العرب خرابا في حياة بختنصر ، فلما مات بختنصر رجع معد بن عدنان ومعه أنبياء بني اسرائيل حتى آتى مكة فأقام أعلامها وحج الأنبياء معه .

مجلس في ذكر لقمان الحكيم عليه السلام

وذكر بعض مواعظه وحكمته ووصيته لابنه

قال الله تعالى - ولقد آتينا لقمان الحكمة - يعنى العقل والعلم والعمل به والاصابة في الأمور .
واختلفوا في نسبه فقال محمد بن اسحق بن يسار هو لقمان بن باعور بن ناحور بن تارخ وهو
آزر أبو ابراهيم عليه السلام ، وقال وهب كان ابن أخت أيوب عليه السلام ، وقال مقاتل كان ابن
خالة أيوب ، وقال الواقدي كان قاضي بني اسرائيل ، وقال آخرون كان عبدا ، وقال مجاهد كان
لقمان عبدا أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين ، وروى الأوزاعي عن عبد الرحمن بن حرملة
قال جاء أسود الى سعيد بن المسيب يسأله ، فقال له سعيد بن المسيب لا تحزن من أجل أنك أسود
فانه قد كان من خير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه
ولقمان الحكيم كان أسود نوبيا من سودان مصر ذا مشافر .

حدثنا الامام أبو منصور الخشاي لفظا بإسناده عن سعيد بن المسيب أن لقمان عليه السلام
كان عبدا حبشيا نجارا .

وأخبرني ابن فتحويه . بإسناده عن سعيد بن المسيب أن لقمان عليه السلام كان خياطا ، واتفق
العلماء أنه كان حكيما ولم يكن نبيا إلا عكرمة فانه كان يقول : ان لقمان كان نبيا تفرد بهذا القول .
حدثنا أبو منصور الخشاي عنه بإسناده أنه قال كان نبيا . قال بعضهم خير لقمان بين النبوة
والحكمة فاختار الحكمة .

وروى نافع عن عبد الله بن عمر . قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «حقا أقول لم يكن
لقمان نبيا ولكن كان عبدا عصمه الله تعالى كثير التفكير حسن اليقين أحب الله فأحبه الله فمن عليه
بالحكمة » وذلك أنه كان نائما نصف النهار فجاء النداء يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في
الأرض تحكم بين الناس بالحق ، فأجاب الصوت فقال . ان خير في ربي قبلت العافية ولم أقبل البلوى وان
عزم على فسمعا وطاعة فاني أعلم انه إن فعل بي أعانني وعصمني ، فقالت الملائكة لم يا لقمان ؟ قال لأن
الحاكم بأشد النازل وأكدرها يغشاه الظلم من كل مكان إن أصاب ، فأرجو ان ينجو وان أخطأ
أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن في الدنيا ذليلا خيرا من ان يكون شريفا ، ومن تغير الدنيا على الآخرة
فته الدنيا ولا تبقى له الآخرة ، فتعجبت الملائكة من حسن منطقته فنام نومة فأعطى الحكمة فانتبه
فتكلم بها ، ثم نودي داود بعده فقبلها ولم يشترط بها ما اشترط لقمان فهم بالخطيئة غير مرة كل ذلك
ويعفو الله عنه ، وكان لقمان يوازره بحكمته ، فقال له داود طوبى لك يا لقمان أعطيت الحكمة وصرف
عنك البلاء ، وأعطى داود الخلافة وابتلى بالبلية والفتنة .

باب في ذكر بعض ما روى من حكم لقمان ومواعظه المذكورة في القرآن

قال الله تعالى - ولقد آتينا لقمان الحكمة ، وقال أيضا - وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم - الآيات .

أخبرنا أبو عبد الله الحسين الدينوري عن عكرمة قال كان لقمان من أهون مملوك على سيده ، قال فبعثه مولاه مع رقيقة له إلى بستان له ليأتوه بشيء من ثمره فجاءوا وليس معهم شيء وقدأكلوا الثمرة وأحبالوا على لقمان ، فقال لمولاه إن ذا الوجهين لا يكون عند الله أمينا فاسقني وإياهم ماء جميعا ، ثم أرسلنا لنقذفه ففعل فجعلوا يتقايثون الفاكية وجعل لقمان يتقايا ماء ثقيا فعرف صدقه من كذبهم ، قال فأول ما روى من حكمته انه بينما هو مع مولاه إذ دخل المخرج فأطال فيه الجلوس فناداه لقمان إن طول الجلوس على الخلاء يتجمع منه الكبد ويورث الباسور وتصعد الحرارة إلى الرأس فاجلس هونا وقم قال فخرج وكتب حكمته على باب الحش ، قال وسكر مولاه يوما فخاطر أقواما على ان يشرب ماء بحيرة فلما أفاق عرف ما وقع فيه فدعا لقمان ثم قال له لمثل هذا اليوم كنت خباثتك قال أخرج كرسيك وأباريقك ثم اجمعهم فلما اجتمعوا قال لهم على أي شيء خاطرتموني قالوا على ماء هذه البحيرة فقال لهم لقمان إن لها مواد فاحبسوا عنها موادها حتى يشربها قالوا وكيف نستطيع ان نحبس موادها فقال لقمان وكيف يستطيع شربها ولها مواد

أخبرنا ابن فتحويه باسناده عن خالد الربعي قال : كان لقمان عبدا حبشيا نجارا فقال له سيده اذبح لنا شاة فذبح له شاة ، فقال اثنتى بأطيب مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب ، فقال له أما كان فيها شيء أطيب من هذا قال لا فسكت عنه ، ثم قال له اذبح لنا شاة فقال اثنتى بأخبث مضغتين منها فجاءه باللسان والقلب ، فقال له أمرتك ان تأتيني بأطيبها مضغتين فأتيتني باللسان والقلب وأمرتك ان تأتيني بأخبثها مضغتين فأتيتني باللسان والقلب ، فقال له إنه ليس بأطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا .

وأخبرنا عبد الله بن حامد باسناده عن محمد بن عجلان قال : قال لقمان الحكيم ليس مال كصحة ولا نعيم كطيب نفس .

وأخبرنا عبد الله باسناده عن أبي هريرة قال : مر رجل بلقمان والناس مجتمعون عليه فقال له أأنت العبد الأسود الذي كنت راعيا بموضع كذا وكذا ؟ قال بلى . قال فما بلغ بك ما أرى ؟ قال صدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعني .

أخبرني الحسين بن محمد عن أبيه ، قال قال لقمان ضرب الوالد لولده كالماء للزرع . وعن عبد الله بن دينار أن لقمان قدم من سفر فلتقاه غلامه في الطريق فقال له ما فعل أبي ؟ قال مات . قال الحمد لله

ملككت أمري . قال فما فعلت امرآتي ؟ قال ماتت . قال جدد فراشي . قال ما فعلت أختي ؟ قال ماتت ، قال سترت عورتى . قال ما فعل أخى ؟ قال مات قال انقطع ظهري .
أخبرنا الحسين بن الحسن بن محمد بإسناده عن شقيق قال قيل للقمان أى الناس أشر ؟ قال الذى لا يبالي أن يراه الناس مسيئا . وقيل للقمان ما أقبح وجهك . قال تعيب بهذا على النقش أو على الناقش .

وروى المحاربى عن سفيان الثورى قال : قال لقمان لابنه إن الدنيا بحر عميق قد غرق فيها ناس كثيرون فلتكن سفينتك فيها تقوى الله وليكن حشوها إيمانك بالله وشراعها التوكل على الله فلعلك تنجو وما أظنك ناجيا . يا بنى كيف لا يخاف الناس ما يوعدون وهم فى كل يوم ينقصون يا بنى خذ من الدنيا بلغة ولا تدخلن فيها دخولا فتضر فيها بآخرتك . ولا ترفضها فتكون عيالا على الناس وصم صياما يقطع شهوتك ولا تصم صياما يمنعك عن الصلاة فان الصلاة عند الله أعظم من الصوم . يا بنى لا تتعلم العلم لتباهى به العلماء وتمازى به السفهاء أو ترأى به فى المجالس ولا تترك العلم زهادة فيه ورغبة فى الجهالة . يا بنى اختر المجالس على عينك فان رأيت قوما يذكرون الله فاجلس اليهم فانك إن تك عالما ينفعك علمك ويزيدك علما وإن تكن مستأهلا يعاموك ولعل الله أن يطالعهم برحمته فتعلم معهم وإذا رأيت قوما لا يذكرون الله فلا تجلس اليهم فانك إن تكن عالما لا ينفعهم علمك وإن تكن جاهلا يزيدوك جهلا فلعل الله يطالعهم بالعقوبة فتعلمك . يا بنى لا تضع برك إلا عند راعيه كما ليس بين الكبش والذئب خلة كذلك ليس بين البار والفاجر خلة . ومن يحب الرءا يشتم ومن يدخل مداخل السوء يتهم ومن يقارن قرين السوء لا يسلم ومن لا يعلمك لسانه يندم . يا بنى كن عبدا للأخيار ولا تكن خليلا للشرار . يا بنى كن أمينا تكن غنيا ولا تر الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر . يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتك ولا تجادلهم فيمنعوك حديثهم ، والطف بهم فى السؤال إذا تركوك ولا تعجزهم فيملوك ، يا بنى لا تطلب من الأمر مدبرا ولا ترفض منه مقبلا فان ذلك يقل الرأى ويزرى بالعقل ، يا بنى إن تأدبت صغيرا انتفعت كبيرا . يا بنى إذا سافرت فلا تأمن على دابتك فان ذلك سريع فى إدبارها وليس ذلك من فعل الحكماء إلا أن تكون فى محل يمكنك فيه التمدد وإذا قربت من المنزل فانزل عن دابتك وسر ثم ابدأ بعلفها قبل نفسك وإياك والسفر فى أول الليل ، وعليك بالتعريس والادلاج من نصف الليل إلى آخره . وسافر بسيفك وخفك وعمامتك وكسائك وسقائك وإبرتك وخيوطك ومخزرك وتزود من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك ، وكن لأصحابك موافقا موافيا إلا فى معصية الله ، يا بنى إياك والتفنع فانه بالنهار شهرة وبالليل ريبة . يا بنى لاتأمر الناس بالبر وتنسى نفسك فيكون مثلك مثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه . يا بنى لاتحقرن من الأمور صغارها إن الصغار غدا تصير كبارا . يا بنى إياك والكذب فانه يفسد دينك وينقص عند الناس مروءتك فعند ذلك يذهب

حياؤك وبهاؤك وجاهك وتهان ولا يسمع منك إذا حدثت ولا تصدق إذا قلت ولا خير في العيش إذا كان هكذا . يا بني إياك وسوء الخلق والضجر وقلة الصبر فلا يستقيم لك على هذه الحصال صاحب ولا يزال لك من الناس عليها مجانب وألزم نفسك التودد في أمورك والصبر على مرارات الأحوال وحسن مع جميع الناس خلقتك فان من حسن خلقه وأظهر بشره وبسطه حظى عند الأبرار وأحبه الأخيار وجانبه الفجار . يا بني لا تعلق نفسك بالهموم ولا تشغل قلبك بالأحزان وإياك والطمع وارض بالقضاء واقع بما قسم الله لك يصف عيشك وتسرى نفسك وتستلذ حياتك وان أردت أن يجمع لك غنى الدنيا فاقطع طمعك عما في أيدي الناس فان ما بلغ الأنبياء الصديقون ما بلغوا إلا بقطع طمعهم عما في أيدي الناس . يا بني ان الدنيا قليل وعمرك فيها قليل من قليل وقديقي قليل من قليل القليل يا بني اجعل معروفك في أهله ولا تضعه في غير أهله فتخسر في الدنيا وتحرم ثوابه في الآخرة وكن مقتصدا ولا تكن مبذرا ولا تمسك المال تقتيرا ولا تعطه تبذيرا . يا بني الزم الحكمة تكرم بها وأعزها تعزبها وسيد أخلاق الحكمة دين الله عز وجل . يا بني للحاسد ثلاث علامات يغتاب صاحبه إن غاب ويتملق إذا شهد ويشمت فيه بالمصيبة . تم خبر لقمان الحكيم وما وصى لابنه أنعم والله أعلم .

مجلس في قصة بلوقيا

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الحزرقى بإسناده عن عبد الله بن سلام الاسرائيلي قال كان في بني اسرائيل رجل يقال له أوشيا وكان من علمائهم وكان كثير المال وكان إماما لبني اسرائيل وكان قد عرف نعت النبي عليه السلام وأمته في التوراة فخبأ وكنم عنهم وكان له ابن يقال له بلوقيا خليفة أبيه في بني اسرائيل وكان ذلك بعد سليمان فلما مات والده أوشيا وبقي بلوقيا والإمامة والقضاء في يده فتش يوما خزائن والده فوجد فيها تابوتا من حديد مقفلا بقفل من حديد فسأل الحزان عن ذلك فقالوا لا ندرى فاحتال على القفل حتى فكاه فاذا فيه صندوق من خشب الساج ففكه فاذا فيه أوراق فيها نعت النبي صلى الله عليه وسلم وأمته محتومة بالمسك ففكها وقرأ ما فيها على بني اسرائيل ثم انه قال الويل لك يا أبت من الله فيما كتبت وكنمت من الحق عن بني اسرائيل فرده إلى أهله فقال بنو اسرائيل يا بلوقيا لولا أنك إمامنا وكبرنا لنبشنا قبره وأخرجناه منه وأحرقناه بالنار فقال يا قوم لا ضير إنما تبع حظ نفسه وخسر دينه وديناه فألقوا نعت النبي صلى الله عليه وسلم وأمته بالتوراة قال وكانت أم فلوقيا من الأحياء فاستأذنها في الخروج إلى بلاد الشام وكانوا يومئذ يبلاد مصر فقالت له وما تصنع بالشام ؟ فقال أسأل عن محمد وأمته فلعن الله تعالى أن يرزقني الدخول في دينه فأذنت له فبرز بلوقيا ليدخل بلاد الشام فيينا هو يسير إذا انتهى إلى جزيرة من جزائر البحر فاذا هو بحيات كأمثال الابل عظما وفي الطول ماشاء الله وهن يقلن

لا إله إلا الله محمد رسول الله فلما رأيته قلن له أيها الخلق المخلوق من أنت وما اسمك ؟ فقال اسمي بلوقيا وأنا من بني إسرائيل ققلن وما إسرائيل قال من ولد آدم ققلن ممعنا باسم آدم ولم نسمع باسم إسرائيل . قال فقال لهم بلوقيا أيها الحيات من أنتن ققلن نحن من حيات جهنم ونحن نعذب الكفار فيها يوم القيامة قال بلوقيا وما تصنعن ههنا وكيف تعرفن محمدا ققلن إن جهنم تفور وتزفر في كل سنة مرتين فتلقينا إلى ههنا ثم نعود إليها فشدة الحر من حرها في الصيف وشدة البرد من بردها في الشتاء وليس في جهنم درك من دركاتها ولا باب من أبوابها ولا سراق من سرادقاتها إلا وقد كتب الله عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل ذلك عرفنا محمدا صلى الله عليه وسلم ، قال بلوقيا أيها الحيات هل في جهنم مثلكن أو أكبر منكن ققلن إن في جهنم حيات تدخل إحداها في أنف إحداهن وتخرج من فيها ولا تشعر بها لعظمها قال فسلم بلوقيا عليهن ومضى حتى أتى جزيرة أخرى فاذا هو بحيات كأمثال الجدوع والسوارى وعلى متن إحداهن حية صغيرة صفراء كلما مشت اجتمعت الحيات حولها فاذا تفخت صرن تحت الأرض خوفا منها قال فلما رأيته ورأيتني قالت أيها الخلق المخلوق من أنت وما اسمك قلت اسمي بلوقيا وأنا من بني إسرائيل من ولد إبراهيم الخليل فأخبرني أيها الحية من أنت قالت أنا موكة بالحيات واسمى تملixa ولولا أتى موكة بهن لقتلن بنى آدم كلهم في يوم واحد ولكنى إذا صفرت صفرة واحدة وسمعن صوتى دخلن تحت الأرض ولكن يابلوقيا ان لقيت محمدا صلى الله عليه وسلم فأقرئه منى السلام ثم مضى بلوقيا الى بلاد الشام فأتى بيت المقدس وكان بها حبر من أحبارهم يسمى عفان الخير فأتاه فسلم عليه فقال له يابلوقيا ليس هذا زمان محمد ولا زمان أمته بينك وبينه قرون وسنون ثم قال عفان الخير يابلوقيا أرنى موضع الحية التى اسمها تملixa فان قدرت أن أصيدا رجوت أن أنال معك ملكا عظيما ونحيا حياة طيبة إلى أن يبعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فندخل فى دينه ، فمن حرص بلوقيا على الدخول فى دين محمد صلى الله عليه وسلم قال أنا أريك المكان فقام عفان وأخذ تابوتا من حديد وعمل فيه قدحين من فضة فى أحدهما خمر وفى الآخر لبن ثم سارا جميعا حتى انتهيا الى موضع الحية ففتحا باب التابوت وتنحيا فبجاءت الحية تبغى الرائحة فدخلت التابوت فشربت اللبن والخمر فسكرت ونامت ، فقام عفان ودب إلى التابوت ديبيا خفيفا فأغلق عليها باب التابوت وحصنه وأخذها ومرا جميعا فلم يمرأ بشجرة ولا نبت إلا كلمها بأذن الله تعالى فمرا بشجرة يقال لها القرميل فقالت يا عفان من يأخذنى ويقطعنى ويدقنى ويعصر مائى ودهنى ويطللى به قدميه فانه يغوض البحار السبعة فلا تبتل قدماء ولا يفرق ، فقال عفان إياك له طلبت ثم انه قطع تلك الشجرة فدقها وعصر ماءها وأخرج دهنها وجعله فى كوز ثم خلى عن الحية فطارت بين السماء والأرض وهى تقول يا بنى آدم ما أجراً كم على ربكم ولن تصلوا الى ما تريدون قال فذهبت الحية وسار عفان وبلوقيا الى البحر فطليا أقدامهما ثم دخلا فى اليم ومشيا فى الماء كأنما كانا يمشيان

على الأرض حتى قطعا البحر الأول ثم الثاني فاذاهما يجبل في وسط البحر ليس بعال ولا متدان
نراه كالمسك عليه غمام أبيض وفيه كهف وفي الكهف سرير من ذهب وعلى السرير شاب مستلق
على قفاه ذو وفرة واضع يده اليمنى على صدره والشمال على بطنه كالتائم وليس بنائم وهو ميت وعلى
رأسه تين وخاتمه بالشمال وكان هذا سليمان بن داود عليه السلام وكان ملكه في خاتمه وكان خاتمه
من ذهب وفصه من ياقوت أحمر مربع مكتوب عليه أربعة أسطر في كل سطر اسم الله الأعظم
وكان عند عفان علم من الكتاب ، فقال بلوقيا من هذا الميت يا عفان ؟ فقال هذا سليمان بن داود
نريد أن نأخذ خاتمه ونملك ملكه ونرجو الحياة الى أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقال
بلوقيا أليس قد سأل ربه فقال رب هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي فأعطاه إياه على ما سأل
ولا ينال ملك سليمان الى يوم القيامة لدعائه ؟ فقال عفان يا بلوقيا اسكت إن الله معنا ومعنا اسم الله
الأعظم ولكن أنت يا بلوقيا اقرأ التوراة فتقدم عفان لينزع الخاتم من يد سليمان من اصبعه فقال
التين ما أجراك على ربك إن غلبتنا بأسماء الله تعالى فنحن تغلبك بقدرة الله تعالى ، قال فكلما
نفخ التين ذكر بلوقيا اسم الله تعالى فلم تعمل نفخات التين فيهما شيئا ودنا عفان من السرير
لينزع الخاتم من اصبعه فاشتغل بلوقيا بالنظر إلى نزول جبريل عليه السلام من السماء ، فلما نزل
صاح بهما صيحة ارتجت الأرض والجبال وتزلزلت منها فاختلفت مياه البحار وهاجت والتططعت
حتى صار كل عذب مالحا من شدة صيحته وسقط عفان على وجهه وسقط بلوقيا على وجهه ونفخ
التين فخرج من بطنه شعله كأنها البرق الخاطف واحترق عفان وعادت نفخته في البحر فلما مرت
النفخة بشيء إلا أحرقتة ولا بماء الا سخنته وأغلته ، وإن بلوقيا لما رأى العذاب ذكر اسم الله
الأعظم فلم ينله مكروه . ثم تراءى جبريل عليه السلام في صورة رجل فقال له يا ابن آدم ما أجراك
على الله ، فقال له بلوقيا من أنت يرحمك الله ؟ فقال له أنا جبريل أمين رب العالمين ، فقال بلوقيا
يا جبريل إنما خرجت حبا لمحمد صلى الله عليه وسلم ودينه ولم أقصد الخطأ ولم أتعمد . قال فبذلك
نجوت ثم صعد جبريل عليه السلام الى السماء ومضى بلوقيا فطلى قدميه بذلك الدهن فضل
الطريق الذي جاء منه وأخذ في طريق أخرى فسار ومضى ستة أبحر ووقع في السابع فاذا هو
بجزيرة من ذهب حشيشها الورس والزعفران وأشجارها الزيتون والنخل والرمان . فقال بلوقيا
ما أشبه هذا المكان بالجنة على ما وصفت ، قال فدنا بلوقيا من بعض الشجر فتناول من ثمرها ،
فقال الشجرة يا خاطي يا ابن الخاطي لا تأخذ مني شيئا فبقى متعجبا ، واذا بجذء الشجرة قوم
يتراكضون وبأيديهم سيوف مسلولة وهم يتناوشون بعضهم بعضا بالضرب والطعن فلما رأوا بلوقيا
أحاطوا به وأحذقوا من ورائه وهموا به سوءا ، فذكر بلوقيا اسم الله فتعجبوا منه وهابوه وأغمدوا
سيوفهم وقالوا بأجمعهم لا اله الا الله محمد رسول الله ثم قالوا له من أنت يا عبد الله فقال أنا من بني
آدم فقالوا ما اسمك ؟ قال اسمي بلوقيا وأنا من بني إسرائيل ، فقالوا لعرف آدم ولا نعرف إسرائيل

فما الذى أوقعك إلينا ، فقال إني خرجت فى طلب نبي يسمى محمدا صلى الله عليه وسلم وإنى قد ضللت الطريق الذى أردته ورأيت من الأهوال كذا وكذا ، فقالوا يا بلوقيا نحن من الجن المؤمنين ونحن مع ملائكة الله فى السماء ، ثم نزلنا الى الأرض وقاتلنا كفرة الجن ونحن ههنا مقيمون تغزوهم ونجاهدهم الى يوم القيامة ولسنا نموت الى يوم القيامة وأنت تصير معنا ، فقال بلوقيا لملك الجن وكان اسمه صخرا يا صخر أخبرنى عن خلق الجن كيف كان ؟ قال لما خلق الله تعالى جهنم خلق لها سبعة أبواب وسبعة ألسننة وخلق منها خلقين خلقا فى سمائه سماه جبليت وخلق فى أرضه سماه تمليت ، فأما جبليت فانه خلق فى صورة أسد وتمليت فى صورة ذئب ، وجعل الأسد ذكرا والذئب أنثى وجعل طول كل واحد منهما مسيرة خمسمائة عام وجعل ذنب الذئب بمنزلة ذنب العقرب وذنب الأسد بمنزلة ذنب الحية ، وأمرهما أن ينتفضا فى النار انتفضا فسقط من ذنب الذئب عقرب ومن ذنب الأسد حية فحيات جهنم وعقاربها من ذلك ، ثم أمرهما أن يتناكحا فحملت الذئب من الأسد فولدت سبع بنين وسبع بنات فأوحى الله إليهم أن يزوجوا البنين من البنات كما أمر آدم فستة من البنين أطاعوا وواحد لم يطع ولم يتزوج فلعله أبوه وهو إبليس وكان اسمه الحارث وكنيته أبومرة فهذا أول خلق الجن يا بلوقيا ، وإن دوابنا لا تثبت مع الانس ولكنى أجعل فرسى وأبرقه حتى لا يعرف من راكبه وأركب عليه على اسم الله تعالى فاذا انتهيت الى أقصى أعمالى على ساحل بحر كذا وكذا فاذا أنت بشيخ وشاب ومشايخ معهما فانك ستلقاهما هناك فادفع الفرس إليهما وامش فى حفظ الله راشدا فركب بلوقيا على ذلك الفرس حتى انتهى إليهم فسلم على الشيخ والشاب ونزل عن الفرس ودفعها إليهما ، وكان قد فصل من عند ملك الجن عند الغداة وبلغ إليهما نصف النهار فقالا له يا بلوقيا منذ كم فارقت الملك ؟ قال فارقت من غدوة قال ما أسرع ماجئت قد أتعت فرسنا فقال بلوقيا ما مددت إليه يدا ولا حركت عليه رجلا ولم أركضه ركضا. قال بلى ولكن فرسنا أحسن بك وبمنزلتك وثقلك فطار ما بين السماء والأرض ليرى نفسه منك فكم تراه جاب بك ؟ قال خمس فراسخ أو أكثر قال بل جاب بك فى هذه المدة مسيرة مائة وعشرين سنة ، وكان يطير بك بين السماء والأرض حول الدنيا دون قاف وأنت لا تعلم . قال فحلوا عنه السرج واللجام والبرقع فاذا العرق يقطر ويسيل من كل شعرة منه وله جناحان اتقضا وتكسرا من كثرة الطيران والدوران والاعياء والكلال ، قال بلوقيا هذا والله لعجيب فقالوا عجائب الله لا تتقصى ثم سلم عليهما فمضى فركب اليم فبينما هو يسير إذ رأى ملكا إحدى يديه بالشرق والأخرى بالمغرب وهو يقول لا إله الا الله محمد رسول الله فسلم عليه بلوقيا فقال له الملك من أنت أيها الخلق المخلوق ؟ قال أنا بلوقيا وأنا من بنى اسرائيل من ولد آدم ثم قال له بلوقيا أيها الملك ما معك ؟ قال اسمى يوحايل وأنا ملك موكل بظلمة الليل وضوء النهار قال فما بال يديك مبسوطتين ؟ قال فى يدي اليمنى ضوء النهار وفى اليد اليسرى ظلمة الليل ، ولو سبق النهار الليل أضاءت السموات والأرض ولم يكن الليل أبدا ، ولو سبقت الظلمة

النور لأظلمت السموات والأرض ولم يكن ضوء أبدا وبين يديّ لوح معلق فيه سطران سطر أبيض و سطر اسود ، فاذا رأيت السواد ينقص تهتت الظلمة وإذا رأيت السواد يزداد زدت الظلمة وإذا رأيت السطر الأبيض يزداد زدت النهار وإذا انتقص تهتت فلذلك الليل في الشتاء أطول من النهار والنهار أقصر وفي الصيف النهار أطول والليل أقصر ، ثم سلم بلوقيا ومضى فاذا هو بملك آخر قائم يده اليمنى في السماء ويده اليسرى في الأرض وقدماه تحت الثرى وهو يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله فسلم عليه بلوقيا فقال له الملك ممن أنت وما اسمك ؟ قال اسمي بلوقيا وأنا من بني اسرائيل واسرائيل من ولد آدم ، ثم قال بلوقيا أيها الملك ما اسمك قال مخايل قال فما بالي أرى يمينك في السماء وشمالك في الماء ؟ قال أحبس الريح يميني والماء بشمالي ولو رفعت شمالي عن الماء لزخرت البحار كلها في ساعة واحدة وتلاطمت باذن الله وأغرقت الدنيا ومن عليها ويدي اليمنى في الهواء أحبس الريح عن ولد آدم لأن في السماء ريحا تسمى الهائمة ولو أرسلتها لنسفت من في السماء ومن في الأرض . قال فسلم بلوقيا ومضى فاذا هو بأربعة من الملائكة أحدهم رأسه كرأس الثور والآخر رأسه كرأس النسر والثالث رأسه كرأس الأسد والرابع رأسه كرأس الانسان ، فأما الملك الذي رأسه كرأس الثور ، فانه يقول اللهم ارحم البهائم ولا تعذبها وارفع عنها برد الشتاء وحر الصيف واجعل في قلوب بني آدم لها الرأفة والرحمة كيلا يكيدوهن ولا يكلفوهن فوق طاقتهن ، واجعلني من أهل شفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، وأما الذي رأسه كرأس النسر ، فيقول اللهم ارحم الطيور وارفع عنها برد الشتاء وحر الصيف واجعلني من أهل شفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، وأما الذي رأسه كرأس الأسد فيقول اللهم ارحم السباع ولا تعذبها وادفع عنها حر الصيف وبرد الشتاء واجعلني من أهل شفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، وأما الذي رأسه كرأس الانسان ، فانه يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اللهم ارحم المسلمين ولا تعذبهم وادفع عنهم النار واجعلني من أهل شفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، ومضى بلوقيا حتى انتهى الى جبل قاف فاذا هو بملك قائم على جبل قاف وإن جبل قاف محيط بالدنيا من ياقوته خضراء وذلك قوله تعالى - ق - والقرآن المجيد - فسلم بلوقيا على الملك فقال له الملك ممن أنت ؟ قال أنا بلوقيا وأنا من بني اسرائيل من ولد آدم فقال له الملك وأين تريد ؟ قال خرجت في طلب نبي من العرب يقال له محمد ولست أرى أثره ولا أدري بأي بلاد أنا فقال له الملك لا إله إلا الله محمد رسول الله قد أمرنا بالصلاة على محمد فقال بلوقيا أيها الملك ما اسمك قال اسمي حزقيايل قال وما تصنع ههنا قال أنا أمين الله على جبل قاف وفي يده وتر مرة يعقده ومرة يحمله وعروق الأرض كلها مشدودة عليه والوتر في كفه قال فاذا أراد الله أن يضيق على عباده أمرني أن أمد الوتر وأعقده وأوثق عروق الأرض فتضيق الدنيا على العباد وإذا أراد الله أن يوسع عليهم أمرني أن أرخي الوتر فأفثق عروق الأرض فتوسع الدنيا على العباد وإذا أراد الله أن يخوف قوما أمرني أن أحرك عروق تلك الأرض فمن

أجل ذلك موضع يهتز وموضع يتزلزل وموضع لا يتزلزل قال بلوقيا أيها الملك ما وراء قاف قال وراء قاف أربعون دنيا غير الدنيا التي جئت منها في كل دنيا أربعمائة ألف باب في كل باب أربعمائة ألف ضعف مثل الدنيا التي جئت منها وليست فيها ظلمة بل كلها نور أرضها ذهب عليها حجب من نور وسكانها الملائكة لا يعرفون آدم ولا إبليس ولا جهنم وهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ألهموا ولذلك خلقوا وبه أمروا إلى يوم القيامة قال بلوقيا فما وراءهم أيها الملك قال حجب ووراء الحجب علم الله وقدرته قال بلوقيا أخبرني أيها الملك على أي شيء هذا الجبل موضوع قال بين قرني ثور واسمه بهموت وهو أبيض رأسه بالمشرق ومؤخره بالمغرب بين قرنيه مسيرة ثلاثين ألف سنة وهو ساجد لربه تعالى على صخرة بيضاء قال بلوقيا أيها الملك كم الأرضون وكم البحار ؟ قال الأرضون سبع والبحار سبع قال فجهم أين هي ؟ قال تحت الأرض السابعة ، فسلم عليه بلوقيا ومضى حتى انتهى إلى حجاب طرفه في السماء وأسفله في الماء عليه باب مقفل وعلى القفل خاتم من نور وعلى الباب ملكان أحدهما رأسه كرأس الثور والآخر رأسه كرأس الكباش وبدنه كبدين الثور وهما يقولان لا إله إلا الله محمد رسول الله فسلم عليهما بلوقيا فردا عليه السلام وقال لبلوقيا أيها الخلق المخلوق ممن أنت وما اسمك ؟ قال اسمي بلوقيا وأنا من بني إسرائيل من ولد آدم فقالا لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه أسماء ما عرفناها . قال كيف تعرفون محمداً وما تعرفون آدم ومحمد من نسله فقالا هكذا خلقنا وبهذا أمرنا ولم نسمع باسم آدم وإسرائيل ، فقال بلوقيا افتح لي الباب حتى أجوز فقالا لا نحسن فتحه وإن الله ملكا في السماء اسمه جبريل عسى أن يقدر على فتحه فدعا بلوقيا ربه . قال فأمر الله تعالى جبريل فنزل إليه وفتح له ، ثم قال له يا ابن آدم ما أجراك على الله ، ثم جاز بلوقيا حتى انتهى إلى بحرين بحر ملح وبحر عذب فرأى بينهما حاجزا وفي البحر الملح جبلا من ذهب وفي البحر العذب جبلا من فضة وبينهما ملك على صورة النملة ومعه ملائكة على تلك الصورة فسلم عليهم بلوقيا فردوا عليه السلام ، وقالوا من أنت فأخبرهم بقصته ، ثم قال لهم بلوقيا من أتم : قالوا نحن أمنا الله على هذين البحرين لا يلتقيان ولا يبغيان ، فقال لهم بلوقيا ما هذا الجبل الأحمر ؟ قالوا هذا كنز الله في الأرض فكل ذهب يظهر في الأرض من هذا الجبل الأحمر وكل ماء في الدنيا من ماء عذب أو ملح إنما هو من ماء هذين البحرين وماؤهما إنما يجيء من تحت العرش من قبل أن يخلق الله الملائكة والجبل الأبيض من فضة وهو كنز الله ، وكل فضة في الدنيا ومعدن من فضة فمن عروق هذا الجبل ، ثم سلم بلوقيا ومضى حتى انتهى إلى بحر عظيم ، فإذا هو بحيتان كثيرة عظيمة قد اجتمعت وحوت عظيم يقضى بين الحيتان . فلما نظر إلى بلوقيا . قال لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فسلم عليه بلوقيا ، ثم قال له من أنت فأخبره بحاله وأنه خرج يطلب النبي صلى الله عليه وسلم فرد عليه السلام ، ثم قال له يا بلوقيا إن لقيت محمداً

فأقرئه مني السلام ، فقال بلوقيا نعم ان شاء الله تعالى ثم إنه قال : أيتها الحيتان إني جائع عطشان وماء هذا البحر مالح وما أجد ما آكل وما أشرب . قال : فقال الحوت الأعظم يا بلوقيا سأطعمك طعاما إذا أكلته تسير أربعين سنة لا تعب ولا تنام ولا تجوع ولا تعطش فأطعمه ذلك الحوت قرصا أبيض فأكله ومضى حتى بلغ العمران ، ومن قبل أن يبلغه رأى شابا يجري على الماء كأنه البدر ، فقال له بلوقيا ، من انت فقال ؟ سل الذي خلفي فسار بلوقيا يوما وليلة فاذا هو بآخر يمر على الماء ضوءه كضوء القمر ، فقال له بلوقيا من أنت ؟ قال سل الذي خلفي فسار بلوقيا يوما وليلة فاذا هو بثالث كأنه القمر يلوح في آخر الشمس ، فقال له بلوقيا أنشدك الله إلا ماوقفت على فوقف ، وقال لبلوقيا لماذا تستحلفني . قال خشيت أن تفوتني كما صدر من أصحابك الماضين ثم قال له من كان الأول . قال اسرافيل صاحب الصور . والثاني ميكائيل صاحب المطر وأرزاق العباد والثالث جبريل أمين الله تعالى . فقال له بلوقيا فماذا تصنعون في هذا اليم . قال حية من حيات البحر قد آذت سكانه فدعوا عليها فاستجاب الله دعاءهم وإنا أمرنا أن نسوقها إلى جهنم ليعذب الله بها الكفار يوم القيامة . قال بلوقيا كم طولها وكم عرضها ؟ قال طولها مسيرة ثلاثين سنة وعرضها مسيرة عشرين سنة ، فقال بلوقيا أليكون في جهنم مثل هذه الحية أو أكبر منها قال نعم ان في جهنم من الحيات ما تدخل هذه الحية في أنف إحداهن ولا تشعر بها وتخرج من فيها ولا تشعر بها من عظم خلقها قال فسلم بلوقيا ومضى إلى جزيرة أخرى فاذا هو بسلام أبيض أمرد بين قبرين فسلم عليه بلوقيا ، وقال له يا شاب من أنت وما اسمك ؟ قال اسمي صالح . قال فما هذان القبران . قال أحدهما قبر أبي ، والآخر قبر أمي ، وكانا صالحين فماتا ههنا وأنا عند قبرهما حتى أموت فسلم عليه بلوقيا ومضى حتى انتهى إلى جزيرة ، فاذا هو بشجرة عظيمة عليها طائر واقف رأسه من ذهب وعينه من ياقوت ومنقاره من لؤلؤ ويداه من زعفران وقوائمه من زمرد وإذا مائدة موضوعة تحت الشجرة وعليها طعام وحوت مشوى فسلم عليه بلوقيا فرد الطائر عليه السلام فقال له بلوقيا من أنت أيها الطائر ؟ قال أنا من طيور الجنة وإن الله تعالى قد بعثنى إلى آدم بهذه المائدة لما أهبط من الجنة وإني كنت معه حين لقي حواء وأباح الله له الأكل وأنا ههنا من لدن ذلك الوقت فكل غريب وعابر سبيل من عباد الله الصالحين يمر بها يأكل منها وأنا أمين الله عليها إلى يوم القيامة ، فقال بلوقيا ولا تتغير ولا تنقص ، فقال طعام الجنة لا يتغير ولا ينقص قال بلوقيا أفأكل منها قال كل فأكل حاجته ثم قال له أيها الطائر وهل معك أحد ؟ فقال معي أبو العباس يأتيني أحيانا قال ومن أبو العباس . قال الحضر عليه السلام ، فلما ذكر الحضر إذا به أقبل وعليه ثياب بيض فما خطا خطوة إلا نبت الحشيش تحت قدميه . قال فسلم على بلوقيا وسأله عن حاله ، فقال بلوقيا طالت غيبتى وأريد الرجوع إلى أمي . فقال الحضر بينك

وبين أمك مسيرة خمسمائة عام وأنا أردك إليها في مسيرة خمسمائة شهر ، فقال الطائر إن كان بينك وبينها مسيرة خمسمائة سنة فأنا أردك إليها في مسيرة خمسمائة يوم ، فقال الحضر عليه السلام فأنا أردك إليها في ساعة واحدة . ثم قال غمض عينيك فعمضهما ثم قال له افتح عينيك ففتحهما فاذا هو جالس عند أمه فسألها من جاء بي إليك قالت طير أبيض يطير بك بين السماء والأرض فوضعك قدامى ثم إن بلوقيا حدث بنى اسرائيل بما رأى من العجائب والأخبار فأثبتوها وكتبوها إلى يومنا هذا فهذا ما كان من حديث بلوقيا وما رأى من العجائب في البحر والبر سهلا وجبلا والله أعلم .

مجلس في ذكر قصة ذى القرنين عليه السلام

قال الله تعالى - ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا - .

باب في نسبه ولقبه

قال أكثر أهل السير هو الاسكندر بن فيليش بن بطريوس بن هرمس بن هردوس بن منطون بن رومي بن لطين بن يونان بن يافث ، ويقال نسبه ينتهى إلى العيص بن اسحق ابن ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، وزعم بعض القدماء أن الاسكندر هو أخو دارا بن دارا ، وذلك أن دارا الأكبر بن بهمن بن اسفنديار بن يستاسف كان تزوج أم اسكندر وكانت بنت ملك الروم وكان اسمها هالانه وانها حملت إلى زوجها دارا الأكبر فوجد منها رائحة كريهة فأمر أن يحتال في زوال ذلك منها فاجتمع رأى أهل العرقة في مداواتها على شجرة يقال لها سندروس فطبخت لها وغسلت بمائها فأذهب ذلك كثيرا من نتنها ومن عرقها ولم يذهب ذلك كله ، فاتهمت نفسه عنها لبقية نتنها وعافها فردها على أهلها وقد علقت منه فولدت له في أهلها غلاما فسمته باسمه واسم الشجرة التي غسلت بمائها سكندروس فهذا أصل اسمه ، ثم خفت فقيل اسكندر وكنى بذى القرنين واختلفوا في سبب تسميته بذلك فقال بعضهم سمي بذلك لأنه ملك الروم وفارس وقيل لأنه كان في مقدم رأسه شبه القرنين من لحم ، وقيل لأنه رأى في المنام كأنه أخذ بقرنى الشمس وكان تأويل رؤياه أنه طاف المشرق والمغرب ، وقيل لأنه دعا قومه إلى التوحيد فضربوه على قرنه الأيمن ثم دعاهم إلى التوحيد فضربوه على قرنه الأيسر وقيل لأنه كان له ذؤابتان حسنتان والدؤابة تسمى قرنا ، وقيل لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه وقيل لأنه كان اقترض في وقته قرنان من الناس وهو حي ، وقيل لأنه كان إذا حارب قاتل يديه وركابه جميعا وقيل لأنه أعطى علم الظاهر والباطن وقيل لأنه دخل النور والظلمة والله أعلم .

باب في قصة ذكر أمره وسبب استكمال ملكه

قال الله تعالى - إنا مكننا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً فاتبع سبباً - وقال قوم كان فيليش اليوناني أبو الاسكندر ملك اليونانيين ، فلما مات ملك بعده الاسكندر وقال آخرون ان الاسكندر أخو دارا الأصغر وكان أبو هالانة جد الاسكندر لأمه ملكاً من ملوك الروم فلما مات صار الملك لابن بنته الاسكندر وكانت ملوك الروم يؤدون الاتاوة جميعاً إلى ملوك الفرس وكانت الاتاوة التي كان أبو الاسكندر يؤديها إلى ملوك الفرس بيضة من ذهب ، فلما ملك الاسكندر وكان رجلاً ذا عزيمة وقوة وملك غزا ملوك الروم فقهرهم واستجمع له ملك الروم ، ثم غزا بعض ملوك العرب فظفريهم فأفسد بذلك من نفسه القوة فاستعصى على دارا الأصغر ملك فارس فامتنع من حمل ما كان أبوه يحمله اليه من الخراج والاتاوة عن نفسه وعن ملك الروم ، فكتب اليه دارا بن دارا بقصة الخراج والاتاوة عن نفسه وعن ملك الروم فأجابه الاسكندر إني قد ذهبت تلك الدجاجة التي قد كانت تبيض ذلك البيض وأكلت لحمها ، فلما وصل اليه الكتاب بذلك سخط عليه وكتب اليه يؤنبه بسوء صنيعه في امتناعه عن حمل الخراج اليه وبعث اليه بصولجان وكرة وقفزي سسم ، وأعلمه فيما كتب به اليه أنك صبي وأنه ينبغي لك أن تلعب بالصولجان والكرة التي بعثت بهما اليك ولا تتقلد الملك ولا تلبس به ولا تستعصى والا بعثت اليك من يأتي بك في وثاق ولو كانت جنودك بعدد حب السسم الذي بعثت به اليك ، فبعث اليه الاسكندر في جواب ذلك : اني قد فهمت ما كتبت وقد نظرت ما ذكرت في كتابك من ارسال الصولجان والكرة وضممت الكرة إلى الصولجان وشبهت الكرة بأرض واني محتو على ملكك وأضيفه إلى ملكي وأضيف بلادك إلى بلادي ، واني نظرت إلى السسم الذي بعثته إلى كنظري إلى الصولجان والكرة وبعث إلى دارا مع كتابه صرة من خردل وأعلمه في الجواب انما بعثت اليك بذلك لأن جنودي مثل ذلك ، فلما وصل إلى دارا بن دارا جواب الاسكندر جمع جنوده وتأهب لمحاربة الاسكندر وان الاسكندر أيضاً تأهب للقائه ونادى في عسكره بالرحيل وسار نحو بلاد دارا فالتقيا بناحية خراسان مما يلي الحزر واقتلا أشد القتال وصارت الدائرة على جند دارا فعرض له فارسان من قرابته وأهل بيته وثقته ، وقيل ان أحدهما كان صنيعة ، فطعناه فأردياه عن مركبه وأرادا بطعنهما إياه الحظوة عند الاسكندر والوسيلة اليه وان الاسكندر نادى أن يؤخذ دارا أسيراً ولا يقتل ، فأخبر بشأن دارا فأسرع حتى وقف عليه فرآه يجود بنفسه فنزل اليه وجلس عند رأسه وأخبره أنه لم يهم قط بقتله وأن الذي أصابه لم يكن قط برأيه وانما غدر به ثقاته ، ثم قال له سلمي عما بدا لك فأسعفك به فقال له دارا إن لي اليك حاجتين : إحداهما أن تنتقم لي من الرجلين اللذين فتكابي وسماههما وبلادهما . والثانية أن تتزوج ابنتي روشنك ، فأجابه إلى الحاجتين وأمر بصلب الرجلين وأن ينادى عليهما هذا جزاء من اجترأ على

ملكه وغش اهل بلده ، وتزوج ابنته روشنك ، وكان ملك دارا أربع عشرة سنة ، فلما قتل اجتمع ملك الروم وكان قبل الاسكندر متفرقا ، وتفرق ملك فارس وكان قبل الاسكندر مجتمعا .

باب في ذكر الحوادث التي كانت في أيام ذى القرنين بعد قتل دارا

ووصف مسيره إلى البلاد والآفاق

قالت العلماء بأخبار القدماء : لما قتل الاسكندر دارا ملك البلاد ودانت له العباد ، فهدم ما كان في بلاد الفرس من بيوت النيران وما كان بأرض الهند من بيوت الأوثان وقتل الموازنة وأحرق كتبهم ودعا الناس إلى الاسلام والتوحيد .

قال المرتضى في سبب احراق كتبهم . ان المجوس جعلوا حروف كتبهم من الذهب المضروب بمسامير الذهب على جلود الثيران فبلغ عددها اثني عشر ألفا فأحرقوها لحصول ذلك الذهب وبني اثنتي عشرة مدينة منها ثلاث مدائن بخراسان هراة ومرو وسمرقند ، ومدينة بأرض أصفهان بنيت على مثال الجنة ، ومدينة بأرض اليونان يقال لها هيلاقوس ، ومدينة بأرض بابل لزوجه روشنك بنت دارا ومدينة الاسكندرية . ثم إنه رأى في منامه أنه أخذ بقرني الشمس ورأى في منامه أنه يسير إلى آفاق الأرض شرقا وغربا

واختلف العلماء في نبوته فروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا أدري أكان ذو القرنين نبيا أم لا » فلو صح الحديث لكان الخوض في هذه المسئلة تكلفا ، ثم اختلفوا بعد فيه فقال قوم لم يكن نبيا وإنما كان عبدا صالحا وملكا عادلا فاضلا ، وقال آخرون بل كان نبيا غير مرسل ، والصحيح ان شاء الله أنه كان نبيا غير مرسل ، لما روى وهب وغيره من أهل الكتب قالوا كان ذو القرنين رجلا من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان اسمه الاسكندر . ويقال كان اسمه عباسا وكان عبدا صالحا ، فلما استحكم ملكه واجتمع أمره أوحى الله تعالى إليه يا ذا القرنين اني قد بعثتك إلى جميع الخلائق ما بين الخافقين وجعلتك حجتي عليهم وهذا تأويل رؤياك واني باعثك إلى أمم الأرض كلهم وهم سبع أمم مختلفة ألسنتهم . منهم أمتان بينهما عرض الأرض وأمتان بينهما طول الأرض وثلاث أمم في وسط الأرض وهم الانس والجن ويأجوج ومأجوج ، فأما الأمتان اللتان بينهما طول الأرض فأمة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك وأمة أخرى يحياها يقال لها منسك وهي عند مطلع الشمس ، وأما الأمتان اللتان بينهما عرض الأرض فأمة في قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل والأخرى يحياها في قطر الأرض الأيسر يقال لها تاويل ، فلما قال الله تعالى له ذلك قال ذو القرنين إلهي انك قد ندبتني إلى أمر عظيم لا يقدر عليه الا أنت فأخبرني عن هذه الأمم التي قد بعثتني إليها بأى قوة أكابرهم ، وبأى جمع وحيلة أكابرهم وبأى صبر أقاسيهم وبأى لسان

أناطقهم ، وكيف لي بأن أفقه لغاتهم وبأى سمع أسمع أقوالهم ، وبأى بصر أقدّم وبأى حجة أخاصمهم وبأى عقل أعقل عنهم وبأى قلب وحكمة أدبر أمرهم ، وبأى قسط أعدل بينهم وبأى حلم أصابرهم وبأى معرفة أفصل بينهم وبأى علم أتقن أمورهم وبأى يد أسطو عليهم وبأى رجل أطوهم وبأى طاقة أحصيه وبأى جند أقاتلهم وبأى رفق أو لفهم وليس عندي يا إلهي شيء مما ذكرت يقوم لهم ويقويني عليهم وأنت الرءوف الرحيم لا تكلف نفسا إلا وسعها ولا تحملها فوق طاقتها ولا تشقيها بل أنت ترحمها ، فقال الله تعالى سأطوقك ما حملتك وأشرح لك سمعك وصدرك فتسمع وتعنى كل شيء ، وأشرح لك فهمك فتفقه كل شيء ، وأبسط لك لسانك فتتطق بكل شيء وأفتح لك بصرك فتتقد كل شيء وأحصى لك قوتك فلا يفوتك شيء وأشد لك عضدك فلا يهولك شيء وأشد لك ركك فلا يغلبك شيء وأشد لك قلبك فلا يفرعك شيء وأشد لك يديك فتسطو على كل شيء وأشد لك وطأك فتهلك كل شيء وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما جندا من جنودك يهديك النور أمامك وتحوط بك الظلمة من ورائك فلما قيل له ذلك حدثه نفسه بالمسير وألح عليه قومه بالمقام فلم يفعل وقال لا بد من طاعة الله تعالى ، ثم أمرهم أن يبنوا له مسجدا وأن يجعلوا طول المسجد أربع مائة ذراع وعرضه مائتي ذراع وعرض أساس حائطه أربعة وعشرين ذراعا وطوله في السماء مائة ذراع وأمرهم أن ينصبوا فيه السواري . قالوا كيف نصنع ؟ قال إذا فرغتم من شأن الحيطان فاكبسوها بالتراب حتى يستوى الكبس مع حائط المسجد ، فإذا فرغتم فرضتم من الذهب على الموسر قدره وعلى المقتر قدره وقطعتموه مثل قلامة الظفر ثم خلطتموه بذلك الكبس وجعلتم خشبا من نحاس ووتدا من نحاس وصفائح من نحاس تديون ذلك وأتممتم من العمل كيف شئتم على أرض مستوية وجعلتم طول كل خشبة مائة ذراع وأربعة وعشرين ذراعا ومائتي ذراع فيما بين الحيطان لكل حائط اثنا عشر ذراعا ، ثم تدعون المساكين لنقل التراب فيسارعون إليه لما فيه من الذهب والفضة فمن حمل شيئا فهو له ، ففعلوا ذلك فأخرج المساكين ذلك التراب واستقر السقف بما عليه واستغنى المساكين ، فكان جندهم أربعين ألفا فجعلهم أربعة أجناد في كل جند عشرة آلاف ، ثم عرض جنده فوجدهم فيما قيل ألف ألف وأربعمائة ألف منهم من جنده ثمانمائة ألف ومن حند دارا ستمائة ألف ، ومن المساكين أربعون ألفا ، ثم انطلق يؤم الأمة التي عند مغرب الشمس فذلك قوله تعالى - حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة - أي ذات حمأ ، ومن قرأ حامية بألف من غير همز فعناه حارة .

أخبرنا عبد الله بن حامد الأصفهاني بإسناده عن ابن عباس قال : أقرأنيها أبي بن كعب كما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم في عين حمئة ، وقال ابن عباس كنت جالسا عند معاوية

إذ قرأ هذه الآية وجدها تغرب في عين حامية فقلت ما تقرأها الاحمسة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأها ؟ قال أقرأها كما قرأتها يا أمير المؤمنين . قال ابن عباس فأطلت الجبال معهما فأرسل معاوية إلى كعب فجاءه فقال له . أين تجد الشمس تغرب في التوراة يا كعب . قال أما العريية فأنتم أعلم بها مني ، وأما الشمس فاني أجدها في التوراة تغرب في ماء وطين ، وأنشدك ما تزداد به تبصرا وهو قول تبع :

قد كان ذو القرنين قبلي مسلما ملكا تدين له الملوك وتسجد
بلغ المشارق والمغارب يتبعني أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذى خلب وثأط حرمد

فقال معاوية ما الخلب يا كعب ؟ فقلت الطين بكلامهم قال فما الثأط قلت الحمأة قال وما الحرمد قلت الأسود فدعا رجلا فقال اكتب ما يقول .

فلما بلغ مغرب الشمس وجد عندها جمعا وعددا لا يحصىه الا الله تعالى وقوة وبأسا لا يطيقه إلا الله تعالى ورأى السنة مختلفة وأهواء مشتبهة فذلك قوله تعالى - وجد عندها قوما - يعني ناسا فلما رأى ذلك كآثرهم بالظلمة فضرب حولهم ثلاث عساكر منها فأحاط بهم من كل مكان حتى جمعهم في مكان واحد ثم أخذ عليهم بالنور ودعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته فمعهم من آمن به ومنهم من صد عنه ، فعمد إلى الدين تولوا عنه فأدخل عليهم الظلمة فدخلت في أفواههم وأنوفهم وآذانهم وأجوافهم ودخلت في بيوتهم ودورهم وغشيتهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كل جانب ، فلما خوفوا صاحوا وتحيروا فلما أشفقوا أن يهلكوا فيها ضجوا بصوت واحد فكشفها عنهم وأخذهم عنوة فدخلوا في دعوته فجاء من أهل المغرب أمم عظيمة فجعلهم جندا واحدا ثم انطلق بهم يقودهم والظلمة تسوقهم من خلفهم وتحرسهم والنور أمامه يقوده ويدله وهو يسير في ناحية الأرض اليمنى وهو يريد الأمة التي في قطر الأرض اليمنى التي يقال لها هاويل ، وسخر الله له قلبه ويده ورأيه وعقله ونظره فلا يخطئ إذا عمل عملا فانطلق يقود تلك الأمم وهي تتبعه حتى إذا انتهى إلى بحراو محاضرة هيا سفنا من ألواح صغار مثل النعال فليحمها في ساعة ثم يحمل فيها جميع ما معه من تلك الأمم وتلك الجنود وإذا بلغ البحار والأنهار فتقها ثم يدفع إلى كل رجل منهم لوحا فلا يكثر بحمله فلم يزل ذلك دأبه حتى انتهى إلى هاويل ففعل فيها كفعله في ناسك فلما فرغ منها مضى على وجهه في ناحية الأرض اليمنى حتى انتهى إلى منسك عند طلوع الشمس وجدها تطلع على قوم فعمل فيها وجند فيها جنودا كفعله في الأمتين اللتين قبلها ثم كر مقبلا حتى أتى ناحية الأرض اليسرى وهو يريد تاويل وهي الأمة التي بحيال هاويل وهما متقابلتان بينهما عرض الأرض كله فلما بلغها عمل فيها وجند جنودا كفعله فيما قبلها فذلك قوله تعالى - حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا - وذلك أنهم كانوا في مكان لا يستقر عليه بناء

وكانوا يكونون في أسراب لهم حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى معاشهم وحروثهم .
وقال الحسن كانت أرضهم أرضا لا تحتل البناء وكانوا إذا طلعت الشمس عليهم دخلوا الماء
فاذا ارتفعت عنهم خرجوا فرعوا كما ترعى البهائم . وقال ابن جريج جاءهم مرة جيش للتفرج على
طلوع الشمس فنهاء أهلها فقالوا ما نبرح حتى تطلع الشمس فنراها ، ثم إنهم قالوا ما هذه العظام
فقالوا هذه جيف قوم طلعت عليهم الشمس فماتوا ههنا . قال فذهبوا هارين في الأرض . وقال
السكبي هم أمة يقال لها منسك حفاة عراة عمأة عن الحق . قال وحدثنا عمرو بن مالك بن أمية
قال وجدت رجلا بسمرقند يحدث الناس وهم حوله مستمعون له مجتمون ، فسألت بعض من
سمع حديثه فأخبرني أنه حدثهم عن القوم الذين تطلع عليهم الشمس . قال خرجت حتى جاوزت
الصين ثم سألت عنهم ، فقبل لي إن بينك وبينهم يوما وليلة فاستأجرت رجلا ثم سرت بقية يومي
وليلتي حتى صبحتهم فاذا أحدهم يفرش أذنه ويلتحف الأخرى ، وكان صاحبي يحسن لسانهم
فسألهم فقالوا له إذا تنظر كيف تطلع الشمس قال فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة
فغشي على فوقعت ، فلما أققت قمت وهم يمسحون على بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء إذا
هي على الماء كهيئة الزيت وإذا طرف السماء كهيئة الفسطاط فلما ارتفعت أدخلوني سريبا لهم أنا
وصاحبي ، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس
فينضج والله أعلم .

باب في صفة سد ذي القرنين وما يتعلق به

قال الله تعالى - حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا -
قالت العلماء بأخبار القدماء : لما فرغ ذو القرنين من أمر الأمم الذين هم في أطراف الأرض ، وطاف
المشرق والمغرب عطف منها على الأمم التي في وسط الأرض من الجن والأنس ويأجوج وماجوج
فلما كان في بعض الطريق مما يلي منقطع الترك نحو المشرق قالت له أمة صالحة من الانس : ياذا
القرنين إن بين هذين الجبلين خلقا من خلق الله ليس فيهم مشابهة من الانس وهم أشباه البهائم
يأكلون العشب ويفترسون الدواب والوحوش كما تفترسها السباع ويأكلون حشرات الأرض
كلها من الحيات والعقارب وكل ذي روح مما خلق الله في الأرض ، وليس لله خلق ينمون نماءهم
ولا يزدادون كزيادتهم ، فان أنت اطلعت على ما ينمو من نمائم وزيادتهم فلا تشك أنهم سيملاؤن
الأرض ويخرجون أهلها منها ويظهرون عليها ويفسدون فيها وليست تمر بنا سنة منذ جاورناهم
الا ونحن نتوقع أن يطلع علينا أولهم من بين هذين الجبلين فهل نجعل لك خرجا أي جعلنا وأجرا
على أن تجعل بيننا وبينهم سدا حاجزا فلا يصلون إلينا ، فقال لهم ذو القرنين ما مكنى فيه ربي
أي قواني عليه خير من خراجكم فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما حاجزا كالحائط ، قالوا

وما تلك القوة ؟ قال فعلة وصناع يحسنون البناء والعمل والآلة . قالوا وماتلك الآلة ؟ قال آتوني زبر الحديد أى قطعه واحدها زبرة وآتوني النحاس ، فقالوا من أين لنا من الحديد والنحاس مايسع هذا العمل ؟ قال سأدلكم على معاذنهما . قالوا فبأى قوة تقطع الحديد والنحاس ؟ فاستخرج لهم معدنا آخر يقال له الساهون ، وهو أشد ما خلق الله فى الأرض يياضا وهو الذى قطع به سليمان أساطين بيت المقدس وصخوره وجواهره ، ثم انه قاس ما بين الجبلين ثم أوقد على ما جمع من الحديد والنحاس النار وصنع منها زبرا مثل الصخور العظام ثم أذاب النحاس فجعله كالطين والملاط لتلك الصخور التى هى من الحديد ثم بنى ، وكيفية بنائه على ما ذكر أهل السير انه لما قاس ما بين الجبلين وجد ما بينهما مائة فرسخ ، فلما أنشأ فى عمله حفرة الأساس حتى بلغ الماء ثم جعل عرضه خمسين فرسخا ثم وضع الحطب بين الجبلين ثم نسج عليه الحديد ثم نسج الحطب على الحديد ، فلم يزل يجعل الحطب على الحديد والحديد على الحطب حتى ساوى بين الصدفين وهما الجبلان ثم أمر بالنار فأرسلت فيه . قال انفخوا حتى جعل يفرغ القطر فيه وهو النحاس المذاب فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس فصار كأنه بردحبة من صفرة النحاس وحمرة وسواد الحديد وغبرته ، فصار سدا طويلا عظيما حصينا قال تعالى - فما استطاعوا أن يظهروه - أى يعلوه - وما استطاعوا له نقبا - .

قال قتادة : ذكر لنا أن رجلا قال يابى الله قد رأيت سدا يأجوج ومأجوج قال انعتلى ، قال كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء فقال له قد رأيته ، ويقال إن موضع السد وراء زخرد بقرب مشرق الأرض بينه وبين الحزر مسيرة اثنين وسبعين يوما ، وذكر أن الواثق بالله أمير المؤمنين رأى فى المنام ان السد مفتوح فوجه سلاما الترجمان فى خمسين رجلا وأعطاه خمسة آلاف دينار وأعطى كل رجل من الخمسين خمسين ألف درهم ورزق سنة ، وأعطاه مائتى بغلة تحمل الزاد والماء وخرج من سر من رأى بكتاب الواثق بالله الى اسحق بن اسماعيل صاحب أرمينية وكان بتفليس وكتب له اسحق الى صاحب السرير وكتب له صاحب السرير الى ملك اللان وكتب له ملك اللان الى الأزالى طلعند فى بلاد شاه ملك الحزر ، فأقام عنده حتى أخذ معه خمسين رجلا أدلاء فساروا خمسة وعشرين يوما حتى انتهوا الى أرض سوداء منتنة الريح ، وكانوا قد حملوا معهم شيئا يشمون منه الرائحة الذكية ، فساروا تسعة وعشرين يوما ثم سألوا عن سبب نتن الريح ما هو ؟ فقالوا مات ههنا قوم ، ثم ساروا فى مدن خراب عشرين يوما فسألوا عن تلك المدن فقالوا قد ظهر فيها يأجوج ومأجوج فخرّبوها ، ثم ساروا الى حصون بالقرب من الجبل يتكلمون بالعربية والفارسية يقرءون القرآن ولهم مكاتب ومساجد ، فقالوا لنا من هؤلاء القوم ؟ قلنا رسل أمير المؤمنين ، فقالوا ومن هو أمير المؤمنين ؟ قلنا من أولاد العباس ملك بالعراق فتعجبوا منه وقالوا : شيخ أوشاب وزعموا أنهم لم يبلغهم خبره ، ثم فارقوهم وساروا إلى جبل أملس

ليس عليه خضرة واذا جبل مقطوع بواد عرضه مائة وخمسون ذراعا وعضادتاها مبنيتان مقابلتا الجبل عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعا مبنية بلين من حديد مركبة في نحاس في سمك خمسين ذراعا واذا وتد من حديد طرفاه على عضادتين طوله مائة وعشرون ذراعا قد ركب على العضادتين علوكل واحدة مقدار عشرة أذرع في عرض خمسة أذرع فوق ذلك اللبن الحديد المغيب في النحاس الى رأس الجبل وارتفاعه مد البصر ، وفوق ذلك شرف من حديد في طرف كل شرافة قرنان مبنى بعضها الى بعض منظومة كل واحدة في صاحبها فاذا باب له مصراعان منصوبان من حديد عرض كل باب خمسون ذراعا في ارتفاع خمسين ذراعا قائمتاها في دورهما على قدر الدربند ، وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع في غلظ ذراع وارتفاع القفل من الأرض خمسة وخمسون ذراعا وفوق القفل مقدار خمسة أذرع غلق وعلى الغلق مفتاح طوله ذراع ونصف معلق في سلسلة طولها ثمانية أذرع في استدارة أربعة أشبار والحلقة التي في السلسلة مثل حلقة المنجنيق وعرض عتبة الباب عشرة أذرع في طول مائة ذراع سوى ما في العضادتين والظاهر منها خمسة أذرع . وهذا كله بذراع السواد ، ورئيس تلك الحصون يركب كل جمعة في عشرة فوارس مع كل فارس مرزبة من حديد وزن كل واحدة خمسون منا فيضرب القفل بالمرزبات كل يوم ثلاث ضربات ليسمع من وراء الباب الصوت فيعلموا أن هناك حفظة ويعلم هؤلاء أن أولئك لم يحدثوا في الباب حدثا ، فاذا ضربوا أصغوا اليه بأذانهم فيسمعون من داخل دويا ، وبالتقرب من هذا الجبل حصن كبير عظيم عشرة فراسخ في مسيرة مائة فرسخ لأنها عشرة في عشرة ومع الباب حصنان طول كل واحد منهما مائتا ذراع في مائتي ذراع وعلى باب هذين الحصنين صخرتان وبين الحصنين ماء عين عذب في أحد الحصنين آلة البناء التي بنى بها السد من قدور الحديد ومغارف من حديد وهناك بعض اللبن من الحديد قد التزق بعضه ببعض من الصدا واللبن ذراع ونصف في عرض شبر ، وسألنا هل وراء ذلك أحد من أهل يأجوج ومأجوج ؟ فذكروا أنهم رأوا منهم عدة فوق الشرف فهبت ريح سوداء فألقتهم الى جانبهم وكان مقدار الرجل في رأى العين شبرا ونصفا . قال فلما انصرفنا أخذ بنا الأدلاء على نواحي خراسان فعدلنا اليها فوقعنا الى القرب من ممر قند على سبعة فراسخ وكان أصحاب الحصن ثم زودونا الطعام ، ثم سرنا الى عبدالله بن طاهر فوصلنا بمائة ألف درهم ووصل كل رجل كان معي بخمسمائة درهم ، وأجرى على كل فارس خمسة دراهم وعلى كل راجل ثلاثة دراهم كل يوم حتى صرنا الى الري ورجعنا الى سر من رأى بعد ثمانية وعشرين شهرا والله أعلم .

باب في دخول ذي القرنين الظلمات مما يلي القطب الشمالى لطلب عين الحياة

روى عن طي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : كان ذو القرنين قد ملك ما بين المشرق والمغرب وكان له خليل من الملائكة اسمه رفائيل يأتيه ويؤمره ، فبينما هما ذات يوم يتحدثان

إذ قال له ذو القرنين يرفائيل حدثني عن عبادتكم في السماء فبكى وقال ياذا القرنين وما عبادتكم عند عبادتنا إن في السماء من الملائكة من هو قائم لا يجلس أبدا ، ومن هو ساجد لا يرفع رأسه أبدا ، ومن هو راكع لا يستوى قائما أبدا يقول سبحان القدوس رب الملائكة والروح ربنا ما عبدناك حق عبادتك ، فبكى ذو القرنين بكاء شديدا ، ثم قال إني أحب أن أعيش فأبلغ من عبادة ربي حق عبادته ، فقال رفاييل أوتحب ذلك ياذا القرنين ؟ قال نعم . قال رفاييل فان لله عينا في الأرض تسمى عين الحياة فما من الله عز وجل أن من يشرب منها شربة لا يموت أبدا حتى يكون هو الذي يسأل ربه الموت ، فقال له ذو القرنين هل تعلمون أتم موضع تلك العين ؟ فقال لا غير أنا تتحدث في السماء أن لله في الأرض ظلمة لا يطفئها إنس ولا جان فنحن نظن أن تلك العين في تلك الظلمة فجمع ذو القرنين علماء أهل الأرض وأهل دراسة الكتب وآثار النبوة فقال لهم أخبروني هل وجدتم فيما قرأتم من كتب الله تعالى وما جاءكم من الأحاديث وسألتهم من كان قبلكم من العلماء أن الله وضع في الأرض عينا سماها عين الحياة ، فقالت العلماء لا ، فقال عالم من العلماء إني قرأت وصية آدم عليه السلام فوجدت فيها أن الله خلق في الأرض ظلمة لم يطفأها إنس ولا جان ووضع فيها عين الخلد ، فقال ذو القرنين أين وجدتها ؟ قال وجدتها في الأرض التي على قرن الشمس فبعث إليها ذو القرنين وحشد إليها الفقهاء والأشراف من الناس والملوك ، ثم صار يطلب مغرب الشمس فسار اثنتي عشرة سنة إلى أن بلغ طرف الظلمة فإذا هي مثل الدخان وليست كظلمة الليل فمسكرهنالك ثم جمع علماء عسكره ، فقال إني أريد أن أسألك هذه الظلمة ، فقالت العلماء أيها الملك إن من كان قبلك من الملوك والأنبياء لم يطفئوا هذه الأرض فلا تطفأها فانا نخاف أن ينفث عليك أمر تكرهه ويكون فيه فساد الأرض ومن عليها ، فقال لا بد من أن أسلكها فقالوا أيها الملك كف عن هذه الظلمة ولا تطلبها فانا لو نعلم أنك إن طلبتها ظفرت بما تريد ولم يسخط الله علينا لا تبعناك ولكننا نخاف من الله تعالى فسادا في الأرض ومن عليها ، فقال ذو القرنين لا بد من أن أسلكها فقالت العلماء شأنك بها فقال ذو القرنين أي الدواب بالليل أبصر ؟ قالوا الخيل قال وأي الخيل بالليل أبصر ؟ قالوا الإناث قال وأي الإناث أبصر قالوا البكارى قال فأرسل ذو القرنين فجمع له ستة آلاف فرس أنثى أبكارا ثم انتخب من عسكره أهل الجلد والعقل ستة آلاف رجل فدفع لكل رجل منهم فرسا وعقد راية للخضر عليه السلام وجعله مقدمته في ألفين وبقي ذو القرنين في أربعة آلاف رجل وقال ذو القرنين لبقية عسكره لا تبرحوا من معسكركم هذا إلى اثنتي عشرة سنة فان نحن رجعنا إليكم والا فارجعوا إلى بلادكم فقال الخضر أيها الملك إنا نسلك الظلمة ولا ندرى كم السير فيها ولا يبصر بعضنا بعضا وكيف نصنع بالضلال إذا أصابنا فدفع ذو القرنين إلى الخضر عليه السلام خريزة حمراء وقال له حيث يصيبكم الضلال فاطرح هذه في الأرض فاذا صاحت فليرجع إليها أهل الضلال أين صاحت قال فسار الخضر بين يدي ذي القرنين يرتحل الخضر ويحيط ذو القرنين

فبينما الحضر عليه السلام يسير إذ عرض له واد فظن الحضر أن العين في الوادي وألقى في قلبه ذلك ، فقام على شفير الوادي ومكث طويلاً ثم أجابته الخرزة فطلب صوتها فأنتهى إليها فاذا هي على جانب العين فنزع الحضر ثيابه ثم دخل العين فاذا مأوها أشد يابضا من اللبن وأحلى من الشهد فشرب واغتسل وتوضأ ولبس ثيابه ثم انه رمى الخرزة نحو أصحابه فوقعت وصاحت فرجع الحضر الى صوتها والى أصحابه فركب وقال لأصحابه سيروا على اسم الله ، وان ذا القرنين مرّ فأخطأ الوادي فسلكوا تلك الظلمة في أربعين يوماً ثم انهم خرجوا الى ضوء ليس كضوء شمس ولا قمر والأرض حمراء رملة خشخاشية فاذا هم بقصر مبني في تلك الأرض طوله فرسخ في فرسخ عليه باب فنزل ذو القرنين بعسكره ثم انه خرج وحده حتى دخل القصر فاذا حديدة قد وضع طرفاها على جانب القصر من ههنا وههنا وإذا طائر أسود يشبه الحطاف مزموماً بأنفه الى الحديدة معلقاً بين السماء والأرض فلما سمع الطائر خشخشة ذي القرنين . قال من هذا ؟ قال أنا ذو القرنين ، فقال الطائر يا ذا القرنين ما كفناك ما ورأى حتى وصلت الىّ ، ثم قال يا ذا القرنين حدثني فقال سل ، فقال هل كثر بناء الجص والآجر في الأرض قال نعم فانتفض الطائر انتفاضة ثم انتفخ فبلغ ثلث الحديدة ، ثم قال يا ذا القرنين هل كثرت شهادة الزور في الأرض ؟ قال نعم قال فانتفض الطائر ثم انتفخ حتى ملأ الحديدة وسد ما بين جدران القصر بحيث رأى ذو القرنين ذلك ففرق فرقا شديداً ، فقال الطائر لا تخف حدثني . قال سل قال هل ترك الناس شهادة أن لا إله إلا الله بعد ؟ قال لا فانضم الطائر الى ثلثه ، ثم قال يا ذا القرنين هل ترك الناس غسل الجنابة بعد ؟ قال لا ، فعاد الطائر كما كان ثم قال يا ذا القرنين اسلك هذه الدرج درجة الى أعلى القصر فسل كما ذا القرنين وهو خائف وجل لا يدري على ما يهجم حتى استوى على صدر الدرج فاذا سطح بممدود عليه صورة رجل شاب قائم وعليه ثياب بيض رافعا وجهه الى السماء واضعا يده على فيه ، فلما سمع خشخشة ذي القرنين قال من هذا ؟ قال أنا ذو القرنين قال يا ذا القرنين ان الساعة قد قربت وإنى منتظر أمر ربى يأمرنى أن أنتفخ في الصور ، ثم ان صاحب الصور أخذ شيئا من بين يديه كأنه حجر فقال يا ذا القرنين خذ هذا فان شبع هذا شبعنا وان جاع هذا جعت فأخذ ذو القرنين الحجر ونزل حتى آتى الى أصحابه فحدثهم بأمر الطائر وما قاله له وما أورده عليه ، وما قال له صاحب الصور ، ثم جمع علماء عسكره وقال أخبروني ما هذا الحجر وما أمره ؟ فقالوا أيها الملك أخبرنا ما قال لك صاحب الصور ؟ فقال ذو القرنين انه قال ان شبع هذا شبعنا وان جاع جعت ، فوضعت العلماء ذلك الحجر في كفة الميزان وأخذوا حجرا مثله ووضعوه في الكفة الأخرى ثم رفعوا الميزان فاذا الذي جاء به ذو القرنين أثقل فوضعوا معه آخر ورفعوا الميزان فاذا الذي جاء به ذو القرنين أثقل فلم يزالوا يضعون حجرا بعد حجر حتى وضعوا ألف حجر ثم رفعوا الميزان فمال بالألف جميعا فقالت العلماء انقطع علمنا دون هذا لانعرف أسحر هذا أم علم لانعلمه ، فقال الحضر عليه السلام

وكان واقفا أنا أعلم علمه فأخذ الخضر عليه السلام الميزان بيده ثم أخذ الحجر الذي جاء به ذوالقرنين فوضعه في إحدى الكفتين وأخذ حجرا من تلك الحجارة فوضعه في الكفة الأخرى ثم أخذ كفا من تراب فوضعه على الحجر الذي جاء به ذوالقرنين ثم رفع الميزان فاستوى فخرت العلماء سجدا لله تعالى وقالوا سبحان الله هذا علم لم يبلغه علمنا والله لقد وضعنا معه ألف حجر فما استقل به ، فقال الخضر عليه السلام : أيها الملك إن سلطان الله عز وجل قاهر لخلقه وأمره نافذ فيهم وحكمه جار عليهم وإن الله ابتلى خلقه بعضهم ببعض فابتلى العالم بالعالم والجاهل بالجاهل والجاهل بالعالم والعالم بالجاهل وأنه ابتلاني بك وابتلاك بي ، فقال ذوالقرنين صدقت فأخبرني ما هذا الحجر ؟ فقال الخضر أيها الملك هذا مثل ضربه لك صاحب الصور إن الله تعالى مكن لك في الأرض فأعطاك منها ما لم يعط أحدا من خلقه وأوطأك منها ما لم يوطئ لأحد من خلقه فلم تشبع وآتيت نفسك شرها حتى بلغت من سلطان الله ما لم يطأه إنس ولا جان فهذا مثل ضربه لك صاحب الصور ابن آدم لا يشبع أبدا حتى يحثي عليه التراب ولا يملأ جوفه إلا التراب فبكى ذوالقرنين ، ثم قال صدقت يا خضر في ضرب هذا المثل لاجرم لا طلبت أثرا في البلاد بعد مسيرى هذا حتى أموت ، ثم انه انصرف راجعا حتى إذا كان في وسط الظلمة وطي الوادي الذي فيه الزبرجد ، فقال من معه لما سمعوا خشخشة تحت حوافر دوابهم ما هذا الذي تحتنا أيها الملك ؟ فقال ذوالقرنين خذوا منه فان من أخذ منه ندم ومن تركه ندم فمنهم من أخذ منه شيئا ومنهم من تركه ، فلما خرجوا من الظلمة ونظروا إذا هو زبرجد فندم الآخذ والتارك . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله أخى ذا القرنين لو ظفر بوادي الزبرجد في مبدأ أمره مترك منه شيئا حتى كان يخرج به الى الناس لأنه كان راغبا في الدنيا ولكنه ظفر وهو زاهد في الدنيا لاحتاجة له فيها » ثم انه رجع الى العراق ومالك ملوك الطوائف كلها ومات في طريقه قبل وصوله بشهر .

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه انه رجع الى دومة الجندل وكانت منزله فأقام بها حتى مات ، قالوا وكان عمره ستا وثلاثين سنة وكان ملكه سبع عشرة سنة وكان قبل دارا في أول السنة الثالثة من ملكه فلما مات حمل الى أمه بالاسكندرية ودفن هناك ، قالوا فلما مات الاسكندر عرض الملك على ابنه اسكندروس من بعده فأبى واختار النسك والعبادة فملككت اليونانية عليهم فيما قيل بطليموس بن لوسوع وكان ملكه ثمانيا وثلاثين سنة ، وكانت الملكة في حياة الاسكندر وبعد وفاته الى أن تحول الملك الى الروم والمضاض واليونانية ولبنى اسرائيل بيت المقدس ونواحيها الديانة والرياسة على غير وجه الملك الى أن خرب بلادهم الفرس والروم وطردهم عنها بعد قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام والله أعلم .

مجلس في قصة زكريا وابنه يحيى ومريم وعيسى عليهم السلام

وهو مجلس يشتمل على أبواب كثيرة . قال محمد بن إسحق وغيره من أهل الأخبار : عبرت بنو إسرائيل بعد مرجعهم من أرض بابل إلى بيت المقدس وبلاد الشام وانتظام أمورهم ولم يزالوا يحدثون الأحداث ويعود الله عليهم بفضلته ورحمته ويبعث فيهم الرسل ففريقا يكذبون وفريقا يقتلون كما قال الله تعالى حتى كان ممن بعث فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى وكانوا من آل بيت داود عليه السلام .

نسب زكريا عليه السلام

هو زكريا بن يوحيا بن ادن بن مسلم بن صدوق بن يحسان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن ناخور بن سلوم بن مهناساط بن أيا بن رحيم بن سليمان بن داود عليه السلام .

باب في ذكر مولد مريم عليها السلام وخبر تحريرها

قال الله تعالى - إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا - الآيات ، قال المفسرون هي حنة بنت فاقوذ جدة عيسى عليه السلام ، وعمران . قال ابن عباس هو عمران بن ماثان وليس بعمران أبي موسى إذ بينهما ألف وثمانمائة سنة ، وكانت بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأجبارهم وملوكهم . وقال ابن إسحق هو عمران بن ساهم بن أمور بن ميشان بن حزقيل بن أحريف بن بؤم بن عزازيا بن امصيا بن ناوس بن نوثا بن بارض بن يهوشافاظ بن رادم بن أيا ابن رحيم بن سليمان بن داود عليه السلام . وكانت القصة في ذلك أن زكريا بن يوحيا وعمران ابن ماثان كانا متزوجين بأختين إحداهما عند زكريا بن يوحيا وهي ايشاع بنت فاقوذ أم يحيى وكانت الأخرى عند عمران وهي حنة بنت فاقوذ أم مريم وكان قد أمسك عن حنة الولد حتى أيست وعجزت وكانوا أهل بيت من الله بمكان فينماهي في ظل شجرة إذ نظرت طائرا يطعم فرخا فتحركت عند ذلك شهوتها للولد ودعت الله تعالى أن يهب لها ولدا وقالت اللهم لك على إن رزقتني ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدته وخدمته نذرا وشكرا فحملت بمريم عليها السلام فحررت ما في بطنها ولم تعلم ماهو . فقالت - رب إني نذرت لك ما في بطني محررا - أي عتيقا عن الدنيا وأشغالها خالصا لله تعالى وخادما لبيتك المقدس حبسا عليه مفرقا لعبادة الله ولخدمته فتقبل مني الكائن إنك أنت السميع العليم . قالوا وكان المهر إذا حرر ونذر جعل المهر والنذور في الكنيسة يقوم عليها ويكنسها ويخدمها ولا يريح عنها حتى يبلغ الحلم فإذا بلغ خير بين أن يقيم وبين أن يذهب حيث شاء ، وإن أراد أن يخرج بعد التخيير استأذن رفقائه من السدة ليكون خروجه على علم منهم ولم يكن أحد من بني إسرائيل وعلمائهم إلا من في نسبه محرر لبيت المقدس ولم يكن محررا إلا الثمان ، وكانت الجارية لا تكلف ذلك ولا تصلح لما يصيبها

من الحيض والأذى فحررت أم مريم مافي بطنها . فلما فعلت ذلك قال لها زوجها عمران : ويحك ماذا صنعت ؟ أرايت ان كان مافي بطنك أنثى والأنثى عورة لاتصلح لذلك فوقعا جميعا في هم من ذلك فهلك عمران وحنة حامل بمريم . فلما وضعها اذاهى جارية . فقالت حنة وكانت ترجو أن يكون غلاما اعتذارا الى الله تعالى - رب إني وضعها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى - أى فى خدمة الكنيسة والعبادة فيها لعورتها وضعفها وما يعتريها من الحيض والنفاس والأذى - وانى سميتها مريم - وهى بلغتهم العابدة والخادمة وكانت مريم عليها السلام أجمل النساء وأمثلهن فى وقتها .

أخبرنى الحسن بن محمد باسناده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسبك من نساء العالمين أربع : مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم » - وانى أعينها - أى أجيرها وأمنعها بك وذريتها من الشيطان الرجيم - . أخبرنا عبدالله بن حامد باسناده وأخبرنا أبوسهيل أحمد بن محمد بن هرون باسناده عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مامن مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إلا مريم وابنها » ثم يقول أبوهريرة اقرءوا ان شئتم - وانى أعينها بك وذريتها من الشيطان الرجيم - .

وأخبرنا شعيب بن محمد باسناده عن قتادة قال : كل آدمى يطعن الشيطان فى جنبه حين يولد إلا عيسى وأمه عليهما السلام جعل بينهما حجاب وأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ اليهما منه شئ ، قال وذكروا لنا أنهما كانا لا يصيبان من الذنوب كما يصيبه سائر بنى آدم قال الله تعالى - فتقبلها ربها بقبول حسن - الهاء راجعة إلى النذيرة أى فتقبل الله النذيرة أى مريم من حنة - وأنبأها نباتا حسنا - يعنى سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان فكانت تنبت فى المدة اليسيرة كما ينبت المولود فى المدة الطويلة . وقال ابن جريج : وأنبأها ربها فى غذائها ورزقها نباتا حسنا حتى تمت امرأة بالغة . قالوا فلما ولدت مريم أخذتها أمها حنة فلفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون وهم يومئذ ثلاثون فى بيت المقدس كما يلى الحجة أمر الكعبة . فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فتنافس فيها الأحبار لأنها كانت بنت امامهم وصاحب قربانهم فقال لهم زكريا أنا أحق بها منكم لأن عندى خالتها فقالت له الأحبار لاتفعل ذلك فانها لو تركت لأحق للناس وأقربهم اليها لتركتم لأمها التى ولدتها ، ولكننا تقترح عليها فتكون عند من خرج سهمه فاتفقوا على ذلك ثم انطلقوا وكانوا تسعة عشر رجلا إلى نهر جار . قال السدى هو نهر الأردن فالتقوا أقلامهم أى سهامهم وقيد أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة فى الماء فارتقع قلم زكريا فوق الماء وانحدرت أقلامهم ورسبت فى الماء قاله ابن اسحق وجماعة . وقال السدى : بل ثبت قلم زكريا فوق الماء كأنه فى طين وجرت أقلامهم مع جريان الماء فذهب الماء بها فسهلهم وقرعهم زكريا عليه

السلام ، وكان رأس الأحبار ونبههم فذلك قوله تعالى - وكفلها زكريا - ضمها الى نفسه وقام بأمرها ، وقال ابن اسحق : فلما كفلها زكريا ضمها إلى خالتها أم يحيى ، واسترضع لها حتى اذا نشأت وبلغت مبالغ النساء بنى لها محرابا اى غرفة فى المسجد وجعل بابه إلى وسطها لا يرقى إليها إلا بسلم مثل باب الكعبة فلا يصعد إليها غيره ، وكان يأتيها بطعامها وشرابها ودهنها فى كل يوم ، وكان زكريا عليه السلام اذا خرج أغلق عليها بابها فاذا دخل عليها غرفتها وجد عندها رزقا أى فاكهة فى غير حينها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف فيقول لها - أئى لك هذا - فتقول هو من عند الله من قطف الجنة قال الحسن يجد عندها قوتها وكان رزقها يأتيها من الجنة فيقول لها زكريا من أين لك هذا ؟ فتقول هو من عند الله . قال الحسن : وكانت وهى صغيرة يأتيها رزقها .

وقال محمد بن اسحق : ثم أصابت بنى اسرائيل أزمة وهى على ذلك من حالها . ثم ضعف زكريا عن حملها فخرج إلى بنى اسرائيل وقال يا بنى اسرائيل تعلمون والله انى لقد كبرت وضعفت عن حمل ابنة عمران فأياكم يكفلها بعدى ؟ . فقالوا والله لقد جهدنا وأصابنا من الجهد ما ترى فتدافعوها بينهم ثم لا يجدون من يحملها فتقارعوا عليها بالأقلام فخرج السهم على رجل صالح نجار من بنى اسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب بن ماثان وكان ابن عم مريم فحملها . قال فعرفت مريم فى وجهه شدة مؤنة ذلك عليه فقالت له يا يوسف أحسن الظن بالله فان الله سيرزقنا فجعل يوسف يرزق لمكانها منه فيأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها فاذا أدخله عليها وهى فى الكنيسة أتماء الله تعالى وكثره فيدخل إليها زكريا فيرى عندها فضلا من الرزق ليس بقدر ما يأتيها به يوسف فيقول لها - يا مريم أئى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب - .

أخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام أياما لم يطعم طعاما حتى شق ذلك عليه فطاف فى منازل أزواجه فلم يصب فى بيت أحد منهن شيئا فأتى فاطمة رضى الله عنها فقال يا بنية هل عندك شيء آكل فأتى جائع ؟ فقالت لا والله بأبى أنت وأمى . فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وبضعة لحم فأخذته منها ووضعت فى جفنة وغطت عليه وقالت لأوثرن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسى ومن عندى وكانوا جميعا محتاجين الى شبة من طعام فبعثت حسنا وحسنا الى جدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع إليها فقالت بأبى أنت وأمى يا رسول الله قد أتانا الله بشيء فخبأته لك قال فهلمى به فأتى به فكشف عن الجفنة فاذاهى مملوءة خبزا ولحما فلما نظرت اليه بهتت وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله تعالى وصلت على نبيه ، فقال عليه الصلاة والسلام من أين لك هذا يا بنية - قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب - فحمد الله رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، وقال الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة نساء بنى إسرائيل فانها كانت إذا رزقها الله رزقا حسنا فستلت عنه ؟ - قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب - فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى على رضى الله عنه فأتى فأكل الرسول وعلى وفاطمة والحسن والحسين وجميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم جميعا حتى شبعوا وبقيت الجفنة كما هي قالت فاطمة رضى الله عنها وأوسعت منها على جميع جيرانى وجعل الله فيها بركة وخيرا كثيرا ، وكان أصل الجفنة رغيفين وبضعة لحم والباقي بركة من الله تعالى :

باب فى مولد يحيى بن زكريا عليه السلام

قال الله تعالى - هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء - قالت العلماء بأخبار الأنبياء لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم الفاكهة فى غير حينها قال ان الذى قدر على أن يؤتى مريم بالفاكهة فى غير حينها من غير سبب ولا فعل أحد لقادر على أن يصلح زوجتى ويهب لى ولدا على الكبر فطمع فى الولد وكان أهل بيته قد اتقروا وزكريا قد شاخ وأيس من الولد فهناك أى فعند ذلك دعا زكريا ربه - قال رب هب لى - أى أعطنى - من لدنك ذرية طيبة - نسلا تقيا صالحا رزيا - إنك سميع الدعاء فنادته الملائكة - يعنى جبريل وذلك أن زكريا كان الحبر الكبير الذى يقرب القربان ويفتح باب المذبح فلا يدخل أحد حتى يأذن له بالدخول فبينما هو فى محرابه عند المذبح قائم يصلى والناس ينتظرون أن يأذن لهم بالدخول إذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض ففرغ منه فناداه وهو جبريل عليه السلام - يا زكريا إن الله يبشرك بيحيى - ، واختلفوا لم سمي يحيى . قال ابن عباس لأن الله تعالى أحياه عقر أمه ، وقال قتادة وغيره لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والنبوة ، وقال الحسن بن الفضل لأن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يتغير ولم يهم بمعصية دليله ما أخبرنى به الحسن بن فتحويه بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس . قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن أحد يلقي الله عز وجل بالإقدام بخطيئة أو عملها إلا يحيى بن زكريا فانه لم يهم ولم يعمل » . قال الأستاذ وكان شيخنا أبو القاسم الجنيد يقول سمى بذلك لأنه استشهد والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون . قال النبي صلى الله عليه وسلم « من هوان الدنيا على الله أن يحيى بن زكريا قتلته امرأة » . قال وسمعت أبا منصور الحشاوى يقول . قال عمر بن عبد الله القدسى أوحى الله الى ابراهيم الخليل عليه السلام أن قل ليسارة وكان اسمها كذلك أنى مخرج منكأ عبدا لا يهم بمعصيتى اسمه حى فهبى له من اسمك حرفا فوهبت له أول حرف من حروف اسمها الياء فصار يحيى وصار اسمها سارة مصدقا بكلمة من الله يعنى عيسى عليه السلام فسمى كلمة لأن الله تعالى . قال له من غير أب كن فكان فوقه عليه اسم الكلمة لأنه بها وجد ويحيى أول من آمن بعيسى وصدقته ، وذلك أن أمه كانت حاملة

به فاستقبلتها مريم وقد حملت بعيسى ، فقالت لها أم يحيى يا مريم أحامل أنت ؟ فقالت لماذا تقولين هذا ؟ قالت إني أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك تصديقه له وإيمانه به ، وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر وذلك أن مولد يحيى كان قبل مولد عيسى بستة أشهر ، ثم قتل يحيى قبل أن يرفع عيسى الى السماء وسنذكره . قال سعيد بن المسيب - وسيدا - : السيد الفقيه العالم ، وقال سعيد بن جبير السيد الذى يطيع ربه عز وجل ، وقال الضحاك السيد الحسن الخلق ، وقال عكرمة الذى لا يغضب ، وقال سفيان الذى لا يحسد - وحصورا - قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما هو الذى لا يأتى النساء ولا يقربهن فقول بمعنى فاعل يعنى أنه حصر نفسه عن الشهوات ، وقال ابن المسيب والضحاك هو العنين الذى لا بابة له ، ودليل هذا التأويل ما أخبرنى به ابن فتحويه بإسناده عن أبى صالح عن أبى هريرة . قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل ابن آدم يلقي الله بذنب قد أذنبه يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه إلا يحيى بن زكريا فإنه كان سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين ، ثم أوماً النبي صلى الله عليه وسلم الى قذاة من الأرض فأخذها قال وكان ذكره مثل هذه القذاة » وقال المدنى الحصور الذى لا يدخل فى اللعب ولا الأباطيل ، قالوا فلما نادى جبريل زكريا بالبشارة قال رب أى ياسيدى ؟ قاله لجبريل هذا قول أكثر المفسرين وقال الحسن بن الفضل إنما قال زكريا يارب الله لا لجبريل أتى يكون لى غلام من أين يكون لى ولد وقد بلغت الكبر وامرأتى عاقر لا تلد عقيم قال الكلبي كان زكريا يوم بشر بالولد ابن اثنتين وتسعين سنة وقيل تسع وتسعين سنة وروى الضحاك عن ابن عباس قال كان زكريا ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة فأجيب - كذلك الله يفعل ما يشاء - فان قيل لم أنكر زكريا ذلك وسأل الآية بعد ما بشرته الملائكة أكان ذلك شكاً فى وحيه أم إنكاراً لقدرته وهذا لا يجوز أن يوصف به أهل الإيمان فكيف الأنبياء فالجواب عنه ما قاله عكرمة والسدى أن زكريا لما سمع نداء الملائكة جاءه الشيطان ، فقال يا زكريا ان الصوت الذى سمعت ليس من الله وإنما هو صوت الشيطان يسخر بك ولو كان من الله لأوحاه اليك خفية كما ناديته خفية وكما يوحى اليك فى سائر الأمور فقال ذلك دفعا للوسوسة ، وفيه جواب آخر وهو أنه لم يشك فى الولد وإنما شك فى كيفية والوجه الذى يكون منه الولد فقال أتى يكون لى ولد : أى كيف يكون لى ولد أتجعلنى وامرأتى شايعين أم نرزقه كذا على كبرنا أم ترزقنى من امرأة غيرها من النساء ، فقال ذلك متخبراً لا منكراً وهذا قول الحسن - قال رب اجعل لى آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام - وتقبل بكليتك على عبادتى وطاعتى لا أنه حبس لسانه عن الكلام ولكنه نهى عنه يدل عليه قوله تعالى - واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والابكار - هذا قول قوم من أهل العلم . وقال آخرون عقل لسانه عن الكلام عقوبة لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ، ولم يقدر على

(٢٢ - قصص الأنبياء)

الكلام ثلاثة أيام إلا رمزا أى إشارة وعلى هذا أكثر المفسرين . قال عطاء : أراد به صوم ثلاثة أيام لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلموا الا رمزا ، فولد يحيى بن زكريا عليه السلام ، وفى بعض الأخبار أنه لما ولد يحيى رفع إلى السماء فتغذى بأنهار الجنة حتى فطم ثم أنزل إلى أبيه وكان يضيء البيت لنوره وحسن وجهه وجماله .

باب فى صفته وحليته عليه السلام

قال كعب الأحبار : كان يحيى بن زكريا نبيا حسن الوجه والصورة لين الجناح قليل الشعر قصير الأصابع طويل الأنف مقرون الحاجبين رقيق الصوت كثير الغيرة قويا فى طاعة الله تعالى ، وقد ساد الناس فى عبادة الله وطاعته .

[فصل فى نبوته وسيرته وذكر زهده وجهده] قال الله تعالى يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا - . قيل إن يحيى قال له أترابه من الصبيان يا يحيى اذهب بنا نلعب ، فقال لهم ما للعب خلقت . وقال آخرون إنه نبيء صغيرا فكان يعظ الناس ويقف لهم فى أعيادهم وجمعهم ويدعوهم إلى الله تعالى ، ثم ساح ودخل الشام يدعو الناس ولما بعثه الله تعالى إلى بنى اسرائيل وأمره أن يأمرهم بخمس خصال ، وضرب لكل خصلة منها مثلا أمرهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وقال مثل الشرك كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله ثم أسكنهم دارا له ودفع لهم مالا يتجرون فيه ويأكل كل واحد منه ما يكفيه ثم يؤدون إليه فضل الربح ، فعمد العبد إلى فضل الربح فدفعوه إلى عدو سيدهم ، وأمرهم بالصلاة فقال إن مثل المصلى كمثل رجل استأذن على ملك فأذن له ودخل عليه فأقبل الملك عليه بوجهه ليسمع مقالته ويقضى حاجته فلما دخل عليه الرجل التفت يمينا وشمالا ولم يهتم بحاجته فأعرض الملك عنه ولم يقض حاجته ، وأمرهم بالصدقة وقال مثلها كمثل رجل أسره العدو فأشترى منه نفسه بثمن معلوم فجعل يعمل فى بلادهم ويؤدى إليهم من كسبه القليل والكثير حتى أوفى ثمنه فاعتق ، وأمرهم بذكره عز وجل وقال مثل الذكر مثل قوم لهم حصن ولهم عدو فاذا أقبل عليهم عدوهم دخلوا حصنهم فلم يقدر عليهم كذلك من ذكر الله تعالى لا يقدر عليه الشيطان ، وأمرهم بالصيام وقال مثله كمثل الجنة لا تدع عدوه يصل إليه وتستره .

وأما سيرته فروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « كان من زهد يحيى أنه أتى بيت المقدس ، فنظر إلى المجتهدين من الأحبار والراهبان وعليهم مدارع الشعر والصوف وبرانس الصوف واذا هم قد خرقوا تراقيهم وسلكوا فيها السلاسل وشدوا بها إلى سوارى المسجد فلما نظر إلى ذلك أتى أمه فقال يا أماه انسجى لى مدرعة من شعر وبرنسا من صوف حتى آتى إلى بيت المقدس وأعبد الله تعالى مع الأحبار والرهبان ، فقالت له أمه حتى يأتى نبي الله زكريا عليه السلام فأؤامره فى ذلك فلما دخل زكريا أخبرته بما قال لها يحيى فقال له زكريا يا بني ما يدعوك إلى هذا وإنما أنت

صبي صغير فقال له يا أبت أما رأيت من هو أصغر مني ذاق الموت قال بلى فقال لأمه انسجي لنا مدرعة من الشعر وبرنسا من الصوف ففعلت فتدرع بالمدرعة على بدنه ووضع البرنس على رأسه ثم أتى بيت المقدس وأقبل يعبد الله مع الأجبار والرهبان حتى أكلت مدرعة الشعر لحمه فنظر ذات يوم إلى ما قد نحل من جسمه فبكى فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى أتبكي على ما قد نحل من جسمك وعزتي وجلالي لو اطلعت على النار اطلاعة لتدرعت مدراع الحديد فضلا عن المسوح فبكى يحيى حتى أكل اللحم خديه وبدأت للناظرين أضراسه فبلغ ذلك أمه فدخلت عليه وأقبلت زكريا واجتمع الأجبار والرهبان فقال زكريا لابنه يحيى ما يدعوك لهذا يا بني إنما سألت ربى أن يهبك لي لتقرّ بك عيني ، قال أنت أمرتني بذلك يا أبت ، قال ومتى قال أأست القائل إن بين الجنة والنار عقبة كئودا لا يقطعها إلا الباكون من خشية الله تعالى قال بلى قال فجده واجتهد وقام فنفض مدرعته فأخذته أمه فقالت أأأذن لي يا بني أن آخذ لك قطعتين من لبد يواريان أضراسك وينشفان دموعك فقال لها شأنك فاتخذت له قطعتي لبد يواريان أضراسه وينشفان دموعه فبكى حتى ابتلتا من دموع عينيه ثم أخذهما فعصرهما فتحدرت الدموع من بين أصابعه فنظر زكريا إلى ابنه وإلى دموعه فرفع رأسه إلى السماء وقال اللهم ان هذا ابني وهذه دموع عينيه وأنت أرحم الراحمين ، وكان زكريا إذا أراد أن يعظ بني إسرائيل التفت يمينا وشمالا فاذا رأى يحيى لم يذكر جنة ولا نارا فجلس يوما يعظ بني إسرائيل وأقبل يحيى قد لف رأسه بعباءة وجلس في غمار القوم فالتفت زكريا يمينا وشمالا فلم ير يحيى فأنشأ يقول حدثني حبيبي جبريل عن الله عز وجل أن في جهنم جبلا يقال له السكران في أصل ذلك الجبل واد يقال له الغضبان خلق لغضب الرحمن تبارك وتعالى في ذلك الوادي جب قامته مائة عام في ذلك الجب توايت من نار في تلك التوايت صناديق من نار وثياب من نار وأغلال من نار فرفع يحيى رأسه وقال واغفلتاه عن السكران وعن غضب الرحمن ثم خرج هائما على وجهه فقام زكريا من مجلسه ودخل على أم يحيى فقال لها يا أم يحيى قومي فاطلي يحيى فاني قد تخوفت أن لا نراه الا وقد ذاق الموت فقامت وخرجت في طلبه فمرت بفتيان من بني إسرائيل فقالوا لها يا أم يحيى أين تريدين ؟ قالت أطلب ولدي يحيى ذكرت النار بين يديه فهام على وجهه فمضت أم يحيى والفتية معها حتى مرت براعى غنم فقالت ياراعى هل رأيت شابا من صفته كذا وكذا قال لعلك تطلبين يحيى بن زكريا قالت نعم : ذلك ولدي ذكرت النار بين يديه فهام على وجهه ، فقال تركته الساعة على عقبة كذا ناقعا قدميه في الماء رافعا بصره إلى السماء يقول وعزتك يا مولاي لا أذوق بارد الشراب حتى أنظر إلى منزلي منك فأقبلت أمه فلما رآته دنت منه فأخذت برأسه فوضعت بين يديه وناشدته بالله أن ينطلق معها إلى المنزل فانطلق معها إلى المنزل فقالت له هل لك أن تخلع مدرعتك الشعر وتلبس مدرعتك الصوف فانه ألين ففعل ثم انهارا طبخت له عدسا فأكل واستوفى فذهب به اليوم فلم يبق لصلاته فتودى في منامه يا يحيى أردت دارا خيرا من دارى وجوارا

خيرا من جوارى ، فاستيقظ وقام وقال رب أقل عثرتي وعزتك لأستظل بظل سوى بيت المقدس ، ثم قال لأمه ناوليني مدرعة الشعر فقد علمت أنكما ستورداني المهالك ، فتقدمت إليه أمه ودفعت إليه المدرعة وتعلقت به ، فقال لها زكريا يا أم يحيى دعيه فإن ولدى قد كشفه عن قناع غفلته ولن ينتفع بالعيش ، فقام يحيى فلبس مدرعته ووضع البرنس على رأسه ثم أتى بيت المقدس فجعل يعبد الله مع الأخبار والرهبان حتى كان من أمره ما كان والله أعلم .

باب مقتله عليه السلام

اختلف العلماء في سبب قتله فقال كان يحيى عليه السلام في زمن ملك من ملوك بني اسرائيل وكان له امرأة وهي ابنة ملك صيدا وكانت قتالة للأنبياء والصالحين وكانت عاهرة تبرز للناس ، وكان يحيى يزجرها عن ذلك ويقول لها لا تبرزي كاشفة وجهك ، وكان كثيرا ما يقول لها مكتوب في التوراة إن الزناة يوقفون يوم القيامة وريحهم أنتن من الجيف فأمرت يحيى فسجن وكان قد حبس رجل من أبناء الملوك وكان كثيرا ما يختلف إليها بالليل ، فعلم بها وبه يحيى فزجره فبلغ ذلك امرأة الملك فجملت بنتا لها واستقبلت بها زوجها فقال لها لم فعلت ذلك ؟ فقالت وجب لها عليك حق ، فقال سلى ماشئت ، فقالت البنت استوهبت منك أهل الحيس أصنع بهم ماشئت فظن أبوها أنها ترحمهم وتستروهم ، فقال أبوها قد فعلت فأمرت أمها بأهل السجن فعرضوا عليها ، فلما مر بها يحيى أمرت به فذبح وأخذت رأسه في طشت ثم حملت الطشت إلى أبيها بأمر أمها وقالت أيها الملك انى قد ذبحت لك ذبيحة من أعظم ما وجدته ولو كان مثله ألف لذبحتهم لك قال وما هو ؟ قالت يحيى بن زكريا ، فقال هلكت وأهلك أبوك ، فقيرا لله ما بهم من النعم ، وسلط عليهم عدوا فذبح البنت وأبورها وسلط عليهم الكلاب والسباع حتى أكلتهم .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا في اثني عشر من الحوارين يعلمون الناس ، قال وكان مما نهوهم عنه نكاح بنت الأخ ، وكان للمكهم بنت أخ تعجبه يريد أن يتزوجها وكان لها في كل يوم حاجة عنده يقضيها لها ، فلما بلغ أمها أنه ينهى عن نكاح بنت الأخ قالت لا يبتها اذا دخلت على الملك فسألك عن حاجتك فقولى حاجتى أن تدبج يحيى بن زكريا ، فلما دخلت عليه سألتها عن حاجتها فقالت حاجتى أن تدبج يحيى بن زكريا ، فقال سلى غير هذا . فقالت ما أسألك الا هذا . فلما أبت عليه دعا يحيى بن زكريا ودعا بطشت فذبحه فيه فنبذت من دمه قطرة فلم تزل تعلو حتى بعث الله عز وجل مختصر عليهم . فجاءت عجوز من بني اسرائيل قد لته على ذلك الدم فألقى الله في قلبه أن يقتل على ذلك الدم سبعين ألفا منهم على سن واحد ليسكن قتلهم فسكن .

وقال السدى بإسناده : كان ملك بني اسرائيل يكرم يحيى بن زكريا ويدنى مجلسه ويستشير

في أمره ولا يقطع أمرا دونه وانه هوى أن يتزوج ابنة امرأة له فسأل عن ذلك يحيى فنهاه عنه وقال لست أرضاها لك ، فبلغ ذلك أمها فحققت على يحيى حين نهاه أن يتزوج ابنتها فعمدت إلى ابنتها حين جلس الملك على شرايه فألبستها ثيابا رقاقا حمرا وطيبتها وألبستها من الحلى وألبستها فوق ذلك كساء أسود وأرسلتها إلى الملك وأمرتها أن تسقيه وأن تتعرض له فاذا راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ماتسأله ، فاذا أعطها ذلك سألته أن يأتيها برأس يحيى بن زكريا في طشت ، ففعلت ذلك وجعلت تسقيه وتتعرض له فلما أخذ منه الشراب راودها عن نفسها فقالت لا أفعل حتى تعطيني ما سألك قال وما تسأليني ؟ قالت أن تبعث إلى برأس يحيى بن زكريا في هذا الطشت . قال ويحك سأليني غير هذا قالت ما سألك الا هذا ، فلما أبت عليه بعث اليه فأتى برأسه والرأس يتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول لا تحل لك ، فلما أصبح إذا دمه يغلي فأمر بتراب فألقى عليه فارتفع الدم فوقه فلم يزل يغلي ويلقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو مع ذلك يغلي ، وذكر الحديث الطويل الذي في قصة سنجاريب وبختصر كما قدمنا ذكره في أخبار بختصر .

وقالت علماء النصارى : الذي قتل يحيى ملك من ملوك بني اسرائيل يقال له هيردوس بسبب امرأة يقال لها هردويا كانت امرأة أخ له يقال له فيلقوس عشقها فوافقته على الفجور فنهاه يحيى وأعلمه أنها لا تحل له ، فسألت المرأة هيردوس أن يأتيها برأس يحيى فلما فعل ذلك سقط في يديه وجزع جزعا شديدا .

قال كعب الأحبار : كان يحيى من أجمل الناس وجها وأحسنهم في زمانه فأحبته امرأة الملك الذي كان في زمانه جبا شديدا فأرسلت اليه تراوده عن نفسه فأرسل اليها إنه لا علم له بالنساء والملك أحق أن يطأ فراشه ، فلما انتهى اليها الرسول غضبت غضبا شديدا وقالت كيف لي أن أقتله ولا يخبر الناس أني قد راودته فلم تزل بالملك حتى وهب لها يحيى بن زكريا ، فأرسلت اليه وهو قائم يصلي في بيت المقدس في محراب داود من يضرب عنقه ويأخذ رأسه ، فلما أخذوا رأس يحيى خسف الله بها وبأهلها الأرض عقوبة لها بقتلها يحيى عليه السلام .

ذكر مقتل زكريا عليه السلام

قال كعب الأحبار : فلما سمع زكريا ان ابنه يحيى قتل وخسف بالقوم انطلق هاربا في الأرض حتى دخل بستانا عند بيت المقدس فيه الأشجار فنادته شجرة يانبي الله الى ههنا فلما أتاها انفتحت له الشجرة ودخل زكريا في وسطها فانطلق ابليس لعنه الله حتى أخذ بطرف ردائه فأخرجه من الشجرة ليصدقوه اذا أخبرهم ، فلذلك تصنع اليهود الحيل في أطراف أرويتهم لا يدرون لما أمروا بذلك وأخذ الملك وأهله يلتمسون زكريا فاستقبلهم ابليس لعنه الله تعالى فقال لهم ماتلتمسون ؟

قالوا نلتبس زكريا فقال ابليس انه دخل في هذه الشجرة ، قالوا لا نصدقك قال فاني إن أريتكم علامة تصدقوني بها ؟ قالوا فأرنا اياها فأراهم طرف ردائه فأخذوا المناشير وضربوا الشجرة ففشروها نصفين فسلط عليهم أخبث أهل الأرض علجا مجوسيا فانتقم الله به من بني اسرائيل بدم يحيى وزكريا قتل عظماء بني اسرائيل وسبي منهم مائة وسبعين ألفا .

وقيل ان السبب في قتل زكريا أن إبليس جاء الى مجالس بني اسرائيل فقذف بمريم زكريا وقال ما أحبها أحد غير زكريا وهو الذي كان يدخل عليها فطلبوا زكريا فهرب واتبعه سفاؤهم وأشرارهم فسلك واديا كثير الأشجار فتشبه له الشيطان في صورة راع فقال يا زكريا قد أدركوك فادع الله أن يفتح لك هذه الشجرة ففعل ذلك فانفتحت له فدخل فيها وأخرج ابليس هذب ردائه منها فمرت بنو اسرائيل بالشيطان فقالوا يا راعي هل رأيت رجلا ههنا من صفته كذا وكذا قال نعم سحر هذه الشجرة فانفتحت له فدخل فيها وهذا هذب ردائه ، فقطعوا الشجرة مع زكريا وفلقوها فلقطين بالمنشار طولا فبعث الله الملائكة فغسلوا زكريا وصلوا عليه ودفنوه ، وفي الخبر أن الشمس بكت على يحيى أربعين صباحا وكان بكائها ان طلعت وغربت حمراء ، ويروى أن يحيى سيد الشهداء يوم القيامة وقائدهم إلى الجنة والله أعلم .

مجلس في مولد عيسى عليه السلام وفي حمل مريم بعيسى عليهما السلام وما يتصل به

قال الله تعالى - واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا - قالت العلماء بأخبار الأنبياء : لما مضى من حمل عيسى عليه السلام ثلاثة أيام ومريم يومئذ بنت خمس عشرة سنة وقيل بنت ثلاث عشرة سنة وكان مع مريم في المسجد من المحررين ابن عم لها يقال له يوسف النجار وكان رجلا حلما نجارا يتصدق بعمل يديه وكان يوسف ومريم يليان خدمة الكنيسة وكانت مريم إذا نقد مأؤها وماء يوسف أخذ كل واحد منهما قلته وانطلق إلى المغارة التي فيها الماء فيستقيان منه ثم يرجعان إلى الكنيسة ، فلما كان اليوم الذي لقيها فيه جبريل عليه السلام وكان أطول يوم في السنة وأشد حرا نقد مأؤها ، فقالت ألا تذهب بنا يا يوسف فنستقي فقال إن عندي لفضلا من ماء أكتفي به يومى هذا إلى غد قالت ولكنى والله ما عندي ماء . فأخذت قلتها ثم انطلقت وحدها حتى دخلت المغارة فوجدت عندها جبريل عليه السلام قد مثله الله لها بشرا سويا فقال لها يا مريم ان الله قد بعثني إليك لأهب لك غلاما زكيا قالت - انى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا - أى مؤمنا مطيعا ، قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه علمت أن التقي ذو رحمة وخشية وهى تحسبه رجلا من بني آدم . قال عكرمة وكان جبريل عرض لها في صورة رجل شاب أمرد مضى الوجه جعد الشعر سوى الخلق . قالت الحكماء انما أرسله الله تعالى في صورة البشر ليشب مريم عليها وتقدر على استماع كلامه ولو نزل على صورته التي هو عليها لفزعبت

ونفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه ، فلما استعازت منه مريم - قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين - الآية ، فلما قال لها ذلك استسلمت لقضاء الله فتفخ في جيب درعها وكانت قد وضعت عنها ، فلما انصرف عنها لبست مريم درعها وحملت بعبسى عليه السلام ، ثم ملأت قلبها وانصرفت إلى المسجد .

وقال السدى وعكرمة : ان مريم عليها السلام كانت تكون في المسجد مادامت طاهرة فاذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد فبينما هي تغتسل من الحيض وقد اتخذت مكانا شرقيا أى مشرقا لأنه كان في الشتاء في أقصر يوم في السنة .

قال الحسن انما اتخذت النصارى الشرق قبة لأن مريم انتبذت مكانا شرقيا فاتخذت فضربت من دونهم حجابا أى سترا ، وقال مقاتل جلعت الجبل بينها وبين قومها فبينما هي كذلك في تلك الحالة إذ عرض لها جبريل وبشرها بعبسى وتفخ في جيب درعها . قال وهب فلما اشتملت على عبسى كان معها ذو قرابة لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين إلى المسجد الذى عند جبل صهيون وكان ذلك المسجد يومئذ من أعظم مساجدهم ، وكانت مريم ويوسف النجار يخدمان ذلك المسجد وكان لخدمته فضل عظيم وكانا يلبان معالجته بأنفسهما وتجميره وتطهيره وكان لا يعلم في زمانهما أشد اجتهدا وعبادة منهما وكان أول من أنكر حملها ابن عمها وصاحبها يوسف النجار ، فلما رأى الذى بها استعظمه واستفظعه ولم يدر ماذا يصنع من أمرها وكما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها وبراءتها وأنها لم تعب عنه ساعة واحدة وإذا أراد أن يريها رأى الذى ظهر بها من الحمل فلما اشتد ذلك عليه كلها فكان أول كلامه اياها أن قال لها انه قد وقع في نفسى من أمرك شيء وقد حرصت على أن أكتمه فغلبنى ذلك ورأيت أن الكلام فيه أشنى لصدرى ، فقالت له قل قولا جميلا قال لها أخبرينى يا مريم هل نبت زرع بغير بذر ؟ قالت نعم . قال فهل نبتت شجرة بغير غيث ؟ قالت نعم . قال فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت ألم تعلم أن الله عز وجل أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر والبذر انما يكون من الزرع الذى أنبته من غير بذر ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجر من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق الله كل واحد منهما على حدة أو تقول ان الله لا يقدر أن ينبت الشجر حتى استعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على إنباته ، قال يوسف لها لا أقول هذا ولكنى أقول ان الله تعالى يقدر على ما يشاء يقول للشئ كن فيكون ، فقالت له مريم ألم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى . قال بلى . فلما قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذى بها شيء من أمر الله وأنه لا يسهه أن يسألها عنه وذلك لما رأى من كثرتها لذلك ، ثم تولى يوسف خدمة المسجد وكفها كل عمل كانت تعمل فيه لما رأى من رقة جسمها واصفرار لونها وكلف وجهها

وتوَّ بطنها وضعف قوتها وكان جبل صهيون على باب بيت القدس .

وسمعت من الثقات : أن قبر داود عليه السلام فيه وثم كنيسة مشرفة على عين السلوان ، وسألت بعض الرهبان فقال هذا صهيون والكنيسة التي خدمت فيها مريم ويوسف هذه وقد أفصح فيها عيسى ودعا الخلق إلى الله تعالى ، ثم نقل من هذه إلى القمامة وهي كنيسة عظيمة داخل بيت المقدس يدعون أن عيسى عليه السلام لما قتل دفن فيها ، وبعد ثلاثة أيام عرج به إلى السماء فلا ينقطع أبد الدهر منها وأنه ينزل فيها والله أعلم .

باب في ذكر ميلاده عليه السلام

قالوا : فلما أثقلت مريم ودنا نفاسها أوحى الله تعالى إليها أن مسجدا بيت المقدس بيت من بيوت الله تعالى الذي طهر ورفع ليذكر فيه اسمه فبرزى إلى موضع تأوين فيه ، فتحوَّلت مريم إن بيت خالتها أخت أمها أم يحيى فلما دخلت عليها قامت أم يحيى واستقبلتها فالترمتها ، فقالت امرأة زكريا يا مريم أشعرت أنى حبلى قالت مريم وأنت أيضا شعرت أنى حبلى ؟ قالت امرأة زكريا فأنى أجده ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك قوله تعالى - مصدقا بكلمة من الله - فلما وافت بيت خالتها أوحى الله إليها إنك إن ولدت بين أظهر قومك عيرون وقد فوك وقلوك وولدك فاطعن من عندهم أى فاخرجى . وقال الكلبي قيل لابن عمها يوسف إن مريم حملت من الزنا الآن يقتلها الملك وكانت قد سميت له فهرب بها يوسف فاحتملها على حمار له ليس بينها وبين الأكاف شيء ، فانطلق بها يوسف حتى إذا كان قريبا من أرض مصر فى منقطع بلاد قومها أدرك مريم النفس فألجأها إلى أصل نخلة يابسة وذلك فى زمان الشتاء .

قال الكلبي لما كان يوسف ببعض الطريق أراد قتلها فأتاه جبريل عليه السلام فقال له : إنه من روح القدس فلا تقتلها . واختلف العلماء فى مدة حمل مريم عليها السلام ووقت وضعها عيسى عليه السلام ، فقال بعضهم كان مقدار حملها تسعة أشهر كحمل سائر النساء ، وقيل ثمانية أشهر وكان ذلك آية أخرى لأنه لم يعش مولود لثمانية أشهر غير عيسى ، وقيل ستة أشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة واحدة . وقال ابن عباس : ما هو إلا أن حملت ووضعت ولم يكن بين الحمل والوضع والانتباز إلا ساعة واحدة ، لأن الله تعالى لم يذكر بينهما فصلا قال الله عز وجل - فحملته فانتبذت به مكانا قصيا - أى بعيدا من قومها . وقال مقاتل حملته أمه فى ساعة وصوِّر فى ساعة ووضع فى ساعة حين زالت الشمس من يومها وهى بنت عشرين سنة ، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى قالوا فلما اشتد بها الخاض التجأت إلى النخلة وكانت نخلة يابسة ليس لها سعف ولا كرايف ولا عروق ، فاحتوشتها الملائكة وكانوا صفوفًا محدقين بها أى محيطين بها وكانت تلك النخلة فى موضع يقال له بيت لحم فقالت حين اشتد الأمر - ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا - أى جيفة ملقاة فنوديت - أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك

سريا وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا - فذلك قوله تعالى - فناداها من تحتها أن لا تحزنى - من قرأ بكسر الميم والتاء فهو جبريل عليه السلام ناداها من سفح الجبل ومن قرأ بفتح الميم والتاء فهو عيسى عليه السلام لما خرج من بطن أمه ناداها وكلها باذن الله تعالى . قالوا فلما ولدت عيسى أجرى الله لها نهرا من ماء عذب بارد إذا شربت منه وفاترا إذا استعملته فذلك قوله تعالى - قد جعل ربك تحتك سريا - وهو النهر الصغير . قال ابن عباس ضرب عيسى وقيل جبريل عليه السلام برجله الأرض ، فظهر الماء وحييت تلك النخلة بعد يبسها فتدلت غصونها وأورقت وأثمرت وأرطبت وقيل لها هزى اليك بجذع النخلة أى حركه تساقط عليك رطبا جنيا غضا طريا قال الربيع بن خيثم ما للنفساء عندي خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل ، وقال عمرو بن ميمون ما أدرى للمرأه إذا عسرت عليها ولادتها خيرا من الرطب وقرأ هذه الآية . قالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمضغ التمر ويحنك به أولاد الصحابة حين يولدون . وقال بعض البلغاء فى وصف التمر علة الصغير ونهالة الكبير ، قالوا ثم إن يوسف النجار عمدا الى حطب فجعله كالخظيرة حوالها بالقرب منها إذ قد أضربها البرد ، ثم أشعل لها نارا لتطلى بها ثم كسر لها سبع جوزات كانت فى خرجه فأطعمها إياها ، فمن أجل ذلك توقد النصارى النار ليلة الميلاد وتلعب بالجوز .

قال وهب : فلما ولد عليه السلام أصبحت الأصنام كلها بكل أرض منكوسة على رؤوسها ، ففزعت الشياطين ولم يدروا لم ذلك ، فساروا مسرعين حتى جاءوا إلى ابليس لعنه الله وغضب عليه وهو على عرش له فى لجنة خضراء يتمثل بالعرش يوم كان على الماء ، فأتوه وقد خلت ست ساعة ، من النهار فلما رأى ابليس اجتماعهم فزع من ذلك ولم يرهم جميعا منذ فرقهم قبل تلك الساعة ، وإنما كان يراهم أشتاتا فسألهم فأخبروه أنه حدث فى الأرض حدث فأصبحت الأصنام كلها منكوسة على رؤوسها ولم يكن شيء أعون على هلاك بنى آدم منها لأنهم كانوا يدخلون فى أجوافها فتكلمهم وتدبر أمرهم فيظنون أنها هى التى تكلمهم ، فلما أصابها هذا الحدث صغرها فى أعين الناس وأذلها وقد خشينا أن لا يعبدوها بعد هذا . واعلم أنا لم نكن نأتيك حتى أحصينا الأرض وقلبنا البحار وكل شيء فلم نزد بما أردنا إلا جهلا ، فقال لهم ابليس فما يكون إلا أمر عظيم فكونوا مكانكم فطار ابليس عند ذلك ولبث عنهم ثلاث ساعات فمرّ فيهن بالمكان الذى ولد فيه عيسى فلما رأى الملائكة محققين بذلك المكان علم أن ذلك الحدث فيه فأراد ابليس لعنه الله أن يأتية من فوقه . قال فاذا رؤوس الملائكة ومناكبهم إلى السماء ، ثم أراد أن يأتية من تحت الأرض فاذا أقدام الملائكة راسية ، فأراد أن يدخل من بينهم فمنعوه عن ذلك يدل عليه حديث النبي صلى الله عليه وسلم « كل ابن آدم يطعن الشيطان فى جنيبه باصبعه حين يولد إلا عيسى بن مريم عليه السلام حجبه الله تعالى عنه فذهب يطعن فطعن فى الحجاب » . قال وهب فذهب ابليس

لعنه الله إلى أصحابه ، فقال لهم . ما جئكم حتى أحصيت الأرض كلها مشرقها ومغربها وبرّها وبحرها والخافقين والجو الأعلى وكل هذا بلغت في ثلاث ساعات ، ثم أخبرهم بمولد عيسى وقال : ما شملت قبله رحم أنى على ولد إلا بعلى ولا وضعت الا وأنا حاضرها وإني لأرجو أن يضل به أكثر ممن يهتدى به ، وما كان نبى أشد علىّ وعليكم من هذا المولود ، ثم إنه خرج قوم في تلك الليلة يؤمنونه من أجل نجم طلع كانوا من قبل يتحدثون أن مطلع ذلك النجم من علامات مولود في كتاب دانيال ، فخرجوا يريدونه ومعهم الذهب والمر واللبن فمروا بملك من ملوك الشام فسألهم أين تريدون ؟ فأخبروه بذلك ، قال فما بال المر والذهب واللبن أهديتموه بهذه الأشياء ؟ قالوا تلك أمثاله لأن الذهب سيد المتاع كله وكذلك هذا النبي صلى الله عليه وسلم سيد أهل زمانه ولأن المر يجبربه الكسر والجرح وكذلك هذا النبي صلى الله عليه وسلم يشفي الله به كلّ مقيم ومريض ، ولأن اللبن دخانه يدخل السماء ولا يدخلها دخان غيره ، وكذلك هذا النبي صلى الله عليه وسلم يرفعه الله إلى السماء ولا يرفع في زمانه أحد غيره ، فلما قالوا ذلك لذلك الملك حدث نفسه بقتله فقال لهم اذهبوا فإذا علمتم بمكانه فأعلموني بذلك فإني راغب في مثل ما رغبت فيه من أمره ، فانطلقوا حتى قدموا على مريم ودفعوا ما كان معهم من الهدية إليها عليها السلام ، وأرادوا ان يرجعوا إلى ذلك الملك ليعلموه بمكانه فلقبهم ملك وقال لهم لا ترجعوا إليه ولا تعلموه بمكانه فانه إنما أراد قتله فانصرفوا في طريق آخر . وقال مجاهد قالت مريم عليها السلام كنت إذا خلوت مع عيسى عليه السلام حدثني وحدثته فإذا شغلني عنه انسان سبح في بطني وأنا أسمع والله أعلم .

باب في رجوع مريم بابنها عيسى بعد ولادتها إياه إلى جماعة قومها من بيت لحم

قال ثم ان جماعة من قومها لما هيا الله تعالى لأمته مريم عليها السلام أمرها ويسر الله لها أسباب ولادتها ، قال كلبي يامريم من الرطب واشربي من الماء العذب وقرى عينا وطبي نفسي فإما ترين من البشر أحدا فسألك عن ولدك أو لامك عليه فقولي - إني نذرت للرحمن صوما - أي صمتا ، وكذلك هو في قراءة ابن مسعود وأنس وذلك أنهم كانوا إذا صاموا أمسكوا عن الطعام والشراب والكلام - فلن أكلم اليوم إنسيا فأتت به قومها تحمله - . قال الكلبي احتمل يوسف النجار مريم وعيسى إلى غار فأدخلهما فيه أربعين يوما حتى تعالت من نفاسها ، ثم جاء بها فأتت مريم تحمله بعد أربعين يوما فكلما عيسى في الطريق فقال يا أماء أبشري فإني عبد الله ومسيحه فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا ، وكانوا أهل بيت صالحين فقالوا - يامريم لقد جئت شيئا فريا - فظيعا عظيما - يا أخت هرون - قال قتادة كان هرون رجلا صالحا من أتقياء بني اسرائيل وليس بهرون أخى موسى ، وذكروا أنه تبع جنازته يوم مات أربعون ألفا من بني اسرائيل كلهم يسمى هرون . وقال وهب : كان هرون من أفسق بني اسرائيل وأظهرهم فسادا

فشبهوها به - ما كان أبوك - عمران - امرأ سوء وما كانت أمك بغيا - : أى زانية فمن أين لك هذا الولد فأشارت لهم مريم إلى عيسى أن كلموه ، فغضبوا وقالوا كيف تكلم من كان في المهد صبيا ، قال وهب : فأثاها زكريا عليه السلام عند مناظرتها اليهود وقال لعيسى انطق بحجتك إن كنت أمرت بها ، فقال عند ذلك عيسى عليه السلام وهو ابن أربعين يوما - إني عبد الله آتاني الكتاب - الآية ، فأقر على نفسه بالعبودية أول ما تكلم تكذيبا للنصارى وإلزاما للحجة عليهم . قال عمرو ابن ميمون إن مريم لما أتت قومها بعيسى أخذوا الحجارة وأرادوا أن يرموها ، فلما تكلم عيسى تركوها ، قالوا ثم لم يتكلم بشيء بعدها حتى كان ينزلة غيره من الصبيان والله أعلم .

باب في ذكر خروج مريم وعيسى عليهما السلام إلى مصر

قال الله تعالى - وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين - قالوا كان مولد عيسى بعد مضي اثنتين وأربعين سنة من ملك أغسطس واحد وخمسين سنة مضت من ملك الاشكانيين ملوك الطوائف وكانت الملكة في ذلك الوقت ملوك الطوائف وكانت الرياسة في الشام ونواحيها لقيصر ملك الروم وكان الملك عليها من قبل قيصر هردوس ، فلما عرف هردوس ملك بني اسرائيل خبر المسيح قصد قتله وذلك أنهم نظروا إلى نجم قد طلع فعرفوا ذلك بحساب عندهم في كتاب لهم فبعث الله ملكا إلى يوسف النجار وأخبره بما أراد هردوس وأمره أن يهرب بالعلام وأمه إلى مصر ، وأوحى الله إلى مريم أن الحلقى بمصر فإن هردوس ان ظفر بابنك قتله فاذا مات هردوس فارجعي إلى بلادك فاحتمل يوسف مريم وابنها على حمار له حتى ورد أرض مصر وهي الربوة التي قال الله تعالى - وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين - .

ذكر أبو إسحق الثعلبي في التفسير - ذات قرار ومعين - ، قال عبد الله بن سلام هي دمشق وقال أبو هريرة هي الرملة وقال قتادة وكعب هي بيت المقدس وقال كعب هي أقرب الأرض إلى السماء وقال أبو زيد هي مصر ، وقال الضحاك هي عرصة دمشق وقال أبو العالية هي ايلياء وقال القزاز الأرض المستوية والمعين الماء الطاهر فأقامت مريم بمصر اثنتي عشرة سنة تغزل الكتان وتلتقط السنبل في أثر الحصادين وكانت تلتقط السنبل والمهد في منكبها والوعاء الذي فيه السنبل في منكبها الآخر حتى تم لعيسى اثنتا عشرة سنة .

وروى عن محمد بن علي الباقر رضي الله عنه أنه قال : لما ولد عيسى كان ابن يوم كانه ابن شهر ، فلما كان ابن تسعة أشهر أخذت والدته يده وجاءت به إلى الكتاب وأقعده بين يدي المؤدب ، فقال له المؤدب قل بسم الله الرحمن الرحيم فقالها عيسى ، فقال المؤدب قل أبجد فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال له هل تدري ما أبجد فعلاه بالقضيب ليضربه ، فقال يا مؤدب لا تضربني ان كنت تدري وإلا فاسألني حتى أفسر لك ، فقال له المؤدب فسره لي ، فقال عيسى الألف لا إله

إلا الله والباء بهجة الله والجيم جلال الله والدال دين الله هو ز الهاء هي جهنم وهي الهاوية والواو ويل لأهل النار والزاي زفير أهل جهنم حطى حطت الخطايا عن المستغفرين كل من كلام الله غير مخلوق ولا مبدل لسكلماته سغفص صاع بصاع والجزاء بالجزاء قرشت تفرشهم حين تحشرهم أى تجمعهم ، فقال المؤدب لأمه أيتها المرأة خذى ابنك فقد علم ولا حاجة له الى المؤدب .

أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين المفسر بإسناده عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان عيسى أرسلته أمه ليتعلم ، فقال له المعلم قل باسم الله ، فقال عيسى وما باسم الله ؟ قال المعلم ما أدري . قال عيسى الباء بهاء الله والسين سناء الله والميم مملكته جل وعلا » والله أعلم .

باب فى صفة عيسى وحليته عليه السلام

قال كعب الأحبار : كان عيسى بن مريم رجلا أحمر مائلا الى البياض ماهوسبط الرأس ولم يدهن رأسه قط وكان عيسى يمشى حافيا ولم يتخذ بيتا ولا حلية ولا متاعا ولا ثيابا ولا رزقا إلا قوت يومه وكان حيثما غابت الشمس صف قدمية وصلى حتى يصبح وكان يرى الأكمة والأبرص ويحيى الموتى باذن الله وكان يخبر قومه بما يأكلون فى بيوتهم وما يدخرون لغد وكان يمشى على وجه الماء فى البحر وكان أشعث الرأس صغير الوجه زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة حريصا على عبادة الله وكان سياحا فى الأرض حتى طلبته اليهود وأرادوا قتله فرفعه الله إلى السماء والله أعلم .

باب فى ذكر الآيات والمعجزات التى ظهرت لعيسى عليه السلام فى صباه الى أن نبى

قال وهب : كان أول آية رآها الناس من عيسى أن أمه كانت نازلة فى دار دهقان من أرض مصر أنزلها بها يوسف النجار حين ذهب بها الى مصر ، وكانت دار ذلك الدهقان تأوى اليها المساكين فسرق للدهقان مال من خزائنه فلم يتهم المساكين فحزنت مريم لمصيبة ذلك الدهقان ، فلما رأى عيسى حزن أمه لمصيبة صاحب ضيافتها . قال لها يا أماه أتجبين أن أدله على ماله ؟ قالت نعم يا بنى . . قال لها قولى له يجمع لى المساكين فى داره ، فقالت مريم للدهقان ذلك فجمع له المساكين فلما اجتمعوا عمد الى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مقعد فحمل المقعد على عاتق الأعمى وقال له قم به ، فقال الأعمى أنا أضعف عن ذلك ، فقال له عيسى كيف قويت على ذلك البارحة ؟ فلما سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام فلما استقل قائما هوى المقعد الى كوة الخزانة ، فقال عيسى للدهقان هكذا احتالا على مالك البارحة لأن الأعمى استعان بقوته والمقعد بعينه ، فقال الأعمى والمقعد صدق والله فردا على الدهقان ماله كله فأخذ الدهقان ووضع فى خزائنه . وقال يامريم خذى نصفه ، فقالت إني لم أخلق لذلك . قال الدهقان فأعطيه لابنك ، قالت هو أعظم منى شأنهم لم يلبث الدهقان أن أعرس لابن له فصنع له عيدا فجمع عليه أهل مصر كلهم فكان يطعمهم شهرين فلما انقضى ذلك زاره قوم من أهل الشام ولم يعلم الدهقان بهم حتى نزلوا به وليس عنده

يومئذ شراب ، فلما رأى عيسى اهتمامه بذلك دخل بيتا من بيوت الدهقان فيه صفان من جرار فأمر عيسى يده على أفواهها وهو يمشي فكلما أمر يده على جرة امتلأت شرابا حتى أتى عيسى على آخرها وهو يومئذ ابن اثنتي عشرة سنة .

آية أخرى . قال السدي كان عيسى عليه السلام إذا كان في الكتاب يحدث الصبيان بما يصنع آبائهم ويقول للغلام انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا ورفعوا لك كذا وكذا وهم يأكلون كذا وكذا فينطلق الصبي الى أهله فيبكي عليهم حتى يعطوه ذلك الشيء فيقولون له من أخبرك بهذا ؟ فيقول عيسى فحبسوا عنه صبيانهم وقالوا لا تلعبوا مع هذا الساحر ، فجمعوهم في بيت فجاء عيسى يطلبهم ؟ فقالوا له ليسوا ههنا ، فقال لهم فما في هذا البيت ؟ قالوا خنازير . قال كذلك يكونون ففتح عنهم فاذا هم خنازير ففشا ذلك في الناس فهت به بنو إسرائيل فلما خافت عليه أمه حملته على حمار لها وخرجت هاربة الى مصر .

آية أخرى ، قال السدي لما خرج عيسى وأمه عليهما السلام يسيحان في الأرض اذ تركا بني إسرائيل ونزلا في قرية على رجل فأضافهما وأحسن اليهما وكان ملك ذلك الوقت جبارا عنيدا فجاء ذلك الرجل يوما مهتما حزينا فدخل منزله ومريم عند امرأته فقالت لها مريم ما شأن زوجك أراه حزينا ؟ فقالت لها لا تسأليني ، فقالت أخبريني لعل الله يفرج كربته على يدي ، فقالت ان لنا ملكا يجعل على كل رجل منا نوبة يطعمه ويسقيه الخمر هو وجنوده فان لم يفعل عاقبه واليوم يومنا ولبس عندنا سعة ؟ قالت فقولى له لا يهتم بشيء فانه قد أحسن الينا وانى أمر ابني أن يدعو له فيكفي ذلك ، ثم قالت مريم لعيسى فقال ان فعلت ذلك يقع شر قالت فلا نبالي لأنه أحسن الينا وأكرمنا . قال عيسى فقولى له إذا اقترب ذلك فاملا قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمني ففعل ذلك فدعا عيسى فتحول ماء القدور لخم ومرقا وماء الخوابي خمرا لم ير الناس مثله قط ، فلما جاء الملك أكل فلما شرب سأل من أين هذا الخمر ؟ قال له من أرض كذا وكذا . قال الملك فان خمرى قد أتى بها من تلك الأرض وليست مثل هذه فقال له من أرض أخرى فلما خلط على الملك وشبه عليه ، قال أخبرني عن الحق . قال فأنا أخبرك عندي غلام ما سأل الله شيئا إلا أعطاه إياه وإنه دعا الله تعالى فجعل الماء خمرا وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام وكان أحب الخلق اليه ، فقال الملك ان رجلا دعا الله حتى جعل الماء خمرا ليستجاب له حتى يحيى ابني فدعا عيسى وكله في ذلك ، فقال له عيسى لا تفعل لأنه ان عاش وقع شر ، فقال الملك لا أبالي بعد ان أراه . قال عيسى ان أحييته تتركوني أنا وأمي نذهب حيث نشاء ؟ قال نعم ، فدعا الله تعالى فعاش الغلام فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح وقالوا أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف ابنه علينا فيأكلنا كما أكلنا أبوه فاقبلوا وذهب عيسى وأمه .

آية أخرى . قال وهب بينا عيسى يلعب مع الصبيان إذ وثب غلام على صبي فوكزه برجله

فقتله فألقاه بين يدي عيسى وهو ملطخ بالدم فاطلع الناس عليه فاتهموه به فأخذوه وانطلقوا به الى قاضي مصر فقالوا له هذا قتل هذا فسأله القاضي فقال عيسى لا أدري من قتله وما أنا بصاحبه ؟ فأرادوا أن يبطشوا بعيسى عليه السلام ، فقال لهم ائتوني بالغلام فقالوا له ما تريد منه ؟ قال أريد أن أسأله من قتله ، قالوا وكيف يكلمك وهو ميت فأخذوه وأتوا به الى مقتل الغلام فأقبل عيسى على الدعاء فأحياه الله تعالى فقال له عيسى من قتلك ؟ قال قتلتني فلان على الذي قتله ، فقال بنو إسرائيل من هذا ؟ قال هذا عيسى بن مريم قالوا فمن هذا الذي معه ؟ قال قاضي بني إسرائيل ثم مات الغلام من ساعته فرجع عيسى الى أمه وتبعه خلق كثير من الناس ، فقالت له أمه يا بني ألم أنك عن هذا فقال لها ان الله حافظنا وهو أرحم الراحمين .

آيه أخرى . قال عطاء سلمت مريم عيسى بعد ما أخرجته من الكتاب الى أعمال شتى فكان آخر مادفعته الى الصباغين فدفعته الى رئيسهم ليتعلم منه فاجتمع عنده ثياب مختلفات فعرض للرجل سفر فقال لعيسى انك قد تعلمت هذه الحرفة وأنا خارج في سفر لا أرجع الى عشرة أيام وهذه ثياب مختلفات الألوان وقد علمت كل واحد منها على اللون الذي يصنع به فأحب أن تكون فارغا منها وقت قدومي ، ثم خرج فطبخ عيسى عليه السلام جبا واحدا على لون واحد وأدخل فيه جميع الثياب وقال لها كوني باذن الله تعالى على ما أريد منك فقدم الصباغ والثياب كلها في جيب واحد فقال يا عيسى ما فعلت ؟ قال فرغت منها . قال أين هي ؟ قال في الجيب فقال كلها ، قال نعم ؟ قال كيف تكون كلها في جيب واحد لقد أفسدت تلك الثياب ؟ قال قم فانظر فقام فأخرج عيسى ثوبا أصفر وثوبا أخضر وثوبا أحمر الى أن أخرجها على الألوان التي أرادها ، فجعل الصباغ يتعجب وعلم أن ذلك من الله عز وجل فقال الصباغ للناس تعالوا انظروا الى ما فعل عيسى عليه السلام فأمن به هو واصحابه وهم الحواريون والله عز وجل أعلم .

باب في ذكر رجوع مريم وعيسى عليهما السلام إلى بلادها بعد موت هردوس قال وهب . لما مات هردوس الملك بعد اثنتي عشرة سنة من مولد عيسى عليه السلام أوحى الله تعالى الى مريم ينحبرها بموت هردوس ويأمرها بالرجوع مع ابن عمها يوسف النجار الى الشام فرجع عيسى وأمه عليهما السلام وسكنوا في جبل الخليل في قرية يقال لها ناصرة وبها سميت النصارى ، وكان عيسى يتعلم في الساعة علم يوم وفي اليوم علم شهر وفي الشهر علم سنة ، فلما تم له ثلاثون سنة أوحى الله تعالى اليه أن يبرز للناس ويدعوهم الى الله ويضرب لهم الأمثال ويداوي المرضى والزمي والعميان والمجانين ويقمع الشياطين ويخرجهم وينظمهم وكانوا يموتون من خوفه ففعل ما أمره به فأحبه الناس ومالوا اليه واستأنسوا به وكثرت أتباعه وعلا ذكره وربما اجتمع عليه من المرضى والزمي في الساعة الواحدة خمسون ألفا فمن أطلق منهم أن يمشي اليه مشى اليه ومن لم يطق وصل اليه عيسى عليه السلام وانما كان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان ،

ودعاؤه الذى كان يشفى به المرضى ويحيى به الموتى : اللهم أنت إله من فى السماء وإله من فى الأرض لا إله فىهما غيرك وأنت جبار من فى السموات وجبار من فى الأرض لا جبار فىهما غيرك وأنت ملك من فى السموات وملك من فى الأرض لا ملك فىهما غيرك وأنت حكم من فى السموات وحكم من فى الأرض لا حكم فىهما غيرك قدرتك فى الأرض كقدرتك فى السماء وسلطانك فى الأرض كسلطانك فى السماء أسألك بأسمائك الكرام إنك على كل شىء قدير .

باب فى قصة الحواريين عليهم السلام

قال الله تعالى - فلما أحسن عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون - وقال الله عز وجل - وإذ أوحيت إلى الحواريين - أى ألهمتهم ووقتهم - أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون - اعلم أن الحواريين كانوا أصفياء عيسى بن مريم وأولياءه وأرضيائه وأنصاره ووزرائه وكانوا اثني عشر رجلا وأسماءهم شمعون الصفار المسمى بطرس واندرواس أخوه ويعقوب بن زبدي ويحيى أخوه وفيلبس وبرتولوماوس وتوما ومتى العشار ويعقوب بن حلفا وليا الذى يدعى تداوس وشمعون القناني ويهوذا الاسخريوطى عليهم السلام .

واختلف العلماء فىهم لم سموا بذلك ؟ . قال ابن عباس : كانوا صيادين يصطادون السمك ثم بهم عيسى فقال لهم ماتصنعون ؟ فقالوا نصطاد السمك . فقال لهم ألا تمشون معى حتى نصطاد الناس قالوا وكيف ذلك ؟ قال ندعو الى الله . قالوا ومن أنت قال أنا عيسى بن مريم عبد الله ورسوله . قالوا فهل يكون أحد من الأنبياء فوقك ؟ قال نعم النبي العربى فاتبعه أولئك وآمنوا به وانطلقوا معه . وقال السدى كانوا ملاحين . وقال ابن أرمطة . كانوا قصارين سموا بذلك لأنهم كانوا يحورون الثياب : أى يبيضونها .

أخبرنا ابن فتحويه بإسناده عن مصعب قال : الحواريون اثنا عشر رجلا اتبعوا عيسى فكانوا اذا جاعوا قالوا ياروح الله جعنا فيضرب يده إلى الأرض سهلا كان أو جبلا فيخرج لكل انسان رغيفان فيأكلهما واذا عطشوا قالوا ياروح الله عطشنا فيضرب الأرض سهلا كان أو جبلا فيخرج الماء فيشربون . فقالوا ياروح الله من أفضل منا اذا شئنا أطعمتنا واذا شئنا أسقيتنا وآمنا بك واتبعناك ؟ قال أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه . قال فصاروا يعملون الثياب بالكراء . قال ابن عون صنع ملك من الملوك طعاما فدعا الناس اليه ، وكان عيسى على قصعة فكانت القصعة لا تنقص . فقال له الملك من أنت ؟ قال أنا عيسى بن مريم . قال الملك انى أترك ملكى وأتبعك فانطلق بمن اتبعه منهم وهم الحواريون ، وقيل هو الصباغ وأصحابه ، وقد مضت القصة .

قال الضحاك : سموا حواريين لصفاء قلوبهم ، وقال عبد الله بن المبارك سموا حواريين لأنهم كانوا نورانيين عليهم أثر العبادة ونورها وياضها وبهاؤها . وأصل الحور عند العرب شدة البياض ومنه الأحور والحور . وقال الحسن : الحواريون الأنصار . وقال قتادة هم الذين تصلح لهم الخلافة وقال النضر بن شميل الحوارى خاصة الرجل ومن يستعين به فيما ينوبه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم « لكل نبي حوارى وحوارى الزير » فهؤلاء حواريو عيسى بن مريم عليه السلام فأما حواريو هذه الأمة فأخبرنا الحسين بن محمد الدينورى بإسناده عن سفيان بن معمر أن قتادة قال ان الحواريين كلهم من قريش وهم أبوبكر وعمر وعثمان وطى وحزمة وجعفر وأبو عبيدة ابن الجراح وعثمان بن مظعون وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير ابن العوام رضى الله عنهم أجمعين .

ذكر خصائص عيسى عليه السلام والمعجزات التى ظهرت على يديه بعد مبعثه

إلى أن رفع صلوات الله وسلامه عليه

منها تأييد الله إياه بروح القدس . قال عز من قائل - وأيدناه بروح القدس - ونظيرها فى سورة المائدة - إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذ كر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس - .

واختلفوا فيه فقال الريح بن أنس هو الروح الذى نفخ فيه الروح أضافه سبحانه الى نفسه تكريما وتخصيصا نحو بيت الله وناقة الله والقدس هو الله تعالى يدل عليه قوله تعالى - وروح منه - فنفخنا فيه من روحنا - ، وقال آخرون أراد بالقدس الطهارة أى الروح الطاهرة وسمى عيسى عليه السلام روحا لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحول ولم تشمل عليه أرحام الطوامث إنما كان أمرا من الله تعالى . قال السدى وكعب روح القدس جبريل وتأييد عيسى بجبريل عليهما السلام هو أنه كان قرينه ورفيقه يعينه ويسير معه حيثما سار إلى أن صعد به إلى السماء . وقال سعيد بن جبير وعبيد بن عمير هو اسم الله الأعظم وبه كان يحيى الموتى ويرى الناس تلك العجائب .

ومنها تعليم الله إياه الانجيل والتوراة وكان يقرؤهما من حفظه كما قال الله تعالى - وإذا علمتكم الكتاب - أى الخط ، قيل الخط عشرة أجزاء فتسعة منها لعيسى والحكمة والتوراة والانجيل . ومنها خلقه الطير من الطين كما قال الله تعالى مخبرا عنه - أتى قد جئتكم بآية من ربكم أتى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله - وقال تعالى - وإذا تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى - فكان يصور من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ولم يخلق غير الخفاش ، وإنما خص بالخفاش لأنه أكمل الطير خلقا فيكون أبلغ فى القدرة لأن له ثديا وأسنانا ويلد ويحيض ويطير .

قال وهب : كان يطير مادام الناس ينظرون اليه فاذا غاب عنهم سقط ميتا ليعتبر فعل الخلق عن فعل الله تعالى ، وليعلم أن الكمال لله عز وجل .

ومنها ابراء الأكمه والأبرص كما قال الله - وتبرى الأكمه والأبرص باذنى - والأبرص الذى به وضع الأكمه الذى ولد أعمى ولم يرضوا قط ولم يكن فى الاسلام أكمه غير قتادة وانما خص هذين لأنهما أعيى الأطباء ، وكان الغالب على زمان عيسى الطب فأراهم المعجزة من جنس ذلك .

ويروى أن عيسى عليه السلام مرّ بدير فيه عميان . فقال ما هؤلاء ؟ فقيل هؤلاء قوم طلبوا للقضاء فطمسوا أعينهم بأيديهم فقال لهم ماذاكم الى هذا ؟ قالوا خفنا عاقبة القضاء فصنعنا بأنفسنا ما ترى . فقال أنتم العلماء والحكماء والأخبار والأفاضل امسحوا أعينكم بأيديكم وقولوا باسم الله ففعلوا ذلك فاذا هم جميعا قيام ينظرون .

ومنها حياؤه الموتى باذن الله قال الله تعالى - وإذ تخرج الموتى باذنى - . وأحيائهم أمواتا منهم العاذر ، وكان صديقاله فأرسلت أخته الى عيسى ان أخاك العاذر يموت فأته وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام فأثابه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام فقالوا لأخته انطلقى بنا الى قبره فانطلقت معهم الى قبره وهو فى صخرة مطبقة . فقال عيسى : اللهم رب السموات السبع والأرضين السبع إنك أرسلتني الى بنى اسرائيل أدعوهم الى دينك وأخبرتهم إني أحيى الموتى باذنك فأحى العاذر فقام العاذر وخرج من قبره وبقي وولده .

ومنها ابن العجوز ، وكانت القصة فيه أن عيسى مر فى سياحته ومعه الحواريون بمدينة فقال ان فى هذه المدينة كنزا فمن يذهب يستخرجه لنا ، فقالوا يا روح الله لا يدخل هذه القرية أحد غريب إلا قتله فقال لهم عيسى مكانكم حتى أعود اليكم فمضى حتى دخل المدينة فوقف على باب فقال السلام عليكم يا أهل الدار غريب أطعموه ، فقالت له امرأة عجوز أما ترى أن أدعك لأذهب بك الى الوالى حتى تقول أطعمونى فبينما عيسى بالباب إذ أقبل الفتى ابن العجوز فقال له عيسى أضفى ليلتك هذه فقال له الفتى مثل مقالة العجوز فقال له عيسى أما انك لو فعلت ذلك زوجتك بنت الملك ، فقال له الفتى إما أن تكون مجنونا وإما أن تكون عيسى بن مريم قال أنا عيسى فأضافه وبات عنده فلما أصبح قال له اغد وادخل على الملك وقل له جئت أخطب ابنتك فإنه سيأمر بضربك وإخراجك فمضى الفتى حتى دخل على الملك فقال له جئت اليك أخطب ابنتك فأمر بضربه فضرِب وأخرج فرجع الفتى الى عيسى فأخبره الخبر ، فقال اذا كان غد فاذهب اليه واخطب ابنته فإنه ينالك بدون ذلك ففعل الفتى ما أمره عيسى فضرِب به دون ذلك الضرب الأول فرجع الى عيسى فأخبره فقال ارجع اليه فإنه سوف يقول لك أنا أزوجك إياها على حكمى وحكمى قصر من ذهب وفضة وما فيه من ذهب وفضة وزبرجد فقل له أفعل ذلك فاذا بعث معك أحدا فاخرج به فانك سوف نجده فلا تحدث فيه شيئا ثم انه دخل على الملك فخطب فقال تصدقها بحكمى . فقال وما حكمك ؟

فحكى بالذى سماه عيسى . فقال نعم رضيت : ابعث من يقبض ذلك فبعث معه رجالا فسلم اليهم
ماسأله الملك فتعجب الناس من ذلك فسلم اليه الملك ابنته فتعجب الفتى من ذلك وقال ياروح الله
تقدر على مثل هذا وأنت على مثل هذه الحالة ، فقال له عيسى إني آثرت ما يبقى على ما يفنى ، فقال الفتى
أنا أيضا أدعه وأصحبك ، فتخلى عن الدنيا واتبع عيسى ، فأخذ عيسى ، بيده وأتى به أصحابه وقال
لهم هذا الكنز الذى قلت لكم فكان معه ابن العجوز إلى أن مات ومربيه وهو ميت على سرير
فدعا الله عيسى فجلس على سرير . ونزل من على أعناق الرجال ولبس الثياب وحمل السرير على
عنته ورجع إلى أهله فبقى وولده .

ومنها ابنة العشار رجل كان يأخذ العشر قيل له أتحيها وقد ماتت بالأمس ، فدعا الله عز وجل
فعاثت وبقيت وولدها .

ومنها سام بن نوح قال له الحواريون وهو يصف لهم سفينة نوح . لو بعثت لنا من شهد السفينة
فينعت لنا ذلك ، فقام وأتى تلا فضرب بيده وأخذ قبضة من تراب ، وقال هذا قبر سام بن نوح
إن شئتم أحييته لكم ، قالوا نعم ، فدعا الله باسمه الأعظم وضرب التل بعصاه وقال احي باذن الله
فخرج سام بن نوح من قبره وقد شاب نصف رأسه ، فقال أقدم أقامت القيامة ؟ قال لا ، ولكنى
دعوتك باسم الله الأعظم . قال ولم يكونوا يشيرون فى ذلك الزمان ، وكان سام قد عاش
خمسة سنة وهو شاب ، ثم أخبرهم بخبر السفينة ، فقال له عيسى مت ، قال بشرط أن يعيدنى الله من
سكرات الموت ، فدعا الله عيسى عليه السلام ففعل ذلك ، وقد ذكر هذا الخبر فى قصة نوح
عليه السلام .

ومنها عزيز عليه السلام ، قالوا لعيسى عليه السلام أحيه والا أحرقناك بالنار ، وجمعوا له حطباً
كثيراً من حطب الكرم ، وكانوا فى ذلك الوقت يدفنون موتاهم فى صناديق من حجارة مطبقة
فوجدوا قبر عزيز مكتوباً على ظهره اسمه ، فعالجوه ليفتحوه فلم يقدروا أن يخرجوه من قبره ،
فرجعوا إلى عيسى فأخبروه ، فناولهم إناء فيه ماء وقال لهم انضحوا قبره بهذا الماء ففعلوا فانفتح
الطبق فأتوا به عيسى وهو فى أكفانه والأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ثم إنه نزع ثيابه عنه ،
ثم جعل ينضح على جسده الماء ولحمه وشعره ينبت ، ثم قال احي يا عزيز باذن الله تعالى فاذا هو حالى
وكل ذلك تراه أعينهم ، فقالوا يا عزيز ما تشهد لهذا الرجل ؟ يعنون عيسى ، فقال أشهد أنه عبد الله
ورسوله ، فقالوا يا عيسى ادع لنا ربك يبقه لنا ليكون بين أظهرنا حياً ، فقال عيسى ردوه إلى قبره فردوه
إلى قبره فعاد ميتاً ، فأمن بعيسى بن مريم من آمن وعاند من عاند . قال السكبي كان عيسى يحيى
الموتى يا حي يا قيوم .

ومنها اخباره عليه السلام عن الغيوب . قال الله عز وجل اخبارا عنه - وأنبئكم بما تاكلون
وما تدخرون فى بيوتكم - . قال السكبي لما أبرأ عيسى الأكمة والأبرص وأحيا الموتى ، قالوا هذا

ماحر ، ولكن أخبرنا بما نأكل وبما ندخر ، فكان يخبر الرجل بما يأكل في غدائه وبما يأكل في عشاءه .

ومنها مشيه عليه السلام على الماء . يروى أنه خرج في بعض سياحته ومعه رجل من أصحابه قصير وكان كثير اللزوم لعيسى ، فلما انتهى عيسى الى البحر قال : باسم الله بصحة ويقين ، فمشى على وجه الماء ، فقال الرجل القصير : باسم الله بصحة ويقين ، فمشى على وجه الماء فداخله العجب فقال هذا عيسى روح الله يمشى على الماء وأنا أمشى على الماء قال فانتعس في الماء فاستغاث بعيسى فتناوله عيسى من الماء وأخرجه وقال له ماقلت ياقصير فأخبره بما خامر خاطره فقال له عيسى لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله فيه فمقتك الله على ماقلت فتب إلى الله مما قلت فتاب الرجل وعاد إلى مرتبته التي وضعه الله فيها فاتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضا ، وحدثنا الامام أبو منصور الخثماوى بإسناده عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لو عرفتم الله حق معرفته لعلمتم العلم الذي ليس بعده جهل ، ومابلغ ذلك أحد قط . قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا . قالوا يا رسول الله قد بلغنا أن عيسى بن مريم مشى على الماء . قال نعم : ولو ازدادخوفا ويقينا لمشى على الهواء . قالوا يا رسول الله ما كنا نرى أن الرسل تقصر . فقال ان الله تعالى أبلغ شأنا من أن يبلغ أحد شأنه » .

ذكر حديث جامع في هذا الباب

قال وهب : خرج عيسى عليه السلام يسبح في الأرض فصعبه يهودى وكان مع ذلك اليهودى رغيفان ومع عيسى رغيف . فقال له عيسى تشاركنى في طعامك . قال اليهودى نعم فلما رأى أنه ليس مع عيسى الا رغيف واحد ندم فقام عيسى الى الصلاة فذهب صاحبه وأكل رغيفا فلما قضى عيسى صلاته قدما طعامهما فقال لصاحبه أين الرغيف الآخر فقال ما كان الا رغيف واحد فأكل عيسى رغيفا وصاحبه رغيفا ثم انطلقا فجاءا الى شجرة فقال عيسى لصاحبه لوأنا بتنا تحت هذه الشجرة حتى نصبح فقال افعل فباتا ثم أصبحا منطلقين فلقيا أعمى فقال له أرايت ان أنا عاجلتك حتى يرد الله عليك بصرك فهل تشكره ؟ قال نعم فمس عيسى بصره ودعا الله له فاذا هو صحيح فقال عيسى لليهودى بالذى أراك الأعمى بصيرا كم كان معك من رغيف . فقال والله ما كان الا رغيف واحد فسكت عيسى عنه ومرا فاذاها بمقعد فقال له عيسى أرايت إن عاجلتك فعافاك الله فهل تشكره ؟ قال نعم ، قال فدعا الله تعالى عيسى فاذا هو صحيح قائم على رجله . فقال صاحب عيسى ما رأيت مثل هذا قط . فقال له عيسى بالذى أراك الأعمى بصيرا والمقعد صحيحا من صاحب الرغيف الثالث فحلف له ما كان معه إلا رغيف واحد فسكت عيسى عنه فانطلقا حتى اتيا الى نهر عجاج . فقال عيسى لأرى جسرا ولا سفينة فخذ بحجزتى من ورأى وضع قدمك موضع قدمى ففعل فمشيا على الماء . فقال له عيسى بالذى أراك أمر الأعمى والمقعد وسخر لك الماء

من صاحب الرغيف الثالث . فقال والله ما كان إلا رغيف واحد فسكت عيسى ، ثم انطلقا فاذهبا
هما بطباء ترعى فدعا عيسى بطبي فذبجه وشوى منه بعضا وأكلاه . ثم ضرب عيسى بقية الطبي
بعصاه وقال قم باذن الله عز وجل فاذا الطبي يعدو . فقال الرجل سبحان الله ، فقال عيسى باللهى أراك
هذه الآية من صاحب الرغيف الآخر ؟ . فقال ما كان إلا رغيف واحد فمرا بصاحب بقر فنادى
عيسى يا صاحب البقر اجزر لنا من بقرك هذه عجلا . فقال ابعت صاحبك اليهودى يأخذه فانطلق
اليهودى فجاء به وذبحه وشواه وصاحب البقر ينظر اليه . فقال عيسى كل ولا تكسر عظما . فلما
فرغوا قذف بعظامه فى جلده ثم ضربه بعصاه وقال له قم باذن الله فقام العجل وله خوار . فقال له
عيسى يا صاحب البقر خذ عجلك قال ويحك من أنت ؟ قال أنا عيسى بن مريم قال عيسى السحار .
ثم فر منه ، فقال عيسى لصاحبه باللهى أحيا العجل كم كان معك من رغيف . فقال ما كان معى
الإرغيف واحد فسكت ومضيا حتى دخلا قرية فنزل عيسى فى أسفلها واليهودى فى أعلاها فأخذ اليهودى
عصا عيسى وقال أنا الآن أبرئ المرضى وأحيى الموتى ، قال وكان ملك تلك القرية مريضا مدنتا
فانطلق اليهودى ونادى من يتبغى طبيا حتى أتى باب الملك فأخبر بوجهه فقال أدخلونى عليه فأنا
أبرئه ، وإن رأيتموه قدمات فأنا أحييه . فقيل له إن وجع الملك قد أعيا الأطباء قبلك ، وليس من
طبيب يداويه ولا يشفيه إلا صلبه فقال أدخلونى عليه فأدخل عليه فضرب الملك بعصاه فمات فجعل
يضرب الملك بالعصا وهو ميت ويقول قم باذن الله فلم يقم فأخذ ليصلب فبلغ ذلك عيسى فأقبل
عليه ، وقد رفع على الحشبة فقال لهم عيسى أرايتم لو أحييت لكم الملك هل تتركون لى صاحبي ؟
قالوا نعم فدعا الله عز وجل فأحياه وقام فأنزل اليهودى من الحشبة فقال يا عيسى أنت أعظم الناس
على منة والله لا أفارقك أبدا . فقال له عيسى أنشدك الله الذى أحيا الطبي والعجل بعد ما أكلناها
وأحيا هذا بعد مامات وأنزلك من على الجذع بعد ما صلبك كم كان معك من رغيف . قال فحلف
بهذا كله وقال والله ما كان معى إلا رغيف واحد ، فقال عيسى لا بأس فانطلقا حتى أتيا قرية
عظيمة خربة فيها كنز ثلاث لبنات من ذهب قد حفرتها السباع والدواب فقال الرجل لعيسى هذا
المال لك فقال عيسى أجل واحدة لى وواحدة لك وواحدة للذى أكل الرغيف الثالث فقال اليهودى
لعيسى أنا صاحب الرغيف الثالث أكلته وأنت تصلى فقال عيسى هى لك كلها فانطلق عيسى وتركه
ينظر وهو لا يستطيع أن يحمل منهن واحدة لثقلها عليه فقال له عيسى دعه فان له أهلا يهلكون
عليه فجعلت نفس اليهودى تتطلع الى المال ، ويكره أن يعصى عيسى ويعجزه حمل المال فانطلق مع
عيسى فبينما هو كذلك إذ مر بالمال ثلاثة نفر فأتوا عليه فقال اثنان منهما لصاحبهما الثالث انطلق
إلى بعض هذه القرى فأتنا بطعام وشراب ودواب نحمل عليها هذا المال فلما ذهب صاحبهما قال
أحدهما للآخر هل لك أن تقتله إذا رجع وتقتسم المال بيننا قال نعم وقال الذى ذهب فى نفسه
أنا أجعل فى الطعام سما فاذا أكلاه ماتا ويصير المال كله لى ففعل ذلك فلما رجع اليهما ووصل

قتلاه ثم أكل الطعام الذي جاء به اليهما فماتا وان عيسى عليه السلام مرببه وهم حوله مقتولون فقال لا إله الا الله هكذا تصنع الدنيا بأهلها ، ثم ان عيسى أحياهم باذن الله فاعتبروا ومروا ولم يأخذوا من المال شيئا فتطلعت نفس اليهودى صاحب عيسى إلى المال فقال أعطنى المال فقال عيسى خذه لك فهو حظك فى الدنيا والآخرة فلما ذهب ليحمله خسف به الأرض فانطلق عيسى عليه السلام .

ومنها نزول المائدة ، قال الله تعالى - إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء - قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين - الآية .

واختلف العلماء فى صفة نزول المائدة وكيفيتها وما كان عليها فروى قتادة عن جابر عن عمار بن ياسر عن رسول الله ﷺ أنه قال : نزلت المائدة عليها خبز ولحم وذلك أنهم سألوا عيسى طعاما يأكلون منه ولا ينفد قال : فقال لهم انى فاعل ذلك وانها مقيمة لكم ما لم تحبثوا أو تحونوا فان فعلتم ذلك عذبتم قال فمضى يومهم حتى خانوا وخبثوا ، وفى بعض الروايات أن بعضهم سرق منها وقال لعلها لا تنزل أبدا فرفعت ومسحوا قردة وخنازير ، وقال ابن عباس قال عيسى لبنى اسرائيل صوموا ثلاثين يوما ثم سلوا الله ما شئتم يعطيكموه فصاموا ثلاثين يوما ، فلما فرغوا قالوا يا عيسى انا ان عملنا لأحد فقضينا عمله أطعمنا طعاما وانا إن صمنا وجعنا فادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء ، فلبس عيسى المسوح واقترب الرماذ ثم دعا الله تعالى فقال - اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء - الآية ، فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات ووضعها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم ، وروى عطاء بن السائب وغيره أنه كانت المائدة إذا وضعت لبنى اسرائيل اختلفت عليها الأيدي فيها كل الطعام إلا اللحم ، وقال عطية العوفى نزلت ممكة من السماء فيها طعام كل شيء ، وقال قتادة كانت مائدة تنزل من السماء وعليها ثمر من نمار الجنة وكانت تنزل عليهم بكرة وعشبة حيث كانوا كالمن والسلوى لبنى اسرائيل ، وقال وهب أنزل الله أقرصة من شعير وحيثانا قليل لوهب ما كان ذلك يغنى عنهم من شيء . قال بلى ولكن الله ضاعف لهم البركة ، فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ويحيى آخرون فيأكلون حتى أكلوا بأجمعهم وفضل ، وقال كعب الأحبار نزلت مائدة من السماء منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل طعام إلا اللحم . وقال مقاتل والكلبي استجاب الله لعيسى عليه السلام فقال إني منزلها عليكم كم سألتنى ، فمن أكل من ذلك الطعام ثم لم يؤمن جعلته مثلا ولعنة وعبرة لمن بعدهم قالوا قد رضينا ، فدعا شمعون الصفار وكان أفضل الحواريين ، فقال هل معك طعام ؟ فقال معى سمكتان صغيرتان وستة أرغفة فقال على بها فقطعها عيسى قطعا صغارا وقال اقعدوا فى روضة وتراققوا رفاقا كل رقعة عشرة ، ثم قام عيسى ودعا الله تعالى فاستجاب له وأنزل فيها البركة فصار خبزا صحاحا وسمكا صحاحا ، ثم قام عيسى يمشى فجعل يلقي فى كل رقعة ما حملت أصابعه ، ثم قال كلوا باسم الله فجعل الطعام يكثر حتى بلغ ركبهم فأكلوا ماشاء الله وفضل والناس خمسة آلاف

وتيف ، وقال الناس جميعا : شهدنا أنك عبد الله ورسوله . ثم سألوه مرة أخرى . فأنزل الله خمسة أرغفة وسمكتين فصنع بها ماصنع في المرة الأولى ، فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا هذا الحديث ضحك منهم من لم يشهد وقال ويحكم انما سحر أعينكم فمن أراد الله به الخير ثبتته على بصيرة ومن أراد فتنته رجع الى كفره فمسخوا قردة وختاير ليس منهم صبي ولا امرأة ، فمكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ويشربوا ، وكذلك كل ممسوخ . ويروى عن عطاء بن أبي رباح عن سلمان الفارسي أنه قال : والله ما تبع عيسى من المساوي ولا اتهر يتبوا ولا فقهه ضحكا ولا ذب ذبابا عن وجهه ولا أخذ على أنفه مرتين شيئا قط ولا عبث قط . ولما سأل الحواريون أن ينزل عليهم الموائد صنوفا . قال - اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء - الآية وارزقنا عليها طعاما نأكل - وأنت خير الرازقين - فنزلت سفرة حمراء بين غماتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون اليها وهي تهوى منقضة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى وقال : اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة وهم ينظرون اليها فنظروا الى شيء لم يروا مثله قط ولم يجدوا ريحا أطيب من رائحة ذلك . فقال عيسى لهم أحسنكم عملا يكشف عنها ويدكر اسم الله ويأكل منها . فقال شمعون الصفار رأس الحواريين أنت أولى بذلك منا ، فقام عيسى وتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى كثيرا ، ثم كشف المنديل عنها وقال : باسم الله خير الرازقين فاذا هو بسمة مشوية ليس عليها فلوس ولا شوك فيها تسيل سيلانا من الدسم ، وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل ، وحواليها من أنواع البقول ما خلا الكراث ، واذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث مسمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد ، فقال شمعون ياروح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة ؟ فقال عيسى عليه السلام ليس ماترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ولكن افعله الله بالقدره الغالبة كلوا انما سألتكم يمددكم ويزدكم من فضله ، قالوا ياروح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى ؟ فقال عيسى باسمكة احبي باذن الله فاضطربت السمكة وعاد عليها فلوسها وشوكها ، ففرعوا منها فقال عيسى مالكم تسألون أشياء إذا أعطيتموها كرهتموها ، ثم قال فما أخوفني عليكم أن تعذبوا باسمكة عودي كما كنت باذن الله ، فعادت السمكة مشوية كما كانت . قالوا ياروح الله كن أول من يأكل منها ثم نأكل نحن ، فقال عيسى معاذ الله أن أكل منها ولكن يأكل منها من سألها فخافوا أن يأكلوا منها ، فدعا لها عيسى أهل القافة والمرضى وأهل البرص والجذام والمبتلين وقال كلوا من رزق الله ولكم الهناء ولغيركم البلاء فأكلوا منها وصدر عنها ألف وثلاثمائة رجل وامرأة من فقير وزمن ومريض ومبتلى كلهم شبعان يتجشأ ، ثم نظر عيسى إلى السمكة ، فاذا هي كهيتها حين نزلت من السماء ، ثم طارت المائدة صعدا وهم ينظرون اليها حتى توارت منهم فلم يأكل منها يومئذ مريض إلا برى ولا زمن إلا صح ولا مبتلى إلا عوفي ولا فقير إلا استغنى ولم يزل غنيا حتى مات ، وندم الحواريون ومن لم يأكل ، وكانت إذا نزلت اجتمعت الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء يزدحمون عليها ، فلبثت أربعين صباحا تنزل ضحى فلا تزال منصوبة

يؤكل منها حتى إذا فاء النوى طارت صعدا وهم ينظرون حتى تغيب عنهم ، وكانت تنزل غبا تنزل يوما ولا تنزل يوما كناية ثمود ، فأوحى الله إلى عيسى أن اجعل مائدتي ورزقي للفقراء دون الأغنياء ، فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا وشككوا الناس فيها ، فقالوا أترون المائدة تنزل من السماء حقا ، فقال لهم عيسى هلكنم فشمروا لعذاب الله فأوحى الله تعالى إلى عيسى إني شرطت على المكذبين شرطين أن من كفر بعد تزولها عذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ، فقال عيسى عليه السلام - إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإني أنت العزيز الحكيم - فمسح منهم ثلثمائة وثلاثون رجلا باتوا من ليلتهم على الفرش مع نسائهم في ديارهم ، فأصبحوا خنازير يسعون في الطرقات والكناسات ، ويأكلون القاذورات في الحشوش ، فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى بن مريم ، فبكوا وبكى على المسوخين أهلهم ، فلما أبصرت الخنازير عيسى بكت وجعلت تطوف به ، فجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم واحدا بعد واحد فيكون ويشيرون برءوسهم ولا يقدرين على الكلام ، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا .

ومنها ما روى أن عيسى عليه السلام مر على رجل جالس عند قبر وكان يكثر المرور به فيجده جالسا ، فقال يا عبد الله أراك تكثر الجلوس عند هذا القبر فقال ياروح الله هذه امرأة كان لي من جمالها وموافقها كيت وكيت ولي عندها وديعة ، قال أفتحب أن أدعو الله فيحييها لك ؟ قال نعم فتوضا عيسى وصلى ركعتين ودعا الله عز وجل فإذا أسود قد خرج من القبر كأنه جندع محترق ، فقال له من أنت ؟ فقال يارسل الله أنا رجل في عذاب منذ أربعين سنة ، فلما كنت في هذه الساعة قيل لي أجب فأجبت ، ثم قال يارسل الله قد مررت على من أليم العذاب ما إن ردني الله إلى الدنيا أعطيته عهدا أن لأعصيه أبدا ، فادع الله لي ، فرق له قلب عيسى عليه السلام ودعا الله عز وجل ، ثم قال له امض فمضى ، فقال صاحب القبر يارسل الله لقد غلطت بالقبر إنما قبرها هذا ، فدعا الله عيسى عليه السلام ، فخرجت من ذلك القبر امرأة شابة جميلة فقال له عيسى أتعرفها قال نعم هذه امرأتى ، فدعا الله عيسى حتى ردها عليه فأخذ الرجل بيدها حتى اتبها إلى شجرة ، فنام تحتها ووضع رأسه في حجرها ، فمر بها ابن الملك فنظرها ونظرت إليه وأعجب كل واحد منهما بصاحبه ، فأشار إليها فوضعت رأس زوجها عن حجرها واتبعت الفتى فاستيقظ زوجها فتنفقدها فلم يجدها ، فطلبها فدل عليها فتعلق بها وقال امرأتى ، فقال الفتى هي جاريتي ، فبينما هم كذلك إذ طلع عيسى عليه السلام ، فقال الرجل هذا عيسى ثم قص عليه القصة ، فقال لها عيسى ما تقولين ؟ قالت أنا جارية هذا ولا أعرف هذا ، فقال لها عيسى : ردى علينا ما أعطيناك قالت قد فعلت فسقطت مكانها ميتة ، فقال عيسى هل رأيتم أعجب من هذا الرجل أماته الله كافرا ثم بعثه فأمن ، وهل رأيتم امرأة أماتها الله مؤمنة ثم أحيها فكفرت .

ومنها رفعه إلى السماء إذ قال الله - يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الدين

كفروا - الآية - وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله - وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم - إلى قوله تعالى - بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكما - .

روى السكبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن عيسى عليه السلام استقبل رهطا من اليهود فلما رأوه قالوا قد جاء الساحر ابن الساحرة الفاعل ابن الفاعلة فخذفوه وأمه ، فلما رأى ذلك عيسى دعا عليهم فقال : اللهم أنت ربي وأنا من روحك خرجت وبكلمتك خلقت ولم آتهم من تلقاء نفسي اللهم العن من سبني وسب أمي فاستجاب الله دعاءه ومسح الذين سبوه وأمه خنازير ، فلما رأى ذلك رأس اليهود وأميرهم فزع لذلك وخاف دعوته ، فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى ، فاجتمعوا عليه ذات يوم وجعلوا يسألونه ، فقال يامعاشر اليهود إن الله ييغضكم فغضبوا من مقالته غضبا شديدا وثاروا عليه ليقتلوه ، فبعث الله تعالى إليه جبريل عليه السلام فأدخله خوخة وواراه في سقفها ورفع الله تعالى من روزته ، فأمر رأس اليهود رجلا من أصحابه يقال له فلطيانوس أن يدخل الخوخة فيقتله ، فلما دخل فلطيانوس لم ير عيسى ، فأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها ، فألقى الله عليه شبه عيسى ، فلما خرج ظنوا أنه عيسى فقتلوه وصلبوه . وقال وهب : ان عيسى لما أعلمه الله تعالى أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه ، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاما ، وقال احضروني الليلة فلي اليكم حاجة فلما اجتمعوا إليه من الليل غشاهم وقام بخدمتهم ، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوصيهم ويمسح أيديهم بثيابه فتعاضموا ذلك وتكارهوه ، فقال ألا من رد على شيئا مما أصنع فليس مني ولا أنا منه فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال لهم : أنا ماصنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي إلا ليكون لكم بي أسوة ، وانكم ترون أنني خيركم فلا يتعاضم بعضهم على بعض وليذلن بعضهم نفسه لبعض كما بذلت نفسي لكم ، أما الحاجة التي استعنتكم عليها فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي ، فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أرسل الله عليهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء ، فجعل يوقظهم ويقول . سبحان الله ماتصبرون في ليلة واحدة وتعينوني فيها ، فقالوا والله ما ندري مالنا لقد كنا نسهر فنكثر السهر وما نطبق الليلة سهرا وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه ، فقال يذهب الراعي وتبقى الغنم وجعل يأتي بكلام مثل هذا يعني نفسه ، ثم قال ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات ولييعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمنى فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه ، فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا هذا من أصحابه فجحد وقال ما أنا من أصحابه فتركوه ، ثم أخذ آخر فجحدته كذلك ، ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه ذلك ، فلما أصبح أتى أحد الحواريين أولئك اليهود فقال لهم ماتجعلون لي إن دلتكم عليه ؟ فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه ، وكان شبه لهم قبل ذلك فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون أنت كنت تحي الموتى وتبرئ الأكمه والأبرص أفلاتفك نفسك من

هذا الجبل ويصقون عليه ويلقون عليه الشوك ثم إنهم نصبوا له خشبة ليصلبوه عليها فلما أتوا به إلى الخشبة ليصلبوه أظلمت الأرض ، وأرسل الله الملائكة فجالوا بينهم وبين عيسى وألقى شبه عيسى على الذي دلهم عليه واسمه يهوذا فصلبوه مكانه وهم يظنون أنه عيسى وتوفي الله عيسى ثلاث ساعات ثم رفعه إلى السماء فذلك قوله تعالى - إني متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الدين كفروا - فلما صلب الذي هو شبه عيسى جاءت مريم أم عيسى وامرأة كان عيسى دعاها وأبرأها من الجنون يكيان عند المصاب فأتاهما عيسى وقال على من تبكيان ؟ فقالتا عليك ، فقال إن الله تعالى رفعني فلم يصبني إلا خير وإن هذا شخص شبه لهم .

وقال مقاتل : إن اليهود وكلوا بعيسى رجلا يكون عليه رقبيا يدور معه حيثما دار فصعد عيسى الجبل ، فجاءه الملك فرفعه إلى السماء وألقى الله تعالى شبه عيسى على الرقيب فظن اليهود أنه عيسى فأخذوه وكان يقول لهم إني لست بعيسى إني فلان بن فلان فلم يصدقوه وقتلوه وصلبوه . قال قتادة ذكر لنا أن نبي الله عيسى قال لأصحابه أيكم يقذف عليه شبهي فإنه مقتول ، فقال رجل من القوم أنا يانبي الله قتل ذلك الرجل ومنع الله عيسى ورفع له ، وقيل إن الذي شبه بعيسى وصلب مكانه رجل اسرائيلي يسمى أشيوع بن قيديرا والله أعلم .

ذكر نزول عيسى من السماء بعد رفعه بسبعة أيام

قال وهب وغيره من أهل الكتاب : لما رفع الله عيسى عليه السلام لبث في السماء سبعة أيام ثم قال الله له إن أعداءك اليهود أعجلوك عن العهد إلي أصحابك ، فانزل عليهم وأوصهم واهبط على مريم المجدلانية ، فإنه لم يبك عليك أحد بكاءها ولم يحزن عليك أحد حزنها فانزل عليها وأخبرها أنها أول من تلحق بك وأمرها أن تجمع لك الخواريين فتبثهم في الأرض دعاة إلى الله تعالى وكانت قصة مريم المجدلانية أنها كانت من بني اسرائيل في قرية من قرى أنطاكية يقال لها مجدلان ، وكانت امرأة سالحة وكانت تستحاض فلا تطهر ، فخطبها أشراف بني اسرائيل فامتنعت فظنوا أنها ترفعت بنفسها عنهم ولم يكن ذلك ترفعا وإنما أرادت إخفاء علتها عنهم ، فلما سمعت بمجيء عيسى عليه السلام وبما كان يشفي الله على يديه من المرضى الزمنى أقبلت إليه رجاء الشفاء ، فلما رأت عيسى وما ألبسه الله من الهيبة استحيت وانصرفت إلى ورائه ووضعت يدها على ظهره ، فقال عيسى لقد مسني ذو عاهة بنية حسنة ولقد أعطاه الله ما رجاء وطهره بطهارتي فأذهب الله عنها ما بها وبرأت وطهرت ، فلما أمر الله عيسى بالنزول عليها بعد سبعة أيام من رفعه هبط عليها فاشتعل الجبل حين هبط نورا فجمعت له الخواريين فبثهم في الأرض دعاة إلى الله ، ثم رفعه الله وكساه الریش وألبسه النور وقطع منه شهوة الطعام والمشرب ، فهو يطير مع الملائكة حول العرش فكان إنسيا ملكيا أرضيا سماويا وتفرق الخواريون حيث أمرهم ، فتلك الليلة

التي أهبط فيها هي الليلة التي تزخر فيها النصارى . قالوا فوجه بطرس إلى رومية وأندراوس ومتى إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس وتوما وليا إلى أرض الشرق وفيلبس ويهوذا إلى القيروان وأفريقية ويحيى إلى أفسوس قرية أصحاب الكهف واليعقوبيين إلى أورشليم وهي إيلياء أرض بيت المقدس وبرتولوماوس إلى الاعراية وهي أرض الحجاز وشمعون إلى أرض بربر ، فأصبح كل واحد من الحواريين الذين بعثهم يحدث بلغة من أرسله عيسى إليهم .

قال ابن اسحق : ثم عمد اليهود إلى بقية الحواريين أصحاب عيسى يشمسونهم ويعذبونهم ويطوفون بهم ، فسمع ذلك ملك الروم وكان صاحب وثن قليل له ان رجلا كان في هؤلاء الناس الذين تحت يدك من بني اسرائيل عدوا عليه قتلوه ، وكان يخبرهم أنه رسول الله وقد أحياهم للموتى وأبرأ لهم الأسقام ، وخلق لهم من الطين كهيئة الطير وتنفخ فيه فكان طائرا باذن الله ، وأخبرهم بالغيب وأراهم العجائب ، فقال ملك الروم فما منعكم أن تذكروا لي من أمره فوالله لو علمت لحليت بينه وبينهم ، ثم إنه بعث إلى الحواريين فأتزعهم من أيديهم ، فلما أتوه سألهم عن دين عيسى فأخبروه خبره ، فبايعهم على دينه واستنزل شبه عيسى والخشبة التي صلب عليها فأكرمها وصانها لما مسهامنه ، وغزا بني اسرائيل فقتل منهم خلقا كثيرا فمن هناك كانت أصل النصرانية في الروم .

وقال أهل التوراة : حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة ، وولدت عيسى بيت لحم من أرض أورشليم لمضى خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على بابل ولاحدى وخمسين سنة مضت من ملك الاسكانيين وأوحى الله إليه على رأس ثلاثين سنة ورفع من بيت المقدس إليه ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين والله أعلم .

ذكر وفاة مريم ابنة عمران عليهما السلام

قال وهب : لما أراد الله تعالى أن يرفع عيسى عليه السلام أخى بين الحواريين فأمر رجلين منهم يقال لأحدهما شمعون الصفار والآخر يحيى أن يلتزما أمه ولا يفارقاها ، فانطلقا ومعهما مريم إلى ماروت ملك الروم يدعونه إلى الله تعالى وقد بعث الله تعالى إليه قبل ذلك يونس عليه السلام فلما أتوه أمر بشمعون وأندراوس قتيلا وصلبا منكسين وهربت مريم ويحيى حتى إذا كانا في بعض الطريق لحقهما الطلب فخافا فانشقت لهما الأرض فغابا فيها وأقبل ماروت ملك الروم وأصحابه فحفروا ذلك الموضع فلم يجدوا شيئا فردوا التراب على حاله وعلموا أنه أمر من الله تعالى ، فسأل ملك الروم عن حال عيسى فأخبروه به فأسلم كما ذكرنا والله أعلم .

ذكر نزول عيسى عليه السلام من السماء في المرة الثانية في آخر الزمان

قال الله تعالى - وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها - الآية وقيل للحسين بن الفضل هل تجد نزول عيسى عليه السلام في القرآن ؟ قال نعم . قوله - وكهلا - وهو لم يكن بكهل في الدنيا وانما معناه وكهلا بعد نزوله من السماء

أخبرنا أبو صالح شعيب بن محمد البيهقي بإسناده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وإنى أولى الناس بعيسى بن مريم عليهما السلام لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ويوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا وانه نازل على أمتي وخليفتي عليهم ، فاذا رأيتموه فاعرفوه فانه رجل مربع الخلق الى الحمرة والبياض سبط الشعر كأن رأسه تقطر ولم يصبه بلل ينزل بين مخضرتين فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال ويهل من الروحاء حاجا أو معتمرا أو مليا بهما جميعا ويقاتل الناس على الاسلام حتى يهلك في زمانه الملل كلها غير الاسلام ، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال وتقع الأمانة في الأرض حتى ترتع الأسود مع الابل والنمور مع البقر والذئاب مع النعم وتلعب الصبيان بالحيات فلا يضر بعضهم بعضا ، ثم يلبث في الأرض أربعين سنة ويتزوج ويولد له ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه في المدينة بجانب عمر اقرءوا ان شئتم - وان من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا - أى قبل موت عيسى يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات .

وأخبرنا محمد بن القاسم الفارسي بإسناده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا أهبط الله المسيح عيسى يعيى في هذه الأمة ما يعيى ثم يموت في مدينتى هذه ويدفن إلى جانب قبر عمر فطوبى لأبى بكر وعمر يحشران بين نبين » .

وأخبرنى أبى قال حدثنى الحسين بن أحمد بن محمد بن على بإسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف يهلك الله أمة أنا فى أولها وعيسى فى آخرها والمهدى من أهل بيتى فى وسطها » .

باب فى قصة الرسل الثلاثة الذين بعثهم عيسى عليهم السلام الى أنطاكية

وذلك فى أيام ملوك الطوائف

قال الله تعالى - واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون - يعنى رسل عيسى عليه السلام - إذ أرسلنا اليهم اثنين - واختلفوا فى اسميهما فقال ابن اسحق فاروض وروماض وقال وهب يحيى ويونس ، وقال مقاتل يومان ومالوس ، وقال كعب صادق وصديق - فكذبوها

فعرزنا ثالث - أى ققوينا برسول ثالث وهو شمعون الصفار رأس الحواريين فى قول أكثر المفسرين ، وقال كعب اسمه شلوم ، وقال مقاتل سمعان .

قالت العلماء بأخبار الأنبياء : بعث عيسى عليه السلام رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية ، فلما قربا من المدينة أتيا شيخا يرعى غنمات له وهو حبيب النجار صاحب يس فسلما عليه فقال من أنتما ؟ قالا رسولا عيسى عليه السلام يدعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن . قال أمعكما آية ؟ قالا نعم نحن نبرئ المريض ونشفى الأكمه والأبرص بأذن الله ، فقال الشيخ انلى ابنا مريضا صاحب فراش منذ سنين ، قالا فانطلق بنا إلى منزلك فنطلع على حاله فأنى بهما إلى منزله ، فلما نظرا إلى ولد الشيخ وهو فى تلك الحالة قربا إليه ودعوا له ومسحاه يديهما ، فقام فى الوقت بأذن الله صحيحا نقشا الخبر فى المدينة ونشئ الله على يديهما كثيرا من المرضى وكان فى مدينة أنطاكية قرعون من الفراعنة يعبد الأصنام يقال له سلاحين .

وقال وهب : اسمه أبطيحيس وكان من ملوك الروم قالوا فأتته الخبر إلى الملك فدعاهما إليه وقال لهما من أنتما ؟ قالا رسولا عيسى . قال وما آيتكما ؟ قالا تبرئ الأكمه والأبرص ونشفى المرضى بأذن الله تعالى : قال وفيهم جثما ؟ قالا جثنا ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر ، قال الملك أولنا إله سوى آلهتنا . قالوا نعم . قال من ؟ قال من أوجدك بعد عدوك وآلهتك ، قال قوما حتى أنتظر فى أمركنا ، فجمعتهما الناس فأخذوهما وضربوهما فى السوق .

وقال وهب : بعث عيسى بهذين الرسولين إلى أنطاكية فأتياها فلم يهتلا إلى ملكها وطالت مدة مقامهما ، فخرج الملك ذات يوم فكبرا وذكر الله تعالى ، فغضب الملك فأمر بهما فحبسا وجلد كل واحد منهما مائة جلدة ، قالوا فلما كذب الرسولان وضربا بعث عيسى رأس الحواريين شمعون الصفار على أثرهما لينصرهما فدخل شمعون البلد متكررا فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه ورضى عشرته وأنس به وأكرمه ثم قال له ذات يوم أيها الملك انه بلغنى أنك حبست رجلين فى السجن وضربتتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل كلمتهما وسمعت قولهما ؟ فقال حال الغضب بينى وبين ذلك . قال فان رأى الملك دعاهما حتى نطلع على ما عندهما ، فدعاهما الملك فلما حضرا بين يديه ، قال لشمعون استخبرهما فقال شمعون لهم من أرسلكما إلى هنا ؟ قالا الذى خلق كل شئ فقال لهما شمعون فصفا وأوجزا فقالا انه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . قال شمعون وما آيتكما ؟ قالا ما تمناه نبرئ الأكمه والأبرص ونشفى المرضى والزمنى بأذن الله . قال فأمر الملك فجاء بعلام مطموس العينين موضع عينيه كالجبهة فمازالا يدعوان الله تعالى حتى انشق موضع البصر فأخذنا يندبتيين من الطين فوضعهما فى حذقيه فصارتا مقتلين يبصر بهما ، فعجب الملك فقال شمعون للملك ان أنت

سألت الهك حتى يصنع لك صنيعا مثل هذا فيكون لك الشرف ولإلهك ، فقال الملك ليس لي عنك سر اعلم أن إلهنا الذي نعبد لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، وكان شمعون إذا دخل الملك على الصنم يدخل لدخوله ويصلي كثيرا ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملتهم ، فقال الملك للرسولين ان إلهكما الذي تعبدانه يقدر على إحياء الميت ؟ قالا إلهنا يقدر على كل شيء . فقال الملك ان ههنا ميتا قد مات منذ سبعة أيام وهو ابن الدهقان وأنا آخرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه وكان أبوه غائبا ، فجاءوا بالميت وقد تغير وأروح فجعلوا يدعوان ربهما علانية وجعل شمعون يدعو سرا فقام الميت وقال لهم اني قدمت منذ سبعة أيام مشركا فأدخلت في سبعة أودية من النار وأنا أحذرکم ما أتم فيه فآمنوا بالله ، ثم قال ان أبواب السماء فتحت لي فرأيت شابا حسن الوجه يتشفع لهؤلاء الثلاثة ، فقال الملك ومن الثلاثة فقال شمعون وهذان وأشار إلى صاحبيه فتعجب الملك ، فلما علم شمعون أن قولهم قد أثر في الملك أخبر بالجمال ودعاه فآمن قوم وكان الملك عن آمن وكفر آخرون

وقال كعب ووهب : بل كفر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل ، فبلغ ذلك حبيب ابن مرى صاحب يس .

وقال ابن عباس ومقاتل : اسمه حبيب بن اسرائيل النجار ، قال وهب وكان سقيا قد أثر فيه بالحندام وكان منزله عند أقصى باب من أبواب مدينة أنطاكية وكان مؤمنا ذا صدقة يجمع كسبه إذا أمضى فيقسمه نصفين يطعم عياله نصفنا ويتصدق بالنصف الآخر ، فلما بلغه أن قومه قد قصدوا قتل الرسل جاءهم وكان قبل ذلك يكره إيمانهم ويعبد ربهم في غار ، فلما أتاه خبر الرسل أظهر دينه وذكر قومه ودعاهم إلى طاعة المرسلين كما أخبر الله تعالى في كتابه وذلك قوله تعالى — وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى — إلى قوله — مهتدون — فقال له قومه أو أنت مخالف لديننا ومتابع دين هؤلاء الرسل ومؤمن بالله ؟ فقال — وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون — إلى قوله — اني آمنت بربكم فاسمعون — فلما قال لهم ذلك وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن أحد يدفع عنه ، وقال عبد الله بن مسعود وطثوا بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره ، وقال السدي كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول اللهم اهد قومي حتى قطعوه وقتلوه .

وقال الحسن : خرقوا خرقا في حلقه وعلقوه في سور المدينة ودفنوه في سوق أنطاكية فأوجب الله له الجنة فذلك قوله تعالى — قيل ادخل الجنة — فلما أفضى إلى جنة الله وكرامته — قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين — قالوا فلما قتل حبيب غضب الله عليهم وعجل لهم النعمة وأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم فذلك قوله تعالى — وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين — على غيرهم من كفار بالأمم ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون — أي ميتون .

أخبرنا أبو بكر الخشاي بسنده عن ابن أبي ليلى عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين حزقل مؤمن آل فرعون وحبيب النجار مؤمن آل يس وعلى بن أبي طالب كرم الله وجهه وهو أفضلهم »

قصة يونس بن متى عليه السلام

قيل متى أمه ولم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه إلا عيسى بن مريم ويونس بن متى عليهما السلام وهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه « لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » قال الله تعالى - وذا النون إذ ذهب مغاضبا - الآيات ، قالت العلماء بأخبار القدماء : كان يونس رجلا صالحا يتعبد في جبل وكان في قرية من قرى الموصل يقال لها نينوى وكان قومه يعبدون الأصنام فبعث الله اليهم يونس بن متى عليه السلام بالنهي عن الكفر والأمر بالتوحيد ، وكان يونس عليه السلام رجلا صالحا لا يصبر على الناس فلحق بالجبل يعبد الله تعالى فيه وكان حسن القراءة يستمع إلى قراءته الوحش كما كان لداود في زمانه ، وكان يعتريه حدة ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون مثله لحفة وعجلة ظهرت منه ، قال الله تعالى - فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل - وقال تعالى - ولا تكن كصاحب الحوت - لأنه كان قليل الصبر على قومه والمذرة لهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يونس بن متى فيه عجلة وخفة فلما حمل أعباء النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربيع تحت الحمل الثقيل ولذلك السبب ذهب مغاضبا » . واختلف العلماء في صفة مغاضبته وسبب ذلك ووقته ، فقال قوم ذهب مغاضبا لقومه وهي رواية الضحاك والعمري عن ابن عباس قال : كان يونس بن متى وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسي منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف وكانوا اثني عشر سبطا فيهم النبوة والملك فأوحى الله تعالى إلى شعيا النبي أن سر إلى حزقيا الملك وقل له يوجه نبيا قويا أمينا فاني ألقى الخوف في قلوب أولئك الأسباط حتى يرسلوا معه بني إسرائيل ، فقال له الملك فمن ترى وكان في مملكته خمسة من الأنبياء ؟ فقال يونس فانه قوى أمين فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج فقال له يونس هل أمرك الله بأخراجي ؟ قال لا ، قال هل سماني لك قال لا فقال ههنا غيري أنبياء أقوىاء أمناء ، فألحوا عليه فخرج مغاضبا للنبي والملك ولقومه ، فأتى بحر الروم وكان من أمره ما كان . وقال الحسن البصري إنما غضب ربه من أجل أنه أمره بالمسير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه فسأل ربه أن ينظره ليتأهب للشخص اليهم ، فقال له الأمر أسرع من ذلك ولم ينظره حتى سأل أن ينظر إلى أن يأخذ نعله يلبسها فقبل له نحو القول الأول وكان رجلا في خلقه ضيق ، فقال أعجلني ربي أن آخذ نعلي فذهب مغاضبا ، وروى شهر بن حوشب عن ابن عباس قال : أتى جبريل يونس عليه السلام فقال له انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم ان لم يتوبوا . قال له ألمس دابة قال الأمر أعجل من ذلك فغضب وانطلق

إلى البحر فركب سفينة فكان من أمره ما كان فعلى هذه الأقوال كانت رسالة يونس بعد نجاته من بطن الحوت ، قال ابن عباس إنما كانت رسالة يونس بعد ان نبذته الحوت ودليل هذا القول أن الله تعالى ذكر قصة يونس في سورة الصافات ثم عقبها بقوله - وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون - وقال آخرون بل كانت قصة الحوت بعد دعاء قومه وتبليغه الرسالة وإنما ذهب عن قومه مغاضبا لربه إذ كشف عنهم العذاب بعد ما أوعدهم به وذلك أنه كره أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الكذب والخلف فيما أوعدهم ولم يعلم السبب الذي رفع به عنهم العذاب والهلاك فخرج مغاضبا قال والله لا أرجع اليهم كذابا أبدا أوعدتهم العذاب في يوم ولم يأتهم ، وفي بعض الأخبار أن قومه كان من عادتهم أن يقتلوا من جربوا عليه الكذب فلما لم يأتهم العذاب للبعاد الذي أوعدهم خشى أن يقتلوه فغضب ، وقال كيف أرجع الى قومي وقد أخلفتهم الوعد ولم أعلم سبب صرف العذاب عنهم لأنه قد كان خرج من بين أظهرهم لنزول العذاب . قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: بعث الله يونس بن متى الى قومه وهو ابن ثلاثين سنة ، فأقام فيهم يدعوهم الى الله تعالى ثلاثا وثلاثين سنة فلم يؤمن به الا رجلان أحدهما رويل وكان عالما حكما والآخر تنوخا وكان عابدا زاهدا . قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما : لما أيس من إيمان قومه دعا عليهم فقبل له ما أسرع مادعوت على قومك ارجع اليهم فادعهم أربعين ليلة أخرى فان أجابوك والا فاني مرسل عليهم العذاب فرجع ودعاهم سبعا وثلاثين ليلة فلم يجيئوه فقام خطيبا فيهم وقال إني عذركم العذاب الى ثلاثة أيام ان لم تؤمنوا ، ثم قال لهم ان آية ذلك أن تتغير ألوانكم فلما أصبحوا تغيرت ألوانهم ، فقالوا لبعضهم قد نزل بكم ما قال يونس وانا لم نجرب عليه كذبا فانظروا فان بات فيكم الليلة فآمنوا من العذاب وان لم يبت فيكم فاعلموا أن العذاب مصيحبكم ، فلما كان ليلة الأربعين ورأى يونس تغير ألوانهم علم أن العذاب نازل بهم فخرج من بين أظهرهم ، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب قال سعيد بن جبير كما يغشى التراب القبر اذا دخل فيه صاحبه ، وقال مقاتل كان العذاب فوق رؤوسهم قدر ميل ، وقال ابن عباس قدر ثلثي ميل ، وقال وهب أغيمت السماء غما أسود هائلا تدخن دخانا شديدا فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت أسطحهم ، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك والعذاب فطلبوا نبيهم يونس فلم يجدوه فقفذ الله في قلوبهم التوبة وألهمهم الرجوع اليه فخرجوا الى الصعيد بأنفسهم ونساءهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح ، وأظهروا الإيمان والتوبة لله وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب والأنعام فحن بعضها الى بعض ، وعلت أصواتهم واختلط حنينهم وعجوا وتضرعوا الى الله وقالوا آمنا بما جاء به يونس فرحمهم ربهم واستجاب دعوتهم وقبل توبتهم وكشف عنهم العذاب بعدما أظلمهم وذلك يوم عاشوراء . وقيل كان يوم الأربعاء للنصف من شوال . قال ابن مسعود وبلغ من توبة أهل نينوى أن ترادوا المظالم بينهم حتى ان الرجل ليأتي الى الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيقتلعه ويرده .

وروى صالح المرسي عن عمران الجوني عن أبي خاله قال : لما غشى قوم يونس العذاب مشوا الى شيخ من بقية علمائهم ، فقالوا له قد نزل بنا العذاب فما ترى ؟ قال قولوا يا حي حين لاحي يا حي حين يحي الموتى لا إله إلا أنت فقالوها فكشف الله عنهم العذاب وامتعوا الى حين كما قال تعالى - فلولا كانت قرية آمنت - أي فلم تكن قرية آمنت وضع التحضيض موضع النفي لأن فيه ضربا من الجحد - فنفعها إيمانها - في وقت اليأس عندما عاينة العذاب - إلا قوم يونس لما آمنوا - نفعتهم إيمانهم في ذلك الوقت لما علم الله من صدقهم - كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين - . قالوا وكان يونس قد خرج من بين أظهرهم وقام ينتظر العذاب والهلاك لقومه فلم ير شيئا وكان من كذب ولم يكن له بينه قتل . قال يونس كيف أرجع الى قومي وقد كذبتهم فانطلق معاتباً ربه مغاضباً قومه فأثى البحر . كما قال تعالى - وذالنون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه - أي أن لن نقضى عليه العقوبة تقول الغرب قدر الله الشيء يقدره تقديره وقدره يقدره قدرا وقد قري بهما جميعا في قوله تعالى - نحن قدرنا بينكم الموت - وقوله تعالى - والذي قدر فهدى - هذا قول أكثر المفسرين ، وقال عطاء معناه فظن أن لن تضيق عليه الحبس من قول الله تعالى - الله ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر - أي ويضيق وقوله تعالى - ومن قدر عليه رزقه - .

قال ابن زيد : هو استفهام معناه أفظن أن لن تقدر عليه ، وقال الحسن معناه فظن أن يعجز ربه فلا يقدر عليه . قال وبلغني أن يونس لما أصاب الذنب انطلق مغاضباً ربه فاستزله الشيطان حتى ظن أن لن تقدر عليه . وكان له سلف وعبادة فأبى الله أن يدعه للشيطان فلما أتى يونس البحر إذا قوم يركبون سفينة فحملوه بغراً جرة ، فلما دخلها احتجبت السفينة ووقفت والسفن تسير يمينا وشمالا فقال الملاحون ان فيها عبداً آبقاً من سيده وهذا رسم السفينة اذا كان فيها آبق لم تبحر فاقرعوا فوقعت القرعة على يونس فقال أنا الآبق فقالوا تلتقي في الماء ، فاقرعوا ثانيا وثالثا فخرجت القرعة على يونس فزج نفسه في الماء فذلك قوله تعالى - فساهم فكان من المدحضين - فلما وقع في الماء وكل الله به حوتا فابتلعه وأوحى الله تعالى إلى الحوت أني لم أجعله لك رزقا بل جعلناك له حرزا ومسكنا فخذ به ولا تكسر له عظما ولا تحددش له الحما وابتلع الحوت حوتا آخر فأهوى به الى مسكنه في البحر فالتقمه حوت آخر وانطلق به من ذلك المكان حتى مر به على الأبله ثم مر به على دجلة ، ثم انطلق به الى نينوى ويقال ان الله تعالى رقق له جلد الحوت حتى كان يرى جميع ما في البحر ، فلما انتهى به الى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال في نفسه ما هذا فأوحى الله تعالى اليه وهو في بطن الحوت ان هذا تسبيح دواب البحر فسبح وهو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه . فقالوا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا معروفا بأرض مجهولة ؟ قال ذلك عبدى يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر ، فقالوا العبد الصالح الذي كان يصعد لك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال نعم ، قال فشفعوا له عند ذلك وهو قوله - فننادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت - . قال ابن عباس ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت - سبحانه إني كنت من الظالمين - .

وروى سعيد بن المسيب عن سعد بن مالك . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اسم الله الذي اذا دعى به أجاب واذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى . فقلت يا رسول الله هي ليونس بن متى خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ فقال هي ليونس خاصة ولجماعة المسلمين عامة اذا دعوا بها ألم تسمع قوله تعالى - فنادى في الظلمات - الى قوله - وكذلك تنجي المؤمنين - » فلما دعا به يونس وشفعت له الملائكة أمر الله الحوت فقذفه الى ساحل نينوى كما قال الله تعالى - فنبذناه بالعماء - أى بوجه الأرض - وهو مستقيم - أى عليل ضعيف كالفرخ المعط .

واختلفوا فى مدة مكث يونس فى بطن الحوت ، فقال مقاتل ثلاثة أيام ، وقال عطاء سبعة أيام ، وقال الضحاك عشرين يوما ، وقال السدى والكلبي أربعين يوما ، فلما أخرجه الله من بطن الحوت أنبت له شجرة من يقطين وهو القرع فجعل يستظل بها ووكّل الله به وعلة تختلف اليه فيشرب منها لبنا فذلك قوله تعالى - وأنبتنا عليه - أى عنده - شجرة من يقطين - قالوا فيست الشجرة فيبكي عليها ، فأوحى الله اليه أتبكي على شجرة يبست ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن أهلكهم ، ثم ذهب يونس فاذا هو بسلام يرعى غنما ، فقال من أين أنت يا غلام ؟ قال أنا من قوم يونس ، فقال له إذا رجعت اليهم فقل لهم انك لقيت يونس ، فقال الغلام ان كنت يونس فأنت تعلم أنه ان لم يكن لى بينة قتلت فمن يشهد لى ؟ فقال يونس تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة وهذه الشاة ، وأشار الى شاة من غنمه ، فقال له الغلام فمرهم . قال لهم يونس إذا جاءكم هذا الغلام فاشهدوا له قالوا نعم ، فرجع الغلام الى قومه ، ثم قال للملك انى قد لقيت يونس وانه يقرأ عليكم السلام فأمر الملك بقتله ، وقال كذبت ، فقال ان لى بينة فأرسلوا معى أحدا يشهد فأرسلوا معه رجالا ، فأتى البقعة والشجرة والشاة ، وقال أنشيدكم بالله هل أشهدكم يونس ؟ قالوا نعم فرجع القوم مذعورين ، وقالوا للملك شهدت له الشجرة والأرض والشاة ، فأخذ الملك يذ الغلام وأجلسه فى مجلسه ، وقال أنت أحق بهذا المكان منى . قال فأقام لهم أمرهم ذلك الغلام أربعين سنة . ثم إنهم خرجوا يلتمسون يونس فوجدوه فقرحوا به وآمنوا به فأقام لهم أمرهم .

يروى أن يونس عليه السلام مضى من عندهم فترك قرية ليلا فأضافه رجل . وكان ذلك الرجل قد عمل كثيرا من الفخار . فأوحى الله اليه يا يونس مر صاحب هذا الفخار أن يكسر تلك الفخارات . فقال له يونس ذلك ، فلما سمع منه ذلك شتمه وقال شيء عملته يدي أعيش منه وأمتع بتمنه أنا وعيالى تأمرنى بكسره . فبكى يونس . فأوحى الله اليه هذا عمل فخارا من طين لم تطب نفسه بكسره وأنت طبت نفسها ووطنها على هلاك مائة ألف أو يزيدون من عبادى ففضى يونس وهبط واديا .

قال فلما شهدت الشجرة والأرض والشاة للغلام . وكانت الشاة التي كانت مع الغلام قالت لهم ان أردتم يونس فاهبطوا الوادي فهبطوا فاذا هم بيونس فانكبوا على رجليه يقبلونهما وسألوه أن يدخل معهم المدينة . فقال لا حاجة لي في مدينتكم فبكوا وألحوا عليه فاجابهم للدخول فأتى بعجلة من فضة وأجلس عليها فتمثل له جبريل عليه السلام عاضا على سبابته وهو ينادي هذا مجلس الجبارين فوثب يونس عن العجلة وجعل يمشي حتى دخل معهم المدينة فمكث مع أهله وولده أربعين ليلة ثم خرج سائحا وخرج الملك معه وصير الغلام الراعي ملكا لتلك المدينة كما ذكرنا فلم يزالا سائحين يعبدان الله تعالى حتى ماتا عليهما السلام . وكانت نبوة يونس في زمان ملوك الطوائف والله أعلم .

باب في قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى - أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا - اختلف العلماء في الرقيم . قال النعمان بن بشير الأنصاري . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الرقيم . قال « إن ثلاثة نفر خرجوا يرتادون لأهلهم فينهام يمشون إذ أصابتهم السماء فأووا الى الكهف فانحطت صخرة من الجبل عليهم فانطبقت على باب الكهف فأوصدته عليهم . فقال قائل منهم كل منكم يذكر أحسن عمل عمله فلعن الله يرحمنا ، فقال رجل منهم قد عملت مرة حسنة . كان لي أجراء يعملون عملا لي فاستأجرت كل رجل منهم بأجرة معاومة فجاء رجل منهم ذات يوم وسط النهار فاستأجرته بشطر أصحابه فعمل في بقية نهاره كعمل رجل منهم نهاره كله فرأيت على من الاكرام أن لا أنقصه شيئا مما استأجرت به أصحابه لما اجتهد في عمله ، فقال رجل منهم أعطني هذا مثل ما أعطيتني ولم يعمل إلا نصف النهار ؟ فقلت له : يا عبد الله لم أبغسك شيئا من شرطك إنما هو مالي أحكم فيه بما شئت . قال فغضب وذهب وترك أجرته فوضعت حقه في جانب من البيت ماشاء الله ، ثم مر بي بعد ذلك بقر فاشتريت به فنيته فبلغت ماشاء الله فمررت بي بعد ذلك شيخ ضعيف لأعرفه ، فقال لي إن لي عندك حقا ، فقلت له اذكره لي حتى أعرفه ، قال فذكره ، فقلت له إياك أبغى وهذا حقك وعرضتها عليه ، فقال يا عبد الله لا تسخر بي ان لم تصدق على فأعطني حقي ، فقلت والله ما أسخر ان هذا لحقك ومالي فيه شيء فدفعها اليه . اللهم ان كنت فعلت هذا لوجهك الكريم فافرج عنا فانصدع الجبل حتى أبصروا الضوء ، وقال الآخر قد عملت حسنة مرة كان لي فضل مال وأصاب الناس شدة فجاءتني امرأة تطلب مني معروفا . فقلت والله ما هو دون نفسك فأبت على وذهبت ثم إنها رجعت فذكرتني بالله فأبيت عليها وقلت والله ما هو دون نفسك فأبت على وذهبت وذكرت ذلك لزوجها فقال لها زوجها أعطيه نفسك وأغني عيالك فرجعت الى تنشدي بالله فأبيت عليها وقلت والله ما هو دون نفسك . فلما رأت ذلك أسلمت الى نفسها فلما كشفتها وهممت بها ارتعدت من

تحتى فقلت لها ما شأنك ؟ فقالت إني أخاف الله رب العالمين ، فقلت لها خفته في الشدة ولم أخفه في الرخاء فتركها وأعطيتها ما تحب بما كسفتها اللهم ان كنت فعلت هذا لوجهك الكريم فافرج عنا فانصدع الجبل حتى تعارفنا ، وقال الآخر قد عملت حسنة مرة كان لي أبوان كبيران ، وكان لي غنم فكنت أطعم أبوي وأسقيهما ثم أرجع إلى غنمي . قال فأصابني يومًا غيث فحبسني حتى أمسيت فأتيت أهلي وأخذت محابي فحلبت غنمي وتركتهما قائمة مكانها ومضيت إلى أبوي فوجدتهما قد ناما فشق عليّ أن أوقظهما وشق عليّ أن أترك غنمي فمابرحت جالسا ومحلي في يدي حتى أيقظتهما الصبح فسقيتهما . اللهم ان كنت فعلت ذلك لوجهك الكريم فافرج عنا ما نحن فيه . قال النعمان لكأنى أسمع من رسول الله ﷺ قال « كأن الجبل طبق ففرج الله عنهم فخرجوا » .

وقال ابن عباس : الرقيم واد بين غطفان وأيلة دون فلسطين وهو الوادي الذي فيه أصحاب الكهف . قال كعب هي قريتهم ، وقال سعيد بن جبير وغيره من أئمة الأخبار الرقيم لوح من حجارة وقيل من رصاص كتبوا فيه أسماء أهل الكهف وقصتهم ثم جعلوه في صندوق ووضعوه على باب الكهف . ثم ذكر الله خبر أصحاب الكهف فقال - إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة - . قال أهل التفسير وأصحاب التواريخ : كان أمر أصحاب الكهف في أيام ملوك الطوائف بن عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

وأما قصتهم ، فيقال لما ولي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة أتاه قوم من أحبار اليهود . فقالوا يا عمر : أنت وليّ الأمر بعد محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه وانا نريد أن نسألك عن خصال ان أخبرتنا بها علمنا أن الاسلام حق وأن محمدا كان نبيا وان لم نخبرنا علمنا أن الاسلام باطل وأن محمدا لم يكن نبيا . فقال عمر سلوا عما بداكم . قالوا أخبرنا عن أقفال السموات ماهي ، وعن مفاتيح السموات ماهي ، وأخبرنا عن قبر سار بصاحبه ماهو ، وأخبرنا عن أنذر قومه لاهو من الجن ولا هو من الانس ، وأخبرنا عن خمسة أشياء مشوا على وجه الأرض ولم يخلقوا في الأرحام ، وأخبرنا ما يقول الدراج في صياحه ، وما يقول الديك في صراخه ، وما يقول الفرس في صهيله ، وما يقول الضفدع في تقيقه ، وما يقول الحمار في نهيقه ، وما يقول القنبر في صفيره ؟ قال فنكس عمر رأسه في الأرض ثم قال . لا عيب بعمر إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم وأن يسأل عما لا يعلم ، فوثبت اليهود وقالوا تشهد أن محمدا لم يكن نبيا وأن الاسلام باطل ، فوثب سلمان الفارسي وقال لليهود قفوا قليلا . ثم توجه نحو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حتى دخل عليه . فقال يا أبا الحسن أغث الاسلام . فقال وما ذاك ؟ فأخبره الخبر ، فأقبل يرفل في بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نظر إليه عمر وثب قائما فاعتنقه وقال يا أبا الحسن أنت لكل معضلة وشدة تدعى فدعا على كرم الله وجهه اليهود فقال سلوا عما بدا لكم فان النبي صلى الله عليه وسلم علمني ألف باب من العلم فتشعب لي من كل باب ألف باب فسألوه عنها فقال على كرم الله وجهه : إن لي عليكم

شريطة إذا أخبرتكم كما في توراتكم دخلتم في ديننا وآمنتم . فقالوا نعم . فقال سلوا عن خصلة خصلة قالوا أخبرنا عن أقفال السموات ماهي ؟ قال أقفال السموات الشرك بالله لأن العبد والأمة إذا كانا مشركين لم يرتفع لهما عمل . قالوا فأخبرنا عن مفاتيح السموات ماهي ؟ قال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . قال فجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويقولون صدق الفتي . قالوا فأخبرنا عن قبرسار بصاحبه ؟ فقال ذلك الحوت الذي التقم يونس بن متى فسار به في البحار السبعة . فقالوا أخبرنا عمن أندر قومه لاهو من الجن ولا من الانس ؟ قال هي نملة سليمان بن داود قالت - يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون - قالوا فأخبرنا عن خمسة مشوا على الأرض ولم يخلقوا في الأرحام ؟ قال ذلكم آدم وحواء وناقصة صالح وكبش ابراهيم وعصا موسى ؟ . قالوا فأخبرنا ما يقول الدراج في صياحه ؟ قال يقول الرحمن على العرش استوى قالوا فأخبرنا ما يقول الديك في صراخه ؟ قال يقول اذكروا الله يا غافلون . قالوا أخبرنا ما يقول الفرس في سهيله ؟ قال يقول اذا مشى المؤمنون الى الكافرين للجهاد اللهم انصر عبادك المؤمنين على الكافرين . قالوا فأخبرنا ما يقول الحمار في نهيقه ؟ قال يقول . لعن الله العشار ، وثيق في أعين الشياطين ، قالوا فأخبرنا ما يقول الضفدع في تقيقه ؟ قال يقول سبحان ربي المعبود المسيح في لجج البحار ، قالوا فأخبرنا ما يقول القنبر في صفيره ؟ قال يقول اللهم العن مبغضى محمد وآل محمد وكان اليهود ثلاثة نفر قال اثنان منهم نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وثوب الخبر الثالث فقال : يا على لقد وقع في قلوب أصحابي ما وقع من الايمان والتصديق وقد بقى خلة واحدة أسألك عنها فقال سل عما بدالك ، فقال أخبرني عن قوم في أول الزمان ماتوا ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم أحياهم الله فما كان من قصتهم ؟ قال على رضى الله عنه يا يهودى هؤلاء أصحاب الكهف وقد أنزل الله على نبينا قرآنا فيه قصتهم وان شئت قرأت عليك قصتهم ، فقال ما أكثر ما قد سمعنا قراءتكم ان كنتم عالمنا فأخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم وأسماء مدينتهم واسم ملكهم واسم كلهم واسم جبلهم واسم كهفهم وقصتهم من أولها الى آخرها ، فاحتبى على كرم الله وجهه بيردة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا أخا العرب حدثني حبيبي محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان بأرض رومية مدينة يقال لها أفسوس ويقال هي طرسوس وكان اسمها في الجاهلية أفسوس فلما جاء الاسلام سموها طرسوس قال وكان لهم ملك صالح فمات ملكهم وانتشر أمرهم فسمع بهم ملك من ملوك فارس يقال له دقيانوس وكان جبارا كافرا فأقبل في عساكره حتى دخل أفسوس فاتخذها دار ملكه وبني فيها قصرا ، فوثب اليهودى وقال ان كنت عالما فصف لى ذلك القصر ومجالسه فقال يا أخا اليهود ابتنى فيها قصر من الرخام طوله فرسخ في عرض فرسخ واتخذ فيه أربعة آلاف أسطوانة من الذهب وألف قنديل من الذهب لها سلاسل من اللجين تسرج في كل ليلة بالأدهان الطيبة واتخذ لشرقي المجلس مائة وثمانين كوة ولعريه كذلك ، وكانت الشمس من حين تطلع الى

حين تعيب تدور في المجلس كيفما دارت واتخذ فيه سريرا من الذهب طوله ثمانون ذراعا في عرض أربعين ذراعا مرصعا بالجوهر ، ونصب على يمين السرير ثمانين كرسيًا من الذهب فأجلس عليها بطارقه واتخذ أيضا ثمانين كرسيًا من الذهب عن يساره فأجلس عليها هراقلته ، ثم جلس هو على السرير ووضع التاج على رأسه فوثب اليهودى وقال : يا على ان كنت عالما فأخبرنى مم كان تاجه فقال يا أخا اليهود كان تاجه من الذهب السبيك له تسعة أركان على كل ركن لؤلؤه تضيء كما يضيء المصباح في الليلة الظلماء واتخذ خمسين غلاما من أبناء البطارقة فمنطقهم بمناطق من الديباج الأحمر وسروهم بسر اويل القز الأخضر وتوجهم ودملجهم وخلقهم وأعطاهم عمد الذهب وأقامهم على رأسه ، واصطنع ستة غلمة من أولاد العلماء وجعلهم وزراءه فلما يقطع أمرا دونهم وأقام منهم ثلاثة عن يمينه وثلاثة عن يساره ، فوثب اليهودى وقال . يا على ان كنت صادقا فأخبرنى ما كانت أسماء الستة ؟ فقال على كرم الله وجهه : حدثنى جيبى محمد صلى الله عليه وسلم أن الذين كانوا عن يمينه أسماؤهم تملیخا ومكسلينا ومحسلمينا ، وأما الذين كانوا على يساره فمرطليوس وكشطوس وسادنيوس ، وكان يستشيرهم في جميع أموره ، وكان اذا جلس كل يوم في صحن داره واجتمع الناس عنده دخل من باب الدار ثلاث غلمة في يد أحدهم جام من الذهب مملوء من المسك وفي يد الثانى جام من فضة مملوء من ماء الورد وعلى يد الثالث طائر فيصيح به فيطير الطائر حتى يقع وفي جام ماء الورد فيتمرغ فيه فينشف مافيه بريشه وجناحيه ثم يصيح به الثانى فيطير فيقع في جام المسك فيتمرغ فيه فينشف مافيه بريشه وجناحيه ثم يصيح به الثالث فيطير فيقع على تاج الملك فينفض ريشه وجناحيه على رأس الملك بمافيه من المسك وماء الورد فمكث الملك في ملكه ثلاثين سنة من غير أن يصيبه سداغ ولا وجع ولا حمى ولا لعاب ولا بصاق ولا غطاء ، فلما رأى ذلك من نفسه عتا وطنى وتجر واستعصى وادعى الربوبية من دون الله تعالى ، ودعا اليه وجوه قومه فكل من أجابه أعطاه وحباه وكساه وخلع عليه ومن لم يحبه ويتابعه قتله ، فأجابوه بأجمعهم فأقاموا في ملكه زمانا يعبدونه من دون الله تعالى ، فبينما هو ذات يوم جالس في عيد له على سريرته والتاج على رأسه إذ أتى بعض بطارقه فأخبره أن عساكر الفرس قد غشيته يريدون قتاله فاغتم لذلك غما شديدا حتى سقط التاج عن رأسه وسقط هو عن سريرته ، فنظر أحد فتيته الثلاثة الذين كانوا عن يمينه الى ذلك وكان عاقلا يقال له تملیخا فتفكر وتذكر في نفسه وقال : لو كان دقيانوس هذا إلها كما يزعم لما حزن ولما كان يبول ويتغوط وليست هذه الأفعال من صفات الاله ، وكانت الفتية الستة يكونون كل يوم عند واحد منهم ، وكان ذلك اليوم نوبة تملیخا فاجتمعوا عنده فأكلوا وشربوا ولم يأكل تملیخا ولم يشرب ، فقالوا يا تملیخا مالك لا تأكل ولا تشرب ؟ فقال يا إخوتى وقع في قلبى شيء منعى عن الطعام والشراب والنم ، فقالوا وما هو يا تملیخا ؟ فقال أطلت فكرى في هذه السماء فقلت من رفعها سقفا محفوظا بلا علاقة من

فوقها ولا دعامة من تحتها ومن أجرى فيها شمسها وقرها ومن زينها بالنجوم ، ثم أطلت فكرى في هذه الأرض من سطحها على ظهر اليم الزاخر ومن حبسها وربطها بالجبال الرواسى لثلاثمئد ثم أطلت فكرى في نفسى ، فقلت من أخرجنى جنينا من بطن أمى ومن غذانى وربانى ان لهذا صانعا ومدبرا سوى دقيانوس الملك فانكبت الفتية على رجله يقبلونهما وقالوا يا تلميذا لقد وقع في قلوبنا ما وقع في قلبك فأشر علينا ، فقال يا إخوتى ما أجدلى ولكم حيلة الا الهرب من هذا الجبار الى ملك السموات والأرض ، فقالوا الراى مارأيت فوثب تلميذا فابتاع تمرا بثلاثة دراهم وصرها في ردائه وركبوا خيولهم وخرجوا فلما ساروا قدر ثلاثة أميال من المدينة قال لهم تلميذا يا اخوتاه قد ذهب عنا ملك الدنيا وزال عنا أمره فانزلوا عن خيولكم وامشوا على أرجلكم لعل الله يجعل لكم من أمركم فرجا ومخرجا فنزلوا عن خيولهم ومشوا على أرجلهم سبعة فراسخ حتى صارت أرجلهم تقطر دما لأنهم لم يعتادوا المشى على أقدامهم فاستقبلهم رجل راع ، فقالوا أيها الراعى أعندك شربة ماء أولين ؟ فقال عندى ما تحبون ولكنى أرى وجوهكم وجوه الملوك وما أظنكم إلا هرابا فأخبروني بقصتكم ، فقالوا يا هذا إنا دخلنا في دين لا يحل لنا الكذب أفينجينا الصدق ؟ قال نعم ، فأخبروه بقصتهم فانكب الراعى على أرجلهم يقبلها ويقول قد وقع في قلبى ما وقع في قلوبكم قفوا لى ههنا حتى أرد الأغنام الى أربابها وأعود اليكم فوققوا له فردها وأقبل يسعى فتبعه كلب له فوثب اليهودى قائما ، وقال يا على ان كنت عالما فأخبرنى ما كان لون الكلب واسمه ؟ فقال يا أخا اليهود حدثنى حبيبي محمد صلى الله عليه وسلم أن الكلب كان أبلق بسواد وكان اسمه قطمير .

قال الأستاذ : اختلف العلماء في لون كلب أصحاب الكهف ، فقال ابن عباس كان أتمر ، وقال مقاتل كان أصفر ، وقال محمد بن كعب كان من شدة حمرة وصفرتة يضرب الى الحمرة ، وقال الكلبي لونه كالثلج وقيل لون الهرة وقيل لون السماء واختلفوا في اسمه أيضا ، فروى عن على كرم الله وجهه أن اسمه ريان ، وقال ابن عباس كان اسمه قطميرى وهى احدى الروايات عن على ، وقال شعيب الجبائى كان اسمه حمرا وقال الأوزاعى تنوى . وقال مجاهد قنطوريا . وقال عبد الله بن سلام بسيط وقال كعب كان أصهب واسمه تنفى .

وأخبرنا ابن فتحويه بإسناده عن أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه أن اسم كلبهم كان قطمور وقيل قطفير ، أخبرنى أبو على الزهرى بإسناده عن ابن عباس فى قوله تعالى - ما يعلمهم إلا قليل - قال أنا من أولئك القليل هم مكسلينا وتلميذا ومر طليوس وبينوس وساونوس ودانوس وكشطوس وهو الراعى والكلب اسمه قطمير كلب أتمر فوق القلطي ودون الكركى . وقال محمد بن اسحق القلطي الكلب الصغير وقال ما بقى بنيسابور محدث إلا كتب عنى هذا الحديث وكتبه أبو عمرو الجببرى عنى .

رجعنا الى الحديث . قال : فلما نظر الفتية الى الكلب قال بعضهم لبعض انا نخاف أن يفضحنا هذا الكلب بنبيحه ، فألحوا عليه طردا بالحجارة . فلما نظر اليهم الكلب وقد ألحوا عليه بالحجارة والطرده أقعى على رجله وتمطى وقال بلسان طلق ذلق يا قوم لم تطردوني وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له دعوتى أحرسكم من عدوكم وأتقرب بذلك الى الله سبحانه وتعالى فتركوه ومضوا فصعد بهم الراعى جبلا وانحط بهم على كهف ، فوثب اليهودى وقال : يا على ما اسم ذلك الجبل وما اسم الكهف ؟ قال أمير المؤمنين يا أخا اليهود اسم الجبل ناجلوس واسم الكهف الوصيد وقيل خيرم . رجعنا إلى الحديث . قال واذا بفناء الكهف أشجار مشمرة وعين غزيرة فأكلوا من الثمار وشربوا من الماء وجنهم الليل فأووا إلى الكهف وربض الكلب على باب الكهف ومد يديه عليه وأمر الله ملك الموت بقبض أرواحهم ووكل الله تعالى بكل رجل منهم ملكين يقلبانه من ذات اليمين إلى ذات الشمال ومن ذات الشمال إلى ذات اليمين .

قال ابن عباس : كانوا يقلبون في السنة مرة ثلاثاً كل الأرض لحومهم ، ويقال ان يوم عاشوراء كان يوم تقلبهم . قال أبو هريرة : كان لهم في كل سنة تقلبتان

رجعنا الى الحديث . قال : وأوحى الله تعالى الى الشمس فكانت - تزاور عن كهفهم ذات اليمين - إذا طلعت - وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال - ، فلما رجع الملك دقيانوس من عيده سأل عن الفتية فقيل له إنهم اتخذوا إلها غيرك وخرجوا هارين منك فركب في ثمانين ألف فارس وجعل يقفو آثارهم حتى صعد الجبل وشارف الكف فنظر اليهم مضطجعين فظن أنهم نيام فقال لأصحابه لو أردت أن أعاقبهم بشئ ما عاقبتهم بأكثر مما عاقبوا به أنفسهم فأتوني بالبنائين فأتى بهم فرموا عليهم باب الكهف بالجبس والحجارة ، ثم قال لأصحابه قولوا لهم يقولوا لإلههم الذى فى السماء ان كانوا صادقين يخرجهم من هذا الموضع فكثوا ثلثمائة وتسع سنين فنفخ الله فيهم الروح وهموا من رقبتهم لما بزغت الشمس . فقال بعضهم لبعض لقد غفلنا هذه الليلة عن عبادة الله تعالى ، قوموا بنا الى العين فاذا بالعين قد غارت والأشجار قد جفت فقال بعضهم لبعض إنا من أمرنا هذا لنى عجب مثل هذه العين قد غارت فى ليلة واحدة ومثل هذه الأشجار قد جفت فى ليلة واحدة ، فأتى الله عليهم الجوع . فقالوا أيكم يذهب بورقكم هذه إلى المدينة فليأتنا بطعام منها ولينظر أن لا يكون من الطعام الذى يعجن بشحم الخنازير وذلك قوله تعالى - فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما - أى أحل وأجود وأطيب ، فقال لهم تلميذا يا إخوتى لا يأتىكم أحد بالطعام غيرى ولكن أيها الراعى ادفع إلى ثيابك وخذ ثيابى فلبس ثياب الراعى ومر وكان يمر بمواضع لا يعرفها وطريق ينسكرها حتى أتى باب المدينة فاذا عليه علم أخضر مكتوب عليه لا إله إلا الله عيسى روح الله صلى الله على نبينا وعليه وسلم فطفق الفتى ينظر اليه ويمسح عينيه ويقول أرانى نائما به فلما طال عليه ذلك دخل

المدينة فر بأقوام يقرءون الانجيل واستقبله أقوام لا يعرفهم حتى انتهى إلى السوق فاذا هو بنحاز فقال له ياخباز ما اسم مدينتكم هذه ؟ قال أفسوس . قال وما اسم ملككم ؟ قال عبد الرحمن قال تملixa ان كنت صادقا فان امرى عجيب ادفع إلى بهذه الدراهم طعاما وكانت دراهم ذلك الزمان الأول ثقالا كبارا ، فعجب الخباز من تلك الدراهم ، فوثب اليهودى وقال يا على ان كنت عالما فأخبرنى كم كان وزن الدرهم منها ؟ فقال يا أخا اليهود أخبرنى حبيبى محمد صلى الله عليه وسلم أن وزن كل درهم منها عشرة دراهم وثلاثا درهم ، فقال له الخباز يا هذا انك قد أصبت كنزا فأعطنى بعضه والا ذهبت بك إلى الملك فقال تملixa ما أصبت كنزا وإنما هذا من ثمن تمر بعته بثلاثة دراهم منذ ثلاثة أيام وقد خرجت من هذه المدينة وهم يعبدون دقيانوس الملك ، فغضب الخباز وقال ألا ترضى ان أصبت كنزا أن تعطينى بعضه حتى تذكر رجلا جبارا كان يدعى الربوية قد مات منذ ثلثمائة سنة وتسخربنى ثم أمسكه واجتمع الناس ، ثم انهم أتوا به إلى الملك وكان عاقلا عادلا فقال لهم ما قصة هذا الفتى ؟ قالوا أصاب كنزا ، فقال له الملك لا تخف فان نبينا عيسى عليه السلام أمرنا أن لا نأخذ من الكنوز إلا خمسها فادفع إلى خمس هذا الكنز وامض سالما ، فقال أيها الملك تثبت فى امرى ما أصبت كنزا وإنما أنا من أهل هذه المدينة ، فقال له أنت من أهلها ؟ قال نعم . قال أفتعرف فيها أحدا ؟ قال نعم . قال فبسم لنا فسمى له نحوا من رجل فلم يعرفوا منهم رجلا واحدا ، قالوا يا هذا ما نعرف هذه الأسماء وليست هى من أسماء أهل زماننا ولكن هل لك فى هذه المدينة دار ؟ فقال نعم أيها الملك فابعث معى أحدا فبعث معه الملك جماعة حتى أتى بهم دارا أرفع دار فى المدينة وقال هذه دارى ، ثم قرع الباب فخرج لهم شيخ كبير قد استرخى حاجباه من الكبر طى عينيه وهو فزع مرعوب مذعور فقال أيها الناس ما بالكم ؟ فقال له رسول الملك ان هذا الغلام يزعم أن هذه الدار داره فغضب الشيخ والتفت إلى تملixa وتبينه وقال له ما اسمك قال تملixa بن فلسطين فقال الشيخ أعد على فأعاد عليه فانكب الشيخ على يديه ورجليه يقبلهما وقال هذا جدى ورب الكعبة وهو أحد الفتيه الذين هربوا من دقيانوس الملك الجبار إلى جبار السموات والأرض ولقد كان عيسى عليه السلام أخبرنا بقصتهم وأنهم مسيحيون ، فأنهى ذلك إلى الملك فركب الملك وآتى اليهم وحضرهم ، فلما رأى الملك تملixa نزل عن فرسه وحمل تملixa على عاتقه فجعل الناس يقبلون يديه ورجليه ويقولون له يا تملixa ما فعل بأصحابك فأخبرهم أنهم فى الكهف ، وكانت المدينة قد وليها رجلان ملك مسلم وملك نصرانى فركبا فى أصحابهما وأخذنا تملixa ، فلما صاروا قريبا من الكهف قال لهم تملixa يا قوم انى أخاف أن اخوتى يحسون بوقع حوافر الحيل والدواب وصلصلة اللجم والسلاح فيظنون أن دقيانوس قد غشهم فيموتون جميعا فقفوا قليلا حتى أدخل اليهم فأخبرهم ، فوقف الناس ودخل عليهم تملixa فوثب إليه الفتية واعتقوه وقالوا الحمد لله الذى نجاك من دقيانوس ، فقال دعوتى

منكم ومن دقيانوس - كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم - قال بل لبثتم ثلثمائة وتسع سنين وقد مات دقيانوس وانقرض قرن بعد قرن وآمن أهل المدينة بالله العظيم وقد جاءوكم فقالوا له يا علي خاتريد أن تصيرنا فتنة للعالمين قال فماذا تريدون ؟ قالوا ارفع يديك وترفع أيدينا فرفعوا أيديهم وقالوا اللهم بحق ما أريتنا من العجائب في أنفسنا الا قبضت أرواحنا ولم يطلع علينا أحد فأمر الله ملك الموت فقبض أرواحهم وطمس الله باب الكهف ، وأقبل الملكان يطوفان حول الكهف سبعة أيام فلا يجدان له بابا ولا منفذا ولا مسلكا فأيقنا حينئذ بلطيف صنع الله الكريم وأن أحوالهم كانت عبرة أراهم الله إياها ، فقال المسلم على ديني ماتوا أنا أبني على باب الكهف مسجدا . وقال النصراني بل ماتوا على ديني فأنا أبني على باب الكهف ديرا ، فاقتتل الملكان فغلب المسلم النصراني ، فبنى على باب الكهف مسجدا فذلك قوله تعالى - قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا - وذلك يا يهودي ما كان من قصتهم ، ثم قال على كرم الله وجهه لليهودي سألتك بالله يا يهودي أوافق هذا مافي توراتكم ، فقال اليهودي مازدت حرقا ولا نقصت حرقا يا أبا الحسن لا تسمنى يهوديا فاني أشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأنت أعلم هذه الأمة .

وقال عبيد بن عمير : كان أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوى ذوائب وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا في عيد لهم عظيم في زى وموكب وأخرجوا معهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله فغذف الله في قلوبهم الايمان وكان أحدهم وزير الملك فآمنوا وأخفى كل واحد منهم الايمان عن صاحبه فقالوا في أنفسهم من غير أن يظهر بعضهم لبعض نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لئلا يصيبنا عقاب يجرمهم ، فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده فرجا أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر ذلك فجلس إليه ثم خرج الآخرون فجاءوا فجلسوا اليهم واجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض ما جمعكم وكل واحد يكتُم عن صاحبه ايمانه مخافة على نفسه ، ثم قالوا لبعضهم ليخرج كل فتين منكم فيخلوا ثم ليفش كل واحد منكم أمره إلى صاحبه ، فخرج فتیان منهم فتوافقا ثم تكلما فذكر كل واحد منهما أمره لصاحبه ، فأقبلا وهما مستبشران إلى أصحابهما فقالا قد اتفقنا على أمر واحد وإذا هم جميعا على الايمان ، وإذا كهف في الجبل قريب منهم فقال بعضهم لبعض - فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرققا - فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيدهم ، فناموا ثلثمائة سنة وتسع سنين قال وقدمهم قومهم فطلبوهم فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم ، فلما لم يقدرُوا عليهم كتبوا أسماءهم وأنسابهم وكتبوا في لوح فلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم في يوم كذا في شهر كذا من سنة كذا في مملكة فلان بن فلان ووضعوا اللوح في خزانة الملك وقالوا ليكونن لهذا شأن ومات ذلك الملك وجاء قرن بعد قرن .

وأخبرنا الحسن بن الحسين الثقفي بإسناده عن أبي جعفر الباقر قال : كان أصحاب الكهف صيارفة . وقال وهب بن منبه : جاء حوارى من أصحاب عيسى عليه السلام إلى مدينة أصحاب الكهف فأراد أن يدخلها فقبل له أن على بابها صنما لا يدخلها أحد الا سجد له ، فكره أن يدخلها فأتى إلى حمام قريب من تلك المدينة وأجر نفسه من الحمى وكان يعمل فيه ، فرأى صاحب الحمام فى حمامه البركة ودر عليه الرزق ، فجعل يقوم عليه وتعلق به فتية من أهل المدينة فجعل ينحبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدقوه ، وكانوا على مثل حاله فى حسن الهيئة وكان يشرط على صاحب الحمام أن الليل لى لا يحول بينى وبينه أحد فيصلى ، فكان على ذلك الحال حتى أتى ابن الملك الحمام بامرأة فدخل بها الحمام فغيره بها الحوارى وقال له أنت ابن الملك وتدخل مع هذه فاستحيا ابن الملك وذهب ثم رجع مرة أخرى فقال له مثل ذلك فسه واتهره ولم يلتفت اليه ثم انهما دخلا معا فماتا جميعا فى الحمام ، فأتى الملك وقيل له قتل صاحب الحمام ابنك فالتمس فلم يقدر عليه فقال من كان بصحبته فسموا الفتية فالتمسوا فخرجوا من المدينة فمروا بصاحب لهم فى زرع وهو على مثل إيمانهم فذكروا أنهم التمسوا فانطلق معهم ومعه كلبه حتى آواهم الليل إلى الكهف فدخلوا وقالوا نبئت ههنا الليلة ثم نصب ان شاء الله تعالى فترون رأيكم فضرب الله على آذانهم ، فخرج الملك فى أصحابه يطلبونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف وكان كلما أراد الرجل منهم أن يدخل الكهف أرعب فلم يطق أحد أن يدخله ، فقال قائل أليس لو كنت قدرت عليهم قتلهم قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف واتركهم فيه يموتوا ؟ عطشا وجوعا ففعل ذلك . قال هب فتركهم بعد ماسدوا عليهم باب الكهف ومضى زمان بعد زمان ، ثم إن راعيا أدركه المطر عند باب الكهف فقال لو فتحت باب هذا الكهف فأدخلت فيه غنمى من المطر فلم يزل يعالجه حتى فتح الباب ورد الله اليهم أرواحهم من الغد حين أصبحوا . وقال محمد بن اسحق : مرج أهل الانجيل وعظمت فيهم الخطايا وطفئت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكون بعبادة الله تعالى وتوحيده فكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس كان عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه فى ذلك ممن أقام على دين المسيح ، وكان ينزل قرى الروم فلا يترك فى قرية نزلها أحدا يدين دين المسيح الا قتله حتى نزل مدينة أصحاب الكهف وهى أفسوس ، فلما نزلها كبر ذلك على أهل الايمان فاستخفوا منه وهربوا فى كل ناحية ، وكان دقيانوس قد أمر حين دخلها أن يتتبع أهل الايمان فيجمعوا اليه واتخذ شرطا من كفار أهلها وجعلوا يتتبعون أهل الايمان فى أما كنهم فيخرجونهم إلى دقيانوس فيقدمهم إلى الجامع الذى يذبح فيه للطواغيت فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان والتذبح للطواغيت ، فمن القوم من يرغب فى الحياة ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله سبحانه وتعالى فيقتل . فلما رأى ذلك أهل الشدة

في الايمان بالله جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ثم يقطعون ويربط ماقطع من أجسامهم على سور المدينة من نواحيها كلها وعلى كل باب من أبوابها حتى عظمت الفتنة على أهل الايمان فمنهم من أقر فترك ومنهم من صلب على دينه وقتل ، فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا وصلوا واشتغلوا بالتسبيح والتقديس والدعاء وكانوا من أشرف الروم وكانوا ثمانية نفر فبكوا وتضرعوا وجعلوا يقولون - ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا - ربنا اكشف عن عبادك المؤمنين الفتنة وارفع عنهم هذا البلاء وأنعم على عبادك الذين آمنوا بك ، فينبأهم على ذلك اذ أدركهم الشرط وكانوا قد دخلوا في مصلى لهم فوجدوهم سجدوا على وجوههم يكون ويتضرعون إلى الله تعالى ويسألونه أن ينجيهم من دقيانوس وفتنته فلما رآهم أولئك الكفرة قالوا لهم ماخلفكم عن أمر الملك انطلقوا اليه ثم خرجوا من عندهم ورفعوا أمرهم إلى دقيانوس فقالوا نجمع الجميع وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يسخرون منك ويعصونك ، فلما سمع ذلك أتى بهم تفيض أعينهم من الدمع مغفرة وجوهم في التراب فقال مامنكم أن تشهدوا الذبح للآلهة التي نعبد في الأرض وأن تجعلوا أنفسكم كغيركم ، ثم انهم خيروا إما أن يذبحوا لآلهتهم كما ذبح غيرهم من الناس واما أن يقتلهم الملك فقال مكسلمينا وكان أكبرهم ان لنا إلها ملاء السموات والأرض عظمة لن ندعو من دونه إلها أبدا ولن نقر بهذا الذي ندعو اليه أبدا ولكننا نعبد ربنا الذي له التحميد والتكبير والتسبيح والتقديس من أنفسنا خالصا أبدا اياه نعبد وایاه نسأل النجاة والخير واما الطواغيت فلن نعبد أبدا فاصنع بنا ما بدالك ثم قال أصحاب مكسلمينا لدقيانوس مثل ما قال له قالوا فلما قالوا له ذلك أمر بهم فنزع ملبوسا كان عليهم من ملبوس عظماء ثم قال لهم انكم إذا فعلتم ما فعلتم فاني سأؤخركم وأتفرغ لكم فأنجز لكم ما أوعدتكم من العقوبة وما ينبغي أن أعجل لكم ذلك لأنني أراكم شبابا حديثة أسنانكم فلا أحب أن أهلكم حتى أجعل لكم أجلا فتراجعوا فيه عقولكم ، ثم أمر بحلية كانت معهم من ذهب وفضة فنزعت عنهم ، ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده وانطلق دقيانوس إلى مدينة سوى مدينتهم التي هم بها قرية منهم لبعض أمورهم ، فلما رأى الفتية أن دقيانوس قد خرج من مدينتهم بادروا قدومه وخافوا إذا قدم مدينتهم أن يذكروهم قائموا أن يأخذ كل رجل منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقي ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة في جبل يقال له باجلوس فيسكنون فيه ويعبدون الله تعالى حتى إذا قدم دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما يشاء ، فلما قال ذلك بعضهم لبعض عمد كل قتي منهم إلى بيت أبيه وأخذ نفقة فتصدقوا منها وأنطلقوا بما بقي معهم من نفقتهم واتبعهم كلب كان لأحدهم حتى أتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه . وقال ابن عباس هربوا ليلا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب على دينهم ، وقال كعب مروا بكلب فتبعهم فطرده فنبح عليهم ففعلوا ذلك مرارا ،

فقال لهم الكلب ماتريدون منى لاتنحشوا جانبي فاني أحب أحباب الله فناموا حتى أحرسكم .

رجعنا إلى حديث ابن اسحق : فلبثوا في ذلك الكهف ليس لهم عمل الا الصلاة والصيام والتسبيح وجعلوا نفقتهم إلى قتي منهم يقال له تملیخا فكان يبتاع لهم من المدينة طعامهم سرا وكان من أجلدهم وأجلهم ، فكان تملیخا يصنع ذلك فاذا دخل المدينة يضع ثيابا كانت عليه حسانا وياخذ ثيابا كثياب المساكن الذين يستطعمون فيها ؛ ثم يأخذ درهما فينطلق إلى المدينة فيشتري طعاما وشرابا ويتسمع ويتجسس لهم الخبر هل يذكرونهم بشيء ، ثم يرجع إلى أصحابه فلبثوا كذلك مالبثوا ، ثم قدم دقيانوس المدينة فأمر العطاء فذبخوا للطواغيت ، ففرع من ذلك أهل الايمان ، وكان تملیخا بالمدينة يشتري طعاما فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام ، فأخبرهم أن دقيانوس دخل المدينة وأنهم قد ذكروا والتمسوا مع عطاء المدينة ليدبخوا للطواغيت ، فلما أخبرهم بذلك فزعوا ووقعوا سجدا يدعون الله تعالى ويتضرعون اليه ويتعوذون به من الفتنة ، ثم ان تملیخا قال لهم . يا اخوتاه ارفعوا رؤوسكم فاطعموا منه وتوكلوا على ربكم فرفعوا رؤوسهم وأعينهم تفيض من الدمع حزنا على أنفسهم فطعموا منه وذلك عند غروب الشمس ، ثم جلسوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضا ، فبيناهم كذلك إذ ضرب الله على آذانهم في الكهف وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد بباب الكهف فأصابه ما أصابهم ، فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم ، فقال لبعض قومه لقد ساءنى شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد كانوا يحسبون أنى غضبان عليهم بجهلهم ما جهلوا من أمرى ، فاني لا أغضب عليهم إن تابوا وعبدوا آلهتى ، فقال عطاء المدينة ما أنت بحقيق أن ترحم قوما مردة عصاة مقيمين على ظلمهم ومعصيتهم قد كنت أجلت لهم أجلا ولو شاءوا لرجعوا في ذلك الأجل ولكنهم لم يتوبوا ، فلما قالوا له ذلك غضب غضبا شديدا ثم أرسل إلى آبائهم فسألهم عنهم وقال أخبروني عن أبناءكم المردة الذين عصوني ، فقالوا له أما نحن فلم نعصك ولم تقتلنا بقوم مردة وانهم خالفونا وانطلقوا إلى جبل يسمى ناجلوس فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم وجعل لا يدرى ما يصنع بالفتية : فألقى الله في نفسه ان يأمر بالكهف فيسد عليهم ، وأراد الله تعالى أن يكرمهم ويجعلهم آية لأمة تستخلف بعدهم وأن يبين لهم - أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور - فأمر دقيانوس بالكهف أن يسد عليهم ، وقال دعوهم كما هم فى الكهف يموتون جوعا وعطشا ، وليكن كهفهم الذى اختاروه قبرا لهم وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد بباب الكهف وقد غشيه ما غشيهم يقلبون ذات اليمين وذات الشمال . قال ثم إن رجلين مؤمنين كانا فى بيت الملك دقيانوس يكتمان ايمانهما اسم أحدهما تندروس والآخر روباس ائتمرا أن يكتبا شأن الفتية وأنسابهم وأسماءهم وخبرهم فى لوح من رصاص ويجعلاه فى تابوت من نحاس ويجعلاه التابوت فى البنيان ، وقالوا لعل الله أن يطلع على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل

يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ هذا اللوح ، ففعلا ذلك وبنيا عليه فبقى دقيانوس ما بقى ومات قومه ومات قرون بعده كثيرة ، وخلفت الملوك بعد الملوك ، ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له تندوسيس ، فلما ملك بقى في ملكه ثمانية وثمانين سنة فتحزب الناس في ملكه أحزابا منهم من يؤمن بالله العظيم ويعلم أن الساعة حق ، ومنهم من يكذب بها ، فكبر ذلك على الملك الصالح ، فشكا إلى الله وتضرع إليه وحزن حزنا شديدا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ، وانهم يقولون لا حياة الا الحياة الدنيا وانما تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد ، وأما الجسد فيأكله التراب ونسوا ما في الكتاب ، فجعل الملك تندوسيس يرسل إلى من كان يظن فيه خيرا ، وانهم كانوا أئمة في الحق فجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا أن يحولوا الناس عن الحق وملة الحواريين ، فلما رأى الملك الصالح ذلك دخل بيته فأغلقه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا ، فدأب ليله ونهاره يتضرع إلى الله تعالى ويكيى مما يرى فيه الناس ويقول أى رب قد ترى اختلاف هؤلاء ؟ فابعث لهم آية ثم إن الرحمن الرحيم جلّ وعزّ الذى يكره اختلاف العباد أراد أن يظهر لهم الفتية أصحاب الكهف ، ويبين للناس شأنهم فيجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأنه يستجيب لعبده الصالح تندوسيس وأنه يتم نعمته عليه ولا ينزع منه ملكه ولا الايمان الذين أعطاه ، وأن لا يعبد الا الله ولا يشرك به شيئا ، وأن يجمع من كان تبدّد من المؤمنين ، فألقى الله في نفس رجل من أهل ذلك البلد الذى به الكهف وكان اسم ذلك الرجل أولياس أن يهدم ذلك البنيان الذى على فم الكهف ، فيبنى به حظيرة لغنمه فاستأجر عاملين ، فجعلوا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى نزعا ما على فم الكهف وفتحوا عليهم باب الكهف وحجبتهم الله عن الناس ، فيزعمون أن أشجع من يريد أن ينظر اليهم يدخل من باب الكهف ثم يتقدم حتى يرى كلهم نائما . فلما نزعوا الحجارة وفتح باب الكهف أذن الله تعالى ذو القدرة والعظمة والسلطان محي الموتى للفتية أن يجلسوا بين ظهرائى الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم . فسلم بعضهم على بعض حتى كانوا استيقظوا من ساعتهم التى كانوا يستيقظون منها إذا أصبحوا من ليلتهم التى يبيتون بها . ثم انهم قاموا الى الصلاة فصلاوا كالذى كانوا يفعلون لا يرون في وجوههم ولا أبشارهم ولا ألوانهم شيئا ينكرونه إنهم كهيئتهم حين رقدوا يرون أن ملكهم دقيانوس فى طلبهم . فلما قضا صلاتهم قالوا تملّخا صاحب نفقاتهم : بين لنا ما الذى قال الناس فى شأننا عشية أمس عند هذا الجبار وهم يظنون انهم رقدوا ك بعض ما كانوا يرقدون وقد خيل لهم أنهم قد ناموا كأطول ما كانوا ينامون فى الليلة التى أصبحوا بها حتى تساءلوا بينهم ، فقال بعضهم لبعض - كم لبثتم قالوا لشنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم - وكلّ ذلك فى أنفسهم يسير ، فقال لهم تملّخا التمسّم فى المدينة لتذبحوا للطواغيت أو تقتلوا قالوا فما شاء الله بعد ذلك فعل ، فقال مكسلمينا يا اخوتاه اعلّموا أنكم ملاقو

الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم غدا ، ثم قالوا يا تلميذا انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال عنا بها اليوم وتلطف ولا تشعرن بك أحدا وابتع لنا طعاما واثنتا به . وزدنا على الطعام الذي جئتنا به أمس فانه كان قليلا وقد أصبحنا جوعا . ففعل تلميذا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها . ثم أخذ ورقا من تفقهم التي كانت معهم التي ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع . فانطلق تلميذا خارجا . فلما مر باب الكهف رأى حجارة منزوعة عن باب الكهف فتعجب منها . ثم مر حتى أتى باب المدينة مستخفيا بعيدا عن الطريق تخوفا أن يراه أحد من أهلها فيعرفه فيذهب به إلى دقيانوس الجبار . ولا يشعر العبد الصالح أن دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلاثمائة سنة . فلما رأى تلميذا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة لأهل الايمان فلما رآها عجب وجعل ينظر اليها مستخفيا فنظر يميننا وشمالا . ثم انه ترك ذلك الباب وتحول إلى باب آخر من ابوابها فنظر فرأى مثل ذلك فجعل يتخيل له أن المدينة ليست بالتي كان يعرف ورأى ناسا كثيرين محدثين لم يكونوا قبل ذلك فجعل يمشى ويتعجب ويخيل اليه أنه حيران ثم إنه رجع إلى الباب الذي أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول : ليت شعري أما هذه عشية أمس كان المسلمون يخفون هذه العلامة ويستخفون بها ، وأما اليوم فانها ظاهرة لعلي حالم ثم يرى أنه لم يمت فأخذ كساءه وجعله على رأسه ، ثم دخل المدينة فجعل يمشى بين أظهر أهل سوقها وهو يسمع ناسا يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاده فرقا ورأى أنه حيران فقام مسندا ظهره إلى جدران المدينة وهو يقول في نفسه : والله ما أدري ما هذا أما عشية أمس فليس على الأرض أحد يذكر عيسى الا قتل ؟ وأما الغداة فأسمع كل انسان يذكر عيسى ولا يخشى ثم قال في نفسه لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرفها فاني أسمع كلام أهلها ولا أعرف واحدا منهم والله ما أعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالخيران لا يتوجه وجهها ، ثم انه لقي فتى من أهل المدينة فقال له ما اسم هذه المدينة يا فتى ؟ فقال افسوس فقال في نفسه لعل بي مسا أو أمرا أذهب عقلي والله يحق لي أن أبادر الخروج منها قبل أن يصيبني شر فأهلك هذا ما يحدث به تلميذا أصحابه حتى يبين لهم ما هم فيه . ثم أفاق وقال والله لو عجلت الخروج من المدينة قبل أن يظن بي لكان أكيس لي فدنا من الدين يبيعون الطعام . ثم أخرج الورق التي كانت معه فأعطاهم رجلا منهم وقال يا عبد الله بعني بهذه طعاما فأخذها الرجل ونظر إلى ضرب الورق ونقشها فتعجب منها ثم طرحها إلى رجل من أصحابه فنظر اليها ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل فيتعجبون منها ، ثم جعلوا يتشاورون ويقول بعضهم لبعض : ان هذا الرجل قد أصاب كنزا في الأرض منذ زمان طويل ، فلما رأهم يتشاورون من أجله فرق فرقا شديدا فجعل يرتعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه وأنهم انما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس . قال وجعل أناس آخرون يأتونه ويتعرفونه ، فقال لهم وهو شديد الفرق انفصلوا قد أخذتم ورقي فأمسكتموها فلا حاجة لي في طعامكم ، فقالوا يا فتى

من أنت وما شأنك ؟ والله لقد وجدت كنزا من كنوز الأولين فأنت تريد أن تخفيه منا انطلق معنا وأرنا مكانه وشاركنا فيه يخف عليك ما وجدت فانك إن لم تفعل نأت السلطان ونسلمك اليه فلما سمع قولهم عجب في نفسه ثم قال قد وقعت في كل شيء كنت أحذر منه ثم قالوا والله يافتي انك لاتستطيع أن تكتم ما وجدت ولا تظن في نفسك أن سنخفي عليك فتحير في نفسه وليس يدرى مايقول لهم وما يرجع اليهم وفرق حتى ما يخبرهم بشيء ، فلما رأوه لايتكلم أخذوا كساءه وطوقوه في عنقه ثم جعلوا يقودونه في سكك المدينة مكبلا حتى جمع به من فيها وقيل أخذ رجل عنده كنز ، فاجتمع عليه أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم وجعلوا ينظرون اليه ويقولون : والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناه فيها قط وما نعرفه فجعل تملیخا ما يدرى مايقول لهم مع ما يسمع منهم . فلما اجتمع عليه أهل المدينة فرق ولم يتكلم ولو قال إنه من أهل المدينة لم يصدق وكان مستيقنا أن أباه واخوته في المدينة وأن حسبه في أهل المدينة من عظماء أهلها وأنهم سيأتونه إذا سمعوا وقد استيقن أنه في عشية أمس كان يعرف كثيرا من أهلها وأنه لايعرف اليوم من أهلها أحدا فبينما هو قائم كالخيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصه من أيديهم . فبينما هو كذلك إذ قد اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيسي المدينة ومديريها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما أرموس واسم الآخر اسطيوس ، فلما انطلقوا به ظن تملیخا أنهم انطلقوا به إلى دقيانوس الملك ، فجعل يلتفت يمينا وشمالا وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون والخيران فجعل تملیخا يبكي ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إله السموات والأرض أفرغ عليّ اليوم صبرا وأولج معي روحا منك تؤيدني به عند هذا الجبار وجعل يبكي ويقول في نفسه : فرق بيني وبين اخوتي ياليتهم يعلمون ما لقيت فيأتوني فنقوم جميعا بين يدي هذا الجبار فانا كنا قد توافقنا لنكونن معالانكفر بالله ولا نفرق في موت ولا في حياة أبدا ياليت شعري ما هو فاعل بي هل هو قاتلي أم لا ؟ هذا ما حدث به تملیخا أصحابه عن نفسه حين رجع اليهم فاتهم به إلى الرجلين الصالحين أرموس واسطيوس فلما علم تملیخا أنه لم يذهب إلى دقيانوس أفاق وسكن ما به فأخذ أرموس واسطيوس الورق ونظرا إليها وعجبا منها ، ثم قال أحدهما أين الكنز الذي وجدت يافتي ، فقال ما وجدت كنزا وإنما هذه الورق ورق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ما أدرى ما شأني وما أدرى ما أقول لكم فقال أحدهما من أنت ؟ فقال له تملیخا قال فمن أبوك ومن يعرفك بها ؟ فأنبأهم باسم أبيه فلم يجدوا أحدا يعرفه ، فقال له أحدهما أنت رجل كذاب لاتنبئنا بالحق فلم يدر تملیخا ما يقول غير أنه نكس بصره إلى الأرض ، فقال بعض من حضر هذا رجل مجنون ، وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحقق نفسه عمدا لكي ينفلت منكم ، فقام أحدهما ونظر إليه نظرا شديدا وقال له أظن أنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ولضرب هذه الورق ونقشها أكثر من ثلثمائة سنة وأنت غلام شاب تظن أن تأفكنا وتسخر بنا ونحن شمط كما ترى وحوالك سراة هذه المدينة

وولاة أمرها وخزائن هذه البلدة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار لأعذبك عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعرفنى هذا الكنز الذى وجدت . فلما قال له ذلك قال له تملينا : أنبثونى عن شيء أسألكم عنه فان فعلتم صدقكم عما عندى ، فقالوا سل لا نكتمك شيئا قال ما فعل بالملك دقيانوس ؟ قالوا ليس نعرف اليوم على وجه الأرض ملكا يسمى دقيانوس ولم يكن إلا ملك قد هلك منذ دهر طويل وهلك بعده قرون كثيرة ، فقال له تملينا فوالله ما أجد من الناس أحدا يصدقنى على ما أقول لقد كنا فتية وإن الملك دقيانوس أكرهنا على عبادة الأصنام والله ببح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فبتنا ، فلما اتهمنا خرجت لأشترى لأصحابى طعاما وأتجسس الأخبار فاذا أنا كما ترون فانطلقوا معى إلى الكهف الذى فى جبل ناجاوس أريكم أصحابى ، فلما سمع أرموس ما يقول تملينا قال : يا قوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها الله لكم عبرة على يد هذا الفتى فانطلقوا بنا معه يرينا أصحابه ، فانطلق معه أرموس واسطيوس وانطلق معهم أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكف لينظروا اليهم . وكان الفتية أصحاب الكهف ظنوا أن تملينا قد احتبس عنهم لأنه لم يأتهم بطعامهم وشرابهم فى القدر الذى كان يأتى فيه فظنوا أنه قد أخذ وذهب به إلى دقيانوس . فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفون إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل مصعدة عندهم فظنوا أنهم رسل الجبار وأنه بعث اليهم ليؤتى بهم ، فقاموا حين سمعوا ذلك إلى الفلاة وسلم بعضهم على بعض . ثم قالوا انطلقوا بنا نأت أخانا تملينا فإنه الآن بين يدي دقيانوس ينتظر متى نأتيه ، فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس بين ظهرا إلى الكهف لم يشعروا إلا وأرموس وأصحابه وقوف على باب الكهف وقد سبقهم تملينا فدخل عليهم وهو ييكى ، فلما رأوه ييكى بكوا معه ثم انهم سألوه عن شأنه فأخبرهم بخبره وقص عليهم الحديث كله فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نياما بأمر الله ذلك الزمان كله وإنما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث ولتعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ، ثم دخل على أثر تملينا أرموس فرأى تابوتا من نحاس محتوما بنحات من فضة ققام ياب الكهف ، ثم دعا رجلا من عظماء أهل المدينة ففتحوا التابوت فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبا فيهما إن مكسلميينا واملينا ومرطونس وكشطونس وداسيوس وتكريوس وبطيونس كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم فدخلوا هذا الكهف فلما علم مكانهم ملكهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلم من بعدهم ان عثر عليهم فلما قرءوه عجبوا وحمدوا الله تعالى الذى أراهم آية البعث فيهم ، ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسييحه ، ثم دخلوا على الفتية الكف فوجدوهم جلوسا مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر أرموس وأصحابه سجودا وحمدوا الله الذى أراهم آية من آياته ، ثم كلم بعضهم بعضا وأنبأهم الفتية عن الذى لقوا من ملكهم دقيانوس ، ثم أن أرموس وأصحابه بعثوا إلى ملكهم الصالح تندوسيس فاعجل لعلك تنظر آية من آيات الله تعالى قد أظهرها

الله في ملكك فاعجل الى فتية بعثهم الله وقد كان توفاهم منذ أكثر من ثلثمائة سنة ، فلما أتى الخبر قام من السدة التي كان عليها وقال : أحمدهم رب السموات والأرض تطولت على ورحمتي برحمتك فلم تطفيء النور الذي جعلته لآبائي وللعبد الصالح فسطيطوس الملك . فلما نبأ به أهل المدينة ركبوا اليه وساروا معه حتى أتوا الكهف . فلما رأى الفتية تندوسيس الملك ومن معه فرحوا به وخرجوا سجدا لله على وجوههم ، وقام تندوسيس قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبحون الله ويحمدونه . ثم إن الفتية قالت لتندوسيس نستودعك الله ونقرأ عليك السلام وحفظك الله وحفظ ملكك وأعاذك من شر الجن والانس ، فبينما الملك قائم إذ رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفي الله أرواحهم وقام الملك اليهم فجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل لكل رجل منهم تابوت من ذهب . فلما أمسوا أتوه في المنام فقالوا إننا لم نخلق من ذهب ولا من فضة ، ولكننا خلقنا من تراب والى التراب نصير فاتركنا كما كنا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله منه فأمر الملك حينئذ بتوايت من ساج فجعلوا فيها وحجبتهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد ان يدخل عليهم وأمر الملك فجعل على باب الكهف مسجدا يصلى فيه وجعل لهم عيداعظما وأمر أن يؤتى كل سنة . وقيل إنهم لما أتوا باب الكهف . قال تلميذا دعوني أدخل على أصحابي فأبشرهم فدخل وقبض الله روحه وأرواحهم وعمى عليهم مكانهم فلم يهتدوا اليه كما ذكر على بن أبي طالب كرم الله وجهه فهذا خبر أصحاب الكهف .

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل ربه ان يراهم . فقال إنك لن تراهم في دار الدنيا ولكن ابعث اليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم الى الإيمان بك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل كيف أبعثهم ؟ قال أبسط كساءك واجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الثاني عمر وعلى الثالث على بن أبي طالب كرم الله وجهه وعلى الرابع أبا ذر ثم ادع الريح الرضاء المسخرة لسلطان بن داود فان الله أمرها أن تطيعك ففعل النبي عليه الصلاة والسلام ما أمره به فحملتهم الريح (١) حتى انطلقت بهم الى باب الكهف ، فلما دنوا من باب الكهف قلعوا منه حجرا فقام الكلب حين أبصر الضوء وهرب وحمل عليهم ، فلما رآهم حرك رأسه ويصبع بذنبه وأومأ برأسه ان ادخلوا الكهف ، فدخلوا وقالوا السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد الله عليهم أرواحهم ، فقاموا بأجمعهم ، وقالوا عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فقالوا إن نبي الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليكم السلام ، فقالوا وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض ، وعليكم بما بلقتم ، ثم انهم جلسوا بأجمعهم

(١) قوله فحملتهم الريح الخ هذا معارض لقوله تعالى (رب هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من عبادي) فليتنبه .

يتحدثون فآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وقبلوا دين الاسلام وقالوا أقرئوا محمدا صلى الله عليه وسلم منا السلام ، ثم انهم أخذوا مضاجعهم وصاروا الى رقدتهم الى آخر الزمان عند خروج المهدي فيقال ان المهدي يسلم عليهم فيحييهم الله تعالى له ثم انهم يرجعون الى رقدتهم فلا يقومون الى يوم القيامة ، ثم جلس كل واحد منهم على مكانه وحملتهم الريح الرخاء ، فهبط جبريل عليه السلام فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما كان منهم ، فلما أتوا النبي ﷺ . قال كيف وجدتموهم ، وما الذي أجابوكم ؟ فقالوا يا رسول الله دخلنا عليهم وسلمنا عليهم فقاموا فردوا السلام بأجمعهم وبلغناهم رسالتك ، فأجابوا وأتابوا وشهدوا أنك رسول الله حقا وحمدوا الله على ما أكرمهم بخروجهم وتوجيه رسلك اليهم وهم يقرءون عليك السلام ، فقال عليه الصلاة والسلام اللهم لاتفرق بيني وبين أصحابي وأحبائي واغفر لمن أحبني وأحب أهل بيتي وأحب أمتي وأحب أصحابي .

مجلس في ذكر جرجيس عليه السلام

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الضبي بأسناده عن وهب بن منبه النخعي . قال كان في الموصل ملك يقال له زادانه ، وكان قد ملك الشام كلها ودان له أهلها ، وكان جنارا عاتيا وكان يعبد صنما يقال له أفلون ، وكان جرجيس عبدا صالحا من أهل فلسطين قد أدرك بقايا من حوارى عيسى بن مريم عليه السلام ، وكان تاجرا كثير المال عظيم الصدقة وكان لا يأمن ولاية المشركين عليه مخافة أن يفتنوه عن دينه فخرج يوما يريد ملك الموصل ومعه مال يريد أن يهديه اليه لئلا يجعل لأحد من تلك الملوك سلطانا عليه دونه فجاءه وقد برز في مجلس له وأمر بضمنه أفلون فنصب والناس يعرضون عليه وهو يعذب من خالفه بأنواع العذاب ، وقد أوقد نارا عظيمة فمن لم يسجد لأفلون ألقى في تلك النار ، فلما رأى جرجيس عليه السلام ما يصنع فزع منه وهاله وأعظمه وحدث نفسه بجهاده وألقى الله في نفسه بغضه ومجاهدته له فعمد الى المال الذي أراد أن يهديه له فقسمه في أهل ملته حتى لم يبق منه شيء وكره أن يجاهده بالمال وأحب أن يلي ذلك بنفسه فأقبل عليه ، وقال له اعلم أنك عبد مملوك لا تملك لنفسك شيئا ولا تغيرك وأن لك رباهو الذي يملكك وغيرك وهو الذي خلقك ورزقك ويحييك ويميتك ويضررك وينفعك ، وإذا قال شيء كن فيكون وأنت إنما عمدت الى خلق من خلقه أصم لا يسمع ولا يبصر ولا ينطق ولا يغني عنك شيئا من الله فزينته بالذهب والفضة وجعلته فتنة للناس ثم عبدته من دون الله ، فكان من جواب الملك له أن سألته عن حاله وأمره ومن هو ومن أين هو؟ فقال جرجيس أنا عبد الله وابن عبده وابن أمته أذل عباده وأفقرهم اليه من التراب خلقت واليه أصير ، فقال له الملك لو كان ربك الذي تزعم كما تقول لرؤى أثره عليك كما رؤى أثرى على من حولي ومن هو في طاعتي فأجابه جرجيس بتحميد الله وتعظيم أمره . ثم قال له أتعدل أفلون الأصم الأبكم الذي لا يغني عنك شيئا برب العالمين الذي

قامت السموات والأرض بأمره أم تعدل طوفيا وما نال بولايتك فانه عظيم قومك بما نال الياس من ولاية الله تعالى فان الياس كان في بدء أمره آدميا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فأكرمته الله تعالى حتى أنبت له الريش وكساه النور فصار إنسيا ملكيا سماويا أرضيا يطير مع الملائكة أم تعدل مخلص وما نال بولايتك فانه عظيم قومك بالمسيح بن مريم وما نال بولاية الله تعالى فان الله تعالى فضله على رجال العالمين وجعله وأمه آية للمعتبرين ، أم تعدل هذا الروح الطيبة التي اختارها الله بكلمته وفضلها على امائه وما نالت بولاية الله بأرييل وما نالت بولايتك فانها كانت من شيعتك وعلى ملتك فأسلمها الله مع عظيم ملكها حتى اقتحمت عليها الكلاب في بيتها فاتهشت لحمها وولغت في دمها وقطعت الضباع أوصالها ، فقال له الملك انك لتحدثنا بشيء ليس لنا به علم فائقنا بالرجلين اللذين ذكرتهما حتى أنظر اليهما فاني أنكر أن يكون هذا من أمر البشر فقال له جرجيس انما جاءك الانكار من قبل الغرة بالله تعالى ، وأما الرجلان فلن تراهما ولن يراك إلا أن تعمل بعملهما فتزل منازلهما ، فقال له الملك أما نحن فقد أعذرنا اليك وتبين لنا كذبك لأنك فخرت بأمور عجزت عنها ولم تأت بتصديقها ، ثم إن الملك خير جرجيس بين العذاب وبين السجود لأفلون ، فقال له جرجيس ان كان أفلون هو الذي رفع السماء ووضع الأرض فقد أصبت ونصحت لي وإلا فاحسنا أيها النجس الملعون ، فلما سمعها الملك غضب وشمته وسب إلهه وأمر بخشبة فنصبت له وجعل عليها أمشاط الحديد فخدش بها جسده حتى تقطع لحمه وجلده وعزوقه ونضح عليه في خلال ذلك بالخل والخردل فحفظه الله من ذلك الألم والهلاك ، فلما رأى الملك أن ذلك لم يقتله أمر بستة مسامير من حديد فأحميت حتى جعلت نارا فسمر بها رأسه حتى سال دماغه فحفظ من الألم والهلاك ، فلما رأى ذلك أنه لم يقتله أمر بحوض من نحاس فأوقد عليه حتى إذا جعله نارا أمر به فأدخل في جوفه وأطبق عليه فلم يزل فيه حتى برد حرقه . فلما رأى ذلك لم يقتله دعا به ، فقال له يا جرجيس أما تجد ألم هذا العذاب تعذب به ؟ فقال ان ربي الذي أخبرتك به حمل العذاب عني وصبرني لأحتج عليك ، فلما قال له ذلك أيقن بالشراء وخافه على نفسه وملكه وأجمع رأيه على أن يخلده في السجن ، فقال له الملك من قومه إنك إن تركته طليقا في السجن يكلم الناس أو شك أن يميل بهم عليك ولكن مر له بعذاب في السجن فيشغله عن كلام الناس فأمر به فبطح على وجهه ثم أوتده في يديه ورجليه أربعة أوتاد من حديد في كل ركن منها وتد وأمر بأسطوانة من رخام فوضعت على ظهره ، ثم انه حمل على تلك الاسطوانة ثمانية عشر رجلا فظل يومه ذلك موتدا تحت الحجر ، فلما أدركه الليل أرسل الله تعالى إليه ملكا وذلك أول ما أيده الله تعالى بالملائكة وأول ما جاءه الوحي فقلع عنه الحجر ونزع الأوتاد من يديه ورجليه وأطعمه وسقاه وبشره بالنصر ، فلما أصبح أخرجهم من السجن ثم قال له الحق بعبودك فجاهده في الله حق جهاده فان الله يقول لك اصبر وأبشر فاني قد ابتليتك بعدوى هذا شبع يمين يعذبك ويقتلك فيهن أربع مرات

وفي كل ذلك أردت إليك روحك فاذا كان في القتلة الرابعة ثقلت روحك وأوفيتك أجرك فلم يشعروا إلا وقد وقف جرجيس على رؤوسهم يدعوهم الى الله تعالى ، فقال له الملك يا جرجيس من أخرجك من السجن ؟ فقال أخرجني الذي سلطانه فوق سلطانك ، فلما قال له ذلك ملئ غيظا ودعا باصناف العذاب حتى لم يخل منها شيئا ، فلما رآها جرجيس أوجس في نفسه خيفة وجزعا ، ثم أقبل على نفسه يعاتبها بأعلى صوته وهم يسمعون ، فلما فرغ من عتابه . قال لهم الملك مدّوه بين خشبتين فمدّوه ، ثم انهم وضعوا سيفا على مفرق رأسه فنشروه حتى سقط من بين رجله وصار جزءين ، ثم عمدوا الى أجزائه فقطعوها قطعا ودعوا له سبعة أسود ضارية كانت له في جب وكانت صنفا من أصناف عذابه فرموا بجسده اليها ، فلما هوى نحوها أمرها الله عز وجل فخضعت برءوسها وأعناقها وقامت على برائتها تقيه الألم فظل يومه ذلك ميتا وكانت أول موة ماتها ، فلما أدركه الليل جمع الله له جسده الذي قطعوه وضم بعضه الى بعض حتى سواه ثم رد الله اليه روحه وأرسل الله له ملكا فأخرجه من قعر الجب فأطعمه وسقاه وبشره بالنصر ، فلما أصبحوا قال له الملك : يا جرجيس قال لييك ، قال له اعلم أن القدرة التي خلق الله بها آدم هي التي أخرجتك من قعر الجب اخرج فالحق بعدوك وجاهده في الله حق جهاده وموت الصابرين ، فلم يشعر الملك وأصحابه الآخرون إلا وقد أقبل جرجيس وهم عكوف على عيد لهم قد صنعوه فرحا بموت جرجيس ، فلما نظروا الى جرجيس مقبلا . قال الملك ما أشبه هذا الرجل بجرجيس ؟ فقالوا كأنه هو ، فقال الملك ليس هو حقا ألا ترون الى سكون ريحه وقلة هيئته ، فقال جرجيس بل هو أنا فبئس القوم أتم قتلتم ومثلتم فأحياني الله تعالى بقدرته فهلما الى الرب العظيم الذي أراكم ما أراكم . فلما قال لهم ذلك أقبل بعضهم الى بعض وقالوا ساحر سحر أعينكم فجمعوا له من كان ييلاد الملك من السحرة . فلما جاء السحرة قال الملك لكبيرهم اعرض على من كبير سحرك ما يسر عيني فقال ادع لي ثور من البقر . فلما أتى به نفث في إحدى أذنيه فانشقت باثنتين . ثم نفخ في الأذن الأخرى فاذا هو ثوران . ثم دعا يذر فحرث وبذر ونبت الزرع وحصد ثم داس ودري وطحن وعجن وخبز كل ذلك في ساعة واحدة وهم يرون . فقال له الملك هل تقدر أن تمسخ لي جرجيس دابة . فقال الساحر أي دابة تطلب أمسخه لك كلبا ؟ فقال الساحر ادع لي بقدر من ماء . فلما أتى بالقدح نفث فيه الساحر . ثم قال للملك اعزم عليه أن يشربه فشربه جرجيس حتى أتى على آخره . فلما فرغ منه . قال له الساحر ماذا تجد ؟ قال ما أجد إلا خيرا كنت قد عطشت فعطف الله لي بهذا الشراب وقواني به عليكم فلما قال ذلك أقبل الساحر على الملك وقال له اعلم أيها الملك أنك لو كنت تقايس رجلا مثلك اذا لكنت غلبته ولكنك تقايس جبار السموات والأرض وهو الملك الذي لا يرام . وقد كانت امرأة مسكينة من أهل الشام قد سمعت بجرجيس وما يصنع من الأعاجيب فأثته وهو في أشد ما فيه من البلاء . فقالت له يا جرجيس أنا امرأة مسكينة ولم يكن لي مال الا ثور ان كنت أحرث

عليهما فماتا فجئتك لترحمي وتدعو الله أن يحيي لي ثوري فلما سمع كلامها ذرفت عيناه ثم دعا الله أن يحيي لها ثوريها ثم إنه أعطاهما عصا وقال لها اذهبي إلى ثوريك فاقرعيهما بهذه العصا وقولي لهما احيا باذن الله تعالى فقالت له يا جرجيس ان ثوري قد ماتا منذ سبعة أيام ومزقتهما السباع وبينى وبينهما أيام فقال لها لو لم تجدى منهما إلا شيئاً يسيراً وقرعته بالعصا فانهما يقومان باذن الله تعالى فانطلقت المرأة حتى أتت مصرعهما وكان أول شيء بداهما من ثوريها ذقن أحدهما وشعر أذنى الآخر فجمعت أحدهما إلى الآخر وقرعتهما بالعصا وقالت كما أمرها فقام الثوران باذن الله تعالى وعملت عليهما حتى جاءهم الخبر بذلك ، فلما قال الساحر للملك ما قال قال رجل من أصحاب الملك وكان أعظمهم عند الملك إنكم قد وضعت أمر هذا الرجل على السحر وانكم قد عذبتموه فلم يصل اليه عذابكم وقتلتموه فلم يمت فهل رأيتم ساحراً يدرأ عن نفسه الموت أو أحياً ميتاً قط فقالوا له إن كلامك لكلام رجل قد صبا إليه فلعله استهواك إليه فقال آمنت بالله وأشهد أني برىء مما تعتقدون فقام إليه الملك وأصحابه بالخناجر فقتلوه فلما رأى القوم ذلك اتبع جرجيس أربعة آلاف آمنوا فعمد اليهم الملك فلم يزل يعذبهم بالأوان العذاب حتى أفناهم ، فلما فرغ منهم قال لجرجيس هلا دعوت ربك فأحيا لك أصحابك هؤلاء الذين قتلوا بجريرتك فقال جرجيس ما خلى بينى وبينهم حتى حانت آجالهم فقال له رجل من عظمائهم يقال له مخليطس إنك زعمت يا جرجيس أن إلهك هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وأنى سائلك أمراً إن فعلته آمنت بك وصدقتك وكفيتك ، نحن قوم حولنا أربعة عشر كرسيًا وهذه مائدة بيننا عليها أقداح وصحاف من أشجار شتى فادع ربك ينشئ هذه الكراسي والأواني كما بدأها أول مرة تعود خضراء فيعرف كل عود منها أنبوبة وورقه وزهره فقال له جرجيس : لقد سألت أمراً عزيزاً على وعليك وأنه على الله لهين فدعا الله عز وجل فما برحوا من مكانهم حتى اخضرت تلك الكراسي والأواني كلها وساخت عروقها وتلبست باللحم وتشعبت وأورقت وأزهرت وأثمرت فلما نظروا إلى ذلك اتدب لهم مخليطس الذي تمنى عليه ما تمنى فقال أنا أعذب لكم هذا الساحر عذاباً يبطل به كيده ، ثم انه عمداً إلى نحاس فصنع منه صورة ثور له جوف واسع ثم حشاها نقطا ورصاصاً وكبريتاً وزرنيخاً ثم أدخل جرجيس مع الحشوف جوفها ثم أوقد على الصورة حتى التهب وذاب كل شيء فيها واختلط جرجيس في جوفها ، فلما مات جرجيس أرسل الله ريحاً عاصفاً فملأت السماء سحباً أسود فيه رعد وبرق وصواعق وأرسل الله اعصاراً ملأت بلادهم عجاجاً وقتاماً حتى اسود ما بين السماء والأرض فمكثوا أياماً متحيرين في تلك الظلمة لا يفصلون بين الليل والنهار ، وأرسل الله ميكائيل فاحتمل الصورة التي فيها جرجيس حتى إذا أقلها ضرب بها الأرض ففزع من روعها أهل الشام فخرجوا الوجوههم صاعقين وانكسرت الصورة فخرج منها جرجيس حياً . فلما وقف يكلمهم انكشفت الظلمة وأسفر ما بين السماء والأرض ورجعت اليهم أنفسهم ، فقال له رجل يقال له طوفيليا لاندري يا جرجيس ان كنت أنت تصنع هذه الأعاجيب

أم ربك؟ فإن كان ربك هو الذي يصنع فادعه يحيى لنا موتانا التي في هذه القبور فإن فيها أمواتا منهم من نعرفه ومنهم من لا نعرفه . فقال له جرجيس لقد علمت أن ما يصفح الله عنكم هذا الصفح ويريك هذه الأعاجيب إلا لتكون عليكم حجة فتستوجبوا بها غضبه ، ثم إنه أمر بالقبور فنبشت وهي عظام رفات وأقبل جرجيس على الدعاء فما برحوا من مكانهم حتى نظروا إلى سبعة عشر إنسانا تسعة رجال وخمس نسوة وثلاثة صبية وإذا فيهم شيخ كبير فقال له جرجيس يا شيخ ما اسمك؟ فقال يا جرجيس اسمي تويل قال متى مت قال في زمان كذا وكذا فحسبوا فإذا هو قد مات منذ أربعمئة عام ، فلما نظر الملك وأصحابه إلى ما فعل قالوا ما بقي من أصناف العذاب شيء إلا وقد عذبتموه به إلا الجوع والعطش فعذبوه بهما فعمدوا إلى بيت عجوز كبيرة فقيرة كان لها ابن أعمى أصم أبكم مقعد فحسروه في بيتها وكانوا لا يوصلون له من عند أحد طعاما ولا شرابا ، فلما بلغ به الجوع قال للعجوز هل عندك من طعام أو شراب؟ فقالت لا والذي يحلف به ما عهدنا الطعام منذ كذا وكذا وسأخرج ألتبس لك شيئا فقال لها جرجيس هل تعرفين الله تعالى قالت نعم؟ قال إياه تعبدين قالت لا فدعاها إلى الله فصدقته ، ثم أنها انطلقت تطلب لها شيئا وكان في بيتها دعامة من خشب يابسة تحمل خشب البيت فأقبل على الدعاء فاخضرت تلك الدعامة وأنبئت له كل فاكهة تؤكل أو تعرف حتى كان مما أنبت اللويا واللياز وهو مثل البردى يكون بالشام ، وظهر للدعامة فرع من فوق البيت اظله من فوقه ، فأقبلت العجوز وهو فيها شاء يأكل رغدا . فلما رأت الذي حدث في بيتها من بعدها ، قالت آمنت بالذي اطعمك في بيت الجوع فادع هذا الرب العظيم أن يشفي ابني فقال لها أدنيه مني فأدنته فبصق في عينيه فأبصر ونفت في أذنيه فسمع ، فقالت له أطلق لسانه ورجليه رحمك الله ، فقال لها أخريه فأر له يوما عظيما ، وكان الملك قد خرج يوما يسير في مدينته إذ وقع بصره على الشجرة فقال انى أرى شجرة بمكان ما كنت أعرفها به . فقالوا له ان تلك الشجرة نبتت لذلك الساحر الذي أردت أن تعذبه بالجوع فهو فيها يشاء يأكل وقد شبع منها وأشبع العجوز الكبيرة الفقيرة وشفي لها ابنها فأمر الملك بالبيت فهدم وبالشجرة أن تقطع . فلما هموا بقطعها أيسس الله الشجرة وردها كما كانت أول مرة فتركوها ، وأمر بجرجيس فبطح على وجهه وأوتد له أربعة أوتاد وأمر بعجل فأوقر اسطوانا وجعل في أسفل العجل خناجر وشفارا . ثم أمر بأربعين ثورا فنهضت بالعجل نهضة واحدة وجرجيس تحتها فاتقطع ثلاث قطع فأمر بقطعة أن تحرق فألتهيت في النار حتى عادت رمادا فبعث بذلك الرماد وبعث معه رجالا فذروه في البحر فما برحوا عن مكانهم حتى سمعوا صوتا من السماء : يا بحر ان الله يأمرك أن تحفظ ما فيك من هذا الجسد الطيب فاني أريد أن أعيده كما كان ، ثم أرسل الله الرياح فأخرجته من البحر ثم جمعته حتى صار الرماد صبرة واحدة كهيئته قبل أن يذرى فخرج منه جرجيس مغبرا ينفذ رأسه فرجعوا ورجع جرجيس وأخبروا الملك خبر الصوت الذي سمعوه والريح الذي جمعته ، فقال له الملك يا جرجيس هل لك فيما هو خير لى ولك مما نحن فيه ولولا أن يقول

الناس انك غلبتني وقهرتني لاتبعتك وآمنت بك ولكن اسجد لأفلون سجدة واحدة واذبح له شاة واحدة ثم انى أفعل لك مايسرك ، فقال له نعم مهما شئت فعلت فادخلني على صنمك ففرح الملك بقوله وقام اليه وقبل يديه ورجليه ورأسه وقال له أعزم عليك أن تظل هذا اليوم ولا تبيت هذه الليلة إلا في بيتي وعلى فراشي وفي كرامتي حتى تستريح ويذهب عنك وصب العذاب ويرى الناس كرامتك على فأخلى له بيته فظل فيه جرجيس حتى إذا أدركه الليل قام يصلي ويقرأ الزبور وكان أحسن الناس صوتا . فلما سمعته امرأة الملك استجابت له فلم يشعر إلا وهي خلفه تبكي فدعاها جرجيس الى الايمان فأمنت به وأمرها فسكرت إيمانها ، فلما أن أصبح الصبح غدا به إلى بيت الأصنام ليسجد لها فلما سمعت العجوز بذلك خرجت تحمل ابنها على عاتقها توبخ جرجيس والناس مشتغلون عنها ، فلما دخل جرجيس بيت الأصنام ودخل الناس معه نظروا واذا بالعجوز وابنها على عاتقها أقرب الناس اليه مقاما ، فلما رآها جرجيس دعا ابن العجوز باسمه فنطق وأجابه ولم يكن يتكلم قبل ذلك قط ثم اقتحم عن عاتق أمه يمشي على رجله ولم يكن يطاء الأرض قبل ذلك بقدميه قط ، فلما وقف بين يدي جرجيس قال له اذهب فادع لي هذه الأصنام وهي يومئذ سبعون صنما على منابر من ذهب وهم يعبدونها ويعبدون معها الشمس والقمر ، فقال له الغلام كيف أدعو الأصنام فقال له قل لها ان جرجيس يسألك ويعزم عليك بالذي خلقك إلا ما أجبته فلما قال لها الغلام ذلك أقبلت تدحرج إلى جرجيس فلما انتهت اليه ركض الأرض برجله فخسف بها وبمنابرها وخرج ابليس لعنه الله من جوف صنم منها هاربا فرقا من الحسف . فلما مر بجرجيس أخذ بناصيته فخضع له وكله جرجيس ، فقال له جرجيس أخبرني أيها الروح النجسة والخلق الملعون ما الذي يملكك على أن تهلك نفسك وتهلك الناس معك وأنت تعلم أنك وجندك تصيرون إلى جهنم ، فقال له ابليس لعنه الله لو خيرت بين ما أشرقت عليه الشمس وبين ما أظلم عليه الليل وبين هلكة واحد من بني آدم وضلالته لاخترت هلكته على ذلك كله وإنه ليقع لي من الشهوة واللذة في ذلك مثل جميع ما يتلذذ به جميع الخلق ، ألم تعلم يا جرجيس أن الله تعالى أسجد لأبيك آدم جميع الملائكة فسجدوا له كلهم وامتنعت من السجود وقلت أنا خير منه . قال فلما قال هذا خلى سبيله جرجيس فما دخل ابليس من يومئذ جوف صنم ولا يدخله بعدها فيما يذكر أبا . فقال الملك يا جرجيس غررتني وخدعتني وأهلك آلتي . فقال جرجيس انما فعلت ذلك لتعتبر ولتعلم أنها لو كانت آلهة لامتنت مني فكيف تفكك ويملك بآلهة لم تمنع نفسها مني وانما أنا مخلوق ضعيف لا أملك إلا ما ملكني ربي ، فلما قال هذا جرجيس أقبلت امرأة الملك وكلتهم وكشفت لهم عن إيمانها وعددت لهم أفعال جرجيس والعبر التي أراهم الله تعالى إياها وقالت لهم ما تنتظرون من هذا الرجل إلا دعوة فيخسف بكم الأرض كما خسف بأصنامكم ، الله الله أيها القوم في أنفسكم . فقال لها الملك ويحك يا اسكندرة ما أسرع ما أضلك هذا الساحر في ليلة واحدة وأنا أقاسيه منذ سبع سنين فلم يظفر مني بشيء فقالت له أما رأيت الله كيف يظفره بك ويسلطه

عليك فيكون له الفلاح والحجة عليك في كل موطن . فلما سمع كلامها أمر بها الملك عند ذلك فحملت على خشبة جرجيس التي كان علق عليها وجعلت عليها الأمشاط التي جعلت على جرجيس . فلما آلمها قالت ادع ربك يا جرجيس فيخفف عني فاني قد آلمني العذاب . فقال لها انظري فوقك فلما نظرت ضحكت . فقال لها الملك ما الذي يضحكك ؟ . قالت أرى ملكين فوقى معهما تاج من حلى الجنة ينتظران به خروج روحى . فلما خرجت روحها زينها بذلك التاج ، ثم صعدا بها إلى الجنة ، فلما قبض الله روحها أقبل جرجيس على الدعاء وقال : اللهم أنت أكرمتنى بهذا البلاء لتعطينى منازل الشهداء فهذا آخر أيامى الذى كنت وعدتني فيه الراحة من بلاء الدنيا . اللهم إني أسألك أن لاتقبض روحى ولا أزول من مكانى هذا حتى تنزل بهؤلاء التكبريين من سطواتك وتقمطك مالا قبل لهم به حتى تشفى به صدرى وتقر به عيني فانهم ظلموني وعذبوني فيك . اللهم وأسألك أن لا يدعوا بعدى داع فى بلاء وكرب فيذكرونى وينشدك باسمى إلا فرجت عنه ورحمته وأجبتة وشفعتنى فيه . فلما فرغ من هذا الدعاء أمطر الله عليهم نارا فلما رأوا ذلك عمدوا اليه فضربوه بالسيوف غيظا من شدة الحريق ليعطيه الله بالقتلة الرابعة ما وعده ، ثم احترقت المدينة بجميع ما فيها وصارت رمادا فحملها الله من وجه الأرض وجعل عاليها سافلها فكثت زمانا من الدهر يخرج من تحتها نار ودخان منتن لا يشمه أحد إلا سقم سقما شديدا ، وكان جميع من آمن بجرجيس وقتل معه أربعة وثلاثين ألفا وامرأة الملك . قال الأستاذ وكانت قصة جرجيس فى أيام ملوك الطوائف والله أعلم .

باب فى قصة شمسون النبى عليه السلام

قال الله تعالى - إنا أنزلناه فى ليلة القدر - إلى قوله تعالى - خير من ألف شهر - أخبرنا أبو عمرو والعراقى بإسناده عن ابن أبى نجيح « أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا من بنى اسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر فتعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله تعالى - إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر - » التى لبس الرجل فيها السلاح فى سبيل الله تعالى .

أخبرنا عبد الله الضبي بإسناده عن وهب بن منبه : أن رجلا من أهل قرية من قرى الروم يقال له شمسون بن مسوح كان فيهم مسلما من أهل الانجيل ، وكانت أمه قد جعلته نذيرا ، وكان قومه أهل أوثان يعبدونها من دون الله ، وكان منزله منها على خمسة أميال ، وكان يغزوهم وحده ويجاهدهم فى الله فيقتل منهم ويسبى ويصيب الأموال ، وكان اذا قاتلهم لقيهم بالجحفة لا يلقاهم بغيرها ، وكان اذا قاتلهم وقتلوه فتعب وعطش انفجر له من الحجر ماء عذب فيشرب منه حتى يروى ، وكان قد أعطى قوة فى البطش ، وكان لا يوثقه حديد ولا غيره . فجاهدهم

في الله ألف شهر يصيب منهم حاجته ولا يقدر أن يمنه على شيء فاحتالوا عليه وقالوا لانا نأتيه إلا من قبل امرأته فجعلوا لها جملاً على ذلك فأجابتهم وقالت أنا أوثقه لكم فأعطوها حبلاً وثيقاً ، وقالوا لها إذا نام فأوثقي يديه إلى عنقه حتى نأتيه فنأخذ . فلما نام أوثقت يديه إلى عنقه بذلك الحب . فلما اتبته من نومه جذبه بيده فوق من عنقه . فقال لها لم فعلت ذلك ؟ فقالت له أجرب به قوتك ما رأيت مثلك قط ، فأرسلت اليهم وقالت لهم اني قد ربطته بالحبل فلم يغن عنه شيئاً فأرسلوا اليها بجامعة من حديد وقالوا لها اذناام فأجعلها في عنقه فلما نام جعلتها في عنقه ثم أحكمتها . فلما هب جذبها فوقعت من عنقه ويده فقال لها لم فعلت هذا قالت أجرب به قوتك ما رأيت مثلك قط فهل في الأرض شيء يغلبك قال لا الا شيء واحد قالت وما هو ؟ قال ما أنا بمخبرك به فلم تزل تسأله عن ذلك وكان ذا شعر طويل كثير فقال لها ويحك إن أمي كانت أخبرتنى أن لا يغلبني شيء أبداً ولا يغطيني الا شعري ، فلما نام أوثقت يده إلى عنقه بشعر رأسه فأوثقه ذلك فبعثت الى القوم فجاءوا وأخذوه فجذبوا أثقه وأذنيه وقفشوا عينيه وأوقفوه للناس بين ظهرا في المدينة وكانت مدينة ذات أساطين وكان ملكهم قد أشرف عليها هو والناس لينظروا إلى شمسون وما يصنع به فدعا الله شمسون حين مثلوا به وأوقفوه على الناس أن يسلطه عليهم ، فأمر أن يأخذ بعمودين من عمد المدينة التي عليها الملك والناس معه فيجذبهما جميعاً فجذبهما فانهارت المدينة بمن فيها فهلكوا فيها هسداً وهلك أيضاً امرأته معهم ورد الله تعالى عليه بصره وما أصابوا من جسده تاماً وعاد كما كان وكانت قصة شمسون في أيام ملوك الطوائف والله أعلم .

باب في قصة أصحاب الأخدود

قال الله تعالى — قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود — الآيات ، روى عطاء عن ابن عباس أنه كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شرحبيل في الفترة قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بسبعين سنة وكان له ساحر حاذق ، فلما كبر قال للملك اني قد كبرت فأبعث لي غلاماً أعلمه السحر ، فبعث اليه غلاماً يقال له عبدالله بن الساهر يعلمه السحر فكره الغلام ذلك ولم يجد بداً من طاعة الملك وطاعة أبيه فجعل يتخلف عن الساحر وكان في طريقه راهب حسن القراءة حسن الصوت ، فقعده الغلام عنده وسمع كلامه فأعجبه وكان يبطي عند الراهب ويأتي المعلم فيضربه ويقول له ما الذي حبسك ؟ وإذا انقلب إلى أبيه يجلس عند الراهب فيضربه أبوه ويقول له ما أبطأك ؟ فشكا الغلام ذلك إلى الراهب فقال له الراهب إذا أتيت المعلم فقل له حبسني أبي ، وإذا أتيت أباك فقل حبسني المعلم ، وكان في تلك البلاد حية عظيمة قد قطعت الطريق على الناس فمر بها الغلام ورمها بحجر وقال اللهم ان كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتلها فلما رماها قتلها ، فأتى الراهب وأخبره فقال له الراهب أنت قتلتها ،

قال نعم . قال ان لك لشأنا وقد بلغ من أمرك ما أرى واثك ستبتلى فاذا ابتليت فلا تدل على ، فكان الغلام يرى الأكمة والأبرص ويشفى المرضى ، وكان للملك ابن عم مكفوف البصر فسمع بالغلام وقتله الحية فجاءه مع قائد وقال له أنت قتلت الحية قال لا ، قال فمن قتلها قال الله تعالى . قال فمن الله قال رب السموات والأرض وما بينهما ورب الشمس والقمر والليل والنهار والدنيا والآخرة . قال ان كنت صادقا فادع الله أن يرده على بصري ، فقال له الغلام أرأيت ان رد الله عليك بصرك تؤمن بالله ؟ قال نعم ، قال اللهم ان كان صادقا فاردد عليه بصره فرجع إلى منزله بلا قائد ثم دخل على الملك ، فلما رآه تعجب منه وقال له من فعل هذا بك ؟ فقال الله . قال ومن الله ؟ قال رب السموات والأرض ، فقال له الملك أخبرني من علمك هذا ، فأبى فلم يزل يعذبه حتى دله على الغلام فجاء بالغلام فقال له الملك يا بني قد بلغ من سحرك هذا ، فقال له الغلام اني لا أشفى أحدا وإنما يشفى الله فلم يزل يعذبه حتى دله على الراهب فجاء بالراهب فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار ووضع في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقتين ، ثم جىء بابن عم الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار فشقه مثل ذلك ، ثم التفت إلى الغلام وقال له ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه وقال اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا واصعدوا به إلى ذروة الجبل فان رجع عن دينه والا فاطرحوه ، فذهبوا به إلى الجبل فقال اللهم اكنفهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا وهلكوا ، ثم جاء الغلام يمشى إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك فقال كفانيهم الله ، فعاظ الملك ذلك فدفعه إلى نفر من أصحابه وقال لهم اذهبوا به في قرقور وهي السفينة واطرحوه في البحر ولججوا به فيه فان رجع عن دينه والا فاقتفوه في البحر وأغرقوه فذهبوا به إلى البحر ، فقال الغلام اللهم اكنفهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك ما فعل أصحابك ؟ قال كفانيهم الله ، فقال الملك اقتلوه بالسيف فنبأ السيف عنه ، وفشا خبره في الأرض وعرفه الناس وعظموه وعلموا أنه هو وأصحابه على الحق ، ثم إن الغلام قال للملك انك لا تقدر على قتلى إلا أن تفعل ما أمرك به ، فقال وما هو ؟ قال تجمع أهل مملكتك وأنت على سريرك فتصلي على جذع وترمى بسهم وتقول باسم الله رب الغلام ، ففعل الملك ذلك ثم رماه وقال باسم الله فأصابه في صدغه فوضع يده عليه ومات ، فقال الناس لا اله الا الله آمنا بدين عبد الله بن السامري ولا دين الا دينه ، فلما آمن الناس برب العالمين رب الغلام ، قيل للملك قد والله نزل بك ما كنت تحذر فغضب الملك وأغلق أبواب المدينة وأخذ أفواه السكك وخد أخذودا وملاء نارا ، ثم عرض الناس عليه رجلا رجلا فمن رجع عن الاسلام تركه ، ومن لم يرجع ألقاه في الأخدود فاحترق ، وكانت امرأة قد أسلمت فيمن أسلم ولها أولاد ثلاثة أحدهم رضيع ، فقال لها الملك أترجعين عن دينك والا ألقيتك أنت وأولادك في النار فأبى فأخذ ابنها الأكبر فألقى في النار ، ثم أخذ الأوسط وقال لها ارجعي

عن دينك فأبت فألقى أيضا في النار ، ثم أخذ الرضيع وقال لها ارجعي ، فأبت فأمر بإلقائه في النار فهتت المرأة بالرجوع ، فقال لها الصبي الصغير يا أماء لا ترجعي عن الاسلام فانك على الحق ولا بأس عليك ، فألقى الصبي في النار وأمه على أثره ، وقد روى هذا بنحو ما ذكرنا مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسين بن جعفر المذكور بإسناده عن صهيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل معناه « وقد تكلم ستة في المهد شاهد يوسف الصديق عليه السلام ، وابن ماشطة بنت فرعون ويحيى بن زكريا وعيسى بن مريم وصاحب جريج الراهب وصاحب الأخدود »

وقال سعيد بن المسيب : كنا عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذ ورد عليه كتاب أنهم وجدوا ذلك الغلام بنجران وهو واضع يده على صدغه ، فكلما مدت يده عادت إلى الصدغ فكتب اليهم عمر واروه حيث وجدتموه ، وقال مقاتل كان أصحاب الأخاديد ثلاثة : واحد بنجران اليماني ، وآخر بالشام ، وآخر بفارس حرقوا بالنار ، أما الذي بالشام فأنطياخوس الرومي أحرق قوما من المؤمنين ، وأما الذي بفارس فهو يختصر .

وكانت قصته ما أخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده عن ابن أروى قال لما هزم المسلمون أهل الاسفندهار وانصرفوا جاءهم نعي عمر ، فاجتمعوا وقالوا أى شيء نجري على المجوس من الأحكام فانهم ليسوا بأهل كتاب وليسوا من مشركي العرب ، فقال عليّ كرم الله وجهه بل هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم ، وكانت الخمر قد أحلت لهم فتناولها ملك من ملوكهم فغلبت على عقله فتناول أخته فوق عليها ، فلما ذهب عنه السكر ندم وقال لها ويحك ما هذا الذي أتيت وما المخرج منه ، فقالت المخرج منه أنك تخطب الناس فتقول أيها الناس ان الله قد أحل لكم نكاح الأخوات إذا ذهب هذا في الناس تناسوا حرمة عليهم ، ققام فيهم خطيا فقال أيها الناس ان الله أحل لكم نكاح الأخوات ، فقال الناس بأجمعهم معاذ الله أن نؤمن بهذا ما جاءنا بهذا نبيّ ولا أنزل علينا في كتاب فرجع إلى أخته وقال ويحك ان الناس قد أبوا عليّ ، فقالت أبسط فيهم السوط فأبوا أن يقرأوا فقال لها ان الناس قد أبوا ، قالت فجرد فيهم السيف فأبوا أن يقرأوا ، قالت فخذ لهم الأخدود ثم اعرضهم عليه فمن تابعتك خلّ عنه ومن أبى فاقدفه في النار ، فخذ الأخدود وأوقد فيه النيران وعرض أهل مملكته على ذلك فمن أبى قدفه في النار ومن أجاب خلّى سبيله فأنزل الله تعالى فيهم - قتل أصحاب الأخدود - إلى قوله تعالى - عذاب الحريق - وأما الذي في اليماني فهو يوسف ذو نواس بن شرحبيل بن تبع بن يشرخ الحميري وقد ذكرنا قصته ، وذكر محمد بن اسحق بن بشار عن وهب بن منبه أن رجلا كان يقي على دين عيسى فوقع إلى نجران فدعاهم فأجابوه ، فخيرهم ذو نواس بين النار أو اليهودية فأبوا عليه ، فأحرق منهم

اثني عشر ألفا ، وقال مقاتل انما قذف في النار يومئذ سبعة وسبعين انسانا ؟ وقال السكبي
كان أصحاب الأخدود سبعين ألفا ، فلما قذفوا المؤمنين في النار خرجت النار إلى أعلى شفير
الأخدود فأحرقتهم وارتفعت النار فوقهم اثني عشر ذراعا ونجا ذو نواس ، فسلط الله عليهم
اريطا الحبشى حتى غلب على اليمن فخرج هاربا فاقترحم البحر فأغرقه الله فيه وفيه يقول عمرو بن

معد يكرب : أتوعدني كأنك نور عيني بأنعم عيشة أودونواس

وقدما كان قبلك في نعيم وملك ثابت في الناس راسي

فقدتم عهده من عهد عاد عظيم قاهر الجيروت قاسي

فأمسى أهله بادوا وأمسى ينقل في أناس من أناس

باب في قصة أصحاب الفيل وبيان ما فيها من الفضل والشرف لنبينا محمد ﷺ

قال الله تعالى - ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل - إلى آخر السورة ، قال محمد بن اسحق
ابن بشار كان من حديث أصحاب الفيل ما ذكر بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن
ابن عباس وعمن بقي من علماء اليمن وغيرهم ، أن ملكا من ملوك حمير يقال له زرعة ذو نواس
كان قد تهوّد واجتمعت معه حمير على ذلك إلا ما كان من أهل نجران فانهم كانوا على دين النصرانية
على حكم الانجيل ولهم رأس يقال له عبد الله بن السامر فدعاهم إلى اليهودية فأبوا ، فخيرهم
فاختاروا القتل فخذ لهم الأخدود وصنف لهم أصناف القتل ، فمنهم من قتل صبورا ، ومنهم من ألقى
في النار إلا رجلا من أهل سبا يقال له دوس بن ثعلبان ، فذهب على فرس له يركض حتى أعجزهم
في الرمل فأتى قيصر فذكر له ما بلغ منهم واستنصره فقال له بعدت بلادك عنا ولكني أكتبك إلى
ملك الحبشة فانه على ديننا فينصرك فكتب له إلى النجاشي يأمره بنصره فلما قدم على النجاشي بعث معه
رجلا من الحبشة يقال له ارياط ، فلما بعثه قال له : إن دخلت اليمن فاقتل ثلث رجالها وأخرب ثلث
بلادها وابعث إلى ثلث سباياها ، فلما دخلها ناوهم القتال فتفرّ قوا عن ذي نواس واقترحم به
فرسه فاستعرض به البحر فهلك جميعا فكان آخر العهد به ، ودخلها ارياط فعمل بما أمره
النجاشي ، فقال ذو جدن الحميري فيما أصاب أهل اليمن .

دعيني لا أبالك لم تطيق لحاك الله قد أنزفت ربي

بذا عزف القيان إذا انتشينا إذا نسق من الحمر الرحيق

وشرب الحمر ليس على عارا إذا لم يشكني فيها رفيق

وإن الموت لا ينهاه ناه ولو شرب الشفاء من النشوق

ولا مترهب في أسطوان يناطح جلده بيض الأنوق

وغمدان الذي نبئت عنه بنوء ممسكا في رأس نيق

لتممه وأسفله حروث وجر الموجل اللثق الزليق
مصاييح السليط يلحن فيه إذا يمسي كرمضان البروق
فأصبح بعد جدته رمادا وغير حسنه لهب الحريق
ونخلته التي غرست اليه يكاد البسر يهصر بالعنوق
وأسلم ذو نواس مستبينا وحذر قومه ضنك المضيق

قال : فأقام ارياط باليمن وكتب اليه النجاشي أن اثبت بجندك ومن معك فأقام حيناً ، ثم إن أبرهة بن الصباح ساخطه في أمر الحبشة حتى انصدعوا صدعين ، فكانت معه طائفة ومع أبرهة طائفة ثم تراخفا ، فلما دنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة إلى ارياط أنك لا تصنع شيئاً فلا نلق الحبشة بعضها على بعض ولكن اخرج إلى فأينا قتل صاحبه انضم اليه الجند ، فأرسل اليه أنك قد أنصفت ، ثم انهما خرجا وكان ارياط جسيماً عظيماً وسيماً في يده حربة ، وكان أبرهة رجلاً قصيراً حادراً لحماً وكان ذا دين في النصرانية وكان خلف أبرهة وزير يقال له عتودة ، فلما دنوا رفع ارياط الحربة فضرب بها رأس أبرهة فوقعت على جبينه فشرمت عينه وجبينه وأتفه وشفته ، فلذلك سمي أبرهة الأشرم ، فلما رأى عتودة ذلك حمل على ارياط فقتله فاجتمع الجيش على أبرهة ، فبلغ النجاشي ما صنع أبرهة فغضب عليه وحلف لا يدع أبرهة حتى يحجز ناصيته ويطأ بلاده . ثم إنه كتب إلى أبرهة إنك عدوت على أميري فقتله بغير أمري وكان أبرهة رجلاً مارداً . فلما بلغه قول النجاشي حلق رأسه وملاً جراباً من تراب أرضه وكتب إلى النجاشي أيها الملك انما كان ارياط عبدك وأنا عبدك اختلفنا في أمرك وكنت أعلم بامر الحبشة وأسوس لها وكنت أردته أن يعتزل فأبى فقتلته . وقد بلغني الذي حلف عليه الملك وقد حلفت رأسي وبعث به اليك وملاأت جراباً من تراب أرضي وبعثته اليك ليطأه الملك فير قسمه . فلما انتهى اليه ذلك رضى عنه وأقره على عمله وكتب اليه بأن اثبت بمن معك من الجند . ثم إن أبرهة بنى كنيسة بصنعاء يقال لها القليس . ثم انه كتب الى النجاشي إني قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يبن الملك مثلها قط . ولست منتهياً حتى أصرف اليها حج العرب . فسمع بذلك رجل من بني مالك بن كنانة فخرج الى القليس . فدخلها ليلاً فقدر فيها تهاونا بها وتغضباً للكعبة ، فبلغ ذلك أبرهة ويقال إنه أتاها ناظر اليها فدخلها فوجد العذرة فيها ، فقال من اجتراً على هذا ؛ فقيل فعل هذا رجل من العرب من أهل ذلك البيت الذي يحجونه سمع بالذي قلت فصنع هذا ، فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها فخرج سائراً من الحبشة إلى مكة وأخرج معه القليل ، فبلغ ذلك العرب فأعظموه وفضعوا به ورأوا جهاده حقاً عليهم ، فخرج ملك من ملوك حمير يقال له ذو ثور بن أطاعه من قومه فقاتله فهزمه وأخذ ذو ثور فأتى به أبرهة ، فقال له أيها الملك لا تقتلني فإن استبقاءك لي خير لك من قتلي فاستحياء وأوثقه وكان أبرهة رجلاً حليماً ، ثم خرج سائراً حتى إذا دنا من ديار خثعم خرج اليه نفيل بن

حبیب الخثعمی فی قبیلتي خثعم وهما شهران وناهش ومن اجتمع اليه من قبائل اليمن ققاتلوه فهزمهم وأخذ نفيلا أسيرا ، فقال له أيها الملك إني دليلك بأرض العرب فلا تقتلني ، وها أنا أنادي على قومي بالسمع والطاعة لك فاستبقاه وخرج معه يدله حتى إذا مر بالطائف فخرج اليه مسعود بن مغيث الثقفي في رجال من ثقيف وقال له أيها الملك : إنما نحن عبيدك فليس لك عندنا خلاف ، وليس بيننا هذا الذي تريد يعني به اللات إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه ، فبعثوا أبا رغال مولاهم فخرجوا حتى إذا كانوا بالمغمس مات أبو رغال فهو الذي ترجم قبره العرب وبعث أبرهة من المغمس رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مفضوذ على مقدمة خيله فجمع اليه أموالا وأصاب لعبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتي بعير ، ثم إن أبرهة بعث حناطة الحميري إلى أهل مكة سفيرا ، فقال له سل عن شريفها ثم أبلغه أنني لم آت لقتال إنما جئت لأهدم هذا البيت ، فانطلق حناطة حتى دخل مكة فلقى عبد المطلب بن هاشم فقال له : إن الملك أرسلني اليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقتلوه إنما آتى لأهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم ، فقال عبد المطلب سنخلى بينه وبين ما جاء له فان هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه فهو بيته وخرمه ، وإن نخل بينه وبين ذلك فهو كذلك فوالله نالنا به قوة . قال فانطلق معني إلى الملك ، فزعم بعض العلماء أنه أودقه على بغلة له كان راكبا عليها وركب معه بعض بنييه حتى قدم المعسكر ، وكان ذو نفر صديقا لعبد المطلب فأتاه فقال له يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ، فقال ما غناء رجل أسير لا يأمن من أن يقتل بكرة أو عشية ولكني سأبعث لك إلى أنيس مائتين الفيل فانه صديق لي ، فأسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع اليه من الخير ، ويعظم منزلتك وحظك عنده . قال فأرسل إلى أنيس فأتاه ، فقال له إن هذا سيد قريش وصاحب غير مكة يعطى ويطعم الناس من السهل والجبل والوحش والطير في رؤوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتي بعير ، فإن استطعت أن تنفعه عنده فانفعه فانه صديق لي وإني أحب ما يصل اليه من الخير ، ثم إن أنيسا دخل على أبرهة هو وعبد المطلب فقال له : أيها الملك هذا سيد قريش وصاحب غير مكة الذي يطعم الناس في السهل والجبل والطير والوحش في رؤوس الجبال ، وقد جاءنا غير ناصب لك حربا ولا يخالف عليك يستأذن عليك وأنا أحب أن تأذن له فيكلمك فأذن له ، وكان عبد المطلب رجلا جسيما وسيما ، فلما دخل عليه جلس بين يديه فأقامه وأجلسه معه على السرير ، ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك ، فقال له الترجمان ذلك ، فقال له عبد المطلب : حاجتي أن يرد علي مائتي بعير أصابها لي ، فقال أبرهة لترجمانه قل له لقد كنت أعجبني حين رأيتك ولقد زهدت فيك الآن ، فقال له ولم ؟ قال حيث جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك لأهدمه لم تكلمني فيه وتكلمني في مائتي بعير أصبتها ، فقال له عبد المطلب قل له أنا رب هذه الإبل ولهذا البيت رب سيمعه منك ، قال ما كان ليمعه مني ؟ فقال له أنت وذاك ، ثم أمر له بإبله فردت عليه ، قال محمد بن اسحق .

وكان فيما يزعم بعض أهل العلم أن عبد المطلب قد ذهب إلى أبرهة بعمر بن معدى كرب بن الدليل ابن بكر بن عبد مناف بن كنانة وهو يومئذ سيد بني كنانة وخويلد بن وائلة الهذلي وهو يومئذ سيد هذيل فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى أن يرجع . قال فلما ردت الابل على عبد المطلب ، رجع فأخبر قريشا الخبر وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب ويتحرزوا في رءوس الجبال تخوفا عليهم من معرة الجيش إذا دخل ، ففعلوا ذلك ثم أتى عبد المطلب إلى الكعبة فأخذ حلقة الباب وجعل يقول :

يارب لا أرجو لهم سواك	يارب فامنع منهم حماك
إن عدو البيت من عاداكا	فامنعهم أن يخربوا قراكا
ولاهم إن المرء يه	نع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصلي	ب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليهم	ومحالمهم أبدا محالك
جروا جموع بلادهم	والفيل كي يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم	جهلا ومارقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وكه	بتنا فأمر ما بدا لك

ثم إن عبد المطلب ترك الحلقة وتوجه في بعض الوجوه مع قومه وأصبح أبرهة بالمعس وقد تهيأ لدخول مكة وعبي جيشه وهياً فيله ، وكان اسم الفيل محمودا وكان من قبل النجاشي بعثه إلى أبرهة ؛ وكان فيلا لم يرمثله في الأرض عظما وقوة وجسما ، وقال الكلبي لم يكن عندهم إلا ذلك الفيل الواحد فلذلك قال الله تعالى - ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل - . قال الضحاك كانت الفيلة كثيرة ؛ ويقال كان معه اثنا عشر فيلا وانما وحد (١) على هذا التأويل لوفاق رءوس الآي ويقال نسبهم إلى الفيل الأعظم ؛ قال فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم فأخذ باذنه وقال : ابرك محمودا أوارجع راشدا من حيث جئت فانك في بلد الله الحرام ؛ فبرك الفيل فبعثوه فأبى أن يقوم فضربوه بالمعول في رأسه فأبى ؛ فأدخلوا محاجنهم تحت مراقه ومراقه ورفعوه ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول ثم وجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ثم وجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ؛ فصرفوه إلى الحرم فبرك وأبى أن يقوم ؛ ثم إن نفيلاً خرج من عندهم وصعد في الجبل وأرسل الله تعالى طيرا من البحر كأمثال الخطاطيف مع كل طير منهم ثلاثة أحجار حيران في رجليه وحجر في منقاره أمثال الحمص والغدس فلما غشيت القوم أرسلتها عليهم فلم تصب تلك الحجارة أحدا الاهلك وليس كل القوم أصابت فذلك قوله تعالى - طيرا أبابيل - أي متفرقة من ههنا وههنا ، قال ابن عباس كان لها خراطيم كخراطيم الطيور وأكف كأكف الكلاب . وقال عكرمة كان لها

(١) (قوله وانما وحد الخ) المراد أن الافراد في الآية على هذا القول لوفاق رءوس الآي .

رءوس كراءوس السباع ولم تر قبل ذلك ولا بعده ، وقال ربيع لها أنياب كأنياب السباع ، وقال سعيد بن جبير طير خضر لها مناقير صفر وقال أبو الجوزاء أنشأها الله في الهواء في ذلك الوقت - ترميهم بحجارة من سجيل - أى سنك كل (١) . قال ابن مسعود صاحت الطير ورمتهم بالحجارة وبعث الله ريحا فضربت الحجارة فزادتها قوة فما وقع منها حجر على جنب رجل الاخرج من الجانب الآخر ، وإذا وقع على رأس رجل خرج من دبره - فجعلهم كعصف مأكول - أى كزرع قد أكل حبه وبقي تبنة ، فلما رأيت الحبشة ذلك خرجوا هارين يتدرون الطريق الذى جاء وامنه ويسألون عن ثقل بن حبيب ليدلهم على الطريق ، فقال ثقل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمة :

أين المفر والاله الطالب والأشرم المغلوب غير الغلب
وقال أيضا في ذلك

ألا حيث عنا ياردينا	نعمنا كم مع الاصباح عينا
ردينة لو رأيت ولم تربه	لدى جنب المحصب مارأينا
إذا لعذرتى وحمدت أمرى	ولم تأس على ما فات بينا
حمدت الله إذ عاينت طيرا	وخفت حجارة ترمى علينا
وكل القوم يسأل عن ثقل	كان على للحبشان دينا

وذكر زياد عن عبد الله بن عمر أن طير الأبايل كانوا أقبلوا من قبل البحر لرجال الهند ترميهم بحجارة أصغرها مثل رءوس الرجال وأكبرها كالابل البرل مارمت أصابت وما أصابت قتلت ، وثقل ينظر اليهم من بعض تلك الجبال ، وقد خرج القوم وصاح بعضهم على بعض فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل وبعث الله تعالى على أبرهة داء في جسده فجعل تتساقط أنامله كلما سقطت أنملة أتبعها أنملة وقبح ودم فاتمى الى صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فيما بقى من أصحابه فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ثم هلك ، وزعم مقاتل بن سليمان أن السبب الذى جر حديث أصحاب الفيل هو أن فئة من قريش خرجوا تجارا الى أرض النجاشى فساروا حتى دنوا من ساحل البحر وفي سندها حقف من أحقادها يعة للنصارى تسميها قريش الهيكل ويسميها النجاشى وأهل أرضه الساسر خسان فنزل القوم في سندها فجمعوا حطباً وأججوا نارا واشتوا الحما ، فلما ارتحلوا تركوا النار كما هي في يوم صائف فعبت الرياح فاضطرم الهيكل نارا وانطلق الصريخ الى النجاشى فأخبروه فأسف عند ذلك غضبا للبيعة فبعث أبرهة لهدم الكعبة ، وكان بمكة يومئذ أبو مسعود الثقفى ، وكان مكفوف البصر يصيف بالطائف ويشتو بمكة ، وكان رجلا نبيا نبيل عاقلا ، وكان لعبد المطلب خليلا ، فقال عبد المطلب يا أبا مسعود هذا يوم لا نستغنى فيه عن

(١) (قوله أى سنك كل) لفظ فارسي معربه سجيل .

عن رأيك فما رأيك ؟ فقال أبو مسعود لعبد المطلب اعمد الى مائة من الابل فاجعلها هديا لله تعالى وقلدها نعلا وأثبتها في الحرم لعل بعض هؤلاء السودان يعقر منها فيغضب رب هذا البيت فيأخذهم ففعل ذلك عبد المطلب فعمد القوم الى تلك الابل فحملوا عليها وعقروا بعضها وجعل عبد المطلب يدعو فقال أبو مسعود : ان لهذا البيت ربا سيمنعه ، فقد نزل تبع ملك اليمن بصحراء هذا البيت وأراد هدمه فمنعه الله وابتلاه وأظلم عليه ثلاثة أيام . فلما رأى ذلك تبع كساه القباطي البيض وعظمه ونحر له جزرا . ثم قال أبو مسعود لعبد المطلب انظر إلى بحر اليمن هل ترى شيئا ؟ فقال أرى طيرا أيضا نشأت من جانب البحر وحلقت على رؤوسنا . فقال له هل تعرفها ؟ فقال عبد المطلب والله ما أعرفها ما هي بنجدية ولا تهامية ولا عريية ولا شامية وإنما تطير بأرضنا غير مؤنسة ، قال ما قدرها قال أمثال العباسي في مناقيرها حتى كأنها حتى الحذف قد أقبلت كالليل المظلم يتبع بعضها بعضا أمام كل فرقة طير يقودها أحمر المنقار أسود الراس طويل العنق فجاءت حتى إذا حاذت عسكر القوم ركبت فوق رؤوسهم فلما توافت الرجال كلها بحياهم أهالت الطير ما في مناقيرها على من تحتها مكتوب على كل حجر اسم صاحبه ثم إنها رجعت من حيث جاءت ، فلما أصبح عبد المطلب وأبو مسعود انحطا من ذروة الجبل فمشيا ربوة فلم يؤنسا أحدا ثم إنهما مشيا فلم يسما حسا فقالا لبعضهما بات القوم سامدين فأصبحوا نياما ، فلما دنوا من معسكر الفيل فاذا هم خامدون ، وكان الحجر ينزل على بيضة أحدهم فيفجرها ويقطع في دماغه ويحرق الفيل والدابة وينيب الحجر في الأرض من شدة وقعه ، ثم إن عبد المطلب أخذ فأسا وحفر حتى أعظم في الأرض فملاها من الذهب الأحمر والجوهر الجيد ، ثم حفر لصاحبه حفرة فملاها ، ثم قال لأبي مسعود هات خاتمك وأخيرك فاختر فان شئت أخذت حفرتي وان شئت أخذت حفرتك وان شئت فهما لك معا . فقال له أبو مسعود اختر لي على نفسك . فقال عبد المطلب اني جعلت أجود المتاع في حفرتي فهو لك ؛ ثم جلس كل واحد منهما على حفرته ونادى عبد المطلب في الناس فرجعوا وأصابوا من فضلها حتى ضاقوا بذلك فخرعا وساد عبد المطلب بذلك على قريش وأعطته الرياسة فلم يزل أبو مسعود وعبد المطلب غنيين من ذلك المال إلى أن ماتا .

وقال الواقدي بأسانيد : غزا النجاشي أرياط في أربعة آلاف إلى اليمن فغلب عليها فأكره الملوك واستذل الفقراء فقام رجل من الحبشة يقال له أبرهة الأشرم أبو يكسوم فدعا إلى طاعته فأجابوه فقتل أرياط وغلب على اليمن فرأى الناس يتجهزون أيام الموسم للحج فسأل أين تذهب الناس ؟ فقل يحجون بيت الله بمكة ؛ قال فما هو قالوا من حجر قال فما كسوته قالوا ما يأتي من ههنا من الوصائل . فقال والمسيح لأبين خيرا منه فبنى لهم بيتا بالرخام الأبيض والأسود والأحمر والأصفر وحلاه بالذهب والفضة وحفه بالجواهر وجعل له أبوابا عليها صفائح الذهب ومسامير الذهب وورصها (٢٦ - قصص الأنبياء)

بالجواهر وجعل فيها يا قوتة حمراء وجعل لها حجابا وكان يوقد بالمندل ويلطخ جدرانه بالمسك حتى
تغيب الجواهر وأمر الناس بحججه فحججه كثير من قبائل العرب سنين ، ومكث فيه رجال يتعبدون
ويتنسكون ، فأمهل قيل الخثعمي حتى كان ليلة من الليالي لم ير أحدا يتحرك فجاء بعذرة فلطخ
بها قبلته وألقى فيه الجيف فأخبر أبرهة بذلك فغضب أبرهة غضبا شديدا وقال انما فعلت العرب
ذلك غيظا لأجل نيتهم ؛ ثم انه قال لأتقضنه حجرا حجرا . ثم انه كتب الى النجاشي يخبره بذلك
ويسأله أن يبعث اليه بفيله محمود ، وكان قبله لم يرمثله في الأرض عظماء وجسم وقوة فبعثه اليه فغزا
اليث كما ذكرنا إلى أن قال أقبلت الظير من البحر أبابيل مع كل طير ثلاثة أحجار حجران في
رجليه وحجر في منقاره فقفزت الحجارة عليهم لا تصيب شيئا إلا هشمته ، وبعث الله ميلا آتى عليهم
فذهب بهم إلى البحر فالتقاهم فيه وولى أبرهة ومن معه هاربا فجعل أبرهة يسقط عضوا عضوا
حتى مات وأما محمود فيل النجاشي فربض ولم يشجع على الحرم فنجا ، وأما القيلة الأخر فتشجعت
فحصبت وهلكت وهو أول وقت رؤى عليه الجدرى والحصبة وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك

إن آيات ربنا بينات بما يمارى بهن إلا الكفور
حبس الفيل بالنميس حتى ظل يحبو كانه معقور
جوله من رجال كئيدة فتيا من مصاليت في الحروب صقور
غادروه وقد تولوا سراعا كلهم عظم ساقه مكسور

وقال السكبي لما أهلكهم الله بالحجارة لم يفلت منهم إلا أبرهة الأشرم بن يكسوم فسار وطائر
يطير فوقه ولم يشعر به حتى دخل على النجاشي فأخبره بما أصابهم فما استم كلامه حتى رماه طائر
فسقط ميتا فأرى الله النجاشي كيف كان هلاك أصحابه .

وقال الواقدي : كان أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمن النبي ﷺ وآمن به .
واختلفوا في تاريخ عام الفيل فقال مقاتل : كان أمر الفيل قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم
بأربعين سنة وقال عبيد بن عمير والسكبي كان قبل مولده ثلاث وعشرين سنة ، وقال آخرون كانت
قصة الفيل في العام الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعلى هذا أكثر العلماء وهو الصحيح
يبدل عليه ما أخبرنا أبو بكر الجوزي قال : حدثنا عبد العزيز بن أبي ثابت الزبير حدثنا بن موسى عن
أبي الجوزاء قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول لغيث بن أسيم الكنانى يا غياث أنت أكبر أم
رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر منى وأنا أسن منه ولله
رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل ووقفت في أمي على روث الفيل . ويبدل عليه أيضا ما روى
أن عائشة رضي الله عنها قالت رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان .

فلما كفى الله أمر أصحاب الفيل عظمت العرب قريشا وقالوا هم أهل الله وإن الله قاتل عنهم
وكفاهم مؤنة عدوهم والله عز وجل أعلم وأحكم وحسبنا الله ونعم الوكيل آمين

فهرس

قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس

صفحة	
٢	خطبة الكتاب
باب	في ذكر بعض وجوه الحكمة في تفصيله تعالى أخبار الماضين على سيد المرسلين
٣	مجلس
الباب الأول	في بدء خلق الأرض وكيفيتها
٥	الباب الثاني
٧	الباب الثالث
٨	الباب الرابع
٩	الباب الخامس
١٠	الباب السادس
١١	الباب السابع
١٢	مجلس
١٣	الباب الأول
١٤	الباب الثاني
١٥	الباب الثالث
١٦	الباب الرابع
١٧	الباب الخامس
١٨	الباب السادس
١٩	الباب السابع
٢٠	مجلس
٢١	مجلس
٢٢	الباب الأول
٢٣	الباب الثاني
٢٤	الباب الثالث

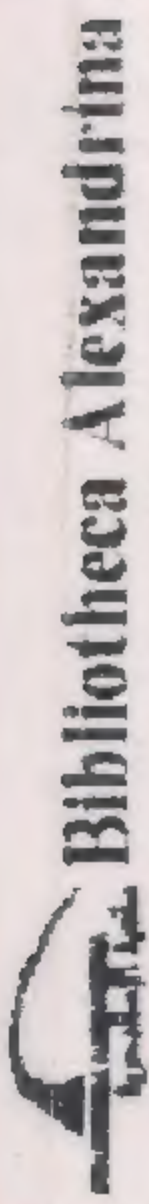
- ٢٥ الباب الرابع في صفة خلق حواء عليها السلام
- ٢٦ الباب الخامس في ذكر امتحان الله تعالى آدم عليه السلام وما كان منه في ذلك
- ٣٠ الباب السادس في حال آدم بعد هبوطه إلى الأرض وما كان منه
- ٣٥ الباب السابع في ذكر هبوط إبليس لعنه الله إلى الأرض وحاله فيها بعد اللعنة
- ٣٦ الباب الثامن في ذكر ما روى من الأخبار فيمن تراءى له إبليس فرآه عيانا وكله شفاها
- ٣٧ الباب التاسع في قصة قاييل وهابيل
- ٤١ الباب العاشر في ذكر وفاة آدم عليه السلام
- ٤٢ باب في الخصائص التي خص الله بها آدم عليه السلام
- مجلس في ذكر النبي ادريس عليه السلام
- ٤٣ قصة هاروت وماروت ٤٦ مجلس في قصة نوح عليه السلام
- ٥٢ ذكر خصائص نوح عليه السلام ٥٣ مجلس في قصة هود عليه السلام
- ٥٧ مجلس في قصة صالح عليه السلام
- ٦٣ مجلس في قصة ابراهيم عليه السلام والنمرود وهو يشتغل على أبواب
- الباب الأول في مولد ابراهيم عليه السلام
- ٦٥ الباب الثاني في خروج ابراهيم عليه السلام من السرب ورجوعه إلى قومه الخ
- ٦٩ الباب الثالث في ذكر مولد اسماعيل واسحق عليهما السلام ونزول اسماعيل وأمه هاجر الحرم
- وقصة بثر زمزم ٧٣ الباب الرابع في القول على بقية قصة زمزم
- ٧٥ الباب الخامس في صفة بناء الكعبة وبدء أمرها إلى وقتنا هذا
- ٨٠ الباب السادس في ذكر أمر الله تعالى خليله ابراهيم عليه السلام بذبح ولده
- ٨٢ قصة الذبح وصفته وفعل سيدنا ابراهيم بابنه عليهما السلام
- ٨٤ الباب السابع في هلاك النمرود بن كنعان وقصة بنائه الصرح
- ٨٥ الباب الثامن في ذكر وفاة سارة وهاجر وذكري وفاة أزواج ابراهيم وولده
- الباب التاسع في ذكر وفاة ابراهيم عليه السلام
- ٨٦ الباب العاشر في ذكر خصائص ابراهيم عليه السلام
- ٨٨ مجلس في ذكر بعض أخبار اسماعيل واسحق ابني ابراهيم عليهما السلام
- ٩٠ مجلس في قصة لوط عليه السلام
- ٩٤ مجلس في قصة يوسف بن يعقوب وأخوته عليهم الصلاة والسلام وفيه بابان
- الباب الأول في ذكر نسبه عليه الصلاة والسلام

صفحة	
٩٥	الباب الثاني في صفة يوسف عليه الصلاة والسلام وحليته ونعت خلقه وصفة صورته
٩٦	القول في القصة
١٢٦	مجلس في قصة موسى بن ميثا بن يوسف عليه السلام
	مجلس في ذكر بقية عاد وقصة شديد وشداد وصفة ارم ذات العماد
١٣١	مجلس في ذكر قصة أصحاب الرس ١٣٥ مجلس في قصة نبي الله أيوب وبلائه عليه السلام
١٤٤	مجلس في قصة ذي الكفل عليه السلام ١٤٥ مجلس في قصة شعيب النبي عليه السلام
١٤٧	مجلس في ذكر صفي الله ونجيه موسى بن عمران عليه السلام وهو يشمل على أبواب
	الباب الأول في ذكر نسبه عليه السلام الباب الثاني في ذكر مولده عليه السلام
١٥٢	الباب الثالث في ذكر حلية موسى وهارون عليهما السلام
	الباب الرابع في قصة قتله القبطى وخروجه من مصر ووروده مدين
١٥٤	الباب الخامس في دخول موسى مدين وتزويج شعيب ابنته اياه
١٥٥	الباب السادس في ذكر نعت عصا موسى وبدء أمرها
١٥٦	الباب السابع في صفة المآرب التي كانت له فيها
١٥٧	الباب الثامن في ذكر خروج موسى عليه السلام من مدين وتكليم الله إياه في الطريق وارساله إلى فرعون واستعائه بأخيه هرون وكيفية ذهابهما إلى فرعون لتبليغ الرسالة
١٦١	الباب التاسع في ذكر دخول موسى وهارون على فرعون
١٦٣	الباب العاشر في قصة موسى وهرون مع فرعون والسحرة وخروجهم يوم الزينة الخ
١٦٦	الباب الحادى عشر في قصة حزقيل مؤمن آل فرعون وامراته ومقتله وأولاده
	الباب الثانى عشر في ذكر آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومقتلها
١٦٧	الباب الثالث عشر في بناء الصرح
١٦٨	الباب الرابع عشر في ذكر الآيات التي ابتلى الله بها فرعون وقومه الخ
١٦٩	باب في صفة تنزيل هذه الآيات وتفصيلها وكيفيتها
١٧٠	فصل في بعض ماورد من الأخبار الغريبة في الجزاد
١٧٣	الباب الخامس عشر في قصة اسراء موسى عليه السلام بينى اسرائيل وخبر فلق البحر لهم
١٧٧	الباب السادس عشر في قصة ذهاب موسى إلى الجبل لميقات ربه وصفة ايتاء الله تعالى له الألواح الخ
١٨٠	فصل في نسخة العشر الكلمات التي كتبها الله تعالى لموسى نبيه الخ
١٨٤	باب في ذكر قصة بنى اسرائيل وهرون مع السامري حين اتخذ لهم العجل
١٨٨	باب في قصة قارون حين عصى ربه الخ
١٩٢	باب في قصة موسى حين لقي الخضر وما جرى بينهما من العجائب الخ

- ١٩٤ فصل في ذكر جمل من أخبار الخضر عليه السلام وأحواله
- ١٩٥ فصل في بدء أمر الخضر عليه السلام
- ٢٠٤ باب في ذكر قصة عاميل قتل بني اسرائيل وقصة البقرة
- ٢٠٧ باب في ذكر بناء بيت المقدس والقربان والتابوت والسكينة وصفة النار التي كانت تأكل القربان الخ
- ٢٠٩ باب في ذكر مسير بني اسرائيل إلى الشام حين جاوزوا البحر وصفة حرب الجبارين الخ
- فصل في فضل الشام وأهله
- ذكر قصة بلعام بن باعوراء
- ٢١٣ باب في ذكر النقباء الذين اختارهم موسى ليكونوا كفلاء على قومهم الخ
- فصل في ذكر جمل من أخبار عوج بن عنق وأحواله
- ٢١٥ باب في ذكر النعمة التي أنعم الله بها على بني اسرائيل في التيه الخ
- ٢١٧ باب فتح أريحاء ونزول بني اسرائيل الشام
- ٢١٨ قصة وفاة هرون عليه السلام
- ذكر وفاة موسى عليه السلام
- ٢٢١ مجلس في ذكر الأنبياء والملوك الذين قاموا بأمر بني اسرائيل بعد يوشع وقصة كالب عليه السلام
- ذكر خبر حزقيل عليه السلام
- ٢٢٣ باب في قصة الياس عليه السلام
- ٢٢٩ قصة اليسع عليه السلام
- ٢٣١ مجلس في قصة ذي الكفل عليه السلام
- ٢٣٢ مجلس في قصة عيلي وشمويل وهي تشتمل على أبواب كثيرة الخ
- فصل في سياق الآية ومقدمة القصة
- ٢٣٣ القول في بدء أمر شمويل وصفة نبوته الخ
- ٢٣٥ ذكر قصة الملك طالوت واتبان التابوت وحرب جالوت وما يتعلق به
- ٢٣٦ قصة التابوت وصفته وابتداء أمره إلى انتهائه
- ٢٣٨ باب في قصة شمويل حين أوحى الله اليه أن يأمر طالوت بالمسير إلى قتال جالوت مع بني اسرائيل وصفة نهر الابتلاء
- ٢٣٩ باب في ذكر أمر داود وخبر جالوت وصفة قتله
- ٢٤١ ذكر بقية قصة طالوت وما كان منه إلى داود عليه السلام بعد قتل جالوت
- ٢٤٤ مجلس في خلافة داود عليه السلام وما يتعلق بها
- باب في ذكر نسبه
- باب في ذكر صفته وحليته
- باب في ذكر ما خص الله تعالى به نبيه داود عليه السلام من الفضل الخ

صفحة	
٢٤٨	باب في قصة داود عليه السلام حين ابتلى بالخطيئة وما يتصل بذلك
٢٥٤	باب في ذكر خروج ابن داود على أبيه وما كان من أمرهما
٢٥٥	باب في قصة أصحاب السبت
٢٥٧	باب في قصة داود وسليمان عليهما السلام في الحرب
	باب في قصة استخلاف داود ابنه سليمان وذكر بدء أمر الخاتم
٢٥٩	باب في ذكر وفاة داود عليه السلام
٢٦٠	مجلس في قصة سليمان عليه السلام وما يتعلق به
	باب في صفة حليته عليه السلام
	باب فيما خص الله به نبيه سليمان عليه السلام حين ملكه من أنواع المناقب والواهب وغير ذلك
٢٧٠	حديث القبة
٢٧١	قصة مدينة سليمان عليه السلام التي كان ينسافر بها في الهواء
٢٧٢	صفة كرسي سليمان عليه السلام
٢٧٣	صفة بنيانه وبدء أمره
٢٧٦	باب قصة بلقيس ملكة سبأ والمهدي وما يتصل به
٢٧٩	صفة القصر الذي بنته بلقيس
	صفة عرشها
٢٨٧	باب في ذكر غزوة سليمان عليه السلام أباً زوجته الجرادقة وخبر الشيطان الذي أخذ خاتمه من يده وسبب زوال ملكه
٢٩١	باب في ذكر وفاة سليمان عليه السلام
٢٩٣	مجلس في قصة مختصر وما يتصل به
	قصة شعيا عليه السلام
٢٩٨	قصة أرميا عليه السلام
٣٠٣	قصة دانيال عليه الصلاة والسلام
٣٠٤	خبر وفاة دانيال عليه السلام
٣٠٧	باب في ذكر الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها
٣٠٩	باب في ذكر تمام قصة عزير عليه السلام وحاله بعد ما رجع إلى قومه
٣١٠	مجلس في ذكر غزوة مختصر العرب وقصة يوحنا وخراب حضور
٣١٢	مجلس في ذكر لقمان الحكيم عليه السلام وذكر بعض مواعظه وحكمته ووصيته لابنائه
٣١٣	باب في ذكر بعض ما روي من حكم لقمان ومواعظه المذكورة في القرآن
٣١٥	مجلس في قصة بلوقيا

- ٣٢٢ مجلس في ذكر قصة ذى القرنين عليه السلام باب في نسبه ولقبه عليه السلام
- ٣٢٣ باب في قصة ذكر بدء أمره وسبب استكمال ملكه
- ٣٢٤ باب في ذكر الحوادث التي كانت في أيام ذى القرنين بعد قتل دارا ووصف مسيره إلى البلاد والآفاق
- ٣٢٧ باب في صفة سد ذى القرنين وما يتعلق به
- ٣٢٩ باب في دخول ذى القرنين الظلمات مما يلي القطب الشمالي لطلب عين الحياة
- ٣٣٣ مجلس في قصة زكريا وابنه يحيى ومريم وعيسى عليهم السلام
- نسب زكريا عليه السلام باب في ذكر مولد مريم عليها السلام وخبر تحريرها
- ٣٣٦ باب في مولد يحيى بن زكريا عليه السلام ٣٣٨ باب في صفته وحليته عليه السلام
- فصل في نبوته وسيرته وذكر زهده وجهده
- ٣٤٠ باب في مقتله عليه السلام ٣٤١ ذكر مقتل زكريا عليه السلام
- ٣٤٢ مجلس في مولد عيسى عليه السلام وفي حمل مريم به وما يتصل به
- ٣٤٤ باب في ذكر ميلاده عليه السلام
- ٣٤٦ باب في رجوع مريم بابنها عيسى عليه السلام بعد ولادتها إياه إلى جماعة قومها من بيت لحم
- ٣٤٧ باب في ذكر خروج مريم وعيسى عليهما السلام إلى مصر
- ٣٤٨ باب في صفة عيسى وحليته عليه السلام
- باب في ذكر الآيات والمعجزات التي ظهرت لعيسى عليه السلام في صباه إلى أن نبى
- ٣٥٠ باب في ذكر رجوع مريم وعيسى عليهما السلام إلى بلدهما بعد موت هردوس
- ٣٥١ باب في قصة الحوارين عليهم السلام
- ٣٥٢ ذكر خصائص عيسى عليه السلام والمعجزات التي ظهرت على يديه بعد بعثته إلى أن رفع صلوات الله وسلامه عليه ٣٥٥ ذكر حديث جامع في هذا الباب
- ٣٦١ ذكر نزول عيسى من السماء بعد رفعه بسبعة أيام ٣٦٢ ذكر وفاة مريم ابنة عمران عليهما السلام
- ٣٦٣ ذكر نزول عيسى عليه السلام من السماء في المرة الثانية في آخر الزمان
- باب في قصة الرسل الثلاثة الذين بعثهم عيسى عليهم السلام إلى انطاكية وذلك في أيام ملوك الطوائف
- ٣٦٦ قصة يونس بن متى عليه السلام ٣٧٠ باب في قصة أصحاب الكهف
- ٣٨٦ مجلس في ذكر جرجيس عليه السلام
- ٣٩٢ باب في قصة شمسون النبي عليه السلام ٣٩٣ باب في قصة أصحاب الأخدود
- ٣٩٦ باب في قصة أصحاب القيل ويان ما فيها من الفضل والشرف لسيدنا ونبينا محمد ﷺ
- (نمت)



Bibliotheca Alexandrina



0686783